

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية

الجزء الأول

١٥٠٠ ـ ١٨٤٠





عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية

الجزء الأول

١٥٠٠ ـ ١٨٤٠





للمؤلف

1. **بريطانيا وإمارات الساحل العماني**، دراسة وثائقية، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1978 م.
2. **التوسع الإقليمي لإيران في إمارات الساحل العماني**، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1979 م.
3. **حكومة الهند والإدارة في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
4. **السلام البريطاني في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
5. **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي** (1914-1868م)، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1982.
6. **علاقة ساحل عمان ببريطانيا**، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز الرياض، 1982.
7. **أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1988.
8. **صراع الأمراء، علاقة نجد بالقوى السياسية في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1991.
9. **نجديون وراء الحدود** (1950-1750)، دار الساقي، لندن، 1991.
10. **حبال ودمى، بداية العلاقات العربية الأمريكية**، دار الأصالة، الخرطوم، 1992.
11. **أهل بلال، جذور الإسلام التاريخية في الحبشة**، الدار السودانية، الخرطوم، 1995.
12. **محاضرات في تاريخ أوروبا بين النهضة والثورة الفرنسية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
13. **محاضرات في تاريخ النهضة الأوروبية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
14. **التاريخ، تاريخه وتفسيره وكتابته**، الدار السودانية، الخرطوم، 1999.
15. **من الوثائق العثمانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000.
16. **من المصادر البريطانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
17. **من وثائق الأرشيف المصري في تاريخ الخليج وشبه الجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
18. **تاريخ عمان (ترجمة رحلة ولستد في عمان)**، دار الساقي، بيروت، 2001.
19. **أبو ظبي، توحيد الإمارة وقيام الاتحاد**، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، 2004.



الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-1-85516-851-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi


دار الساقي


Dar Al Saqi

الإهداء

إلى عبد العزيز بن سعود

عاش في الماضي القريب عاهل عربي كبير عُرف باسمك، نصحه شاعر هندي مسلم حكيم بقوله:

"انصب خيمتك حيث شئت فوق رمال الصحراء،

لكن لا تجعل أطنابها من صناعة الفرنجة".

فهل لي أن أوصيك – يا حفيدي – بالبراء ممّا وقع فيه جيلنا من ترقيع ثوب ثقافتنا بخيوط زاهية برّاقة من ثقافة الغرب، وأن أوصي جيلكم بالعودة إلى الجذور للتجديد والانطلاق في مسارات التحديث المحروس بالقيم الموروثة، والمضي قُدُماً في دروب الإبداع غير المعني بالمحاكاة والتبعية وباستيراد مبادئ مغايرة، قد تبدو برّاقة – لكنها مثل خضراء الدمن – لن تورثكم سوى المزيد من السقم.

مع حبي.

جدّك، عبد العزيز

المحتويات

الباب الثاني: كرستين نيبور

الباب الخامس: رحلة سادلير عبر شبه الجزيرة العربية

الباب السادس: الساحل المهادن بين عامي ١٨١٦-١٨٣٠م

خطبة الكتاب

نعوذ بالله من شرور إبليس اللئيم، ونسأله تعالى العصمة من الزلل والصواب المقيم في القول والعمل، والتوفيق لما يُدني من رضاه ويُبعد عن سخطه، وباسمه تعالى بعد حمده على سوابغ النعم وضوافي الآلاء، نبدأ هذا السِّفر الذي يُعنى بدراسة أطراف من روايات الرحّالة الغربيين في شبه الجزيرة العربية، وقد ارتضينا له - بعد فترة من التردد - أن يحمل عنوان إبل إبليس، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقد علق في الذهن ذلك الشبه المقيم بين أهداف إبليس اللعين وأهداف الاستعمار العالمي التي تتلوّن وتتخذ في كل حقبة زمنية شكلاً مغايراً لشكلها السابق، وتنافس الشيطان في غواية البشر وتدفعهم ترهيباً وترغيباً لنبذ ثقافاتهم التي هم عليها واستبدالها بأخرى لا تعود عليهم إلا بالتفرقة والتشرذم والتبعية والخراب، ولا تنتهي بهم إلا إلى الانزلاق إلى مهاوي الاستعمار وفقدانهم الحرية بكافة مفاهيمها الإنسانية. وتأكد لنا بالنظر في مقاصد رُسل الاستعمار الذين ركّبهم إبلاً حملتهم إلى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية لتحقيق غايات كانت في مجملها تسعى لاستلاب هوية الإنسان المسلم من خلال ملاحظة ودراسة ما يجري في مركزي الإسلام في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. وقد استمر هذا الهدف المركزي بإضعاف المسلمين من خلال تقطيع روابط مكة والمدينة - الجامعة بين المسلمين - مُنساباً في العصور اللاحقة إلى يومنا هذا، ومُتّخذاً إلى ذلك أشكالاً مختلفة، سياسية واقتصادية، وثقافية على وجه العموم.

تمكن الرحّالة الغربي، ذلك البعير الذي تسلّح في الماضي بالصبر والجلد ومغالبة الجوع والعطش فوق وهج رمال شبه الجزيرة العربية، متحدّياً هجيرها اللافح، من قطع مناطق مترامية من فيافيها. وجاب الرحّالة مساحات شاسعة من سواحل تلك الفيافي، ولم يكن يحمل في جعبته إلا الكراهية لإنسان تلك الأرض الذي يراه بدوياً جاهلاً يعيش في أرض قاحلة يباب لا تكاد تفي بغاية من غايات الاستعمار والاستثمار الغربي بشيء، ولكنه كان يدرك أن نور الإسلام الذي تنزّل في واد غير ذي زرع بمكة المكرّمة من ثرى تلك الأرض أورث هذا الشعب البدوي وشعوب الأراضي المسلمة التي استهدفها الغرب بالاستعمار والاستغلال والاستثمار

عزّة جعلها تناهض الظلم وتجاهد الاستغلال وتعتزّ بالحرية. فلا عجب إذا أخذت طلائع إبل إبليس تجتاز الدروب في العصر الحديث إلى الحجاز لاستجلاء سرّ هذا الدين والنظر في المواقع التي انطلق منها ليشعّ نوره في هذا الأفق العريض الذي تجاوز شبه الجزيرة إلى آفاق بعيدة.
وإذا كانت خلاصة ما قدّمه رسل الاستعمار الأوائل في العصر الحديث لسادتهم من إفادات لا تتعدّى توصيف ما يتصل بمهماتهم، فإن من جاء في إثرهم عمل على تعطيل الوظيفة السياسية التي يؤديها هذا الدين في تكامل الإمبراطورية العثمانية، ودرسوا - حين استقرّوا لفترات في تلك البقاع المقدسة في مكّه المكرّمة والمدينة المنوّرة - جوانب مختلفة من الفقه ومظاهر العبادات لتعطيل الوظيفة الجهادية للدين في المستعمرات التي استحدثوها في آسيا وأفريقيا، فأسّسوا بذلك لتأصيل علوم الاستشراق وإقامة قواعد التنصير في الشرق الإسلامي. وحين أقام البريطانيون بعد استعمارهم شبه القارة الهندية حاجزاً أمنياً من الأرض يبدأ من أعالي الخليج وما يتصل به عبر مسقط إلى عدن ليتمكنوا من حبس الآثار السياسية لبعض المدارس الفقهية عن منطقة نفوذهم التي أقاموها، لم يكن لهم اهتمام مباشر بالتنصير في ذلك الشريط الساحلي الذي أرادوه مغلقاً عن كل تأثير يأتيه من داخل شبه الجزيرة العربية أو من خارجها، لكنهم حرّضوا رسلهم على جمع ما يتصل بالمذاهب وبالطوائف والفرق والمدارس الإسلامية المختلفة السائدة في تلك المناطق، والتركيز على الخلافات العقدية الواقعة بينها لاستثمارها وبناء جانب مهم من سياساتهم على معطياتها. أما التنصير المباشر في تلك المنطقة الساحلية فقد تولّته - في فترة متأخرة نسبياً - إحدى الكنائس الأمريكية التي لم يتورّع سدنتها عن الإعلان الصريح بأنهم لا يهدفون إلى تنصير المسلمين، وأن غايتهم من العمل في التنصير تتركز على إخراج المسلم من المناطق التي يعملون فيها عن دينه. وقد ترك أولئك الرحالة المنصّرون زخماً من الأدب التنصيري المناهض بلا هوادة لتراث المناطق التي استضافتهم. الرحالة الغربي الذي نعالجه في هذه الدراسة هو ذلك الشخص الذي وفد إلى شبه الجزيرة العربية لاستجلاء أمر فيها اهتمّت به إحدى الدول الغربية أو مجموعة منها، أو اشتغلت به بعض الطوائف الدينية والمؤسسات العلمية القائمة في هذه الدولة أو تلك من دول الغرب. ويمكن اعتبار كل شخص قام بالرحلة في شبه الجزيرة العربية - مهما كانت مهنته أو ارتقت درجة وظيفته الكنسية أو العسكرية أو السياسية أو العلمية - وكتب رسالة أو تقريراً أو كتاباً بشأن ما خلص إليه في رحلته، منتمياً إلى هذا التوصيف. سلك هذا الرسول دروب شبه الجزيرة العربية في البر والبحر ورسمها ووصف طبيعتها، وأضاف إلى ما رآه بعينيه ما التقطته أذناه من الثرثرة مع بعض مرافقيه وحُماة دربه ومع من التقاه من مواطني هذه الأرض وحادثه من حكام وشيوخ وغيرهم من المسؤولين والعامة على حدّ سواء، فاستكمل بالسماع معرفته المكتسبة بالملاحظة. يكتب هذا المبعوث بحصيلة ما وعاه إلى جهات شتى في بلاده، متّخذاً أساليب مختلفة تتنوّع بحسب ما يخاطبه

من جهات رسمية وشعبية تحقيقاً لغايات تنصيرية أو وطنية سياسية أو ربما كانت في الفترات المتأخرة اقتصادية صرفة.

اهتمّ الرحالة الغربيون - بدرجات متفاوتة بحسب ما يقتضيه تنفيذ أهداف كل منهم - بطوبوغرافية الأرض العربية ومظاهرها الطبيعية، فوصفوها ورسموا مسالكها ودروبها، وأحصوا قبائلها ومنازلها، وحققوا في قوّة كل قبيلة وعلاقتها بالأخرى وبما يجاورها من قرى ومدن، ومدى امتداد نفوذ حكام الحواضر على البوادي، وبذلوا كثيراً من المحاولات للتعرف إلى شخصيات هؤلاء الحكام والشيوخ، ودرجة قابلية مجتمع الحاضرة في شبه الجزيرة العربية للتعامل مع الأجانب. وعمل بعضهم على دراسة التراث المادي والشعبي والأبعاد التاريخية لمجتمع شبه الجزيرة العربية. وكان الاهتمام بكل ما يمسّ الإسلام من قريب أو بعيد، في القرى والحواضر وفي البادية أيضاً، اهتماماً شاملاً لم يغفل عنه أيّ منهم، مهما كانت هويته والأهداف التي ساقته إلى شبه الجزيرة العربية. ويرتبط بهذا السياق ما يتصل بالرقّ وبالمرأة العربية التي شغل موضوعها كل رحالة غربي دخل إلى شبه الجزيرة العربية، و لم يبرأ أيّ منهم من الخوض فيه بنحو أو بآخر. وربما يثير الانتباه أن كتب الرحالة كلهم تبدأ بما يفيد الخشية من التعصّب والتزمّت الإسلامي ثم ما تلبث تلك النبرة أن تنحسر في الغالب شيئاً فشيئاً كلما تقدّم الرحالة في رحلته. وعادة ما نرى الرحالة الغربي يناقش العامة والشيوخ كما يحدث أن يناقش بعضهم بعض من يلتقيهم من الفقهاء في مسائل دينية يعتقد أنه سيثير بإثارتها حفيظتهم، ولكنه - على العكس من ذلك - لا يجد في العادة - حتى من العوام - إلا صدوراً رحبة وتسامحاً واجباً تجاه النصرانية، ما يحمل الرحالة في نهاية المطاف على الاعتقاد الكاذب بأن منطقه قد تغلّب على منطقهم، من دون أن يدري ذلك المغرض أنه فُرض على المسلم أن يعترف بكافة الديانات السابقة للإسلام، وأن عليه أن يبذل التجلّة لرسلها. ومن الأسف أننا لا نجد من الرحالة الغربيين من غير المستشرقين مَن درس الإسلام دراسة منهجية، فكل زاده في هذا المجال ما تلقّاه وهو يُعدّ للرحلة من موروثات الكراهية التاريخية للإسلام وأهله في الغرب، وربما تيسّر لبعض هؤلاء الرحالة تأكيد ذلك من خلال دراساته التنصيرية. يُضاف إلى هذا أن الرحالة حين يحاول أن يتعرّف إلى الإسلام من أهله إبّان تنقله بينهم، فإنه نادراً ما يجالس فقيهاً أو شيخاً بارزاً في المذهب الذي يريد التعرف إليه، فتجده يتناول موضوعات فقهية مع العوام الذين يصادفهم. ولعلنا نلاحظ تسامح المسلمين جميعهم حين يناقشون مع الآخرين من غير المسلمين شؤون دينهم كلها، إلا أنهم - خاصة العوام منهم - يتحزّبون بنحو كريه حين يتناولون مع هؤلاء الآخرين ما يخصّ مبادئ مدارس دينية تخالف ما التزموا به من مبادئ لمدارس أخرى. وما زال هذا الخلاف بين مدارس الفقه الإسلامي الذي يؤجّج أواره بعض المتزمّتين من الفقهاء والعديد من المتفيهقين هو الباب المفتوح أبداً لإبليس وجنوده يلجونه كلما لاحت بارقة أمل

في اجتماع كلمة للمسلمين للتعاون والتعاضد لما يصلح أمور دنياهم.

اتخذ البعض من الرحلة الغربية مصدراً لكتابة التاريخ العربي الحديث، ثقة منهم بأن الرحالة كان ذا نظر ثاقب وأذن لاقطة، فسجّل بوعي الملاحظات التي توصّل إليها، وباتت معلوماته بذلك مصدراً لمن أراد أن يكتب عن تلك الأيام التي انعدمت مصادرها العربية أو تكاد. يحتجّ هؤلاء المطمئنون للأخذ من الرحالة بالقول إن الرحالة الغربي لم يكن مثله مثل عابر السبيل الذي قد يسطّر طرفاً ممّا يصادفه في بعض المنازل التي مرّ بها ويتجاهل بعضاً ممّا وقعت عليه عيناه في منازل أخرى، بل هو باحث يحقق أهدافه بالاستقصاء، وهو ليس بالسائح الذي قصد هذه الأرض المختلفة عن أرضه موقعاً وطبيعة وتشكيلاً، والتي يعمرها أقوام يختلفون عنه داراً ولساناً وثقافة وتاريخاً وتوجهاً ولا تربطه بهم علاقة حقيقية أو اعتبارية، للاسترواح فيها والترفيه عن النفس بمباهجها. ولن يعمد هذا الرحالة حين يسيح في هذه الأرض إلى تسجيل خواطر طارئة تُصاغ في شكل إبداع يُحلّق به نثراً أو شعراً في أفق الخيال، بل تراه يجتهد في جمع الحقائق المجرّدة. وفي تقديرنا أن الذين يطمئنون إلى هؤلاء الرحالة مصدراً لكتابة تاريخنا لا يحتاجون منا إلى أن نخرج هؤلاء الرحالة من زمرة عابري السبيل والسياح، فنحن نعلم علم اليقين استحالة وجود عابر سبيل غربي في تلك الأوقات عبر تلك المسالك المتشعّبة في شبه الجزيرة العربية، كما أننا ندرك أن شبه الجزيرة العربية، حجازها ونجدها وسواحلهما، التي استدعت اهتمام الرحالة ليست هي الشام ولا اليمن حيث الآثار المستكشفة أو غير المستكشفة والمناظر الطبيعية الخلابة أو غير ذلك ممّا يستهوي السائح. ومن المؤكد أنك لن تجد للسائح الغربي أثراً في هذه المنطقة القائظة الحرارة المجدبة اليباب التي امتلأت بآثار العديد من الرحالة الغربيين من كل عرق وملّة، بدءاً بالبرتغاليين والهولنديين إلى الفرنسيين والإنجليز فالأمريكان وغيرهم. كذلك فإننا لا نماري في أن عيون الرحالة مفتوحة أبداً كما هي عقولهم، ولكنها مفتوحة على الأهداف التي جاؤوا لخدمتها. تعشى تلك العيون الغربية عن الواقع ولا تكاد تبصره، بل تتجاوزه إلى رؤية ما يلائم أهدافها، وحتى يمكننا أن نضيف أنها حين تنظر إلى الأشياء المجرّدة التي لا خلاف في الرؤية عليها بين جميع بني آدم الذين يعمرون المنطقة لا تبصرها إلا بعين ثقافتها التي تلتزم معايير مختلفة عن معايير أهل المنطقة عن الجمال والقبح في الأخلاق والسلوكيات وفي المظاهر المادية على حدّ سواء. ولعل في تباعد العناصر الثقافية بين الشرق والغرب ما يُفسّر عملية الاستبناء التي كوّنها اللاوعي الجمعي في الغرب لصورة الشرق الهمجي المتخلف البدائي النبيل. وتفاقمت الأمور بين الشرق والغرب حين تصادمت الثقافات بتأثير الأطماع الاستعمارية للغرب في الشرق وما صحب ذلك ولازمه من المحاولات التنصيرية للغرب في الشرق، وما أدّت إليه المماحكات الدينية اللاحقة، فأعمى كل ذلك الزخم المتراكم الرحالة المبعوثين من قبل الدوائر الغربية المعنية

عن الحقيقة المجرّدة وأعوزهم إلى الأحكام التقويمية.

علينا أن ندرك ونحن نعتمد الرحلة الغربية مصدراً لتاريخنا العربي أن رحالتنا الذي نتعامل معه هنا هو في الغالب متخرّج في مدرسة كنسية أو معهد تنصيري، أو ربما كان أحياناً من المتخرّجين في المدارس العسكرية، ونادراً ما نصادف من الرحالة الغربيين من يخرج عن هذا التشكيل في الإعداد. فأهداف الرحالة التي ساقتهم إلى شبه الجزيرة العربية والتي استوجبت هذه التهيئة العلمية لا تتجاوز الأغراض الاستخبارية العسكرية أو السياسية أو التنصيرية أو الاستثمارية، وربما جمع بعضهم بين اثنين أو أكثر من هذه الأهداف. ولا تكاد هذه الأهداف تخرج قيد أنملة عن هذه الدائرة المتشابكة حلقة مترابطة بعضها ببعض حتى لتكاد الفواصل بينها تذوب، فإذا هي في نظرهم وحدة واحدة لا يمكنها أن تتجزّأ. تسعى هذه الحلقة على اختلاف أشكال إعدادها وإعادة سبكها باختلاف الحقب الزمنية إلى الإحاطة بهذه المنطقة والسيطرة عليها ومسخ ثقافة إنسانها، ليسهل عليهم قياده. يحدثنا كافة من عمل في الرحلة الغربية في شبه الجزيرة العربية عن القبائل التي تعمرها، وينفرد الذين يعملون في الاستخبارات والشؤون السياسية منهم بالإفاضة في هذا المجال، فمايلز – على سبيل المثال – يكتب كتاباً كاملاً عن الخليج وقبائله، الموضوع الذي شغل أيضاً العديد من الآخرين قبله وبعده من أمثال سادلير وبيلي وولستد وغيرهم من ضباط حكومة الهند البريطانية وموظفيها. ونحن حين نزجّ بهؤلاء في زمرة الرحالة جنباً إلى جنب مع هورينكا وغيره من المستشرقين وزويمر وغيره من المنصرين لا نجانب الصواب. فعلى الرغم من أن شهرة هؤلاء العسكريين والإداريين لم تُبنَ على الرحلة مثلما هي الحال مع الجواسيس من أمثال موريزي والعاملين الآخرين في هذا المجال بنحو أو بآخر مثل بلنت وجرترود قبل التحاقها بالمكتب العربي في القاهرة، وكذلك المتسكعين الآخرين الذين دفعت بهم الصدفة المحضة إلى شبه الجزيرة العربية أو المتنطعين الذين جاؤوا مدفوعين بدوافع وغايات عنصرية أو غير ذلك من أمثال داوتي، على الرغم من ذلك كانت ملاحظات هؤلاء جميعاً متماثلة إلى حدّ كبير، ما يجعلنا نضعهم جميعاً في سلة واحدة.

نشطت الحركة الاستخبارية العسكرية وأعمال الجاسوسية الغربية في شبه الجزيرة العربية مع بداية تاريخ العرب الحديث الذي نؤرخ له ببداية استعمار (استخراب) الغرب النصراني على وجه العموم للشرق الإسلامي في أعمّه، وذلك بطواف إبل إبليس بأطراف الجزيرة العربية في البحر الأحمر والحجاز واليمن، وكذلك بهرمز وعمان وسواحل الخليج العربي. وكان دي فارتيما الذي أرسلته كنيسة روما أول جاسوس في خدمة الاستعمار البرتغالي يطرق مسالك أرض الجزيرة العربية يقطعها من شمالها إلى جنوبها، ما يُحدث عن اتحاد الهدف الثقافي مع الهدف الاستعماري. أما بعثة نيبور التي ضمّت فون هافن المتخرّج في كلية تنصيرية، وفورسكال الذي تخصّص بدوره في اللاهوت، فقد تبلورت نتيجة لاقتراح من أستاذ يعمل

في الاستشراق في جامعة جوتجن لوزير خارجية الدنمارك، حدّد هدفها بتوثيق الدراسات التوراتية ودراسة حركة المدّ والجزر في البحر الأحمر لاتصالها بخروج بني إسرائيل من مصر، وقد استجابت الحكومة الدنماركية لقيام هذه الرحلة لتحقيق تطلعات استثمارية واستعمارية ألبستها هذه الغلالة الشفافة من الاهتمامات الدينية. عُني أولئك المبعوثون على اختلاف بلاد الغرب التي وفدوا منها بأعمال الجاسوسية والاستخبارات، وكتبوا عن الحياة الحيوانية والنباتية والمصادر الشحيحة لتلك المناطق والتشكيلات القاسية لأرضها الصحراوية وطبيعة السواحل وتضاريسها والظواهر الطوبوغرافية والإيكولوجية المختلفة التي حفظت على هذه الأرض قبل عصر الطيران استقلالها. وأضافت الطبقة الثانية من الرحالة الغربيين إلى هذه الاهتمامات اهتماماً متزايداً بالحياة السياسية في شبه الجزيرة العربية بعد قيام الدولة السعودية القديمة التي امتاز تاريخها بلمّ شعث مناطق شبه الجزيرة العربية المتشرذمة في نجد والحجاز ومناطق واسعة من سواحل الخليج والبحر الأحمر، ودخلت هذه المنطقة، من ثمّ، في عداء قوى إقليمية ودولية نشطت كلها في إرسال جواسيسها لسبر قوة هذه الدولة وتقويم شبكة العلاقات التي تربطها بالقبائل وبأقاليم شبه الجزيرة المختلفة. ولعلنا نلاحظ في هذا المجال أن إبل إبليس التي جابت هذا المجال في هذه الفترة من الاستخباريين والإداريين الإنجليز سعت لإقامة حواجز تمنع امتداد هذه الدولة إلى عمان وسواحل الخليج عموماً، لحماية تلك المناطق التي باتت تمثل في الاستراتيجية البريطانية الحدود الأمنية للهند، فيما عنيت إبل إبليس من الاستخباريين الفرنسيين بمحاولة تلمّس طرق التعامل مع هذه الدولة للإفادة منها في مجال التنافس بينها وبين بريطانيا. وامتدّت الاهتمامات الغربية بالحياة السياسية في شبه الجزيرة العربية في فترة سقوط تلك الدولة على يد محمد علي باشا، ما أدى إلى اختلال الموازين الدولية في المنطقة التي عُدّلت في الشرق بما اتفق مع مصالح الدول الغربية المختلفة فيه. وتواصلت الاهتمامات السياسية الغربية – البريطانية منها على وجه الخصوص – بشبه الجزيرة العربية في فترة الدولة السعودية الوسطى وسقوطها وقيام بعض أولئك الرسل ببثّ نوع من أنواع القومية العربية. وتلى ذلك قيام الدولة السعودية الحديثة وقيام عدد من المبعوثين البريطانيين باتصالات متلاحقة مع عبد العزيز بن سعود، مؤسس الدولة، ثم ما كان من انحياز الدولة السعودية الحديثة إلى الاستثمارات الأمريكية، ما أدى إلى ظهور رسل استخباريين جدد لبريطانيا في الخليج لتحجيم امتداد امتيازات الولايات الأمريكية المتحدة حتى لا تبلغ مناطق النفوذ البريطاني في ساحل الخليج العربي. وإذا كان رحالة الدول الغربية لدفع عجلة التنافس على الاستثمارات في ثرى شبه الجزيرة العربية، ساحلها وظهيرها، هم الطبقة الأحدث في قائمة هؤلاء الرحالة الاستخباريين، إلا ان أمثالهم من الاستثماريين كانوا الأوائل في الوصول إلى سواحلها. زهد الرحالة الأوائل في الدخول إلى الظهير الصحراوي لما كان من فقر مصادره الذي كان بادياً

للعيان، والذي ثبّطهم في ذلك الوقت من العمل على تحدّي طبيعة أرضه القاسية وباديته التي تُمجّد الحرية، فانصرف همّهم إلى السواحل والجزر في الخليج العربي. وكانت رحلة دي كفيلام من أوائل الرحلات الاستخبارية التي عُنيت بدراسة طرق المنطقة البحرية واستكشاف المصادر الاقتصادية للجزر والسواحل، إضافة إلى العمل لتحقيق أهدافها التنصيرية في البحث عن دولة برستر جون التي كان يُظنّ أنها قائمة في الحبشة للتنسيق معها في شنّ حرب شاملة على الإسلام وأهله.

عمدت البرتغال بعد طرد المسلمين من الأندلس إلى إرسال الرحالة في إثرهم لدراسة مسالك الشرق، للعمل على دقّ عصب الاقتصاد الإسلامي القائم على التبادل التجاري والعمل على السيطرة على تلك الدروب واستغلالها لاستنزاف مصادر ذلك الاقتصاد وتحويله ليصُبّ في مصلحة اقتصاداتهم. وقد انتهت المحاولات الغربية للسيطرة على اقتصادات الشرق بالقوّة إلى تحول اقتصاد المنطقة التجاري إلى أول شكل من أشكال الاستعمار الغربي الصريح للمنطقة، فقد قامت استثماراته – بادئ الأمر – على الجبر واستخدام القوّة المسلحة وتسخير أهل تلك المناطق للعمل بالقوّة الجبرية لمصلحة القوّة الغربية الوافدة إلى بلادهم. ووفد في فترة لاحقة لهؤلاء الرحالة العسكريين والسياسيين والإداريين والاستثماريين جماعة أخرى من المبعوثين اهتمت بالدراسات الاستشراقية وتأثير الحجّ بصفة خاصة على الاستعمار الغربي خارج شبه الجزيرة العربية. كذلك اهتمت جماعة أخرى من هؤلاء المبعوثين بالتنصير في شبه الجزيرة العربية، وقد واكب هذا النوع من الرحلات التنصيرية للكيد للإسلام الرحلات السياسية والاستثمارية، وذلك ثقة من الحكومات الغربية ومؤسساتها بأن المنصّر يمكن أن يُقدّم للمستعمر في المجتمعات المستهدفة ما لا تتمكن كتيبة عسكرية كاملة من تقديمه.

أدرك الغرب أن الإسلام دين يتغلغل في كافة نواحي حياة الشعوب التي تدين به، ويُمثل رابطة اجتماعية تقوم على أن المؤمنين إخوة، وأنه – فوق ذلك – يُلزم كل شخص قادر على الجهاد بالقيام به إذا وقع اعتداء على أي بلد من بلاد المسلمين. وقد اهتم الغرب بالعمل الجاد من خلال رسله إلى البلاد الإسلامية على فصم هذه الرابطة بأسلوبين؛ قضى أوّلهما بتشجيع فكرة القومية التي كانت سائدة في أوروبا وأصابت عدواها الدولة العثمانية وداخلت روحها الأتراك، فضيّعوا بذلك الشرعية الإسلامية التي أورثتهم شرعية حكم العرب والعجم الذين انتظموا تحت لوائها، وحين أودت الطورانية بتلك الشرعية أخذت شعوب تلك الإمبراطورية تتطلّع بدورها – بتشجيع من الغرب – إلى قومياتها أيضاً. وقد شهدت شبة الجزيرة العربية في هذه الفترة عدداً من إبل إبليس الذين حملوا هذه الرسالة القومية لتشجيع هذه النعرة في أوساط شيوخ العرب وعامتهم. أما الأسلوب الثاني فهو محاولة العمل بالتنصير لصرف المسلم عن دينه ودمج الشعب في الثقافة الغربية ليذوب في بوتقتها فيصبح طيّعاً سلس القياد.

لم يكن عمل المنصّرين الغربيين في الشرق خالصاً للمسيح، بل كان عملاً في الدرجة الأولى لخدمة إبليس المستعمر، وعلى ذلك فقد تضاربت أفكار المنصّرين الوافدين مع توجّهات النصارى المواطنين في المجتمعات المسلمة في الشرق، فقد عدّ المنصرون الغربيون نصارى الشرق، بكافة طوائفهم الذين تجمعهم مع المسلمين ثقافة تسامح مشترك، من مخلّفات الماضي النصراني الذي يُمجّد السلام، فيما تيقّن الأخيرون من أن نشر الإنجيل لا يُمثّل همّاً رئيساً لهؤلاء الوافدين. ولعل هذا الأمر هو ما دفع أحد القساوسة الأقباط – على سبيل المثال – إلى مهاجمة المنصّرين الأمريكان خشية من نشوء كنيسة جديدة تزاحم كنيسته الوطنية بقول أصاب فيه كبد الحقيقة حين استهجن أن يأتي مُنصّر أمريكي لتعليم نصارى الشرق الإنجيل الذي عرفه الشرق قبل أن توجد الولايات المتحدة الأمريكية بعصور ودهور. وفي اعتقادنا أن شبه الجزيرة العربية لم تشهد من المنصّرين الوافدين إلا رجالاً لم يكن نشر النصرانية الهدف الأساس للعديد منهم. كان من ضمن هذه المجموعة من المنصّرين السياسي الذي اعتقد أن قطع المجتمع العربي عن قيمه الدينية الإسلامية، بل والنصرانية السائدة فيه أيضاً وربطه بثقافة الغرب وفلسفاته الدينية والعلمانية المستحدثة، يهيّئ تجانساً يحفظ للغرب من خلال الروابط الثقافية المشتركة مصالحه في هذه المنطقة ومناطق أخرى كثيرة من العالم الإسلامي. وكان من ضمنها أيضاً اليهودي المتنصّر أو الذي ادّعى النصرانية ليكيد للإسلام وأهله بنشر ثقافة مغايرة في المجتمع العربي بشقّيه المسلم والنصراني. فالاعتقاد الصائب السائد لدى الغرب هو أن المدحور عسكرياً يصبح لفترة قد تطول أو تقصر مضطراً إلى اتباع مشيئة الغالب والعمل قسراً بما يطلبه منه، ولكن المغلوب ثقافياً لن يكون أبداً إلا ذيلاً يحركه الغالب بيسر أنّى شاء وفي أي اتجاه أراد. فالغلبة العسكرية في ميادين الحروب تزول آثارها بالتقادم، ولكن الغلبة الثقافية تعلق بالذهن وتخالط الكيان وتقود إلى ذوبان الوعي بالهوية، ويصبح المقلّد – مهما أتقن التقليد – مسخاً تابعاً مسلوب الإرادة. ويمكن القول إن التنصير الغربي الذي بدأ يعمل في شبه الجزيرة العربية كان تنصيراً سياسياً، فلا ضير إن جاء خطاب الرحلة صليبياً صرفاً منذ البداية. فقد نشطت الرحلة الغربية إلى الشرق بعد دحر المسلمين من الأندلس مباشرة، وحددت هدفها بتعقب المسلمين المهزومين لاستئصال شأفتهم تماماً ونهائياً والسيطرة على اقتصاد أراضي هؤلاء "المور"، كما جاء الإعلان عن ذلك. ومثّلت رحلة كولومبس التي تحدد هدفها بالعمل على حشد جهود الشعوب الشرقية غير المسلمة في حظيرة النصرانية، للعمل على اجتثاث الإسلام من أرضه، أشهر الرحلات في التاريخ. وصرّح الرحالة كولومبس الذي أُسبغ عليه لقب كريستوفر، أي حامل لواء المسيح، بأن هدفه من الاستكشاف يتركز أساساً على دحض كافة المعتقدات الدينية التي تسود الشرق، مؤكداً في الوقت نفسه أن أعنف معاركه شراسة ستكون مع أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) تلك الجماعة التي وصمها بالبغيضة، مضيفاً أنه سيخلص بعد

ذلك إلى بدء العمل المفضي إلى استرداد جبل صهيون والإعداد لقيام مملكة الرب الثانية. و لم يُقدّر لبعير إبليس الذي انطلق غرباً أن يصل إلى الشرق الذي كان يقصده تحقيقاً لما ساد زمنه من تسابق لإثبات نظرية كروية الأرض عملياً. لم يصل كريستوفر إلى أرض مسلمة و لم يلتقِ مسلمين. وخاضت بعثته التنصيرية الهدف والغاية، وبعثات من وفد بعده إلى تلك الأماكن التي وصلوا إليها بدعوى التنصير وغيره، حروباً ولَغوا فيها في دماء أهلها غير المسلمين، لم يُنصّروهم، بل قضوا عليهم وورثوا أرضهم، وما زال بعض أحفاد إبل إبليس في تلك الأرض المغتصبة يمارسون السياسة في الشرق بمسوح الدين ويجاهرون بأنهم يعملون على إقامة مملكة الرب الثانية في ديار المسلمين. وهكذا التقت في هذه الدولة المستحدثة التي عُرفت بعدئذ بالولايات الأمريكية المتحدة طوائف نصرانية مع أخرى صهيونية، تجاوزت كل منها الفواصل العقدية والفلسفية الخاصة بها بهدف العمل على التنصير في أوساط العرب، "هذا الجنس المنحط الذي يُدين بالمحمدية التي تمثل التخلف مظهراً ومخبراً". وكان هذا الهدف المعلن هو الذي حمل المنصّرين الأمريكان على بدء العمل في سواحل شبه الجزيرة العربية في الخليج، للعمل حثيثاً من هناك للوصول بأفكارهم، وربما بذواتهم، إلى مركزي الإسلام في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وجاء أدب هؤلاء الرحالة المنصرين متوافقاً - بطبيعة الحال - مع الأهداف المتوخّاة من ذلك النشاط.

علينا حين نعتمد الرحلة الغربية مصدراً لكتابة تاريخنا، بعد أن أدركنا أهمية معرفة هوية الكاتب والهدف الذي ساقه إلى شبه الجزيرة العربية، أن ندرك أيضاً أن ذلك الرحالة حين سطّر ما سطّره عن الأرض وأهلها لم يعمد إلى مخاطبة أي جهة عربية، و لم يَدُر في خلده أبداً أن ما يكتبه سيصل يوماً ما إلى أنظار العرب. ولا نعمد في بيان هذا إلى القول إن ما حملته إبل إبليس إلى ديارها من شهادات صادقة وكاذبة عن العرب لا تعدو أن تكون فيضاً مرسلاً من الغيبة والنميمة، ولكننا ندّعي أن ذلك الرحالة كان يدرك أن ليس ثمّة شاهد آخر من الجانب العربي في تلك الفترة يمكن أن يناقض ما يدلي به أو يحاول دحض أقواله. ولعل في ذلك ما يُمكّن للرحالة الغربي من أن يدلي بما شاء في ما يخصّ الطرف الغائب بلسان ذرب يروي لجمهور القرّاء في بلاده ما يعنّ له من دون أن يخشى وجود من ينازعه القول أو يعارضه فيه. وبما أن الرحالة الغربيين جميعهم مجتمعون على أهداف أو - في حقيقة الأمر - على هدف واحد اجتهدوا في تحقيقه في شبه الجزيرة العربية التي انطلقت منها دعوة مكّة المكرّمة وغطّت مناطق شاسعة من الشرق الذي تطلّعوا إلى السيطرة على موارده الاقتصادية، فإن وحدة الهدف تقود بالضرورة إلى تماثل الشهادات، وكثيراً ما نقل اللاحق من هؤلاء الرحالة عن السابق، حتى وقرت تلك الشهادات المتماثلة المتلاحقة في ذهن القارئ الغربي على أنها حقيقة ماثلة.

يتميّز منهج ما كتبه الرحالة الغربي بثلاثة مستويات متفاوتة الإفادة بتفاوت الهدف الذي

يرمي إليه الرحالة من تسجيل أبعاد تجربته؛ المستوى الأول الذي لا نجد من الباحثين العرب أو الغربيين من يهتم بالنظر إليه ونقده يتمثل في المذكرات المتبادلة بين الرحالة ورئاسة الإدارة الحكومية أو الجمعية التنصيرية أو الشركة الاستثمارية التي كلفته بالعمل لحسابها لتحقيق ما تصبو إلى تحقيقه من أهداف. وتمتاز مثل تلك الاتصالات المتبادلة بالتحرّي عن الدقّة من كلا الجانبين. ولا يهتم الباحثون في أدب الرحلة من الغربيين بالعمل لفضح تلك الأهداف، فهي، فوق كونها في ظنهم بديهية لا تحتاج منهم إلى استكشاف، تفتقر إلى الترابط الذي يُشكل الرواية التي تستهوي جمهور قرائهم. أما الباحث العربي الذي يهمّه التحقق من تلك الأهداف والنتائج التي أسفرت عنها تقارير الرحالة والمذكرات المتبادلة، فإنه يجد مشقّة في الوصول إلى تلك المفردات لما يتطلّبه التعامل معها من جهد وصبر ووقت للغوص في بطون أضابير دور الوثائق المختلفة للحصول على نتف من هذه المراسلات المتبادلة، التي هي – على أهميتها القصوى – غير مترابطة وتحتاج منه إلى إعمال فكر لربط المقدمات بالنتائج. وسيجد هذا الباحث العربي بدوره بعد كل هذا الجهد الجهيد أن ما اجتمع لديه لا يُمثل قصّة تستهوي جمهور القرّاء العرب من غير ذوي الاختصاص. وربما كان هذا السبب كافياً ليشفع للباحث العربي – كما هي عادتنا دائماً – بالنقل عن زميله الغربي الذي قد يتولى القيام بعبء هذه الدراسة الوثائقية لجهات علمية أو ربما سياسية في بلاده تعمل على خدمة غايات معينة. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا النقل لا يخدم أهدافاً لمجتمعاتنا ولا غاية إلا ما كان من معرفة بعض الجوانب المتعلقة بموضوع ما بحسب وجهة نظر الجهة التي أصدرت العمل.

أما المستوى الثاني الذي يكتب فيه الرحالة، والذي يجد اهتماماً محدوداً من الباحث الغربي وربما يجد أحياناً شيئاً من الاهتمام من بعض الباحثين العرب من المهتمين بأدب الرحلة الغربية، فهو ما يرد في التقارير الرسمية التي تلقى بطبيعة الحال من العناية من دور الوثائق المختلفة ما تلقاه الوثائق الرسمية الأخرى. وفي اعتقادنا أن هذه التقارير قد تصل أحياناً في درجة صدقيتها إلى ما وصلت إليه تلك المذكرات التي أعدّها الرحالة لرئيس الإدارة المعنية ومساعديه المباشرين، ولكن قد تُحجب من تلك التقارير بعض الفقرات التي تتصل بالسياسات التي قادت إلى قيام تلك الرحلة.

تخاطب هذه التقارير في تلك الدوائر – في الغالب – شريحة من الموظفين الذين لا يزيد دورهم على متابعة بعض التفاصيل، فيمدّ التقرير ذلك الموظف بما يُمكنه من القيام بدوره التنفيذي فقط. ويمكن أن نضيف في هذا المجال تقارير رحالة كُلّفوا في بداية القرن الميلادي الماضي بالقيام برحلات في مناطق شاسعة من الخليج لجمع معلومات شاملة، والتحرّي عمّا جاء في مذكرات الرحالة السابقين لهم وتقاريرهم، وغربلتها للوصول إلى معلومات جغرافية تاريخية اجتماعية دقيقة تُوضع في خدمة المسؤولين البريطانيين للقيام بواجباتهم في تلك

المناطق على نحو مدروس. و لم يكن يمكن أياً من الباحثين، غربيين كانوا أو عرباً، الحصول على تلك المجموعة من التقارير التي دخلت إلى المكتبة السياسية والسرية لحكومة الهند، و لم يكن يُسمح إلا لأصحاب الشأن الذين تتصل مهماتهم بنحو مباشر بالشؤون السياسية والعسكرية في الخليج - بالاطلاع عليها، ولعل غازيتة الخليج، الذي يشمل مجموعة من التقارير التي جمعها لوريمر ومساعدوه من الإداريين والعسكريين من حصيلة رحلاتهم في شبه الجزيرة العربية ومن مراجعة تقارير رحالة سابقين لهم وتنقيتها على ضوء بعض الدراسات السابقة ممّا شابها من زوائد لا تفيد المهمة التي وقع عليهم القيام بها، كانت أبرز تلك التقارير. ونحمد لدار وثائق حكومة الهند في لندن أن رفعت منذ منتصف القرن الماضي الحظر عن هذه المجموعة التي أضحى لها من الأهمية العلمية ما لا يستطيع أي باحث في دراسات الخليج - مهما بلغ به عدم الحياد العلمي من كراهة الاعتماد على التقارير البريطانية - أن يتجاوزها. وهناك تقارير أخرى للرحالة أعدّوها ليخاطبوا بها الجمعيات والدوائر العلمية في بلادهم. وعادة ما تتخذ هذه التقارير شكل المحاضرات التي يلقيها الرحالة في تلك الأوساط العلمية أو ينشرها في بعض دورياتها. وتخضع هذه التقارير عادة لرقابة الجهة التي عمل ذلك الرحالة لمصلحتها، وقد تُوصي بحذف بعض ما لا يرغبون في نشره. ولعل في هذا ما ينزل بمستوى الصدق والدقّة في ما يكتبه هذا الرحالة ويرويه لتلك الجهات. فدهاليز السياسة في الغرب والشرق فيها ما يتحتّم على الحكومات ستره، والتنافس في الاستثمار يقتضي التدليس في بعض الأحيان، والعمل في التنصير قد يقتضي أمره شيئاً من الكذب لاستدرار عطف المانحين. وتعود أهمية هذه التقارير بأشكالها المتنوعة إلى حرص الحكومات والإدارات المختلفة في الغرب لإشراك الرأي العام، خاصة أهل الدراية منهم، في السياسات العامة والإفادة ممّا يمكن أن يُقدمه رجال الفكر والفن والأدب فيها لقيادة المجتمع وتوجيهه إعلامياً.

أما الشكل الثالث الذي يتخذه الرحالة ليُعبّر به للرأي العام في بلاده عن تجاربه في شبه الجزيرة العربية فهو الشكل الحكائي الذي يقتضي منه أن يمازج في صياغته بين الحقيقة والخيال، ليروي لأبناء جلدته من الغرائب ما يداعب به خيالهم ويدفعهم إلى متابعة أدب الرحلة بما يمتعهم به من صور الحياة البدائية التي وجدها في تلك الأصقاع، ويحفّزهم لمساندة هذه الاستكشافات لتحديث تلك المجتمعات البدائية الغارقة في متاهات الجهل والرذيلة. وبما أن الاستعمار ظلّ أبداً يبحث عن هدف أخلاقي يبرر به استعمار أراضي الغير واستثمارها بما يحقق مصالحه، فقد راح يدغدغ المشاعر القومية والوطنية في الغرب بروايات تفيد بأن بعض أبناء جلدتهم الذين امتازوا بحبّ المغامرة خلص إلى تلك المناطق النائية، وشرع في استخلاص ما يقود إلى هذا الهدف. ولا يؤدي هذا المنطق بطبيعة الحال إلا إلى تأكيد العنصرية لتخويل الرجل الأبيض الحقّ في قيادة العناصر البشرية الأخرى باقتناعاته الحضارية في دروب التقدم

والرقي. وفي هذا الصدد يقول روزفلت، أحد الرؤساء الأمريكيين، إن الدول المتحضّرة التي يعدّ دولته واحدة منها، يجب أن تضطلع بعبء الرجل الأبيض "لغربنة" الشعوب المتخلفة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ويخصّ هذا اللئيم الذي تربّى على إفرازات إبل إبليس الشعوب الإسلامية بقوله إن من المستحيل توقّع أي تقدم أخلاقي أو فكري أو مادي في مجتمع تسوده المحمدية. وقد سبق أن ذكر ابن الجوزي أن منهج إبليس في التلبيس قائم على إظهار الباطل في صورة الحقّ.

إن ما ورثناه من الشكل الحكائي من كتابات الرحالة الغربيين والرسائل التي حملتها متون إبل إبليس إلى الغرب لا يزيد – في أغلبه – عن روايات ذات أهداف محددة، لكنه يتبع مناهج متباينة ويتخذ أشكالاً شتّى. فحين نقرأ للرحالة المنصرين، نجدهم في سعيهم لتحقيق تلك الأهداف يتبعون منهجاً مغايراً لما يتخذه الرحالة السياسيون أو الاستخباريون أو غيرهم من الفئات الأخرى، فلكل طائفة منهم ميدان عريض يميّزها عن الميادين الأخرى. وينفرد كل لاعب في كل ميدان من هذه الميادين بفنون ومهارات تسبغ على رواية الرحلة تنوّعاً يكسبها قبولاً في أعين القراء. فالرواية – كما هو معلوم – عمل إبداعي في المقام الأول، لها من منهجها مساحة من الحرية لا تقيّدها بالالتزام بالحقيقة الموضوعية كحقيقة مبرّأة من الزيف المتعمد وغير المتعمد، وبقدر ثقافة كاتب الرواية ووعيه للهدف الذي تتحرى عنه الرواية يكون تحرره من القيود الضابطة لحقيقة الواقع الذي يروي عنه. وعادة ما يزيد الروائي من دون أن يتعمّد الكذب في تفصيلات الحدث الذي عاشه وقد ينقص منه، وهو – على كلا الحالين – لا يهتم لمطابقة روايته للوقائع، فالصورة التي ارتضاها لأحداث روايته مزج فيها بين الواقع والخيال في انسجام وتناغم، من دون أن يضع برزخاً بين الصورتين، وذلك في محاولة منه لإثبات تفرّده في سعيه لمقاربة الهدف الذي يعمل على ترسيخه في أذهان القراء أولاً ثم لإمتاعهم ثانياً. ولا يزيد الهدف الذي حملته إبل إبليس للجماهير في الغرب على مداعبة الشعور الوطني وشحن أدمغة تلك الجماهير بما يُحفّزها لمساندة سياسات بلادها واتجاهات جمعياتها في ثوبها الإنساني الذي يُصوّر لها على أنه يعمل على إصلاح ما فسد من تلك المجتمعات المتخلفة التي تعيش عبر تاريخها العنف، وتقتات بحكم تراثها بدائية تحملها على كراهية الآخر وإرهابه. وقد تحولت العديد من هذه الروايات الغربية إلى أفلام سينمائية ووجدت بين الجمهور رواجاً كبيراً. فعلى سبيل المثال – لا الحصر – عرضت السينما الغربية في عام ١٩٣٧م فيلم تمرّد الصحراء الذي يُعدّ صيغة مختصرة لكتاب أعمدة الحكمة السبعة لرواية لورنس الذي ما زالت السينما الغربية تستخلص حتى في هذه السنوات التي نعيشها بعد غزو العراق ما يعزز الصورة النمطية للعرب في الغرب، فهم – كما تقول هذه الأفلام الغربية صراحة وتلميحاً – شعب بدائي متوحش شجاع، متخلف ثقافياً، فاسد جنسياً، يجنح

للعنف بالفطرة ويحتاج دائماً إلى وصاية الغرب وتوجيهه ليغيّروا من شأنهم إلى نهج أمثل في الحياة. ولا مندوحة من القول إن أفلام لورنس التي تنصّ صراحة على أنه لولا قيادته للعرب المولعين بالصراعات القبلية المدمرة والمشغولين أبداً بالدسائس السياسية والكيد بعضهم لبعض، لما تمكنوا من أن يتخلصوا من نير "الاستعمار" العثماني، وتصمت هذه الأفلام فلا تشير إلى أن لورنس "قاد" العرب بعد خروجهم من دائرة العثمانيين إلى التشرذم والتناحر وسقوط بلادهم في ذلّ استعمار غربي تخلصت بلادهم أخيراً من بعض مظاهره و لم تتخلص من هيمنته بعد، إضافة إلى استعمار استيطاني ما زال يأكل أرضنا ويقتل أهلنا.

علينا قبل أن نخوض في أهم الموضوعات التي اهتم بها رحالة الغرب في روايته التي ألّفها عن شبه الجزيرة العربية لنشرها في أوساط بني جلدته، أن نشير إلى أن الرحلة تجربة إنسانية فريدة تتكوّن فيها الملكات الشخصية لكل رحالة على حدة، والمزاج والمشاعر الشخصية لكل منهم، لوناً معيناً يميزها عن رواية الآخر الذي يتفق معه في الهدف والغاية في تصوير البدائي والغريب. وتتحكم في أسلوب الرواية وينأى بها عن الصدق أو يقربها منه درجة معرفة الرحالة لمفردات اللغة العربية ودرجة تمكنه من لغته الأم التي ينقل إليها ما استوعبه من حقائق. فمن الرحالة من درس اللغة العربية الفصحى دراسة جادة واستوعب معاني مفرداتها واستخدم الشعر، ديوان العرب، في فهمه للمجتمعات العربية ونقل إلى لغته من أشعار الجاهليين ومفاهيمهم شيئاً كثيراً، وقد يزاوج مثل هذا الرحالة في تأكيده لبدائية العنصر البشري في المنطقة بين إنسان البادية العربية وإنسان بداية الخلق! ومنهم من قرأ ما تُرجم من اللغة العربية إلى لغته من الأدب العربي، وكان أكثر ما تُرجم من هذا الأدب بداية الغريب والخيالي من أمثال رحلات السندباد وقصص ألف ليلة وليلة وما إلى ذلك من حكايات حوّرها بعض هؤلاء الرحالة ليُصوّروا الفراغ الذهني الذي يعيشه العربي في باديته وحاضرته وقصور الأحلام التي يبنيها من الرمال في الخيال، وقد عرضت السينما الغربية منذ عام ١٩٢٤م فيلم: لصّ بغداد. ومن الرحالة أيضاً من لم يدرس اللغة العربية و لم يصل إليه من آدابها شيء، فاكتفى بتعلم العربية الدارجة في مصر أو بعض مناطق الشام وشمال الجزيرة العربية، وجاب بعد ذلك مناطق في قلب الجزيرة العربية تختلف لهجاتها عما اكتسبه من لهجات، وقد تختلف معاني بعض مفرداتها أحياناً، ونرى مثل هذا الرحالة حين يكتب يدخل في الخلط الناشئ عن هذا الاختلاف. ومنهم أيضاً من لا يعرف إلا قدراً يسيراً من هذه اللغة مع ظنه أنه يتقنها، فإذا سأل بعض مرافقيه أو خدمه المرافقين له عن اسم قرية مرّ بها وأجابه ذلك العربي: ما أدري، وضع الرحالة على خارطته لجمهوره في الغرب قرية في ذلك الموقع ذكر أن اسمها مدري! وكثيراً ما أوقع الخدم المرافقون الرحالة في مثل هذا الخطأ. يقول بعض النقاد الذين كتبوا عن سانت جون فلبي إنه كان رجلاً فظّاً لا يقبل من خدمه كلمة ما أدري، فكان على ذلك الخادم أن يعدّ له خطاباً للرد على كل سؤال،

سواء عرف إجابته أو لم يعرف، وكان فلبي يسجل تلك الإجابة الكاذبة على أنها الحقيقة. كذلك نجد من بين خدم أولئك الرحالة أيضاً من يدّعي المعرفة ليعمل على كسب المزيد من ودّ سيده وكرمه، فيجيبه عن كل سؤال بما يطرأ في ذهنه. وعلينا أن نُنبّه إلى أن الأدلاء الذين كانوا يصطحبون الرحالة عبر ديارهم لحمايته في ما يعرف "بالخوّة"، كانوا على النقيض من الخدم المرافقين له، عادة ما يضنّون عليه بالإجابة بما يعرفونه، فقد كانوا لا يطمئنون إلى ما يريد الرحالة تسجيله عن ديارهم، وربما عمد بعضهم إلى الكذب لتضليله.

لا مندوحة من القول إن لكل رحالة أسلوبه في مخاطبة القارئ، فهناك عدد قليل منهم لا يمتلك ناصية البيان في لغته، ويفشل بالتالي في سبك الرواية ويعجز عن التأنق في أسلوبه، ليدخل عليه شيئاً قليلاً أو كثيراً من المحسّنات البديعية ليكسر به رتابة السرد. يعمد مثل هذا الرحالة إلى ذكر المعلومة بصفة مباشرة – كما هي الحال غالباً في روايات وتقارير بعض العسكريين والإداريين وغيرهم من المسؤولين – فتجده لا يهتم بطلاوة الأسلوب الذي قد يأخذه بعيداً عن الواقع أو قد يعجزه التعبير عنه. ومن عجب أن مثل هذا الرحالة الذي لم يتمكن من إثبات علوّ كعبه في مجال الرواية لن يصيب لدى عامة القراء قبولاً، ولن يصادف عمله شهرة في مجتمعه الذي اعتاد في مؤلفات رحالته في شبه الجزيرة العربية فنون البلاغة المفضية غالباً إلى السخرية من البدائي والغريب الذي يبالغ الرحالة في تصويره.

تتأثر الرواية التي تخدم هدفاً معيناً في العادة بالمشاعر الشخصية للرحالة، وتستجيب في الغالب للمغالاة في تصوير الواقع. فإذا وجد الرحالة من بعض القوم الذين مرّ بديارهم كرماً ذكره وأشاد بذلك البدائي النبيل الذي لا يتميز بالعقلانية التي تقتضي منه أن يحتفظ بالقوت لعياله في تلك المنطقة الشحيحة المصادر بدلاً من إهداره لعابر سبيل لا يربطه به رابط، أما إذا مرّ بمنطقة سرق البعض منه شيئاً من متاعه فنجده يُعمّم الجرم ويرمي القبائل التي تعمر تلك المنطقة كلها بممارسة السرقة والتعدي وعدم الأمانة. وإذا صادف الرحالة غدراً من شخص ما، اتهم كل القبيلة التي ينتمي إليها ذلك الشخص بالغدر والخيانة، وربما شمل بعضهم بهذا الوصف كافة القبائل التي تعمر الجزيرة العربية. وإذا وجد شغباً من صبية في قرية أو مدينة وصم كل ساكنيها بالتعصّب والهوس. وهكذا نجد أن المشاعر الشخصية التي يلقي الرحالة فيها الحكم على عواهنه، رغم أنها لا تمثل خللاً في منهج الرواية، تمثل أحد أبرز العيوب المنهجية حين يعمد الباحث إلى استعمالها شاهداً على مجتمع تلك الفترة، فالروايات في إبداعها الخيالي والمتخيل تتجاوز واقع كل الأزمنة والأماكن. وممّا لا شك فيه أن الرحالة الغربيين كلهم – على اختلاف الأهداف التي يخدمونها واختلاف الوظائف التي يشغلونها، واختلاف أعمارهم، وتباين الأساليب التي يكتبون بها – يعمدون إلى تضخيم ذواتهم حين يكتبون عن شجاعتهم في مجابهة مخاطر الطريق، ويبالغون في تصوير المعاناة التي مرّوا بها

للحفاظ على أمنهم الشخصي، ويكذبون بجرأة متناهية حين يقول الفرد منهم إنه نجا من تلك المخاطر الجمّة بفضل رباطة جأشه وما يحمله من سلاح ناري أو ما حمله بعض خدمه العرب المرافقين له من سلاح. وتتجاوز هذه الادّعاءات بالشجاعة التي يسبغها الرحالة الغربي على نفسه وشخصه إلى الجنس الغربي كله الذي يُضحّي بشجاعة لامتناهية، ويعرّض نفسه للخطر في سبيل المعرفة والاستكشاف. فمن الثابت أن الرحالة يتعرض في تلك الصحارى لتقلّبات الجوّ، رغم أنهم عادة ما يرتحلون في فصلي الشتاء والربيع، كما قد يعاني الرحالة نقص الزاد، أو يضطر في الغالب إلى أن يزدرد مياهاً ملوّثة، وربما تنتابه الأمراض ويعاني غير ذلك من إرهاق وعثاء السفر، ولا ننكر أبداً أنه شخصية مغامرة، ولكننا نؤكد أنه لن يعاني أبداً الخوف على سلامته الشخصية، فذلك أمر تضمنه الأعراف العربية التي يضطر الرحالة إلى التزام حدودها. فقانون الخوّة الذي يجب على الرحالة إلى شبه الجزيرة العربية أن يتسلح به قبل أن يبدأ مغامرته، يشمل في العرف العربي حماية حتى الضواري والسباع. ولعل من الطريف أن نذكر أن بعض صعاليك العرب كانوا في مراعاتهم لهذا العُرف يحمون الجراد النازل حول خبائهم ويقاتلون دون صيده. وعلى ذلك فلن يضارّ أي إنسان في جسده وممتلكاته ما التزم مراعاة ذلك العُرف الذي التزمه كافة الرحالة الأوروبيين بنحو تام. ولا نعرف أي رحالة، حتى لو كان عسكرياً مثل سادلير، مبعوث حاكم الهند، أو إدارياً مثل بيلي، ملك الخليج غير المتوّج الذي كان يمثل إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، دخل إلى شبه الجزيرة العربية من دون مراعاة ذلك العُرف الذي ضمن لهم الأمن المادي خلال رحلاتهم. فكل رحالة كان يؤجر، بموجب هذا العُرف، أحد الأدلاّء من القبيلة التي يمرّ بديارها "ضامناً" لحمايته من أي تعديات في ديارها. وربما كلف بعض الشيوخ مثل هذا الضامن، من دون تلقّي أجر أو الحصول على منافع مادية أخرى من الرحالة للقيام بهذه المهمة داخل نطاق دائرة نفوذه وحمايته حتى يخرج عنها. وكثيراً ما حمل هؤلاء الرحالة خطابات توصية من بعض الشيوخ الكبار إلى الشيوخ الآخرين في المناطق الي يمرّ بها الرحالة تقوم مقام ما نعرفه بجواز السفر الذي يضمن له مروراً آمناً وإقامة كريمة في بعض مراحل الطريق. كذلك كان المرتحلون منهم ضمن قوافل الحجيج تحت الحماية المباشرة لحرس تلك القوافل، وعلى ذلك فإن ما يدّعيه الرحالة كلهم من مقاومتهم مخاطر النهب والسلب في الطريق وتحسّسهم لأسلحتهم النارية للتهديد باستعمالها أو استعمالها فعلاً ضدّ مغيرين على ركبهم هو من قبيل الكذب الصراح، ومحاولة منهم لادّعاء بطولات وهمية، وإنكاراً منهم للاعتراف بأنهم كانوا خلال رحلاتهم تحت حماية أصحاب الأرض. ومن عجب أن كافة كتب الرحالة تظهر تناقضاً حاداً حين يعترف الرحالة بأنه استأجر حارساً أو خفيراً أو "خوي" من القبائل التي يمرّ بديارها مصحوباً بالسلامة، ثم يحدثنا بعد ذلك عن بلائه شخصياً في ردّ اعتداء كاد أن يقع عليه، وعن مجابهته أخطار الطريق بشجاعة

ورباطة جأش. ولا يخلو كتاب أي من الرحالة من هذه الثنائية المتناقضة التي تعبّر عن مضمون فكري فحواه أن الغربي شجاع جسور، أما العربي فغدّار خؤون، ولكن يمكن السيطرة على همجيته بسهولة ويسر.

خاضت إبل إبليس في كل المجالات، وعاشت في شبه الجزيرة العربية قدراً من مظاهر الحياة الطبيعية والإنسانية، وحملت ملاحظاتها في مظاهر الثقافة المادية والشعبية السائدة في تلك الأرض إلى دوائر مختلفة الأهداف والمشارب في بلادها.

كتب العديد من الرحالة في عادات العرب في مناسبات الولادة والتنشئة والزواج وروابط الأسرة والطقوس الجنائزية، وعملوا على استقصاء دورة الحياة الإنسانية في هذه المنطقة، وتناولوا جوانب من الطب الشعبي والسحر والشعوذة. وكتب هؤلاء الرحالة عن الصحراء العربية وطبيعة الأرض، وعن القوافل العربية وتنظيمها، ومجالس القهوة وما يدور فيها من حكايات، والخيمة البدوية وما تضمّه من آنية وأدوات، وفي أشكال أزياء الرجال والنساء، وزينة النساء وآلات العزف والموسيقى، وما إلى ذلك من مظاهر تلك الثقافة المادية. وربما جرى الاعتقاد أن الرحالة جميعهم لا يختلفون في وصفهم لتلك المظاهر المادية، ولكنهم – على العكس من ذلك – اختلفوا اختلافاً كبيراً و لم يتفقوا إلا في الهدف الذي جمعهم من إبراز البدائي والغريب في بلاد العرب. تداخلت المشاعر الإنسانية في هذا المجال حتى انعكست على مظاهر الطبيعة وطوبوغرافية الأرض. فعلى سبيل المثال، كتب بالجريف عن طبيعة الأرض في النفود التي كتبت عنها أيضاً آن بلنت كما كتب داوتي عنها أيضاً، وكان رأي كل منهم مختلفاً عن الآخر اختلافاً بيّناً. وعلينا حين نعتمد أدب الرحلة أن ننظر في ما شاهده الرحالة الغربي بعينه المجردة – لا بعين ذاتيته – لنعتمده بعد النقد الجاد، أما مشاعره الشخصية ومرئياته الجمالية التي تسبغ على الرحالة لدى القارئ الغربي تفرّده في مجال الكتابة، فإن أمرها لا يعنينا في شيء. ويمكن أن نضيف أن معايير الجماليات المادية في الشرق تختلف عنها في الغرب بصورة أكبر من اختلاف الجماليات الأخلاقية. يصف بعض الرحالة على – سبيل المثال – اتخاذ المرأة الحناء زينة لليدين والأرجل ويرى في ذلك ما يفسد جمالها، وهذا ما لا يراه أي من العرب. وعادة ما ينقل الرحالة الغربي بعض القصص والروايات من التراث العربي، ويثبت صوراً كاريكاتورية من التراث الشعبي من رقصات و"عرضات" من التراث المادي للعرب يصف حركاتها عادة بالرتيبة كما يستنكر بعض معاني الرجز المواكب "للشيلات الحربية"، وينتقد معاني الأغاني التي هي بنت تلك البيئة البدوية، وغالباً ما يرى الرحالة عدم التناغم بين حركات الراقصين ودقات طبولهم التي تنتج بدورها موسيقى غير متجانسة. وقد يهمنا مما كُتب – في هذا المجال – وصف الرحالة لحركات أجساد الراقصين، كما يهمنا أيضاً نقله لما قد يسمعه من أغانٍ وأشعار

نبطية أو غير ذلك، ولا يهمنا بحال رأيه في معاني ما أورده من صور وأشعار.

مثّلت المرأة العربية فصلاً مهماً ومثيراً في كل رواية من روايات الرحلة الغربية في جزيرة العرب. وغالباً ما يتفق كل رحالة لاحق مع السابق له على المألوف عندهم من أن المرأة العربية مهيضة الحقوق، تبُاع وتُشترى لما تصيبه من مهر بزواجها. وادّعى العديد منهم أن وظيفتها في المجتمع العربي لا تزيد على إشباع نهم الرجل الذي يستمتع بما أتيح له من ممارسة التعدد الذي قد ينكر بعض الرحالة أخذ العرب به. ويوغل بعضهم بعيداً وهو يمارس معلوماته التاريخية ليطبقها على واقعه الذي عاشه في شبه الجزيرة العربية، حين يتحدث عن المرأة في شريعة موسى من دون أن يشير إلى عدم وجود أدنى صلة لما ذكره بواقع المرأة العربية في زمانه، أو قد يعرض بعض الرحالة ما كان في الجاهلية من وأد البنات و﴿إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مُسودّاً وهو كظيم﴾ من دون أن يذكر أن الإسلام قد قضى تماماً على هذه الممارسة التي لم يحدث أن شاهدها أي من الرحالة الذين كتبوا عنها كأنها حقيقة ماثلة. وقد يبالغ بعضهم أحياناً فيرى في المرأة العربية رشاقة وجمالاً وأنوثة تفوق ما يستحقه الرجل العربي من غنج النساء! وكثيراً ما ذكر بعض الرحالة بصراحة أن إحدى العربيات قد راودته عن نفسه أو قد يشير إلى ذلك تلميحاً، ويكتب أن إحدى أصغر زوجات رجل مسن نزل به أبدت اهتمامها به وبادلها اهتماماً باهتمام. وغالباً ما يردّ الرحالة إعجاب حسناوات العرب به، حتى لو كنّ واقفات بعرفات، إلى بياض بشرته. ولا نجد في أنفسنا ما يجعلنا ننفي فساد بعض النساء العربيات، فالفسوق شأن إنساني تعيشه كافة المجتمعات في كافة العصور، خاصة تلك التى لا تعيش الفضيلة التي يحضّ الدين على التمسك بها، ولكننا نستغرب من الرحالة الأبيض كذبه المفضوح في أن تتعلق امرأة – من أي جنسية كانت – بأجنبي عابر لا تعرف لغة للتواصل معه تعلّقاً يفضي بها إلى مطارحته الغرام من دون سابق ألفة. ولا يكفي بياض بشرة الأوروبي، الذي شهد بعض هؤلاء الرحالة أنه كان يُعدّ عند بعض أهل شبه الجزيرة العربية مرضاً جلدياً خطيراً، لكي تتخطى العاهرة العربية كافة الحواجز لتصل إلى حضن ذلك الرحالة، مع علمنا بأن العديد من هؤلاء الرحالة قد شهد على نفسه تصريحاً أو تلميحاً بأنه شاذ جنسياً يتعاطى الجنس المثلي مع بعض خدمه المرافقين له.

ظلّت صورة المرأة في الجزيرة العربية في كتابات الرحالة غمامة كثيفة من التفاصيل الغريبة التافهة لاستثارة خيال القراء في ما وراء البحار، ومثّل نقاب المرأة العربية موضوعاً أساسياً لكل الرحالة الغربيين الذين زاروا شبه الجزيرة العربية، و لم يستحسنه أي منهم. ونقل هؤلاء صورة المرأة المنقبة إلى مجتمعاتهم التي استهجنت تلك العادة، ورأت فيها حظراً على حرية النساء في أجسادهن! وربما كان النقاب من أبرز الموضوعات التي أثارت حفيظة تلك المجتمعات الغربية لمخالفته أسس ما ورثته المرأة الغربية من مساواة مع الرجل بفضل الثورة الصناعية في

الغرب، التي كانت من أهم محفّزات الرحلة الغربية إلى الشرق في العصر الحديث جرياً وراء موارده البكر. وقد انعكس أثر النقاب حتى على الكتب التي أُلفت في أدب الرحلة لاحقاً، فنجد من كتب منهم تحت عنوان: كشف النقاب عن شبه الجزيرة العربية، وأصبح نقاب المرأة العربية رمزاً يدلّ على سعي إبل إبليس لاستكشاف كل أمر غمض عليهم في تلك البيئة العربية الغريبة عنهم.

وقع العديد من هؤلاء الرحالة في تناقض وهم يتناولون موضوع المرأة حين كتبوا أن المرأة البدوية تظفر باحترام خاص حتى من الأعداء، فإذا هاجم حي من العرب حياً آخر لم يلحق النساء من الأعداء سوء. أما إذا وصل العداء إلى محاولة الاستحواذ على حلي تلك المرأة أو بعض زينتها، فإن المهاجمين يأمرونها بخلعها لهم ويعطونها ظهورهم حتى لا يطّلعوا على شيء من جسدها. كذلك شهد آخرون منهم بأن المرأة العربية كانت في بعض الحروب ضدّ البريطانيين صنو الرجل، تقاتل إلى جنبه يداً بيد. وذكر آخرون منهم أيضاً أن زوجات الشيوخ المنقبات كن يستقبلن الأجانب الزائرين في مضارب قبائلهن ويبذلن لهن في غياب أزواجهن في رحلات الحجّ أو غيرها ذلك الكرم المعهود. كذلك نجد عند بعض الرحالة أخبار إحداهن التي كانت في حماية قلعة زوجها فحافظت عليها بمعاضدة رجال قريتها حتى عاد الزوج بعد إطلاق سراحه من سجن أخيها، كما نجد من صناديد العرب من ينتخي باسم أخته، ونعرف من سلاطينهم الكبار من لا يقطع برأي ما لم يستشر أمه. ورغم هذه الشهادات التي ترد في كتبهم، عادة ما ينتهون إلى أن المرأة العربية مسلوبة الإرادة والحقوق. وفي الحقيقة فإن المساواة التي يعمل الغرب على إسباغها على النساء في مجتمعاته شأن تجاوزته المفاهيم الإسلامية، فالمساواة لفظ يدلّ على وجوب عدم التمايز والتفاضل بين شقين، ولا يعترف الفكر الإسلامي بشقين لإنسانية الإنسان، فالكل سواء أمام الخالق، وفي هذه الدنيا. فلا تمايز بين الجنسين، ذلك أن حواء، جسداً، بعض من آدم بنصّ القرآن الكريم، أما روحاً فكلا الجنسين – كما نصّ القرآن الكريم أيضاً – من نفس واحدة، وعلى ذلك فإشكال العلاقة بين الشقين ليس في علاقة المساواة التي ضمنها لهما الخالق سبحانه منذ الأزل، فهي علاقة تكامل تبادلية في جسد مجتمع لا يصلح إلا بقيام كل منهما بوظيفته. ومع أننا لا نستطيع أن نمايز في الجسد الواحد بين القلب والدماغ أو نساوي بينهما، إلا أننا نستطيع القول إن الأول يفسد بفساد الآخر، وإن الحياة لن تكتب لأحدهما من دون الآخر. وليس الذكر كالأنثى، فقد وضع الله في كل جنس منهما خصائص طبيعية يفتقر إليها الجنس الآخر؛ فكلاهما ناقص بنفسه كامل بتكامله مع الآخر. ولن يستطيع أي من الجنسين إعمار العالم إلا بتكامله وتناغمه مع شقّه الآخر. ولعل من الطبيعي أن تكون دعوتنا خالصة إلى التكامل بين الجنسين الذي قضت به المشيئة، أما المساواة بين من خُلقا ناقصين ليكملا أحدهما الآخر – كما قضت المشيئة – فلا ينتج منها

إلا الزيادة في النقص والخسران لمخالفتها سنن الكون وطبيعة الأشياء. ومع ذلك فلا بد من القول إن المرأة العربية عاشت في بعض المجتمعات العربية منقوصة الحقوق التي كفلها لها الإسلام، إلا أنها - رغم ذلك - ظلّت في تلك المجتمعات - في ماضيها وحاضرها - أبداً محل تقدير الرجل، فهي الأم والأخت والحبيبة والزوجة والبنت، وهي أولاً وآخراً الشرف الذي لا يمكن العربي - عادة - التفريط في شيء منه.

نخلص إلى أن قصص الرحلة ومرويّاتها لا تخرج عن سياق الأدب غير العربي، الموجّه لمخاطبة مجتمع غير عربي، لتحقيق رسالة وطنية في ذلك المجتمع لا تتصل بنحو مباشر بأي شأن يخدم عرب شبه الجزيرة العربية في أي هدف وطني أو قومي، قصص كتبها رحالة مؤهلون بمعارف تتناقض تماماً وتتعارض بنحو حاد مع مفاهيم الثقافة العربية. فإذا كان الراوي منحازاً بحكم تأهيله، وإذا كانت الكلمة التي يكتبها ذلك الرحالة منحازة بحكم اختلاف المفاهيم الثقافية بين الشرق والغرب، وإذا كان المجتمع الذي يخاطبه الرحالة منحازاً بحكم توجيهه لمواكبة أهدافه الوطنية، وإذا اعتذرنا عن الرحالة الغربي بأنه كان يصوغ إبداعاً يُمكّنه من أن ينحرف إلى أي اتجاه يُقرّبه من تحقيق أهدافه المتوخاة، فهل يجوز للباحث العربي توظيف هذه الانحيازات جميعها في أبحاثه في علوم الاجتماع والتاريخ والدعوة وغيرها من العلوم التي تقتضي منه التزام الحياد العلمي الذي يجب ألا تحيد عنه بحال؟

نقول بجواز ذلك، بل نرى أنه فرض كفاية يقع على جماعة الباحثين العرب الجادين، المؤهلين بمعارف النقد العلمي، القيام به، وعلى الباحث أن يتمتع بسعة المعرفة بالعلوم المتصلة بمرويّات الرحالة المعني، وبالحصافة اللازمة للتمييز بين الحقيقة والزيف على ضوء الأهداف االشخصية والوطنية التي توخّاها الرحالة، إضافة إلى معرفة ما يتصل باتجاهات السياسة المعاصرة للوقت الذي أرسل فيه ذلك البلد رحالته إلى شبه الجزيرة العربية، والأسلوب الذي اتخذه ذلك الرحالة حين صاغ روايته. وعلى الباحث - قبل هذا وذاك - أن يتمتع بمعرفة اللغة التي كتب بها الرحالة حتى لا يلجأ إلى النصوص المترجمة، ما يُدخله - غالباً - في خلل منهجي خطير. فالألفاظ في لغتها الأصلية ليست أداة توصيل لفكر ذلك الرحالة فحسب، بل مستوى من التعبير يناظر الشحنة الحياتية التي عايشها في ذلك المجتمع الغريب عنه لغة وثقافة، وتحضّ على الهدف التحريضي الذي يقصده الرحالة المعني. أما الهدف الذي حملنا على أن نوجب على هذه الفئة من الباحثين القيام بالنظر في هذا الخليط القصصي الذي مازج بين الحقيقة والخيال، وبين صادق القول والزيف، فهو العمل لإدراك المعنى الكامن وراء المعنى لحماية مجتمعهم العربي من أمور يتكرر شبهها، ولا تزال إبل إبليس تسعى للقيام بما يماثلها بأساليب مختلفة. فقد رُسمت لنا في غيابنا في الفترات التي وفد إلينا فيها هؤلاء الرحالة صور مبتسرة كان لها دورها المؤثر في صياغة مصائرنا. صوّرنا أولئك الرحالة - بشيء من الصدق

وكثير من الزيف – مجتمعاً مهمشاً ذا ماضٍ بدائي غريب منكسر، تلفّه المنازعات القبلية وتكتنفه النزاعات الطائفية وتُفرق بينه الخلافات، وربما كان هذا الواقع المشين هو السلعة الأبرز التي حملتها إبل ابليس إلى ديارها عبر العصور، حيث يُعاد هناك تدويرها ثم تصديرها إلينا سياسة ناعمة، فننزلق إلى كنف حمايتهم، ونعيش من ثمّ وهمَ أمن لن يتحقق ما لم نتصالح مع أنفسنا ونصالح أهلنا ونمدّ أيدينا لمصافحة جيراننا، ونستعيذ بعد ذلك بالله من همزات الشياطين، حتى لا يفلح سعيهم في أن تبقى الأواصر بيننا مقطوعة والجفوة مستدامة. لقد بتنا جرّاء مخططات الحكومات الغربية التي بدأت بالاستعمار الصريح الذي كان الرحالة الغربيون أول رُسُله، غير واثقين بقدراتنا، ما دفع بنا إلى هذا الحاضر المرتبك، وأصبح البعض منا يعتقد أن غدنا لا يُحدث إلا عن مستقبل حالك ما لم نلتزم – كما هو شأننا حتى الآن – الاعتراف بهمجية ماضينا الذي استهجنه الغرب لما حمله من بدائية، وهمجية حاضرنا الذي استنكره لما يسوده من إرهاب، وأن علينا للخروج من دوامة الهمجية الملازمة لنا اتباع قيادة الغرب والسير وراء ركبه، حتى لو دخل بنا جحر ضبّ وأحجرنا فيه. ومن أسف أن بعض المستغربين في مجتمعاتنا وآخرين ممن يعتقدون أنهم من دعاة التقدم، التزموا غواية إبل إبليس التي صوّرت لهم رياض الأرض الوادعة المستسلمة التي يتفيّأ البعض في مجتمعاتنا ظلال أشجارها المحرّمة جنّة في مواجهة سعير الأرض المناضلة ثباتاً على الحرية التي روتها دماء الشهداء، وصولاً إلى مجتمعات إنسانية في عالم يسوده العدل وتظلّله الكرامة، لا تسلّط فيه لغرب على شرق ولا لأبيض فيه على أسود.

لا مناص من أن يعمل الباحثون المتمكنون من العرب على نقد فكر أدب الرحالة الغربيين وتحليل نصوصه التي تصرّ على شيطنة العرب. ولا نقول إن الهدف من ذلك إقناع سائر الباحثين في الغرب للرجوع عنه، فذلك أمر دونه خرط القتاد في الوقت الراهن، فقد غرست جذور هذه الاقتناعات ورُسّخت منذ أمد بعيد، وأورقت وأتت لمجتمعاتهم أكلها اللذيذ على مدى أكثر من أربعة قرون، ولكن يقع علينا العمل على بناء عقل عربي يعي أبعاد تلك الاقتناعات الغربية، عقل متحرر من كافة القيود الضاغطة، وذلك لتأكيد أن العرب يعيشون في قلب الأحداث ويلعبون دورهم في هذا العالم الذي يعيشون مع غيرهم فيه وليس على حافّته، عرب يحتكمون إلى تراثهم وتاريخهم الذي يقوم على مبادئ الحقّ والخير والسلام للإنسان حيث كان، فكل الرسالات التي تنزّلت في الشرق أوجبت على إنسان الشرق التقيّد بها بل وحملها إلى الآخرين من أهل الأرض جميعاً. وهذا هو الدور الذي نراه للباحث الجاد الذي يجب عليه قراءة أدب الرحلة قراءة فاحصة ليؤدي دوره لتحقيق الأهداف المنوطة به لحماية مجتمعه من الزيف. وحين تكتشف مجتمعاتنا بأقلام باحثيها حقيقتها، سيضطر الآخرون إلى الرضوخ للحقيقة التي طمستها في مجتمعاتهم آثار إبل إبليس، ويمكن – مع تقدم الزمن – أن يقودنا الثبات على نهج الحقّ وفق مناهج علمية قويمة أن تصيخ تلك المجتمعات وتحاورنا بالقلم

لا بالصاروخ. وتدخل من ثمّ المجتمعات كافة، شرقاً وغرباً، في السلم، وتزهد مجتمعاتهم في ضروب الاستعمار الحديثة منها والعتيقة، ولا ترسل بعدئذ أبناءها إلى مناطق بعيدة عنها ليقاتلوا أهلها فيقتلونهم ويُقتلون، بل تبعث بهم رسلاً لتبادل المنافع يعطون ويأخذون، وبذلك يمكن أن يسود العالم سلام يقوم على الاحترام المتبادل للثقافات وتبادل الخبرات والتجارات.

نقدم هذا العمل الذي سلخ من عمرنا ما يزيد على ثلاثة عقود للقارئ العربي في ثلاثة مجلدات. جمعنا في المجلد الأول ما انتهى إلينا من آثار إبل إبليس في ثرى الجزيرة العربية وعلى أطرافها، منذ بداية الاستعمار الغربي الذي اختطته البرتغال بحروبها في الشرق في العصر الحديث. ولا تختلف سِمات تلك الحروب تاريخياً عن الحروب الصليبية، ولكننا حين أوكلنا كتابة تاريخنا إلى الغربيين وأخذناه عنهم، أصبحنا نحتفل بتاريخ الغزو الغربي البرتغالي لأوطاننا. فقد رسخ في ذاكرة المؤرخ العربي عن هذه الفترة – من دون أن يحسّ خجلاً ولا حرجاً – أنها تمثل بداية لتاريخ العرب الحديث.

ذهبنا في المجلد الأول إلى جمع قصص وروايات الرحالة التي وقعت في أيدينا منذ ذلك التاريخ الذي هو بداية لتاريخ العرب الحديث، حتى انتهينا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وحشدنا في المجلد الثاني ما وصل إلينا من هذه التقارير والقصص والروايات حتى نهاية ذلك القرن. أما المجلد الثالث فقد اتسع لما حشدناه فيه من رحلات النصف الأول من القرن العشرين، وأضفنا إليه متفرقات شتات التزمنا فيها وحدة الموضوع عوضاً عن التسلسل الزمني. ونستميح القارئ عذراً في أننا لم نلتزم في هذه المجلدات الثلاثة وحدة منهجية تجمع هذا الشتات من أدب الرحالة الذي كان اهتمامنا به يشتد ويخفت ثم لا يلبث أن يطلّ علينا برأسه مجدداً ويدخل في تلك الدائرة المفرغة. وكان لهذا الاهتمام المتقطع عبر هذه العقود الثلاثة قصة نستميح القارئ – مرّة أخرى – عذراً في سردها علّه يغفر لنا اختلاف المنهج في العمل الواحد والتجاوز – أحياناً – في أسلوب معالجته.

جمعت بيني وبين عالم سعودي جليل من علماء الأدب العربي هو أ. د محمد بن عبد الرحمن الربيع أواصر صداقة وثيقة، وكثيراً ما كنا نجتمع على إحدى موائده في أحد مطاعم الرياض أو منتدياتها نستمتع بكرمه وبكل مستظرف من فنون الأدب العربي، وعادة ما يمتدّ الحديث فينتقل إلى هموم البحث العلمي في مجال الإنسانيات. وكان هذا هو همّه الشاغل، حيث كان في ذلك الوقت من بداية الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي مديراً لمركز البحوث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي كنت أعمل مدرساً في قسم التاريخ في كلية العلوم الإنسانية فيها، وكما كان لي دور رئيس في وحدة بحوث الخليج والجزيرة العربية في ذلك المركز أيضاً. وتشعّب النقاش في أمسية من تلك الأمسيات العامرة إلى أدب الرحلة الغربية وما يؤديه هذا الفن في تاريخ شبه الجزيرة العربية. واقترح ذلك الأديب الأريب علينا أن نقوم

بترجمة ما يمكننا ترجمته من تلك الكتب إلى العربية، وانتهى الأمر بكلينا إلى اقتناع أن ترجمة ذلك الكم الهائل من كتب الرحالة أمر قد يستنزف جهد فريق كامل من الباحثين لعدد كبير من السنين. واستحسن الأستاذ ما اقترحته عليه من ترجمة أهم التقارير التي تركها أولئك الرحالة، مع إجراء دراسة جادة لكل تقرير على حدة. وتحمّست لهذه الدراسة، فطرت في أول إجازة إلى لندن وجمعت من أرشيفها ومكتباتها عدداً من تقارير الرحالة، وصوّرت بعض فصول من بعض كتب رحالة من المشهورين، وأخذت في ترجمة ما اعتقدت أنهما أهم تقريرين، وهما تقرير سادلير، مبعوث الهند البريطانية إلى إبراهيم باشا بعد تدميره الدرعية، عاصمة الدولة السعودية القديمة، عن رحلته عبر الجزيرة العربية من أدناها إلى أدناها، وتقرير المقيم البريطاني لويس بيلي عن رحلته من الكويت إلى الرياض. واجتهدت في دراسة الرحلتين حتى ساقتني الحماسة إلى العمل على تحقيق التقريرين عن طريق القيام بالرحلة سالكاً الدروب ذاتها التي قطعها الرجلان. وبدأت في فترة الإجازة التالية القيام بالرحلة في إثر سادلير، واقتفينا أثره من الدمام وتابعناه إلى المدينة المنوّرة، وسرنا في دربه حتى انتهينا إلى جدّة، و لم نترك موقفاً وقفه الرجل إلا وقفنا عليه. وبدأنا من ثمّ رحلة العودة إلى مقرّ العمل في الرياض، فصادفتنا عند مشارفها سيارة منطلقة من هضبة الرياض كالقذيفة اعتلت سيارتنا وانتزعت سقفها وألقت بنفسها وبمن فيها بعد ذلك في الوادي فتناثرت أشلاءً، في مشهد يصعب تصويره إلا على مخرج لفيلم رعب أمريكي. ونحمد الله أن أسبغ علينا جميعاً نعمة السلامة و لم يضارّ من أسرتنا ولا من أسرة صاحب القذيفة المرافقة له أحد، أما هو فقد كتبت له السلامة بعد معاناة طويلة.

وحين انتهينا بعد ذلك الحادث إلى منزلنا، ألقينا بسادلير في درج المكتب و لم نعد بعدها نسير في إثر إبل إبليس أبداً، أو نتبع غوايته حين حاول أن يقنعنا بأن السيارة أضمن للسلامة في تلك الدروب من البعير. وانتهت فورة الحماسة الأولى التي كنا في أوج فترتها نعتقد أن لكتب الرحلة الغربية فائدة قصوى كمصدر من مصادر التاريخ الحضاري لهذه المنطقة التي لم تتمكن من تسجيل تراثها في تلك الفترات، لأنها كانت أميّة لا تكتب، إضافة إلى أنها كانت تعيش ذلك التراث وتراه محفوظاً في الصدور ولا تجد معنى لتسجيله. ولكننا مع تقدمنا في دراسة رحلة سادلير، تكوّن لدينا شعور بأن ما ورد في تلك الرحلة لا يعبّر عن واقع المجتمع العربي في ذلك الزمان، بل ألقى عليه ظلالاً معتمة حجبت عنا الصورة الحقيقية لذلك المجتمع المسالم المضياف الذي يحرص إنسانه على سلامة الأجنبي فيه أكثر من سلامته على شخصه. فالعرب في تقدير سادلير – كما هم في نظر كافة الكولنياليين حالياً – عاجزون لا أهمية لهم يثيرون الاشمئزاز، وبلادهم هي مهد التطرف الديني ومستودع الخرافات. وقد دفعنا هذا الشعور إلى العودة مجدداً للاهتمام بأدب الرحلة الغربية، فإذا بالشعور يترسخ ويتحول إلى يقين. وتحققنا مع تقدم دراساتنا في هذا المجال وتتبعنا – من خلال ما يُكتب ويُذاع – من أن صورة العربي

في الذهن الغربي لا تزال تعكس تلك الصورة النمطية التي شكّلها في تلك المجتمعات ذلك الأدب الشيطاني عبر السنين.

شكلت الرسائل التي حملتها إبل إبليس، مع مرور الزمن، في المجتمعات الغربية – خاصة بعد أن اعتمدتها مراكز بحوثهم – صورة العربي ومفردات ثقافاته. ولا نشك في أن الباحث العربي الذي قرأ لهؤلاء الرحالة ما كتبوه في لغاتهم الأصلية – حين يستمع في الفترة المعاصرة في وسائل الإعلام العربية لزيد أو عمرو ممن يُعرّفون بأنهم خبراء دوليون في مراكز بحوث إنسانية غربية مرموقة أو لسياسيين غربيين – يُخيّل إليه أن هذا الخبير الغربي المعاصر إنما يقرأ على الهواء رسالة حملها إلى مجتمعه واحد أو أكثر من إبل إبليس، وذلك مع الأخذ في الاعتبار أن القراءة تختلف باختلاف زمنها واختلاف مستوى قارئها ومستوى ثقافته. فلا ضير إن هذّب الخبراء المحدثون صورة النصّ الذي تركه الأقدمون وقدموه إلى وسائل إعلامهم وإعلامنا في قالب جديد، من دون الخروج عن محتوى ما كتبه أولئك الرحالة ومضامين ما حملته رسائلهم من مقاصد. ولا ريب في أن ينقل ذلك عنهم بعض المستغربين في مجتمعاتنا ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٢-٦٤). يرى المستغربون منا في تلك المراكز البحثية الغربية خلاصة العلم، رغم أننا نراها في ما يتصل بعلوم الإنسانيات مفلسة لا بضاعة لها إلا ما جادت به قرائح أولئك الرحالة ومن لفّ لفهم من المستشرقين الذين يلجأون إلى توكيد الرسائل التي حملتها لهم إبل إبليس من دون وعي منهم أنهم يخرجون على الحياد العلمي الذي هو الأساس الذي تقوم عليه الدراسات الإنسانية. فهل من الحكمة أن يقوم المترجم العربي بنقل تلك الرسائل الشيطانية عن العرب – التي لم يقصد الرحالة بها مخاطبة العرب – إلى اللغة العربية؟

هدفت هذه الدراسة إلى الربط بين الصورة التي نقلها أوائل الغربيين الذين ولجوا ربوع شبه الجزيرة العربية في العصر الحديث إلى بلدانهم والصورة الراهنة للعرب في الغرب التي تنشر في وسائل الإعلام الغربية، بل والشرقية التي تنقل عنها، فإذا هي واحدة مع اختلاف في درجات اللون. ولعل هذا ما يدفعنا إلى القول إن الهدف القديم الذي حمل الغرب إلى الشرق لا يزال قائماً، مع الإصرار على الوصول إليه بالخوض في دماء العرب، باستعمال الوسيلة القديمة المتجددة وهي أن العرب قاصرون وفي حاجة إلى من يرشدهم، متفرقون وفي حاجة إلى من يجمع شملهم لقيادتهم ليحقق لهم مصالحهم من خلال تحقيق مصالح المجتمع الدولي. ولا غرابة في ذلك، فقد وعد لورنس العرب بتحقيق مصالحهم من خلال تحقيق مصالح الغرب، وجازت عليهم حيلته التي يمكن أن تتكرر مرّة أخرى مع هؤلاء القوم الذين لا يتّعظون تحت اسم تحقيق مصالح المجتمع الدولي الذي قيل إنهم شركاء فيه. وما المجتمع الدولي – كما يعلم

العرب وغيرهم - سوى تورية قصد منها إلغاء الفارق بين التعددية التي تشمل دول العالم أجمع، والأحادية التي تعني مصالح الغرب، وعلى رأسه حالياً الولايات الأمريكية المتحدة التي دائماً ما يتحكم في قيادتها نفر لا يتورّعون في سبيل تحقيق مصالح الصهيونية الاستيطانية في الأرض العربية عن قيادة الإمبراطورية الأمريكية إلى حتفها الذي بتنا نراه وشيكاً.

إن ما جمعناه من أخبار الرحلة الغربية في هذه المجلدات من مسوّدات كثيرة اجتمعت على مكتبنا عبر سنين عديدة، قليل جداً مقارنة بما أعرضنا عن جمعه. ويعود عجزنا عن ذلك إلى عدم المعين أو ربما إلى مشاكسة أهل الجهل والغي و الفهاهة والعي، رغم أننا قد وطّنّا أنفسنا على توالي الهموم وتتابع النوائب مع كل إصدار لنا جديد. ونقول كما قال بعض من سبقنا من المؤرخين: اللهم اغفر، ما هذا من التبرم بالقضاء ولا التضجر بالمقدور، بل إن السقيم يستروح إن أبدى التوجع والأنين، ويجد خفاً من ثقلها إذا ناح بالشكوى والحنين. ونضرع إليه تعالى أن نكون قد سلكنا في هذا الكتاب وفي ما سواه في ما مضى وفي ما يستجد من الأقوال والأفعال طريق الهداية ومجانبة الضلال، وأن يغفر الله لكاتبه ومطالعه وسامعه ولناقده الذي يسعى بصدق إلى إصلاح كبواته ومعالجة نبواته. والحمد لله وكفى والصلاة على رسوله الذي اصطفى.

أ. د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم حمدون

مسجد الشيخ عبد الغني حمدون
سنار - السودان.
٢٣ رمضان ١٤٣٣

الباب الأول

طلائع الرحّالة الغربيين

الفصل الأول

بداية الرحلات الأوروبيّة إلى شبه الجزيرة العربية في العصر الحديث

الرحلة من أقدم النشاطات على ظهر البسيطة، وهي بما تنطوي عليه طبيعتها من حركة وكدّ واجتهاد وتسلية ومتعة، لا يعقل أن تقام اعتباطاً بلا هدف. وكلّ رحلة يسبقها هدف، لها بالضرورة نتائج، سالبة كانت أو إيجابية. وحين نطالع التراث الديني، نجد أن أول رحلة هي رحلة آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض، التي جرت في فترة هلامية في بداية التاريخ الإنساني، وكان إبليس الذي أغوى آدم عليه السلام وزوجته حواء هو السبب في هذا السقوط ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦). وكانت الخطوات الأولى لآدم بعد أن تاب الله عليه على ظهر البسيطة فوق ثرى شبه الجزيرة العربية التي ارتحل فوقها من منطقة إلى منطقة في طلب حوائه. ومن أسف أن الآثار المادية الملموسة والشواهد الكتابية لم ترْقَ إلى عهد آدم، فلم يخلّف لنا أبو البشر شاهداً مادياً يحدّث عن نشاطه وكدّه ولأوائه حتى تكامل مع نصفه الآخر. ولكن اسم إبليس اكتسب منذ بداية الإنسانية ذلك البعد الدلالي كقوّة تعطيل سالبة تسعى إلى الإفساد وتعمل على غواية البشر وتصوير الباطل في صورة الحق. ورد في التراث أن آدم التقى زوجته عند جدّة، وقد وصف عدد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مدينة جدّة قبر حواء، ويروّعنا ما ذكروا عن أم البشر قوامها الفارع الممتد على مرمى البصر. ويخيّل إلينا أن أول عربي حدد الحدود البعيدة بين شاهدتي ذلك القبر – الذي لا نعرف عن حقيقته العلمية شيئاً – قد جانب الحقيقة العلمية، وإن لم يجانب الخيال العلمي. فقبر حواء هو الأول من سلسلة عدد لا محدود من قبور أبنائها في العالم المعمور على امتداد تاريخه، ورمز لدورة الحياة على الأرض، ولادة وحياة ومماتاً، حتى يطوي الله الأرض ومن عليها. فلا غرو أن تخيّل

من باعد بين شاهدتي القبر المزعوم أن أمّه كانت فارعة طويلة طول امتداد التاريخ الإنساني على ظهر البسيطة!

كانت عراقة التاريخ في شبه الجزيرة العربية من الأسباب المهمة التي ساقت في العصر الحديث بعض الرحالة الأوروبيين إليها. جاء في محاضرة لأحد أعضاء الجمعية الوطنية للطب في باريس أن الجنس العربي، بتركيبه الفسيولوجي وقوّة مركز الحواس في الدماغ، يبدو قريباً جداً من كمال الصورة الإنسانية في شكلها الأول (الإنسان العاقل الأول = الهوموسابيان). ولعلنا نجد مثل هذا القول عند ثسجر، أحد الرحالة المتأخرين من العاملين في مجال النفط، الذي ربما رأى أن تطور إنسان الجزيرة العربية قد توقف عند تلك المرحلة الطفولية. ونرى أن في اعتقاد الرحالة كارلو جورماني، المولود في ليجهورن في عام ١٨٢٦م، بناءً على ما ذكره هذا الطبيب من أن شبه الجزيرة العربية التي شهدت بحسب زعمه طفولة البشرية قد مثّلت منذ أقدم الأزمنة مهد أفضل جنس من فصائل الخيل، صدقاً أكثر من القول السابق له الذي وضع العربي في العصر الحديث في أولى عتبات الإنسانية التي قطع فيها الغرب شوطاً بعيداً. وإذا استثنينا ما آلت إليه نظرية التطور التي سادت ذلك الزمن من إنكار عدد كبير من فقهاء السلالات والأنثروبولوجيين، يمكننا أن نضيف أن الكشوفات الأثرية في شبه الجزيرة العربية لم تظهر أي أحفورات ولا أي شواهد تدلّ على وجود بقايا للهوموسابيان الذي هو فصيلة من المخلوقات التي عاشت طفولة الدهر في شرق أفريقيا. كان جورماني الذي عمل في القدس وكيلاً لشركات النقل البحرية الفرنسية حتى عام ١٨٥٠م كلفا بالقديم، ووجد الفرصة للنظر في أصالة الخيل في مهدها حين طلب إليه وزير الزراعة الفرنسي في عام ١٨٦٣م أن يشخص إلى نجد ليشتري خيولاً، كما طلب إليه فيكتور عمانوئيل أيضاً شراء خيول للبلاط الإيطالي، فوجدها الرجل فرصة سانحة، فقام برحلته إلى الجزيرة العربية في يناير ١٨٦٤ تحدوه أهدافه الشخصية في البحث عن القديم. وفي الحقيقة، فإن كافة الرحالة الغربيين الذين لم يكونوا في رحلات رسمية ذات أهداف معلنة، ظلّوا يدّعون أنهم يقومون برحلاتهم في شبه الجزيرة العربية مدفوعين برغباتهم الخاصة. وعلى الرغم من أنهم يلجأون إلى هذا الادّعاء يكتمون به الهدف الأساس، نعتقد أن لكل رحالة غربي – مهما كان الهدف غير المعلن لرحلته – كانت له أهدافه الخاصة التي عمل على تحقيقها من خلال تحقيق الهدف الأساس. ولا مندوحة من القول إن أي رحالة من هؤلاء كان من محبّي المغامرة، عمل على إشباع هذه الروح باستكشاف ما اعتبره مجهولاً، كما تطلّع العديد منهم إلى تحقيق شهرة أدبية أو مادية أو سياسية، وقد نالها بعضهم بجدارة. ووقع على جورماني أيضاً أن يتحرّى عن صدق أقوال بالجريف، ذلك الجاسوس الذي كلّفته فرنسا بالقيام برحلة إلى الجزيرة العربية وعاد إلى نابوليون الثالث بقصص هي إلى الخيال أقرب من الحقيقة، ما جعل البعض يشك في قيامه بتلك الرحلة.

أظهر كارلو جورماني إسلامه "متوجّهاً إلى الإله قلباً وإلى محمد شفاهة"، قبل القيام برحلته، وسمّى نفسه خليل في فترة الرحلة. وكان دائماً ما يتّخذ في القافلة موقعاً قريباً من النساء والجرحى ليأمن مخاطر الطريق، إلا أنه صادف في رحلته بعض المضايقات وقبض عليه زامل، شيخ عنيزة، المعارض لفيصل، وأرسله مخفوراً إلى الأمير طلال بن رشيد. وقد حظي هناك بكرم مطبخ الأمير ولحوم حائل ومياهها. فقد جاء عنه أن المرء يمكن أن يلتهم في حائل خروفاً بأكمله شريطة أن يتناول بين الحين والآخر خلال الوجبة قدحاً من مياه الآبار المحلية. ويمضي جورماني يحدّث القارئ الغربي عن الغريب غير المألوف الذي وجده في ديار العرب، ويحكي لهم عن إجراء العدل في تلك الديار، ويصوّر لهم ابن رشيد وقد عقد مجلسه عند الجانب الغربي من المسجد وجلس على يساره كبار إداريّيه في صف واحد، يمثّل المسؤول الأول منهم أول جالس فيه، ويليه الآخرون تباعاً، بحسب تدرّج رتبهم التي يشغلونها، فيما يجلس في مواجهة الأمير، على شكل نصف دائرة، بعض خدمه ورقيقه. وكانوا جميعهم، بلا استثناء، في زي أنيق يرتدون عباءات سوداء وسترات حمراء أو زرقاء موشّاة بفتلات الذهب، ويتمنطقون بخناجر معقوفة، شأنهم في هذا شأن أميرهم. وكانت المدّعية في القضية الأولى امرأة مُسنّة جاءت تشكو من أن الحاكم الموكل بمنطقتها قد استولى على حمارها من دون وجه حقّ، فما كان من الأمير إلا أن أرسل حالاً اثنين من جنوده إلى مقرّ ذلك الحاكم ليأتوه بأميز حمار لديه ويسلّموه إلى المدّعية التي تلقّت من الأمير، فوق ذلك، كسوة جديدة. ويضيف جورماني أن الأمير يحكم على الكذابين وشهود الزور بحرق لحاهم. وقد يكون جورماني صادقاً في الصورة التي رسمها عن إجراء العدل في حائل، ولكنها صورة لا تفيد القارئ الغربي بشيء إلا بزيادة في الرصيد الحكائي الغريب الذي أبدعه قلم ذلك الكاتب، ليكسبه التفرّد والتميّز. ويحكي جورماني عن المرأة العربية التي تمثل واحدة من أبرز اهتمامات جميع الرحالة، ويكفينا منه في هذا المجال وصفه لشعرها الناعم الأسود الذي يسيل منسدلاً يتضوّع عطراً نفاذاً من خليط صُنع من مسحوق لحاء النخل المخلوط بالدهن المستخرج من أليات الأغنام!

كانت الآثار والشواهد المادية فيها على الرسل والرسالات من أهم الأسباب التي حركت دوائر أوروبية – كنسية في الأساس – لدراستها على ضوء موروثاتها وأدبياتها التي تعود إلى العصور الوسطى وما تلاها، فأرسلت البعوث إلى شبه الجزيرة العربية لاستجلاء ما تعدّه حقائق رسخت في أذهانهم عبر العصور. يقول هوجارث في كتابه: **اختراق شبه الجزيرة العربية** الصادر في عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٤م عن الدوافع التي حرّكت الرحالة الأوروبيين "لاستكشاف" الجزيرة العربية التي صوّرها بلهافن سيدة شمطاء قاسية لا تقدم لمن يعمل على خدمتها سوى الإرهاق الذي يذوي بأجسادهم والقلق الذي يودي بعقولهم فيقول:

لا يعود الاهتمام الغربي الواسع بالعرب لأنهم الذين نشروا الإسلام فقط، أو لأنهم الذين

انتشروا انتشاراً واسعاً لم يسبق لقوم سابقين لهم أو لاحقين أن يقوموا به، بل لأنهم تداخلوا في الآخرين حتى ذاب في عقيدتهم وفي لغتهم، لا بل في أشكالهم وسماتهم، أولئك الآخرون. ليس هذا فحسب، ولكن علينا أن نتذكر أنهم شكلوا أسّ السامية الخالصة وكانوا نبعها، وهم الذين "استحدثوا" اليهودية وحددوا إلى حدّ بعيد شخصيتها، والنصرانية كذلك. وهم الذين وسعوا في المفاهيم العربية الخاصة بالعلاقة بين الإنسان والإله، وعملوا على توليد المعاني الجديدة في هذا المجال أكثر ممّا فعله أيّ من الآخرين. وعلى ذلك فليس من المستغرب أن يمتلك رجال من ذوي العقول الراجحة والخيال الخلاق الشجاعة اللازمة للقيام بدراسة هذا العنصر في أرضه.

لا نملك شواهد مادية ملموسة على تاريخ الرحلة والرحالة لفترة طويلة من عمر الإنسانية في بداية العصور الحجرية التي نشطت فيها حركة رحلة الإنسان لحاجاته المادية والروحية. ونعتقد أن رحلة حرخوف الذي أرسله أحد فراعنة الدولة المصرية القديمة إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية كانت أول رحلة في التاريخ سُجّلت كتابة. اجتاز حرخوف جنوب مصر إلى السودان ثم أوغل في قلب أفريقيا ليعود من هناك بعدد من غرائب الحيوان والإنسان، ما أبهج قلب الفرعون. ولا نعتقد أننا في حاجة إلى برهان على أولى الرحلات في التاريخ التي يمكن المؤرخ أن يوثقها اعتماداً على أصول منهجية تاريخية، هي هذه الرحلة التي تبعها عدد من الرحلات المسجلة الأخرى، في وقت لم يكن فيه الغربيون قد عرفوا خبر الكتابة بعد. ولا يحفظ لنا التاريخ - بطبيعة الحال - أخبار أي رحلة غربية إلى أي مكان في المعمورة حتى العصرين اليوناني والروماني حين أخذت الرحلة الأوروبية تنشط بنحو ملحوظ، وخاصة إلى الشرق.

شهد القرن الخامس قبل الميلاد أول ذكر لشبه الجزيرة العربية في سجلات الإغريق، فهيرودوت - أبو التاريخ، كما ينعته المؤرخون الغربيون - زار مصر وكتب عنها في استفساراته (هيستوري) التي سمّيت بعد ذلك بالتاريخ. كتب هيرودوت اعتماداً على الروايات التي سمعها في مصر عن بلاد العرب وطيوبها، والقرفة واللبان من نباتاتها، وذكر تلك الأفاعي التي نسب إليها حراسة أشجار البخور، والتي كان جامعو البخور يطلقون عليها دخان الكافور المعطّر فتبتعد، وذكر أيضاً أن اللبان يظلّ عالقاً بلحى المعز التي ترعى شجيراته، كما ذكر الطيور الضارية التي تحمي البرية حيث تلك الطيوب، فيحتال عليها الناس بالذبائح في بطون الأودية، حتى إذا نزلت من أوكارها العالية وثبتت مخالبها في كتل اللحم الكبيرة هوت إلى الأرض من الثقل. وكتب هيرودوت أيضاً عن أغنام شبه الجزيرة ذات الأليات الضخمة التي تثقلها حتى لتكاد تقعدها عن الحراك. والجدير بالذكر أن هيرودوت لم يرَ الجزيرة العربية، ولم يزرها أي إغريقي إلا بعد مضي قرن من زمن هيرودوت.

كان هيرودوت أول من أرسى صورة البدائي والغريب في الذهن الأوروبي عن الشرق، وعاشت هذه الصورة بعدئذ تياراً متدفقاً في كل كتابات الرحالة الغربيين حتى وقتنا الراهن. ونشهد أننا وجدنا هذه الصورة لكل ما هو بدائي وغريب في شبه جزيرة العرب جليّة واضحة لا تحتاج إلى دليل لدى كافة الرحالة الغربيين الذين استوفينا قراءة أعمالهم قراءة ناقدة، أو الذين قرأنا عن أعمالهم. وعلى كل من يعتمد على الرحالة الغربيين مصدراً من مصادر كتابة تاريخنا أن يجتهد في النقد حتى يحذف هذه المبالغات التي هي السمة البارزة في كل كتاباتهم، منذ أن بدأت عنهم كتابة التاريخ.

جاء بعد هيرودوت من الإغريق من كتب في وصف أشجار الطيب في بلاد العرب. وقد أفرد ثيوفراست ثلاثة فصول كاملة لهذا الموضوع. وامتازت أخبار هذا الرجل الذي أثّر في فكر كثير من الرحالة الأوروبيين اللاحقين بمسحة علمية تدلّ على أن راويها كان - بنحو أو بآخر - على بعض علم بالحياة النباتية في تلك المناطق.

يقول ثيوفراست إن أشجار الطيب تكتسي لحاءً سميكاً يعالجه الأهالي بالمدى فيشققونه فيتقطر من اللحاء سائل راتنجي أشبه بحبات اللؤلؤ يتركونه ريثما يجفّ، فيجمعونه ويعدّونه للتجارة. وقد ورد عن ثيوفراست بعض الملاحظات المقبولة عن مملكة سبأ وتجارها الأثرياء الذين وصفهم بأنهم قوم أشداء حريصون على حماية ثروتهم من طيوب بلادهم التي يتّجرون فيها عن طريق البحر، بسفن كبيرة أو زوارق صغيرة من الجلد.

أما ديودور الصقلبي الذي كتب أيضاً عن بلاد العرب التي تتضوّع عطراً، ويهدي نسيم أرض أشجار الطيوب فيها عبقاً وشذا عبير إلى أنوف المسافرين على سواحلها، فيتحدث عن أهل البلاد الأشداء الأثرياء الذين تراكمت في متاجرهم أكياس الذهب والفضة جرّاء تعاملهم التجاري بتلك الطيوب من أشجار اللبان والقرفة والكافور، ومن تلك الغابات الكثيرة التي تضمّ صنوفاً من الأشجار التي تجلّ خصائصها عن الحصر، وتعزّ عن الوصف لكثرة تنوّعها. وقد زادت مناجم الذهب التي لا يحتاج استغلالها إلا حفر حفرة في الأرض، فتؤخذ منها كتل الذهب - كما يقول الصقلبي - ما يزيد السبئيين ثراءً إلى ثرائهم. ولا يتردد الجغرافي سترابون، في القرن الأول الميلادي، في أن يحدثنا أيضاً عن ثراء السبئيين وعن القصور الفاخرة التي يسكنونها، والمعابد الأنيقة التي يقصدونها، والبذخ البادي في مآكلهم ومشاربهم التي تقدم في أوانٍ من الذهب والفضة.

ليس ثمّة مجال للخوض في ذلك التاريخ البعيد، خاصة فترة الإمبراطورية الرومانية التي تشعّبت فيها طرق نفر من الرحالة الغربيين حتى تجاوزوا فارس شرقاً، وتباعدت أسفارهم في أفريقيا حيث بلغوا بلاد الكنداكة في السودان. وقد روى لنا هؤلاء الرحالة، اعتماداً على ما شاهدوه أو سمعوه، عن النهود الجامحة لنساء تلك البلاد التي تكوّرت وتعالت بارزة فوق

صدورهن، وغدت أكبر حجوماً من أطفالهن الرّضّع!

لعل في ما ذكرنا ما يفيد بأن الرحالة الغربيين جنحوا منذ القدم في رواياتهم إلى المبالغة والخيال، ورسموا اللامعقول عن الشرق، وتحدثوا بما يجب على المؤرخ أ يقع فيه حين تعوزه المصادر فيضطر إلى اعتماد الرحلة الغربية مصدراً من مصادر التاريخ العربي الحديث.

أسهمت هذه الحكايات القديمة الموغلة في البدائي الغريب في تشجيع الرحلة الأوروبية الحديثة إلى بلاد العرب، وأخطأ كل هؤلاء القوم حين ظنوا أنهم الأوائل في استكشاف بلاد العرب واكتشافها. والخلط عند هؤلاء بارز حتى في كتبهم التي تحمل ألفاظ الاكتشاف والاستكشاف، ورفع النقاب عن جزيرة العرب، وكذلك مخاطر الاستكشاف في جزيرة العرب واختراق جزيرة العرب، والرمال العربية وغير ذلك من عناوين تدّعي زوراً وبهتاناً ريادة الأوروبيين في أدب الرحلة في شبه الجزيرة العربية، وكأن هذه المنطقة كانت هملاً غير مستكشفة.

الريادة العربية في أدب الرحلة

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

...

ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومنه أيضاً:

أمن أوفي دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم في نواشر معصم

وجاء أيضاً:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

يستطيع كل من يطالع الشعر – ديوان العرب – أن يرجع بالكثير من أدب الرحلة. ففي المعلقات السبع – على سبيل المثال لا الحصر – يمكن القارئ أن يتعرّف إلى العديد من مضارب البدو وقراهم وحواضر المدن في المنطقة، وأن يجوب مع أولئك الشعراء أوديتهم وتلالهم وسهولهم ويتعرّف إلى ألوان رمالهم وأشكال جبالهم. فالجواء وثرمدا وأضم والعلياء، والسند وذو حسا، ودارين وتثليث والريان ورماح والدَّخول وحومل وحليت ونفي وضارج والعريض هي بعض المواقع الجغرافية المعروفة لدى الشعراء في وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها، بكى فيها شعراء المعلقات وغيرهم من الجاهليين الحب الضائع،

أو تمتّعوا باللقاء أو بالنظرة العجلى. وقف هؤلاء الشعراء على أطلال الديار يمعنون حتى في بعر آرامها، ويتجرعون حتى الثمالة مرارة حب راحل أو يتذوقون حلاوة حب مقيم، وخلّدت أيام العرب وفخرهم بآبائهم وأسلافهم الذين حموا تلك الفجاج بسيوفهم ثم عمروها بكرمهم. لم يترك الجاهلي موقعاً في شبه جزيرة العرب إلا ذكره ولا بد لكل من تابع رحلات الملك الضليل أن يردد قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

خبر العرب دروب شبه الجزيرة العربية التي ألف طارقوها الرحلة إلى بلاد قيصر وكسرى والنجاشي وما وراء ذلك منذ عهد الجاهلية. ونجد في رحلتي الشتاء والصيف وفي الرحلات التي أعقبت انهيار سدّ مأرب، وفي شواهد أخرى كثيرة، أن العرب كانوا في جاهليتهم أهل رحلة لها مسالك معلومة، وأهداف اقتصادية وسياسية معيّنة، ارتبطت بمنازل مأهولة، وأمواه معلومة، ودروب ربطت اليابسة بالبحار. ويروي لنا بعض إخباريي اليمن أن بعض ملوكهم قد وصل إلى الصين!

إذا أزدية ولدت غلامـــاً فبشّرها بملاح مجيـــد

وإذا كان جلّ الرحالة قد أنكروا على العرب سبقهم في معرفة مواقع بلادهم، إلا أن معظم المشهورين من الأوروبيين في مجال الرحلة قد استثمروا الشعر العربي قبل دخولهم ميدان الرحلة في شبه الجزيرة العربية لمعرفة المواقع ودراسة الشخصية، واعترف نفر قليل منهم بذلك. ونجد بيرتون - الرحالة الذي زار مناطق في شبه الجزيرة العربية في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م والذي سبق اهتمامه بالرحلة في شبه الجزيرة العربية هموم عمله - من تلك الفئة القليلة من الرحالة الغربيين الذين اعترفوا للعرب صراحة بالسبق في هذا المضمار.

استعان بيرتون - على سبيل المثال - بالمصادر الإسلامية والعربية المتعددة التي شملت - في ما شملت - بعض آي القرآن الكريم ومقتطفات من الحديث الشريف، كما استعان كثيراً بشعراء العرب. وقد ضمّ كتاب رحلته في شبه الجزيرة العربية العديد من الاقتباسات من الشعراء الجاهليين وغيرهم. ولعل أطول اقتباساته وأروعها كانت تلك الأبيات التي نقلها عن معلقة لبيد (أبوعقيل لبيد بن ربيعة العامري من هوازن قيس) التي استشهد بها على مواسم هطل الأمطار في شبه الجزيرة العربية ومواعيد هطلها من اليوم، في كل من فصلي الشتاء والربيع. ولعل من المفيد أن ننقل هنا بعض أبيات وردت في كتاب بيرتون عن لبيد، رغم أننا لا نقرّ لهذا الرحالة تفسّخه وانحلاله الذي صرّح به في كتاباته، ولا سخريته البادية من كل ما حوله في كل ما كتب، ولكننا نحترم فيه سعة اطلاعه وتنوّع مصادره عن شبه الجزيرة العربية وإنسانها، واعترافه الصريح بالإفادة من تراثنا رغم أنه يقع في الخلط أحياناً:

نقل بيرتون عن لبيد قوله:

عفت الديار محلُّها فمُقامهـا بمنىً تأبّدَ غَوْلها فرجامهـا
فمدافع الريّان عُرّي رَسْمهـا خَلَقاً كما ضَمن الوُحيَّ سلامها
دِمَنٌ تجرّم بعد عهد أنيسهـا حججٌ خَلوْنَ حلالها وحَرامها
رزقت مرابيعَ النجوم وَصَابَها وَدْقُ الرواعد جَوْدُها فَرِهامها
من كل سارية وغـاد مُدْجن وعشية متجاوب إرْزامهـا

كرر بيرتون استشهاده بهذه الأبيات في كتابه مرّة أخرى حين أشار إلى (عشق العربي لأرضه)، وسدّد بعيداً حين استشهد بعنترة العبسي وديار عبلة ليدلّل على ارتباط الفروسية بالعشق في الشخصية العربية، ما ينعكس حبّاً للمكان. ونقل هذا الرجل السفيه المثقف ثقافة لا نراها تتيسّر لغيره من كافة الرحالة الغربيين الذين قرأنا لهم وهو يقارن بين أحوال البدو والحضر، تلك الأبيات الرقيقة التي تنسب إلى ميسون، زوج معاوية بن أبي سفيان

لبيت تخفق الأرواح فيـه أحب إلـيّ من قصر منيـف

كذلك نقل عن أبي الطيب المتنبي، وربط في مشهد درامي مثير بين شعر ذلك الفحل والموقع الذي لقي فيه مصرعه. يقول بيرتون: إن أبا الطيب أراد أن يهرب من ذلك المكان، وفرّ بجلده من ملاحقيه، فذكّره أحدهم بأنه القائل:

الخيل والليل والبيـداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فاستقرّ الرجل مكانه ثباتاً على قوله وقُتل هناك.

الحقيقة أن معظم الرحالة الأوروبيين من ذوي الأهداف والغايات المحددة لم يدخلوا أرض شبه الجزيرة العربية إلا بعد أن درسوا تراثها شعراً ونثراً، ولكن القليل منهم حفظ للعرب في كتاباته صراحة ذلك الفضل. وإذا كان الجاهليون قد عرفوا تفاصيل طوبوغرافية بلادهم، وتعاملوا مع إيكولوجيتها، وحفظوا أنسابهم، وكانوا أكثر دراية من غيرهم بشخصياتهم وإرثهم وثقافاتهم، فقد جاء الإسلام ليؤكد في الإنسان المعرفة فأضاف إلى الرحلة العربية أبعاداً جديدة.

ازدهر بالإسلام أدب الرحلة: (قل سيروا في الأرض) وشهدت دروب الجزيرة العربية هجرة بعض المسلمين الأوائل إلى السواحل الأفريقية، أما الهجرة الأولى من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة فتعدّ معلماً بارزاً في التاريخ الإسلامي. وازدحمت بانتشار الإسلام دروب الحجّ إلى بيت الله الحرام وإلى المسجدين في المدينة المنوّرة وبيت المقدس، فقد سعى المسلمون من كل فجّ عميق – بعد أن انداح نور الإسلام نحو الأرض ليشهدوا منافع لهم، روحية ومادية – إلى بيت الله العتيق. وتطورت عند العرب وعند الشعوب التي دخلت دائرة الإسلام معارف الرحلة، وتأكدت مناهجها بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية جغرافياً، وانفتاحها على العالم المعروف وقتئذٍ سياسياً، واتصالها بالأصقاع الدانية والقاصية تجارياً، وتأثير إنسانها في ذلك العالم وتأثره به حضارياً، فغدت الرحلة في العصور الإسلامية الزاهرة كأنها فرض كفاية،

ورُصدت كافة المواقع والطرق التي تقود إلى المقدسات الإسلامية. و لم يعد في شبه الجزيرة العربية منذ ذلك الوقت حتى ظهور الرحالة الأوروبيين في العصر الحديث من موقع يستكشف إلا إذا اتخذ هذا الاستكشاف أهدافاً جديدة، كما هي الحال فعلاً.

شجّع الإسلام على الرحلة ذات الأهداف المحددة التي لا تتعارض مع تعاليمه، فقد جاء في الأثر الحثّ على طلب العلم والارتحال إلى العلماء حتى إلى الصين، أبعد الأصقاع المستكشفة في تلك الأيام، وجعل الهجرة إلى الله ورسوله، أو بقول آخر: الهجرة للدعوة للإسلام أشرف أنواع الهجرة، و لم ينكر هجرة الرجل إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها أو لأي هدف لا يضرّ بمن يرتحل أو بغيره. ويحفظ لنا القصص القرآني أخبار العديد من الرحلات التي تدلّ على أن لكل رحلة هدفاً، وخير الأهداف هي الأهداف الأخلاقية التي تنتهي إلى زيادة في العلم والمعرفة والايمان. ويمكننا الإشارة إلى رحلة سفينة نوح (حتى استوت على الجودي)، ورحلات أبناء يعقوب إلى مصر، ورحلة الشتاء والصيف، ورحلات موسى عليه السلام مع (الذي علمناه من لدنّا علماً)، ورحلة بلقيس إلى سليمان التي اضطلع بها في أقل من ارتداد الطرف رجل (عنده علم من الكتاب)، ورحلتي الإسراء والمعراج، وغير هذه وتلك من قصص الرحلات ذات الوظائف الايمانية والأهداف الأخلاقية، وإبراز دور العلم والعلماء في السياحة في الأرض وتيسير سبل المواصلات والاتصالات لتطوى الأرض في أقل من لمح البصر.

لم تقتصر الرحلة في العهود الإسلامية على تحديد مواقع شبه الجزيرة العربية ودروبها، بل امتدت وتشعّبت اتجاهاتها. وحملت مسالك بغداد ودمشق قبلها أغلى أصناف المتاجر وأرقى أنواع السلع، وغدت تلك الدروب على امتدادها محروسة آمنة مزدهرة، وانتشرت مكاتب البريد في مواقع محددة في العديد من الأمصار. وتجاوزت الدروب التي طرقها التجار المسلمون الفولجا واتصلت ببحر الشمال. و لم يرعوِ النخاسون في بعض عصور الدول الإسلامية عن أن يختطفوا ظلماً الرقيق من سواحل جزر الإنكليز التي عرفت ببريطانيا بعدئذ.

سجّل العديد من الرحالة المسلمين من ذوي الاهتمامات المختلفة أخبار الرحلات التي قاموا بها وتفاصيلها. ومن هذه السجلات ما هو معروف ومشهور، ومنها ما هو دون ذلك. وقد شهدت هذه الفترات الزاهرة تصنيف كتب: **المسالك والممالك، ومسالك الممالك، وزاد المسافـــر (سفرنامه)**، ومعاجم البلدان. ولعلنا نشير بصفة خاصة إلى ابن خرداذبة وابن حوقل، وهما من أشهر الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى. فقد كتب كلاهما في طرق الحجّ، وأثبتا أن الطريق إلى مكة المكرّمة عبر سيناء تشتمل على أربع وثلاثين مرحلة يبلغ طول كل مرحلة منها من ثمانية وعشرين إلى ثلاثين ميلاً، ولكنهما لم يتطرقا إلى وصف القوافل التي جابت ذلك الطريق، و لم تذكر كتاباتهما من أحوال المسافرين فيه شيئاً كثيراً، وربما كان هذا ما جعل المهتمين بالجوانب الإنسانية يبحثون عن الإنسان الذي قطع تلك الفيافي في كتب

الرحلات وليس في كتب الجغرافيا التي تهتم بقياس أبعاد الأرض وطبيعتها الطوبوغرافية. ولعل كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الذي وضعه الإدريسي (ت ٥٦٦هـ/١٢٥٧م) كان الكتاب الأول الذي ضمّ أول خريطة جغرافية استهدى بها رسّامو الخرائط الأوروبيون في العصر الحديث. أما كتاب أبو الفدا فقد ذاعت شهرته في أوروبا، حتى إن تأييد ما ورد فيه أو تصحيحه مثّل جانباً من مهمة الرحالة نيبور الذي كان كثيراً ما يعتمد عليه.

جاءت أسفار أوائل الرحالة المسلمين في جملتها متميزة، امتازت بالصدق والدقة المنهجية. فقد ارتبطت دوافع تأليفها بنشاطات دينية في المكان الأول، فخلت، إلا القليل منها، من الزيف وتعمّد الكذب. ويمكن أن نذكر في هذا المجال ابن جبير الذي بدأ رحلته من غرناطة في الأندلس في أوائل شوال ٥٧٨/فبراير١١٨٣، في وقت لم تكن فيه الحروب الصليبية قد وضعت أوزارها بعد. كانت قرطبة الأندلس في تلك الأيام من أكبر المدن وأهمها في أوروبا الغربية، وكانت مكتباتها ومدارسها تفيض بنبع العلم الذي كانت قطراته تتوالى على مدن أوروبا تنعش فيها بالترجمة روح العلم والمعرفة وتقودها في تؤدة من متاهات العصور المظلمة لتستشرف عصر النهضة. صادف ابن جبير في جزيرة سردينيا ثلاثين أسيراً مسلماً يُباعون في سوق النخاسة، كما صادف في الإسكندرية رتلاً من أسرى نصارى الصليبيين الذين كانوا يقطعون طرق الحجّ فظفر بهم جند صلاح الدين وأتوا بهم إلى السجن في تلك البلدة. ويحدثنا ابن جبير عن أن صلاح الدين عمل على التخفيف على الحجاج وعمد إلى الإحسان إليهم، فقد أسقط عنهم كافة رسوم الحجّ، وكان يطعم جائعهم باعتبار أنهم من أبناء السبيل، كما عمل على تأمين طرق الحجّ. ويفيد ابن جبير بأنه اختار أن يسافر جنوباً حتى عيذاب ليقطع البحر الأحمر إلى الحجاز، متجنّباً الطريق عبر سيناء الذي لم يكن قد تم تطهيره بنحو كامل بعد. ومع ذلك، نجد ابن جبير يشكو من تجاوزات قبائل الحجاز على الحجاج، ويدعو إلى تأديبهم بالسيف والرمح. وقدم ابن جبير وصفاً فريداً لمكة المكرّمة خطّه قلب عامر بالإيمان، فالبلدة عنده قطعة من السماء يعمرها حجاج متآلفون متعاطفون لا يتزاحمون، فلا رفث ولا فسوق ولا شيء يمكن أن يعكّر الصفاء الروحي الذي يعيشه الحجاج في تلك البلدة العامرة بأسواقها حيث اللبن والعسل والمؤن التي لا يتكلّف الفقراء تحمّل أثمانها، فقد تكفّلت بها صدقات اليمنيين الذين يمدّون المدينة بها مجاناً. ولعلنا هنا نشير إلى خطل في نسيج الرحلة، شرقية كانت أو غربية، فالمشاعر والأحاسيس الشخصية تتداخل في هذا النسيج بنحو قد يجنّبها الصواب في كثير من الأحيان.

عاد ابن جبير من رحلته إلى غرناطة التي وصلها في المحرم ٥٨١/إبريل ١١٨٥ سالكاً إليها في عودته طريقاً مغايراً لرحلة الذهاب، وذلك عن طريق العراق فسوريا التي ركب منها البحر إلى صقلية. وقد استأنس ابن جبير في وصفه لطريق عودته بما كتبه ناصر خسرو،

الرحالة المولود في خراسان في عام ٣٩٣هـ/١٠٠٣م، وذلك رغم اختلاف المذاهب التي كان عليها كل من الرجلين، ورغم المسافة الزمنية التي فصلت بين الرحلتين، ورغم أن كتاب ناصر خسرو كان لا يزال في صورته الفارسية لم يترجم بعد. ولعل من أشهر من عرفنا من الرحالة المسلمين ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن اللواتي الطنجي بن بطوطة)، الملقب بأمير الرحالة المسلمين، المولود في مدينة طنجة في يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣/٢٤ فبراير ١٣٠٤، الذي قرر وهو ابن إحدى وعشرين سنة أن يخرج إلى بيت الله حاجاً ويغشى أماكن العلم في بلاد الإسلام ليستزيد من العلوم الشرعية. بدأ ابن بطوطة سلسلة رحلاته التي سلخت ما يقارب ثلاثين سنة من عمره منذ أن خرج من طنجة، مسقط رأسه، في يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥/١٣ يونيو ١٣٢٥، "معتمداً حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة". فطاف بلاد المغرب والأندلس وبلغاريا ومصر والشام والعراق والبحرين وفارس والتركستان والهند التي أقام فيها طويلاً، وجاب ما وراء النهر وجاوة وبلاد التتار والمالديف والصين التي تولّى القضاء في بعض مناطقها، وزار اليمن والحجاز ومقديشو في الصومال، ودنقلا في السودان وتمبكتو في مالي. وعاد إلى المغرب الأقصى وانقطع إلى خدمة السلطان أبى عنان، من ملوك بني مرين. واستجابة لرغبة السلطان أملى ابن بطوطة أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس في عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م وسمّاها **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. ورغم أن رحلات ابن بطوطة قد شملت مناطق عدّة من العالم المعمور، لم يتيسّر لأي رحالة غربي أن يجمع بينها، إلا أننا لا نجد في كتابه المذكور ذلك الادّعاء بالبطولة والشعور بالفوقية الملازم لكتابات كافة الرحالة الغربيين، وذلك على الرغم من أن كتابه لم يخلُ من سرد العجائب التي عادة ما يبالغ كافة الرحالة الغربيين في تصويرها والوصول بها إلى مرتبة الخيال الجامح. كذلك اعتمد ابن بطوطة بنحو بارز على ما كتبه ابن جبير قبله، و لم يستثنِ ناصر خسرو. وربما كان اعتماد الرحالة اللاحق إلى حدّ ما على ما كتبه الرحالة الأسبق له في مجال الرحلة أحد المزالق التي قد تهوي بالمؤرخ غير الحصيف، ولكننا نقول مع ذلك إن المؤرخ الذي يعتمد أسفار الرحالة العرب الأوائل مصدراً له لن يصادف عنتاً كبيراً لوضوح هدف مثل هذا الرحالة، إضافة إلى أن كل الرحالة الذين أشرنا إليهم كانوا من أهل العلم والقلم ومن صفوة مثقفي عصورهم. وقد اعتمد العديد من الرحالة الأوروبيين – وإن لم يصرّح بعضهم بذلك – على هذه المصادر، فأسعفتهم بالكثير. ولكن بسبب ازدياد الرفاهية في العالم الإسلامي وركون أهل الحلّ والعقد من المتنفذين والعلماء إلى الدعة، ظهرت جملة من كتب الرحلات في البلاد الإسلامية اعتمدت الغريب، بعد أن جنحت إلى الخيال والمبالغة، فأثرتْ بذلك المجال الأدبي،

وقصرت في مجالات التاريخ والجغرافيا التي تحرّى عنها الأوائل. ولعل في هذا وذاك ما يحثّ المؤرخ، وهو يعالج أدب الرحلة - شرقية كانت أو غربية - كمصدر من مصادره، إلى التعرف إلى الأهداف التي رمى إليها الرحالة الذي قام بالرحلة أو الأديبَ الذي صاغ أدب الرحلة، وأن يقف على كنه المجتمع الذي خاطبه الرحالة أو مُعدّ كتاب الرحلة حتى يتجنّب الوقوع في الزيف. وقد اعتمد نفر من الرحالة الغربيين قصص هذه الرحلات الخيالية الواردة في السندباد البحري وعلي بابا والأربعين حرامي في **ألف ليلة وليلة** وغيرها، وصوّر بعض هؤلاء هذه القصص حقيقة داعبوا بها خيال قرّائهم في الغرب لإثارة الاهتمام بالشرق الثري بموارده والبدائي الغريب السادر في متاهات تاريخ ذوى، الذي يحتاج إنسانه إلى الغربي ليمدّه بما يحتاج إليه للاستهلاك من غذاء وكساء ودواء، وكافة ما يمكن أن يعينه على الحياة. ويدرك الرحالة الغربي الذي وفد إلى شبه الجزيرة العربية في بدايات العصر الحديث أنه كان يخاطب مجتمعه بما يكتبه، وأن أهل شبه الجزيرة العربية غير معنيين بخطابه الذي ما كان له أن يصل إلى مسامعهم. فلن تجد إلا بالكاد من كان يعرف تلك اللغات التي كتبت بها الرحلات، ولن تجد منهم من كان يلقي بالاً لما كان يكتبه أولئك النفر الذين ولجت مع النهضة الأوروبية مجتمعاتهم مجالات المعرفة والعلم والصناعة والاستثمار، بينما كنا وربما لا نزال في فكر بعض من تأثروا برحالة الغرب، سادرين في دروب التاريخ التي أوغلنا فيها حتى تاهت عنا دروب المسقبل.

اختلاف الثقافات بين الشرق والغرب من عوامل الزيف في الرحلة الغربيّة

لم تكن أهداف هؤلاء الرحالة الغربيين من رحلاتهم تتفق مع الأهداف القومية أو الوطنية العربية، رغم أنها قد تلتقي معهاعرضياً أحياناً، لكنها ما تلبث أن تتعارض. ولا نعتقد أن أياً من الرحالة الغربيين - خاصة الرواد منهم - كان يتوقع في ذلك الوقت أن تُترجم رحلاته إلى العربية، أو أن يقرأها الرأي العام العربي في لغاتها الأصلية، لذلك راح أدب الرحلة الغربية يخاطب مجتمعاته على ضوء الثقافة الموروثة لتلك المجتمعات التي تختلف جذرياً عن ثقافات شبه الجزيرة العربية التي خاض الرحالة الغربيون في أدقّ تفاصيلها. ويمكن أن نقول: إن كافة كتابات هؤلاء الرحالة الغربيين قد داخلها شيء قليل أو كثير من الزيف المتعمد، أو غير المتعمد ستره في الفترات الماضية، لإدراكهم أن الذين يكتبون عنهم لا يقرأون لهم ليطعنوا في شهاداتهم التي قدّمتها تقاريرهم إلى دوائرهم العلمية لتحقيق أهدافها في تدعيم السيطرة والاستعمار، أو صوّرتها كتبهم للدوائر الشعبية والرأي العام المحلي عندهم لإسقاط البدائي والغريب الذي يداعب الخيال ويتملّق المشاعر الوطنية في بلادهم، ويضع أولئك الرحالة في مصافّ الأبطال المغامرين والروائيين المبدعين. وتزيد

درجة الزيف المتعمد في كتابات بعض الرحالة عن غيرها. فالرحالة، شأنهم شأن كل من يعمل بالقلم، يختلفون في درجة الثقافة والعلم والمعرفة والتخصص والالتزام وأساليب التعبير وتصوير المشاهد والتجارب. وهم بعد ليسوا سواء في الفصاحة والبلاغة ودقة التعبير. لجأ العديد منهم إلى المحسّنات البديعية وأساليب البلاغة، فيما عمد بعض غير كثير منهم إلى محاولة التزام الأساليب المباشرة واختيار الكلمات المباشرة التي تفضي إلى الوصول إلى الصورة التي يريدونها. ونجد أن تقارير الرحالة المكلفين بمهمات رسمية هي الأكثر التزاماً بالأسلوب البعيد عن التكلف والإثارة الذي نجده في كتب الرحالة الآخرين الذين يخاطبون الجمهور. وعلى الرغم من أن تقاريرالرحالة الرسميين أصدق لهجة من سواها، يقع كافة الرحالة تحت مؤثر لم ينجُ منه أي منهم مهما حاول التحرّي عن الصدق وعدم المغالاة. فكل الرحالة من هؤلاء يعمد إلى تصوير المعاناة التي وجدها في الصحراء وسط أقوام يتحتّم عليه وصفهم بالبدائيين الذين شبّوا وترعرعوا على معتقدات غريبة، أقل ما توصف بأنها معادية للرجل الغربي. وتبدو هذه النبرة أعلى في الكتب التي تخاطب الجمهور أكثر منها في التقارير التي تخاطب أهل الرأي والاختصاص. يعمل صاحب الرواية التي تخاطب الجمهور على إبراز سمة الشجاعة في شخصيته وينافق جمهوره بأنه استمدّها من هويته الوطنية التي تسعى لاستكشاف المجهول غير عابئة في سبيل ذلك بما تلاقي من أهوال. وفي هذا الصدد نشهد بأن هؤلاء الرحالة كذابون ومخاتلون، وجدوا - حتى في أوساطنا - من يصدق أكاذيبهم. ادّعى البعض منهم أنه عمل على الدفاع عن نفسه بالسلاح الذي يحمله، فما إن أحسّ بالخطر حتى تحسّس مسدسه فاستبدل خوفه أمناً، ويدّعي آخر أنه كان يحتفظ بمدية يقاتل بها إذا أحسّ خطراً وشيكاً. والحقيقة التي لا مراء فيها أن كافة أولئك الرحالة، رسميين وغيرهم، التزموا بكل دقة قوانين السفر في الصحراء، و لم يجرؤ أي منهم على تجاوزها. و لم يحدث أن تحرك أي من هؤلاء الرحالة من منطقة إلى أخرى في شبه الجزيرة العربية إلا بضمان أمان يصدره شيخ تلك المنطقة أو حاكمها، أو قد يتحرك في رفقة أحد أفراد القبيلة التي يمر بأرضها في ما يعرف بالدخالة التي يبذلها عرب البادية حتى للذئاب وكلاب الخلاء. ويمكن أن نضرب على ذلك مثالاً بلويس بيلي، مقيم الخليج أو الملك، الذي لم يحاول دخول الصحراء إلا بعد الحصول على إذن من الإمام فيصل بزياته إلى الرياض. وإذا كانت هذه هي حال الملك غير المتوّج في الخليج، كما كان يُعرف، فكيف بالآخرين؟ ويمكننا أن نضيف من ملاحظاتنا ثم من واقع تجاربنا الشخصية أن السفر على أكوار الإبل في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت كان أكثر أمناً من ركوب سيارة في عصرنا الحاضر، تندفع بك في الشوارع المسفلتة التي قد تصادف فيها سائقاً متهوراً قد يرديك. ولا ينفي كل ذلك بالطبع المصاعب التي يتعرض لها الرحالة الغربي أكثر من غيره من البدو المعتادين قطع

هذه الفيافي والقفار، ومكابدة الأسفار والمصاعب الناجمة عن معاناة الاغتراب والإرهاق وشح المياه والأخطار المتمثلة في الآفات المختلفة والمصاعب النفسية التي يحركها الخوف الغريزي في بعض اللحظات، حين يجد المرء نفسه في وضع لم يألفه من قبل. و لم يحاول أي من الرحالة التعبير عن تلك المخاوف، بل صوّر نفسه فوق كل المصاعب والأخطار.

يشهد ثسجر أن البدوي مؤتمن على رفيق سفره الأجنبي عنه هوية وداراً، يدافع عنه ويفتديه بحياته إذا اقتضى الأمر، وهو إذ يقوم بذلك يرى أنه يقوم بواجب مقدس. يقف البدوي ذابّاً عن رفيق سفره الغريب ضدّ أي خطر يطرقه من أي فرد، بما في ذلك أفراد أسرته وقبيلته. ويضيف ثسجر أن البدوي يرحّب بالأجنبي في خبائه ويقدم له أطيب ما يملكه من طعام أو شراب، لا يدّخر لنفسه شيئاً حتى لو كان يدرك أنه سيعاني بعد ذلك عضّة الجوع. ومع هذه الشهادة نجد أن ثسجر يصاب بذلك الخوف الغريزي، ويحسّ بالذعر وهو يسافر مع بعض أصدقائه العرب، ويعمد إلى أن يمتحن إخلاصهم له. يقول إن ركبه توقف عند بعض الآبار وجلس رفاقه لإعداد القهوة، وما راعهم إلا رؤية "النصراني" يسقط أرضاً لا يستطيع حراكاً. وأيقن المرافقان أن الرجل قد لاقى حتفه "لقد مات النصراني، لا إله إلا الله، ماذا يمكن أن نفعل؟". وبينما الولدان يتشاوران في نقل الجثمان أو عدمه، هبّ النصراني واقفاً على قدميه. ويقول ثسجر أنه قام بهذ التمثيلية ليمتحن سلامة نيّات مرافقيه!

أكد الرحالة بيرتون الذي كتب بعد قرن ونصف من بداية الحركة الرومانسية في أوروبا – وقلّده غيره من الرحالة الذين لا يدانونه إبداعاً وبلاغة – السحر الذي تتميز به جزيرة العرب. ووصف ليلها بقوله:

> راعني أن أرمق في سمائها نجم المساء الذي أخذ يومض كاللؤلؤة الفريدة في السماء العربية الصافية، التي تفعل في النفوس فعل السحر، فتبدّل من تلك المشاهد الشاخصة، وتحيلها على بلد من بلاد الجن يستضيء بضوء لألاء لا يمكنك أن تلحظه في أي برّ آخر في أي منطقة أخرى من العالم. وتبدو لك نيران تلك الأخبية كأنها سراج الليل المقيم، وتتبدّى الأخبية التي نُسجت من غزل الصوف – لتؤوي البدوي الصميم – لناظريك في تلك السباسب اللامتناهية التي يحاكي لون رمالها لون أديم الأسود، ويحاكي لون حصاها لون أديم الغزلان....

ويقول جون فراير الذي قضى ليله في سفينة في ميناء مسقط، عن الليل في تلك المدينة: "أرخى الليل سدوله ففقدت جبال مسقط الرهيبة ظلالها، ولكنها ظلّت تطل من علٍ

على تلك المدينة فتحجب عن أنظارنا صفحة السماء، وتقذفنا منذ الغروب بحرارتها اللافحة التي كانت قد اختزنتها طوال النهار. وقد وجد بحارتنا في أحضان هذه الجبال ملاذاً لسفنهم التي أجهدها الصراع مع الرياح والأمواج".

يرتقي الرحالة ولفرد سكاون بلنت ذروة الرومانسية حين عبّر عن افتتانه بسحر الشرق ودعا الغربي "ليغسل روحه السقيمة بجمال الشرق الدافئ الطاهر الذي يشفي الأسقام كافة". وربما كان في ما أتى به بيرتون وفراير وبلنت نوعاً من الأدب الذي قصرت الترجمة عن محاكاته، ولكنه في النهاية لا يهم المؤرخ في شيء، ولا يضيف إلى علمية الرحلة الأوروبية، لكن تحسب مثل هذه الفقرات التي تزيد وتنقص حسب رقي الحسّ الأدبي للرحالة المعنى، وبحسب طبيعة مهمته و أسلوب معالجته لمفرداتها مع التركيز دائماً أن لرومانسية الرحالة الغربيين في الشرق ومن كتب عنهم أو قلدهم وظيفة نفعية لهم ولأهدافهم.

لا بد أن نذكر هنا أن الرحلات الأوروبية في شبه الجزيرة العربية ذات الطبيعة العسكرية، والتي كلف بها عسكريون، جاءت في شكل تقارير تخلو - إلا نادراً - من مثل هذه الصور الأدبية، وتنأى بنفسها عن الأساليب البلاغية والاستغراق في الخيال، ولكن العديد من موظفي حكومة الهند البريطانية من أشباه العسكريين، حينما كانوا في رحلات في شبه الجزيرة العربية لا تتصل اتصالاً مباشراً بالمهمات العسكرية، كانوا كثيراً ما يمتطون في رواياتهم ذروة سنام الأدب.

يصف بترام توماس الربع الخالي الذي عبره في ثلاثينيات القرن الماضي بقوله:

> فراغ هائل يسكن الموت في أرجائه... ويعتري المرء في بعض اللحظات أنه في حضرة لوحة فنية لا تُضاهى فخامة وجلالاً، لوحة ابتدعتها ريشة فنان قدير يسودها لون وردي بالغ العمق شديد الصفاء تحت سديم سماء تعرّت من الغيوم لترسل أضواءها ساطعة بهيجة. وينتاب المرء هنا ذلك الشعور الذي يحسّه في شتاء سويسرا، حيث تتحدى تجلّيات الطبيعة هناك ريشة أحذق الرسامين... يموج هذا البحر الهائل الشاسع بالكثبان الرملية المتلاطمة، تلي الواحدة منها الأخرى، ثم ما يلبث أن يبرز أمامك فجأة جبل شاهق يطلّ عليك من عليائه كالشيطان الكئيب، ثم يختفي ليفسح المجال من ورائه متسعاً لوادٍ منبسط يمكن أن تسير فيه لأيام متتالية من دون أن تقع عيناك على أي نبتة خضراء. وتبصر الكثبان الرملية المتناثرة هنا وهناك في غير انتظام، مختلفة الأحجام، متناسقة البنيات، فهي كاملة الاستدارة كأنهن نهود العذارى. وتمتد هذه الكثبان الرملية حزاماً بعد حزام، حتى لتبدو كأنها سلاسل الجبال. تسقط الشمس فوق هذه الكثبان عمودية حتى لا يكاد المرء يجد لها ظلاً فوق تلك الرمال....

أما داوتي، شيخ الرحالة المتسكعين، فيصف مناطق الحرّة بالقفار الخالية اليباب "فهي قاسية كالحديد، يا لتجاعيدها السوداء التي تغور في نتوءات هذه الجلاميد البركانية الصماء التي أنكرت كل أثر للحياة... تكشِّر لك الطبيعة هنا عن أنيابها ولا تبدي بارقة أمل تبشر بابتسامة وشيكة، فالعين لا تقع إلا على تلك الصخور الصدئة التي ماتت منذ أمد بعيد"...

صوّر أدبية رائعة تنطلق من خلفية ثقافية غربية تخاطب عقول مجتمعاتها وقلوبها، و لم تُعنَ إطلاقاً بمخاطبة عرب شبه الجزيرة، فقد كتبت جُلّ تلك الكتب في فترات كان العرب فيها خارج دائرة الضوء، وكان الرحالة الغربي يتأدب فيأتي بالغريب وبالمغاير ليقنع القارئ الغربي بكم هو الرحالة الغربي بطل مغوار حين عاش كل هذه الصعاب وتجشّمها. وهناك صور أدبية أخرى تناولت وصف أشكال العرب عامة والبدو خاصة والحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة نمسك عنها الآن، ولكننا نشير إلى أن هذه القصص التي تركها أمثال هؤلاء الرحالة هي – في العادة – مزركشة بالأساليب الإنشائية والتعابير البلاغية التي قد تبعد بها عن الحقيقة وتوردها موارد الزيف، ما يجعلها غير صالحة أبداً لترقى إلى مستوى شهادة غير متحيّزة يأخذ بها المؤرخ الحاذق.

إن كل ما يقدّمه أي رحالة غربي لا يزيد على كونه رؤية لظاهرة عربية بعيون غربية استمرأت النظر بدونية إلى العربي البدائي الغريب، ذلك الإنسان الذي يحتاج الغربي إلى إرشاده وقيادته، فهو على بدائيته وغرابته يمكن أن يكون نبيلاً. ويسهل على العقول العربية إعادة تمثيل هذه الصورة على ضوء نظرية مسؤولية الرجل الأبيض التي سادت في عصور الإمبريالية المباشرة، أما المضمون الأخلاقي لأدب الرحلة الغربية الذي نجده في مرويات كافة الرحالة حين يعملون على تحليل هذه الظواهر العربية، ففيه تشاجر واختلاف، فهو إفراز ذهنية غربية تختلف ثقافتها تماماً عن الذهنية العربية. وقد أدرك الغربيون هذا الأمر وأعلنوه صراحة قبل أن نعترف به نحن العرب. يقول لويل توماس عن شبه الجزيرة العربية إنها "أرض تقف على رأسها وأقدامها إلى السماء، فحين يقرأ الغربي أو يكتب فإنه يفعل ذلك من اليسار إلى اليمين، بينما يقوم العربي بذلك بطريقة عكسية، من اليمين إلى اليسار. وحين يدخل الغربي إلى دار صديقه فإنه يخلع قبعته بينما يقوم العربي في مثل هذه المناسبة بنزع حذائه. ويسترخي الغربيون على الكراسي عادة ويستعملون المناضد، بينما يسترخي العربي على الأرض. ويأكل الغربيون عادة بالملاعق و(الشوك) والسكاكين، بينما لا يستخدم العرب إلا أيديهم حين يأكلون، ويركب الغربيون سياراتهم من الجانب الأيسر بينما يقفز العرب حين يمتطون إبلهم أو جيادهم من ناحية اليمين. وترى الغربيين يزِنون السوائل ويقيسون الجوامد، بينما يقيس العرب السوائل ويزِنون الجوامد، وساكن الصحراء يغطي رأسه صيفاً وشتاءً ولكنه لا ينتعل إلا لماماً...".

هذه بعض ظواهر الحياة اليومية التي لاحظها هذا الرجل، تعبّر صراحة عن إرث ثقافي مختلف، أخذنا - للأسف - نترك بعض ما يخصّنا منه لمصلحة التراث الغربي. وكان يمكن المؤرخ أو ربما المبدع العربي أن يضيف إلى هذه الاختلافات كثيراً ممّا قد لا يرضي الفكر الثقافي الذي يسوق هذا الرجل، ولكننا اعتدنا - للأسف أيضاً - أن نمسك عن ذلك حياء وتأدباً، ولاعتبارات أخرى كثيرة أهمها أن موروثاتنا الثقافية لا تبحث عن مواطن الخلاف، بل تسعى لردم الهّوة بين الثقافات الإنسانية المختلفة. فنحن نؤمن بأن الغرب - وإن بلغ شأواً بعيداً في مدارج الآلة والتقنيات - لا يزال بكل مؤسساته البحثية في مجال الإنسانيات، طفلاً يحبو، ومن عادة الأطفال الشجار! ولكننا ندرك أيضاً أننا نحن الكبار، بماضينا وإسهاماتنا الرائدة في مجالات الحضارة الإنسانية، قد أوشكنا أن نصاب بالخرف جرّاء تعلّقنا بأستار ماض أصبح في ذمّة الله. وبدلاً من أن نجعل تاريخنا الضخم وراء ظهورنا قوّة دفع لتعزيز ماضينا وتأكيد ريادتنا عبر الزمن، وضعناه أمامنا فأغلقنا به دروب المستقبل.

هناك من الغربيين نفر قليل من الذين عاشوا في النصف الأخير من القرن الماضي فترات طويلة في شبه الجزيرة العربية وخبروا أهلها - و لم يكونوا مثل العديد من الرحالة الذين جاسوا خلال الديار وخرجوا قبل أن يستبينوا حقائق الواقع ولا اتساق الوقائع - من حاول أن يصحح بعض هذه الصور المغلوطة عن عرب شبه الجزيرة. يذكر روبرت هاي الذي كان مقيماً بريطانياً في الخليج مدة ثماني سنوات أنه اجتهد في أن ينقل إلى القارئ البريطاني صورة مختلفة عن العرب كوّنها في فترة اتصاله الطويل والعميق بهم، إلا أنه صادف في ذلك صدوداً من الناشرين في بريطانيا. فقد اعتذر هؤلاء بأن القارئ البريطاني حين يقرأ عن العرب يبحث عن القصص البدائي والغريب الذي اعتاده عبر فترة طويلة سبقت ظهور النفط، واستمرت سارية بعد استثماره، وأن القارئ الغربي قد استقام على بدائية العربي وعالمه المتخلف العجيب، وسوف لن يقبل بأي صورة أخرى مغايرة! وما ذلك - في تقديرنا - إلا بعض تأثير ما كتبه أولئك الرحالة قبل عصر النفط من حكايات وما كتبه بعض العاملين في الاستثمارات النفطية في المنطقة بعدئذ، الذين لم يكونوا مثل هاي قد اختلطوا بالعرب، أو عرفوا شيئاً عن الشخصية العربية. إنّ الانفصام الطويل بين المجتمعات الغربية والعربية الذي أعقب فترة ازدهار الدولة العباسية ذات العلاقات الطيبة بدول الفرنجة - الفترة التي نقل فيها التجار العباسيون إلى أوروبا مع سلعهم الكثير من المفردات الحضارية في التعامل الاقتصادي والمالي - تقلص مع التمزق الذي حلّ بتلك الدولة التي بات حكام أقاليمها يقتتلون.

بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على أيدي المغول أخذت التجارة الشرقية مع الغرب تنشط وصولاً إلى الصين. و لم يكن للمغول معرفة بالتجارة ولا أساليبها، فلم يعمدوا كما عمدت الدول الشرقية قبلهم إلى الاحتكار التجاري. باتت مسارات الشرق مغلقة أمام

الأوروبيين بعد عهود حكم الإغريق والرومان، وما عادت المعرفة الجغرافية بالمسالك والدروب في آسيا وأفريقيا إلا مبعثرة، فقد كان عالم البحر الأبيض المتوسط هو مركز العالم، أما ما وراء ذلك فلم يكن الغربيون يعرفون عنه شيئاً إلا القليل. ولا يملك من ينظر إلى الخريطة التي أعدّها بطلميوس (٩٠-١٦٨م) للعالم إلا أن يقطع بذلك، إضافة إلى أن الكنيسة كانت في العصر الوسيط تتحكم في كافة صنوف المعرفة، ويفتي كهنتها في ما يعرفون ويهرفون بما لا يعرفون من شؤون الدين والعلم والحياة. ولم يكن هناك أمر يؤرق القساوسة والكهان في العصور الوسطى أكثر من الإسلام الذي لا يعترف بكهنوت ولا وساطة بين الإنسان والخالق، ويلغي دور تلك الطبقة التي كانت تحتكر كل ضروب الحياة في أوروبا وقتها. ورغم أن الإسلام يعترف بالنصرانية ديناً سماوياً وبالتوراة والإنجيل كتابين منزلين، ويقول بوحدانية الإله مدبر الكون واهب المال والبنين لمن يشاء، ويعترف بعيسى ابن العذراء البتول مريم عليه السلام، ويجلّه كنبي مرسل، ويثبت له من المعجزات التي خصّه الله بها، كانت الكنيسة في الغرب الأوروبي في ذلك الوقت ترى أن صورة النصراني التقي الحقّ يجب أن تكون مخالفة تماماً لما عليه صورة هذا المسلم، رغم الكثير الذي يجمع بينهما من القيم الدينية والأخلاقية المتماثلة التي تنتهي كلها إلى نبع واحد يفيض على جميع الخلق محبة وسلاماً. سعت تلك الكنيسة إلى تشويه صورة المسلم، وزادت الحروب الصليبية اللاحقة في كراهية الغرب للمسلم وتقبيح صورته خلقاً وأخلاقاً. ونحت الكتابات الأوروبية عن الشرق إلى الخيال الذي داخلته الأساطير القديمة. وساد في هذه الفترة نمطان في كتابات أوروبا عن الشرق، أوّلهما ديني بحت يهتم بالأرض المقدسة ويستقي قصصه من الكتاب المقدس، فرسموا حدود الشرق ومعالمه بحسب ما نصّ عليه ذلك الكتاب وشروحاته المتعددة. ولم تهتم هذه الكتابات بالإنسان في القدس ولا بما يحدثه العربي في فلسطين، بل تحدثت عن إنسان آخر صوّرته تلك الشروحات الكنسية، فرسموا للشرق من خلال أعمال الرسل صورة مزوّرة تعود إلى عصر غير العصر، لا صلة لها بالإنسان الذي يعيش فيه، بل إنهم لعنوه لأنه لا يشابه تلك الصورة التي استلهموها من مجاهل التاريخ. أما الكتاب الآخرون الذين باتوا يعملون على الانعتاق من قيود الكنيسة، فلم يجدوا عن الشرق غير الأساطير التي أضافوا إليها من خيالهم صوراً لهذا الشرقي الذي توهموا أنه يختلف عنهم في كل شيء. فالأوروبيون لم يعرفوا قبل النصف الثاني من القرن الثالث عشر شرقاً أبعد من فلسطين إلا لماماً. شكلت قرائح هؤلاء الكتاب شرقاً تعمره مخلوقات خرافية، رجال لا رؤوس لهم ينظرون من خلال أعين تتوسط صدورهم، لهم أيدي كأرجل الكلاب، يُولد لهم من نسائهن ذوات الأرجل المشقوقة كأظلاف الغنم أطفال برأسين لكل منهم.

لم يتخذ أولئك الكتّاب الغربيون هذه الصور للشرقيين عبثاً من دون قصد، فهي في نهاية الأمر صورة رمزية صاغتها الخرافة التي خالطها التعصّب، لتؤكد من جانبهم اختلاف الغربي

الإنسان عن الشرقي الشبيه بالحيوان. وحين انفتحت مع الحروب الصليبية دروب آسيا أمام الرحالة الأوروبيين، عملت الكنيسة الكاثوليكية على التنصير في أوساط المغول بعد سقوط بغداد، وذلك لتحويلهم عن معتقداتهم البدائية الدنيا إلى دين المسيح على النمط الكاثوليكي، وللتحالف معهم ضدّ الدويلات الإسلامية التي باتت في هذه الفترة تنتظر الخطر المغولي. وقد تزامن الخطر المغولي على الأرض الإسلامية مع الخطر الصليبي الأوروبي، فقد شهدت الفترة بين عامي ١٠٩٦-١٢٧٩م ثماني حملات صليبية خطط لها الأباطرة والملوك وغيرهم من المتنفذين النصارى في أوروبا، لوضع أيديهم في أيدي المغول للإطباق على أرض المسلمين. ولما لم يرتضِ المغول التحالف مع الصليبيين، لم تمت في مسؤولي الغرب الروح الصليبية، خاصة بعد هزائمهم المتلاحقة في تلك الحروب، فأتوا بخطة بديلة تقوم على تنصير الأرض المسلمة "لإنقاذ الأرواح" بدلاً من "إنقاذ" أرض المقدسات التي لم يجدوا إليها سبيلاً. وانتشر عدد كبير من المنصِّرين في أرجاء الإمبراطورية المغولية، وعاد بعضهم إلى أوروبا ليحدث بما رآه في تلك المناطق، ويضيف إليه من الزيف ما يناسب أهدافه. وعلى الرغم من فشل المنصِّرين في تحويل المغول إلى النصرانية، إذ دخل مغول آسيا الغربية في الإسلام وذاب أكثر من هم في الشرق من ذلك في البوذية، أضافت التقارير والكتب والقصص التي وضعها أولئك المنصّرون – على ما هي عليه – إلى المعرفة الأوروبية بُعداً جغرافياً جديداً، وأضفت طبقة رقيقة من الحقيقة على الأساطير التي كانت متداولة عن الشرق في تلك الفترة.

جاءت أهم هذه التقارير الجغرافية ذات الأبعاد المعرفية مع الأب الإيطالي جون بيانكو كاربيني الذي قضى الفترة ٦٤٢-٦٤٤هـ/١٢٤٥-١٢٤٧م في بلاط الخان الأكبر في منغوليا موفداً على رأس بعثة من كنيسة روما للتحالف مع المغول ضدّ العرب المسلمين. و لم يوفّق فعاد إلى أوروبا ببعض التقارير التي تناولت حدود الإمبراطورية المغولية الشاسعة، وطبائع سكانها ومعتقداتهم، وحكوماتهم وأحوالهم الاجتماعية وأنماط حياتهم. رأى كاربيني "أن المغول قوم يختلفون عن الناس الآخرين في أشكالهم وبنياتهم... فالمنطقة بين العينين في وجوههم أعرض ممّا سواها عند الآخرين، أما أنوفهم فهي صغيرة فطساء". ولاحظ أنهم يحلقون رؤوسهم مثل القساوسة، ويستبقون من شعورهم خصلتين قصيرتين تتدليان خلف الأذنين، "وأنهم يلبسون جلابيب من الجلد، ويجعلون الفراء على الخارج، وبعضهم يرتدي معاطف منسوجة". ويضيف كاربيني أن المغول يملكون قطعاناً كبيرة من السوائم من الإبل والضأن والماعز، أما الخيول والأفراس فعندهم منها ما لا يتوافر – في اعتقاده – لجميع أهل الأرض قاطبة. ولاحظ أن شيوخهم ونبلاءهم وأباطرتهم أثرياء يملكون من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والحرير الشيء الكثير، ويقول:

للمغول شهية لكل شيء، وأي شيء، وقد رأينا بعضهم يلتهم القمل! أما أخلاقهم فهي حسنة نسبياً، ولكنها ممقوتة. فهم أكثر أهل الأرض انقياداً لسادتهم ورؤسائهم... ولكنهم يكرهون كل الشعوب الأخرى، فتراهم مخادعين فوق التصور للأجانب، يقابلونهم بداية بوجه طلق ولسان ذلق حلو الحديث، ولكنهم يروغون عنهم في نهاية الأمر، ويلدغون مثل العقارب. فهم إذا أضمروا للإنسان شرّاً احتفظوا بذلك سرّاً مكتوماً حتى يباغتوه. إنهم قوم لا خلاق لهم، يأكلون على القذى ويشربون، ولا يحرك ذبحهم للشعوب الأخرى شيئاً في كوامنهم.

أضافت مثل هذه القصص إلى الخيال السقيم الموروث في ذهن الغرب عن الشرق أبعاداً جديدة، ولكنها لم تشجع على الرحلة الغربية إلى الشرق الذي صوّرت الرحلات الأولى أهله مخادعين وأقوياء. وما كان الذهن الغربي – حتى في دوائره المثقفة – في هذه الفترة يدرك أن في الشرق شعوباً وقبائل وأنماط ثقافات عدّة، فالعرب والفرس والهنود وما وراءهم من بلاد الله كلها عندهم – في ما يكتب هؤلاء – حزمة واحدة من الأعراق والثقافات، خاصة في هذه الفترة التي أخضع فيها المغول رقعة كبيرة من هذه الأرض لسيطرتهم. و لم يفهم أولئك الرحالة الغربيون، ولن يفهم كثير من الغربيين المحدثين الذين يكتبون عن الشرق، أن الأمر مختلف جداً، وأن لكل من العرب والهنود والفرس وقبائل جاوة وأهل اليابان وغيرهم من الشعوب القديمة، بل والحديثة أيضاً، ثقافتهم التي تتفرد بموروثات كوّنتها الجغرافيا وصاغها التاريخ. ولكل ثقافة من هذه الثقافات وغيرها دوائر قيمية متداخلة تتلاقى في إطارها العام ولكنها تتجافى في خصائصها الدقيقة. فالبدوي في صحرائه مثلاً تجمعه قيم ذات خصائص مشتركة مع ساكن المدينة العربية، ولكنها تختلف في ظواهرها وتطبيقاتها، كما تختلف الظواهر والتطبيقات لدى الأخير عن مثيلاتها لدى ساكن الميناء الذي هو أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي. وكم من بدوي تزوج بحضرية ملّته و لم تُطقه، وكم من بدوية تزوّجت بحضري فمجته وعادت إلى خيمتها بعد سُكنى الدور وحياة القصور. إن جمع الرحالة الغربيين للثقافة الشرقية كتلة واحدة في بوتقة واحدة يُعدّ عندنا من أشنع أخطائهم التي يمكن أن نستبينها بوضوح في كافة كتاباتهم، كما أن تباعد الثقافات بين الشرق والغرب، وتنافر القيم المجتمعية في كثير من الأحيان، وتناقض المصالح العامة والخاصة التي يخدمها الرحالة مع الخصائص الإيكولوجية والمظاهر الجغرافية لهذه المجتمعات، تجعل حكمه على المعاني القيمية والمظاهر الجمالية على ظواهر ثقافتنا في كثير من الأحيان متحيّزاً، بل هو جائر ظالم. وعلينا أن نحترز إذا اضطرنا نحن معشر المؤررخين إلى الأخذ مما كتبه الرحالة، ذلك لأن العقل الجمعي لجماعة الرحالة

الأوروبيين الذين غالبا ما ينقل طارفهم عن تليدهم القصص والطرائف والمرويات التي تنضح زيفا والتي يلحقوها بثقافات شرقية مختلفة– يخلط بين تلك الثقافات الشرقية ولا يبالي حين يضعها في بوتقة واحدة، ولا يمايز بين ثقافة هندوسية وأخري إسلامية، فكليهما من غريب فكر الشرق العتيق. وهناك أيضا، مع هذا، التجارب الشخصية التي يعيشها الرحالة والظروف التي تحيط به والتي تختلف من فرد منهم إلى آخر وتنعكس في كتاباته وتسبغ عليها نكهة مختلفة. فقد يحل أحد هؤلاء الرحالة في بلدة ما أو على جماعة ما، فيجد من بعض من تعامل معهم من المواطنين كرماً أو بُخلاً، غدراً أو وفاءً أو غير هذا وذاك من أنماط السلوك الإنساني الذي يختلف كل فرد فيه عن غيره، على أي جنسية كان ذلك الشخص، وفي أي زمان أو مكان عاش. ومن المألوف أن نجد في كتب الرحالة من يعمّم ما وجده من ذاك الشخص أو تلك الجماعة على المجتمع كله، فيمدحه أو يقدح فيه. وجد – على سبيل المثال – أحد الرحالة شغباً في مدينة عربية ما لبث أن ذمّ جميع أهلها ووصمهم بالهمجية والبربرية. وسرق أحدهم في أطراف مصر ملابس بعض الرحالة، فخلص هذا الرحالة حين نزل اليمن إلى أن الأمانة والنزاهة تتزايد في أوساط العرب كلما أوغل المرء جنوباً! ووجد رحالة آخر ما عدّه لؤماً من أحد مرافقيه، فوصم كل قبيلة مرافقه بالغدر، ثم انطلق من هذه المقولة ليقول إن الغدر سمة عامة في أوساط العرب، بدوهم وحضرهم، ولقي آخر ما اعتبره معاملة فظّة من حاكم حاضرة وهابية فوصم الوهابيين كلهم، حكاماً ومحكومين، بالتعصب والتهوس وضيق الأفق.

لا تقتصر هذه الذاتية الناشئة أساساً عن اختلاف الثقافات والتي عبّر بها كل رحالة عن نفسه حين تعامل مع الأفراد في هذه المنطقة أو تلك، وعن استجابة الرحالة للظروف العارضة التي تصادفه أيضاً، بل تجاوزتها لتعكس نفسها في المظاهر المادية والطوبوغرافية وكافة مظاهر الحياة الطبيعية والبيئية. فعلى سبيل المثال بدت صحراء النفود بزحف رمالها وسموم هوائها وحركة هوامها لقلم رحالة بائس مثل بالجريف موحشة تدعو إلى الاكتئاب، مخيفة تثير التوجّس، فيما بدت هذه الصحراء ذاتها لامرأة حالمة كانت تقطعها برفقة زوجها ويلفرد بلنت أجمل بقاع العالم. فهل نأخذ برأي بالجريف الذي قد يكون صاغ الصورة من خياله أم نتجاوزه لنأخذ برأي السيدة بلنت أم نتجاوز الرأيين لنأخذ بما قالته جرترود بل التي قطعت هذه الصحراء وقلبها يعاني من لواعج قصة حبّ فاشلة فبدت النفود لها مكاناً يخيّم عليه السكون ويسوده الهدوء و"تكسوه العزلة بغلالة شفيفة لكنها متينة تلفّ النفس فيستعصي اختراق خلجاتها"؟ والرأي عندنا أن نتفق مع ما كتبه داوتي، شيخ الرحالة الصعاليك، الذي لم يرَ في تلك المظاهر الطبيعية في هذه الصحراء إلا تعبيراً عن عظمة الخالق.

رحلة ماركو بولو

كان نيقولا بولو، والد ماركو، ومافيو، عمّه، تاجرين من البنادقة اتسعت تجارتهما ووصلت إلى ضفاف نهر الفولغا. وحدث أن كان الأخوان بولو في عام ١٢٦٠م هناك حين اندلعت حرب أهلية سدّت عليهما طريق العودة، فاتجها شرقاً فوصلا إلى إستانبول وغادرا إلى بخارى. وتلقّى الأخوان في تلك البلدة دعوة من سفير الخان الأعظم لزيارة بلاده كطلب الحاكم فلبّياها ووصلا إلى بكين في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م حيث التقيا قبلاي خان الذي رحّب بهما. وتجوّل الرجلان في مناطق شاسعة من إمبراطورية المغول، واستقرّا الفترة في عاصمتها في بلاط الخان، وكان ذلك الحاكم كثيراً ما يناقشهما في السياسات الإدارية والقانونية والسياسية التي تحكم أوروبا. وحين أزمعا السفر زوّدهما الخان بجواز سفر بصفتهما سفيرين له: "بقوّة إله السماء الخالد، فليقدس اسم الخان ويلقى كل من لا يقدم لهذا الاسم الاحترام حتفه". ويتيح هذا الجواز للرجلين أن يحصلا على الزاد والمأوى والخيول التي يحتاجان إليها والأدلّاء على امتداد أرض الخان من دون عناء. وعاد الرجلان إلى إيطاليا في عام ١٢٦٩م وهما يحملان خطاباً من قبلاي خان إلى البابا كلمنت الرابع يلتمس فيه إرسال معلمين لتلقين شعبه "العلوم السبعة: النحو والخطابة والمنطق والهندسة والحساب والموسيقى والفلك". وقد شجّع الأخوان بولو الاستقبال الطيب الذي لقياه من الخان على أن يعودا إلى الصين مرّة أخرى في عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م، وكان معهما الفتى ماركو ابن السبعة عشر عاماً، كما رافقهما أيضاً قسيسان أرسلهما تيدالدو، البابا جيوجوري العاشر بابا روما الجديد، ومعهما هدايا قيّمة لقبلاي خان، ولكنهما ما لبثا أن عادا إلى روما خشية من مخاطر الطريق. أما البولو الثلاثة فقد واصلوا الرحلة حتى وصلوا إلى عكا وواصلوا رحلتهم على ظهور الإبل حتى تبريز، ثم ركبوا الخليج إلى هرمز بقصد مواصلة السفر إلى الصين بحراً، ولكنهم عدلوا عن ذلك، فالسفن في تقديرهم كانت ضعيفة البناء لا تقوى على قطع تلك الرحلة. واضطرت الأسرة إلى العبور إلى الساحل الفارسي، إلى كرمان ثم عبر هيرات إلى بلخ. وعبر الرجال الثلاثة صحراء جوبي متّخذين من طريق الحرير الشهير دربهم إلى الصين. وصادف ماركو هوى عند قبلاي خان، حفيد جنكيز خان، وهو الثالث في سلسلة ملوك المغول، واستقرّ ماركو في خدمة قبلاي فقرّ به وأصبح أثيراً لديه وعاش معه في بلاطه، وغدا من مبعوثيه في بعض السفارات، ثم ما لبث أن عيّنه حاكماً لمدينة يانج شو (وهي إحدى المدن الصينية التي تجاوز عدد سكانها مليون نسمة في ذلك الوقت). وعاد ماركو مع والده وعمّه إلى البندقية في عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م بعد أربعة وعشرين عاماً من مغادرتهم لها ومعهم الكثير من الثروات والكنوز التي لم يتمكن ماركو من الاستمتاع بها فور عودته، فقد كانت البندقية تخوض حرباً مع جنوة، وكان السجن نصيب

ماركو منها. وتمكن ماركو خلال فترة سجنه التي امتدت حتى ذي القعدة ٦٩٨/أغسطس ١٢٩٩ من أن يؤلف كتابه الموسوم (**كتاب ماركو بولو البندقي**) ضمّنه تجاربه ومغامراته. وجاءت مقدمة كتابه كأنها الخطبة لتعلن بصوت جهوري "للأباطرة والملوك والدوقات والمراكيز والكونتات والفرسان والبورجوازيين، ولكم كلكم، مهما كان موقعكم، من الراغبين في معرفة العناصر المختلفة للإنسان والتناقضات الكامنة للاختلافات الواقعة في أقاليم العالم، أقدّم هذا الكتاب، وستجدون فيه من الغرائب المثيرة وما تنفرد به أقاليم الشرق الواسعة المترامية".

والجدير بالذكر أنه لا توجد نسخة موثقة من كتاب ماركو بولو الذي اهتم – كما تشير مقدمته – بالروايات الغريبة التي قد نجد بعد ذلك من يضيف إليها ما يزيدها طرافة أو يحذف منها ليصل بها إلى العقلانية. وعلى ذلك فالنسخ المنسوبة إلى هذا الرحالة تتباين تبايناً كبيراً، حتى إن عدد صفحات بعضها يتجاوز ضعف عدد صفحات بعضها الآخر. واستقرّ ماركو في البندقية بعد عودته من الأسر في جنوة حيث عمل في إدارة شركة كانت لأبيه وعمّه، وأصاب ثراءً عريضاً، و لم يعمد إلى القيام برحلة أخرى إلى الشرق، لكنه أقدم على نشر كتابه عن الشرق وغرائب ما يمكن أن يصادفه المرء هناك.

ضمّت أقاليم الشرق التي تحدث عنها مؤلف ماركو: الصين والهند وفارس وهرمز وزنجبار والحبشة وشبه الجزيرة العربية. ويذكر ماركو قلهات (قلاياتي) التي يبدو أنها كانت في قمّة ازدهارها، فهي – كما رآها: "مدينة عظيمة تقع على ساحل البحر على بعد نحو ستمئة ميل إلى الشمال الغربي من ظفار، وأهلها عرب يتبعون ملك هرمز. وهم لا يشتغلون بزراعة الحبوب، بل يستوردونها من الخارج عن طريق السفن التجارية التي تفد بالتجارة إلى مينائهم المتّسع الذي يصدّر عدداً كبيراً من الخيول العربية الأصيلة إلى الهندن ويستورد البهار والسلع الأخرى، ويرسلها إلى مدن الظهير".

ويُذكر أن جيوفاني دي بيانكو كاربيني الذي زار أرض المغول في عام ١٢٤٥–١٢٤٧م وربروك الذي زارها أيضاً في عام ١٢٥٣م، لم يتركا أثراً كبيراً في الفكر الغربي عن الشرق. فهما لم يتوغّلا في أرض المغول كما فعل أفراد أسرة ماركو، كما أنهما قدّما صورة بدائية مخيفة عن المغول خلافاً لما قدّمه ماركو بعدئذ من بدائية تثير الخيال. ويُحسب لكتاب ماركو أنه ضاعف بقصصه من مساحة العالم المعروف لدى الأوروبيين، وأكد فكرة الثراء الأسطوري في الشرق الذي لا يتطلب من الغربي إلا المغامرة للفوز به. وكان هذا الكتاب من أهم المحفّزات التي دفعت بأباطرة أوروبا إلى المجازفة والمخاطرة وغزو الشرق الذي ما كانوا يعرفون الفرق بين هندوسه ومسلميه. وقد خرج عدد من الرحالة الأوروبيين في إثر ماركو يبحثون عن هذا العالم الغريب الذي رسمه لهم. ويمكن أن نذكر في هذا المجال الرحالة الشهير كريستوفر كولومبس الذي وُجد ضمن مقتنياته بعد وفاته نسخة من كتاب ماركو تضمنت تعليقات على

المتن كتبها بخط يده، كما يمكن أن نذكر في هذا المجال أيضاً بنتو دي جويس الذي حفّزه ما ورد في كتاب ماركو عن وجود مملكة نصرانية في الشرق فخرج يبحث عنها في رحلة استغرقت منه ثلاث سنوات (١٦٠٢-١٦٠٥م)، حتى وصل إلى سور الصين العظيم لكنه لم يجد ما يبحث عنه. وهكذا نجد أن أهداف أولى الرحلات الأوروبية الشهيرة في التاريخ الحديث إلى الشرق ظلّت كما هي عبر مسيرة هذا التاريخ في الشرق لم تتبدل. تركزت الأهداف في الاستثمار من خلال العالم الأوروبي، والتنصير على المذاهب الأوروبية، والاستعمار لتحقيق الرفاهية لأوروبا. ولنا أن نلاحظ أيضاً أن صياغة الرواية في أدب الرحلة لم تتغيّر عبر الزمن أيضاً، فهي تركز على البدائي والغريب في الشرق، وتفيض بالمغامرات القاسية التي يخوضها الرحالة الغربي ويخرج منها بعدئذ سالماً غانماً، وقد حقق هدفه بشجاعته ورباطة جأشه. ولا نحبّذ هنا أن نقدم صوراً لما أورده ماركو عن التخلف الحضاري الذي رسمه عن المغول، أكلة القمل، ولكننا يمكن أن نقدم من مرويات ماركو صورة لما يعتري المرء وهو يقطع بعض صحارى الشرق. "عندما يعبر المرء هذه الصحراء ليلاً ويغلبه النعاس فينفصل عن رفاق سفره ويسعى للحاق بهم، فإنه يسمع صوت شبح يتحدث إليه كما لو كان صوت أحد من رفاقه. يقود هذا الصوت المسافر بعيداً عن الطريق، فلا يمكنه بعدئذ الاهتداء إليه فيضلّ دربه ويهلك. وقد يسمع المسافر عبر هذه الصحراء ليلاً أصواتاً لمجموعة كبيرة من الناس تسير في طريق مغاير وتدعوه لصحبتها، فإذا انخدع بتلك الأصوات واتّبع مصدرها فسيكتشف حين تشرق الشمس عمق المعاناة التي أصبح فيها. وقد يتوهم البعض أحياناً أن حشداً من اللصوص يتجهون نحوهم فيفرّون ويفقدون الأمل في الرجوع إلى رفاق سفرهم. ولا تقتصر هذه الأصوات في الصحراء على الليل فقط، فحتى في ضوء النهار قد يسمع البعض أصوات الأشباح. يتخيّل المرء في العادة أنه يستمع إلى موسيقى تصدح بها عدّة آلات موسيقية أبرزها قرع الطبول المصاحب للتصفيق فينصرف في اتجاه تلك الأنغام. وبناءً على ذلك، من الواجب على جماعة المسافرين أن ينتبهوا ليظلّوا مترابطين غير منفصلين، وعليهم حين يذهبون إلى النوم أن يعيّنوا قبل ذلك الاتجاه الذي يجب عليهم أن يلتزموه، كما يجب عليهم أن يعلّقوا أجراساً صغيرة على سوائمهم ليهتدوا برنّاتها، بعضهم إلى مواضع بعض، فلا يضلّوا الطريق".

ويقيناً فإن صور غرائب الأسفار في الصحراء تتكرر عند كافة الرحالة الغربيين، فقد تتلمذ أغلبهم على ماركو ومن جاء بعده، ونقل بعضهم عن بعض، بروايات مختلفة، الحكايات الغريبة عن الشرق. ومع ذلك نستطيع القول إن كتابات ماركو ووليام روبروك وغيرهما من الغربيين في هذه الفترة – على ما هي عليه من خيال – قد أسهمت كثيراً في تخفيف غلواء الخيال الغربي الجانح عن الشرق. فقد أخذت الروايات الغربية في هذا المجال تتجه هوناً ما إلى العقلانية وتزاحم تلك الصور الخيالية المتهوسة.

الرحّالة الكذّابون والرحّالة الأدباء

هلك ماركو في ١٠ المحرم ٨/٧٢٤ يناير ١٣٢٤ وأوصى بزيادة حصة الكنيسة من مستحقاته القانونية في تركته، وأعتق عبداً تتارياً كان قد جلبه من رحلاته في الشرق. ودخل إلى الساحة الأدبية في أوروبا بعد موت ماركو أدب رحلات من نوع جديد، يمازج بين الحقيقة، على علاّتها، التي أوردها ماركو ومن سبقه في الرحلة، وبين قدر من الخيال الموروث من عصور خلت. فصل هذا الأدب بين عصر رحلات العجائب الصرفة ورحلات عصر النهضة التالية ذات الأهداف المحددة التي اعتمدت مروياتها عن قصد من تلك العجائب ما تحقق به أهدافها في محاربة الإسلام واستنزاف اقتصادات البلاد التي تدين به. وصف بعض المؤرخين الكثير من العاملين في أدب الرحلة في هذه الفترة الانتقالية بالرحالة الكذّابين، لأنهم كتبوا عن أماكن لم يسبق لهم أن زاروها، وهو وصف قد لا نراه دقيقاً، فأدب الرحلة يختلف باختلاف العصور ويتلوّن بألوانها ويتخذ شكله من أهدافها. يأتي في مقدمة هؤلاء الكاتب الموسوعي جون مادنفيل الذي نشط منذ عام ٧٥٧هـ/١٣٦٥م في كتابة أدب الرحلات، وألّف قصصاً كثيرة عن رحلات ادّعى أنه قام بها. وجاء بعده العديد من الرحالة الغربيين الذين استشهدوا بما كتبه هذا الرجل، مع أنه – جهلوا أم علموا – لم يسافر، في حقيقة الأمر، إلى أي منطقة ممّا ذكر إلا في الخيال الذي لم يحدّ منه إلا انتحاله لرحلات آخرين أعاد صياغتها ببلاغة أكسبته ريادة أدب الرحلة في زمانه. وبدت روايات ماندفيل عن الشرق كأنها تتحدث عن عالم حقيقي حجبه عن الغربيين إنسان الشرق البدائي الغريب. وقد يشفع للرجل أنه بنى العديد من كتاباته على رحلات حقيقية قام بها آخرون، وهذا ما لم يعمل به الرحالة الكذّابون حقيقة، الذين عاصروه أو أتوا بعده وصاغوا رحلات في الشرق لا تعتمد إلا على الخيال الصرف. ادّعى بعض هؤلاء أنه سافر إلى مكّة المكرّمة وصوّرها في قصصه كما أسعفه خياله. ويأتي في مقدمة هؤلاء القسّ الدومينيكاني فيلكس فابري الذي كتب في عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م عن رحلة حجّ قام بها إلى بيت المقدس، فكتب عنها مدّعياً أن رحلته امتدت من هناك إلى مكة المكرّمة. كتب فابري في رحلته المزعومة عن الحجر الأسود الذي قال إنه عبارة عن نتوء في الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة. وأنكر الرجل ما ساد أوروبا من أن ذلك الحجر عبارة عن قطعة من تمثال زُحل أدخله محمد صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة. وادّعى فابري أن المتعبّدين في مكة يقدسون كوكب الزهرة، وأنهم يرجمون الشيطان بحجارة يرسلها المتعبّد من خلفه من خلال فخذيه ليصيب بها الشيطان. ومن عجائب قصص هذا القسّ ابتداعه لخرافة شاعت في أوروبا وانتشرت في ذلك الوقت بنحو كبير. يقول الرجل إن الكثير من المتعبّدين يأتون إلى مكة ليشاهدوا فيها "تابوت" محمد صلى الله عليه وسلم المعلق في الهواء لا تمسكه حبال

ولا سلاسل، وذلك رغم أن قبره صلى الله عليه وسلم في المدينة المنوّرة التي "تقع على بعد مئة ميل شمالي مكة". وقد يشفع لهذا القسّ أنه اعترف في نهاية رسالته بأنه قام بزيارة لمكة من وحي خياله بقصد أن يستبين القراء الفوارق بين حجّ النصارى وحجّ المسلمين. ونبقى مع الرحالة الكذّابين فنذكر منهم الألماني أرنولد فون هارف، أحد أثرياء عصره، الذي كتب أنه خرج في زيارة حجّ إلى روما غادر بعدها إلى مصر. ويدّعي أنه تسلل من هناك بمساعدة أحد المماليك إلى مكّة التي وصفها بأنها مدينة جميلة جداً تحيط بها الحدائق الغناء التي تُسقى من نهر متدفق بماء غزير يتدفق في اتجاه الجنوب حتى يصبّ في البحر الأحمر، وأن تلك الحدائق تنتج صنوفاً من الفاكهة النادرة. ويدّعي الرجل أنه زار في مكة المكرّمة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. ويتضح من خلال روايته أن الرجل كان كذاباً أشر، فلا حدائق في مكة ولا أنهار ولا أشجار ولا قبر للرسول الكريم. ويبدو أن أرنولد قد صاغ قصة رحلته المزعومة من بطون أمهات كتب التراث الأوروبي القديم، فهو يُسمّي بعض مدن في شبه الجزيرة العربية بأسماء ذكرها بطليموس في القرن الثاني الميلادي.

رجع كثير من أدباء الغرب وشعرائه ومبدعيه في بدايات العصر الحديث إلى كتب الرحالة من بني جلدتهم، بكل ما فيها من زخم الحقيقة وتلبيس الخيال، يتلّمسون فيها عجائب الشرق. يصبغها، كلّ بصبغته، ثم يصوغها شعراً ونثراً يداعب بها خيال تلك المجتمعات الغربية التي اختلطت في أذهانها الحقيقة بالخيال الذي اكتست به المجتمعات العربية المحجوبة عنهم بغطاء كثيف من الموروثات الثقافية المغايرة. وابتدع فولتير وصموئيل جنسون وغيرهما من الذين اهتموا بأدب الرحلة في عصر التنوير قصصاً يتقاسمها الواقع والمتخيّل عن الشرق. وفي الحقيقة، فقد شهد هذا العصر تحولات في بنيوية المتخيّل بما يتناسب مع التحولات الاجتماعية في الغرب الذي تمرّد على الإرث الديني. وانتقل هذا الأدب - بطبيعة الحال - إلى العديد من الرحالة اللاحقين لعصر فولتير، وكان هذا الإرث من المحفّزات الشخصية الرئيسة لهم لشدّ الرحال إلى الشرق، تحقيقاً لأهداف حكومة ما أو مؤسسة تنصيرية أو استثمارية أو دائرة علمية تعمل في خدمة الاستعمار الأوروبي. وامتد الخيال بمونتسكيو بعيداً ليبتكر شخصية فارسي زار باريس، أجرى على لسانه الكثير من ضروب السخرية الموجهة إلى المجتمع الفرنسي. واشتطّ الخيال بأدباء أوروبا من المهتمين بأدب الرحلة وبالرحالة أيضاً، فلم يسلم القصص الديني في القرآن الكريم من أقلام هؤلاء الناشطين في الفكر والثقافة والأدب في المجتمع الأوروبي. وتناول جان جاك روسو وسويندبرج ودانتي وآخرون من أمثالهم العديد من ذلك القصص القرآني وعملوا على استكشاف معانيه على ضوء من فكرهم وثقافتهم. ويعتقد العديد من مؤرخي الأدب الإنجليزي أن دانيال ديفو (١٦٦١-١٧٣١م) الإنجليزي الذي قضى شطراً من حياته في إسبانيا قد اقتبس قصة حي بن يقظان، التي هي رحلة خيالية ابتدعها الفيلسوف

المسلم ابن طفيل (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٨٧هـ/١١٨٥م) الذي حاول أن ينقل من خلال هذه القصّة فلسفته الإيمانية عن طريق السرد الروائي. صاغ ديفو من هذه القصة أخرى سمّاها روبنسون كروزو أشاد فيها بجسارة الغربي الذي يجازف غير هيّاب، يبتدع ويعمل على قيادة الإنسان البدائي في طريق التقدم ويدفعه إلى القبول بالنصرانية.

تذهب قصّة حي بن يقظان إلى أن أمه خشيت عليه عند ولادته نقمة الحاكم، فوضعته في تابوت وألقت به في اليمّ الذي دفع به إلى ساحل جزيرة نائية، وتعهّدته هناك غزالة كانت قد فقدت رضيعها بالعناية والرعاية. وحين بلغ الصبي السابعة، نفقت الغزالة، وبدأ ذلك اليافع البدائي يفكر في سرّ الحياة والموت. فالجثة الهامدة أمامه لم تفقد من هيئتها شيئاً إلا القدرة على الحركة، ثم ما لبثت الجثة أن تنتن بعد ذلك، فاهتدى حي إلى أن يدسّها في التراب. وأخذ الفتى الغرير يفكر في حركة الحياة والأفلاك من حوله ويتأمل سرّ الوجود. وتمضي الحكاية لتصل إلى أن الإنسان يمكن أن يهتدي إلى وجود الله بفطرته وبعقله وبتدبره. وتناول ديفو هذه القصة وصاغ على نمطها روايته التي نشرت في عام ١٧١٩م. والقصتان متشابهتان إلا في المغزى. فروبنسون كروزو رمته الأقدار في جزيرة منعزلة وهو فتى راشد، فاضطر إلى بناء مسكنه بنفسه، وراح يزرع ويصطاد، وعمل على تدجين الماشية، وصنع من الفخار الآنية التي يحتاج إليها. وتمكن كروزو من استنهاض ذاته كإنجليزي تستهويه المغامرة واستكشاف المجهول ليتملك بالمثابرة والعمل، ويسيطر ببطولته المتفردة على تلك الجزيرة العذراء. وأخذ كروزو يقرأ الإنجيل ويشكر الله على أنه لم يفقد سوى الاجتماع البشري، وذلك رغم أنه التقى إنساناً آخر، متوحشاً سمّاه جُمعة، ساكناً تلك الجزيرة التي غدت ملكاً لكروزو. وتمكن كروزو من مواجهته وتأديبه وتعليمه اللغة الإنجليزية، ورضي جمعة المتوحش بعد تدجينه باستعمار أرضه وانخرط مع أبيه في النصرانية وغدا تابعاً مستنيراً لروبنسون يخدمه عن اقتناع بإخلاص.

أضافت قصص بعضهم إلى صورة الغربي الجسور المستنير المؤهل بعنصره للسيطرة على الآخر المتوحش البدائي والغريب، ونجم عن هذا التزاوج بين الحكائي والدلالي إبداع غربي حرّك كوامن النفوس، وأثار في المجتمعات الغربية مزيداً من الفضول والتطلع إلى مزيد من استكشاف الشرق وفكره وسحره وطيوبه وثرائه وبدائيّته. وازداد التأثير المتبادل بين قصص كثير من الرحالة الذين أرادوا أن يقلّدوا الأدباء فكراً وثقافة، وبين إبداع الأدباء الذين تلقطوا غرائب الرحالة وفخّموها ليهدهدوا بها قلوب قرائهم وعقولهم. ورسخ في الذهنية الأوروبية بأدب الرحالة وقصص الأدباء الغربيين أن الشرق البدائي الغريب يقتات الخيال غافياً فوق أرض ترابها ذهب، ونسيمها طيوب وعبير. وقد وقر ذلك في الذهن الأوروبي منذ العصر الإغريقي، واستقر به حتى العصر الحديث، مروراً بالعصور الرومانسية التي شهدت كتابات اللورد بيرون ثم كتابات توماس مور اللاحقة. وثّقت هذه الكتابات في الخيال اتصال الفكر

الغربي بالثقافات الشرقية التي تشابكت في نسيجها خيوط الحقيقة والخيال الغربي والشرقي على حدّ سواء. ولن تجد من الرحالة الغربيين في شبه الجزيرة العربية من لم يعتمد في سرده – بنحو أو بآخر – على كتاب ألف ليلة وليلة الذي كان قد ترجم إلى الفرنسية منذ عام ١٧٠٤م. ففي كل رحلة غربية في شبه الجزيرة العربية نجد شبح السندباد البحري، كما نجد علي بابا والأربعين حرامي في سرد كل رحالة غربي رافق قافلة عبر الفيافي والصحاري العربية. ولّما كان قديم الغرب من الثقافة الموروثة عن الشرق أساساً لحديثه، فقد ظلّت أدبياته متصلة متشعبة تتخذ صوراً متعددة للغريب والمستظرف حكائياً في كل عصر لاحق. نجد في كتابات توماس مور – على سبيل المثال – بعض الأقوال التي وردت عن الشرق في أدب الرحلة اليوناني والروماني، بعد أن أضاف إليها مور من إبداعات عصره ومزاج خياله. يقول مور إن سواحل بلاد العرب تتضوّع روائح ذكية عبقة، فتنقل المرء من عالم إلى آخر يحلم به وتهدي إلى أنفه الذي بلّده زكام روائح البترول النفاذة النتنة في شوارع الغرب شذاً فوّاحاً. وبهذا المنطق الدرامي الذي يعتمد المواءمة بين الأضداد، يستطيع الروائي الذي هو في منطقة برزخية بين الحقيقة والخيال أن يشيد الشرق عالماً هلامياً يدفع المزيد من الرحالة إلى استكشاف عالم الشرق الغريب، ويضيف إلى هذا الزخم المتصل الجديد من القصص المثير. وهكذا فقد تأصلت في المخزون التصوري للفكر الغربي – منذ أمد بعيد – صورة شرق غير حقيقي، شرق لا ينتمي إلى الشرق، بل هو شرق أفرزته عقول الغرب ويعاد إنتاجه في الذهن الغربي على مرّ العصور.

الرحلة قرون استشعار الاستعمار

تزامنت الزيارات الكاذبة إلى شبه الجزيرة العربية مع فترة الاستكشاف الأوروبي، في الوقت الذي تراجعت فيه المعرفة الإسلامية في العلم والأدب وانحسرت بانحسار المدّ السياسي والعسكري للدول الإسلامية المتعاقبة. وأخذت المعرفة الغربية بأشكالها المختلفة في النمو لتحلّ محلّ معارف تلك القوى االتي باتت واهنة. وأخذت الرحلة الأوربية إلى ديار العرب والمسلمين تنشط من جديد مع بداية العصر الحديث تحقيقاً لأهداف أعلت البرتغال راياتها بداية، أهمها: استخلاص الأرض البرتغالية أولاً للقوى النصرانية من جديد، والعمل على وقف الزحف الإسلامي تجاه أوروبا، وضرب العالم الإسلامي اقتصادياً لإضعافه، ثم استعماره لاستثمار مصادره ذات الثراء الأسطوري الذي صورته الرحلات الأوروبية السابقة ومصادر المعرفة الأوروبية الأخرى. وقد ظفرت البرتغال بتأييد بابا روما، ما أضفى على تلك الجهود البرتغالية غطاءً دينياً كثيفاً، فارتبطت بذلك نصرانية كنيسة روما ببداية الاستعمار الأوروبي في ذلك الوقت، كما لقيت هذه الجهود البرتغالية مساندة إسبانية واضحة، رغم ما كان بين

البلدين من تنافس استعماري أحياناً. وكان البابا يتدخل في العلاقات الاستعمارية لهذين البلدين، وكان لذلك التدخل البابوي انعكاساته على الشرق عامة، ثم على كنيسة روما بعدئذ، حين سعت بعض الدول الأوروبية الأخرى إلى منافسة البرتغال وإسبانيا في مجال الاستعمار، وثبتت تلك الكنيسة على مناصرتهما ضدّ تحديات الدول البروتستانتية.

لم يكن تحقيق هذه الأهداف البرتغالية ممكناً إلا بالتخطيط الذي اعتمد فيه الملوك البرتغاليون على عدد من العوامل. كان العامل الديني هو العامل الأول الذي حفز الجنود والضباط وشحنهم بروح الاستشهاد للقضاء على الإسلام "تماماً ونهائياً". أما العامل الثاني فقد تمثل في العمل الجاد على بناء ترسانة بحرية قوية. وقد أنتجت البحوث البرتغالية المتصلة بمجال الملاحة تقدماً تقنياً كبيراً أسهم في بناء السفن ووسائل الإبحار، ما ضمن لهم التفوّق النوعي الدائم على سفن الشرق. أما الرحلة فكانت ثالثة الأثافي في تلك الجهود، فقد أدرك البرتغاليون أنه يتحتّم عليهم التعرّف إلى المناطق العربية الإسلامية والدروب التي تقود إليها أولاً. ولذلك اهتمّ الملوك البرتغاليون بالرحلة لاستكشاف شخصية الأرض والسكان، والقيام بالاستطلاع والدراسة والتقصّي.

مثّل الرحالة الغربيون مقدمة الاستعمار الغربي أو ربما كانوا المدية التي أحدثت الجرح النازف في الجسد العربي والإسلامي. فعندما أزمع الملك يوحنا الثاني، ملك البرتغال، على غزو العالم الإسلامي والمناطق الإسلامية وغير الإسلامية في جنوب شرق آسيا المتعاملة مع المسلمين تجارياً، أرسل اثنين من رجاله في رحلة إلى بيت المقدس لجمع معلومات إضافية عن السياسة الإسلامية. ولما لم يعد هذان الرجلان بحصيلة وافية لجهلهما باللغة العربية، أردف هذا الملك تلك البعثة بأخرى برئاسة بترو ديلا كافيلام Cavilam الذي كان يتقن العربية، وأوكلت إلى هذه البعثة أيضاً مهمة جمع المعلومات عن أرض القديس يوحنا Prester Jhon، وتحريض ملكها على التحالف مع البرتغال ضدّ المسلمين إضافة إلى التحرّي عن مصادر تجارة التوابل التي كانت تدرّ أرباحاً وفيرة تتدفق في اقتصاد بعض الممالك الإسلامية.

يمكن اعتبار عام ٨٩٠هـ/١٤٨٦م الذي خرج فيه هذا الرحالة من برشلونة إلى نابولي ثم إلى المغرب للحاق من هناك بقافلة حجّ المغاربة المتجهة إلى القاهرة، بداية نشاط الرحالة الأجانب في شبه الجزيرة العربية. كذلك يمكن القول أيضاً: إن أهداف أولى الرحلات إلى هذه المنطقة كانت استخبارية بحتة. وعلينا كمؤرخين – حين نعتمد الرحلة الأوربية مصدراً – أن ندقق في أهدافها على ألا نعتمد عليها إلا بعد النقد والتحري. فمن المنطقي أن يحمل رجل الاستخبارات إلى الجهة التي أوفدته من الأخبار أوثقها، فهو يدرك خطر مهمته وما يترتب عليها، فتراه يتجنّب الزيف ولا يقع في تقريره الرسمي إلا مخدوعاً أو في بعض الأحيان مدفوعاً للتهويل أو التهوين من شأن العدو لدفع السلطات المعنية إلى تبني خطط بعينها في التعامل مع

المنطقة، وعلى المؤرخ وهو يتعامل مع مادة الرحلة الاستخبارية أن يهتم بهوية ذلك الرحالة المخبر وانتمائه القومي والديني والمذهبي. فالأخبار التي يحملها الجاسوس الذي يختلف عرقاً أو ديناً أو مذهباً عن انتماء الجهة التي أوفدته تتلون عادة بما يمكن أن يحقق لذلك الجاسوس هدفاً قومياً أو عقدياً أو غير ذلك. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن دي كافيلام كان من يهود الأندلس المرتبطين بالمغرب العربي. ولعلنا نجد في الرباط الوثيق بين الهوس الصليبي البرتغالي العنيف المرتبط بالكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت والعداء اليهودي ضدّ الإسلام وأهله ما يجعل هذا اليهودي صادقاً في كشف عورات السياسة الإسلامية وقتها بشيء من المبالغة، وما يؤمن للمؤرخ قدراً مقبولاً من الصدق في المادة التي قد يعتمد عليها في معالجة التقارير البرتغالية، واعتمادها بعد النقد الجاد والتمحيص الدقيق مع حذف كل ما يتصل بالعقيدة والأحكام الشرعية التي لن يبحث المؤرخ عنها في كتب الرحلات الغربية، فمصادرها العربية والإسلامية متوافرة.

ركب دي كافيلام ومن معه من مصر البحر الأحمر إلى ساحل شبه الجزيرة العربية حتى انتهوا إلى عدن التي غادرها كافيلام بعدئذ إلى هرمز، جوهرة (خاتم) اقتصاد العالم وقتئذ، ووجّه من عدن زميلاً له إلى الحبشة لاستجلاء أخبار مملكة القديس يوحنا. ورحل دي كافيلام من هرمز ليغشى عدداً من حواضر الساحل الغربي لشبه القارة الهندية، وعاد بعدئذ إلى هرمز مرّة أخرى، وعرج منها إلى زيلع على الساحل الأفريقي، وزار عدداً من مدن الساحل الشرقي من أفريقيا في المنطقة الممتدة من باب المندب حتى سفالة، ثم عاد إلى القاهرة حيث بعث من هناك بحصيلة معلوماته إلى البرتغال. وفي القاهرة تلقى هذا الرحالة أمراً بعث به إليه الملك البرتغالي يطلب إليه أن يشخص بنفسه إلى الحبشة للتحري عن حقيقة مملكة القديس يوحنا. وغادر هذا الرحالة القاهرة إلى عدن مرّة أخرى، ولحق من هناك برفيقه الذي كان قد أوفده سابقاً إلى الحبشة، وهناك انقطع ذكره كما انقطع ذكر زميله من قبل. ومع ذلك يمكن أن نتلقط بعض أخبار هذا الرحالة من مذكرات سفير البرتغال في الحبشة في الفترة ٩٢٦-٩٣٢هـ/١٥٢٠-١٥٢٦م التي تفيد بأن دي كافيلام زار في جولاته مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة. وبالرغم من أننا لا نملك ما يؤيد هذا الزعم أو ينفيه، فإننا نميل إلى ترجيحه لما لهاتين المدينتين من أثر نافذ في المنطقة التي يريد ملك البرتغال ضربها، ولما لهما أيضاً من موقع في الدين الذي أعلن هذا الملك أنه يسعى إلى تدميره تماماً ونهائياً.

بات الشرق ومساراته البحرية والبرية التي زارتها هذه البعثة الاستخبارية، كما باتت تجارته وسياساته، بجهود هذه البعثة واضحة بالقدر الذي مهّد لقيام أول حملة عسكرية برتغالية لاستعمار الشرق ودقّ عصب الاقتصاد الإسلامي. وقد تمكنت هذه الحملة البرتغالية الأولى من إحداث شرخ كبير في النسيج الإسلامي لمدن ساحل الشرق الأفريقي، وشلّ التجارة الإسلامية،

والبدء بتحويل ريعها لمصلحة الخزانة البرتغالية، وما لبثت الحملات البرتغالية اللاحقة أن أرست أسس الاستعمار الغربي في الشرق كله.

امتازت معظم تقارير الرحلات الغربية في عصر النهضة الأوروبية التي كانت نتاج تخطيط جاد وهادف بصدق الرواية وبتنقيتها من زيف الخيال إلا ذلك القدر الذي يقصد الرحالة منه تحقيق غايات معينة في عقل القارئ. أما تقارير الرحلات التي تقدم إلى الجهات السياسية في دوائرها العليا والعلمية أيضاً فتتحرى عن الصدق – ما أمكن – خاصة حين يتصل الأمر بكشف عورات المسلمين وضعفهم وتنازعهم في ما بينهم. وعاد ذلك على الاستعمار الغربي الذي كانت ريادته للبرتغاليين بمساندة كنيسة روما بفوائد جمّة وملموسة. وقد كان لتلك الرحلات من الأثر ما تعجز كتائب عسكرية كاملة عن إنجازه، فأولئك الرحالة كانوا العيون التي استكشفت الدروب وكشفت العيوب، وحرّضت على الاستيلاءعلى المقدرات الاقتصادية الهائلة للدول الإسلامية. وهي التي أكدت تنافر تلك الدول في ما بينها، وتهافت بعضها للعمل ضدّ بعضها الآخر بالتحالف مع القوّة البرتغالية الاستعمارية الصليبية الوافدة. وقد أشارت بعض تقارير البرتغاليين في الشرق إلى سكوت بعض الدول في المنطقة عن التغوّل الاستعماري البرتغالي ما دام ذلك الداء بعيداً عن حدودها السياسية لا يمسّ سلطانها ولا هيلمانها إنما يفتّ في عضد دول إسلامية أخرى منافسة يجد الحاكم المعني سلامة ملكه في ضربها وإتلافها. وقد تمكن الاستعمار البرتغالي من أن يستعين بتقارير الرحالة لكشف الخلاف بين حكومات الفرس والأتراك، وبين الأخيرين والمماليك، وأن يردي مع الزمن ثوراً بعد آخر، وينزل بهم جميعاً إلى أتون قدره. ويمكننا أن نعدد مجموعة من هؤلاء الرحالة الذين وفدوا إلى الخليج جواسيس أو تجاراً أو منصّرين أو مبعوثين سياسيين لتحقيق غايات استعمارية أو تجارية. يأتي في مقدمة هؤلاء بيدروا، شقيق هنري الملاح، ودي كوافيلو من الموفدين إلى البلاطين العثماني والفارسي. وتنويرو، وهو يهودي برتغالي عاش في مسقط في الفترة ١٥٢٠-١٥٢٦م. ولعل في ما كتبه الرحالة الفارز الذي وفد إلى الخليج في عام ١٥٢٦م ما يكشف عن طرق الملاحة في منطقة الخليج وأساليب البرتغاليين في المعاملات التجارية القسرية. ونجد في هذا المجال كتابات لليسوعي البلجيكي جاسباريس عن النشاط التنصيري وإقامة مملكة المسيح في الشرق، وقد وصل هذا القسّ إلى مسقط في عام ١٥٤٩م حيث وجد المستعمرة البرتغالية هناك من دون قسّيس يرعاها. يقول القس جاسباريس إنه جمع من في المستعمرة تحت ظلال النخيل وبشّرهم ووعظهم وحثّهم على الرجوع إلى الايمان. واضطر جاسباريس إلى أن يغادرهم بعد ذلك إلى هرمز التي كانت وجهته في الأساس، وهناك تلقى رسالة من حاكم مسقط البرتغالي يفيده بأن مسقط قد غدت مؤمنة تماماً وأنها نذرت نفسها كي تموت فداءً للإيمان بالمسيح. وعلى الرغم من ذلك لم يطُل بقاء جاسباريس في منطقة الخليج، فقد أنيطت به وظيفة كنسية

كبيرة في جوا فغادر إلى هناك. ولعلّ الرحالة البرتغالي اليهودي ديكسيرا الذي زار الخليج في عام ١٦٠٤م كان من أشهر هؤلاء النفر في مجال الرحلة في الخليج في هذه الفترة. وكان للإيطاليين تاريخ طويل في تجارة بعض مقاطعاتهم مع الشرق، فلا غرو إن وجدنا بترو دي لافالي في الخليج في عام ١٦٢٢م وقد اشتهر بكتابه **معلومات مهمة عن مقاومة العرب للبرتغاليين في دبا بصفة خاصة**. ويمكن أن نؤرخ لأول رحالة من الإنجليز في العصر الحديث بتأسيس شركة الليفانت في عام ١٥٨١م. فقد خرج جون نيوبري ورالف فنش، من رجالات هذه الشركة، في عام ١٥٨٣م لاستكشاف طرق الشرق التجارية إلى الهند. بدأت رحلة الرجلين ومن في معيتهما من طرابلس في الشام وقصدت إلى بغداد ومنها إلى البصرة ثم عبر الخليج إلى هرمز. أما الفرنسيون فقد كان اهتمامهم في هذه الفترة الباكرة في أعالي الخليج تنصيرياً في المقام الأول، ولم تبدأ رحلاتهم للجاسوسية والتجارة إلا بعد الثورة الفرنسية. أما في الطرق البرية في داخل شبه الجزيرة العربية فكان دي فارتيما أول من عرفناه من هؤلاء الرحالة الجواسيس الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاستعمار البرتغالي الذي مثّل طليعة الاستعمار الغربي للشرق في العصر الحديث بكل زخمه الصليبي الذي توافر عليه الغرب في الخليج.

الفصل الثاني

دي فارتيما في خدمة طلائع المستعمرين

عمدت البرتغال إلى تجهيز الجيوش لضرب القوّة الإسلامية في المغرب العربي لتحطيم المتاريس الأولى للبلاد الإسلامية وإقصاء القوّة الإسلامية عن حدودها المباشرة، ثم العمل للامتداد بعيداً عن تلك الحدود لضرب المقوّمات الاقتصادية للبلاد الإسلامية وتحويل ريع ذلك الاقتصاد لمصلحة خزينة البرتغال. و لم تهمل البرتغال في حربها ضدّ المسلمين البعد الثقافي، فقد كانت الأخوّة الإسلامية رابطة سياسية وقاعدة عسكرية انتظم فيها العالم الإسلامي في فترات طويلة من تاريخه، فعمد البرتغاليون إلى ضربها كذلك كي لا تستجمع شتاتها وتعود إلى أوروبا مرّة أخرى بمؤثراتها الثقافية والجهادية والسياسية. وكان التعاون في هذه الفترة بين البرتغال وكنيسة روما قد بلغ ذروته، ما أعطى بداية الحركة الاستعمارية الغربية قوّة لا يمكن فصلها عن الأهداف الاستعمارية.

كان لمكّة المكرّمة – بما تمثله من مكانة في الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية – النصيب الأوفى من أعداد الجواسيس الأوائل، فإليها يتوافد المسلمون على اختلاف مذاهبهم في الحجّ تعبيراً عن رابطة الأخوّة الإسلامية، وإليها تحجّ الأعراق المختلفة من كافة أصقاع العالم الإسلامي لقضاء مناسكهم وليشهدوا منافع لهم. وغدت دراسة شعائر الحجّ الذي تتوحّد فيه قلوب المسلمين من كل حدب وصوب من أولويات اهتمامات الكنيسة في روما والبلاط البرتغالي على حد سواء. و لم يكن وصول غير المسلمين إلى مكّة متعذراً، فالبلد الحرام مفتوح لكل مسلم، وآية الإسلام هي الشهادة وممارسة الشعائر، فكان هذا الباب مفتوحاً لكل جاسوس يدّعي الإسلام.

أرسلت كنيسة روما لودوفيكو دي فارتيما الذي بدّل اسمه بعدئذ إلى لويس فارتيما، في بعض المهمات الاستخبارية إلى شبه الجزيرة العربية، فخرج من مدينة البندقية قاصداً القاهرة

في جمادى الآخرة ٩٠٨/أواخر شهر ديسمبر ١٥٠٢، ولمّا تمضِ أربع سنوات على عبور داجاما رأس الرجاء الصالح. والرجل – في ما تقول العديد من مراجعنا – مجهول الأصل يردّه البعض إلى روما، ويردّه آخرون إلى بولونيا. والأرجح عندنا أنه من مواطني مدينة روما. أما ادّعاء الأصل البولوني فنردّه إلى أنه حين تنكر في زي المسلمين وادّعى أنه مسلم ليدخل مكة، كان عليه أن ينتمي إلى بعض مناطق شرق أوروبا مثل بولونيا التي كانت من المراكز المعروفة بإسلامها، وذلك حتى لا ينكشف أمره. وبالطبع فإن فارتيما لم يفصح عن السبب الحقيقي لرحلته فأثبت هدفاً عاماً:

> إذا سألني سائل عن السبب الذي دفعني إلى القيام بهذه الرحلة، فمن المؤكد أنني لن أستطيع أن أفصح عن سبب سوى رغبتي الجامحة في الحصول على المعرفة، تلك الرغبة التي سبق لها أن دفعت كثيراً من الرجال قبلي لرؤية هذا العالم والتفكر في معجزات الإله فيه. كذلك أجد نفسي كلما اتسعت دائرة أسفاري في العالم أشدّ رغبة في زيارة أماكن أخرى لم يطرقها قبلي أحد من العالمين فأكتب عنها. و يضيف دي فارتيما أنه يسعى للوقوف بنفسه على حقيقة "العجائب" الموجودة في الشرق، والتي كثيراً ما تحدث عنها المسافرون إلى تلك الأرجاء. ولا يخفي فارتيما هدفه التنصيري الذي كان يأمل تحقيقه حيث يقول إنه: "يدرك تماماً أن ما قد يقوم به فرد شاهد عيان قد يرجح جهود عشرة رجال في فضح مثالب الكفر"، الذي يقصد به الإسلام.

اتجه دي فارتيما من روما في مجموعة من الرفاق لم يذكر عددهم ولا أهداف رحلتهم إلى البندقية ومنها إلى الإسكندرية، ثم ركبوا النيل إلى القاهرة التي راعته كثافتها السكانية. "أصبت بدهشة أعيتني عن التعبير، فالبلد يعجّ بالمسلمين وبالمماليك الذين هم نصارى صبأوا وتخلّوا عن دينهم وانخرطوا في خدمة المسلمين". ورحل بعد ذلك إلى الشام وزار بيروت وهناك بدأ يحدثنا عن قصص التوراة وما ورد فيها من أخبار قتل التنين. وشدّ الرحال إلى طرابلس الشام واستهوته خصوبة سهولها، ثم عرّج إلى اللاذقية ثم حلب التي أشاد بها، فهي مدينة جميلة تتوسّط أرضاً خصبة، وهي بعد ثرية جداً، تموج بالتجارات من كل نوع، التي تصل إليها من كل حدب وصوب وفجّ في آسيا. ولبث فترة في دمشق التي استهوته بجمالها الخلاّب الذي يجلّ وصفه عن الحصر ولا يكاد يصدقه العقل. وصف طرقاتها التي تزينها الورود الحمراء والزهور البيضاء ونهر بردى الرقراق وأبنيتها التي منها جامع الأمويين الذي قال إنه ربما كان يضمّ رفات زكريا عليه السلام، وفاضل بينه وبين كنيسة القديس بطرس في

روما. وأشاد فارتيما بفاكهة دمشق الكثيرة التي منها البرتقال والرمان والتفاح اللذيذ، ولكنه لم يمتدح خوخها وإجاصها. وحكى عن غانيات البلدة ووصف لباسهن وحليهن، وفصل الحديث عن سلوكهن، وعلى الجملة فقد وصف دمشق بأنها أجمل ما رأى في حياته. ومن المفارقات الطريفة التي ذكرها عن دمشق أن باعة اللبن كانوا يسوقون الماعز إلى بيوت الزبائن ويحلبون لهم القدر الذي يريدونه منها!

ثوى فارتيما فترة في دمشق يتعلم العربية ويعتاد أداء بعض الشعائر الدينية، وتسمّى يونس. وكتب في هذه الفترة طرفاً غير موثق من تاريخ البلدة، وزار برجاً في سور البلدة وقال إن القديس بول قد أنزل منه خلسة في سلة بواسطة عدد من أصدقائه لينجو من مطاردة اليهود. ويلاحظ من يدقق في أدب الرحلة الأوروبية أن كافة الرحالة الذين عملوا في مجال الاستخبارات غيّروا أسماءهم وانتحلوا أسماءً شرقية، وادّعوا الإسلام أيضاً، و لم يكن كثير من الرحالة الآخرين الذين كانت مهماتهم في شبه الجزيرة العربية ذات طابع سياسي أو عسكري أو تنصيري – كما سنلاحظ – يضطرون إلى هذا الإجراء.

فارتيما يغادر دمشق مع قافلة الحجاج

توثّقت علاقة فارتيما في هذه الفترة في دمشق مع أحد مسؤولي قافلة الحجّ، واستطاع بالرشوة، وبأساليب أخرى، أن يجد لنفسه وظيفة جندي مملوكي في حراسة القافلة المتجهة بالحجاج إلى الحجاز. كان العديد من الغربيين من مختلف البلدان الأوروبية يرحلون إلى الشرق منذ القرن السادس عشر مدفوعين بدوافع كثيرة، لعلّ أهمها البحث عن الثراء، فيعملون بعد إشهار إسلامهم مرتزقة في الجيوش الإسلامية ويعرفون بالمماليك. وقد حسن إسلام أكثرهم، فيما بقي بعضهم على ما هو عليه يبطن ما لا يظهر. وقد تمكن العديد من هؤلاء المماليك من الطائفتين المذكورتين من الارتقاء في المناصب واكتسبوا من الثروة والجاه الشيء الكثير، ومات آخرون منهم من دون أن يذكرهم أحد. وانتسب فارتيما إلى هذه الطائفة من المماليك بعد أن أشهر إسلامه مخادعاً.

يدّعي فارتيما أنه لم يقم بهذه الرحلة مدفوعاً بالكسب المادي. وبالطبع لم يكن لهذا الرحالة أن يكشف عن أهداف رحلته بعد أن تعمّد التعتيم على أصله وأسرته، وأنكر حتى اسمه. وما كان يمكن من يكلف بمهمة خطيرة يدخل بموجبها الأراضي المقدسة، عرين الإسلام المحرّم على غير المسلمين، أن يكشف عن هويته الاستخبارية في دعم خطط الاستعمار البرتغالي المستند إلى الدعم الصليبي. و لم يكن هذا الرجل من أسرة معروفة يمكن أن تدعمه مادياً لما يدّعيه من سفر لاكتساب المعرفة، كما لم يكن من مصادره ما يدعم ذلك الادّعاء. وكان

فارتيما أول أوروبي غير برتغالي – في ما نعلم – يدخل أولى القلاع البرتغالية التي ابتنوها في كانور ويسيح على طول المنطقة التي يسيطر عليها البرتغاليون في الساحل الغربي للهند، وقد وفد إليها هذا الرحالة قبل أن يعود إلى روما مرّة أخرى. وكان البرتغاليون – كما يكشف تاريخهم في الشرق – لا يسمحون للأوروبيين الآخرين الذين ساروا إلى الشرق في إثرهم بدخول قلاعهم. وتكشف لنا سيرة فارتيما أنه حارب مع البرتغاليين الغزاة في أولى معاركهم في شبه القارة الهندية. وحين عاد إلى أوروبا بدأ بلشبونة حيث أنعم عليه دوم عمانويل، ملك البرتغال، برتبة فارس تقديراً لخدماته في الهند البرتغالية، ثم عاد إلى روما بعد ذلك واستقرّ فيها لفترة قبل أن يذهب إلى بولونيا، ورغم هذه الشواهد الدامغة ينكر الرجل قيامه بمهمة استخبارية للبرتغال وكنيسة روما!

جمع فارتيما حصيلة قصص رحلته في كتاب صدر بالإيطالية في عام ٩١٥هـ/١٥١٠م، كذلك صدرت له طبعة أخرى في عام ٩٢٤هـ/١٨١٩م مع مقدمة بقلم إجينيسيا فلتريا كولونا دوقة توجلاياكوزو وكونتيسة ألبي، ابنة الدوق أوربينو. وترجم الكتاب في عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م إلى اللاتينية الكنسية. ولم ينقضِ القرن السادس عشر إلا وكان ذلك الكتاب قد تُرجم إلى الألمانية والإسبانية والفرنسية والهولندية والإنكليزية، تلك اللغاتِ التي أصبح لأهلها اهتمام مباشر بالاستعمار أو التنصير في البلاد الإسلامية. وقد أصبح هذا الكتاب، بانتشاره الواسع، إحدى أولى الكوّات الغربية التي فتحت على الثقافة الإسلامية. وقد جاءت معلوماته في مجملها متحيّزة غير صادقة لا يمكن المؤرخ اعتمادها إلا بعد النقد والتحري حين يكتب في التاريخ الاجتماعي. لم يتخلص فارتيما من عقدة الخيال الجامح التي تميز كتابات الرحالة حين يصور معاناته في أوساط البدو ويشيد بشجاعته، ويداعب في الوقت نفسه خيال القارئ الغربي، ويعمل على إمتاعه. يقول:

"إن ما صادفته في هذه الرحلات من مشاقّ عدّة تمثلت في عضّة الجوع وشدّة العطش ومعاناة البرد والحر وخوض الحروب والوقوع في الأسر وكافة المخاوف وسائر الأخطار، سيأتي ذكره تباعاً، كل في موضعه".

صوّر فارتيما نفسه في مروياته بطلاً لا يُشقّ له غبار في حماية قافلة الحجّ التي صحبها من دمشق، يضرب بقوّة في البدو الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً، المغيرين على القافلة، يمنة ويسرى، فيسقط بدوياً عن يمينه، ويجندل آخر عن يساره، وهو ثابت لا يفزعه شيء اعتماداً على شجاعته، وعناية الإله به ورعايته له. وحين انقشع غبار تلك المعمعة سارع فارتيما إلى إحصاء جثث قتلى البدو، فوجد أنهم ألف وخمسمئة "بالتمام والكمال"، فيما حرس القافلة لم يفقدوا سوى رجل واحد وامرأة واحدة فقط! وحين شعر هذا الرحالة أنه قد بالغ في إثباته لهذا الرقم الكبير من قتلى البدو دون الحجاج اعتذر عن ذلك بأن القافلة كانت للحجاج وهم

في ملابس الإحرام ولا يحملون أي سلاحٍ فلم يحاربوا، ولكن المماليك من حراسهم البالغ عددهم حوالى ستين، وكان فارتيما واحداً منهم، قاموا بهذه المهمة.

غادرت قافلة الحجاج التي التحق بها فارتيما دمشق في ١١ شوال ٩٠٨/٨ إبريل ١٥٠٣، وكانت تضمّ حوالى أربعين ألف رجل وخمسة وثلاثين ألف بعير وعدداً كبيراً من الخيل. وكان فارتيما قد اشترى لنفسه حصاناً وارتدى حلة سورية. وصلت القافلة بعد ثلاثة أيام إلى مزيرب. وهنا صادف فارتيما البدو ووصفهم وصفاً لا يخلو من الازدراء. قال إن ألوانهم وسط بين الأصفر والأسود، وقاماتهم قصيرة غير فارعة، وبنياتهم ضئيلة قميئة، وشعورهم سوداء مسترسلة، أصواتهم مثل أصوات النساء، يمتطون خيولاً ظهورها عارية من السروج إلا من قطعة قماش أو حصير، يستعملون رماحاً يصل طول عصيّها من عشرة إلى اثنتي عشرة ذراعاً تنتهي في أحد طرفيها بنصل من حديد ويُكسى الطرف الآخر بقطعة من حرير، ولا يرتدون إلا ما يستر العورة. ووصف شيخ أولئك البدو بالرجل القوي المرهوب الجانب، يخشى سطوته السلاطين والأمراء، يتمتع بثراء عريض ووفرة في الأموال والإبل والخيل والمهرات السريعة "حتى لتكاد تطير بدلاً من أن تعدو".

غادرت القافلة مزيرب في ١٤ شوال/١١ إبريل في حراسة المماليك في طريقها إلى الحجاز. وكانت القافلة تقطع المسافة بين دمشق ومكة المكرّمة في أربعين يوماً، تسير فيها بمعدل اثنتين وعشرين ساعة يومياً ترى فيها المسافرين يغمضون أعينهم وهم على أكوار إبلهم أو على صهوات جيادهم لهنيهات سرعان ما تنقضي كي يحدقوا إلى أفق الصحراء البعيد حذراً من هجوم مباغت للصوص. ويسرد فارتيما معاناة الحجاج من العطش خاصة، وقال إن العديد منهم يلاقون حتوفهم جراء ذلك، وإن الحجاج المتوفّين وكثيراً منهم "لم يكونوا قد ماتوا تماماً يدفنون في حفر غير عميقة في رمال الصحراء". يقول إن كثيراً من الحجاج الذين تقاطروا من كل فجّ عميق للحاق بهذه القافلة كانوا من الفقراء الذين أفنوا أعمارهم لكسب ما يمكنهم من أداء هذه الشعيرة، وإن بعضاً من هؤلاء لم يجمع من دنياه إلا ما يقابل نفقات يوم واحد من تكاليف رحلة الذهاب فقط.

تمضي القافلة ساعتين في الراحة كل يوم تسمع بعدها قرع الطبول إيذاناً من القائد ببدء المسير. وينادي مناد يطلب إلى المسافرين أن يلتزم كل منهم مكانه المخصص له، ثم يستأنف قرع الطبول مرّة أخرى لتبدأ القافلة مسيرتها تشق بها هدأة الليل. تُراح حيوانات الحمل مرّة كل ثمانية أيام. يحمل البعير حمل بغلين، ويروى مرّة كل ثلاثة أيام، ويعلف بكرات من شعير خمس مرات في اليوم الواحد. ويفيد فارتيما بأن لكل من الحجاج الموسرين جملاً وحصاناً يتبادل ركوبهما ليريحهما من العناء المتصل. وأفاد بأن الحجاج حين ينزلون منزلاً ما فإنهم يحفرون في الرمل للحصول على الماء كما يتوقفون أحياناً عند آبار معلومة، ولكنهم

هنا كثيراً ما يجدون مضايقات من البدو الذين ينزلون المكان، فتبدأ المناوشات التي عادة ما تنتهي من دون إراقة دماء، "ذلك لأن العرب بطبعهم ضعاف مستكينون، ولا يمكن مقارنة العربي بالمملوكي في قوّة عزمه ولا مضاء أسلحته"، ويشير إلى أن المماليك مدربون، ومن تدريباتهم أن الواحد منهم يضع التفاحة فوق رأس خادمه ويبتعد عنه مسافة اثنتي عشرة إلى أربع عشرة خطوة ثم يرسل حربته الطويلة ليصيب بها التفاحة فوق رأس الخادم المرتعد، ومن حسن الحظ أنه نادراً ما يخطئ التصويب. ومن تدريباتهم أيضاً أنهم يركبون الخيل وسروجها فوق رؤوسهم حتى إذا اندفعت بأقصى سرعتها أنزلوا السروج ووضعوها تحتهم فوق ظهور الخيل الراكضة.

وصلت القافلة إلى نبع ماء عند جبل صغير حطّت عنده ركابها وشربوا حتى ارتووا واستراحوا ليوم كامل. وفي اليوم التالي وردهم حشد من البدو من حوالى أربعة وعشرين ألف رجل وطالبوهم بثمن الماء الذي استنزفوه. "قلنا لهم إننا لن ندفع لهم شيئاً، فهذا الماء قد يسّرته لنا رحمة الله". وجرت بعد ذلك مناوشات ما لبثت أن تطورت إلى معركة خاضها الجانبان ليومين متصلين، وقد نال منهما العطش فتوقّفا. وعمل قائد القافلة على مصالحتهم، فعرض أن يدفع لهم مبلغاً من المال. ورغم أن العرض كان سخياً، إلا أن البدو طمعوا في المزيد، فبدأت معركة أخرى تمكن فيها الستون مملوكاً من أن يخوضوا بالأسلحة النارية معركة "فقدنا فيها رجلاً وامرأة، ولكننا استطعنا أن نذبح ألفاً وخمسمئة من أولئك العرب، فقد كان سلاحهم ضعيفاً وأجسادهم عارية".

فارتيما في المدينة المنوّرة

عندما استشرفت القافلة تخوم المدينة المنوّرة وأصبحت على بعد أربعة أميال منها، ترجّل الركب فاغتسلوا واستبدلوا ملابسهم. ودخل الحجاج إلى المدينة التي قال فارتيما إنها محاطة بسور طيني وأن منازلها بنيت من الحجر والطوب. ويضيف أن التربة جرداء تماماً ولا ترى أثر خضرة إلا على مسافة ما حيث بعض أشجار النخيل، وأشار إلى عين الزرقاء التي تجري مياهها من اتجاه القبلة إلى السهل المنخفض حيث أناخ الحجاج إبلهم العطشى. وزار فارتيما الحرم النبوي، ونفى ما يقول إنه راج في أوروبا من أن "تابوته" صلى الله عليه وسلم معلّق في الهواء بمغناطيسين كبيرين يتأرجح بين قطبيهما! "أؤكد أن ذلك ليس صحيحاً أبداً ولا يمتّ إلى الحقيقة بصلة". وروى أن "المزور" قادهم عبر أحد بابي المسجد النبوي المشيّد بالطوب الأبيض إلى داخله حيث الغرفة الشريفة التي تقوم فوقها قبة عدّد أبعادها، وأفاد بأن القبر الطاهر مكسوّ بالحرير"، وفي داخل هذا المحراب نفسه "دفن أصحابه أبو بكر وعثمان وعمر وفاطمة"

رضي الله عنهم جميعاً. ويقول إن المسجد يُضاء بثلاثمئة فنار تتدلّى من سقفه.

ساد هرج ومرج بين مجموعة الحجاج لاشتجار آراء أئمتهم لاختلاف مذاهبهم، ويضيف أن المسلمين منقسمون على أنفسهم يتنازعون في ما بينهم، و"هم كالحيوانات تماماً يقتلون أنفسهم بأيديهم". ويرى فارتيما أن هذا هو السبب الذي أدخل دولتي فارس وتركيا في حروب "رغم أن كلتيهما تدينان بالإسلام ولكنهما تعيشان كراهية قاتلة، فكل منهما تريد لمذهبها أن ينتشر ولآراء فقهائها أن تسود، وتعتقد كل منهما أن طائفتها هي الأمثل". وهكذا يكشف هذا الجاسوس من دون كبير عناء سرّ الداء العضال الذي ينهك الجسد الإسلامي ويورثه الفرقة والشقاق.

يروي فارتيما قصة نظنها من وحي خياله حين قال إن قائد القافلة أرسل في استدعاء "شيخ المعبد الرئيس" وطلب منه أن يريه الجسد الطاهر، واعداً إياه بأنه سيدفع له لقاء ذلك ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وأنه لا يبغي وراء طلبه هذا إلا الخلاص لروحه. ومن جانبنا نرى أن قائداً مسؤولاً عن قيادة قافلة الحجّ لا يمكنه أن يجهل أبجديات أدب الزيارة إلى هذا الحد. ويستمر فارتيما في سرد هذه القصة ويقول إن الشيخ أجابه مستنكراً: أيمكن لعينيك اللتين تقعان على جميع أشكال المعاصي والذنوب أن تبصرا الذي من أجل عينيه خلق الله السماوات والأرض؟ وأصرّ القائد – رغم ذلك – على التماسه وكرّر طلبه مشفوعاً هذه المرّة بتأكيد ذلك القائد أنه سيسمل عينيه كلتيهما بعد رؤية الجسد الطاهر حتى لا تقعا بعد ذلك على منكر.

يقول فارتيما إنه صحب القائد وذهبا مع كبير "المزورين" إلى المسجد. وبعد زيارة القبر الطاهر سأل القائد: وأين يرقد عيسى بن مريم؟ فأجابه "المزور": هو ذاك الذي يرقد تحت قدمي الرسول. ومرّة أخرى نقول إنه لا يمكن مسلماً أن يسأل هذا السؤال، ولا يمكن من يرشد الزوار أن يقدم مثل هذه الإجابة، كذلك قد لا يكون الأمر تدليساً وكذباً متعمداً من هذا الرحالة الذي ما كان يمكن أن يصحب معه قلماً ولا ورقة فسمع القصة المتداولة من أن المسيح عليه السلام سيدفن في غرفة الرسول صلى الله عليه وسلم فاختلط عليه الأمر حين كتب من الذاكرة في ما بعد، أو ربما لم يسعفه القدر الذي يعرفه من العربية على فهم السؤال أو الإجابة.

عاد الحجاج إلى معسكرهم ليهجعوا، وسمعوا جلبة ورأوا جماعة من "رؤساء" المسلمين المسنّين يهرولون نحوهم وهم يتصايحون فظنوهم لصوصاً، وهرع كل إلى سلاحه، وهدأوا حين استبانوا الكلمات التي كان يرددها المهرولون: إن محمد رسول الله قد عاد... يا أيها الرسول، يا الله، ارحمنا. وسألوا: ألم تروا النور المنبثق من محراب النبي؟ ويعلل فارتيما الأمر بأن هناك شعلة ربما رفعها "القساوسة" ولوّحوا بها من على المئذنة. أما القائد ورفاقه فقالوا إنهم لم يروا شيئاً. سألهم "القس" وهو غاضب: هل أنتم عبيد؟ هل أنتم عبيد مشترون

بالمال؟ أجاب المملوكي الأبيض بأنهم مماليك فعلاً، وهنا قال "القسّ": لهذا حجبت عليكم أسرار السماوات. ومرّة أخرى نقول إن ما دَسّه الرحالة على القصة للتشويق كان مبالغاً فيه، أو ربما كان أولئك الوافدون بعض غُلاة متصوفة ومتهوسين. واستجاب القائد للاستفزاز وانتهرهم قائلاً: "كنت أفكر في أن أعطيكم مالاً، لكن الآن أيتها الحيوانات الجاهلة، يا كلاب يا أبناء الكلاب، سوف لن أعطيكم شيئاً".

غادرت القافلة المدينة المنوّرة التي تركها الحجاج ضجرين من قذارة الدعاة. وقد نلاحظ أن لفظ قذر ومشتقاته يلطخ العديد من صفحات كتاب هذا الرحالة، فالبدوي قذر وخيمته قذرة، والحجاج قذرون وكذلك الدعاة، ولا نستطيع أن نقول إلا أن كل إناء بما فيه ينضح. شدّت القافلة الرحال إلى مكّة المكرّمة، وسرعان ما وفدوا إلى عين ماء - يقول فارتيما - إن المواطنين يعتقدون أن ظهورها كان من "كرامات القديس مرقص"، ولا نعرف - من جانبنا - لهذا الادّعاء أساساً، ونعتقد أن أهل المنطقة لم يكونوا قد سمعوا بهذا الاسم أبداً، فهو غير مألوف في شبه الجزيرة العربية، لا سابقاً ولا لاحقاً. ومضت القافلة في طريقها عبر الصحراء وهي تكابد رياح الشمال التي تهبّ في زخّات متقطعة تهيل عليهم ذرات رمل ناعمة سرعان ما تتكثف وترتفع دوامات متتالية في صعودها إلى الأفق فتؤلف سحابة تحجب الرؤية. وتلاحظ زهرة فيرث وزميلها فيكتور ونستون في كتابهما بعنوان: **مستكشفو شبه الجزيرة العربية منذ النهضة إلى العصر الفكتوري**، عدم دقة هذا الرحالة، فليس هناك صحراء بين المدينتين المقدستين! وراح فارتيما يحكي لنا عن بحار الرمال التي أهلكت الكثيرين من أهل القافلة عطشاً، وهلك بعض آخر منهم من الري حين صادفوا ماءً فعبّوا منه عباً فوق طاقتهم!

فارتيما في مكّة المكرّمة

يأخذ فارتيما في التعريف بمعالم مكّة المكرّمة التي دخلها في ٢٠ ذي القعدة/١٨ مايو، تلك المدينة التي يصفها هذا الفاسق بالملعونة التي لا تحظى بعناية الله والتي لا تنتج الفاكهة ولا القمح، فقد ضربها الجفاف فلا ماء فيها، ولن تستطيع أن تروي ظمأك ليوم واحد حتى لو بذلت من أجل ذلك أربعة كورترات (ريال كامل) من النقود. تأتي أغلب تموينات المدينة من القاهرة ويأتي ما بقي من جنوب شبه الجزيرة العربية.

يذكر فارتيما جبلاً في مكة المكرّمة يسميه إيانوان كان صلى الله عليه وسلم يتعبّد في غار في أعلاه، ويحدثنا عن شبك حديدي يغلق مدخله، ويقول إن الحجاج نفروا وأسرعوا هاربين للنجاة بجلودهم حين سمعوا ضجة عنيفة تنبعث من الجبل! يقول فارتيما: "مكة مدينة غير مسوّرة بسور، ولكن الجبال تحيط بها من كل جانب فتقدم لها الحماية اللازمة.

ولا توجد عبر هذه الجبال سوى أربعة منافذ تقود إلى المدينة"، ويضيف أن المدينة "مأهولة يصل عدد منازلها إلى ستة آلاف منزل كلها جيدة البناء، ومنها منازل فارهة تصل تكاليف بناء الواحد منها إلى ما بين ثلاثه آلاف إلى أربعة آلاف دوقية ذهباً، وهي تضارع بيوت روما". ويقول إن سلطان مكّة هو واحد من أربعة إخوة من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، كان تابعاً لسلطان مصر، ويعيش في نزاع دائم مع إخوته. ويضيف أنه حين دخل مكّة وجد أن الأمور لا تُبشر بخير للنزاع الذي كان قائماً بين هذا الحاكم وأحد إخوته.

دخلت القافلة الرحاب الحرام في يوم التاسع من ذي القعدة ٩٠٨هـ/١٣ مايو ١٥٠٣م ولمّا يمضِ على مغادرة الرحالة للبندقية خمسة أشهر، وتكاد كافة مراجعنا تجمع على أنه الرحالةَ النصراني الغربي الأول الذي دخل الأراضي المقدسة، وعلى ذلك تقوم أهمية هذه الرحلة، وهي أهمية لا تعني المسلمين في شيء ولكنها عند الباحثين الغربيين كبيرة. فصاحبها هو الرائد الذي فتح طريق النصارى الأوروبيين في العصر الحديث إلى البلاد المقدسة لدى المسلمين، وهو أول الجواسيس الغربيين في العصر الحديث الذي وُظّف لتتبّع عورات العرب والمسلمين ليسهل قيادهم، وهو أول من حمل لواء الاستعمار الغربي لبلاد الشرق الذي كانت ريادة هذا الاستخراب فيه للبرتغاليين. وربما كان هذا هو السبب الذي يجعل أولئك الباحثين يحتفلون به كثيراً.

يقول فارتيما إن القافلة دخلت مكّة عبر طريق بين جبلين لا يفصل بينهما إلا ممرّ ضيق يقود إلى باب مكّة، وهناك طريق آخر يقود إلى المكان الذي يأتي إليه المسلمون لتقديم الأضاحي "لإبراهيم وإسحاق"!، وهو يبعد عن المدينة بمقدار ثمانية إلى عشرة أميال.

أما في ما يخص الشعائر الإسلامية ومظاهر القيام بها، فإن ما ورد في كتاب فارتيما لن يساعد المؤرخ إلا في تقويمه لأبعاد بعض الجوانب الصليبية تجاه الإسلام في تلك الفترة. وبالطبع فإن من يتصدى من المسلمين وغيرهم للكتابة في الشعائر الإسلامية لن يهتم بكتب الرحالة الغربيين أو يجعلها في قائمة مصادره، فلهذا الفرع من المعرفة الإسلامية مصادره الموثوقة. ومثل هذا الرحالة لن يعي من تلك الشعائر إلا ما يراه بعينه، ولن يكلف نفسه عناء البحث في الحكمة من تلك العبادات، هذا إلى جانب أنه بحكم مهمته لن يستطيع أن يكتب عن الحكمة منها إلا متحيّزاً. ولا ينفي هذا قيام بعض المستشرقين بالنقل عن هؤلاء في هذا المجال لتحقيق أغراض خاصة بمهمات ولا تتصل بفقه تلك الشعائر. يحدثنا فارتيما عن الوقوف بعرفة وعن شعائر الحجّ الأخرى.

كان فارتيما يدرك تماماً أبعاد مهمته فخطط لها - كما يكشف كتابه - بحذق وذكاء. نراه في الفترة الأولى منذ أن تحركت القافلة من ميرزب برّاً في اتجاه الحجاز يهمل ذكر المواقع والأماكن، ولا يهتم بتفاصيل الطريق أو المظاهر الطوبوغرافية، فالاستعمار البرتغالي الذي

خرج هذا الرجل في خدمة مراميه وأهدافه قد أخذ في هذه الفترة يسري في جسد الأمة عن طريق البحر من وراء القارة الأفريقية. و لم تكن القوة البرتغالية البحرية في هذه الفترة الباكرة تتطلع إلى استعمار البرّ، خاصة تلك المناطق البرّية البعيدة في شمال شبه الجزيرة العربية. وقد اهتمّ فارتيما في هذه المرحلة بحياة البدو الذين يمكن البرتغاليين أن يتعاملوا معهم في مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية، خاصة حين يعملون على إنفاذ خططهم الرامية إلى غزو مكّة المكرّمة التي كانوا يحاولون الوصول إليها - كما تقضي خططهم - من الجنوب عبر طريق البحر الأحمر بعد أن يبحروا بمحاذاة ساحل القارّة الأفريقية.

كتب فارتيما - في هذه المرحلة الأولى من رحلته - عن حياة البدو، واهتم بإثبات شجاعتهم في الحرب مع إبراز جهلهم بأساليبها. فهم يغيرون على المواقع الحضرية برماحهم الطويلة، راكبين صهوات جياد كأنها الطيور، شرابها حليب النوق، وساحاتها الأماكن الحضرية فتغير على أهل المدن والقرى، وتنقضّ عليهم فجأة عند الصباح، ثم ما يلبث فرسانها أن يعودوا بخير وفير إلى مضاربهم حيث بيوت الوبر الرثّة ذات اللون الأسود التي تورث النفس كآبة.

في مكّة المكرّمة وصف فارتيما الحرم المكي بالتفصيل، وقال إنه يتوسط المدينة، وقال إن له عدّة أبواب ويدخل الحاج إلى بهو الحرم بواسطة درج من أربع عشرة عتبة، واسترعى انتباهه في البهو وفرة أماكن بيع العطور ذات الروائح النفاذة والدهان "الحلو"، والبودرة الطيبة الرائحة المستخدمة في الحنوط وأماكن بيع الحلى، خاصة اللآلئ. لم يغفل وصف الطواف حول الكعبة المشرّفة التي وصف أبعادها من ركن إلى آخر، وأفاد أن بابها مصنوع من الفضة، ولاحظ فارتيما عدم وجود "مزورين" في الحرم المكي، إذ يقوم بمهمتهم المطوفون. وعبّر عن دهشته البالغة لما رآه من خلق كثير توافدوا من "سوريا وفارس والحبشة والهند وكل صوب وفجّ. لم أرَ في حياتي مكاناً يجتمع فيه الناس بهذه الأعداد الغفيرة ويظلون فيه ثاوين لمدة عشرين يوماً كاملة". ويضيف أن الناس يأتون إلى مكّة لأسباب مختلفة، فمنهم من أتى وفاءً لنذر سابق ومنهم من أتى رجاء غفران ذنبه.

يقول فارتيما إن الحجاج قد توافدوا باكراً في صباح ٢٢ مايو بكثافة إلى الحرم استعداداً "ليوم الغفران" في اليوم التالي له، وأخذوا يطوفون حول الكعبة يقبّلون أركانها، ويتمسّحون بها. وبعد أن يقوم الحجاج بالطواف لسبعة أشواط يذهبون إلى مبنى آخر يقع على بعد اثنتي عشرة خطوة حيث "بئر زمزم المقدسة في تطلعهم إلى النظافة". يقوم على البئر ثمانية رجال يستخرجون الماء ويصبّون على رأس كل حاج من الحجاج الواقفين يتلمّسون أطراف البئر بقدسية واحترام ثلاثة جرادل من الماء المقدس يبلّله من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه فيظن "الغبيّ" أنه قد اغتسل من ذنوبه تماماً. ويضيف فارتيما أن غسل الذنوب بالماء أمر سبقت

ديانات أخرى إليه المسلمين، ويتحدث بعدئذ عن التعميد. ومن جانبنا لا نجد في المسلمين من يرى أن ماء زمزم أو سواه من مياه الدنيا الأخرى يغسل الذنوب، فزمزم - كما عرّفها لنا الرسول الكريم - طعام طعم وشفاء سقم، أو كما ورد في حديث آخر زمزم لما شرب له، ذلك مع أننا لا نستنكف وجود ممارسات إسلامية اعتمدت ممارسات أديان سماوية سابقة، فقد جاء الإسلام مكملاً لما سبقه ومهيمناً عليه، ولكن الإسلام لا يعرف التعميد وليس في شريعته ما يمكن أن يغسل الذنب سوى التوبة والاستغفار. ولعل تحديد فارتيما للثاني والعشرين من مايو الذي يوافق الثامن عشر من ذي القعدة موعداً لوقفة عرفات ما يدل على عدم تحرّيه عن الدقة في سرد ما لا يتصل بمهماته مباشرة.

بعد أن تغسل ماء زمزم للحاج ذنبه - كما يقول فارتيما - يذهب والماء يقطر من جسده إلى عرفات لتقديم الأضاحي "لإبراهيم"، يذبح بعضهم خروفين، وبعضهم ثلاثة، أما الأوفر ذنوباً منَ الأثرياء فيصل ما يضحّون به إلى عشرة. وفي هذه الفترة التي تبدأ من شروق شمس هذا اليوم وتنتهي بغروبه يُذبح حوالى ثلاثين ألف خروف يقدمون لحومها للفقراء المتجمعين هنالك في عشرات الألوف وهم في أغلبهم من التكارنة الذين دفع بهم الجوع إلى هنا أكثر من الاستجابة إلى عوامل التقوى والورع. ويشوي هؤلاء الفقراء اللحوم على نار وقودها من بعر الإبل. وفي اليوم التالي يعتلي القاضي قمّة الجبل ليؤمّ الصلاة وقد ألقى في الحجاج خطبة قال فيها: يا إبراهيم يا حبيب الله، يا إسحاق الذي اختاره الله، وصفيه، صلّ من أجل أهل الرسول. وبعد أن أنهى خطبته تعالى النحيب واشتدّ البكاء، ولكن ما لبث فارتيما ومن معه أن فرّوا تاركين المكان حيث سرت إشاعة فحواها أن جيشاً قوامه عشرون ألفاً يتقدم إلى المنطقة.

تحدث عن رمي الجمرات في منى لحصب الشيطان الرجيم، وردّ الحدث تاريخياً إلى إبراهيم وإسحاق و لم يذكر إسماعيل، عليهم سلام الله، وذكر أن إسحاق تناول حجراً وقذف به عدو الإنسانية، ولكن الحجاج لم يؤدّوا هذه الشعيرة فقد جعلتهم الإشاعة يفرّون من أول منفذ وجدوه أمامهم. وأفاد بأن الحيوانات لا تلقى في الحرم أذى من الحجاج، وأشار إلى أنه ورفاقه أسرعوا هاربين إلى مكّة حيث لاحقهم حمام الحرم الذي كان يجد من الحجاج الرعاية، لأنه ينحدر - في ما يقول - من "نسل الحمامة التي كانت تمثل الروح القدس أو التي "همست بالوحي في أذن الرسول(!)" الكريم. وأشار فارتيما إلى أن صيد هذا الحمام أو ذبحه يُعدّ عملاً مستوجباً للقتل، وأشار أيضاً إلى وجود زوج من حيوان يتطابق الوصف الذي كتبه عنهما على بعض فصائل الأيائل، يقول إن ملك الحبشة كان قد قدمهما هدية إلى سلطان مكة. ومن الغريب أن بعض الذين كتبوا عن هذه الرحلة من الغربيين، ونقله بعضنا عنهم، ذهبوا إلى أن ذلك الحيوان هو الكركدن!

حين حانت ساعة مغادرة القافلة مكّة إلى دمشق، تمكن فارتيما من أن يهرب ويختبئ في مقصورة حريم أحد المواطنين المكيين كان قد اقتنع بصدق إسلام الرجل، وبحماسته للجهاد ضدّ الخطر البرتغالي الذي يهدد الإسلام بزحفه إلى جنوب شبه الجزيرة العربية. وأقنع فارتيما ذلك الرجل بأنه لن يرجع مع قافلة الحجاج، لأنه يزمع السفر جنوباً للعمل ضدّ النصارى الذين سيهاجمون تلك المناطق، وادّعى أنه سيعمل على تعليم المسلمين في المناطق التي يهاجمها البرتغاليون صناعة المدافع للدفاع بها عن بلادهم المسلمة ضدّ الغزاة الصليبيين. وقد سُرّ الرجل كثيراً وقال له:

> الصلاة على رسول الله الذي سيرسلك إلى تلك المناطق لتؤدي خدمة جليلة للإسلام والمسلمين.
>
> لا أستطيع أن أعبّر عن روح الودّ التي أظهرتها تجاهي زوجة ذلك المسلم. وقد فاضت بهجتي في فترة استضافتي في ذلك البيت بوجود آنسة هي ابنة أخي ذلك المسلم ظلّت ترشقني بنظرات حبّ مشتعل، ولكن نار فينوس ظلّت خامدة في جسدي تحت ركام مخاوفي، ومع ذلك فقد حافظت على مشاعرها تجاهي ملتهبة بمزيد من معسول الكلام.

فارتيما في اليمن

اتخذ فارتيما بعدئذ طريقه إلى جدّة، وكان محرّماً على اليهود والنصارى دخول الميناء الذي يعجّ بكافة أشكال البشر الوافدين من أرجاء العالم الإسلامي. واندسّ فارتيما وسط آلاف الحجاج الفقراء الذين اتخذوا من مسجد قريب مأوى لهم حتى وجد مركباً يأخذه إلى فارس. وغادر من ثمّ إلى جيزان التي وصلها المركب بعد ستة أيام ثم إلى عدن التي بلغها بعد خمسة أيام أخرى. ويدعي أن اليمنيين قد استقبلوهم في هذا الميناء بوابل من الحجارة. وبالطبع فقد قام هذا الهمام الشجاع ومجموعته بردع الجموع اليمنية، ويدّعي أيضاً أن المهاجمين فقدوا أربعة وعشرين رجلاً، كما فقدوا عجولهم وفراخهم التي حملها فارتيما ورفاقه إلى مركبهم. وهكذا اقتيد فارتيما لدوره البارز في المعركة إلى مركز الشرطة، ونجا – كما يروي – "من عقوبة الإعدام بقيد شعرة"، وتقبّل حامداً لإلهه وشاكراً له عقوبة الحبس لخمسة وخمسين يوماً، وعدّها عقوبة رحيمة قياساً إلى شناعة الجرم الذي اقترفه. وبعد أن قضى فترة العقوبة وخرج من السجن استقبلته – في ما يدّعي – جمهرة غاضبة تحتج على إطلاق سراحه وتطالب بإهدار دمه. وكشف أحد اليهود أمر هذا الجاسوس، وصرخ فيه: "النصراني الكلب ابن

الكلب!". ويدّعي فارتيما أنه قد انقض على اليهودي وضربه حتى كاد يسلم الروح. وتدافع نحوه الجمهور، ولكنه لم يصب بأذى، إذ تدخل بعض المتنفّذين ورُحّل إلى مدينة رادا؟ التي تقع إلى الجنوب من صنعاء حيث بدأ التحقيق معه من جديد.

نستطيع هنا أن نلاحظ التغيير الذي طرأ على ملاحظات هذا الرحالة الذي طفق يهتم بالجغرافيا بعد أن غادر جدّة، وبمواقع المدن، ومعوقات الملاحة في البحر الأحمر، وذلك في استجابة موفقة منه لأهداف رحلته. فجدّة في تخطيط البرتغاليين كانت أقصى منطقة يتطلعون إلى الوصول إليها عبر البحر الأحمر شمالاً لتنفيذ مخططهم الذي أزمعوه، وهو تدمير المسجد الحرام. وصف فارتيما بالقدر الذي تهيّأ له من التفصيل صخور البحر الأحمر الناتئة وجزره، وكذلك الموانئ ووفرة المؤن فيها. ثم وصل إلى عدن في رمضان ٩٠٩هـ/مارس ١٥٠٤م وذلك قبل أن يهاجمها البرتغاليون بحوالى خمس سنوات، وكتب عنها، وعن ثراء تجارتها، وازدحام أسواقها التي كان الناس يتسوّقون منها ليلاً اتقاءً حرارة الجوّ نهاراً، كذلك كتب عن القلاع الخمس التي تحرس عدن والتي قال إنه لم يرَ في حياته أمنع منها.

سأل الحاكم الرحالة عن هويته، فأجاب بأنه من مواطني روما وفد إلى القاهرة حيث أسلم ثم حجّ بعد ذلك وفاءً بنذر. وطلب إليه السلطان أن ينطق بالشهادتين ولكنه لم يستطع، "إما لأنها لا ترضي الإله أو لأني كنت مذعوراً. لا أدري"، واقتادوه إلى السجن. وعمل فارتيما للتخلص من سجنه بادّعائه الجنون، وتحمّل في سبيل ذلك الادّعاء أذى الصبية الذين كانوا يضحكون من تصرفاته ويقذفونه أحياناً بالحصى ويرد عليهم بالمثل.

جمع الحاكم رجاله الأحباش وسار بهم لمهاجمة صنعاء تاركاً فارتيما "تحت رحمة السلطانة"، وهكذا تبدّل مسار حظّه، فقد وجد في تلك المرأة التي "تعشق الرجال البيض" خلاصاً ممّا يعانيه. وتذهب القصة التي يرويها إلى أن تلك المرأة أخذت تزوره ما إن يجنّ الليل حاملة إليه أطايب الطعام وراحت تراوده عن نفسها، فقد شغفت به لبياض بشرته البادي من تحت ثيابه الممزّقة، والتي كان في نوبات جنونه يمرق عنها تماماً. تناديه بأحب الألفاظ وأعذب الأصوات وأرقها: هلمّ أقبل إليّ، ألا تعاني الجوع يا يونس؟ فيجيب: إن جوعي يا حبيبة القلب لا يسكته الطعام، إنه من نوع آخر. واحتضنها – في ما يدّعي – لساعتين وهي تهمس: "أنت فارسي وزوجي، انت ابني، دعني أنزع عنك ملابسك، فيمتنع عنها ويتملص ويجيبها: لا يا سيدتي إني لم أعد في حضورك مجنوناً. فترد: نعم أدرك أنك ليس بمجنون، أنت أبلغ رجال العالم حكمة وأرجحهم عقلاً، أنت قمر تشعّ بياضاً. يا لحظي، زوجي أسود وابني أسود وهذا الرجل الأبيض سيمكنني من أن أحصل على ابن أبيض! ومع ذلك فقد ادعى فارتيما أنه امتنع من أن يُمكّن تلك المرأة من نفسه لتنجب منه ابناً – كما تتمنى – في بياض بشرته، فقد خشي – كما يقول – أن يظلّ في

سجنه حبيس عشقها. ورقّت تلك الفاجرة لحاله، وتوسطت له لدى زوجها للخروج من السجن لزيارة أحد المشعوذين في محاولة لعلاجه. وكان البعض يرون فيه مجنوناً ذهب عقله، واعتقد البعض الآخر أنه مجذوب، واحتجّوا على ذلك بأنه كان ينادي على الحمير والخراف وعامة الحيوان ويطلب إليها النطق بالشهادتين. تابع مرّة خروفاً سميناً وظلّ لفترة يدعوه إلى الإسلام، وقتل حماراً لأنه لم يتمكن من النطق بالشهادتين. واجتمعت بعدئذ لجنة من الفقهاء لتحديد طبيعة مرضه، وكان دفاعه أمامهم عن نفسه أن بال في كفيه وقذف بوله دفعة واحدة في وجوه تلك المجموعة التي أفتت حالئذ بأن الرجل مجنون، وأن علاجه واجب. وهكذا أصبح حُرّاً طليقاً!

أتينا على ذكر هذه القصة الفجّة، لا لأن الرحالة الغربيين كلهم كانوا يصوغون قصصاً موغلة في الخيال لكسر رتابة السرد حتى لا يملّهم القارئ، ولكن لنذكّر بأنهم كلهم من دون استثناء اهتموا بصفة خاصة في كتاباتهم عن الشرق المسلم بمسألتين بعد الشأن الإسلامي العام، أثاروا بهما اهتمام مجتمعاتهم: المرأة والرقّ. ولربما لن تجد إلا القليل منهم الذي لم يعبّر تصريحاً أو تلميحاً عن أن المرأة الشرقية هي وعاء للجنس ولا وظيفة لها في المجتمع غير ذلك. ونعتقد أن هذه القصة المختلقة التي حملت في داخلها مضامين عنصرية ليست إلا تلفيقاً أراد به النيل من عفّة المرأة العربية وطهارتها. فكل الامتياز الذي تمتع به هذا الرحالة وجذبها إليه يتمثل في بياضه، كانت تلك فكرة عنصرية نسج فكر زمانها. كان الغربيون يؤمنون بتفوّق الجنس الأبيض، حتى إن فلاسفتهم حين أرادوا أن يجدوا تبريراً أخلاقياً لاستعمار شعوب آسيا وأفريقيا احتجوا بمسؤلية "الرجل الأبيض" لتحديث تلك المناطق التي لم ترجع منهم بعد ذلك إلا بالخسران والخذلان والاستخراب بدلاً من الاستعمار التي هي لفظة تدلّ في معناها اللغوي على إرادة الإعمار. ولسنا هنا لندفع عن تلك المرأة تهمة الفجور، فالفسوق شأن إنساني لا يخلو منه زمان ولا مكان ولا تبرأ منة أي طبقة اجتماعية، ولكننا نريد أن نكشف عن زيف الكثير ممّا يورده الرحاله الغربيون عن عورات مجتمعاتنا العربية. هل يجوز عقلاً أن يترك حاكم رجلاً مجنوناً سجيناً في عقر داره مع زوجته التي سافر عنها حُرّاً طليقاً من دون قيود من حديد أو مراقبة من حرس؟ وهل يستوي منطقاً أن تقوم أنثى أهدرت كرامتها حين أباحت نفسها لغريب فامتنع عنها أن تعمل على مساعدته وإطلاق سراحه بدلاً من أن تنتقم لكرامتها المهيضة مرتين وتستبقيه في سجنه؟ وأخيراً كيف به حين ارتضى لنفسه أن يحتضن تلك المرأة - كما ادّعى - لساعتين كاملتين فيمتنع ولا يتحرك فيه ساكن إلا أن يكون عنيناً؟ وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن معظم الرحالة الغربيين الذين وفدوا إلى شبه الجزيرة العربية شهدوا على أنفسهم من خلال كتاباتهم تصريحاً وتلميحاً كما شهد عليهم الكتاب من أبناء جلدتهم أنهم مثليون. عموماً فقد شغل

"شغف نساء بلاد العرب السعيدة بالرجال البيض" فصلاً كاملاً من كتاب هذا الرجل، فهل يجوز لنا مع تسليمنا الكامل بصدق قصته مع تلك المرأة أن نعمّم الأمر ونتهم به كافة النساء العربيات؟ ونعتقد أن ما رواه هذا الرحالة لا يزيد على مداعبة الصلف العنصري للغربيين الشقر الذين يمتازون بالحصافة وحسن الخلق مقارنة بالسود غير الأمينين حتى على أعراضهم.

ساح فارتيما بعد ذلك بحرّية في اليمن، فزار صنعاء، والمقرنة، ويريم Reame، وتعز، وذمار، ومدن يمنية أخرى، ووصف حصونها. ويبدو أنه واصل سياحته حتى بلغ جبال حراز (أياز)، وشاهد في هذه المنطقة اشتباكاً دموياً جرى بين بعض الباطنية وأهل السنّة، وأبدى استغرابه مرّة أخرى من أن يقتتل أهل الدين الواحد في ما بينهم. ويُحمد لهذا الرحالة أنه لم يعمد إلى الخوض في الفروق بين الفِرق كما فعل رحالة غربيون آخرون وفدوا إلى المنطقة بعده. يقول فارتيما عمّا لاقاه من نصب حين ساح في الصحارى ومهماته إنه لاقى الأسود ورأى القرود وقابل قُطّاع الطرق واللصوص.

نهاية رحلة فارتيما

انتهت بذلك مهمة لودفيكو في شبه الجزيرة العربية فخرج منها يريد فارس، ولكن الرياح أخذت المركب إلى الساحل الأفريقي، وزار مناطق من الحبشة، أرض القديس يوحنا، وموزمبيق، وتوجه بعدئذ إلى شبه القارة الهندية حيث نزل في معاقل البرتغاليين التي شادوها حديثاً وشارك في بعض معاركهم ضدّ الوطنيين، ومنحه نائب الملك البرتغالي في الهند براءة الامتياز، وكان وصوله إلى هناك بعد وصول فاسكو دي جاما بست سنوات فقط.

عاد فارتيما بعدئذ إلى روما في عام ٩١٣هـ/١٥٠٨م وظفر هناك برعاية الكاردينال كارفاجنال لجهوده التي تفيد الحركة التنصيرية الناشئة، وعناية أسرتي كولونا وسفورزا، وعطف الملك البرتغالي دوم عمانويل لجهوده في خدمة الاستعمار البرتغالي فمنحه وساماً برتبة فارس. وقد ألقى لودوفيكو فارتيما في الخامس من نوفمبر في كلية البندقية محاضرة عن أهل الهند وعاداتهم لقيت استحسان الجمهور. أما كتاب هذا الرحالة فقد ترك أثراً عميقاً في الفكر الغربي، فقد كان فارتيما من أوائل الأوروبيين النصارى الذين كتبوا عن زيارة قام بها إلى المدينتين المقدستين إن لم يكن أولهم، وعن تأدية المسلمين للمناسك فيهما. وترك لمعشر المؤرخين الغربيين سجلاً حافلاً بظواهر الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في شبه الجزيرة العربية، خاصة اليمن التي استهدفتها مهمته في الدرجة الأولى، فسفن الغزاة البرتغاليين إلى الشرق تمرّ عبر سواحلها.

لا نستطيع إلا الاعتراف بالأهمية الكبيرة لهذا الكتاب الصادر في عام ٩١٥هـ/١٥١٠م الذي يبدو أنه لم يظفر باهتمام المؤرخين العرب والمسلمين. فالكتاب رغم إغراقه في الخيال أحياناً ورغم إفراطه الموغل في التعصب الممقوت ضدّ الإسلام وكل ما يمتّ إليه بصلة، تمثّل الخمسون صفحة الأولى فيه التي عُنيت بالحجّ وطقوسه - حسب علمنا - أول سجلّ كامل لأول رحالة غربي في العصر الحديث يدخل مكة المكرّمة، ويصل المدينة المنوّرة ويكتب عنهما، مؤكداً فكر عصره الصليبي المتحد قلباً وقالباً في حقده على الإسلام وأهله، إضافة إلى أن هذا الرحالة كان أول الجواسيس الأوروبيين الذين قطعوا شبه الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها، وغشي أماكن ظلّت مغلقة أمام النصارى الأوروبيين منذ الحروب الصليبية، وكشف عن الصلة الوثيقة بين التنصير والاستعمار، كذلك تمكن من الوصول - وهو أعزل من السلاح خالي الوفاض من المال - عبر شبه الجزيرة العربية إلى سواحل أفريقيا ثم إلى الهند، ما شجّع رحالة آخرين على المجيء في إثره، وإن تباينت أهدافهم ودوافعهم.

كشفت رحلة فارتيما للبرتغاليين ولروما ومن عاضدهما من قوى استعمارية في إسبانيا أن مكّة لا حول سياسياً لها ولا طول لحكامها ولا ثقل عسكري، ولا تملك أي نوع من أنواع القوّة المادية يُمكنها من معارضة قوى الاستعمار المبحرة في اتجاه الشرق الإسلامي. فحكامها ضعاف متشاكسون ليس لهم من القوّة إلا ما يمكن أن يحسم به أي منهم النزاعات المشتجرة بين تلك الأسرة التي لا تتعدى حدودها السياسية مجاورة الحرمين الشريفين. وأما موقعها المحصور بين البحر وتهامة وسباسب ورمال داخلية الجزيرة العربية فلن يفيدهم استراتيجياً في شيء، وإن أرضها جبلية وصحراوية عجفاء لن تدرّ على خزائنهم عائداً يُذكر، وإنها مستعصية على عسكرهم مستعصمة منهم بقيظها الذي لا يمكن عسكرهم من الاستقرار في وقت لم تكن فيه وسائل المواصلات البرية قد تطورت بنحو يمكنهم من التغلب على هذه الإيكولوجية القاسية. كذلك كشفت هذه الرحلة أيضاً أن لمكة المكرّمة التي يفد إليها المسلمون سنوياً من كل حدب وصوب قوّة روحية لا تدانيها في ذلك أي قوّة أخرى في العالم المعمور. فكل المسلمين مهما تباعدت بلادهم واختلفت ألوانهم وأشكالهم ومهما اختلفت طوائفهم وتضاربت أفكارهم يتجهون صوب البيت المعمور في مكّة خمس مرات في اليوم والليلة. وكشفت الرحلة عن بعض الشعائر والعبادات الإسلامية، وإن وردت مشوّهة، وأظهرت الوحدة الإنسانية الرائعة التي تتجلّى في عرفات الله والتكافل والتعاطف الذي يسود جماعة الحجاج الذين يقدمون الصدقات والأضاحي للفقراء والمساكين، ويقدمون لهؤلاء في سفرهم بصحبة القوافل الطعام لمن لا يملك قوته ويجودون بظهر على من لا ظهر له.

خاب ظن الساعين إلى مكة بالاستعمار. فالاستعمار، وإن بدأ صليبياً، إلا أن العامل

الاقتصادي كان عموده وذروة سنامه. كان الهدف المعلن للاستعمار البرتغالي الذي كانت له الريادة في استعمار الشرق الإسلامي هو القضاء على العالم الإسلامي تماماً ونهائياً ودقّ عصب الاقتصاد الإسلامي حتى لا تقوم للمسلمين قائمة بعدها أبداً تتيح لهم الظهور في أوروبا النصرانية مرّة أخرى.

مثّلت رحلة فارتيما – على ضوء هذا – بداية انقلاب في الفكر الاستعماري الجديد وبداية استراتيجيات أخرى غير تلك التي بدأوا بها والتي تقوم أساساً على القوّة العسكرية البحرية. وأدرك الغزاة الأوروبيون أن مكة بتراثها الإنساني العريق هي القوّة الجامعة للمبادئ الإسلامية وأن هزيمتها لن تتيسّر لهم إلا بالسلاح الإنساني ذاته، فليس لمكة قوّة مادية تُمكنها من القتال ولا قوّة اقتصادية تجعلها قبلة لمن أراد القتال للظفر بخيارات الأرض. ولهذا لم تعد مكة في تلك الفترة الأولى من المدّ العسكري مقصداً للاستعمار ولا مطمحاً للمستعمرين، و لم نعد نسمع بعدها – لأكثر من قرن – عن جواسيس أتوا إلى مكة. ولكن حين فرغوا من إحكام قبضتهم على البلاد الإسلامية غدا الهم الأساس لرحالتهم النظر في الآثار السياسية والأمنية والاقتصادية لمكة المكرّمة على مستعمراتهم، فأخذوا يتوافدون إليها من جديد، واهتدوا أن يقتبسوا من فكر مكّة قبساً يقاومون به أثرها البعيد المدى. وكان الحلّ هو زيادة زخم العمل التنصيري والإحسان عبره إلى المجتمعات الفقيرة أو التي أفقروها ومدّها، ما أمكن، بالدواء والغذاء والكساء. ومثّل هذا بداية قيام المؤسسات التنصيرية الأوروبية المنظّمة في الشرق، أما المؤسسات الأمريكية المماثلة فلها قصة أخرى. وتطورت هذه الظاهرة حتى شمل الإحسان فقراء الأوروبيين أنفسهم، فنشأت جمعيات إحسان تطورت بعدئذ بالقوانين الملزمة إلى مؤسسات الضمان الاجتماعي، وهو أمر لم تعرفه أوروبا قبل استعمارها لأقطار العالم الاسلامي. وحين دخل بعض محسني المسلمين بالصدقات والجمعيات الخيرية لحماية إخوانهم ضدّ التنصير لم يكن دخولهم ممنهجاً ولا جهودهم موحدة. ومع ذلك لم يرضَ منهم الغرب المنافسة في المجال الإنساني الذي هم لحمته وسداه فتصدوا له وقيّدوه بما لهم من قوّة اقتصادية ونفوذ سياسي!

الفصل الثالث

رحالة ساقتهم المصادفة إلى مكّة المكرّمة

كواندارا ساقته الريح إلى المنطقة

أول من نصادفه من هذه الجماعة، والذي قادته الصدفة المحضة إلى البلدتين المقدستين أو إلى إحداهما، هو جيوجوريو دي كواندارا الذي وردت أخباره في مذكرات البوكيرك. تقول الرواية إن الرجل كان بحّاراً، وكان مركبه البرتغالي يرسو قبالة مقديشو على الساحل الأفريقي فانقطع حبله الذي يشدّه إلى المرسى ليلاً، وحين أفاق بحارته كانت الأمواج تتقاذفه حتى بلغ إلى زيلع وهناك وقعوا في الأسر. وأرسل كواندارا وعدد من بحارته في عام ٩١٤هـ/١٥٠٩م هدية إلى سلطان عدن في زبيد. وبقي الأسير في سجن الملك لثماني سنوات، وكان يكسب رزقه من حياكة الطواقي وبيعها، ما أكسبه معرفة باللغة العربية. أطلق سراحه – كما تقول الرواية – حين ادّعى الإسلام والتمس إطلاق سراحه ليؤدي فريضة الحجّ.

قصد كواندارا إلى المدينة المنوّرة في خطة للحاق بقافلة دمشق و لم ينجح، حيث وجد أن القافلة قد غادرت قبل يومين من وصوله إلى هناك. وتقول الرواية إنه كان عليه وهو في مدينة الرسول أن يؤدي شعائر المسلمين، إلا أن حماسته للنصرانية لم تطاوعه للقيام بذلك، فانخرط في معاناة نفسية كادت تفضي به إلى الجنون. ورقّ بعض المسلمين لحاله، فقد عدّوه مجذوباً فأحسنوا إليه وأمدّوه بمال وبأزواد ليحقق رغبته في زياره كربلاء. وضلّ كواندارا الطريق إلى العراق فهام على وجهه في الصحراء حتى احترق جلده فما عاد يستطيع أن يستلقي لينام، فكان – كما ادّعى – يحفر في الرمال حفرة بقدر قامته لينام واقفاً! وقيّض الله بعد ذلك له قافلة ووصل إلى البصرة بسلام في عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م وغادرها إلى البرتغال، وانتظم هناك

راهباً في سلك الآباء الكبوتشيين. ورغم أن القصة قد لاقت رواجاً، يرى بعض المهتمين بأدب الرحلات أنها خيالية مختلقة.

اهتمام برتغالي – كاثوليكي بكنوز سبأ ومملكة القديس يوحنا

نرى أن كثيراً من الرحالة الأوائل الذين زاروا اليمن وعبروا البحر الأحمر كان اهتمامهم باليمن وبالحبشة ومملكة القديس يوحنا أبلغ من اهتمامهم باستكشاف مناطق الشام وشمال شبه الجزيرة العربية، أما وسط شبه الجزيرة العربية فلم يطرأ في تلك الفترة الباكرة على أذهانهم قطّ. وكان القرن السادس عشر الميلادي قرن الرحالة الذين عملوا في خدمة الكنيسة الكاثوليكية المتحدة مع الاستعمار البرتغالي، وكانوا طليعة الاستعمار الغربي في المنطقة. وانصبّ جلّ اهتمام أولئك الرحالة الأوائل في اليمن على الكنوز الأسطورية لمملكة سبأ أيضاً ومحاولة التحقق من موقع بلاد أوفير والمناطق الأخرى التي ورد ذكرها في التوراة، وحشد الأدلة الميدانية لتعيين تلك الكنيسة في مكافحتها "للإلحاد" الذي اعتقدوا أنه أخذ يستشري وكان من نتاجه بروز آراء ومعتقدات ومذاهب خارجة عمّا تراه الكنيسة الكاثوليكية، ولا مندوحة من القول: إن محاولات التنصير في شبه الجزيرة العربية في المناطق الواقعة شمال اليمن جاءت في فترة تاريخية متأخرة، ولم يقع عبء ذلك على الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما وقع على كنائس أخرى بروتستانتية كانت حتى هذا الوقت من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية السادس عشر في رحم الغيب.

لقد كان الارتباط بين اليمن والحبشة في هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً كما هي الحال عبر التاريخ، وتعددت الحملات البرتغالية في البحر الأحمر في الفترة ٩٢٠-٩٣١هـ/١٥١٥-١٥٢٥م، وجرت عدّة محاولات برتغالية للتنسيق مع الحبشة لقيام حملات صليبية ضدّ الحجاز خاصة وضرب السيادة العثمانية التي امتدت مع بداية هذه الفترة عبر الحجاز إلى اليمن. وقد شهدت هذه الفترة مغامرة بحرية برتغالية خاسرة قادها سواريز دي البوميريا على ميناء جدّة في عام ٩٢٤هـ/١٥١٧م. وقد تم للعثمانيين في حملاتهم ضدّ هؤلاء الغزاة القبض على بعض الأسرى البرتغاليين الذين افتداهم قومهم بعدئذ بالمال. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أولئك الأسرى قد كشفوا لقومهم بعدئذ كثيراً من عورات المناطق التي حبسوا فيها، إضافة إلى أن العثمانيين كانوا قد استعانوا في حملتهم عام ٩٤٤هـ/١٥٣٨م ضدّ الغزو البرتغالي ببعض البحارة من البندقيين. وقد كتب بعض هؤلاء البحارة البنادقة عن تلك الحملة، والطرق البحرية التي سلكتها في البحر الأحمر، ونُشر بعض هذه القصص في مجموعة إيطالية لقصص الرحلات صدرت عام ٩٤٦هـ/١٥٤٠م. وأعقبت تلك القصص قصة أخرى عن مواطن من مارسيليا

زار مكّة في عام ٩٧٥هـ/١٥٦٨م، وكذلك عن بندقي تحوّل إلى الإسلام، وأرسله حاكم القاهرة إلى مكّة المكرّمة، وقصة أخرى كتبها الأب بائز الذي رافق الأب مونصرات إلى الحبشة عام ٩٩٧هـ/١٥٨٩م للتحقيق في مقتل رجال الإرسالية اليسوعية في الحبشة.

غرق المركب الذي أقلّ هذين الكاهنين عند جزر كوريا موريا، فأنقذهما بعض العرب وأسروهما، واقتيدا إلى ظفار لاتهامهما بالتعاون مع الغزاة البرتغاليين. وقد وصل هذان الرجلان إلى صنعاء، وبقيا في السجن خمس سنوات ونصف السنة، ثم أرسلا إلى مخا، وأطلق سراحهما بعد أن دفعت الفدية اللازمة. وقد سجل بائز أخبار رحلته في الأرض اليمنية التي يهمنا منها إنكاره إطلاق نعت "العربية السعيدة" على تلك الأرض المقفرة الجرداء. وعلى كل حال فإن الحكم على اعتماد شهادات هؤلاء الرحالة الذين قادتهم المصادفة المحضة إلى أرض لم تشمل مهماتهم ارتيادها، من قبل من يؤلفون في التاريخ، تخضع لعدّة عوامل سوف نتطرق إليها لاحقاً.

يوهان وايلد

هناك رحالتان من الرقيق ساقهما القدر إلى مكّة المكرّمة. وفد الأول وهو يوهان وايلد، من مواليد نورمبيرج، وكان يعمل جندياً في الجيش الإمبراطوري النمساوي أسره العثمانيون في بعض معاركهم في المجرِ وبيع في الأستانة المرّة تلو الأخرى حتى اشتراه في المرّة الخامسة فارسي اصطحبه معه إلى مكّة المكرمة، وزار المدينة المنوّرة في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٤م. ويبدو أنه خان الأمانة حين عهد إليه سيده ببيع بعض البضائع فباعه سيده إلى تركي عجوز ثري محسن أعتقه تقرّباً لوجه الله، فعاد إلى أوروبا في عام ١٠١٩هـ/١٦١١م. وقد كتب هذا الرجل كتاباً عن الحياة الاجتماعية في مكّة المكرّمة نشره في عام ١٠٢١هـ/١٦١٣م تحدث فيه عن شعائر الحجّ، ويبدو أن كتابه لم ينل حظاً من الرواج. أما الرحالة الثاني فهو جوزيف بتس دايكسترا.

بيتس... أسير "قراصنة" الشمال الأفريقي

لم يكن المغرب العربي الذي وفد منه بيتس إلى مكّة الكرمة مع سيده الجزائري، رغم انقسامه بين طرابلس وتونس والجزائر والمغرب، يعاني بعد الضعف النازل بالمشرق العربي جراء الاستعمار البرتغالي وسيطرته على مساراته البحرية. كانت طرابلس وتونس والجزائر تتمتع باستقلال نسبي وبدعم قوي مباشر وغير مباشر من العثمانيين، ما مكن تلك الدول المغاربية

من أن تحافظ على أمن مياه البحر الأبيض وتحظر الملاحة فيه على الدول غير الإسلامية ما لم يكن لها مع تلك الإمارات اتفاقيات تدفع بموجبها كافة الدول النصرانية رسوم عبور. وكانت تلك الإمارات المغاربية تصادر كل مركب مخالف وتأخذ ملاحيه وركابه أسرى يباعون في أسواق النخاسة ما لم تسارع تلك الدول إلى دفع الفدية لفك أسراها وعقد اتفاقيات تتيح لها حق المرور البريء بعد دفع الرسوم المفروضة. وكانت إنجلترا وفرنسا، بصفة خاصة، تلتزمان دائماً بالوفاء بتلك الترتيبات ما جنّب مواطنيهما ذلّ الوقوع في الأسر، إلا نادراً كما في حالة هذا المركب الذي كان بيتس ضمن طاقمه حيث يبدو أن إنجلترا تقاعست في تلك الفترة عن دفع قسط من المستحقات فوقع ذلك المركب غنيمة للجزائريين ووقع ركابه أسرى. و لم تكن تلك الدول المغاربية تعتني بأمر عتق الرقاب، فقد كانت تسير وفق المبدأ الإسلامي، إما منّاً بعد أو فداء. وقد تمكنت الولايات الأمريكية المتحدة، بمساعدة فرنسا، من أن تعقد الاتفاقيات مع تلك الدول، إلا أنها كثيراً ما كانت تتأخر في دفع الرسوم المفروضة وتتذرع بحجة أو بأخرى، ما جعل أكثر الرقيق في تلك الإمارات من الأمريكيين. وقد اهتمت الكنائس في تلك الدولة بجمع التبرعات لفداء مواطنيها، وكانت تستخدم فوائض الأموال في بناء الكنائس "لتذكر بطغيان الشرقيين". ومن هنا جاء ارتباط الكنيسة بالسياسات الشرقية لتلك الدولة، ومن هنا أيضاً بدأت محاولات التنصير الأمريكي في الشرق، وما اتّسم به هذا التنصير من حقد غير مألوف وصل إلى درجة اتهام نصارى الشرق كلهم بأنهم ليسوا على شيء!

ركب جوزيف بيتس المركب سبيدول لصاحبه جورج تيلور الذي كانت وجهته نيوفاوند لاند، وكان هذا الفتى في تلك الفترة من عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م لم يتجاوز الخامسة عشرة. وأخذهم طريق العودة إلى جزر الكناري ودخلوا في منطقة الحظر، ووقعوا أسرى لمركب جزائري. واقتيد مركبهم مُنكّس العلم إلى الجزائر العاصمة وعرضوا على الداي الذي نال حصّته المقرّرة بسهم واحد من ثمانية أسهم، أي ثمن الغنيمة. ومن سوء حظ بيتس أنه لم يدخل في قسمة الداي الذي عادة ما يدفع برقيقه إلى الجندية فيصل البعض منهم إلى مراكز عالية في الدولة، وقد وصل بعض رقيقه الغربيين إلى منصب السكرتير الأجنبي للداي أو وزير دولة لشؤون الدول النصرانية، وهو منصب يعادل في زمننا الراهن منصب وزير الخارجية.

بيع بيتس إلى سيد يدّعي أنه عامله بقسوة بالغة. يقول هذا الأسير: "لا يهتم الجزائريون عادة بالعمل على تحويل رقيقهم إلى الإسلام، لكن سيدي ظلّ يضربني ليقسرني للدخول فيه". وكتب جوزيف إلى أبيه يخبره بما أكرهه عليه سيده حتى ارتد عن دينه، وجاء ردّ أبيه: "لا أملك لك إلا القول بأنك ابني العزيز الحبيب رغم أنك أسير وأنت يافع بعد تخوض تجربة مرّة ويقع عليك مغالبة الظروف التي تمر بها". ويجيء ردّ الابن على أبيه متأخراً لكنه مؤثر جداً:

> أبي وأمي العزيزان، لم يكن تأخير ردّي عليكما تقصيراً في واجب يلزم علي القيام به تجاهكما، لا، ولا هو جفاء مني، ولكني ما كنت أرغب في فضح ما أعانيه من رهق، فالإفصاح عن ذلك سيورثكما حزناً عميقاً وألماً بالغاً. كم تمنيت لو كنت قد فارقت العالم وأنا بعد في حضنيكما حتى لا أمرغ بالأسى شيباً يجلّلكما. إن ما تلقيانه من حزن بالغ وأسى لا يقارن بما في دواخلي من ذلك. إن أشد ما تعانيانه هو أنكما فقدتما ابناً، ولكن ما فقدته أنا لا يدانيه فقد أبداً. فقدت أباً وأماً وإخوة وأصحاب ومعارف وأصدقاء. لقد فقدت كل شيء".
> ويأتيه الرد من والده معزياً حين يقول: "إن القديس بطرس الذي لم يتعرض للبلاء الذي تعرضت له تنكر لربه ولكن مع ذلك فقد أدركته عناية الله". وهنا يجب التنويه بأن ما كتبه بيتس كان سيرة ذاتية أدرجناها ضمن أدب الرحلات رغم إدراكنا أنها ليست منه. فلكل رحلة هدف ترعاه حكومة أوروبية أو هيئة أو جماعة تسعى إلى تحقيقه. أما بيتس وأمثاله فقد فُرضت عليهم الرحلات فرضاً فضمّنوها سيرة حياتهم، ولكنها حين نشرت في الغرب أضافت إلى معرفته الهلامية في هذه الفترة الباكرة، ورحب بها الجمهور أكثر مما رحبت بها الحكومات والجمعيات الرسمية. وعلى المؤرخ وهو يتعامل مع مثل هذه القصة الدرامية لاستخلاص حقيقة علمية أن يعمل على توظيف النقد الأدبي لخدمة النصّ التاريخي من خلال المنهج السردي في النقد التاريخي.

نال بيتس من التدريب ما أهّله للخروج على مركب لهذا السيد ليصيد السفن النصرانية المخالفة، فخرج معها وهو يضمر الهروب إلى أول سفينة غربية تصادفه ويساعدها على أسر رفاقه الآخرين. وخاب ظنّه، فقد قبض رفاقه على سفينة برتغالية وعاد معهم بغنيمتهم إلى الجزائر سالمين. ويبدو أن بيتس لم يظفر بتقدير سيده فباعه لآخر كان له عبيد "نصارى وزنوج"، والواضح أنه قصد بذلك أن يقول غربي وأفريقي. وكان لهذا السيد أخ يقيم في تونس، فاختار أن يرسل بيتس هدية له. "ألبسني لباساً فاخراً كي يزيد في قيمة هديته"، وأرسله إلى هناك. وكان لهذا السيد الجديد ابن فخور "بهذا النصراني الهدية، فكان يأمره بملازمته حين يتجول في المدينة ليعلي من شأنه بين رفاقه". وفي إحدى جولاته في بعض أحياء تونس الراقية صادف القنصل الإنجليزي في تونس فدعاهما إلى منزله. سأل القنصل بيتس عن معرفته الكتابة والحساب فأخذ ورقة وقلماً وكتب: "أعتمد على الله الذي يقود خطاي". ويدّعي أن ذلك قد رفع من قدره لدى القنصل الذي وعده بأن يرعى مصالحه في فترة أسره. يبدو أن بيتس لم

يرق سيده الجديد، فأخبره بأنه سيعيده إلى سيده الأول، فبكى وانتحب وأثار عطف القنصل الذي عرض مع آخر من بني جلدته أن يشتريه بثلاثمئة ريال، إلا أن السيد رفض أن يبيع إلا بخمسمئة. وهكذا أعيد العبد إلى سيده السابق في الجزائر لكن بعد أن حصل من القنصل على وعد بأنه حين يعتق أو يفتدى سيعطيه خطاباً إلى الملك يشهد بحسن سيرته وسلوكه في فترة رقّه.

كان لهذا السيد في الجزائر أخو يعمل مثل أخيه في سلاح الفرسان الجزائري. ويبدو أنه أراد "أن يكفر عن سيئاته والموبقات التي اقترفها، بما في ذلك القتل، بتحويلي إلى الإسلام". ويحدثنا بيتس عن المعاملة الفظّة التي وجدها ولكنه قاومها، حتى أتى له سيده ذات يوم بالحلاّق ليجري له عملية الختان، ولم تجده المقاومة. قلت لسيدي: "أفلحت في تغيير عادة ظاهرية ولكنك لن تفلح أبداً في تغيير ما في نفسي". أخذ سيده يحثه بقوّة على الهداية التي كان يرفضها تماماً، ويدّعي أنه طلب إلى سيده أن يبيعه ويشتري بثمنه عبداً آخر يكون أكثر استعداداً لتلبية مطلبه. وأبى السيد له إلا الإسلام أو الموت ضرباً وركلاً. واضطر العبد إلى النطق بالشهادتين بعد أن رفع إصبع السبابة اليمنى. واحتُفل بإسلامه ووُضعت العمامة على رأسه، وحمل العصا بيده اليمنى، وأركب على حصان زُيّن بأفخر زينة، وسار في موكب يحفّ به حوالى ثلاثين رجلاً ينتضون سيوفاً مشرعة، وسار الموكب وسط هتافات المارة بالتهليل والتكبير وتبرعهم له بالمال إلى بيت الداي حيث أُشهر إسلامه!

ادّعى جوزيف أنه – رغم إعلان إسلامه – ظلّ يعاني شظف العيش، فالمتحوّل إلى الإسلام من الرقيق لا يلقى من سيده معاملة من وُلد مسلماً. يقول إن طعامه لا يزيد على اللبن الحامض ورغيف الشعير، ويضيف أن المتحولين إلى الإسلام من الرقيق لا يذوقون طعم اللحم إلا إذا نفق للسيد خروف! ولكنا نراه كاذباً، فالحيوانات النافقة لا تطهى في بيت مسلم خاصة إذا كان من أهل اليسار من الذين يملكون الرقيق.

قُتل سيده في مؤامرة، فباعته الأرملة إلى سيد آخر كان عطوفاً عليه، كما يروي، ويبدو أنه وفّق في الخدمة المنزلية ورعاية الأمور الخاصة بسيده المسن البدين. ويبدو أن السيد الجديد اشتراه ليعتقه بعد أن يخدمه في رحلة الحجّ التي كان يزمعها. بدأت الرحلة، ولكن ما إن بلغا الإسكندرية حتى سقط العجوز فريسة المرض وظن أن أجله قد حان. فخلع الرجل عنه حزامه وناوله إلى بيتس فوجد فيه محفظة عامرة بالعملات الذهبية وكذلك وصيته التي جاء فيها أنه قد أعتق بيتس لوجه الله، وأنه كان ينوي إعلامه بذلك في مكّة المكرّمة. أمدّ الله في عمر الرجل فتعافى واستردّ من بيتس وديعته وقصدا القاهرة لشراء الإمدادات لرحلة الحجّ.

وترك لنا بيتس ملاحظات عن المماليك في القاهرة: "يجلسون متربعين ليتناولوا طعامهم الذي يبدأونه بحمد الله... ويراعون عدم تناول المسكرات. ولكن الجنود حين يتجهزون للحرب،

فعادة ما يكونون سكارى وعدائيين". وتناول العلاقات المثلية التي يقول إنها تسود أوساطهم. وحدثنا أيضاً عن الجواري الحسناوات اللائي هن مثلهن مثل النساء الأخريات في القاهرة يضعن فوق رؤوسهن طاقيات قرمزية اللون طرزت وزُينت بمواد ثمينة، بما في ذلك الجواهر واللآلئ. "أما شعورهن فتتدلى مسترسلة في جدائل خلف ظهورهن حتى تلامس كعوبهن. وتنتهي كل خصلة من الشعر بجرس صغير يحدث جلجلة حين يتحركن".

غادر الرجل وخادمه القاهرة إلى السويس، فقد اختار أن يقوم برحلته بحراً تفادياً للمشاقّ التي تمر بها القوافل في طرق الصحراء. وبعد اثني عشر يوماً من الإبحار وصل المركب إلى قبالة بقعة قفر على ساحل البحر، أقيم فيها ضريح لأحد الصالحين قيل إنه توفي حين كان في رحلة لأداء فريضة الحجّ. صنع البحارة قارباً دمية وضع بعض الحجاج نقوداً تحرّياً لبركة ذلك الحبيس، ووضع البحارة في ذلك القارب شموعاً وقارورة زيت وأنزلوه إلى الماء بعد أن اختلسوا القدر الأكبر من ذلك المال، رافعين أيديهم طالبين إلى الضريح أن يرعى رحلتهم. وفي رابغ غادر أكثر الحجاج الباخرة ودخلوا في ملابس الإحرام ليواصلوا من هناك طريقهم. ويحدثنا عن ملابس الإحرام ويصفها، ولكن بما أن سيده المسن لا يستطيع تحمل الجو القائظ الجاف وهو في ملابس الإحرام، فالشمس تكوي جلود الحجاج، فقد اختار أن يواصل رحلته بحراً إلى جدّة. ويستطرد بيتس ليقول: "ولكن الحاج إذا لم يأمن على نفسه الأذى يمكنه أن يخلع لباس الإحرام ويرتدي ملابسه العادية. وعليه في هذه الحالة، حين يبلغ مكّة أن يقدم خروفاً كفارة ويتصدق بلحمه على الفقراء". ويلاحظ بيتس أن الحجاج باتوا يراعون منذ أن لبسوا ثياب الإحرام متطلبات الحجّ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال، يحترسون من الوقوع في الشهوات، وتسمعهم يكثرون من ترداد العبارات الدالّة على التقوى، وتحمل زفراتهم الحرّى وتنهداتهم العميقة معاني التبتل والاستغفار، وترى دموعهم تبلل خدودهم ندماً على ما كانوا قد فرّطوا فيه في جنب الله طالبين إلى الله أن يغفر خطاياهم ويعاهدونه على التزام التوبة.

حين بلغ المركب جدّة استقلّ الرجلان من هناك الإبل إلى مكّة المكرّمة التي دخلتها الإبل ليلاً. يصف بيتس مكّة بأنها قاحلة تقع على بعد يوم من البحر الأحمر في واد تكتنفه الجبال من كل جانب، ولا يمكن الدخول إليها إلا عبر منافذ أودية تشق تلك الجبال. ولاحظ أن المدينة غير مسوّرة بسور، فهي بطوبوغرافيّتها، لا تحتاج إليه، وبالتالي فليس لها بوّابات. وقال إنه حين اعتلى جبلاً منها راعه منظر التلال المتتابعة على مدى النظر من دون انقطاع وكلها أحجار صخرية غرابيب سود. "وتقول التقاليد إن إبراهيم حين همّ ببناء الكعبة قدّر الله لكل جبال العالم أن تسهم في البناء، وفرض على كل منها نصيباً واجب الأداء من أحجارها، فامتثلت كلها إلا جبل (كواردك) في الجزائر لم يرسل حصته، وعلى ذلك فقد اسودّ لونه". ويسترسل في حديثه عن جبال مكّة فيقول إنه اعتلى جبل النور، "الذي يسميه المواطنون حراء" نسبة

إلى غار فيه كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعبد داخله، وإن أغلب سور القرآن قد نزلت فيه. وأضاف أنه دخل الغار "ودهشت أنه لم يكن جميلاً". واعتلى جبلاً آخر يدّعي أنه صلى الله عليه وسلم قد حُمل إليه حيث شُقّ صدره الطاهر "لتُنزع منه آثام الخلق".

يصف بيتس بناء بيوت المدينة بالعادية، أما أهلها فقد وصفهم بأنهم بالغو الهزال، ضعاف البنية، فقراء جداً. ويقول جوزيف إن مكّة قائظة الحر فترى أهلها يسرعون الخطى بين المكان والآخر يحتمون بالظل الذي يمكن أن توفره أسوار المنازل، وإنهم، خاصة الرجال، عادة ما ينامون ليلهم على أسطح منازلهم أو في المناطق المفتوحة منها. ويقول إنه قضى وقته في مكّة في راحة تامة ينام في ردهة منزل مؤجر يتغطى ليلاً بقطعة قماش مبللة يتقي بها حرارة الجو، وكان له وفرة من الإمدادات التي كان سيده قد اشتراها من القاهرة.

يقول جوزيف بيتس إنهما ما إن بلغا مكّة حتى استقبلهما المطوف. توضّأ الحجاج قبل الدخول إلى البيت الحرام من باب السلام الذي هو واحد من اثنين وأربعين باباً آخر تفتح على الحرم. وحين رأى الحجاج الكعبة رفعوا أيديهم تقليداً للمطوف، وكانوا يقلدونه فيقولون مثل ما يقول ويجهشون بالبكاء... طاف الحجاج حول البيت سبعة أشواط يُقبّلون الحجر الأسود في كل شوط، ويعتقدون أن قبلاتهم هي التي أحالت لونه إلى السواد "لأنهم يغسلون ذنوبهم فيه". وحين يفرغون من الطواف يركعون. ولاحظ بيتس أن الحجاج يُوالون الطواف عادة، ولكنّ العجزة والمسنين يقطعونه ويجلسون للراحة بين فترة وأخرى. ويحدثنا بعدئذ عن السعي الذي تبلغ مسافتة رمية سهم "يجرون فيها من بداية الشارع إلى نهايته". ولاحظ أيضاً أن المسلمين حين يدخلون الحرم يؤدون الصلاة ركعتين عند كل جانب من جوانب الكعبة الأربعة ثم يجلسون وأعينهم مثبتة على البيت الحرام لا تغفل عنه لحظة أبداً.

ورغم ذلك فقد رفعت عيناي إلى أعلى لأرى إن كان ثمة شيء يسترعي النظر، فما وجدت غير قضيبين من الحديد يربطان عمودين من الخشب معلق عليهما ثلاثة أو أربعة فنارات من الفضّة ما كانوا يوقدونها إلا نادراً.

يُبدي بيتس بعض الملاحظات، منها أن مجموع أضلاع الكعبة المشرفة يبلغ أربعاً وعشرين خطوة، وأن الرجال يلتزمون في طوافهم جانب البيت، أما النساء فيكنّ في ما وراء ذلك، ولذلك فإنهن في الغالب يُشرن إلى الحجر الأسود من دون تقبيله، ولكن إذا حدث أن اقتربن منه فإن الرجال لا يزاحمونهن عليه، "فذلك غير جائز لأن ملامسة النساء في هذه المنطقة وفي هذا الوقت تُعدّ من الأعمال الوقحة". ويلاحظ أن الأرض حول الكعبة مرصوفة بالرخام الذي تحيط به أعمدة نحاسية طول الواحد منها خمس عشرة قدماً ويبعد الواحد عن الآخر منها عشرين قدماً. تربط بين هذه العواميد قضبان من حديد تتدلّى منها فنارات يجري تنظيفها يومياً ويستبدل قطنها وتملأ بالزيت لتوقد مساءً. ويقول إن مقام إبراهيم عليه السلام يبعد عن

الكعبة المشرّفة نحو اثنتي عشرة خطوة. و"هو شبيه بشاهد القبر إلا أنه مزين". وإلى يساره تقع زمزم "ذات المياه المقدسة". وسخر بيتس من تقديس هذا الماء، كما فعل فارتيما قبله، وتحدث مثله عن التعميد، ونعى على المسلمين ممارسات التوثين، وراح يكرر ذلك مراراً ويؤكده كلما جاء ذكر الكعبة المشرفة أو السعي، ولكن ليس بعد الكفر ذنب. يقول إن هناك أربعة رجال يقوم كل منهم على جانب من جوانب البئر يسحبون الماء ويصبّونه على الرجال العراة إلا من قطعة تستر العورة، فيغسل الرجل المنطقة العلوية من جسده ويغفل المنطقة السفلى "لأنها غير جديرة بماء زمزم"! فهم يُقدّرون هذا الماء عالياً، حتى إن العديد من الحجاج يحملونه معهم إلى أوطانهم في أوعية من صفيح أو فخار ليهدون منه أصدقاءهم هناك. وقد ينال الواحد منهم قدر ملعقة أو اثنتين يتلقاها في راحتي يديه بحرص شديد واحترام كبير يتذوق قطرات منها ويمسح بما بقي وجهه وكفيه، ثم يرفع يده عالياً طالباً من الله أن يهبه النماء لينال السعادة بزيارة مكة. وأتى بيتس بفرية حين زعم أن ماء زمزم ملح أجاج وأنه يسبب قروحاً لكل من يغتسل به. ويحدثنا عن قصة السيدة هاجر وابنها إسماعيل الذبيح وتدفق زمزم كما جاء في المرويّات الإسلامية، ويقارن ذلك بما ورد في الفصل الحادي والعشرين من سفر التكوين.

يحدثنا جوزيف عن غسل الكعبة حين يأتي سلطان مكّة في مجموعة من أقاربه الأشراف "لإظهار ورعهم وذلك بقيامهم بتنظيف محراب الإسلام". يغسلون البيت أولاً بماء زمزم ثم يعيدون غسله بالماء الحلو (؟). وتكسر المكانس ومعدات التنظيف الأخرى وتنثر على الجمهور، والمحظوظ منهم هو الذي يتمكن من الحصول على قطعة منها يتخذها تميمة بعدئذ. كذلك حدثنا عن أمطار هطلت في مكّة حتى غطت الكعبة المشرفة، وقال إن الناس كانوا يتدافعون تحت الميزاب لينالوا من الماء المتدفق منه ما يشربونه أو ما يجمعونه ليبيعوه للآخرين. وقد أحضر الرجل المستأجر لجلب ماء سيده من هذا الماء إلى ذلك السيد فتناول منه مقداراً، ناسياً أنه كان يؤدي صيام رمضان. ويرى بيتس أن من يتناول ماءً أو طعاماً في شهر رمضان سهواً فلا إثم عليه، فقد أطعمه الله وسقاه، ولكن السيد بعد أن تذكر ما سها عنه تناول وجبة دسمة، فقد كان يجهل الأحكام في هذا الصدد.

يسرد لنا بيتس ما يدّعي أنه مارسها من شعائر الحجّ، فيصيب أحياناً ويخطئ أخرى، وتلتبس عليه الأمور أحياناً ولكنه كثيراً ما يتعمّد الكذب حين يحاول النقد أو يرمي إلى السباب والسخرية. يقول إن موعد عرفات يأتي بعد شهرين وعشرة أيام من عيد رمضان. ويحدثنا عن وقفة عرفات حيث التقى آدم بحواء، ويقول إن المسلمين يعتقدون أن الموقف السنوي يجب أن يضمّ سبعين ألف نفس على الأقل. ويستطرد فيقول إن العدد الذي شهده كان كبيراً ولكنه يقصر عمّا يقولون. يقف الإمام تحت قبة صغيرة أعلى الجبل ويلقي في الجموع خطبة يحدثهم فيها عن يوم القيامة حين يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم و"يلعنهم لما اقترفوا من

آثام". وخسئ هذا العبد، فالرسول ليس بلعّان بل هو الرحمة المهداة يشفع لأمته يوم الموقف العظيم. ولا ندري ما إذا كان بيتس قد أخطأ في فهم ما أورده الإمام في ذلك الموقف أم تراه يكذب متعمداً. ومع ذلك نجده يصف موقف عرفات بالموقف العظيم حيث ترى حشداً ضمّ الآلاف من البشر حاسري الرؤوس ودموعهم تجري على الخدود يتأوهون ويرسلون الزفرات في حزن على ما اقترفوه، يعلنون التوبة ويسألون الله الغفران ويقطعون على أنفسهم الوعود بالاستقامة. وقد كان لهذا المنظر من الرهبة ما جعل بيتس نفسه يذرف الدمع وهو يرى الجمع في تلك الحماسة "العمياء".

ينفر الحجاج من عرفات إلى المزدلفة بعد نصف ساعة من مغيب الشمس حيث يقضون الليل، فإذا أصبحوا انصرفوا إلى منى، وهي المكان الذي ذهب إليه إبراهيم ليُضحّي بابنه إسماعيل عليهما السلام، و"وأروني حجراً قالوا إن الإله وجّه إليه يد إبراهيم بدلاً من عنق ابنه فشقّه فلقتين"، فذهبوا وجمعوا أحجاراً لرجم الشيطان. وذهب رجل ليرمي بالأحجار فاعترضه رجل آخر وقال له لا داعي لذلك، فهو قد رشق الشيطان بحجارة أصابت عينيه! ولا ندري إن كان هذا العبد قد قصد بهذا الافتراء السخرية أم كان ذلك منه على سبيل الطرفة حتى لا يمجّه القارئ.

بعد الرمي يذبح الحجاج الخراف ويوزعون لحومها على الفقراء ثم ينخرطون في الاحتفالات واللهو واللعب لأن ذنوبهم قد غفرت لهم... ويقضون ثلاثة أيام هي عيد البيرام أو الأضحى على هذه الحال لأنهم ضمنوا أنهم سينتقلون بعد وفاتهم إلى الجنة مباشرة، وأنهم لو استقاموا على الطاعات فإن الله سيكتب لهم بكل حسنة عشرة.

بعد أن يقضي الحجاج في منى ثلاثة أيام يعودون إلى الحرم في مكّة، إلا أن الأصحّاء منهم كانوا يذهبون إلى الحرم يومياً، تراهم يهرولون في الطريق إليه ويعودون بعد أن يفرغوا أعينهم هناك من دموعها. وفي مكة يجد الحجاج كل صنوف السلع التي تستورد من كافة الأرجاء، فيتزوّدون منها قبل أن ينتظموا في القوافل عائدين إلى بلدانهم. ويلاحظ بيتس أن أسعار السلع في مكة أغلى منها في البلاد التي وفد منها الحجيج. ويفد الحجاج بعد ذلك إلى زمزم ليعبّوا من مائها بقدر ما يستطيعون، ويغمسون أكفانهم التي يحملونها معهم بعد ذلك أينما ذهبوا، في ذلك الماء. وبعد القيام بهذه الزيارة الأخيرة يخرجون من الحرم عبر باب الوداع لتسير بهم القوافل إلى أوطانهم.

يبدأ جوزيف رحلة العودة مع سيده مع قافلة الحجّ هذه المرّة بعد أن غدا السيد صحيحاً لا يشكو سقماً. يقول إن الفوضى سادت الركب في اليوم الأول من مغادرتهم مكّة، فكل يريد أن يكون في مقدمة الركب، ما أدى إلى وقوع بعض المنازعات. ولكن ما إن أخذ كل شخص مكانه حافظ الجميع على النظام حتى بلغوا القاهرة، يصف بيتس القافلة فيقول إنها تتكون

من آلاف الإبل تنظم في مجموعات، ولكل مجموعة اسم معين. ويقوم على رأس كل مجموعة قائد يركب محفة زُينت بالحرير الأخضر بشكل جميل يحملها جملان. ويسير إلى جانبه جمل يحمل أموال القافلة وقد علّق على جانبيه جرسان يمكن سماع رنينهما من البعيد. وعادة ما تسير القوافل ليلاً ويستمتع الحجاج برنين الأجراس التي تزين أعناق الإبل وقوائمها. وتحدد المشاعل النحاسية المختلفة الأشكال بين بيضاوي ومربع ومستدير ومستطيل والتي يتوهج ضوء حطبها وترفع عالياً على أعمدة لتهدي مسيرة الحجاج خلف القائد. ويركب الجمال التي ترفع هذه الصواري المشتعلة خدم يضيفون كسارة الحطب اليابس في تلك المواقد كلما أوشك ضوؤها أن يخبو، وإذا أصبح الصبح ينيخون ويضربون خيامهم. وفي هذه الفترة يتناولون القهوة ثم يغطّون في النوم إلى ما بعد العصر. وحين يسمعون قرع طبول الاستعداد للرحيل يرفعون أحمالهم على الإبل وتجدّ القافلة في المسير لا تتوقف إلا في مواقيت الصلاة التي يؤدونها لوقتها. والجدير بالذكر أنهم يرفعون تلك الصواري غير مشتعلة في مسيرة الرحلة النهارية، فيتبين كل حاج من أشكال المواقد موقعه في المسيرة. وحين تترجل تلك الجموع ترى كل جماعة منها تتجمع حول مشعلها ذي الشكل المعين وذلك حتى لا تختلط الجماعات ويضطرب نظام القافلة التي ُحدد فيها لكل حاج مكانه من الصف الذي يقوم عليه أحد قادة القافلة الأربعة. ويلاحظ بيتس أن العديد من الحجاج فقراء لا يملكون حتى ثمن الماء الذي يفرضه البدو حين ترده القافلة في تلك الصحراء الصخرية، ولكن الآخرين يتكفّلون بذلك عنهم. و يقول إنه صادف في القافلة عبداً إيرلندي الأصل أُسر صغيراً فنسي دينه ولغته أيضاً وغدا مسلماً متعصّباً يحمد الله على أن خلّصه من جحيم الأرض وساقه إلى مكّة ليغفر الله له.

لا نجد عند بيتس أخبار بدو يغيرون على القافلة كما هي الحال عند فارتيما، ولكننا نجد عنده أخباراً أخرى عن سرقات يرتكبها البدو من الخدم ومن أصحاب الإبل المؤجرة للقافلة. يقول إن إبل القافلة تسير في صفوف بحيث يكون خطام كل جمل فيها مربوط إلى ذيل الآخر. يلجأ البدوي إلى الحيلة فيحل خطام الجمل الذي يكون راكبه غافياً، فيما يقوم زميل له آخر بربط خطام الجمل الذي يليه في الصف في مكان سابقه في حين يقود البدوي الآخر البعير وراكبه النائم بعيداً عن مرأى القافلة. وحين يصبح هذا البدوي الأخير في مأمن من عيون حراس القافلة يوقظ الراكب ويسلبه كل متاعه ويجرده من ملابسه أيضاً ثم يتركه ليجري ويلحق عارياً بالقافلة!

وصلت القافلة إلى المدينة المنوّرة لزيارة "قبر النبي. وهذه الممارسة لا يتوقع أن يضمنها الحجاج الوافدون من أقطار بعيدة حجهم، ولكن يتوقع أن يأتي إلى هنا أهل البلاد التي تقع في المناطق الشمالية". ويأخذ جوزيف في وصف البلدة التي يراها صغيرة مقارنة بمكّة المكرّمة، كذلك فإن مسجدها، رغم اتساعه، أصغر مساحة من الحرم المكي. وينفي، كما فعل فارتيما

قبله، ما ساد أوروبا من أن القبر الطاهر معلق في الهواء، ويرى أن ذلك وهم أوروبي لم يصدر عن العالم الإسلامي، وأنه لم يسمع ذلك من أي مسلم. ويصف غرفة الرسول ويذكر أتباعه الراقدين إلى جواره ويقول إن هناك مكاناً خُصّص لعيسى عليه السلام "الذي سيأتي إلى العالم قبل نهايته بأربعين سنة ليؤكد دين محمد، فهم يقولون بعدم صلب المسيح وإن المصلوب كان شبيهاً له".

لا يهمنا في ما بقي من أخبار هذه الرحلة شيء، ولكن يمكن أن نذكر في عجالة طريق القافلة التي خرجت من المدينة المنوّرة ووصلت إلى مويلح وارتقت العقبة إلى جبل سيناء ومنها إلى القاهرة التي بلغتها بعد سبعة وثلاثين يوماً من مغادرتها مكّة المكرّمة. وفي الإسكندرية وجد بيتس مركباً إنجليزياً صادف ضمن ركابها أحد رفاق صباه، فأرسل معه غليوناً تركياً لوالده وقطعة حرير لوالدته هدية لهما. أما عنه فيقول إن سيده أعتقه وأحسن معاملته وقد "أمدّني بكل ما أحتاجه، وكان يعاملني كما لو كنت ابنه من صلبه، وأخبرني أنه أوصى لي بالشيء الكثير بعد مماته"، ولكنه لم يسمح له بالمغادرة. "ورغم الامتنان لعطفه عليّ، ورغم الوعد البهيج"، كان بيتس يُمنّي نفسه بالهروب. وحانت الفرصة حين طلب السلطان العثماني من الداي إمدادات من السفن والمتطوعين وسمح له سيده بالتطوع. وحين وصل المركب الذي كان في طريقه إلى إزمير إلى الإسكندرية، هرب جوزيف منه وركب سفينة فرنسية إلى إيطاليا ومنها إلى ألمانيا فهولندا ثم إلى إنجلترا. ولا نعرف على وجه الدقّة السنة التي حجّ فيها هذا العتيق، فهو لم يهتم حين صاغ هذه الدراما بإثبات التواريخ. وردت لبعض الرحالة اللاحقين له ولبعض الدارسين للرحلة الأوروبية تواريخ مختلفة منها ١٠٩٠هـ/١٦٨٠م، و١٠٩٤هـ/١٦٨٤م، و١٠٩٨هـ/١٦٨٧م، وليس لأي من هؤلاء من الأسباب ما يجعلنا نرجّح صحّة التاريخ الذي ذهب إليه. لقد وجد هذا العتيق خلال هذه الرحلة وبعد وصوله إلى وطنه الكثير من المتاعب التى لا يسعنا ذكرها، ولا يهمنا منها سوى المعاملة بالإحسان من قبل أتقياء المسلمين لرقيقهم. ويمكن القارئ أن يوازن بينها وبين ما وجده ذلك العتيق في وطنه.

نشر بيتس كتابه في اكستر في عام ١١١٠هـ/١٧٠٤م واختار له عنواناً طويلاً جاء في بدايته: **سرد صادق أمين لدين المحمديين وأخلاقهم يضمّ بنحو خاص ما يتصل بحجهم إلى مكّة ومكان مولد محمد ووصف المدينة وقبره فيها**... إلخ.

الباب الثاني

كرستين نيبور

الفصل الرابع

أشواق دنماركية إلى الشرق

تشير المراجع الأجنبية إلى أن رحلة نيبور كانت رحلة علمية، وتابعتها في ذلك بعض المراجع العربية، ولعلها لم تجانب الصواب كثيراً. حصلت هذه الرحلة بناءً على اقتراح قدّمه يوهان داوُد ميخائيل، أستاذ اللغة العربية في جامعة جوتنجن وأبرز مستشرقي تلك الفترة إلى الكونت بيرنستروف Bernstroff وزير خارجية فردريك الخامس الذي اعتلى عرش الدنمارك في عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م. طلب الأستاذ إلى الوزير في عام ١١٧٢هـ/١٧٥٩م إرسال بعثة علمية إلى شبه الجزيرة العربية لحل بعض المسائل التوراتية في هذه الفترة التي توغلت العلمانية فيها في الدين وراح الكثير من المفكرين والعلماء الأوروبيين يتحدّون ما ورد في الكتاب المقدس، وللتحقق من المواقع الجغرافية المتصلة بقصص التوراة، والعودة بحقائق علمية تؤدي إلى تفسيرعلمي للنصوص الدينية، ودراسة حركة المدّ والجزر في البحر الأحمر، لاتصالها بخروج بني إسرائيل من مصر. وأقنع المستشرق الوزير بأن التكاليف لن تكون باهظة، إذ يمكن البعثة أن تستقل إلى السواحل اليمنية أي مركب من المراكب الدنماركية التي تربط بين الدنمارك ومستعمراتها في جنوب شرق القارة الهندية. وتقول المراجع الأجنبية: إن هذا المشروع صادف هوى لدى الملك الذي كان مشغوفاً بالعلم، وسعى لجعل عاصمته قبلة للعلماء، فرحّب بإرسال هذه البعثة من أجل فهم أفضل للبيئة التي شهدت ظهور التوراة ودراسة أحوال القبائل التي كانت لا تزال – في تقديره – تعيش عاداتها القديمة؛ فهي لم تتغير بتغير الزمان منذ الفترة التي ظهر فيها ذلك الكتاب إلى حيِّز الوجود.

ينكر توركيل هانسن مؤلف كتاب من كوبنهاجن إلى صنعاء أن تكون دراسة التوراة هي هدف هذه الرحلة و"أنهم مهما أولوا المسألة الدينية اهتماماً فإننا يمكن أن ننحّي ذلك جانباً؛ فقد استغل الدين عبر التاريخ ذريعة تخفي وراءها مهمات غريبة ومستهجنة". ويلاحظ هذا

الباحث أن الدين لم يكن المحرك لهذه البعثة؛ فجميع ما ورد في هذه البعثة لم يُشر إلى الناحية الدينية من قريب أو بعيد، ويرى أن البعثة كانت تجسّد ذلك الشوق المستحكم لدى سكان شمال أوروبا نحو أرض سعيدة في أي مكان في الجنوب، "الشوق الذي ينبعث ثم يتحرك ولكنه لا يصل إلى الغرض المقصود فيصبح حباً للاستطلاع". ونحن نتفق بدورنا مع هذا الباحث من دون أن نختلف مع عبد العزيز المقالح الذي قدّم للطبعة المترجمة لهذا الكتاب فقال: "إن الهدف الحقيقي أشواق كوبنهاغن الواقعة في سطح الدنيا إلى صنعاء النائمة في القاع". فقد أصاب هذا الأديب كبد الحقيقة التاريخية. فلربما كان هدف الأستاذ ميخائيل مقدّم الاقتراح أن تستغل نتائج الرحلة في خدمة الدراسات التوراتية في وقت كانت تتخاصم فيه المذاهب الدينية النصرانية في أوروبا خصاماً شديداً، وكان الجدل بينها محتدماً، كل يبحث عمّا يؤيّد حججه التي يريد أن يدحض بها الأخرى. غير أنه ربما كان لملك الدنمارك أجندته، وهي استعمار أرض الذهب والبخور والثعابين المجنحة، ولا بأس من أن تقدم البعثة لأهل المذاهب ما يعينهم على الجدل، أو للمنصرين ما يعينهم على فتح آفاق جديدة لنشاطاتهم.

انتهى في الشرق في هذه الفترة الاستعمار البرتغالي ورحل، فما عاد في أرض شبه الجزيرة العربية من قوى تحكمها غير القوى العربية. وجرت في هذه الفترة محاولات عدّة من قوى بريطانية وفرنسية وهولندية لكسب النفوذ والسيطرة والهيمنة واستعمار بلاد العرب، فما بال الدنمارك لا تفوز بالعربية السعيدة في هذا التسابق الاستعماري؟! وجوابنا أنها دخلت في هذا المضمار، ولكنها انبتّت قبل الشوط الأخير؛ فقد أحدثت نتائج الحروب الأوروبية – وخاصة حرب السنوات السبع في أوروبا – من الأحداث ما غيّر موازين القوى، إضافة إلى أن الملك فريدريك الخامس، الرجل الذي امتد طموحه لتمتد كوبنهاغن إلى صنعاء، مات في شعبان ١١٧٩/يناير ١٨٦٦م، وخلفه على العرش يافع صغير الطموحات هو الملك كريستيان الذي كان في السابعة عشرة من عمره. ولا يميز هذا الأخير إلا عربدته وارتياده حانات المدينة ومواخيرها، وعشيقته التي كثيراً ما كانت تُرى وهي في لحظات نشوة تتلذذ بمساعدة ملكها الولهان في رمي الغانيات من نوافذ القصر! ولذلك نجد أن رحلة نيبور انطلقت من كوبنهاغن في جمادى الآخرة ١١٧٤/يناير ١٧٦١ في عهد عاهل متطلع للمشاركة في النشاطات الاستعمارية لأوروبا في الشرق العربي، وانتهت في جمادى الآخرة ١١٨١هـ/نوفمبر١٧٦٧م في عهد ملك لم تمتد طموحاته إلى أبعد من شخصه الأرعن مع مراعاة تبدل موازين القوى الدولية في العهدين. ولعلنا حين نقلّب صحف كوبنهاغن في هذين العقدين نجدها قد اهتمت ببداية انطلاق الرحلة، واعتبرتها شاهداً على العزّة الوطنية والفخار القومي. وقد أخذ هذا الاعتزاز يفتر شيئاً فشيئاً حين وردت أخبار عن الخلافات الدائمة بين أعضاء فريق البعثة، أما حين عاد نيبور إلى كوبنهاغن فلم تذكر الصحافة عن البعثة المذكورة إلا خبراً موجزاً يقول: إن

نيبور قد عاد إلى البلاد، من دون أن تذكر من هو نيبور، ومن أين عاد، وما هي نتائج رحلته على ضوء ما تحقق من أهدافها.

من هو نيبور؟

ولد كارستين نيبور في فريزلاند في ٢ شوال ١١٤٥/١٧ مارس ١٧٣٣ في مزرعة بجوار البحر لأب مزارع كان يصارع الكفاف. وتوفيت والدته وهو في المهد، وتولت زوجة أبيه أمر تربيته. وعجز والده المزارع، سليل أسرة المزارعين، عن أن يقدّم لابنه أي نوع من التعليم المباشر، فانخرط يكسب عيشه بالعمل في المزرعة. وتلقى كارستين أول تعليم منتظم في سن الثانية والعشرين حين تدرب في المساحة، وعمل بعدئذ مهندساً عسكرياً. واستطاع أن يدخل جامعة جوتنجن في عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م، وأظهر في فترة تدريبه – بعد ترشيحه ليكون أحد أعضاء فريق البعثة – ميلاً إلى علوم الرياضيات، كما درس اللغة العربية، وإن لم يظهر أي تقدم في هذا المجال. وقد أوكل إليه تقصّي المعلومات الجغرافية في الرحلة.

إذا كان لنا أن نقوّم هذه الشخصية فإننا نرى فيه رجلاً ممتازاً أحبّ عمله الذي أوكل إليه، وأخلص – رغم كل الظروف – في أدائه. وكان رجلاً واقعياً يعرف حدود قدراته ويوظفها التوظيف الأمثل لنجاح مهمته. كان الرجل – كما يقول نقاده – لا يُحسن فنون الكتابة؛ فلغته جافة كأنها لغة البرقيات، كذلك يمكن أن نلاحظ أنه – على عكس الرحالة الذين سبقوه أو أتوا بعده – لم يكن يتحدث عن نفسه إلا نادراً، وكثيراً ما كان يستغل ضمير الغائب عندما يشير إلى أعماله، كأنه يتحدث عن شخص آخر، فلا غرو أن غدت كتاباته خالية من الذاتية التي تصبغ كتابات كافة الرحالة الغربيين الآخرين من دون استثناء، ويمكن أن يوضع هذا في ميزان حسناته، ويضاف إلى ذلك تمتعه بثقة مفرطة بالنفس؛ فحين ناقشه الوزير في عقد توظيفه في هذه المهمة وعرض عليه لقب أستاذ "بروفسير" مع الامتيازات المستحقة للقب، رفض محتجاً بأنه لا يملك حتى شهادة جامعية فكيف له أن يحمل هذا اللقب العلمي؟! واستبدل الوزير بهذا العرض آخر في مجال العسكرية، وعرض عليه وظيفة كابتن فرفضها أيضاً معتذراً بأن لا أحد في مثل سنّه سبق له أن نال مثل هذه الوظيفة. واكتفى نيبور من الوزير بوظيفة مهندس بدرجة ملازم. ولعل هذا الزهد في الجاه والمال هو الذي دفع بالوزير ليسميه أمين "صندوق" البعثة. وقد أفلح نيبور في الاحتفاظ بدفتر حسابات دقيق، وكان أميناً مقتصداً في نفقاته غير مبذّر.

كان نيبور يسعى في اليمن على حمار مستأجر يحمله وحقيبته الصغيرة التي ضمّت بعض الملابس الكتانية وبعض الكتب. أما ملابسه فكانت رداءً بلا أكمام، وسروالاً كتّانياً، وخفّاً وعمامة. وكان معه بساط قديم يجعله بردعة للحمار حين يواصل رحلاته نهاراً، ومائدة إذا

نزل عن حماره لتناول الطعام، وفراشاً إذا عنّ له أن يهجع. يضاف إلى هذا الشال الذي "يلبسه العرب اتّقاء الشمس"، وكان يستعمله دثاراً عند النوم. وكان يحمل الماء في إناء فخاري يعلّقه في خطاف تحت بردعة الحمار. أما سلاحه فكان سيفاً يتدلى تحت ذراعه، ومسدسين يربطهما إلى حزامه، بينما كان صاحب الحمار المؤجر لنيبور يتبعه راجلاً وهو يحمل سيفاً ودرعاً ومدية. ولنا - معشر المؤرخين - ألا نعتد كثيراً بما يذكره هذا الرحالة وكل اللاحقين به من أمثاله من أنه كان يحمل سلاحاً؛ فذلك في تقديرنا نابع من تضخيم الذات في هذه المذكرات. فهو لا يزيد على ما يريد أن يقوله الرحالة لبني جلدته من أنه ارتاد أخطاراً كبيرة معتمداً على شجاعته المؤزرة بسلاحه. فنحن ندرك تماماً أنه ما كان لنيبور ولا لغيره من الرحالة أن يشقّ أي أرض في شبه الجزيرة العربية أو أن يتوغل فيها إلا بإذن من شيخ أو أمير أو متنفذ يضمن له حقّ المرور البريء. وعلينا أيضاً أن نتجاوز كل ما يكتبه الرحالة عن مغامراتهم النسائية، وهذا أمر لم يسلم منه أي رحالة بمن فيهم نيبور، الرجل الجاد. تكوّن ادعاءات الرحالة من أنهم مارسوا الجنس أو العلاقات المثلية شريحة بارزة في أدب الرحالة الأوروبيين في شبه الجزيرة العربية. نجدها تلميحاً من بعض المعتدلين منهم وتصريحاً من غالبيتهم. ولربما تُردّ هذه الظاهرة إلى أن الرحالة كانوا من فئة الشباب، فصاغوا أوهامهم كأنها الحقائق ليتسلى بها القراء. فحواجز اللغة والثقافة والعنصر لا يمكن تجاوزها في لقاء عابر لرحالة أجنبي يمرّ بحي أو بمدينة. وعلى الرغم من اعترافنا بأن أي مجتمع بشري لا يخلو من الفساد، علينا - معشر المؤرخين - تجاوز هذه الادعاءات وإن صحّت؛ فالفساد لم يمثل ظاهرة في تلك المجتمعات تتطلب من أهل الدراسات الاجتماعية الوقوف عندها.

تعمّد نيبور عدم الجلوس إلى المتنفذين والأعيان وأصحاب الشأن، ولم يحاول لقاءهم إلا لضرورة، بينما كان يتقرّب إلى التجار ليحصل منهم على حصيلة رحلاتهم ويقف على الأحوال المادية للمكان، كما التقى بعض الفقهاء وأخذ عنهم، ولكنه لم يكن في لقاءاته هذه الفئة الأخيرة يعمل على إثارة حوارات دينية، أو يتعمد المفاضلة بين الإسلام والنصرانية كما هو شأن العديد من الرحالة اللاحقين. ولربما يعود ذلك إلى الشخصية التصالحية التي امتاز بها نيبور، والتي لا تتعمد إثارة النزاع، ويعود في جزء منه كذلك إلى ثقافته المحدودة وإلى عدم معرفته من العربية إلا بعض ألفاظ عامية لا تتسع لإجراء حوار. وقد شهد نيبور "لأمة محمد" بأنهم قوم مسالمون يعايشون الهندوس واليهود والنصارى وغيرهم، ولاحظ أنهم أشدّ مودة للنصارى من غيرهم. ونحن إذ نحترم في نيبور الحياد الذي حاول التزامه نشير إلى أنه من بين القلائل من الرحالة الغربيين الذين اعترفوا بهذه الحقيقة، وأبرزوها في كتاباتهم بصراحة ووضوح.

يبدو حياد نيبور في كثير من الأحيان حياداً علمياً مجرّداً، فهو لا يذكر حدثاً مهماً إلا قال:

إنه سمعه من زيد أو عمرو، ويعرّفنا المُحال عليه كأن يقول: زيد الفقيه، أو الذي يسكن البلد الفلاني، أو قد يعرّفه بقبيلته أو ملّته فيقول: الفارسي، أو النصراني أو اليهودي. وحين يريد أن يصدر حكماً في قضية ما فإنه يقارن بين الأقوال المتشاجرة ثم يصدر حكمه مسبوقاً باعترافه بأنه لا يعرف هذا الأمر ولكنه اجتهد في الوصول إليه بالمقارنة. ورغم أن نتائج نيبور كثيراً ما تبتعد عن الحقيقة بعداً بيّناً، خاصة في المسائل المتصلة بالدين والظواهر الاجتماعية، نقدّر له حياده الذي سعى إليه. وفي الحقيقة، إننا – معشر المؤرخين – حين نأخذ الرحالة مصدراً – وإن كان ثانوياً – نقبل شهادته في التجارب التي مرّ بها في ما رأى بعينه أو لمس بيده أو رُوي له، وذلك بعد النقد والتمحيص، أما ما يراه بتحليله وينقده بعين ثقافته وذوقه فذلك لا يعنينا في قبيل ولا دبير. فحين يقول لنا الرحالة: إن النساء في هذه المنطقة أو تلك يرسمن بالحناء على أيديهن وأرجلهن نقبل منه هذه المقالة التي تحدّث عن حقيقة رآها بعينه، أما حين يقول: إن عادة استعمال الحناء مستهجنة، أو إنها جميلة أو غير جميلة، فإن ذلك لا يعني المؤرخ في شيء؛ لأن ذلك الرحالة أصدر حكمه على ضوء عين ثقافته التي لا تعرف الحناء وتجهل جماليتها كما تجهل الجماليات الأخرى المتعلقة بثقافتنا المادية والأخلاقية.

يمكن أن يُضاف إلى شخصية نيبور أنه كان متسامحاً تسامحاً لم يعرفه – في ما نعتقد – أي من الرحالة الأجانب الآخرين الذين ساروا في إثره؛ فحين تعرّض نيبور ورفاقه لسباب شاب من قحطان في اللحيّة أورد نيبور قصته، ولكنه لم يضع وزر هذا العمل الأهوج على "همجية" العنصر العربي ولا على قبيلة المعتدي – كما هو شأن الرحالة بعده الذين يميلون إلى التعميم – بل اعتذر عن الشاب بكلمات قليلة حين قال: إن ذلك يعود إلى عدم معرفته بالأوروبيين. ولا يعني ذلك أن نيبور لم يكتب في مثالب العرب، فقد ذكر الكثير منها، وقد أخطأ حين وزن الأمور بميزان ثقافته. فالكثير مما ظنّه الرجل مثالب لا يعدو كونه الأصالة التي حفظت على العربي قِيَمه واعتداده بنفسه وغير ذلك مما وقاه شرّ الذوبان في مواعين الآخرين.

لم يكن نيبور الذي عرفت هذه الرحلة باسمه هو المُقدّم بين مرافقيه، ولا رئيس هذه الرحلة التي خرجت من كوبنهاغن في يناير ١٧٦١ متوجهة إلى العربية السعيدة أو اليمن السعيد؛ فقد خرج معه رجال لم يكونوا على شاكلته، وقد اختطفهم الموت واحداً تلو آخر، و لم يعد إلى كوبنهاغن منهم إلا نيبور الذي وجد نفسه الوارث الوحيد لكل ما كتبه زملاؤه. صاغ نيبور ما تيسّر له ممّا كتبه بعض رفاقه، واستكمله بملاحظاته ومقارناته، وأجرى عليه النقد اللازم، وأشار في اقتضاب إلى أن ذلك من جهود زملائه الذين عملوا معه و لم يغمطهم حقهم. ولعل هذا مما جعل كتابات نيبور مخزناً لتجارب وجهود وآراء مجموعة متخصّصة أو شبه متخصّصة، وأكسبها على الجملة صدقاً يندر أن نجده عند سواه في أدب الرحالة الأجانب. هذا إضافة إلى أن نيبور، لم يكن يؤمن – ربما بحكم ثقافته المحدودة كما تكشف كتاباته – بأي من الأفكار

الاجتماعية، و لم يكن يسعى - وهو الألماني العامل للدنماركيين - إلى تحقيق هدف قومي، فقد كان الرجل موظفاً صادق التوجه يؤدي مهمة جادة تقتضي طبيعة وظيفته أداءها، فلم تطغَ على كتاباته بنحو كبير صيغة الأنا التي تسيطر بكثافة على جلّ أدب الرحلة الأجنبية إن لم نقل كله.

حين عاد نيبور إلى الدنمارك لم يظفر بأدنى اهتمام، بيد أنه رُقّي من رتبة الملازم إلى رتبة الكابتن التي كانت قد عرضت عليه قبل أن يقوم برحلته المضنية. ومات الرجل بعدئذ عن اثنين وثمانين عاماً في ضيعة نائية في السابع عشر من جمادى الأولى ١٢٣٠/السادس والعشرين من إبريل عام ١٨١٥م بعد هروب متصل من الموت! فقد استسلم للموت في هذه الرحلة المشؤومة كافة أعضاء بعثته التي لم يبق على قيد الحياة من أفرادها إلا هو، كما استسلمت للموت أيضاً زوجته التي تزوجها في عام ١١٨٦هـ/١٧٧٣م بعد عودته من رحلته، أما هو فقد عاش أيامه الأخيرة أعمى مقعداً، ولكنه كان سعيداً بذكرياته، وحفيّاً برحلته التي ما فتئ يروي أخبارها حتى أسلم الروح.

فردريك كريستيان فون هافن

ولد فردريك العضو الدنماركي في هذه البعثة عام ١١٣٩هـ/١٧٢٧م لأب كان يعمل كاتباً، ولكنه فقد والده وهو في الحادية عشرة من عمره وتولت والدته تربيته. وقد تمكن من اجتياز اختبار في علم اللاهوت وهو في الحادية والعشرين من عمره، ثم بدأ دراسة فقه اللغات واختار العبرية. ويوصف فون هافن بأنه ضعيف مغرور وكسول طموح، وأن ديونه المتراكمة هي التي حرّضته على قبول المغامرة للقيام بهذه الرحلة. وقد أُجّل قيام هذه البعثة فترة ما نتيجة تردده في اللحاق بها. أراد فون هافن أن يكون رائد هذه البعثة ورئيسها بحكم أنه دنماركي، وأنه أكبر الأعضاء سناً، وأنه أول المرشحين للقيام بالرحلة، وأنه يفوقهم علماً وثقافة، وطلب في مقابلته للوزير الذي عيّنه عضواً في هذه البعثة أن يكون له صوتان في اتخاذ القرارات مقابل صوت لكل من الآخرين، وأن يتمتع بحقّ النقض لقرارات زملائه. وحين رفض الوزير منحه هذه الامتيازات، حاول بعدئذ أن يغتصب من نيبور أمانة الصندوق؛ فقد كان رأيه المصرّح به في زميله نيبور أنه فلاح جلف جاهل. وجاء في سجلات هذه الرحلة أنه كان يكره نيبور من أعماقه كما يكره زميله السويدي فروسكال، كذلك ورد في هذه السجلات أيضاً أنه حين رافق زميله الطبيب كرامر في القسطنطينية لشراء بعض الأدوية اللازمة للرحلة من دكان كيميائي فلورنسي اشترى كمية من الزرنيخ ما أصاب كرامر بالرعب، فذلك سمّ قاتل؛ فقد كان يدرك مدى ما يكنّه فون هافن من كراهية لفورسكال وخشي أن يعالجه بالسمّ. كان فون هافن دائم الشجار مع فورسكال ونيبور، وإن كان الأخير يتفاداه ما كان ذلك ممكناً. وحين

بلغ خلاف هافن في أثناء الرحلة بعض المسؤولين الدنماركيين كتب أحدهم إلى نيبور يطلب إليه أن يتسامح ويلجأ إلى الحلول الوسط "ويضع الرداء على الكتفين". وردّ نيبور في رسالة كان صادقاً فيها حين قال: إنه "ترك الرداء يسقط كلياً"، ومع ذلك لم يكن نيبور يتورّع عن إظهار عدم احترامه لفون هافن؛ فحين أصيب الأخير في اليمن بالملاريا التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً، اعتقد نيبور أن زميله أصيب بالبطنة، فكتب يقول: إنه "أصيب بعلّة في المعدة، فقد كنا نأكل اللحم كل يوم في بيت الفقيه، وأثّر ذلك بشكل سلبي في صحّة الجميع خاصة الذي لا يقوم منا بأي نشاط بدني أو رياضة، وأخصّ بالذكر فون هافن الذي لم يكن يغادر المنزل إلا لِماماً. لم يكن يتحرك من مجلسه الذي ينام عليه إلا حين يحين موعد الأكل...".

مات فون هافن في مخا ودُفن في ١٤ ذو القعدة ١١٧٧/٢٦ مايو. وقد جاء في مذكرة نيبور وهو ينعى رفيق رحلته أنه "بدأ يهذي منذ الساعة الثامنة ويهمهم ببعض الكلمات العربية والفرنسية وأحياناً الإيطالية والألمانية، ثم راح في سبات عميق أو ربما إغماءة طويلة لم يفق منها حتى أسلم الروح في حوالى العاشرة. وقد خسر العالم بموت فون هافن عضواً من أعضاء هذه البعثة كنا ننتظر منه الكثير في مجال الدراسات الشرقية حين نعود...".

لم يكن هذا إلا نعياً رسمياً لا يعبّر عن حقيقة مشاعر نيبور تجاه زميله الهالك، إذ كتب في مذكراته بعد عدّة سنوات من وفاة الرجل أنه لم يكن ضليعاً في مجال علمه، و لم يكن مخلصاً لعمله، فقد كان حديثه الدائم هو التعبير عن همّه الوحيد المتمثل في عودته إلى أرض وطنه ليتمتع بالشهرة وبالمستقبل الناصع الذي صنعه لنفسه، وأضاف أن فون هافن كان أكثر أفراد البعثة شعوراً بالعجز واليأس، وكان أعظم همه الظفر بمائدة شهية وخمر جيد المذاق، و لم يكن له ذلك في اليمن الذي لم يكونوا يظفرون فيه إلا بأبسط الطعام وبالماء الرديء ما حوّل خيبة الأمل لديه إلى يأس مزرٍ. ويستطرد نيبور فيتّهم زميله المتوفى بالكسل ويقول إنه وجد الذريعة لممارسة كسله في الاعتذار بجوّ هذه المنطقة القائظ، ويضيف أنه كان متعجرفاً، وأنه كان يعدّ نفسه الأجلّ قدراً، والأسمى مكانة، وكان يؤذيه أن شؤون البعثة المالية لم توكل إليه. أما قاصمة الظهر في هذه المذكرة فنجدها في اعتراف نيبور بأنه لم يجد في مذكرات فون هافن أي شيء ذي أهمية. أما فورسكال فقد كان أسرع من نيبور في الهجوم على زميله الراحل؛ فقد كتب عنه بعد وفاته مباشرة في إحدى رسائله: "مات هنا في الخامس والعشرين البروفسور فون هافن، أحد أعضاء المجموعة، وبموته أصبحت مهمة أعضاء البعثة أسهل بكثير مما كانت عليه. لقد كان الرجل صعب المراس".

بيتر فورسكال

ولد فورسكال، العضو السويدي في هذه البعثة، في هلسنجفور Helsingfors عام ١١٤٤هـ/١٧٣٢م لأسرة ضمّت سبع بنات وثلاثة إخوة، وكان والده يعمل كاتباً مثل والد كريستيان فون هافن. درس بيتر العلوم الدينية، ولضيق ذات اليد بدأ يدرس في المنزل على والده، وأظهر تفوقاً في اللاتينية واليونانية والفلسفة واللاهوت ما أهّله للظفر ببعثة جامعية، فدرس الطبيعة والكيمياء وعلوم النبات.

كان فروسكال السويدي مثله مثل زميله فون هافن نزقاً متعجرفاً، غير متواضع، عنيداً مستهتراً، وكان يسعى للثراء السريع والحياة المريحة والشهرة. ولكننا حين ننظر في شهادة نيبور في هذا الرجل نرى أنه يستحق الشهرة والثراء عن جدارة؛ فقد كان ذكياً ألمعياً كفوءاً، و لم يكن انتهازياً كسولاً مثل زميله فون هافن. وقد عانت البعثة كثيراً من الخلاف الذي كان يسود علاقة هذين الشابين حتى طوى الموت صفحة فون هافن، وظنّ فروسكال أن مهمته في تحقيق أهداف البعثة ستكون أيسر مما كانت عليه، ولكنه ما لبث أن لحق به في العا لم الآخر، ولمّا ينقضِ أكثر من شهر على رحيل فون هافن.

عُرِفَ فورسكال قبل ترشيحه للاشتراك في هذه البعثة بأنه من الشباب ذوي الآراء الحرّة، وكان يطمح إلى تولّي رئاسة البعثة. وحين لم يقرّه الوزير على ذلك، اشترط عليه أن يتمتع كافة أعضاء الفريق بدرجة واحدة، بحيث لا تعقد الرئاسة لأحد منهم، لأنه – كما أفاد – لن يعترف بأي من زملائه مسؤولاً عن رئاسة الرحلة، أو يعترف بأي منهم أعلى منه مرتبة، كذلك اشترط أن يظفر بعد عودته بمعاش مدى الحياة، وأن يُمتّع بسكن في أي مدينة يختارها، ووافق الوزير على ما اشترطه عليه فروسكال. وحين كتب إليه أستاذه ميخائيل يسأله عن المعاش الذي يتطلع للحصول عليه أجاب فورسكال بدهاء بأنه ليس من اللائق التحدث في هذا الخصوص، "ولكن هبة الملوك تتناسب ومكانتهم". وقد أمر الملك بعدئذ البعثة – نتيجة لاقتراح فورسكال – بأن تعمل بلا رئاسة متضامنة بروح الفريق الواحد، كل في ما يخصّه لاستيفاء وتحقيق قائمة المهمات الموكلة إليها، على أن يعاون كل منهم الآخر إذا احتاج إلى مساعدته، وجعل المسؤولية تضامنية، ولكنه وجه أيضاً بأن يتولى فورسكال وفون هافن مسؤولية القرار إذا نشأ أمر يستحق التصرف، وبرر ذلك بأنهما الأكثر معرفة باللغة العربية. وكانت هذه المسؤولية المشتركة التي أنيطت برجلين متطلعين إلى الرئاسة من أبرز المعوقات التي واكبت هذه الرحلة حتى اختطف الموت فون هافن.

تولّى فورسكال بفضل نشاطه وجدّه ومثابرته أعباء إضافية لم تكن في صميم المهمات الموكلة إليه، فقد كان كثير العطاء حين احتاجت البعثة إلى عطائه. ففي فترة إقامتهم في مخا

كان كل من نيبور وفون هافن يلازم سرير المرض، فتولى فورسكال كافة مهمات البعثة هناك من التعامل مع رجال الجمارك، وإن لم يكن موفقاً في هذا الصدد، كما أعدّ جُملة من القوائم التي أثبت فيها وحدات القياس والكيل والوزن وصك العملة، وكتب مذكرة عن تجارة الذهب والعاج والمرّ العلاجي واللبان واللؤلؤ والبن، ولاحظ أيضاً أن للعرب ولعاً بشراء الحديد، وأنهم يفضّلون شراء "مواسير" البندقيات السميكة المخمّسة الزوايا على المواسير المستديرة. وعلى وجه العموم نستطيع أن نقول: إنه لم يكن يلتزم حدود مسؤولياته فقط، بل كان يتقدم عن طيب خاطر لمساعدة الآخرين، بمن في ذلك فون هافن الذي كان يكنّ له كراهية خاصة.

لم يكن فورسكال في حيدة نيبور في ما يخصّ العنصر العربي عموماً والبدو خاصة، ولكنه لم يكن في هذا المجال بدعاً من غيره من الرحالة الآخرين، فذلك اتجاه عام لعل فورسكال كان من روّاده. أما رؤيته للإسلام فإن ما أورده منها في هذا الصدد ينمّ عن جهل فاضح، لأنه – مثله مثل الرحالة الآخرين، بمن فيهم نيبور نفسه – يُكوّنها ممّا يسمعه من أفواه العامة ثم يثبتها دون تحرٍّ. ويأتي بعده من الرحالة والمستشرقين، خاصة المغرضين منهم، من يعتمد تلك الرؤى ويعتبرها حقائق. يكتب فورسكال عن عادة الثأر في المجتمع العربي ويعدّها من "القوانين الشرعية" في الإسلام، وينتقد الثأر انتقاداً نقرّه عليه إن لم يربطه بالإسلام فيقول: إن أقارب القاتل يعيشون تحت تهديد دائم حتى وإن لم تكن لهم يد في جريمة القتل. ويذهب هذا الرحالة بعيداً حين يقارن بين الإسلام والمعتقدات الهندوسية. فيقول: إن "البانيان" في المدينة، وفاءً لمعتقداتهم، لا يقتلون نفساً ولا حشرة، وإنهم يشترون الأسماك من الذين يصطادونها، ويدفعون ضعف ثمنها ليعيدوها إلى البحر مرّة أخرى، لأنهم يؤمنون بمبدأ تناسخ الأرواح. وقد وقر هذا الخلط الذي نجم عن جهل الرحالة الغربيين وعدم التحري عن الحقائق من مصادرها في الذهن الغربي الذي كثيراً ما وصم الإسلام بما ليس فيه؛ فهم لا يدركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بُعث رحمة للعالمين من الناس، مسلمهم وكافرهم، وأن من قتل نفساً بغير حقّ فكأنما قتل الناس جميعاً، وأن لا عدوان إلا على الظالمين، وأن الثأر ليس من الإسلام في شيء، ومن عفا وأصلح فأجره على الله.

كان الرجل مستهتراً كما أسلفنا القول، فحين وصلت البعثة إلى اللحية – وهي أول منطقة في اليمن تطأها أقدام هؤلاء الرحالة – وجدوا ترحيباً حاراً وضيافة كريمة من الأمير فرحان، حاكم البلدة الذي حاول مبعوثه أن يدفع عنهم لصاحب المركب إيجار الرحلة من جدّة إلى اللحية. وتساءل نيبور: هل يمكنك أن تصادف مثل هذه البادرة الطيبة تجاه مسافرين عرب في أي مكان في أوروبا؟ وتصادف أن كان فورسكال في تلك الفترة يستعرض آلة المجهر التي يحملها – و لم تكن المنطقة قد عرفتها بعد – فطلب من موظفي الجمرك أن يأتوه "بقملة فأنكروا وجود هذه الحشرة على أجسادهم"، ولكنه – كما يقول – حين عرض بعض المال

مقابل حصوله عليها سرعان ما أخرجها له أحدهم. وضع فورسكال القملة تحت المجهر فاغتبط الأمير لحجم هذه الحشرة الضخم، أما الذين تدافعوا لرؤيتها تحت المجهر واحداً بعد آخر فقد أنكروها وقالوا: لا بد أنها قملة أوروبية!

اعتقد أهل البلدة - كما يقول فورسكال - أن هؤلاء الأجانب يهتمون بالقمل أكثر مما يهتمون بالسكان، فأتاهم أحدهم في اليوم التالي بملء كفيه قملاً لقاء مبلغ زهيد. ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى ما لاحظه نيبور في فترة لاحقة من أن العرب لا يستبدلون ملابسهم عند النوم، ولكنه يستطرد قائلاً: "ولا يعني ذلك أنهم أكثر قذارة من الأوروبيين، فهم في حقيقة الحال يغتسلون أكثر منهم". في هذه المناسبة فإن نيبور لم يُثر دهشة مستضيفيه بعرض القمل مضخّماً، بل عرض عليهم تلسكوبه الذي يقرّب الصورة ولكنه يظهرها مقلوبة، فقد كانت تلك النظارة بدائية لم تتطور حتى ذلك الوقت. وكان من دواعي سرور الموجودين أنهم راحوا يراقبون من خلال التلسكوب امرأة تمشي في السوق وأقدامها إلى أعلى دون أن تسقط ملابسها عنها!

مات فورسكال وهو في الطريق إلى صنعاء، وكان يشكو الملاريا التي راحت تعاوده فترة في صورة برد وقيء. وكان طوال الطريق من تعز إلى يريم مربوطاً إلى ظهر بعير "وكأنه كيس مملوء إلى نصفه" يسيل قيؤه على جانبي البعير التّرِبيْنِ بينما كان وجهه البادي الألم مُزرقّاً، ولم يكن يستطيع حراكاً أو ينبس ببنت شفة. وحين وصلت البعثة إلى يريم حُمل على سرير من فندق المدينة إلى بيت مُؤجّر، فقد قصد نيبور بذلك أن يهيّئ له وسائل راحة أفضل. ونام فورسكال في العاشرة من مساء يوم ٢٩ ذي الحجة ١١٧٦/العاشر من يوليو ١٧٦٣ نوماً عميقاً لم يفق منه أبداً، فقد هلك في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي، ودفن في يريم. وقد عبّر نيبور عن مشاعر صادقة حين نعاه... "لقد أصابنا الحزن لموت فورسكال، فهو أميز أعضاء البعثة معرفة باللغة العربية التي أجادها من خلال جولاته العديدة لإجراء الدراسات على النباتات، وكان لذلك دائم الاختلاط بعامة الشعب". وقد قال نيبور لابنه بعد سنوات طويلة من هذا الحدث: إن فورسكال كان أغزرهم علماً، وإنه لو قدّر له أن يعود إلى أوروبا حيّاً لأصبح أوسع علمائها علماً. وأشاد نيبور بزميله فورسكال الذي كان يشهد له بأنه كان مجتهداً، مكدّاً، هازئاً بكافة الأخطار، لا يهتم للنصب والتعب، ولا يشكو شظف العيش. وفي الحقيقة فإن كل قارئ يمرّ على تراجيديا موت هذا الرجل الجاد لا بد أن يتأثر له. وكان نيبور أكثر وفاءً له من الآخرين من زملائه، فقد عمل من جانبه على نشر أعماله كاملة، وإن لم تلقَ تلك الأعمال المنشورة نجاحاً أو تصب شهرة. وهكذا فقد ابتلعت أرض اليمن اثنين من مستكشفيها الغربيين لم تستبقِ منهم إلا ثلاثة هم: نيبور، وباورنفايد، وكريستيان شارلس كريمر.

كريستيان شارلس كريمر

دنماركي ولد في كوبنهاغن عام ١١٤٤هـ/١٧٣٢م. وكان والده يعمل خادماً في منزل أحد المتنفذين، ما هيّأ لكريستيان تعليماً متصلاً؛ فأصبح طبيباً وفيزيائياً ومختصّاً في الأحياء، وأنهى في جمادى الأولى ١١٧٤/ديسمبر ١٧٦٠ - قبل مغادرته ضمن البعثة إلى اليمن بستة أيام - أطروحته للحصول على الدكتوراه في الحشرات. وله من الكتب كتاب بعنوان **عصافير الكناري وطرق تربيتها**. وتُجمِع مصادرنا على أن الرجل كان ذكياً ولكنه كسول. وعلى الرغم من أن نيبور لم يكن معجباً به لأنه لم يكن يعامله معاملة الزميل، وكان يطلب إليه ألا يناديه باسمه مجرداً بل ب"السيد الدكتور" كان - مع ذلك - يبدو رجلاً رقيقاً خفيف الظلّ، وإن كان غير أمين في القيام بمهمات مهنته. ويذكر أنه حين كان مع زملائه في الباخرة التي أقلّتهم من السويس إلى جدّة تمكن من كسب ودّ الحجاج بما كان يقدمه من نصائح طبية، وكان كل من في الباخرة يشكو له علته. تقدم منه رجل مسنّ شاكياً له أنه لا يبصر في الظلام، فنصحه كريمر بأن يوقد شمعة يطرد بها الظلام ليتمكن بعدها من الرؤية، فانفجر الجميع مقهقهين، وكانت تلك مناسبة تلاشت فيها الحواجز بين الحجاج وأفراد البعثة. وتتضح عدم أمانته في ما قام به في إحدى مدن اليمن؛ فقد أزعجه كثرة المراجعين الذين يفدون إلى منزل البعثة للاستئناس باستشارة طبية، فقرّر وضع حدّ لذلك، فأعطى أحد موظفي الجمرك مادة سبّبت له مرضاً شديداً ألزمه الفراش. وازدادت حيرة كريمر حين ازداد تدفق المراجعين إلى منزل البعثة يطلبون الدواء ذاته الذي كاد أن يقضي على ذلك الموظف! وقد مات كريمر في بومباي التي وصلها مع نيبور في ٢٥ صفر١١٧٧/٣ سبتمبر ١٧٦٣م نتيجة الحمى التي أصيب بها في اليمن، وظلّت تعاوده بعد ذلك، وكان موته في اليوم الثامن من شعبان ١١٧٧/١٠ فبراير ١٧٦٤م. ونعى نيبور كريمر آخر من بقي على قيد الحياة من زملائه بجملة واحدة: "غادر كريمر هذه الدنيا"، ثم بدا نيبور بعدئذ كأنه ينعى نفسه بعد أن أصبح وحيداً: "لم يبقَ غيري من أفراد بعثتنا القوية، ولا يراودني إلا بصيص أمل بأني سأرى أوروبا مرّة أخرى".

لم يكن لكريمر أثر يذكر في نتائج هذه الرحلة؛ فقد أجاب نيبور في إحدى رسائله أحد المسؤولين حين سأله عمّا قدّمه كريمر قائلاً: "لا ضرر في أن تطلبوا الاطلاع على مذكرات السيد الدكتور، فمن الجائز أنه اكتشف شيئاً مهماً". وكان نيبور يدرك أن زميله لم يخلّف في مذكراته كلمة واحدة!

الفنان الهر جورج وليام باورنفايد Baurenfied

ولد في نورنبرج في جنوب ألمانيا في حوالى عام ١١٤١هـ/١٧٢٩م ودرس النحت والرسم، وعمل رساماً ونحاتاً، فخالط الطبقة الأرستقراطية في الدنمارك. وتُعدّ لوحته المحفورة التي عنوانها "النبي موسى والشجرة المحرقة" من أهم أعماله الفنية. ويبدو أنه كان رجلاً رقيق المزاج، وربما كان متحفظاً بعض الشيء؛ فهو الوحيد من بين المجموعة الذي لم يشغل نفسه بالخلافات التي لفّت جميع أعضاء البعثة. وكان باورنفايد أول من أصيب بالحمى من المجموعة، وذلك في الطريق إلى السويس قبل أن يركب البحر الأحمر إلى شبه الجزيرة العربية، ولكنه عاش بعد ذلك ورسم عدّة صور في جدّة وفي مناطق اليمن، و لم توافه المنية إلا في البحر في الطريق إلى بومباي، في الحادية عشرة ظهراً من يوم عشرين صفر ١١٧٧/التاسع والعشرين من شهر أغسطس ١٧٦٣. وقد قذف بجثمانه إلى البحر ودفن في أمواجه، كما قذف في اليوم التالي مباشرة بجثة برجن، الذي لاقى حتفه في ذلك اليوم ودفن في الأعماق أيضاً. وكان برجن الرجل السمين الضخم الكراديس الذي كان يهزأ من الصعوبات التي قيل له: إن الرحلة قد تواجهها، يعمل قبل أن يلتحق بهذه الرحلة خادماً للمجموعة لدى ضابط برتبة كولونيل، وعمل جندياً في سلاح المدفعية أيضاً. وبالطبع فإنه – حُكماً بطبيعة مهمته – لم يترك أثراً ملموساً في نتائج هذه الرحلة.

الرحلة من كوبنهاغن إلى السويس

أعدّ الأستاذ ميخائيل مجموعة من الأسئلة في مئتين وخمس وثلاثين صفحة تحدد مهمة البعثة، وطلب إلى أعضائها التحرّي عنها واستقصاءها. دارت هذه الأسئلة حول عدد من المسائل التوراتية، من تقصّي مواقع جغرافية وردت في ذلك الكتاب، والتحرّي عن حركة المد والجزر في البحر الأحمر، وما يتعلق بخروج بني إسرائيل من مصر، وجملة من الأسئلة عن مسائل اقتصادية تتعلق بالثراء العريض لبعض المناطق التي وردت في أسفار التوراة، إضافة إلى عدد من المشكلات اللغوية والألفاظ العبرية الواردة في العهد القديم. ودّع الملك البعثة بعد أن حدد لها هدفها: اليمن السعيد لما له من اتصال مباشر بنصوص التوراة، وزوّد البعثة بثلاث وأربعين نصيحة، لعل أهمها ضرورة أن يتعاملوا بكثير من الحذر مع المسلمين، وأن يظهروا احترامهم للدين الإسلامي، وألا يتصرّفوا مع نساء المسلمين بحرية كما يتصرّفون مع النساء الأوروبيات، وأن يساعد الطبيب كريمر مرضى المسلمين للظفر بثقتهم، وأن يتحرّى عن طبيعة الأمراض في تلك المناطق، وحدّد لكل من أفراد البعثة واجبه ونصح بأسلوب أدائه، كما حدّد لهم طريق

الرحلة التي أشار إلى أنها تبدأ بغرب الجزيرة العربية في البحر الأحمر وتنتهي بشرقها، لتعود عن طريق البصرة وحلب وأزمير، وشدّد على ضرورة استقصاء كل معلومة واردة أو شاردة عن أحوال قبائل شبه الجزيرة العربية التي كانت – في اعتقاده – تعيش عاداتها القديمة منذ أن ظهرت التوراة إلى حيّز الوجود، وأنها لم تتغير بتغيّر الزمان.

ركبت البعثة السفينة جرين لاند في ٢٨ جمادى الأولى ١١٧٤هـ/الرابع من يناير ١٧٦١م، وكانت الريح ساكنة فلم تتحرك السفينة إلا بعد عشرة أيام، وواجهت بعدئذ عواصف أخرجتها عن مسارها ودفعت بها بعيداً عن وجهتها، وتمكنت بعدئذ من عبور مضيق جبل طارق، ودخلت إلى البحر المتوسط. وتوقفت البعثة في مرسيليا ثم في جزيرة مالطا ومرّت بأرخبيل اليونان حتى انتهت إلى أزمير في تركيا، وركبت بعد ذلك مركباً تركياً عبر الدردنيل وبحر مرمرة إلى القسطنطينية وغادرت القسطنطينية في مركب تركي أيضاً في صفر ١١٧٥/أوائل سبتمبر ١٧٦١ إلى الإسكندرية، فأقامت فيها فترة ثم غادرتها إلى القاهرة التي وصلتها في ١٣ ربيع الثاني ١١٧٥/العاشر من نوفمبر ١٧٦١م. وزارت في مصر الأهرام وتجولت في عدد من المدن المصرية وفي صحراء سيناء، وقضت عاماً كاملاً في مصر درست فيه الكثير من مظاهر الحياة المصرية، ونقلت بعض النقوش الهيروغليفية، وغادرت القاهرة إلى السويس ضمن قافلة تحركت بهم في التاسع من صفر ٢٩/١١٧٦ أغسطس ١٧٦٢م.

وصف بعض هؤلاء الرحالة القافلة، كل بحسب ما رآه وأحسّه، وبقدر ما سمحت له به ثقافته الخاصة وقوّة تعبيره. ولا نستطيع أن نكوّن فكرة أقرب إلى الحقيقة عن تلك القافلة التي راحت تتلوى في الصحراء "كالدودة الخضراء... في خببها نحو تلك الكتلة الحمراء لقرص الشمس الذي بدا ساعتئذ كأنه يرتاح على أحد التلال المواجهة"، إلا بعد أن نقارن بين ما كتبه هذا وذاك. بالمقارنة فقط التي تعتمد على مناهج النقد التاريخي يستطيع المؤرخ أن يكتب عن قوافل الحجّ القادمة من مصر وغيرها من البلاد المسلمة، وعن تحركاتها والسرعة التي تسير بها، والمنازل التي تنزل بها، إضافة إلى أسلوب إدارتها ودراسة جوانب من الحياة الاجتماعية في الصحراء، وعادات بعض الحجاج وما إلى ذلك. يقول نيبور: إن القافلة ضمّت أربعمئة بعير، وكان هو الوحيد من أفراد البعثة الذي اختار أن يركب على هجين، بينما كان بقية طاقم البعثة كلهم على صهوات الجياد. ويقدّر فورسكال عدد إبل القافلة بعدّة آلاف، أمّا فون هافن فيقول: إنها تتراوح بين ألف وخمسمئة وألف وستمئة! فهل للمؤرخ – إذا أراد أن يعتمد هذه الرحلة مصدراً – أن يعتمد العدد الذي أورده نيبور لأنه أكثر المجموعة شعوراً بالمسؤولية، أم يعتمد فورسكال الرجل النشيط الذي لا يكلّ من العمل ولا يملّ، ولربما تمكن من إحصاء أعداد الإبل، أم فون هافن الكسول الذي ظفر – دون

المجموعة - في القاهرة بكل وسائل الراحة ما يجعله أقدر من الجميع على التقدير السليم؟ وفي الحقيقة، إن المؤرخ الجاد لن يعتبر الرحلة الغربية إلا مصدراً ثانوياً لا يأخذ بما ورد فيها إلا إذا أيّدته مصادر أخرى، ولا يمكن أي مؤرخ أن يضع قيمة الرحلة الأجنبية مصدرياً فوق قيمة أي من المذكرات الشخصية التي لا يمكن أن يعدّها المؤرخ مصدراً صحيحاً مهما بلغ شأن صاحبها إلا بعد أن يخضعها للنقد الجاد، وبعد التحرّي عن شخصية كاتب المذكرة، وهدفه من كتابتها. أما أعداد إبل القافلة الواردة عند هؤلاء الرحالة في هذا الشأن وغيره فلا يؤخذ بها أبداً ما لم تجتز النقد الباطني سلباً وإيجاباً. ولنأخذ من هؤلاء الرحالة مثلين أوضح من المثل الوارد أعلاه؛ يقول نيبور وهو يتحدث عن البدو: "إن جيشاً من ألف من البدو يعدّ نفسه مهزوماً إذا فقد في المعمعة ثمانية فقط من أفراده"، بينما يقول فارتيما: إن الحرس الذي كان هو ضمن أفراده قتل نحو ألف وخمسمئة من البدو الذين هاجموا قافلة الحجاج. وهنا يستطيع المؤرخ أن يصدق نيبور بعد النقد، لأن ما أورده تسانده شواهد أخرى. فنحن حين نقرأ على سبيل المثال مذكرات عبد العزيز بن سعود التي سجّلها عنه الريحاني، نجده يقول: إن البدو يعتمدون على الكرّ والفرّ، وإنهم لا يثبتون ساعة الهزيمة، أما فارتيما الذي برّر عدد قتلى البدو بعدم معرفتهم بفنون الحرب وبافتقارهم إلى السلاح الجيد، فلا يمكن المؤرخ أن يعتمده وإن أتى بذرائع إضافية. فحين نخضع عدد القتلى عنده للنقد الباطني، السلبي منه والإيجابي، نجد أنه لم يتحرَّ الدقّة. لنبدأ النقد بالتساؤل: كم كان عدد المهاجمين إذا كان عدد القتلى بهذا الحجم؟ وكم يبلغ عدد نفوس تلك القبيلة المهاجمة مجتمعة إذا كانت تستطيع أن ترمي بهذا العدد من أبنائها للسلب والنهب؟ وهل كانت الدولة ذات السيادة غافلة عمّا يمكن أن تقوم به قبيلة بهذا القدر من الأهمية، ولم تعمل على استرضائها بالمال كما تفعل في الغالب، أو ترسل عليها جيشاً كبيراً بدلاً من ستين حارساً مرافقين للقافلة؟ وندخل بعدئذ في دوائر أخرى من النقد تدور حول شخصية الراوي والتحرّي عن هدفها من إثبات المعلومة. هل أراد فارتيما أن يقول للجهات التي أرسلته للتحرّي عن أحوال العرب: إنهم كُثر ولكنهم كبغاث الطير لا حول لهم ولا طول، فلا تخشوهم؟ وهكذا تثور في ذهن المؤرخ منا ألف هل وأكثر، قبل أن يعتمد قولاً لرحالة غربي مصدراً لصياغة تاريخ قومه. ونحن إذ نحتار في هذا التفاوت الكبير في عدد إبل القافلة عند كل من نيبور وفورسكال وفون هافن، وفي أعداد نفوس الحجاج في القافلة، لا نستطيع اعتماد أي منهم ما لم تؤكده بعد النقد شواهد أخرى، عثمانية كانت أو غيرها. وعلينا أيضاً أن نتردد كثيراً في قبول شهادات هؤلاء، فإذا كانوا غير دقيقين في إثبات ما وعوه بعيونهم فكيف لهم أن يكونوا دقيقين في ما يعونه بعيون ثقافتهم؟!

الرحلة إلى جدّة

ركبت البعثة البحر الأحمر من السويس إلى جدّة وقد رسا مركبها في عدد من الموانئ، نذكر منها ينبع التي يصفها نيبور بأنها مدينة مسوّرة ذات ميناء، ويضيف: "ولمّا كنّا لم نرَ منذ أن فارقنا الطور أي أثر لمسكن مأهول، فقد كانت سعادتنا بالغة حينما أبصرنا مساكن ينبع...".
وقد غادر المركب في ينبع عدداً من الحجاج الذين أرادوا زيارة المسجد النبوي قبل أداء الحجّ.
وغادر المركب ينبع بعد أن قضى فيها يوماً كاملاً، ثم توغل في البحر تجنّباً للشعاب المرجانية المنتشرة على طول الساحل، واجتاز منطقة مستورة ثم راس وردان. وهنا يتحفنا نيبور ببعض معلومات مغلوطة عن الإحرام إذ يقول: "إن على الحجاج الذين يؤدون الحجّ أول مرّة أن يلبسوا ملابس الإحرام ولا يضعوها إلا بعد أن يزوروا الكعبة!". ويضيف أن عدداً كبيراً من الحجاج لم يلبسوا ملابس الإحرام، لأنها لا تناسبهم، "إلا أن هناك آخرين من المسلمين أكثر تقوى لبسوا ملابس الإحرام رغم أنهم أدّوا الحجّ قبل ذلك"! ويتحدث نيبور بعدئذ عن نشوء فكرة الإحرام ويكيل النقد لهذه الشعيرة الدينية.

في الحادي عشر من ربيع الثاني ١١٧٦/التاسع والعشرين من أكتوبر ١٧٦٢ وصل المركب الذي يقلّ البعثة إلى جدّة، ولامست أقدام أفرادها الأرض العربية التي كان الملك الدنماركي – راعي هذه البعثة – يعتقد أنها لم تتغيّر بتغيّر الزمان. يقول نيبور في كتابه **وصف شبه الجزيرة العربية ودول أخرى في الشرق**، الذي نشر أولاً بالألمانية، عن قدم الجزيرة العربية وإنسانها الذي يعيش خارج دائرة التاريخ الحي...

"إن كان لأمة أن تدّعي عراقة تضرب بجذورها في أعماق القدم، أو أن تدّعي سلوكيات موغلة في البساطة اللامتناهية، فتلك أمّة العرب. فحين يظهر المرء في أوساطهم فجأة، فإنه لن يتمكن من مغالبة ذلك الإحساس الغامر الذي ينتابه من أنه سافر إلى الوراء عكس الزمن حتى بلغ وقت الفيضان (نوح)، ولن يستطيع أن يقاوم ذلك الشعور الجانح المفضي إلى الخيال فيحسّ بأنه يعيش مع آباء الجنس البشري المذكورين في التوراة الذين كان لمغامراتهم في تلك الفترة من طفولة الإنسانية ما يثير في قلوبنا الشجن. أما اللغة التي يتحدثون بها فهي تكمّل هذه الصورة؛ فهي لغة موروثة عن أيام تاهت في مجاهل الزمن حتى لا تكاد ذاكرة التاريخ أن تعيها".

هذه هي الصورة التي رأى بها كارستين نيبور شبه الجزيرة العربية. والرجل – في ما نعرف – ليس مرائياً يريد أن يقول لراعي البعثة ما يودّ سماعه، و لم يتعمّد الكذب رغم أن ما أثبته هنا يجافي واقع الحال ولا يتّسق بحال مع الحقائق المجردة ولا مع العملية التي أشير إلى أنها الهدف الذي سعت الرحلة بأهدافها لبلوغه؛ فقد زار نيبور في رحلته هذه عدّة حواضر

عربية - بما فيها جدّة - كانت أبلغ تحضّراً من العديد من مدن أوروبا. و لم يكن نيبور يسجل هذا الانطباع عن البادية العربية، إذ نؤكد أنه - حكماً بالمناطق التي زارها - لم يعش أبداً في أوساط قبيلة بدوية، ولكنه ربما مرّ بأرض عدد من القبائل نصف المتحضرة. ولا يزيد ما أورده هنا على ضرب من التحيز الثقافي غير المقصود؛ فقد كان الرجل - وهو ابن ثقافته حقاً - يتناغم مع الفكر الأوروبي السائد الذي لم يكن يرى في الشرق عامة إلا البدائي والغريب، وما كان يستطيع - وإن اجتهد - أن يرى شبه الجزيرة العربية صورة أخرى مغايرة في ذلك الوقت الذي تعالت في أوروبا فكرة القومية التي أكّدت بدورها الروح العنصرية والادّعاء بتفوّق إنسان الشمال على من عداه من الخلق. كان نيبور - وهو فلاح جلف بحسب شهادة بعض زملائه في البعثة - من مواليد قرية أوروبية أقل تحضراً من كثير من القرى العربية التي زارها، وكانت أسرته تعيش في أمية لا تعرف من الحياة إلا أنها مطر وضباب وجهد فلاحة لا يصيبون منه حتى قطرات عرق تبلل أجسادهم. أسرة عاشت كما عاش أجدادها منذ آلاف السنين، لم يسمع أيّ من أفرادها باليمن السعيد الذي خرج ابنهم لاستكشافه. ظلّوا يعيشون في فقر مدقع مقيم في منازل متهدمة يغشاها ضباب البحر، ويلفّ في متاهاته عجائز بلا أسنان، وأطفالاً يضيع سعالهم في عبابه. أما أبقارهم في المستنقعات فتراها مبلّلة ساهمة تتطلع في حزن كأنها تأسف مثل أصحابها لجهلها بحقائق العالم من حولها. يستطيع رجل هذه حاله وحال أهله أن يُحدِّث عن عراقة شعب الجزيرة العربية، ولكنه لا يستطيع إلا متحيزاً - في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه العديد من المناطق الأوروبية، وخاصة الريف، قد انعتقت بعد من قيود العصور الوسطى - أن يتهم المنطقة بالبدائي والغريب، فلن يكون العرب في أي قرية عربية بأسوأ حالاً من أهل نجع نيبور، ولكنه التعصّب الذي يُعمي ويصمّ!

استراح نيبور ورفاقه في مدينة جدّة، ووجدوا هناك استقبالاً طيّباً. وعبّر عن دهشته لهذا التسامح الذي لم يكن يتوقعه في ذلك الميناء الذي يقود إلى أكثر الأماكن الإسلامية قدسية، خاصة بعد الإساءة التي وجدتها البعثة من أحد عرب ينبع. يقول نيبور:

> تدافع المسافرون، كلّ منهم يسعى جهده لمغادرة المركب مع متاعه بأسرع ما يتهيّأ له، وعمل الحجاج بقدر ما يستطيعون لإخفاء ما يحملونه عن أعين موظفي الجمارك حتى لا يؤدوا عنها الرسوم التي تبلغ ٢,٥٪. وحين يعثر الموظف على ما يخبّئه المسافر يكتفي بتقريعه، أما في العديد من الموانئ العثمانية الأخرى فإنهم يضاعفون عليه الرسوم.

ويقول:

> إنهم كانوا يحملون معهم كل اعتمادات الرحلة عملة بندقية. فرُحنا ندبّر الأمر

ونقلبه مراراً حتى استقرّ رأينا بعد تداول أن نخبّئ أموالنا في قعر صندوق الأدوية، واستبقينا مئتي بندقي فقط لإعلانها لرجال الجمارك. ونجحت خطتنا، إذ لم يعمل أحد على تقليب العقاقير. "ويعتذر نيبور عن هذا السلوك بأنهم ما كانوا يتهربون من أداء رسوم الجمارك"، ولكن "خوفاً من أن يسرقنا العرب"!.

وجدنا أنفسنا في جدّة غير مروّعين، فأهلها معتادون رؤية التجار النصارى في ملابسهم الأوروبية، فلم يُثر مظهرنا الذي لا يبدو غريباً عليهم أي اهتمام. ذهبنا إلى المقهى ودخلنا الأسواق من دون أن يجد أي منا أي إساءة، ولكننا عرفنا أن غير المسلمين لا يسمح لهم باجتياز الأبواب التي تقود إلى مكّة المكرّمة أو الطرق التي تقود إليها.

يصف نيبور سور جدّة المهترئ، الذي يقوم على الجانب الجنوبي من المدينة والذي كان قد بني بأمر من السلطان الغوري في عام ١٥١٤م لحمايتها من الغزو البرتغالي، وثلماته التي أصبحت تجعل الدخول عبره إلى المدينة أو الخروج منها أمراً ميسوراً. ويصف مجموعة المدافع البالية التي تحرس الطرف الأقصى من الميناء ويرى أنها ليست بذات خطر، أما تلك التي تقوم على الساحة الواقعة قرب منزل الباشا فهي التي تحمي السفن التي تزور الميناء. ويضيف أن عدداً من الأبراج تحرس الطريق المؤدية إلى مكة المكرّمة التي تقع على مسافة يوم كامل من جدّة.

حملت البعثة عدداً من خطابات التوصية لباشا جدّة ولتاجريْن من تجارها أيضاً، ولكنهم لم يفيدوا إلا من خطاب توصية كان قد أمدّهم به شيخ أزهري رقيق الحال عرفوه في القاهرة وتوثقت علاقته بهم، وهو رجل - كما يصفه نيبور - "جدير بالثقة لا يؤمن بالدجل ويعدّ نفسه صديقاً للجنس البشري كله".

كتب نيبور عن حكومة جدّة وعن تجارتها واقتصادها، وأشار إلى أنها تعتبر ميناء عبور "ترانست" للتجارة بين مصر والهند، إذ تنتهي مراكب السويس إلى جدّة التي تفد إليها مراكب الهند، فيجري التبادل بين المجموعتين. وقال نيبور: إن تجارة جدّة تشمل الحرير المستورد من الهند، والقصدير والزئبق والشمع المستورد من أوروبا. وتحدث في جدّة عن ملابس السكان، وأشار إلى أن الأعيان يتزيون بالزي نفسه الذي يرتديه الأتراك في القاهرة، وذكر أن نساء جدّة منقبات. وقد أثار الجدل الذي ساد حتى أوساط الدوائر العليا في جدّة انتباه نيبور، فكتب عنه ما قد يثير اهتمامنا هنا. قال: إن أخبار وصول أوروبيين بينهم فلكي إلى جدّة قد طارت حتى وصلت إلى مكّة المكرّمة، وكان أخو الشريف القائم بالأمر في جدّة يتقدم بجيشه لمهاجمة البلدة معارضاً أخاه. ولما كان "المسلمون" لا يفرّقون بين الفلكيين والمنجمين، فقد أرسل الشريف الصائغ الإغريقي الجنسية الذي كان يتعامل معه نيبور يطلب إليه أن ينظر إن كان سيبقى مسيطراً على الحكم أم انّ أخاه سيغتصبه منه. وأجاب نيبور بأنه لا

يعرف ما يخبّئه الغد، لأنه يعمل بالفلك الذي يُعنى بتطوير فنون الملاحة والإبحار فقط، ولا يعرف من أخبار الغيب شيئاً. غير أن فون هافن تدخل ليقول لذلك الإغريقي: إن الرابح في هذه الحرب هو أكثر الأخوين شبهاً بالحسن بن علي، رضي الله عنهما، ومن حسن الحظ – كما يقول نيبور – احتفظ الشريف بموقعه في الحكم. وحكى نيبور قصة أخرى فحواها أن رجلاً من أعيان جدّة جاءه يطلب إليه أن يخبره باسم اللص الذي سرق منه مئتي بندقي فاعتذر له نيبور بالعذر ذاته، فما كان من ذلك الرجل إلا أن استدعى شيخاً مشهوراً كان يعمل بالفلك فانبرى يعالج الأمر، فجمع كافة المتهمين وجعل في فم كل منهم ورقة صغيرة، وطلب إليهم ابتلاعها بعد أن أفهمهم أن البريء منهم سيبتلعها فوراً، أما اللصّ فسيغصّ بها ويختنق. وحين طلب الرجل إلى المتهمين بعد هنيهة أن يفتحوا أفواههم كانوا كلهم قد ابتلعوا الأوراق إلا واحداً منهم اضطر إلى الاعتراف بجريرته.

ذكر نيبور مشهداً طريفاً رآه في جدّة حين كان يتجول بالقرب من الميناء عن أحد صائدي البط البريّ، قال: إن ذلك الصياد وضع على رأسه بعضاً من أعشاب البحر، وأخذ يتقدم في تؤدة تجاه الطائر الجاثم على الأرض الذي لم يروّعه منظر الأعشاب البرية فلم يتحرك حتى فاجأه الرجل وأمسك به من رجله.

الأشراف

يقول نيبور إن الأشراف هم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعود نسبه إلى أشرف القبائل العربية، ويرى أنه صلى الله عليه وسلم كان قائدا فذّاً "ولا تزال مناطق واسعة من الشرق تعتقد في نبوته". ونرى – من جانبنا – أن الحيدة التي توخّاها هذا الرحالة في كثير من الأحيان لم تكن لتسعفه حين يتصل الأمر بالإسلام، وبخاصة إذا اتصل الأمر بالنبي الكريم، ذلك لأن التهوس والتعصب يعمي ويصم. وليس بمستغرب أن يأتي، مثله ومثل سائر الرحالة الغربيين، بمثل هذه الترّهات ويكذب ما يشاهده بأم عينه من وفرة أتباع النبي في هذه المناطق التي جابها فيلغي عقله ويتبع مشاعره فيضل. ويسترسل نيبور في حديثه عن الأشراف وما يلقونه من تجلّة من سائر المسلمين، ويورد حديث الكساء ويقول إن الأشراف هم أبناء علي رضي الله عنه، واللقب مقصور عليهم فقط، ولكنهم قد يُعرفون أحياناً بالأمراء أو بالسادة. ويستدرك فيقول إنهم يعرفون في الحجاز بالشرفاء وبالسادة أيضاً. ويُقدم تفسيراً لا نعرف له مصدراً حين يقول إن لفظ الشريف غالباً ما يطلق على من هو حسني يعمل في الجندية، أما السيد فتدلّ على الحسيني العامل بالعلم وبالتجارة. ويضيف أن كليهما يُعرفان في بعض مناطق العالم الإسلامي بالمولى. ويحدثنا عن التقدير والتبجيل الذي يجدونه، فحتى إذا دخل أحدهم الحرب

فلن يجرؤ أحد على قتله، بل إن اللصوص لا يمكنهم السطو على منزله لهيبته، ولن تستطيع السلطات الحكومية أن تحكم عليه بالإعدام مهما بلغت جريرته، فالسجن هو أشدّ حكم قد يصدر على الشريف. ويضيف أن الجنح التي يرتكبها الشريف لا تُحال على المحاكم العامة، بل على نقيب الأشراف. ويتحدث عن أشراف مكة – أحفاد الحسن بن علي – الذين لم يسبق لهم أن ظفروا بالحكم كائمة أو خلفاء في البلاد الإسلامية، غير أن السيادة على أكثر مدن الحجاز ظلّت أبداً مقصورة عليهم، وأفاد بأن هؤلاء الأشراف قد تفرعوا عدّة فروع، منهم أسرة علي أبانمي الذين قدّر أعدادهم على أيامه بثلاثمئة شريف، وقال: إنهم يتمتعون بولاية "عرش" مكة المكرّمة، وأنهم بدورهم قد تفرّعوا إلى أسر أصغر: ذوي زيد، وذوي بركات، وهم يتبادلون الحكم في المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وقد يستقل البعض منهم بالمدينة فيكوّنون بذلك دولتين منفصلتين. ويرى نيبور أن السلطان العثماني لا يهتم بالمنازعات التي تثور بين أفراد هذه العائلة للظفر بالحكم، بل يبدو أنه يؤجّجها أحياناً حتى يضعف من شأنهم. ولمّا كانت خلافة الحكم لا يحددها قانون ما، فإن كل الأشراف يتطلعون إلى أن يصبحوا حكاماً. وقد أسهم التدخل العثماني في عدم استقرار الحكم؛ فالموظفون الأتراك يثيرون المؤامرات بما يجعل الشريف الحاكم في موقف ضعيف، وعادة ما يفقد كرسي الحكم بثورات أهله الأقربين، وكثيراً ما يفقد الشريف سلطته لتؤول إلى عمّه، وقد يفقد الأخير موقعه لابن أخيه وهكذا دواليك. وربما خرج الحكم من أيدي الأقرباء المتصارعين إلى فرع بعيد من الأسرة أحياناً. وأشار نيبور إلى أن شريف مكة في فترة زيارته كان قد تولى الحكم منذ أربع عشرة سنة قضاها في حرب مستمرة مع جيرانه العرب ومع عشيرته الأقربين. ويسترسل نيبور فيسرد طرفاً من تاريخ الأشراف اعتباراً من عهد الشريف سعيد بن سعد المتوفى في ١٥ المحرم ١١٢٩/٢٩ ديسمبر ١٧١٦، ويحكي عن تناحرهم الدائم، ويرى أنهم لا يرعون حرمة للبيت ولا للشهر الحرام، ويذهب إلى اتهامهم بعدم الورع وبأنهم جشعون يعملون على زيادة ثرائهم رغم الريع الذي تدرّه عليهم الأوقاف المتعددة المنتشرة على امتداد الأرض العثمانية. ويضيف هذا الرحالة أن شريف مكة يقاسم باشا جدّة رسوم الجمارك كما يفرض رسوماً باهظة على الحجاج الشيعة إضافة إلى الهدايا الثمينة التي يتحفه بها الأمراء الذين يفدون في المواسم. ويسترسل فيقول إن سلاطين المغول كانوا يرسلون مخصصات سنوية للأشراف. وكان حاكم سورات يبعث بما يقدر بحوالى ستين ألف ربية في كل عام إلى شريف مكّة، ولكن انقطع هذا العطاء بعد تغلّب الإنجليز على الهند وسيطرتهم على تجارتها، ما أعجز ذلك الحاكم عن الأداء، و لم تُفد الشريف شكواه إلى الحاكم المغولي. وذهب الشريف بعيداً حين حجز مركباً إنجليزياً في ميناء جدّة وهدّد بعدم إطلاق سراحه إلا بعد أن يُؤدّى له دين سورات، ولكن هيهات له ذلك، فقد تمكن قائد السفينة بالتفاهم مع باشا جدّة من أن يبحر بها عائداً إلى الهند.

يكتب نيبور عن التدخل العثماني في تولّي الأشراف الحكم، فيشير إلى ما قام به باشا سوريا حين عزل أحد الأشراف، وعيّن أخاه بدلاً منه "ولكن حينما عاد الباشا مع قافلة الحجيج اضطر الشريف المعيّن إلى أن يتنحّى لعمّه". ويأخذ نيبور في سرد الخلافات بين الأشراف التي لا نريد لها أن تستغرقنا هنا، ولكننا نشير إلى حقيقة أوردها تؤيدها المصادر الأخرى، وهي ملاحظته أن الأشراف لا يراعون حرمة مكة المكرّمة، ويورد أن الشريعة الإسلامية تمنع حمل السلاح في تلك البلدة الحرام، وأشار إلى قتال جرى فيها كانت المدافع فيه تقذف قصر الشريف مسعد فتمرّ القذائف "فوق البناء المقدس". ويلاحظ نيبور أن للأشراف سلطة زمنية، ولكنهم لا يتمتعون بسلطات روحية، فتلك يديرها الفقهاء من المذاهب المختلفة الذين يسكنون في مكة المكرّمة. ويلاحظ أيضاً أن سلطة الأشراف الزمنية تشمل مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وينبع والطائف وجدّة وقنفدة وحايل (Hali) وثلاث عشرة مدينة حجازية أخرى أقل شأناً من المذكورة آنفاً، وأشار إلى أن المسلمين الأصوليين (الكاثوليك كما عبّر عنهم) يتهمون "أصولية" الأشراف ولا يثقون بهم، ويعتقدون أنهم مرتبطون سرّاً بالزيدية. فهم، في الظاهر، على مذهب أبي حنيفة النعمان، شأنهم شأن الأتراك، ولكنهم زيود في حقيقة أمرهم.

يرى نيبور أن العرب، ما عدا الأشراف وبعض الشيوخ البارزين، لا يهتمون بحفظ أنسابهم! ونقول إننا لا نعرف من اهتم بذلك سواهم. ويستطرد قائلاً إن بعضاً منهم قد لا يعرف اسم أبيه ويكتفي بأن يُكنّى باسم أكبر أبنائه أو ربما يُعرَف بمنصبه أو ببلده أو بمذهبه أو نحو ذلك. يقال مثلاً أبو صالح علي بن محمد البصري. ويضيف بعض الفقهاء إلى اسمه المذهب الذي ينتمي إليه أو ألقاب الشرف التي حصل عليها أو المناصب التي تبوّأها، كذلك فإنهم لا يتكنّون باسم البنت، حتى الأم تُكنّى باسم ابنها الأكبر. ويرى أنهم في هذا يختلفون عن الأتراك، فالرجل الذي اكتروا منه البغال التي حملتهم من حلب إلى قونية كان اسمه صالحاً وكنيته فاطمة أوغلي، أي ابن فاطمة. وينتهي نيبور إلى القول إنه عرف أن أياً من الرجال المحترمين لا ينسب نفسه إلى امرأة أبداً. ويضيف أن الشريف قد يتزوج أمة ولا ينقص ذلك من شرف أبنائه منها. ويدّعي أن أحدهم قال له إن الذهب يظلّ ذهباً لا يضيره إن وضع في كيس من الخيش أو المخمل. ويقول إن الأشراف يلبسون العمامة الخضراء ولكنها ليست مقصورة عليهم ولا يحرّمون على العامة أن يعتمّوا بها، ويضيف أنه يعرف نصرانياً كان يعمل خادماً في القسطنطينية تحوّل إلى الإسلام واتخذ له عمامة خضراء. ويفيد نيبور بأن سفن الأشراف تجري في البحر تحت الراية الخضراء.

يقول نيبور إن لفظ الشريف لا يطلق إلا على نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الألفاظ الأخرى مثل لفظتي شيخ أو أمير فيمكن أن تطلق على من سواهم. فلفظ الشيخ قد يدلّ على أستاذ في الجامعة أو على معلم الكتّاب أو على أي من موظفي المساجد من أئمة أو مؤذنين،

أوعلى أولياء الله الصالحين وذرياتهم. ويدل اللفظ على المشعوذين أيضاً - فهم كما يظن البعض - يتمتعون بنوع من الإلهام الإلهي. ويُطلق اللقب أيضاً على رؤساء القبائل الذين يمكن أن يطلق عليهم لقب أمير أيضاً، كما يُطلق لقب الشيخ على عمدة المدينة أو القرية، ويعرف بعض رؤساء الجاليات اليهودية في صنعاء ومسقط بالشيوخ. أما الأمير فقد يكون شيخاً أو غير ذلك، فقادة القوافل عبر الصحراء أمراء، وأمير قافلة الحجّ المصري الذي يحمل البكوية، وهو جورجي أو مجري من أبوين نصرانيين يعرف بالأمير، ومثله حاكم اللحية وهو زنجي أسود.

مكّة المكرّمة

يحدثنا نيبور عن مكّة التي تقع في وادٍ غير ذي زرع، هي قائظة الحرارة صيفاً، ويقال إن بعضهم يلقى حتفه فيها لجوّها الذي تَسيطر عليه رياح سامة لافحة تُسمّى رياح السموم. وقد اعتاد أهل مكّة رش شوارعها بالماء لتلطيف الجوِ، كما اعتادوا إغلاق نوافذ بيوتهم وأبوابها النهار كله لئلاّ يدخلها الحر. ويفيد بأن في مكّة عدداً من المباني الضخمة الفخمة، وبأن سوقها نشطة تفد إليها السلع من الهند وسوريا ومصر وكافة مدن الإمبراطورية العثمانية حتى غدت مخزناً كبيراً للبضائع المختلفة، وأضاف أن الحجاج يعملون بدورهم على إثراء الحركة التجارية فيها.

يقول هذا الرحالة: إن حبّ الاستطلاع كان يدفعه لزيارة مكّة، ويردّه عنها أن النصارى محظور عليهم دخولها. وبعد أن يقدم رأيه في ذلك الحظر ويفلسفه على طريقته يقول: إن المسلمين يعتقدون أن هناك قوى ما وراء الطبيعة تشارك في صدّ غير المسلمين عن دخول مكّة، ويحكي عن إحدى المتواترات في هذا الصدد، كذلك ذكر أن طبيباً فرنسياً كان مرافقاً لأمير الحجّ اضطر إلى إعلان إسلامه ليدخل مكّة، ولكن لم يمض عليه وقت حتى أجروا له عملية الختان.

قدّم نيبور وصفاً للكعبة المشرفة ذكر أنه حصل عليه من بعض من زارها، وقال: إنه استهدى أيضاً بالرسوم الخاصة بالبيت العتيق التي كثيراً ما يشتريها الحجاج، وتحدث عن تاريخ الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام بيتاً لصلاته والتي هي "أكثر مباني مكة أهمية". ويقول إن المسلمين حيث كانوا يولّون وجوههم شطر هذا البيت خمس مرات في اليوم والليلة. وأفاد نيبور بأن للكعبة المشرفة باباً على علوّ فلا يمكن الدخول إلى جوفها إلا عن طريق درج خشبي متحرك، وأنه لا يُفتح عادة إلا في يومين فقط كل سنة، ولا يسمح بدخولها إلا للعاملين في خدمة الكعبة وبعض الأعيان وذوي الشأن. ويحدثنا نيبور أيضاً عن الحجر الأسود المثبت على جدار الكعبة والذي يجب على كل من يطوف بها أن يقبله

أو يستلمه بيده أو يشير إليه. ونقل نيبور عن آخرين أن الحجر الأسود كان ناصع البياض يشعّ نوره ساطعاً، حتى إن ضوءه كان يُرى على مسيرة أربعة أيام، "لكن الحجر راح يبكي وينتحب يندب آثام البشر، وما زال ذلك دأبه حتى استحال لونه إلى السواد!". ويصف هذا الرحالة كسوة الكعبة المشرفة التي تُخاط في القاهرة وتُطرّز بالآيات القرآنية بسلوك الذهب، وقال إنها تُستبدل في كل سنة على نفقة السلطان العثماني. كذلك تحدث عن بئر زمزم ذات المياه الحلوة "التي يقدسها المسلمون"، ووصف المبنى الذي يقوم فوقها، وسرد قصة هاجر ووليدها إسماعيل عليه السلام.

وصف نيبور الأماكن الأخرى في الحرم المكي وقال إن له تسعة وثلاثين باباً أهمها باب السلام الذي يجب على من يفد إلى الحرم للمرّة الأولى أن يدلف عبره، وإنه يضمّ أربعة مساجد خاصة بالمذاهب السنية الأربعة، كذلك يضمّ مقام إبراهيم والحجر الإسماعيلي والحجر الإبراهيمي، وأشار إلى أن الحجرين لا يظفران باهتمام الحجاج، ووصف ردهات الحرم التي تقي الحجاج لفحات الحر.

من طرائف نيبور نفيه بشدة "ما يدّعيه الأوروبيون" من أن مؤذن الحرم يتعمد أن يهتك من فوق منارة المسجد ستر الحرائر الموجودات على أسطح منازلهن التي تقع في مجاورة الحرم. ويدفع عنهم الاتهام أنهم إما عميان أو مسنّون، فالبصر لا يُسعف هذا ولا ذاك، وأنهم لم يمتهنوا رفع الأذان إلا لأنها مهنة أجلب للثراء من غيرها، وهي - على ذلك - مهنة يحرص الأبناء على وراثتها من الآباء. ويفيد نيبور بأن مؤذن المذهب الشافعي هو المُقدّم، وهو الذي يعتلي المنارة الأعلى، يرقب حركة الشمس فيرفع الأذان لوقته ثم يتبعه الآخرون. ولعلنا هنا نستطيع أن نقول إن من حسنات الوهابيين حين آل إليهم الحرم توحيدهم الأذان فيه والصلاة خلف إمام واحد، وإلا كان يمكن أن نرى اختلافنا مجسّداً في أبسط عباداتنا وأجلها في أقدس أماكن عبادتنا.

أشار نيبور إلى أن الحجّ فريضة على كل مسلم مرّة في العمر، وادّعى أن المسلمين الذين لا يستطيعون تحمل مشاقّ رحلة بعيدة مثل هذه يؤجّرون من يحجّ عنهم، وأن الحاج المؤجر لا يمكنه أن يحجّ عن أكثر من شخص واحد، وأن عليه أن يحصل على صك من إمام مكة يؤكد فيه أن المعني قد أدى الشعائر كلها نيابة عن فلان دونما اعتبار إن كان هذا الأخير حيّاً أم ميتاً؛ لأن المسلم الذي "تجاهل" هذه الفريضة في حياته ومات من دون أن يؤديها فإن من الواجب أن تُؤدّى عنه ويلقى ثوابها. ويدّعي نيبور أنه قد قابل بعض الحجاج الذين يمتهنون مهنة الحجّ بالإيجار، ووجد أن مؤجريهم لا يدفعون لهم ما يسدّ نفقاتهم، فيضطرون إلى سؤال الناس الصدقات. ولا نريد بطبيعة الحال أن نناقش هذا الهراء الذي لا يخلو كتاب من كتب الرحالة من مثله، ولكن لنا أن نتساءل: لماذا يمتهن الحجاج المؤجرون مهنة خاسرة يتجشمون من أجلها

صعاباً كثيرة ويريقون ماء وجوههم بذلّ السؤال؟!

يقول نيبور إن الشخص الذي يعود بعد أداء الفريضة سيحمل لقب "حاجي" وتُسبغ عليه العديد من الامتيازات، ويجعله ذلك مكان تقدير واحترام، ويستطرد ليقول: إن الذين يحملون هذا اللقب قلّة في أوساط المسلمين ما يدلّ على أنهم يفرِّطون في أداء هذه الفريضة ويتقاعسون عنها. ويتهم نيبور نصارى الشرق بأنهم ينافسون مسلميه في التسابق على الحصول على لقب "حاجي" أو "مقدسي"، وإن على من يرغب منهم في حيازة هذا اللقب أن يقضي موسماً كاملاً في بيت المقدس ويؤدي كافة طقوس "الأسبوع المقدس".

المدينة المنوّرة

لم تظفر المدينة من نيبور بالقدر ذاته الذي ظفرت به مكّة من هذا الرحالة. قال إنها تقع على مسيرة يوم من ينبع، ووصف أسوارها المتعرجة غير المتناسقة، وتحدث عن إدارة المدينة التي كان يتولاها في تلك الفترة شريف من ذوي بركات، وأشار إلى أن المسلمين "يوقرون" قبر نبيّهم، ولكن ليس هناك "قانون" شرعي يجبرهم على زيارته وأداء شعائر عنده. ولكن لمّا كانت قافلة سوريا تمرّ بالضرورة بالقرب من المدينة، ترى الحجاج يعرجون لزيارة "قبر النبي" عليه الصلاة والسلام. وبعد ذلك يصف المسجد النبوي ومكان القبر الطاهر في ركن من أركانه لئلا يستقبل المسلمون القبر الشريف في صلاتهم. ويسخر نيبور من الفكرة "الرائجة في أوروبا" من أن" تابوت" الرسول صلى الله عليه وسلم معلّق في الهواء بمغناطيسات كبيرة! وينتهي إلى أن قبره صلى الله عليه وسلم الطاهر يتوسط قبرين آخريْن للخليفتين الأول والثاني، وأن هناك مكاناً خالياً ليدفن فيه المسيح الذي يعتقد المسلمون بظهوره قبل يوم القيامة ليُدفن حين يموت إلى جوار الرسول. ويصف نيبور الكساء الأخضر المطرز بخيوط الذهب الذي يقوم على القبر الشريف، ويفيد بأن" الكسوة "تصنع في دمشق وتُستبدل كل سبع سنوات، حيث يصادف وقوع عيد الأضحى يوم الجمعة، كذلك يمكن أن يستبدل الكساء عندما يتولى سلطان جديد الحكم في القسطنطينية فيجعل ذلك من القربات. يقول نيبور إن في الحرم المدني جملة من الكنوز والموجودات الثمينة التي أهداها إلى المسجد السلاطين والأثرياء في العالم الإسلامي بهدف تسخير هذه الأموال لخدمة السلطان إذا ما خاض حرباً ضدّ الكفار. فإذا كان هذا هو الغرض فعلاً من تكديس الأموال في المسجد النبوي، فلا نرى من جانبنا معنى للضجة الهوجاء التي أثارها البعض حين استولى أحد أمراء الوهابيين في الدولة السعودية القديمة عليها لتوحيد شبه الجزيرة العربية وجمع شملها على كلمة سواء. هذا إضافة إلى أن تلك الأموال التي لا ضير من أن نعدّها وقفاً لم تكن في

خزائن مغلقة، بل كانت معروضة، ما استدعى أحد هؤلاء الرحالة الأجانب وصف هذا المكان الطاهر بالمتحف.

يمكن أن نخلص إلى أن ما كتبه نيبور عن الأماكن المقدسة لا يضيف كثيراً إلى ما رواه فارتيما الذي كان نيبور على علم بما كتب في هذا الصدد. وعلى الجملة نستطيع القول: إن كتاب نيبور لن يقدّم للمؤرخ العربي الذي يكتب عن الحجاز في تلك الفترة شيئاً ملموساً.

قوافل الحجيج

يتجمع الحجاج في عواصم معينة لتنطلق جموعهم في قافلة في دروب الحجاز؛ فهناك قافلة دمشق التي يقوم على قيادتها باشا من ذوي الثلاثة طوغات، وهي خاصة بحجاج المناطق الشمالية، وهناك قافلة مصر التي تنطلق من القاهرة بقيادة أحد البكوات تسير في إثرها بفارق يوم أو اثنين قافلة المغاربة. وتلتقي قافلة الحجّ المصرية مع قافلة بغداد التي يقودها قائد يعيّنه باشا بغداد قبل بضعة أيام من وصولهما إلى مكة المكرّمة. وتضمّ القافلة الأخيرة إضافة إلى حجاج العراق عدداً غفيراً من الحجيج الفارسي. ويأخذ نيبور في تعداد القوافل الأخرى الأقل صيتاً، فيذكر قافلة الأحساء والبحرين التي تمرّ عبر نجد، قوامها الفقراء والمتسوّلون، إذ يلتحق الأثرياء بقافلة بغداد، و"لكن الرسوم التي تدفعها هذه القافلة عبر نجد تفوق ما تدفعه أيّ من القوافل الأخرى العابرة للحجاز". وهناك أيضاً قافلة اليمن وقافلة عمان وقوافل أخرى. ويشير إلى أن عدداً كبيراً من حجاج فارس وكذلك حجاج الهند وجاوة (إندونيسيا) وفجاج أخرى في الشرق يفدون عن طريق البحر إلى جدّة، ويفد إلى جدّة كذلك عدد كبير من حجاج النوبة وسودان غرب أفريقيا. ويورد نيبور أن قوافل الحجّ كثيراً ما تتعرض للنهب والسلب، خاصة من قبيلة حرب التي هي الأوفر نفراً بين قبائل الحجاز والأرحب داراً، تمتد ديارها ما بين مكّة والمدينة. ويرى هذا الرحالة أنها قبيلة نصف متحضّرة تسكن الخيام ولكنها تسكن المدن في بعض فصول السنة. ويمكن شيخ هذه القبيلة أن يحشد عشرين ألفاً من رجاله لشنّ الغارات.

بدو الحجاز

ينتقل نيبور ليحدثنا عن البدو عموماً، رغم أنه لم يعايشهم، ويصفهم بأنهم يقدسون الحرية ولا يأبهون للراحة ولا يسعون لجمع المال، خيامهم منتشرة في بوادٍ تستعصي سبلها على الغريب، ينفرون من سُكنى المدن حيث الهواء ملوث غير نقي ويفرّون إلى البادية حيث الهواء طلق

عليل بليل. ويتناول هذا الرحالة التقاليد البدوية في الحكم والسياسة فيقول إن شيوخ القبائل الصغيرة عادة ما يتحالفون مع شيوخ القبائل الأكبر، ويمكن الشيخ الذي تجتمع تحت حلفه مجموعة من القبائل أن يطلق اسمه على هذا التجمع فيصبح علماً عليه، ويناط بأسرته الشياخة عليه. ولا يشترط أن يكون الابن البكر وريثاً للشيخ، فهو يختار من أبنائه أشدّهم حزماً. ويُعدّ الشيخ حاكماً مطلقاً للقبيلة، ولكنه لا يعامل الشيوخ من أتباعه كرعايا، بل معاملة الشيوخ، فإذا وجد أيّ منهم إجحافاً في حقّه، فما عليه إلا أن يعتزله ويخرج مع قومه ليلتحق بحلف آخر. ويضيف نيبور أن القبائل التي تعيش حول مكّة ترسل في كل سنة عدداً من الإبل والغنم "خوّة" إلى شريف مكّة، وأن أشراف الحجاز يتدخلون أحياناً لتسوية الخلافات التي تنشأ في أسر الشيوخ، ولكنهم قد ينحازون إلى جانب ضدّ آخر. ويذهب نيبور إلى أن شيوخ القبائل هم سادة الصحراء ولن يستطيع أي كان أن يعبرها عنوة وقسراً إلا أن يدفع الخوّة، وذلك ما جعل الحكومة العثمانية تتهمهم بالتمرد ولا ترى فيهم إلا لصوصاً وقطّاع طرق. ويذهب نيبور إلى اتهام بعض أمراء قوافل الحجّ بعدم الأمانة، فهم يستبقون الخوّة لأنفسهم ولا يؤدّونها للقبائل، ويضيف أن أحد البكوات حصل على رسوم عبور القافلة كاملة من الخزينة السلطانية، ولكنه لم يؤدّ لهم إلا نصفها. وفي السنة التالية طالبت القبائل بالمتأخرات، فاعتذر حيث لم يُفده الاعتذار. ويُروى أن أحد قادة قافلة دمشق دعا شيوخ حرب إلى معسكره وغدر بهم وقطع رؤوسهم وأرسلها إلى القسطنطينية، مُدّعياً أنه قد انتصر على لصوص العرب وأنه لم يدفع رسوم العبور. وفي السنة القابلة هاجم العرب قافلة الحجّ وأعملوا فيها قتلاً وسلباً. وحكى نيبور عن أعرابي غنم كيساً من اللآلئ استبدلها في يافا بثوب واحد فقد كان يجهل قيمتها، وغنم آخر كيساً مماثلاً فظن اللؤلؤ أرزاً وطلب إلى زوجته طهيه. وعبثاً حاولت المسكينة فاستنفذت حطبها كله وظلّ اللؤلؤ قاسياً لم يستطع البدوي مضغه فتفله وألقى به على الأرض! ويستدرك نيبور فيقول إن هذا ربما كان تندراً على البدو، ففي أوروبا يؤلفون مثل هذه الطرائف يرمون بها الفلاح الأوروبي. فإذا جاز ذلك للأوروبي فلماذا لا يجوز للعربي؟ يتساءل نيبور. ويذهب هذا الرحالة بعيداً حين اتهم بعض الباشوات بالإيعاز للقبائل بالهجوم على القوافل.

يرى نيبور أن حروب البدو الخاطفة ليست دامية، فالبدو أقل خسة ممن سواهم "فهم أمثل لصوص العالم أخلاقاً". إن اللصوص عادة يقتلون من ينهبونه خوفاً من أن يصل إلى السلطات فتتعقبه، أما لصوص البدو فلا يقتلون من ينهبونه، خاصة إذا لم يقاوم. وفي هذه الحالة قد يستبقون له طعامه أو يتركون له ملابسه أو قد يقدمون له مساعدات أخرى كأن يرشدونه إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه أو قد يرافقونه أحياناً حماية له من مخاطر الصحراء الأخرى! وينتقد نيبور الأفكار السائدة أوروبا من أن العرب أمّة من النهّابين واللصوص وقطاع الطرق، ويقول "ليت كل لصوص العالم في أقطاره المختلفة يكتسبون شيئاً من مروءة لصوص العرب!".

ويضيف مستنكراً ما أورده بعض الرحالة من أن العرب يتّسمون بالرياء والاحتيال واللصوصية، فهناك قلّة من ذوي الطباع السيئة، ولكن لا يجوز تعميم هذا الحكم على أمّة بأسرها نتيجة لفساد تصرف عدد قليل من أفرادهم.

يُسمّي نيبور عدداً من قبائل الحجاز نذكر منها: عنزة وشمر وعتيبة التي يقول إنها تنتشر بين مكّة والطائف، وبني سليم التي تسكن إلى الجنوب من مكّة، وهديل التي تسكن في شمالها الغربي، ويام التي يقول إن ديارها تقع على الحدود بين الحجاز واليمن.

الرحلة إلى اليمن

غادرت البعثة جدّة يوم ٢٦ جمادى الأولى ١١٧٦/١٣ ديسمبر ١٧٦٢ على مركب كأنه البرميل – كما يصفه نيبور – لا يزيد طوله على سبع قامات أما عرضه فثلاث. وقد توجّست البعثة شرّاً وترددوا في السفر به أولاً، ولكن الأهلين طمأنوهم بألا يخشوا بأساً، فربّانها من أهل مسقط المشهود لهم في شؤون الملاحة والإبحار. ويصف نيبور ذلك الملاح العربي الذي لا تفارق الابتسامة شفتيه فيقول: كان عاري الجسد تقريباً لا يستره سوى مئزر لفّه حول الجزء الأعلى من فخذيه، أما بحارته التسعة فكانوا من الرقيق الذين جُلب بعضهم من أفريقيا والبعض الآخر من ساحل الملبار، و لم يكن لديهم ما يسترون به عريهم سوى خرقة لكل منهم لا يزيد عرضها على عرض كفّ اليد رُبطت بحبل ولا تكاد تستر عورة.

وصل المركب الذي استقلّته البعثة إلى القنفذة بعد سبعة أيام من الإبحار. ولاحظ نيبور أن البحارة لم يتزوّدوا من جدّة بالخبز بل كانوا يعدّونه في المركب ويقدّمونه ساخناً. ووصف تنور الطين الموضوع في مقدمة السفينة، وأشار إلى أنه أسطواني الشكل خاصة الجزء الأعلى منه. ويصف نيبور طريقة صنع الخبز في المركب فيقول: إن أحد الهنود من بحارة المركب يطحن الذرة برحى من حجر الغرانيت، ويعجن الدقيق ويتركه لليوم التالي كي يخمر. ويوقد أحد هؤلاء البحارة التنور ثم ينتظر حتى تخمد النار، ويجعل بعد ذلك قطع العجين على جوانبه، ثم تغلق فوهة التنور بغطاء من طين. وحين ينضج الخبز يخرجونه من التنور ويدهنونه بزيت السمسم، ويقدم ليؤكل ساخناً مع التمر. ولاحظ نيبور أن فورسكال لم يكن يستسيغ هذا الخبز، إلا أن جميع ركاب المركب لا يعتمدون في قوتهم على شيء سواه، وكانوا كلهم أقوياء البنية، ويضيف أن البحارة كانوا من الرقيق، ولكنهم كانوا أكثر سعادة وأشدّ قناعة ممن يتمتعون بكامل حريتهم. وفي الحقيقة، إن شهادة الرحالة الغربيين كلهم في ما يخصّ الرقيق هي عندنا مثل شهادتهم في الشؤون الدينية وفي المرأة وفقهها غير مقبولة، على الرغم من أن نيبور كتب عن المرأة العربية وفقه المرأة ما لم يكتبه رحالة قبله ولا بعده، وكان مصيباً إلى حدّ كبير، ومع

ذلك فنحن نرفض ما ورد عنده؛ لأنه يمثل ثقافة مغايرة، ولا نقبل منه ما ورد عنه في المرأة في مدن شبة الجزيرة العربية وهي منقّبة كما يقول. ويرى نيبور أن البدوية أقل حياءً من الحضرية وأن البدويات في العادة سافرات الوجوه وتقاطيعهن أجمل من الأخريات ووجوههن أنضر وأكثر رواء. ويرد ذلك إلى الهواء الطلق المتجدد الذي يسود البادية. ويحكي عن امرأتين في إحدى القرى زارتا مسكنهم بعد انصراف الرجال كانتا ترغبان في رؤية الأوروبيين، ويدّعي أنهم قضوا وقتاً ممتعاً، وقد خلّد بورنفانيد إحداهما بريشته.

رغم أن نيبور – شأنه شأن كافة الرحالة الغربيين الذين ساروا في إثره – شهد للمسلمين بحسن معاملة الرقيق ووصفهم بسعادة الحال، إلا أن كافة شهاداتهم عندنا مشروخة؛ لأن الرقّ عند الغربيين كان في هذه الفترة يختلف عنه عند العرب. وقد حدث لنيبور أن اشترى عبداً زنجياً كاثوليكياً في الهند، ولكنه استغنى عنه، لأنه – كما قال – يريد أن يأخذ معه إلى أوروبا ولداً لأبوين مسلمين لينصّره!

وصلت البعثة إلى اللحية في اليوم الثالث عشر من جمادى الآخرة/التاسع والعشرين من ديسمبر بعد رحلة استغرقت ستة عشر يوماً من جدّة، ولقيت الترحيب من فرحان، أمير البلدة الزنجي، ووصف نيبور أهل البلدة بأنهم "لحوحون أذكياء مهذبون"، وعندما عرف الأهالي أن في البعثة طبيباً تدافعوا إلى مسكنهم تدافعاً، وقد علّق كرامر أنه لم يستقبل في حياته مرضى بهذا الكم، ويضيف أن علاجه قد عاد عليهم بنتائج كارثية و لم ينقطع سيلهم عنه رغم ذلك، وعلّق على ذلك بقوله: إن العرب يرون الدواء ناجعاً إذا حقق لهم تلك النتائج المأساوية! ويحدثنا عن تاجر ثري مسنّ افتضّ في حياته نحو مئة جارية، ولا يزال يستمتع باثنتين منهما، وتمنى على الطبيب ما يجعله يتجاوز حكم السنّ حين يعاشرهما. كذلك عرض ثري مسنّ آخر على الطبيب مئة كرونة إن استطاع أن يعالجه من الداء ذاته. أما فرحان فقد أرسل إلى الطبيب أحد خيوله لعلاجه، وقد أدى بيرجن، بدلاً من كرامر، هذه المهمة بنجاح، فهو كان قد اكتسب خبرة في هذا المجال حين خدم في الجيش.

قضت البعثة شهرين في اللحية استمتعت فيها بكرم فرحان، ودرس فروسكال فيها الأوزان والمكاييل ووحدات القياس المختلفة وصروف العملة المستعملة وفروق أسعارها، كذلك قام زملاؤه بما يهمهم من دراسات. وحين ودّعت البعثة فرحان قدم له نيبور منظاراً مكبراً وساعة. ولم يكن الرجل قد رأى ساعة في حياته، ولكنّ مصرياً كان في مجلس الحاكم قال إنه سيتولى تشغيلها بتدوير زرّها يومياً.

انطلقت البعثة من هناك في ٧ شعبان ١١٧٦/٢٠ فبراير لتزور عدداً من المدن اليمنية، منها بيت الفقيه التي غادروها في السابع من شوال ١١٧٦/العشرين من إبريل ١٧٦٣ والتي وصفها نيبور بأنها مدينة غير مسوّرة، أغلب منازلها لا تزيد على غرفة واحدة بُنيت بالطين

وسُقفت بالقش، وتوجد إلى جانب هذه بيوت أخرى بُنيت من الحجر. ولاحظ أن المسجد الرئيس الذي يقع في وسط المدينة والقلعة التي تقع على أطرافها هما المبنيان اللذان يسيطران على أفق المدينة. ورحلت البعثة بعد ذلك إلى مخا في ٢٠ إبريل حيث طلب إليهم أن يترجّلوا عن حميرهم حيث لم يكن مسموحاً لغير المسلمين بالركوب. وجدت البعثة أول أمرها معاملة فظة ولكنهم ظفروا بالكرم بعد ذلك. وهنا سمع من العرب عن العدوان الفرنسي الذي وقع على المدينة في عام ١٧٣٨م الذي راح ضحيته عدد من السكان، ويقولون وهم يتضاحكون إن "الأواني النارية" التي كانت ترسلها السفن كانت تلاحق الحاكم أينما ذهب فأرهبته فمال إلى الصلح وأدّى لهم ما كانوا يطالبون به من أموال، ويعبّر نيبور عن رأيه في أن العرب قد أصبحوا بعد هذه الحادثة يقدرون مواهب الأوروبيين العسكرية.

غادرت البعثة في التاسع من يونيو في اتجاه صنعاء، فزاروا في طريقهم تعز، وهي مدينة حصينة بسورها القوي المحيط بها بشكل كامل ولا يمكن الدخول إليها إلا عبر إحدى بوابتين. وأفاد بأن تنافس بعض الأسر على حكمها سبّب اضطرابات في عام ١٧٦٠م أدّت إلى نهب المدينة وخرابها، وأفاد أيضاً بأن الذين يسيطرون على البلدة في وقت زيارتهم لها قد بنوا لأنفسهم قصوراً فيها. رحل ركب البعثة في السابع عشر من ذي الحجة ١١٧٦/٢٨ يونيو من تعز في اتجاه صنعاء، وتوقف في يريم وذمار وبعض القرى والنجوع حتى انتهوا إلى صنعاء مقرّ الإمام في اليوم السابع من المحرم ١١٧٧/السابع عشر من يوليو، وكرّت عائدة بعد ذلك إلى مخا التي دخلوها في الساعة التاسعة من صباح السادس والعشرين من المحرم/الخامس من أغسطس ليغادروا اليمن في اليوم الرابع عشر من صفر/الثالث والعشرين من أغسطس إلى الهند. وكانت البعثة قد دفنت في ثرى اليمن في ١٤ ذي القعدة ١١٧٦/السادس والعشرين من مايو ١٧٦٣م فون هافن. وقد قدم ستة من البحارة الكاثوليك تصادف وجودهم في مخا الخدمة الجنائزية للجثمان، كما دفنت فورسكال في يريم بعد ذلك بحوالى شهر من دون مراسم جنائزية، أما من بقي من أفراد البعثة فقد كانوا لدى مغادرتهم اليمن في حالة بائسة. فقد حُمل كل من كرايمر وبورنفايد وبيرجن حملاً إلى ظهر الباخرة التي أقلّتهم في طريقهم إلى الهند، أما نيبور الذي كان يعاني بدوره الملاريا فقد تحامل على نفسه وصعد إلى الباخرة على رجليه.

كتب نيبور بإسهاب عن التقسيمات الجغرافية لليمن وأصقاعه، وأهم مدنه، وسبل كسب العيش فيه، وزراعاته وصناعاته، وتحدث عن عدن وكوكبان، وعن أمراء حاشد وبكيل الذين دخلوا في اتحاد، ويطلق على مناطقهم بلاد القبائل، وقال: إن بلاد القبائل لفظ يعني الأراضي المرتفعة! وكتب عن أبو عريش أيضاً وقال: إنها منطقة استمدت اسمها من عاصمتها التي تعرف بالاسم نفسه. وتحدث عن بدو بني هلال الذين يقطنون أطراف تلك المدينة في المنطقة الممتدة من خليج العرب (البحر الأحمر) عند أبو عريش حتى الحجاز، وروى أنهم قوم فقراء

ولكنهم يفخرون بشجاعتهم وصبرهم على تحمل الألم من دون تأوّه ولا تذمّر، وكتب بعد ذلك عن أمراء حضرموت، ورسم خريطة مقبولة لليمن حال إقامته في بيت الفقيه، كما رسم خرائط أخرى لعدد من المدن اليمنية من أهمها خريطة لصنعاء عندما زارها وحلّ فيها ضيفاً على الإمام. وقد استحدث نيبور وسيلة ذكية لقياس المسافات ليستعين بها في رسم خرائطه. سار الرجل بجوار حماره على رجليه واتضح له أن الحمار يقطع في المتوسط ألفاً وستمئة وخمسين خطوة متساوية كل نصف ساعة؛ ولذلك راح وهو راكب على حماره من منطقة إلى أخرى يحسب الزمن الذي يستغرقه السفر ويحوّله إلى خطوات، ثم يحوّل الخطوات إلى أميال. أما الاتجاه فكان يحدده بواسطة بوصلة جيب ثم يعدّل الخطأ بواسطة آلته الفلكية بحساب ارتفاع الشمس خلال اليوم وبمراقبة النجوم ليلاً. وهكذا فقد استطاع نيبور بذكائه ومثابرته وصبره أن يشكل يوماً بعد آخر خريطة اليمن. وقد أعانه كتاب أبي الفدا الذي كان لا يفارقه أبداً على حلّ العديد من المشكلات الجغرافية.

استرعت بيت الفقيه انتباه نيبور، فهي مركز تجاري ناشط، ذات موقع وسط مسافة أربعة أيام من اللحية ومخا وصنعاء في اتجاهات مختلفة، "أما إذا قطعت منها مسيرة يوم إلى الداخل فستصل إلى تلال البن، وإذا سرت منها مسيرة يوم ونصف في الاتجاه المعاكس فستصل إلى ساحل البحر عند ميناء الحديدة". وقد حرص نيبور على زيارة مناطق زراعة البن الذي يمثل السلعة الوحيدة ذات الأهمية في اليمن، وجاء في كتابه أن لشجرة البن أزهاراً لها أريج، وتزرع على المدرجات، وتُسقى غالباً بماء المطر إلا القليل منها فيروى صناعياً من خزانات كبيرة في أعالي الجبال، وأن هذه الشجرة التي تُروى صناعياً تدرّ محصولين في السنة الواحدة، غير أن الحصاد الثاني لا يبلغ درجة النضج تماماً، وهو أقل غلّة من الأول نوعاً ودرجة. ولم يضف نيبور شيئاً جديداً إلى المعرفة الأوروبية عن البن وتجارته، فالبن مذكور في الكتب الأوروبية منذ عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م. وقد استساغ الأوروبيون شرابه منذ تلك الفترة الباكرة، وهذا ما دعا شركة الهند إلى أن ترسل منذ عام ١٠١٧هـ/١٦٠٩م إحدى سفنها بقيادة الكابتن شاربي للحصول على تلك السلعة من اليمن، وأتبعوا تلك الرحلة بأخرى كان يقودها هنري مدلتون الذي وصل إلى عدن ومخا حيث قبض عليه حاكم الميناء العثماني، وأرسله في السنة التالية برفقة أربعة وثلاثين متسللاً إنجليزياً إلى زينان، وهي المنطقة التي تكوّن مقاطعة صنعاء، وكانت تسبغ اسمها أحياناً على تلك المدينة. ولا يُعدّ مدلتون، إلا جزافاً، في عداد الرحالة الغربيين، فهو لم يحتفظ بسجلّ لتدوين ملاحظاته ولكنه ذكر أن صنعاء مدينة جيدة المعمار تكبر برستول مساحة، ولها قلعة في شرقها، أما غربها فتشغله الحدائق. وأشار مدلتون - وهو في طريق عودته بعد أن أطلق الباشا سراحه - إلى ذمار، تلك المدينة ذات الأحياء الخمسة المنفصلة بعضها عن البعض الآخر، كما كتب بعض ملاحظات عن تعز ومخا. على الرغم من

أن البن وتجارته كانا الدافع وراء هدف رحلة مدلتون، قال: إنه لم يقف على مناطق زراعته ولا على مناطق تتعامل تجارياً بتلك السلعة، ولكنه لم ينسَ أن يذكر أنه غشي بعض المقاهي التي تقدم القهوة. أما نيبور فقد أشار إلى أن أهل اليمن يتناولون مُغْلى قشر البن في مقاهيهم من دون حبوب البن.

يعتبر التقرير الذي قدّمه الطبيب باربيار ورفيقه الجندي جيالديري إلى العاهل الفرنسي لويس الرابع عشر أول تقرير غربي يشير إلى مناطق زراعة البن في اليمن. وكان هذان الرحالتان قد وصلا إلى اليمن على متن سفينة تابعة لتجارة سانت مالو كانت تعمل في تجارة البن في مخا. وعلم الإمام أن في تلك السفينة طبيباً فأرسل من يستدعيه إلى صنعاء لعلاجه، فسار الطبيب باربيار في رفقه جندي مع مبعوث الإمام إلى صنعاء. وأعدّ الرجلان عند عودتهما تقريراً عن الرحلة ضمّ كثيراً من الملاحظات ذات الأبعاد الاجتماعية أكثر ممّا حوى النواحي الطوبوغرافية والجغرافية. وكان هذا التقرير أيضاً في جعبة نيبور حين زار اليمن؛ فقد أشار إليه مرّات عديدة. وفي الحقيقة لم يكن لنيبور قصب السبق في زيارة اليمن؛ فقد سبقه إليها العديد من الأوروبيين، وكان للهولنديين بصفة خاصة علاقات طيبة مع مسؤوليه، خاصة في الموانئ منذ عام ١٠٢٢هـ/١٦١٤م، كذلك كان للإنجليز عدد من الممثلين في عدن ومخا وزبيد وبيت الفقيه، وكان كل هؤلاء وأولئك يلقون الرعاية والاحترام، وينظر إليهم كشركاء تجاريين (زبائن) كما يفيد نيبور. و لم يدخل الأوروبيون من غير البرتغاليين في دائرة عداء العرب إلا حين استبدلوا بالتجارة الاستعمار. ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى رحلة فارتيما ما يؤكد لنا أن بلاد اليمن كانت معروفة لدى الأوروبيين أكثر من أي منطقة أخرى في شبه الجزيرة العربية. ومع ذلك يمكن القول إن الفارق بين ما كتبه فارتيما وما كتبه نيبور كان شاسعاً لاختلاف أهداف الرحلتين باختلاف زمانهما أكثر منه لاختلاف الرجلين اللذين خدم كل منهما أهدافه بتجرد وإخلاص. جاءنا فارتيما في فترة فورة صليبية كانت البرتغال بدعم من الكنيسة الكاثوليكية تسعى فيها لهزيمة الإسلام "تماماً ونهائياً بدقّ عصب الاقتصاد الإسلامي" وإغلاق دروب تجارته.. لم ترم البرتغال – بداية – إلى استعمار العالم الإسلامي، إلا أنها في سعيها لتعويق دروب التجارة ومحاولة الوصول إلى مكة المكرّمة استعمروا بعض الجزر وبعض المواقع المطلة على البحار في الشرق، وظفروا نتيجة لذلك باستعمار بعض المواقع في بلاد الإسلام. أما نيبور فقد وردنا في فترة كان الاستعمار فيها هو الهدف و لم يكن النتيجة كما كان عند البرتغاليين. أما التنصير الملازم للاستعمار منذ بدايته فقد أصبح وسيلة من وسائل التمكين للاستعمار الذي عمل على عقلنة وسائله لتحقيق أهدافه بالبحث والدراسة والتقصّي واختيار الرجال المغامرين الذين يمتازون بالكفاءة العلمية للقيام بالرحلات "الاستكشافية". خرجت بعثة نيبور وهي تحمل قائمة باستفسارات معينة لخدمة أهداف معينة وكان على البعثة

أن تقدم الإجابات اللازمة، ومن ثمّ كانت "علمية" هذه الرحلة التي سعى نيبور لتحقيقها.

وصلت البعثة إلى صنعاء في يوم ٧ المحرم ١١٧٧/١٧ يوليو والتقاها على مشارف المدينة مبعوث رسمي للترحيب بمقدمها، وكان ذلك تكريماً مذلاً كما قال نيبور؛ فقد ركب ذلك المبعوث وكذلك الخدم المعيّنون لخدمة البعثة على حميرهم بينما كان أفراد البعثة يتبعونهم راجلين، إذ كان محظوراً - بحكم تقليد قديم - على غير المسلمين الركوب في المدن، كما كان يُحظر عليهم أيضاً - في ما يقول نيبور - امتلاك الرقيق. ونحن حين ندرك الحكمة من الحظر الأخير يعزّ علينا أن نفهم الحظر الآخر، وخاصة أن البعثة لاقت من ضروب التكريم في صنعاء ما لم تكن تتوقعه. فقد أنزلوا في "فيلا" أو بيت كبير أحيط بحديقة من أشجار الفاكهة المختلفة الأشكال والألوان كانت في ما يبدو تنمو على الطبيعة من دون عناية، أو كما يقول نيبور، حديقة نُسّقت على الذوق العربي، بها النافورات والبرك ما يغري المرء بالجلوس. وما إن وصل ركبهم إلى بيت الضيافة حتى وصلتهم هدايا الإمام من خراف وأرز وتوابل وحطب حريق وما إلى ذلك، و لم ينسَ الإمام أن يمدّهم بعد ثلاثة أيام من وصولهم بعملات نقدية صغيرة القيمة للنثريات، كما أهداهم عملات ذات قيمة كبيرة عند مغادرتهم صنعاء.

أذن الإمام المهدي عباس بن الحسين للبعثة في التاسع من المحرم/١٩ يوليو بمقابلته في قصره في بستان المتوكل. وكانت باحة القصر تزدحم بالضباط والجنود والضيوف من كل صوب وحدب وبالكثير من الخيول. وراح النقيب خير الله يفسح الطريق أمام البعثة حتى وصلوا إلى المنصّة حيث جلس الإمام، وقبّلوا تباعاً يده ظاهراً وباطناً، كما قبّلوا طرف ثوبه. وقد رافقت كل قبلة من أحدهم ليد الإمام وثوبه هتافات: الله يحفظ الإمام، ما تلبث أن تصبح مدويّة حين يرددها كل الحضور بصوت عالٍ. وصف نيبور غرفة الاستقبال بأنها مربعة فسيحة مقبّبة السقف يجلس في صدارتها الإمام متربعاً، كما هي عادة الشرقيين، بين وسادتين، وقد جعل أبناءه عن يمينه وإخوته عن يساره. ويجلس في مواجهته على دكّة أقل علوّاً من كرسي الإمام الوزير، بينما جلس نيبور ورفاقه على دكّة أدنى، أما الأعيان وغيرهم من كبار المسؤولين فكانوا يجلسون على جانبي القاعة. ووصف نيبور جبة الإمام الخضراء اللامعة ذات الأكمام الواسعة وعمامته الكبيرة البيضاء. واختار نيبور أن يكذب على الإمام عن البعثة ووجهتها وأهدافها كما كذب في جدّة إذ قال: إنهم كانوا في طريقهم إلى بعض المستعمرات الدنماركية في الهند الشرقية، وسمعوا بازدهار اليمن والسلم الذي يسود ربوعه، فقرروا زيارته لكي يقفوا على ذلك بأنفسهم، ويعرّفوا به عند عودتهم إلى بلادهم. رحّب الإمام بالبعثة وطلب إليهم أن يبقوا في ضيافته في صنعاء ما طاب لهم البقاء.

كتب نيبور عن إمامة اليمن وأشار إلى أن أبناء القاسم - وهم من سلالة محمد بن الإمام الهادي - قد طردوا العثمانيين من اليمن، ثم تولوا الحكم فيها منذ عام ١٦٣٠م، وأن شأنهم

شأن باباوات روما، يغيِّرون أسماءهم (ربما قصد ألقابهم) حين يتولون الحكم، إشارة إلى أن الشخصية المعنية قد تبدلت تماماً، وما عاد للآخرين من حجة أو مأخذ يأخذونه عليهم في ما سبق من أفعال وأقوال. ونحن هنا لا نسعى لنقد النص، فقد اجتهد الرجل بقدر ما سمحت رؤيته المناهضة للكاثوليكية انطلاقاً من تاريخه الأوروبي المعاصر له، ولكننا نحاول أن نؤكد مراراً أن الرحلة الغربية حينما تغوص في تاريخ المنطقة لا يجوز لنا أن نأخذ بها مصدراً أصيلاً ما لم تؤيدها مصادر أخرى؛ فالكثير من الرحالة - ونيبور منهم - يأخذون التاريخ سماعاً ممن يصادفونهم. وكان كثير من هؤلاء الأخيرين - لسبب أو لآخر - لا يتميزون بالرواية الصادقة، وكثير منهم أيضاً كان يجهلها أساساً، لا يعي خطر ما يقول، فهو لا يدري أنه يسجل تحقيقاً لأهداف الرحالة الاستثمارية أو الاستعمارية وربما العلمية أيضاً. يروي نيبور أن الإمام المهدي العباس ورث والده الإمام المنصور نتيجة مؤامرة دبرتها أمه التي كانت أَمَةً زنجية، ويعتقد أن إمامة اليمن كان يجب أن تؤول إلى علي، الابن الأكبر، فأمه ابنة أمير كوكبان، وهي سليلة أسرة الأشراف ما يجعل الإمامة حقاً لعلي. وقد كتمت الزوجة الزنجية خبر موت المنصور الذي كان يأنس إليها ويقيم عندها حتى قام أحد وزرائه الرئيسيين بأخذ البيعة من الأصقاع والأعيان وأهل الحل والعقد للعباس. ولم يرضَ أمراء كوكبان بالإمام الجديد فثاروا عليه، ولكنهم هُزموا مرتين فاضطروا إلى مصالحته.

يصف نيبور الإمام الذي كان وقتئذ (١٧٦٣م) في حوالى الخامسة والأربعين من العمر فيقول: إن لونه كان أسمر كلون آبائه من أمة، وأنه لا يشبه السلالة المحمدية؛ فقد طغت عليه سمات الزنوج، وأشار إلى أن للإمام حوالى عشرين أخاً، وأن الذين رآهم منهم كانوا كلهم في لون الأبنوس يتميزون بالأنوف الفطساء والشفاه الغليظة. ويسترسل نيبور فيتحدث عن الجواري والحريم عموماً، ويحدثنا بأن للإمام المهدي العباس عدّة أبناء، أربعة منهم فقط من الذين بلغوا مبلغاً من العمر يؤهلهم للاختلاط بالجمهور. ويتناول نيبور بالنقد بعدئذ نظام الحكم الإمامي في اليمن، فيتحدث عن الوزير الذي أتى بالإمام المهدي العباس إلى سدّة الحكم، وحين وجد هذا الإمام أن وزيره لا يظفر بتأييد الشارع طرده من خدمته وأودعه السجن فترة ثم عفا عنه بعد ذلك، وقرر له معاشاً لا يكاد يكفيه. وكتب عن جند الإمام، واعترف بأنه لا يعرف عددهم بدقة، غير أن "الرأي العام" يقدرهم بحوالى أربعة آلاف من المشاة جاؤوا أساساً من حاشد وبكيل، إضافة إلى ألف من الفرسان. وتتألف هيئة القيادة من أربعة قادة وأربعة "جنرالات" من ذوي الأصول الرفيعة. أما الضباط فهم نقباء جاؤوا أساساً من أسر كانت أصولها من طبقات اجتماعية أدنى، وربما كان بعضهم في طفولته من الرقيق، وذكر أن رتبة النقيب هي أكبر رتبة عسكرية يمنحها الإمام. ويفصِّل نيبور في قوّة الإمام العسكرية، فيذكر أن المشاة يعملون في الظروف العادية حراساً على أبواب المدن،

ويصاحب عدد منهم الدولة (الإمام) إلى المسجد يوم الجمعة يتقدمون موكبه المهيب في صفوف، وقد يخرج البعض منهم من الصفوف الأمامية فيقفز أمام الجمع. وحين يعود الإمام من المسجد يستقبلونه محيّين بإطلاق الرصاص عشوائياً. وهذه الممارسة – كما يقول نيبور – هي التدريب الوحيد لهؤلاء المشاة. أما ملابسهم فهي لا تزيد – لأغلبهم – على خرقة من القماش يلفّها الجندي وسطه، إضافة إلى منديل حول رأسه، وللقليل منهم هندام من بدلة و"طاقية" من القماش الأزرق.

يتحدث نيبور عن بلاء الجندي اليمني لإظهار شجاعته في الحرب وتأكيد ولائه لسيّده فيقول: إن من عادة هذا الجندي أن يربط ساقه إلى فخذه، ويأخذ في إطلاق النار على العدو، ويستمر على هذا المنوال حتى يقضي على العدو، أو يُقضى عليه. وكان نيبور يعتقد أولاً أن ذلك حديث خرافة، ولكنه اقتنع بحقيقة الأمر بعد أن شاهد بأمّ عينيه رجلاً من حاشد وبكيل كان في خدمة الإمام عبّر عن ولائه بهذه الممارسة. كان بقرب ذلك الجندي ستة من العبيد يساعدونه في حشو البندقيات تباعاً بالبارود، ويناولونه إياها فيرمي بها العدو رمياً لا هوادة فيه. وحين تراجعت قوات الإمام انسحب العبيد تاركين الرجل بمفرده، فظلّ يرمي وهو ثابت في مكانه حتى تمزّق أشلاء. وأشار نيبور إلى أن جيش الإمام لا يستخدم المدفعية، فهم يجهلون استعمالها، ولكنهم يستخدمون بعض المتشردين الأتراك للعمل بمدفعية الإمام من دون دربة ولا دراية، فهم في هذا المجال مثل العرب سواء بسواء. وذكر نيبور أن للإمام حوالى ألف من الفرسان، وأن الفارس لا عمل له في ظروف السلم إلا رعاية حصانه ومرافقة الإمام في موكبه إلى المسجد في صنعاء، أو في زيارته لبعض الأصقاع. وأشار إلى أن العرب يقدرون الخيل ويحرصون على حسن رعايتها وتدريبها، فكل حصان له مدربه الخاص، وأنه لا يربط، ولكن يمكن أن يقيّد بإحدى قوائمه إلى وتد في الأرض. ويضيف نيبور أن الفرسان حين يعودون مع الإمام بعد الفراغ من الصلاة يمارسون تدريباتهم؛ فيركبون الواحد تلو الآخر وينطلقون على ظهور خيلهم بالسرعة القصوى شاهرين رماحهم. أما حين يريحون فإنهم يدثّرون الحصان بالقماش، فليل اليمن بارد جداً. ويقول نيبور: إن للعديد من الفرسان في أوقات السلم وظائف مدنية، وليس للفرسان بزّات تميّزهم، فكل منهم يلبس ما يشاء، أما سلاحهم فهو الحراب والمدى، ويحمل بعضهم مسدسات.

اعتمد نيبور في تقديره لدخل خزينة الإمام على أوراكي اليهودي، الذي شغل وظيفة مراقب عام الأبنية، والذي كانت له حظوة عند الإمامين السابقين، ويقول:

"بحساب هذا اليهودي، فقد بلغ دخل الإمام الهادي محمد ٨٣٠٠٠٠ كرونة في الشهر، ولمّا كانت الأسرة الحاكمة قد فقدت تباعاً بعض مناطقها فقد انخفض دخل الإمام الشرعي إلى ٣٠٠٠٠ كرونة. ولمّا استردّ الإمام الحالي بعض هذه المناطق، ودخلت في طاعته مناطق أخرى

لم تكن ضمن إطار الدولة في السابق، ارتفع دخله إلى ٥٠٠٠٠ كرونة شهرياً".

ظفر سوق صنعاء باهتمام خاص من نيبور ففصّل القول فيه، وذكر أنه يتكون من أزقّة متداخلة بعضها في بعض، لكل أصحاب حرفة أو مهنة فيه قسم خاص بهم، ورأى الحدادين والإسكافين وصانعي السروج والنجارين والبنائين والخياطين وصانعي الطواقي، وزار سوق الفاكهة والخضروات الطازجة التي عدّد أصنافها وأشكالها، وسوق الخبز الذي لاحظ أن البيع فيه مقصور على البائعات من دون الباعة، وأسواق الملح والزبدة والبقوليات ووقود الحطب والفحم وأسواق الكتبة ومجلدي الكتب، ولاحظ أن العرب "يكرهون" الحرف المطبوع. ولا ندري دقّة هذه الملاحظة التي فسّر بها نيبور ندرة الكتب لديهم، كما قال إنهم يكرهون الرسم ونحت الصور وصناعة التماثيل، ولكنهم ينحتون الحروف للزينة. وأشار نيبور إلى أن العرب لا يحبون الموسيقى، وأنه لم يرَ في اليمن من آلاتها سوى الدف والمزمار! ويتحدث نيبور أيضاً عن صاغة الذهب والفضّة في ذلك السوق وعن وجود سلع مستوردة من الهند وتركيا وإيران، ويشير إلى عدم وجود صناعات في اليمن إلا ما كان من صناعة الخناجر (الجنبية) وأنهم حاولوا صناعة البندقيات أخيراً، وعلى الرغم من نجاح هذه الصناعة لا تزال في بداياتها. ولاحظ أن اليمنيين ينسجون نوعاً من القماش لم يلقَ رواجاً، وأن صناعة تشكيل الزجاج قد استحدثت أخيراً في مخا.

لم تحبّذ البعثة فكرة البقاء فترة طويلة في صنعاء رغم أنهم - كما يقول نيبور - قد لقوا من كرم ضيافة الإمام ما أنساهم كل ما صادفوه في رحلتهم من متاعب. هرعوا في يوم ٢٣ يوليو ولما يمضِ على بقائهم فيها أكثر من أسبوع مسرعين إلى الساحل كي لا يفوتهم موسم الإبحار، فغادروا من مخا إلى الهند في ١٤ صفر/٢٣ أغسطس. وهكذا انتهت هذه الرحلة إلى اليمن التي جاءت بهدف معلن في أوروبا وغير معلن في شبه الجزيرة العربية هو الدراسة العلمية للتحقق من بعض ما ورد في التوراة. وفي الحقيقة، إن نيبور وصحبه لم يعرفوا من أراضي اليمن أكثر مما عرفه الأوروبيون السابقون الذين ساحلوا تلك الأرض وبلغوا اللحية والحديدة ومخا وموانئ جنوب اليمن. لم يُقيّض لهذه البعثة استكشاف مرتفعات الهضبة الوسطى من اليمن ما عدا منطقة صنعاء. وكان لا بد لنيبور ورفاقه - إن كانت أهدافهم علمية تاريخية - أن يستكشفوا تلك الهضبة التي كوّنت المركز الرئيس لحضارة سبأ، للوفاء بالخطة الموضوعة المعلنة لتلك الرحلة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك أو ربما لم يسعوا إليه. ويبقى الفارق الوحيد بين نيبور وبين السابقين له أنه ترك سفراً سجّل فيه تجاربه ومرئياته. ولا يجد المدقق في كتاب نيبور إلا النزر اليسير المتصل بالدراسات التوراتية، أَفَنردّ ذلك إلى أن نيبور - وهو الشخص الوحيد من أفراد البعثة الذي قُيّض له الرجوع مرّة أخرى إلى الدنمارك - كان مسّاحاً فتحدث عن الأرض واقتصادها، وعن السكان وطبائعهم، وعن أنظمة الحكم، ولم يتحدث بتاتاً عمّا

ورد في التوراة؟ أم يُردّ ذلك إلى أن فون هافن الكسول كان المستعرب الوحيد من بين أفراد هذه البعثة الذي كان يمكن أن يحقق شيئاً في مجال التوراتيات، إلا أن كسله ثم هلاكه المبكر - والرحلة في اليمن في بداياتها - قد حرم البعثة من تحقيق هدفها المعلن؟ أم كوبنهاغن التي أرادت أن تعبّر عن أشواقها لصنعاء - وهذه ثالثة الأثافي - لم تجد من وسائل التعبير ما يعينها فظلّت لواعجها كامنة حتى الوقت الراهن ترنو في استحياء إلى الشرق المستعصي عليها؟

لقد كانت فترة زيارة نيبور فترة أشواق أوروبية عارمة لوراثة إمبراطورية البرتغال التي ذهبت في الشرق ريحها. ولمّا لم تُجد نتائج رحلة نيبور الدنمارك التي كانت قد فقدت القدرة على تحقيق تطلعاتها شيئاً فشيئاً، تلَقفتها فرنسا واحتفت بها إنجلترا، فرسا رهان في حلبة استعمار الشرق في ذلك الوقت، وكانت هذه الرحلة بحق لهذين البلدين رحلة علمية ذات نتائج بعيدة.

الفصل الخامس

نيبور من الهند إلى أوروبا عبر الخليج

غادر نيبور بومباي على ظهر مركب حربي تابع لشركة الهند الشرقية الإنجليزية في ١٤ جمادى الآخرة ١١٧٨/٨ ديسمبر ١٧٦٤م إلى الخليج في طريقه إلى أوروبا فرداً، بعد أن أهلكت هذه الرحلة زملاءه كلهم في فترات متقاربة في اليمن وفي البحر، وكان آخر الهالكين منهم كريمر الذي لقي حتفه في الهند، وحين بلغ مسقط التي كانت وجهة ذلك المركب توقف عندها ريثما يجد مركباً آخر ينقله إلى البصرة ليواصل طريقه منها برّاً إلى الشام. و لم تستغرق إقامته في مسقط غير أسبوع واحد و لم يحاول الدخول إلى عمان؛ فعمان أخت اليمن التي نالت منه ومن بعثته. وكان الرجل في هذه المرحلة يائساً بائساً وجاء في مذكراته: "أصبح أملي ضعيفاً أن أرى أوروبا مرّة أخرى". ولعله من المثير للانتباه أن ما أورده نيبور من حقائق جغرافية وتفاصيل سياسية وإدارية واقتصادية ووقائع تاريخية عن منطقتي مسقط وعمان – اللتين لم تكونا في برامج رحلته ولا في خططها، واللتين دخلهما فرداً لا يحظى بجهود مساعدين ولا رفاق والتي لم يَمضِ فيها إلا زمناً يسيراً لا يُقارن البتة بأي فترة ثوى فيها في أي إقليم آخر – كان أدقّ وأصدق ما وَرد في كتابه. فهل كان هذا الألماني المثابر فترة وجوده في الهند التي امتدت إلى عام ونيّف يدرس أحوال منطقة عمان ويتتبع أخبارها أم حظي براوية عربي من الذين لم يعمدوا إلى مسخ الحقائق كما هو دأب آخرين من الذين كانوا يتجاوزون الحقيقة لسبب أو آخر حين يحدثون الرحالة الأجانب؟

مسقط وعمان

كتب نيبور عن عمان واحترز لنفسه حين قال: إنه لم يزرها، بل اعتمد في ما يورده على

السماع والملاحظات الشخصية. وعلى ذلك فقد انصبّ جلّ اهتمامه على مسقط، فكتب في رواجها الاقتصادي والمالي ونظام الحكم فيها، كما تناول تاريخ عمان إجمالاً مع التركيز على أسرة البوسعيد وعلاقاتها باليعاربة السابقين لهم.

يقول نيبور: تُعدّ مسقط سوقاً مشهورة منذ القدم، وتُعتبر من أقدم الأسواق العربية التي تجتمع فيها إلى جانب السلع العربية السلعِ الأفريقية والفارسية والهندية، ويفيد بأن البرتغاليين قد استعمروها في عام ١٥٠٨م ولكنهم طردوا منها بعد حوالى قرن ونصف من ذلك التاريخ. ويرد استسلام القلعة البرتغالية إلى تدبير بنياني انتقاماً منه لابنته التي غرّر بها قائد الحامية. ويسرد نيبور تلك القصة الشهيرة قبل أن يخوض في تاريخ انتقال السلطة من اليعاربة إلى البوسعيد، فيقول إن سيف بن سلطان بن مالك بن بلعرب بن سلطان بن سعيد بن مرشد كان يحكم من عمان المنطقة الواقعة بين رأس الحد وجلفار وتمتدّ سلطته لتشمل جزراً مهمة مثل قشم وهرمز والبحرين. ومدّ ابنه سلطان بن سيف من تلك السلطة ووسّع ملكه إلى مناطق من أفريقيا الشرقية وجزرها فكره منه نادر شاه ذلك، فأرسل عليه قوّة حربية كبيرة نزلت في جلفار ولكنها عادت بالهزيمة الساحقة. وحين توفي سلطان ثار محمد بن ناصر الغافري، من أهالي يبرين، وتمكن من السيطرة على معظم الأراضي العمانية وسمى نفسه إماماً. وحين توفي هذا الأخير ورث ابنه ناصر بن محمد سلطة والده التي نازعه عليها سيف بن سلطان، ابن الإمام الأسبق، وانتصر عليه وتراجع ناصر إلى يبرين واكتفى بحكمها. ويضيف نيبور أن سيف كان رجلاً مستهتراً بكافة القيم الإباضية، يقارع الخمر ويتعاطى الدخان ويشرب القهوة ويتعدى على الحرمات، شبقاً لم يكتفِ بالمسلمات بل أمسك بعصم الكوافر أيضاً، وطالما أباح لجنده اضطهاد رعاياه.

تمكن سيف بن سلطان من مسقط التي هجرها سلطان بن مرشد إلى مطرح. وهناك عمل الأخير على ازدهار البلدة فراجت تجارتها، خاصة بعد أن عمل على خفض الضرائب، فيما راحت مسقط تئن من ثقل الضرائب القديمة والمستحدثة وجور الاضطهاد فهجرها الناس. ويستمر نيبور في سرد القصة المكرورة في الصراع بين اليعاربة أنفسهم، ولربما كانت روايته مقبولة لدينا، بعد النقد، أكثر من روايات غيره من الأجانب، فخروجه إلى مسقط لم يكن يعد زمنياً كثيراً عن الحدث. يقول: إن سيف بن سلطان استدعى مؤازرة نادر شاه له، فأمدّه الأخير بجند تحت قيادة تقي خان، غير أن سيف لم يثق به – على ما يبدو – فلم يمكنه من القلعة. دبر تقي مكيدة للإمام حين زاره في قلعة الجلالي وأترعه وكبار ضباطه بخمر شيراز. ولما ثمل الجميع تمكن تقي من هذه القلعة وبعث بخطاب إلى رؤساء قلعة الميراني بختم سيف يأمرهم بالشخوص إلى حضرته فأطاعوا ما ظنوه أمر إمامهم، وجاؤوا إلى الجلالي. اعتقل تقي تلك المجموعة وأرسل مفرزة من جنده للميراني فسقطت لهم. وهكذا تمكن تقي من السيطرة على مسقط وراح يتطلع إلى مدّ سيطرته في ما وراء ذلك. كتب سلطان بن مرشد

من مطرح إلى صحار يطلب دعم واليها أحمد بن سعيد المولود في أدم بولاية سمد. وهرع أحمد للنجدة، واتصلت المعارك مع الجند الفارسي وقتل في غمارها سلطان بن مرشد وآلت القيادة إلى أحمد الذي بات غير منازع من أي عربي آخر في السلطة إلا من الإمام الطريد سيف بن سلطان. وما لبث هذا الأخير أن هلك حسرة على ما فرّط في جنب بلاده وأسرته، وأصبح أحمد بن سعيد قائداً أوحد. صالح أحمد تقي خان فأقرّه الأخير على ولاية صحار وبركا، وأناط تقي إدارة مسقط بثلاثة من ضباطه، جعل أحدهم على المدينة وعيّن الآخرين على القلعتين وقفل عائداً إلى بلاده. وهناك ساقه طموحه إلى الاستقلال بشيراز ما دعا نادر شاه الذي كان يحاصر الموصل إلى فك الحصار عن البلدة والمسارعة لاستعادة شيراز. وحين أبصر تقي طلائع جند الشاه وقدّر أنه لا قبل له بها هرب إلى شعاب الجبال لينجو بجلده ولجأ إلى أحد الرعاة مستجيراً. وغدر الأخير باللاجئ فسلّمه إلى الشاه الذي حكم على قائده الغادر باستئصال ذكره، واغتصاب أحبّ زوجاته إليه أمام ناظريه، وإعدام كافة أبنائه ثم أطلق سراحه.

استبان أحمد بن سعيد حدّة الاضطرابات في فارس، فامتنع عن أداء المبالغ المفروض عليه أن يؤديها للجند الفارسي في قلعتي مسقط، ما اضطرهم إلى الدخول معه في مفاوضات. دعاهم أحمد إلى جولة مفاوضات فاستجابوا له. وما إن دخلوا عليه حتى اعتقلهم جميعاً وأرسل جنوده للقبض على مرافقيهم من الجند الذين كانوا يتسكعون في طرقات المدينة. وأرسل أحمد للجنود الفرس في حاميتي مسقط يُمنّيهم بسدّ حاجاتهم من المؤن والأموال إذا استسلموا طواعية فاستجابوا له أيضاً. أعدم أحمد بعض أولئك الجنود وتجاوز عن البعض الآخر ووضعهم في مركب أخذهم إلى حيث أتوا. وبهذا خلص الساحل كله من صحار إلى مسقط لأحمد، فيما كان الظهير العماني - في ما يقول نيبور - تحت حكم بلعرب بن حمير وأحد أفراد أسرة سلطان بن مرشد بالتعاون مع الشيخ مطر، شيخ الصير. وفي هذه الأثناء تمكن أحمد بن سعيد بروابط الصداقة التي جمعت بينه وبين كبير القضاة من أن يظفر بلقب الإمام الذي كان من نصيب بلعرب في هذه الفترة. ولم يسع بلعرب إلا أن يتقدم لمهاجمة أحمد فتقدم حتى وصل بجنده إلى عوابي. ولم يكن مع أحمد إلا جند قليل فرّقهم عند مداخل الجبال وأناط بكل منهم بوقاً كبيراً لينفخ فيه، فيما راح آخرون منهم يقرعون طبول الحرب في أطراف الأودية فامتلأ الجوّ طنيناً وضجيجاً، وظنّ بلعرب أن لُمنازله جيشاً عرمرماً، وأيقن جنده أن قد أحيط بهم ففرّوا هاربين وتخلّوا عن إمامهم. ولم يعد لأحمد بن سعيد بعدها من منافس سوى أحد أبناء سلطان بن مرشد الذي ما لبث أن استبان بعد عدّة محاولات عدم جدوى النزاع فصالح أحمد الذي استرضاه وعيّنه والياً على إحدى المدن الصغيرة. أما بلعرب بن سلطان، أخو سيف، فقد رضي بالعيش الهني في ظلّ أحمد، وكذلك فعل اثنان من أبناء سيف بعد أن تزوج أحمد من أختهما. وهكذا تمكن أحمد الذي يعدّه نيبور رجلاً طموحاً له

من المقدرة والكفاءة ما مكّنه من أن يحوز عرش اليعاربة.

ذكر نيبور الرستاق التي هي قصبة الدولة ومقرّ الإمام، وتحدث عن موقعها في مجاورة الجبل الأخضر؛ "أكبر جبال عمان وأكثرها علواً" الذي يشتهر بخصوبة تربته واعتدال جوه ووفرة مياهه، ما أهّله لإنتاج أنواع مختلفة من الفاكهة والخضروات والثمار المختلفة الأصناف والألوان. وذكر العنب وعدّد صنوفه وأشكاله... كذلك ذكر نزوى التي تقع على مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب الغربي من هذه المنطقة ويمرّ الطريق إليها عبر سمايل ووادي بني رواحة وبركة الموز وهي، مثلها مثل بهلا التي تقع إلى الشمال منها، تابعة لوالٍ متنفذ. ويحكم ولاة آخرون إزكي وسمائل وسمد ومنح ولكنهم أقل نفوذاً من الوُلاة المتنفذين. وذكر صحار التي قال عنها: إنها مدينة قديمة وبها ميناء، وذات تاريخ بعيد ولكنها مهدمة. ويأتي نيبور على ذكر مطرح وصور وقليهات وشيناص وكلبا. أما مسقط فهي - عند نيبور كما هي في الحقيقة - أهم مدن عمان وأبعدها شهرة، وذكر أنها تقع على خليج صغير يتمتع بحماية طبيعية ما يهيّئ للميناء حماية ضدّ العواصف والأنواء، وتحرسه جبال تتدلى صخورها رأسياً إلى البحر فتحيط به ما يجعله حصيناً. وأضاف أن هذه الحصانة الطبيعية أيّدتها حصانة قلعتين كان البرتغاليون قد بنوهما عند مدخل الميناء، وأشار إلى أن إحداهما كانت في فترة زيارته بيتاً للوالي والثانية مخزناً للسلع. أما من ناحية البر فيدرأ الأخطار عنها سور يسدّ الفجوات بين المرتفعات الصخرية التي تحيط بالمدينة. ويقع خلف هذه الأسوار سهل مغلق بالمرتفعات الصخرية التي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم لا تنفرج عنه إلا في ثلاث جهات تمثّل منافذ ضيقة يسهل الدفاع عنها.

أقام أحمد بن سعيد العدل في رعيته دونما اعتبار لعرق أو دين أو لحسب أو نسب. وذكر نيبور التسامح الذي يسود أرض الإمام الذي أطلق عليه لقب ملك مسقط، وذكر أن في مسقط من "البانيان" عدداً لا تعرفه أي مدينة إسلامية أخرى، إذ لا يقلّ عددهم عن ألف ومئتي شخص، يتمتعون بكامل الحرية في إجراء طقوسهم حسب قوانينهم، وقال: إن لهم معابد ينصبون فيها أوثانهم، كما كانوا يحرقون موتاهم. ولا تعمل السلطة على مساءلة أي منهم "حتى لو ضبط البانياني في حالة تلبس مع امرأة مسلمة". والإمام صاحب إدارة حاسمة لا يؤثر فيها صاحب مرتبة، ولا مكان فيها لمراعاة الفوارق المليّة. وأشاد نيبور بسيادة الأمن في مسقط، فالسلع قد تبقى متروكة في شوارع مسقط ليلاً ولا تجد من يحدث نفسه بسرقتها، ويقول: إن سكان مسقط باتوا تحت إدارة الإمام مطمئنين، وقليل منهم يغلق باب بيته ليلاً، وإن للإمام جيشاً قوامه الرقيق وخدم القصر الذين يدفع لهم رواتب ممتازة تصل إلى عشرين محمدياً، أو أربع روبيات. وهم منظّمون تماماً ومهندمون، أما سلاحهم فبندقيات الفتيل عماده، وتسلّح بعضهم بالجنبية التي يثبتونها بأحزمة حول بطونهم، وهي عبارة عن خنجر عريض

في أعلاه ينتهي بنصل حاد. ويستعمل بعض هؤلاء الجند السيوف الطويلة المستقيمة، ولهم دروع تتدلّى من أكتافهم.

يذكر نيبور مرّة أخرى أنه لا يعرف الدخل الكلي لخزينة الإمام، ولكنه يكسب من عائدات الجمارك التي تدرّ على خزينته حوالى ١٠٠,٠٠٠ ربية، وأشار إلى أن الأوروبيين يؤدون ٥% على سلعهم، ويدفع المسلمون ٦,٥%، والبانيان ٧%، واليهود ٩%، أما المواطنون فيدفعون ٦% على صادرات التمر الذي هو السلعة الرئيسة للتصدير. ويضيف نيبور أن الإمام يتعامل مع التجار معاملة طيبة، وأنه يتعامل بشخصه في التجارة، وأنه يملك أربع سفن حربية كبيرة وعدداً من السفن الصغيرة تعمل كلها في أوقات السلم في نقل السلع والرقيق من الساحل الشرقي لأفريقيا، وأن لعمان ثمانية قوارب تحمي الحركة التجارية وتعمل في دوريات، ومع ذلك فكثيراً ما يصل القراصنة إلى مناطق قريبة من الميناء.

يرى نيبور أن أهل عمان هم أمهر الملاحين في شبه الجزيرة العربية، وأن لهم عدداً من المراكب الصغيرة التي تعمل في حمل التجارة إلى جدّة وإلى البصرة أيضاً. ويضيف نيبور في حديثه عن سفن عمان أن لهم من "الترانكي" – وهي سفن صغيرة محكمة البُنيان رُبطت ألواحها بعضها ببعض من دون مسامير – حوالى خمسين تعمل بالتجارة مع البصرة. ويضيف أن للترانكي ميزة إضافية، فهي تعمل بالمجاذيف التي تماثل تلك المستخدمة في مراكب السويس، كما أنها تستخدم الأشرعة المصنوعة من القماش التي تمتاز على السفن اليمنية التي تستخدم أشرعة مصنوعة من القش.

يدلّ ما ذكره نيبور على أن اقتصاد عمان كان في تلك الفترة مزدهراً، فالتجارة رائجة وهناك وفرة في الزروع وتعدد في المحاصيل. يعدد هذا الرحالة من بقول عمان الذرة والدخن والبر والشعير. أما التمور فيقول إنها متعددة الصنوف تكفي حاجة السكان وتزيد فتصدر. أما البحر الذي يحيط بعمان فعامر بالثروة السمكية التي تفيض عن حاجة الاستعمال الآدمي فتقدم علفاً لسائر البهائم من إبل وحمير وأبقار. ويضيف أن في مسقط عيناً حارة يقصدها المواطنون للاستشفاء من العديد من الأمراض الجلدية وأمراض الشرايين. ويذكر أن في عمان من المعادن الرصاص والنحاس، ويشير إلى أن عمان مثلها مثل سائر البلاد العربية الأخرى فقيرة في معدن الذهب.

على العموم، كانت شهادات نيبور عن عمان طيبة، وربما كانت في مجملها صادقة؛ لأنه ربما يكون قد ظفر براوٍ أو مجموعة من رُواة مسؤولين لا يطلقون الحديث على عواهنه، ولكنّ المؤرخين الملتزمين – بما جُبلوا عليه من دقّة التحقيق، وبما تهيّأ لهم من معرفة منهجية لا تلتزم إلا الحياد الإيجابي – لا يأخذون ما يوافق هواهم من كتب الرحالة ثم ينكرون البعض الآخر. فكتاب نيبور عندهم – كما هي كتب الرحالة الغربيين الآخرين الأقل منه نزاهة وحَيْدة – لا

تؤخذ إلا مصدراً ثانوياً، ولا يعتمد منها إلا ما تؤكده الشواهد المادية الأخرى، أو يؤيده الاستنباط بعد التحليل العقلاني السليم.

العرب البحريون

غادر نيبور مسقط إلى الساحل الفارسي، واستحدث خريطة للخليج تُعدّ الأولى من نوعها في التاريخ الحديث. وكتب عن العرب الذين يسكنون السواحل والجزر. كتب عن "الصير" التي يسميها الفرس "جلفار" كما يقول، وهي تمتد من مسندم حتى خور فكان، وأضاف أنها تعرف عند الأوروبيين أيضاً باسم جلفار، وذكر أن الصير – الاسم الذي يطلقه العرب على المنطقة – هو اسم مدينة كانت تعرف بهذا الاسم الذي أسبغته على المنطقة كلها في ما بعد، وأن المنطقة كانت تابعة لعمان فانفصلت عنها وآلت إلى شيخ من الهولة هو راشد بن مطر الذي تتصل دياره بالساحل الفارسي وتتبعه هناك لنجة وكنك، كما أنه يسيطر على جزيرة قشم أيضاً. ولهذا الشيخ أسطول كبير من المراكب البحرية التي تربط بين الساحل العربي والفارسي الذي يقيم فيه العرب منذ أزمان بعيدة. وأضاف أن شيخ الصير كثيراً ما يدخل في حرب مع سيده السابق، وأنه قد أقام شبكة تحالفات مع شيوخ أقل شأناً تقوّى بهم، وأصبح له شأن كبير في موازين القوى البحرية. ويُعدّ أسطوله "أحد الأساطيل الأقوى في هذه الأرجاء"، وأن رعاياه يكسبون رزقهم من الملاحة، وأن تجارتهم آخذة في الاتساع. ومع ذلك فإنهم في الغالب فقراء لا يعرفون من القوت إلا السمك الذي يعلفون به أيضاً مواشيهم القليلة العدد إضافة إلى الذرة. وأفاد بأن كل مدينة في هذا الساحل مستقلة بذاتها يقوم عليها شيخ لا يُؤدّي له أتباعه ضرائب ولا رسوم، ومع ذلك فهم يملكون حقّ عزله واختيار بديل له شرط أن يكون من أسرة الشيخ المُقال ذاتها.

يقول نيبور إن معظم سكان الساحل الفارسي للخليج سنّة لا يتزوجون في الفرس، ولا يهتمون بشؤون البر، وينصبّ اهتمامهم كله على البحر الذي فيه رزقهم المتمثل أساساً في صيد السمك. وإذا قصدهم غازٍ من البر فإنه لن يصيب منهم مغنماً، فهم فقراء معدمون ليس لهم في اليابسة ما يخشون فقده. ويرى نيبور أن الفرس لا يحبذون سُكنى السواحل تجنّباً للصراعات والمشاغبات التي لا تهدأ جراء وجود هذه القبائل العربية التي ما إن تهاجم القوات الفارسية مستوطناتها حتى تفرّ إلى البحر ثم تنبري عائدة إلى مساكنها بعد تراجع تلك القوات التي لم تحقق أياً من أهدافها و لم تظفر بأي مغنم. فأهل السواحل الفارسية من العرب يقدسون الحرية ويعيشون حياة أقرب ما تكون شبهاً بحياة الإغريق القدامى، "ولكن العرب لا هوميروس لهم يتغنى بملاحمهم ويُعلي ذكر أبطالهم ويشيد بقادتهم ويفاخر بأمجادهم، ولهذا لا تجد

لهؤلاء القوم ذكراً خارج حدود بلادهم". ويذهب نيبور إلى أن نادر شاه، رغم قوّته الطاغية، لم يتمكن من استئناس هؤلاء العرب. بنى الشاه سفناً في بومباي وفي بندر ريق وبوشهر، واشترى عدداً آخر من السفن من التجار الأوروبيين ووظّف عدداً من العرب والهنود لخدمة هذا الأسطول، إلا أنه فشل في كسب ولاء هؤلاء العرب السنّة الذين لا يتركون سانحة إلا انتهزوها لقتل ضباطهم الفرس والاستيلاء على قطع الأسطول. وكشف نيبور عن خطة نادر شاه في إجلاء هذه المجموعات العربية من مساكنها على ضفّة الخليج الفارسية وتوطينهم قسراً في سواحل بحر قزوين وإحلال عنصر فارسي من سكان تلك المنطقة في مواطنهم التي تساحل الخليج، إلا أن المنية عاجلته قبل استكمال تحقيق مشروعه.

يقول نيبور إن ناصر خان، وهو عربي يحكم بندر عباس، تمكن بعد وفاة نادر شاه من أن يسيطر على إقليم لارستان، وعدّ نفسه وكيلاً عن كريم خان في حكم ذلك الإقليم، ولكنه كان لا يُؤدّي الضرائب المفروضة على الإقليم إلا قسراً ومرغماً بقوّة الجند. ويستطرد نيبور فيذكر أن جمبرون (بندر عباس) كانت محل تنافس مستعرٍ بين الفرنسيين والإنجليز، ويذكر تفوّق الأوائل على الأواخر والاستيلاء على وكالتهم هناك، وكيف خرجوا بعدئذ منها بعد سيطرة الإنجليز على قلاع الفرنسيين في الهند.

ساح نيبور في أنحاء مختلفة من فارس في منطقة شيراز وغادر من بوشهر إلى جزيرة الخرج، وكتب عن الهولنديين ووجودهم في تلك الجزيرة، واستعرض علاقتهم بفارس، ثم اتفاقهم مع حاكم بندر ريق الذي كان "يملك" تلك الجزيرة التي اتهم نيبور أهلها العرب بالقرصنة، وتحدث عن حكام الجزيرة الأسبقين وانتهى إلى الحديث عن طرد عرب الجزيرة للهولنديين في عام ١٧٦٥م، من الخليج، الذي قال عنه: إن ساحله الفارسي مأهول بالعرب الذين يعشقون الحرية شأنهم شأن البدو، وأنهم يأكلون التمر والسمك، وأن المادة الأخيرة تُعدّ المادة الأساس في قوتهم، حتى إنهم يطعمونها لماشيتهم. وأفاض في الحديث عن عرب الهولة الذين يسكنون المنطقة بين بندر عباس وجبال بردستان، ووصفهم بأنهم مسلمون سنّة يعيشون على الصيد والقنص، أرضهم مجدبة وساحلهم قاحل لا يصلح للملاحة، ورأى أنهم أهل شجاعة وبأس ولكنهم متفرقون في الرأي، وأن لهم عدّة شيوخ يحكم كل منهم قرية من قراهم الصغيرة البائسة ويأنف أن يعترف بشيخ آخر أعلى منه منزلة. ويُعدّ شيخ الصير أخطر هؤلاء شأناً. ويحدثنا نيبور عن لنجة التي يعدها أميز موانئ الهولة، ثم عن بوشهر التي لا تتبع الهولة، فسكانها من المطاريش من عرب عمان وكذلك من الجنبة والبومهير. ويقول إن ناصر خان، حاكم بوشهر، يسيطر على البحرين أيضاً، والاعتقاد السائد هو أنه تابع لكريم خان، ولكن الأخير لا يثق به بدليل أنه يحتفظ بأحد أبناء الشيخ رهينة لديه. ويضيف أن الشيخ كان في فترة وجود رئاسة أسطول نادر شاه في بوشهر كان شيعياً، ولكنه بدّل بعد ذلك مذهبه الشيعي

بالسنّي. كذلك كتب عن بندر ريق وسكانها من قبيلة بني كعب التي ترجع أصولها إلى منطقة مسندم في عمان، والذين كانوا أصلاً من السنّة ولكنهم تشيّعوا بالزواج. ويخصص بحثاً كبيراً لشيخ بندر ريق المير مهنا الذي كانت أمّه فارسية. ويحمل نيبور على هذا الشيخ حملة شعواء فيقول إنه يكره أباه ويمقت أمّه. قتل والده المسنّ الأعمى وحين لامته أمّه على جريمته النكراء ألحقها به! ويضيف أنه كان يبغض العرب، سنّة وشيعة، ويحدثنا عن خلافاته المستمرة مع كريم خان. وعلى الجملة لم يكن هذا الرحالة يرى في هذا الشيخ إلا لصاً وقرصاناً وقاطع طريق، ويتهمه أيضاً بقتل أختيه بإغراقهما في البحر لأن شيخاً ما طلب إحداهن للزواج. ويستمر نيبور في الحديث عن هذا "اللص الكبير، الطاغية، المتعجرف الخطير". وعلى الرغم من أننا لا نملك من الأدلة ما يمكننا من التثبت من صدق هذه الاتهامات، نؤكد أن شهادته في هذا الصدد مشروخة. فالثابت لدينا أن المير مهنا هو الذي استولى على جزيرة الخرج وأسر عدداً من الهولنديين وغنم مراكبهم وأنهى الوجود الهولندي في الخليج. والثابت لدينا أيضاً أن الغربيين – مهما تناهت الخلافات بين أقطارهم – يكرهون أن يتفوق الشرق على أي منهم، خاصة إذا اتصل الأمر بالقتال، عدّتهم التي حملوها إلينا في الشرق.

يحكي نيبور قصة طريفة عن الطريقة التي انتصر بها المير مهنا "على المراكب الهولندية المجهزة بالمدافع" في حين لم يكن مهنا يملك غير السيف والرمح، "ولكنه لجأ إلى الخديعة والمكر". يقول: إن المير مهنا ركب مع جماعاته في مراكب شحنوها بالدجاج. وكانوا يهزّون أقفاصه بعنف حتى يتعالى صياحه فظنت الحامية أن المؤن قد وصلت. فإذا بمهنا وجماعاته يفاجئون الجنود، فإذا هم بين قتيل وغريق. أما قائد الحامية الذي كان قد استضاف نيبور حين زار الجزيرة قبل فترة قصيرة من سقوطها فقد وقع أسيراً في يد مهنا.

البحرين

يكتب نيبور عن البحرين التي تتكوّن من عدّة جزر يسكنها العرب، وتعد أوال أكبر هذه الجزر. وبعد ذلك يفصّل القول في تاريخ الاستعمار البرتغالي للبحرين ثم خروجها من أيديهم إلى شيخ الأحساء ثم استيلاء الفرس عليها على يد كولي خان وآلت بعد ذلك إلى إمام عمان الذي تخلى عنها للفرس مقابل مبلغ معلوم، وعيّن الفرس عليها والياً عربياً. وحين انهارت الدولة الفارسية تحت وطأة الحرب الأفغانية، ورث أحمد بن محمد بن ماجد حكم البحرين عن أبيه، واليها السابق، فيما ظلّت القلعة في يد كولي خان. وتتابع على حكم الجزيرة بعد ذلك عدد من الأسر العربية، بعضها تابع لفارس وبعضها الآخر مستقل عنها. ويرى نيبور أن هذه التقلّبات المتتالية وما صحبها من حروب قد أدّت إلى نهاية ازدهار هذه الجزيرة وذهاب عمرانها وتقلص عدد

سكانها. كان في البحرين خمس وستين وثلاثمئة قرية ومدينة، لكنها أصبحت وقت زيارته لا تضمّ أكثر من أربعين. ويضيف أن البحرين كانت قبلة للدارسين الشيعة الفرس يفدون إليها لتعلم اللغة العربية ودراسة الفقه والأحكام، ما جعلها تشتهر بالمدرسة العليا للشيعة. ويتناول هذا الرحالة أطرافاً أخرى في حديثه عن البحرين، نذكر منها حديثه عن ينابيعها التي تنبجس من أعماق الخليج فيغوص إليها الأهالي يملأون أوعيتهم من الماء العذب. كذلك حدثنا عن مغاصات اللؤلؤ وتجارة التمور.

نجد والأحساء

تتحد نجد - كما يقول نيبور - بالصحراء السورية واليمن والأحساء والحجاز، وهي بادية شاسعة ينتشر فيها البدو وتضمّ بعض الحواضر التي يؤدي حكامها، الذين لا تتعدى سلطة أي منهم حدود مدينته، الزكاة إلى شريف مكة. وتشتهر نجد بجدبها، لكنها عامرة بالثمار في هضابها المختلفة التي تُروى من الآبار العميقة. ويعدد نيبور مدن نجد ونذكر منها: الدرعية التي كانت سابقاً تُعرف بوادي حنيفة، وهي من مدن العارض الذي يشمل أيضاً العيينة التي اشتهرت بظهور ابن عبد الوهاب فيها، ومنفوحة والمجمعة وحرمة وجلاجل والروضة وثرمدا وشقرا والغاط والزلفي والتويم وبريدة وحريملاء والمذنب.

تُعدّ الخرج من أقاليم نجد، ويُعرّفها هذا الرحالة بأنها القسم الجنوبي منها المتاخم لحدود اليمن والحجاز، ويذكر أن يبرين على حدود هجر تُعد من أشهر مدنها. ثم يذكر من مدن إقليم الخرج الأخرى اليمامة التي اشتهرت بمسيلمة الذي ادّعى النبوة، كما يذكر الدلم والحريق وليلى والحوطة والضبعة والسلمية و"هي التي ذكرها الإدريسي". أما منطقة شمال نجد فهي، عند هذا الرحالة، التي تضمّ مقرن ومعكال وعنيزة وعشيرة والقصيم التي "تقع على مسيرة عشرة أيام من البصرة". ويضيف أن إقليم نجد في أوسع معانيه يضمّ منطقة جبل شمر التي تقع على مسافة عشرة أيام من بغداد، والتي تعد حايل وقفار وبقعة من أشهر مدنها. ويدخل نيبور في حدود نجد الواسعة جوف السرحان الواقع بين شمر والشام، وكذلك سكاكا ودومة التي "ذكرها أبو الفدا باسم دومة الجندل"، ويورد أن دومة كان ابناً لإسماعيل عليه السلام كما ورد في بعض الأسفار.

ذكر نيبور أن بدو نجد، شأنهم شأن بدو الجزيرة الآخرين، يقرون الضيف، ومع ذلك فإن المسافر عبر البادية النجدية قد لا يبلغ السلامة. فالمدن النجدية الصغيرة هي أبداً متناحرة تدور في دوامة حرب لا تهدأ ونزاع لا ينقطع. ويضيف أن أهل نجد، شأنهم شأن سائر العرب "لصوص كرام". ويؤكد نيبور الكرم العربي الذائع الصيت، فالضيف يقيم أبداً في ضيافة المضيف، لا يتكلّف إلا هدية يقدمها لمضيفه عند رحيله. ويلاحظ أن في تهامة بيوتاً

عامة للضيافة تقدم لمن يطرقها من المسافرين المأوى والطعام من دون مقابل. ويلاحظ نيبور أيضاً أن العرب إذا طرقهم أي طارق وهم على طعام فإنهم يجبرونه على مشاركته إياهم، ولا يهتمون إن كان ذلك الطارق مسلماً أو نصرانياً، من علية القوم أو من المعدمين. حتى رعاة الحمير البسطاء يلحون على السيارة بأن يشاركوهم طعامهم ويحسون بسعادة غامرة إذا استجيب لهم.

يقول نيبور إن الأحساء هي قصبة بني خالد وهم من القبائل الكبيرة التي تسكن الصحراء وتهدد المنطقة التي تصل حدودها إلى حلب وبغداد. وبلدة الأحساء التي يطلق عليها، أو ربما على منطقتها، اسم هجر أحياناً، عامرة جيدة البناء يحكمها الشيخ عرار، وهي مشهورة بتصدير الحمير والإبل. وتُعد القطيف التي يطلق عليها هذا الاسم، أو ربما على ساحلها كله أحياناً، أهم مدنها. وهي ميناء جلّ سكانه من الشيعة الذين وفدوا إليها من البحرين التي تقع على مسافة غير بعيدة منها. والسكان فقراء يعملون في صيد اللؤلؤ لحساب آخرين، لأنهم لا يستطيعون الوفاء بتكاليف مستلزمات هذا النشاط.

يقول نيبور إن الاعتقاد السائد في الخليج هو أن أمطار الربيع تلقح المحار فيتكون اللؤلؤ في داخله، وينقل عن مصدر فرنسي أن أهل القطيف يجمعون مياه الأمطار التي تسقط في أواخر إبريل من كل عام ويحتفظون بها في أوعية يفرغونها بعد ذلك في البحر في الوقت المناسب. ويستطرد بعدئذ في وصف هيئة نزول الغوّاصين إلى الماء مربوطين بحبال تشدهم إلى المركب فيجمعون المحار من القاع.

يذكر نيبور جزيرة تاروت، ثم يحدثنا عن قطر التي يحكمها آل مسلم الذين يسيطرون على الحويلة واليوسفية وفريحة، ويرجّح أنهم يقعون تحت نفوذ بني خالد. ويدفع أهل قطر نحو ثلاثة الآف ربية سنوياً لشيخ بوشهر ليتيح لهم حرية الغوص في مياه البحرين. وفي هذا الصدد يذكر قبيلة بني ياس التي لا تتمتع بأي نفوذ، وتسكن أرضاً جرداء عجفاء لا تدرّ شيئاً ولا تثير حسد أحد ولا يطمع فيها طامع. وأتى نيبورعلى ذكر الكويت، الميناء الذي يبعد حوالى ثلاثة أيام من "بلدة الزبير أو البصرة القديمة"، وعلى مرمى حجر من خور عبد الله، وأفاد بأن سكانها العتوب يعيشون على صيد البحر من لؤلؤ وأسماك، وأن لهم نحو ثمانمئة مركب تعمل كلها في هذه المهنة. وهم نشطون تأخذهم مراكبهم إلى البحرين، فيما يربط أبالتهم بالقوافل بين المنطقة وحلب ودمشق. وذكر أن الكويت يحكمها شيخ عتبي تتبعه أيضاً الجهراء، وهي مدينة خربة تقع على مسيرة يوم شمال الكويت، وهو تابع لشيخ الأحساء، وأنه قد ينفصل عنه أحياناً، وأنها تبدو شبه مجهورة في مواسم الصيد، وأن سكانها يجلون عنها ويفرّون إلى جزيرة فيلكا حاملين معهم أمتعتهم حين يهاجمهم شيخ الأحساء. وذكر أن البرتغاليين كانوا قد بنوا قلعة بالقرب من القرين ما زالت آثارها باقية، كذلك أشار إلى وجود بقايا قلعة برتغالية

أخرى في القطيف التي كان أهلها يعتمدون على صيد البحر أيضاً ولكنهم فقراء لا يملكون قوارب، فكانوا يعملون بالأجر لدى آخرين.

الوهابية

في الأحساء سمع نيبور آراء عن الفكر الوهابي فأثبتها، وكتب عن "عبد الوهاب" من أهالي العيينة من مدن العارض، الذي تلقّى من العلوم التي تدرس في شبه الجزيرة العربية القدر الذي استطاع أن يحصل عليه في مسقط رأسه، ثم سافر إلى البصرة، وقام بعدد من الرحلات إلى بغداد، وعبر فارس وعاد إلى بلدته ليروّج أفكاره وسط مواطنيه، وتمكن من تحويل بعض الشيوخ الذين كان يحارب بعضهم بعضاً إلى إخوة متصالحين، وألّفوا جبهة متحدة ضدّ معارضيهم الذين أصرّوا على ضلالهم القديم، واتفقوا على ألا يقوموا بأي عمل في المستقبل ما لم يستشيروه، وهكذا تمكن من أن يخضع عدّة مناطق في العارض. وجاء معارضوه من الشيوخ الآخرين إلى عرار شيخ الأحساء ليتحالفوا معه. وكان هذا الشيخ يخشى أن يصيب "أهل الدين الجديد" قوّة تمكنهم من أن ينازعوه السلطة، فساق الأخير جيشاً من أربعين ألف مقاتل ضدّ عبد الوهاب ومعه ثلاثة مدافع قديمة ومدفع مورترز، وعاد جيش عرار بالهزيمة بعد أن حاصر الدرعية لفترة ثم تراجع إلى الأحساء.

يحكي نيبور بعد ذلك عن الفكر الوهابي ويتخبّط في تعريفه ويضطرب ويذهب مذاهب شتّى، فهو تارة عنده فكر ديني جديد وتارة أخرى دين جديد، ولكنه أحسن حين قدّم لذلك بقوله: "حدثني أعرابي من الأحساء...". ويذكر بعدئذ حملة المكرمي على الدرعية التي يقول إنها كانت على الأحساء وشيوخ العارض، والتي حصلت "في عهد عبد الوهاب أو ربما في عهد ابنه محمد..." في عام ١٧٦٤م، ولقي المكرمي الذي يصفه نيبور بأنه "يبيع الجنة لأتباعه بالذراع ويهب لمن يدفعون له أكثر أماكن في الفردوس" التأييد من الشيخ، نظراً إلى الصداقة التي ربطت بينهما! ويذكر في مكان آخر أنه "بعد وفاة عبد الوهاب حلّ ابنه محمد مكانه، "ما يدل على أنه لا يدرك أن المؤسس هو محمد عبد الوهاب وليس والده الشيخ عبد الوهاب، ولا يدرك أيضاً أن مؤسسها الشيخ محمد لم يجأر بدعوته إلا بعد وفاة والده عبد الوهاب. فإذا كان نيبور قد خلط في الأبجديات، فإن كل قارئ له أدنى اهتمام بالتاريخ السعودي يدرك أن الرجل قد ضلّ الدرب تماماً حين اعتمد على رواية ذلك الأعرابي، وما آفة الأخبار إلا في رُواتها!

استمد نيبور قدراً من معرفته بالفكر الوهابي من الأحساء التي كانت في عداء متصل مع دعوة ابن عبد الوهاب قبل أن تدخل الأولى في دائرة سلطة الدرعية، فلا غَرْو أن كان بعض الرواة متحاملين تحاملاً جعلهم يقاربون بين آراء الشيخ وأشد الأفكار الباطنية غلوّاً، رغم

البعد بينهما بُعد السماء عن الأرض. واستمد هذا الرحالة قدراً آخر من معرفته بفكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أهالي الزبير الذين كانوا أيضاً في عداء مع الدرعية ذكره نيبور نفسه حين قال: إن مواطني نجد من الذين لم يرغبوا في اتّباع محمد بن عبد الوهاب نزحوا إلى الزبير أو البصرة القديمة وعمروها، فغدت مدينة كبيرة بعد أن كانت قرية صغيرة. ولنا أن نتساءل: هل تتوقع ممن ترك دياره معارضاً لدولة وليدة قامت على فكر الشيخ أن يشهد لهذا الفكر إلا بما يُعبر عن معارضته له؟ واستمد نيبور أيضاً قدراً من معرفته بهذا الفكر من شيخ تاجر كان يزور المدن الرئيسة في نجد منذ صباه "ويبدو أنه رجل ذكي..."، ولربما كان هذا الشيخ الأخير أقلّ تطرفاً في الغلوّ ضدّ الوهابيين، رغم أنه – في ما يبدو – بنى رواياته هو الآخر على السماع، لأنه – كما يبدو من سياق نيبور – كان قد قعد في ذلك الوقت عن التجارة. يقول نيبور إنه نفى وجود صداقة بين عبد الوهاب والمكرمي، وإن ما بينهما لا يعدو، ربما، نوعاً من أنواع التعاون بينهما ضدّ العرب السنّة! الذين عقدوا تحالفاً مع شيخ الأحساء. ويحترز نيبور لنفسه – كما هو شأنه دائماً – فيقول: إنه لم تُتح له فرصة لقاء أيّ من فقهاء الوهابيين ليسأله الرأي، ولكنه أبدى تعاطفاً واضحاً مع هذا "الدين الجديد". أخذ نيبور هذه الآراء المتحيّزة فأوقعته – حين حلّلها – في أخطاء شنيعة، أولها هجومه الشرس على المسلمين من أهل السنّة عامة أو كما يسميهم المسلمين "الكاثوليك" الذين يعتقد أن الشيخ عبد الوهاب قد خرج بدعوته السلفية عنهم ليؤسس "ديناً جديداً"، وأضاف أن الخلافات بينهما ليست كبيرة، فهم يؤدون الشعائر نفسها من صلاة وصيام، غير أن عبد الوهاب الذي عمل للرجوع بالإسلام إلى أصوله الأولى ينكر أولياء الله الصالحين والاستعاذة بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويرى وجوب أن توجه الصلاة إلى الله وحده من دون سواه. ويمضي نيبور فيهرف بما لا يعرف ليحدثنا أنه عرف من بعض الأبالة أن عبد الوهاب يرى وجوب إخلاص العبادة لله وحده، "ولا يجوز لأحد أن يذكر الرسل والأنبياء في صلاته، بل لا يجوز لهم أن يذكروا اسمه شخصياً! لأنهم بذلك يدخلون في الشرك". كذلك ينقل عن أحد البدو قوله إن عبد الوهاب ربما يرى في محمد وعيسى وموسى مجرد أشخاص صالحين يجوز للمرء أن يستمع إلى نصائحهم ولكنه ينكر الوحي. ويعود نيبور ليستنكر هذا الرأي لأنه صدر من بدوي، وقول البدو لا يُعتدّ به في أمور الدين – كما يقول – "لأنهم لا يأبهون لمحمد ولا للقرآن الكريم". ويسرد نيبور بعض آراء الشيخ التي وردته محرّفة من مصادر مختلفة مغرضة أو جاهلة، ويزداد تخبّطه لأنه لا يعرف عن الإسلام وفرقه وفقهه إلا القليل، ما لا يمكّنه من النقد، وإذا أضيف إلى ذلك عدم فهمه للّهجات العربية المختلفة، تبدو المشكلة أكبر. ويرى نيبور أن عبد الوهاب ينكر النذور التي "يعتمدها أهل السنّة" حين تنزل بهم ضائقة ثم تنفرج فيقدمون الطعام إلى الفقراء، كما أنه يعترض على من يقتل عدوّه من دون الرجوع إلى السلطان، وينتهي إلى القول إن محمد بن

عبد الوهاب قد حلّ محل أبيه في نجد، وأصبح في العارض بمثابة البابا، وأنه قد أصبح أقوى زعماء العارض طرّاً، وصار يتلقى ضريبة تسمى الزكاة يصرفها في الفقراء وفي الدفاع عن دينه!

كانت كتابات نيبور في هذا الشأن مثل كتاب هيومز Humes وروبرتسون وغيرهما من الناشطين في مجال الهجوم على الكاثوليكية الرومانية واتهامها في الإعلام الأوروبي البروتستانتي "بالتعصب والهوس وعبادة القديسين". هاجم نيبور من سمّاهم أهل السنّة الذين اعتقد أنهم كلهم يقدسون الأولياء، وينذورن لغير الله، ويقسمون بغيره سبحانه، ويتخذون التعاويذ، ويؤمنون بالسحر الذي "لعن القرآن" - كما يقول نيبور - العاملين به، كما يرى هذا الرحالة أن أهل السنّة أفسدوا الإسلام باتباعهم أهل الشروح ومجافاتهم النصوص، ويصبّ جامّ غضبه على المذاهب الإسلامية الأخرى ولكن بدرجة أخفّ وأسلوب ألطف، و لم يخرجهم من الملة تماماً كما أخرج عنها أهل السنّة بجهله زوراً وبهتاناً. وانتهى نيبور في دفاعه عن الوهابية إلى إدراج كثير من الممارسات التي عدّها إصلاحاً وهي عند الوهابيين وغيرهم من المسلمين كفر صراح. ووصل في إشادته بالوهابية إلى الإساءة إلى الجنس العربي كله حين قال: هل يمكن مثل هذا "الدين" الذي يتعدى المحسوسات وكل شيء ملموس من وثن وغيره، أن يكتسب أرضاً بين شعب "بدائي جاهل" مثل الشعب العربي؟!

قد لا نلوم نيبور في وصوله إلى هذه الاستنتاجات الخاطئة؛ فالرجل قد حشد كافة ما وجده من تقارير اجتهد في جمعها، وقارن بينها وعالجها على ضوء فكره وبعين ثقافته. ورغم اجتهاده في إثبات مصادره واتباع نوع من أنواع المنهج العلمي في هذا الصدد، إلا أنه - وهو الفلاح القروي المسّاح الذي لم يعرف من فنون المساحة شيئاً إلا بعد أن بلغ من العمر مبلغاً - لم يكن يحسن المناهج العلمية للإنسانيات. يجب على من يريد أن ينتقد ملة أو معتقداً أو فكراً أن يراجع المصادر ويتحرّى عنها ويلتزم الحيدة ولا يكتفي بالرواية والسماع كما فعل نيبور. وينسحب هذا على مؤرّخينا ومفكرينا أيضاً إذا أرادوا أن يبدوا رأياً في الوهابية أو غيرها من المدارس الدينية. فعند النظر في الوهابية على سبيل المثال عليهم أن يراجعوا مصادرها في كتب الشيخ محمد عبد الوهاب والمناصرين لفكره، وكتب المعارضين لهذا الفكر، وهي كثيرة، ليصلوا بالتحليل السليم إلى الحقيقة العلمية التي يصبو إليها كل مؤرخ. ولا نملّ من تكرار القول: علينا حين نكتب في ما يتصل بالإسلام فكراً أو تاريخاً ألا نعتمد بأي حال من الأحوال ما كتبه الرحالة الغربيون ما لم يكن الكاتب الرحالة مستشرقاً دارساً لبعض زوايا الإسلام، فيجب على المختصين الرد عليه، ولا شيء فوق ذلك.

نخلص إلى أننا نقبل بأدب الرحالة الغربيين مصدراً مسانداً للمؤرخ، يأخذ منه ما شاهده الرحالة بعينه لا بعين ثقافته، ويأخذ بتجاربه التي مرّ بها لا بحكمه على التجارب، ويقبل - بعد نقد الرواية - بما رُوي له ولا يأخذ بتحليل الرحالة للرواية. فإذا قال نيبور: إنه سمع عن

دعوة ابن عبد الوهاب في الأحساء أو في الزبير أو في غيرهما هذه الرواية أو تلك استخلصنا موقف هذه المنطقة من الدرعية، وإذا قال إنه سمعها من تاجر أو صانع أو زارع استنتجنا منها شيئاً من الحياة الاجتماعية والعلاقات مع المحيط الإقليمي، وإذا قال نيبور: إنه مرّ بتجربة مع حاكم هذه المنطقة أو تلك، حلّلنا التجربة واستخلصنا أبعادها. ولا يمنعنا ذلك من القول إن نيبور كان مراقباً حصيفاً ذا عين ثاقبة تنفذ إلى أدقّ التفاصيل. أدرك الرجل أبعاد المهمة التي كلفت بها البعثة فعمل على القيام بها بأمانة وإخلاص.

المذاهب الإسلامية والملل والنّحل

يرى نيبور أن المذاهب الإسلامية أربعة هي المذهب السنّي الذي عليه الأتراك والغالبية العظمى من العرب، والمذهب الشيعي السائد في أوساط الفرس والمناطق الشرقية من الخليج، وخاصة في جزر البحرين والمتاولة في سوريا الذين يشبهون الشيعة، والمذهب الزيدي في اليمن الذي يُنسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي (رضي الله عنهم) والمذهب الإباضي المنتشر في عمان والذي يعود في أصله إلى "أعداء" الخليفة علي رضي الله عنه والذين أبيدوا تماماً في عهده و لم يبق منهم إلا تسعة أنفار، ذهب اثنان منهم إلى عمان حيث نشروا مذهبهم. ويضيف نيبور أن هناك مذاهب أخرى أقلّ شأناً ومنها "مذهب مساليخ"؟ يعتنقه العرب القاطنون بين الحجاز واليمن. ولهؤلاء آراء متميزة في الدين، ومنها أنهم يختتنون بطريقة تختلف عن غيرهم من المسلمين! وهناك أيضاً المذهبان اللذان أسّسهما المكرمي في نجران وعبد الوهاب في نجد. ويذهب نيبور إلى القول إن الزيود يعتقدون أنهم الفرقة الناجية، ومع ذلك فإن أهل السنّة لا يسمحون بأن تقوم عبادات عند الكعبة إلا لمذاهبهم الأربعة التي يعدونها القويمة، وهي الشافعي والحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي. ويتفق السنّة والشيعة والزيود على أن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم هو أعظم الأنبياء، ولكن الزيود يعتقدون أن عليّاً رضي الله عنه قد لقي ظلماً كبيراً حين انتزع الخلافة منه كلّ من أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، ولكنهم مع ذلك لا يسبّونهم كما يفعل الشيعة، كما أنهم لا يقولون بالأئمة الاثني عشر المعتمدين لدى الشيعة. ويلتزم الزيود بالصلاة التي يلتزم بها المسلمون في المناطق الشمالية. كذلك يلتزم الزيود، في ما رُوي لنيبور، بالوضوء والطهارة التزاماً كاملاً، فقد بلغه أنهم ينزعون عنهم سراويلهم خشية أن يكون قد علق بها شيء من النجاسة. ويشكك نيبور في ما رُوي له، ويدفع ذلك بقوله إن اليمني العادي لا يلبس سروالاً ولا قميصاً، بل يشد إزاراً حول خصره، وإنه لو خلع الإزار لأصبح عارياً تماماً. ويرى نيبور أن السنّة والشيعة والزيود يبذلون الاحترام والإجلال لذرية النبي صلى الله عليه وسلم، أما الإباضيون فلا يرون لهؤلاء فضلاً على من

سواهم، ويزعمون أن جميع المسلمين متساوون في الحقوق ونيل الألقاب ومراتب الشرف وتولّي الوظائف الدينية العليا. ويُحرّم الإباضية، شأنهم شأن المسلمين الآخرين، الخمور. ولا تدخن الإباضية التبغ ولا يتناولون القهوة، ولكنهم يقدمون القهوة للضيف إكراماً له. ويشيد نيبور بإمام مسقط، فهو يسمح لرعاياه من ذوي المقام الرفيع بالجلوس في حضرته إلى جانبه، ويتجنّب كل مظاهر الترف، ويحثّ عائلته على تجنّب ذلك في ملابسهم ومساكنهم ومساجدهم. ويراعي الأئمة العمانيون العدل بدقة، ويجرونه على الأجانب كما يفعلون مع أبناء جلدتهم. ويعود ليقول إن بعض أؤلئك الأئمة يخرجون على ذلك، فالإمام السابق كان مدمن خمر وممارسة رذائل أخرى، ما أدّى إلى إقالته وحرمان أسرته من الحكم.

يحدثنا نيبور عن "مذاهب" أخرى مثل "بدعة جوجل الوافدة من مكران". وهذه البدعة من "المذاهب" التي ذكرها نيبور لم نسمع عنها أبداً. ويقول إنه قد سمع أن شيخ هذا المذهب قد خرج من شجرة بعد قطعها وهو يحمل كتاباً أسّس مذهبه على هديه. ويشير نيبور إلى أن الدراويش غير معترف بهم لدى الزيدية ولا الإباضية، أما في الحجاز فهناك طوائف مذهبية منها النقشبندية والخلوتية والبكداشية والمولوية وغيرهم. ويلاحظ نيبور وجود عداء بين السنّة والشيعة، ويحمل بعضهم لبعض حقداً لا يحملونه للكفار ولا لمخالفيهم في الدين. يسمح كلاهما للنصارى واليهود ببناء الكنائس والبيع، ولكنهم لا يسمحون في فارس ببناء مساجد السنّة، ولا يسمح أهل السنّة في تركيا للشيعة بإقامة شعائرهم علناً إلا في أضرحة الرجال المقدسين لديهم في بغداد نظير ثمن باهظ ليستمتعوا بهذه الحرية. وينفي نيبور هذا التعصّب الممجوج عن أهل اليمن حيث يتعايش الزيود والسنّة، بل إنهم لا يكرهون أصحاب الديانات الأخرى ولا يحقدون عليهم رغم أنهم يعاملونهم بشيء من الترفع على غرار معاملة الأوروبيين لليهود.

لا يحترم عامة المسلمين الزنادقة والكفار، ولكنني لم أسمع أنهم يحرقونهم إلا إذا اقترفوا ذنوباً أخرى مثل مواقعة امرأة مسلمة. ويمكن هذا الكافر الزنديق في مثل هذه الحالة أن ينال العفو ما إن يعتنق الإسلام. إلا أن من يكفر بالله ويسيء إلى اسم الجلالة فإنه يعاقب بالقتل "حتى لو كان مسلماً".

لا يسعى العرب للدعوة إلى دينهم، لا بالإكراه ولا بالحسنى، ولكنهم يعملون على حماية من يرغب في الدخول إلى دينهم. ويلتزم أهل اليمن بهذا المبدأ أيّما التزام، فالبحارة الأوروبيون والهنود حين يهربون من السفن في المخا ويعلنون طواعية دخولهم في الإسلام ويظهرون صدق التزامهم به، يجدون الحماية والرعاية ولن يعانوا الفاقة والعوز والحرمان. يلتزم حاكم المخا بدفع تالر ونصف شهرياً لكل متحوّل إلى الإسلام ما يمكنه من عيش الكفاف (التالر عملة اسكندنافية قديمة). ولا يعني هذا أن أهل اليمن يسعون إلى زيادة عدد معتنقي دينهم بمثل هذه المبالغ البسيطة القيمة. ولا يمنع الدين الإسلامي النصراني المتحوّل إليه من مخالطة

النصارى الآخرين، ولا يُبدون أي غيرة من ذلك ولا يحولون دونه ودون مغادرة البلاد. ولا يقطعون عنه الراتب إلا إذا تعلّم حرفة تمكنه من كسب قوته. ولاحظ نيبور أن فرنسياً تحوّل عن النصرانية وهرب من سفينة إنجليزية في المخا ظلّ يتلقى هذه المنحة و لم تُحجب عنه إلا بعد أن تعلم حرفة أعانته على كسب قوته. وقد عمل هذا الفرنسي المتحول مع بعثة نيبور في بيت الفقيه ورافق البعثة إلى مخا وتعز وصنعاء. ولا يُقسر المسلم الذي يتزوج نصرانية أو يهودية زوجته على إخراجها من دينها.

يرى المسلمون البانيان كفاراً منبوذين، وليسوا سواء مع أهل الكتب السماوية، ولا يتزوج المسلمون منهم كما لا يتزوجون من الفارسيات اللاتي يقدسن النار. ويضيف نيبور: وأظن أن المسلمين لا يشاركون أهل هذه المعتقدات الطعام. ولا يسمح للبانيان في اليمن بحرق موتاهم، أما في مسقط فالأمر مختلف حيث يتمتع أتباع كافة الملل بحرية أداء طقوسهم وفق ما تقضي به تعاليمهم. وللبانيان في مسقط منطقة مخصّصة لهم على ساحل البحر يحرقون فيها موتاهم. وكنت كثيراً ما أزور بيت أحدهم فأجده يحتفظ بعدد كبير من التماثيل الخزفية، لا يحاول أن يخفيها عن أعين المسلمين مدركاً أنه لا يخشى منهم أي لوم.

من التراث العربي

مع إنكارنا تحليلات نيبور وكافة الرحالة الغربيين الآخرين الذين اعتمدوا في مصادرهم على الرواية فقط، وحكمهم سلباً وإيجاباً على ثقافتنا، إلا أن نيبور يبقى من أكثر الرحالة الغربيين إعجاباً بجوانب من تراثنا، ويرى أن بعضه يفضل التراث الأوروبي أحياناً، وهذا ما لا نجده إلا عند عدد قليل من الرحالة الغربيين الآخرين الذين جاؤوا بعده. يتساءل نيبور – على سبيل المثال – حين لقي كرماً غير مألوف في ثقافته من أحد الحكام العرب: هل يمكن أن يلقى مسافر عربي مثل هذا الكرم من أي حاكم أوروبي؟ وحين تحدث عن لصوص البادية العربية قال: إنهم يسلبونك، ولكنهم ليسوا كلصوص الأوروبيين يسلبونك ثم يقتلونك. وحين كتب عن العرب أنهم ينامون بملابسهم التي يسعون بها نهاراً، لاحظ أنهم بنحو عام أنظف من الأوروبيين؛ لأنهم يغتسلون كثيراً، ويقلّمون أظافرهم ويزيلون الشعر من آذانهم ومناخرهم بالمقصّ، وشعر العانة بمراهم خاصة، وشعر الإبطين بالموسى. ويضيف نيبور أن المسلمين يأنفون من القيام بالمهن القذرة كالحجامة والحلاقة وخدمة الحمامات العامة ويترفّعون عن كل من يمارسها. فالحلاق يغسل شعر كل من يأتيه من دون تمييز، وهو يختن الصبيان وقد يضطر حين يفسخ الغلفة إلى شدّها ونفخها بفمه ما يؤلم الصبي وقد تنزل قطرات من البول في فم الحلاق.

الزواج والأسرة

ينسب نيبور إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أوصى بالزواج لأنه يرى أن الرجل كالبئر يزداد قوّة كلما ازداد تواتر ممارسته، ويذهب هذا اللعين في نقد ما نسبه إلى الرسول الكريم من دون رادع من خلق أو حياء أو علم في مجال الحديث الشريف أو الشريعة السمحاء. ويصل إلى أن المسلم يستنفذ قواه الجنسية وهو بعد في فترة الشباب.

أما بالنسبة إلى المرأة العربية وأحكام الزواج والطلاق وتنظيم شؤون الأسرة، فقد كتب نيبور ما لم يكتبه أي من الرحالة الغربيين اللاحقين، وإن كنا من جانبنا في هذا المجال أيضاً لا نأخذ منه إلا ما لاحظه، ولا نعتمد ما جاء فيه من حقائق نعتبرها من البديهيات. قال نيبور:

"يخطئ الأوروبيون حين يظنون أن أمر الزواج عند المسلمين يختلف كثيراً عنه عند الأوروبيين، إذ لم أتبين أي اختلاف مثل هذا في شبه الجزيرة العربية. إن نساء هذه الأرض العربية حرّات تماماً وسعيدات أيضاً مثل نساء أوروبا. إن التعدد في حقيقة الأمر موجود عند المسلمين، وهذا أمر تنزعج له نساؤنا، ولكن العرب نادراً ما يستغلون هذا الامتياز، وكذلك امتياز امتلاك الجواري، فمثل هذا الأمر مقصور على الأثرياء فقط. أما الآخرون فإنهم لا يعدّون التعدد امتيازاً بل يرون فيه إرهاقاً لهم؛ فعلى الزوج الذي يعدد أن يراعي -بما يناسب حاله - المساواة التامة بين زوجاته". ويرى أن المعددين أقل إنجاباً من غيرهم. فالمعدد - في رأيه - عادة ما يكون مستنزفاً، لأن كلاً من زوجاته تستميله لتظفر به من دون ضرائرها، فيصبح حالاً فاقداً لقدرته الجنسية. ويقول نيبور: إنه تعرّف في العراق إلى "ملا" له أربع زوجات عاملات يساعدنه على تكاليف الحياة، ويرى أن المسلمة التي لها حظّ من الثراء أسعد حالاً من النصرانية، فهي غير مكلّفة بالصرف، ولهذا تراها تتحكم في شؤون الأسرة بنحو غير متيسّر للمرأة الأوروبية. ويقول أيضاً:

"إن الطلاق الذي هو أمر مخيف لدى الجنس اللطيف في أوروبا لا يمثل ظاهرة من الظواهر العادية في الشرق، فهذا الحقّ لا يُستغل ما لم تدفع إليه ظروف قاهرة. فالطلاق لأسباب واهية يُعدّ سُبّة للزوج وللزوجة على السواء، وسُبّة لأهل الزوجة أيضاً". ويقول:

"إن في الطلاق منجاة للزوجات أيضاً، فلهن الحقّ أن يطلبن الطلاق إذا أساء الأزواج معاملتهن"، ولعله يشير هنا إلى حقّ الخُلع. وفي تقديرنا أنه إذا صدق نيبور في قوله بعدم تفشّي ظاهرة الطلاق في المجتمعات العربية في القرن الثامن عشر، فإن مجتمعاتنا الحديثة تكون قد تخلّفت كثيراً عمّا كانت عليه! ويضيف هذا الرحالة أن المرأة العربية تتمتع بقدر عالٍ من الحرية، وأنهنّ يتمتعن بنفوذ عظيم في أسرهن، وإنهن يتلقّين مهراً عند الزواج، وهو حقٌّ خالص لهنّ، وممتلكاتهنّ تعود إليهن خالصة - إذا حدث الطلاق - كاملة غير منقوصة.

يلاحظ نيبور أنه إذا تزوج معدم من موسرة فإنه يعتمد عليها ويحرص على عدم طلاقها، ويضيف: "إن لمن المضحك أن يقال - وهذا ما قاله بعض الرحالة السابقين لي - إن نساء المسلمين إماء، وإنهن وما ملكن ملك لأزواجهن. فقد خلط أولئك الرحالة بين الإماء والحرائر". وأشار نيبور إلى ممارسات أخرى بشأن الزواج وكيف يمكن أن ترفع بنت جميلة أسرتها الفقيرة إلى مصافّ الأغنياء بالنسب، تماماً كما يحدث في أوروبا، وتحدّث عن موضوع البكارة، وانتهى إلى أن الزواج عند المسلمين منظّم بعقد يعقده القاضي ويوقّع عليه الشهود، وأشار إلى أن المسلم يمكنه أن يتزوج من النصرانيات واليهوديات من دون حرج ولا يجبرهن على ترك دينهن، ولكن لا يمكنه الزواج من الهندوسيات وعابدات النار. ويختم نيبور حديثه عن هذه العلاقة الأسرية الشريفة بالقول إن في المدن الكبرى في العالم الإسلامي بائعات هوى يمارسن ذلك بحماية القانون نظير رسوم يدفعنها للسلطات! ويحدثنا عن الظلم الذي يلاقيه الأوروبيون في البلاد الإسلامية "من دون ذنب" حيث لا يُسمح لهم بمعاشرة النساء المسلمات. ويضيف "لكنه يستطيع ذلك حتى مع إحدى بنات أعيان المدينة من المحجبات اللائي لا يُسمح لهن بالخروج إلا في رفقة محرم" وذلك عن طريق وسيط نصراني يتقاضى في الغالب أتعاباً كبيرة. وإذا ضبط العرب الأوروبي متلبّساً فيصل غضبهم إلى حدّ قتل هذا النصراني الذي "قام بهذا الأمر البسيط". أوردنا هذا الهراء الغثّ لنقول إن أبلغ أهل الغرب حكمة يرى في أهل الشرق همجية إذ يغضبون لحماية العرض غضباً يؤدي إلى القتل في أمر يراه الغربي هيّناً وحقاً للمرأة في حرية الجسد.

ينفي نيبور الفكرة الرائجة في أوروبا عن أن للعرب عدداً من الخصيان لحراسة الحريم، وقال: إن هذا الأمر غير مألوف في الشرق ولم يصادف في شبه الجزيرة العربية أي خصيان، وأن هذه الممارسة ربما كانت بنحو غير كبير في قصور بعض "الملوك" العثمانيين، وقال: إنه قد عرف أن لباشا حلب خصيّيْن، وأن لباشا الموصل خصيّاً يحتفظ به، لأنه عائد لأبيه. وحكى أيضاً عن خصيّ في البصرة يعمل في تجارة الرقيق، وتحدث بعد ذلك عن طبيعة علاقة الخصيان بالنساء. أما الجواري فقد قال نيبور: إن عددهن في أوروبا يتساوى أو ربما يزيد على عدد مثيلاتهن في الشرق. ويعود مرّة أخرى ليناقش موضوع التعدد فيقول: "إن المرأة في الشرق يسعدها أن تكون أماً فتراها قانعة بأن تكون زوجة ثانية".

المخدرات والخمور

يطرق نيبور موضوع المخدرات في البلاد العربية فيقول: إن العرب في العادة لا يستعملونها، "فلم أرَ عربياً يستعمل الأفيون". ويشير إلى أن بعض العرب يمضغون القات "الذي يؤتى من

جبال اليمن"، ويمضغ الشباب فترات طويلة أوراق القات الغضّة، "أما العجائز الذين فقدوا أسنانهم فتطحن لهم تلك الأوراق بمدقّ ثم يجعلونها في أفواههم". ويقول نيبور: إنه حاول أن يعتاد استعمال القات إلا أنه لم يستطع "فمذاقه غير طيب، كما أنه يؤرق، وإذا نام الشخص فنومه لن يكون هادئاً". وقال: إن بعض الطبقات الدنيا من المجتمع يستعملون الحشيش "وهو أوراق جافة، يجعل من يستعمله في حالة من المرح تتراقص أمامه الأشباح في الخيال، ويصيب شعوراً مزيّفاً بالقوّة.

"تعاطى أحد خدمنا هذا الحشيش فخرج واشتبك مع أربعة من الشرطة، فضربه أحد رجال الشرطة ضرباً مبرحاً ثم ساقه إلينا، لكنه مع ذلك ظلّ يهذي نتيجة سكره ويقول: إنه يمكن أن يهزم الأربعة مجتمعين".

ويحكي نيبور قصة وقعت له وفورسكال في مخا حين دعاهم إسماعيل – أحد الذين عرفهم في جدّة والتقاهم بعد ذلك في مخا – إلى منزله وهيّأ لهما خمراً، واعتذر عن مجالستهما في مجلس الشراب لأنه "مسلم" لا يتعاطى الخمر! ودعا أيضاً أحد الكاثوليك الهنود لمشاركة نيبور وفورسكال المجلس حتى يستأنسا به. وكان الهندي – بحسب وصف نيبور – "كافراً بالدين وسكيراً من الطراز الأول". وقد لا نأخذ بهذه القصة، إذ كشف نيبور بعدئذ أن إسماعيل شخصية غير سوية سبّب للبعثة الكثير من المشكلات. والحقيقة أن هذه القصة وأمثالها ممّا يتواتر ذكره من الغريب عند الرحالة الأجانب، قد لا تكون حقيقية، وربما كانت من بنات خيال الرحالة ليكسر بها رتابة سرده للأرض وطوبوغرافيتها والتجارة ومساراتها، والشيوخ ومداخيلهم، والجند وأعدادهم، والقلاع ومواقعها، وما إلى ذلك ممّا يورده الرحالة عن قصد أو عفو الخاطر في الموضوعات الجادة التي يعالجونها. وعلى العموم، فقد ذكر أن في البلاد الإسلامية بعض الذين يبيعون الخمور، فقد صادف في جدّة يونانياً يصنع الكحول ويبيعها ولكنها "من نوع رديء"، كما صادف أيضاً في المخا بعض البحارة الإنجليز يبيعون العرق الهندي، كذلك وجد عدداً من التجار اليهود والنصارى في عدد من المدن الإسلامية يتعاملون سرّاً في تجارة الخمور.

ملاحظات عن البدو

مثّل موضوع البدو الذي تناوله كافة الرحالة الأجانب مجالاً خصباً للخلط بين الحقيقة والخيال، إذ لا يُعقل أن يكتب أحد عن شبه جزيرة العرب من دون أن يتناول البدْوَ مِلْحَ هذه الأرض وموئل أعرافها. فقد كتب في هذا الموضوع حتى أولئك الرحالة مثل نيبور الذي لم يعرف البادية العربية أبداً و لم يجالس بدوها، ولا نعرف أنه رأى بدوياً في طول جولاته

وعرضها، ولكنه ربما رأى بعض العوائل المتجولة على أطراف المدن الذين ربما كانوا غجراً أو من "الصليب". ونجد أن نيبور كلما ترك الحديث عن البدو في فصل من فصول كتابه عاد إليه مجدّداً في الذي يليه.

يقول نيبور:

> إن البدو هم العرب الأصيلون، وإنهم يُثمّنون الحرية التي تسمو عندهم فوق الراحة وتتسامى على الثراء. يعيشون في خيامهم قبائل معروفة محددة، ويحافظون على نمط حكوماتهم الموروثة، ويحرصون على سيادة المبادئ الأخلاقية والعادات التي وجدوا عليها أسلافهم وتوارثوها من سالف الأزمان. يعرفون نبلاءهم بالشيوخ الذين يحكمون في أُسرهم ورعاياهم، ولكنهم إذا وصلوا إلى درجة من الضعف لا تمكنهم من حماية أنفسهم من جيرانهم فإنهم ينضمون إلى شيوخ آخرين. وما يلبث هذا التجمع العشائري أن يختار له شيخاً أعلى رئيساً للجميع. وقد يجتمع عدد من الشيوخ الرئيسيين بموافقة الشيوخ الأقل شأناً فيؤلفون تجمعاً، ويختارون من أوساطهم شيخاً لهم يرتضونه، لأنه الأكثر قوّة يُسمونه الشيخ الكبير، أو قد يطلقون عليه لفظ الشيوخ، وتسبغ عائلة هذا الشيخ اسمها على كل القبيلة.

ويستطرد نيبور فيقول:

> إن البدو محاربون؛ فقد ولدوا جميعاً حاملين سلاحهم، وهم كلهم رعاة... تتمثل السلطة بالشيخ الحاكم، صغُر أو كبُر، وينتخب الشيخ لخلافته من أسرته أكثر الأبناء أو الأقارب كفاءة لولاية العهد، ولا يدفع العرب إلا جُعلاً يسيراً لشيوخهم، وقد لا يدفعون لهم شيئاً أبداً. ويُعدّ كلّ شيخ صغير هو الناطق باسم عشيرته وقائدها، ولذا فإن الشيخ الكبير مضطر إلى اعتبار كافة من يحكمهم أحلافاً لا رعايا. وعلى الرغم من أن هؤلاء لا يستطيعون عزله عن منصبه، يستطيعون أن يخرجوا بعشائرهم إلى أرض قبيلة أخرى غالباً ما تحتفي بهم، لأنهم يزيدونها قوّة ومنعة. وينطبق الأمر ذاته على الشيوخ الصغار الذين إذا لم يتسنَّ لهم أن يحكموا كما ينبغي، فإن أتباعهم قد يعزلونهم أو قد يهجرونهم إلى غيرهم من دون نزاع.

ويضيف نيبور:

> إن هذا النمط البدائي من الحكومة الذي يسود المنطقة يدل على عراقة هذا الشعب، ويجعله مثار اهتمام، وما زالت هذه الممارسات غضّة طرية في البادية، ولكن داخلتها في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية تغييرات، وإن لم تكن جذرية...

ويعود نيبور ليتحدث عن علاقة الشيوخ الكبار بالشيوخ الصغار فيقول: "إنهم يعاملونهم معاملة الندّ للندّ؛ فهم يشاركونهم السلطة والسيادة". ويلاحظ أن روح الحرية المتأجّجة في هذه الأمّة المحاربة تجعلهم لا يقبلون الخضوع ولا يرتضون الاستبداد. ولا تسود مثل هذه الروح أوساط ساكني الحضر، ولا تجدها عند الذين يفلحون الأرض. ففي المناطق الزراعية نجد أمراء سادوا المنطقة بالحرب أو بالولاء العقدي، وهذا هو عين الحال في المناطق التي يحكمها شريف مكّة، وأئمة صنعاء، وسادة مسقط، وبعض الأمراء في مناطق حضرموت، غير أن هذه المناطق المذكورة آنفاً تتخللها سلاسل الجبال المتصلة، ما يمكن لوجود شيوخ مستقلين، كما أن هناك عدداً من الأمراء الذين استقلوا ببعض المقاطعات.

ذكر نيبور وجود أنواع من الحكومات الفدرالية في شبه الجزيرة العربية، وأن الذين يفلحون أراضي الأمراء ليسوا بالضرورة رعايا لهم فهم مستقلون، وما يؤدونه لا يزيد على كونه رسوماً نظير حق استخدام الأرض التي يعتبرون بنحو أو بآخر فلاحون عاملون عليها. وينطبق هذا الأمر الأخير على الشيوخ المستقرّين في سوريا ومصر وجبال أطلس في المغرب. وانتهى نيبور إلى القول: إن أئمة صنعاء هم أحفاد محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه، ولهذا اعترفت بهم مناطق اليمن التي يسيطرون عليها بالسلطتين الزمنية والروحية. وأشار إلى أن عبقرية هذا الشعب وعاداته ودينه أيضاً تحضّ على مقاومة الطغيان والتسلط، وهذا ما كان يقيّد سلطان الإمام. وكتب نيبور عن إمارات حاشد وبكيل التي كوّنت اتحاداً قوامه الأمراء الصغار بهدف الدفاع المشترك ضدّ أي تعديات تأتيهم من خارج التجمع، غير أن هذا التنظيم لا يرقى إلى مُسمّى جمهورية فدرالية مثل الاتحاد السويسري مثلاً، ولكنه قريب الشبه بتشكيل الإمبراطورية الألمانية. ويتحدث نيبور عن سلطات هذا الحشد من الشيوخ الذين يحكمون في شبه الجزيرة العربية، ويرى أنه يورث التناقض وعدم الاستقرار، ويسبب العديد من المشكلات التي تقود إلى حروب بين هذه "الدويلات" المتداخلة حدودها بعضها في بعض. "ولكن من حسن الحظ أن هذه النزاعات لا تحمل في طياتها تبعات خطرة جداً، فجيش من ألف بدوي سيعمد إلى الفرار إذا فقد سبعة أو ثمانية من أفراده". ونتيجة لهذا فإن مثل هذه المنازعات سرعان ما تتلاشى وتنتهي بالسهولة نفسها التي بدأت بها.

ينعى نيبور على العرب الذين يعيشون على أرض خصبة ثرية فقرهم؛ فهم يفتقدون المسكن المريح، ويفتقرون إلى الغذاء الطيب، ويلبسون ملابس بائسة، وهم محرومون من كل سبب من أسباب الحياة المريحة. ولكن الأسباب تبرّر النتائج! ففقر البدو اختياري؛ فهم يفضّلون الحرية على الثروة، وبساطة الرعي والتجوال على نَصَب الحياة المقيدة. أما الذين يسكنون المدن منهم والذين يعملون في فلاحة الأرض ففقرهم إجباري بسبب الضرائب الباهظة التي تُجبى منهم، "وتذهب إلى جيوب المتنفذين من الحكام ورجال الدين". ولعلنا ما زلنا في العديد من أقطارنا العربية نعيش هذا الفقر الإجباري الذي استدعاه الفساد الإداري الذي لاحظه نيبور قبل أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان، ولا تزال العديد من حكوماتنا ترى في جبي الضرائب والرسوم لمصلحة جيوب المتنفذين فيها مهمتها الرئيسة.

جاء في الترجمة الممتازة التي قام بها محمد أحمد الرعدي لكتاب توركيل هانسن من **كوبنهاجن إلى صنعاء**:

> غالبية المدن في هذه الدنيا بها قصور، وفي هذه القصور يقطن الرجال الأثرياء الذين لهم مشاكلهم المتعلقة بالخيل والجواري وأشياء كثيرة أخرى. أما الصحراء العربية فلا قصور فيها ولا أثرياء، والحياة فيها غاية في البساطة، وليس لسكانها مشاكل حقيقية فيها. يستيقظ العربي قبل الشروق، قبل أن يغرق النهار في جحيم حرارة الشمس، ليشعل النار ويجلس القرفصاء بجانبها يدخّن غليونه، وينتظر أن تغلي قهوته التي وضعها على النار. وحين تصبح القهوة جاهزة يصبّها ويقدمها إلى الآخرين في أقداح صغيرة لا يسمح كل منها إلا بجرعة واحدة. وتُعاد الأقداح بعد الانتهاء من شرب ما فيها لتُملأ من جديد، وهكذا، مرّات عديدة. وفي هذا يتجلّى أحد معاني التقاليد العربية في الضيافة؛ ذلك أن تقديم قدح كبير مفعم قد لا يكون لائقاً، وقد يكون في هذا ما معناه: إليك هذا، أيها الضيف، اشربه وارحل... ويمرّ وقت ليس بالقصير، والضيف لا يزال ممسكاً بكأسه الفارغة قبل إعادتها لتُملأ من جديد، وقرص الشمس يرتفع إلى عنان السماء، ثم ينعطف إلى الغرب ليلحق بالأفق المنخفض، ثم يغيب في ومضة رعشة، هذه هي حياة الصحراء، لا جديد فيها غير هذا. لا طيور تُغني لطلوع الشمس، ولا شجر يتحرك مع هبوب الرياح، ولا يقطع السكون المخيم إلا صوت الإنسان، وكأن كل الأشياء قد تركت المكان لتسمح للإنسان بأن يمعن النظر بسهولة أكثر، في حياته الخاصة. لا شيء هنا إلا صوت الإنسان والصمت

المطبق، وآثار أقدامه على الرمال الدافئة، وحتى هذه الأشياء حين نمعن التفكير فيها سرعان ما تختفي ويصبح الإنسان هنا لا شيء. لكن الإنسان العربي قنوع بالأشياء الصغيرة، والعرب يعيشون حياتهم، كما يشربون القهوة، قانعين بمصّة منها بين الفينة والأخرى. إنهم ضيوف القدر، ومن العدل ألا ينتظروا منه أن يصبّ الكثير من الثروات في الآنية التي يرفعونها إليه، فلو أعطاهم الكثير من الثروات، وأمرهم بعدئذ أن يتركوه وشأنه فإن هذا لا يتناسب مع تقاليد الضيافة العربية. إن التعريف الوحيد لحياة الصحراء هو أنها حياة الفاقة.

هذا هو العالم الذي واجه أعضاء البعثة الدنماركية، حين غادروا في فبراير عام ١٧٦٣م مدينة اللحية في طريقهم إلى الجنوب فوق سهول تهامة نحو بيت الفقيه.

يستطرد نيبور في الحديث عن البدو ويميّزهم عن عرب المدن والموانئ الذين هجروا بنحو كبير، نتيجة لاختلاطهم بالأجانب، سلوكياتهم. فالبدو رعاة لا يقرّ لهم قرار، يرعون إبلهم ويبيعون منها لجيرانهم، أو قد يستخدمونها في نقل السلع، وفي حملاتهم العسكرية، ويكرهون الزراعة ولا يحتفظون بحيوانات داجنة إلا ما كان من الشياه وبعض الخيول والإبل. ويلاحظ نيبور أن البدو يتجولون في الصحراء من دون تناول جرعة ماء مدة خمسة أيام، وأنهم يستطيعون اكتشاف المناطق التي توجد فيها المياه بتفحّص التربة وباستقراء شكل النبات في المناطق المستهدفة، وأشار إلى أن حال شيوخ البدو ترحال دائم على صهوات جيادهم أو أكوار إبلهم، يتفقدون سلوكيات أتباعهم، أو يزورون أصدقاءهم، أو جرياً وراء الصيد. ويدافع نيبور عن الهدايا التي يتلقاها هؤلاء الشيوخ من الأغراب الذين يدخلون أراضيهم، ويدفع عنهم الابتزاز بالقول: إن الهدايا تعتبر رسوم مرور، وذلك أمر معترف به لدى كافة الشعوب، ويذكر ما نصّه: "يقال إن البدو قد اعتادوا السرقة، ولا يبدو هذا الاتهام من دون أساس يسنده، فكل أمّة من الأمم التي تعيش حياة فاقة لن تنجو من مثل هذه الممارسة". ويضيف نيبور في حديثه عن اللصوص في تلك السباسب المترامية حيث الأفق ممتد الاتساع كأنه المحيط. يرقب هؤلاء اللصوص المسافرين من مسافة بعيدة تحدوهم الرغبة في سلب الأغراب فيقتربون منهم ثم يسلبونهم إذا وجدوا أن قوّتهم تفوق قوّة الآخرين. ولصوص العرب ليسوا غلاظ القلوب، فهم لا يقتلون الذين يسلبونهم ما لم يقف هؤلاء الأخيرون موقف المدافع عن أموالهم وينجم عن ذلك مقتل أحد البدو المهاجمين فتجدهم يتأثرون لموته. أما إذا لم يحدث شيء من ذلك فإن اللصوص يسلكون سلوكاً يتسق مع الكرم الذي يمتازون به عموماً. ويفاضل نيبور بينهم وبين لصوص أوروبا – كما سبق أن ذكرنا – ويرى أنهم أكثر إنسانية من الآخرين.

العلوم والمعارف عند العرب

كتب نيبور عن العلوم والمعارف عند العرب، ورأى أن البحث العلمي لا يظفر بالاهتمام اللازم من حكام العرب، فهم لا ينفقون عليه كما يفعل حكام أوروبا، ولذلك لن تجد في الشرق، إلا في ما ندر، من يستحق أن يُسمّى عالماً. ويقول إن الشرقيين يعلّمون أبناءهم القراءة والكتابة، وأفاد بأن البنات يتلقين الدروس في مبادئ القراءة والدين على أيدي معلمات، وبأن الشيوخ والأعيان يستعملون معلمين مخصوصين لتعليم أبنائهم، وكذلك عبيدهم الذين يتوسمون فيهم الفطنة. كذلك يشير إلى أن العديد من الجوامع والمساجد الكبيرة تضمّ مدارس لتعليم مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية ومبادئ الحساب، وأن الصدقات والتبرعات تفي بالقيام بنفقات هذه المدارس. أما المدارس العليا في المدن الكبرى فتشتغل بتدريس الفلك والتنجيم والفلسفة والطب، إلا أنها دون مثيلاتها في أوروبا. ويرى نيبور القصور في المناهج وليس في الطلبة، فالعرب يجهلون الاكتشافات الحديثة، فتراهم يهتمون بالتنجيم أكثر من اهتمامهم بالفلك، رغم أن القرآن – كما يقول نيبور – يعدّ التنجيم إثماً ورجماً بالغيب. ويقول إن في زبيد كلية مخصصة لأبناء السنّة وأخرى في ذمار لأبناء الزيود، وينتقد عدم تكافؤ الفرص للظفر بالوظائف العامة، فعادة ما تعقد الامتحانات للمنافسة على تلك الوظائف، ولكن لا يظفر بالوظائف الرفيعة غير أهلها من المحاسيب، أما المُجدّ فيقضي حياته كاتباً بسيطاً أو معلم مدرسة مغمور! ويرى الطب صناعة كاسدة في البلاد العربية، وأن الطبيب لا يحصل على أجره إلا بالحيلة، ولذا تراه غير حريص على شفاء مريضه ليستخلص من ذوي المريض أكثر ما يستطيع الحصول عليه. ويدّعي نيبور أنه عرف في اليمن أطباء متمرّسين في علوم النطاسة والصيدلة والمختبرات ولهم القدرة على معالجة الحروق وغيرها، ويتقنون فنون البيطرة، لكنهم مع ذلك، لا يكادون يحصلون على قوت يومهم. ويعرض نيبور بعض الأمراض المستوطنة في شبه الجزيرة العربية، ويذكر منها الجذام بأنواعه الثلاثة التي منها البهاق، وهو غير معدٍ، ويعالج بالكبريت، والبرص الذي هو أيضاً غير معد. أما النوع الثالث فهو خطير، تبدأ أعراضه بسقوط الأظافر ثم يستشري فتسقط السلاميات الواحدة تلو الأخرى، ويُعزل المرضى بهذا النوع من المرض أو يرحلون من البلاد. ترسل بوشهر المصابين به إلى البحرين التي يُبعدون إليها أيضاً مرضى الشرايين. وينتشر الجدري كذلك في البلاد العربية مع أن العرب حتى في البادية يعرفون طرق التطعيم. تستعمل البدوية الشوك تغرس به المصل في ذراع طفلها. ويعرف العرب خصائص العديد من النباتات الطبية، فقد رأى نيبور في اليمن فلاحاً يشقّ لحاء شجرة وتناول مما سال منها قدراً طفيفاً لفك إمساك بطنه، وكان يدرك أنه لو أفرط في تجاوز القدر المعقول فإنه سيهلك. ويعتقد العرب أن وضع العقيق اليماني، وهو من الأحجار الكريمة، على الجرح النازف يوقف النزف حالاً.

يصف نيبور مرضاً في اليمن نشأ من تناول المياه الراكدة يتمثل في يرقات يتناولها الإنسان حين يشرب هذا الماء فتفقس داخل جسده فتصبح ديداناً تبرز من جسم ذلك الآدمي. وحين يبرز طرف تلك الدودة التي تماثل الخيط الرقيق سماكة والتي يصل طولها الكُليّ إلى حوالى ثلاث أقدام، يلفّون الجزء البارز منها حول عود صغير، ويُوالون ذلك يومياً بحرص شديد حتى تخرج الدودة عن الجسد كلياً في مدى عدّة أسابيع. أما إذا انقطعت قبل استخراجها سالمة فإنها تبدأ في النمو من جديد. ويلاحظ نيبور أن أمراض الأسنان أقل شيوعاً عند العرب مما هي عليه عند الأوروبيين، ويرد ذلك إلى اهتمام الأوائل بالنظافة، ويتولى الحلاقون عمليات خلع الأسنان. ويستمر نيبور في سرده لفنون العلاج عند العرب، فيحدثنا عن الحجامة والكي والمسح بالزيوت ومستخلصات الأعشاب المختلفة.

يقول نيبور إن العرب شغوفون بالشعر يتابعون منشديه في المقاهي ويستمعون إلى ملاحم عنترة وبيبرس ورستم وبهلول "تلك الشخصية الظريفة التي عاشت في بلاط الرشيد". ويبدأ بعد ذلك في سرد أسماء لعلوم عربية هي في الحقيقة ليست من العلوم في شيء، بل هي طلاسم متصوفة ودجل سحرة. يذكر من ذلك علم اسم الله الذي يزعمون أن الله سبحانه "قفله" والرسول صلى الله عليه وسلم "مفتاحه"، وأن من يعرفه يُطوى له الزمان والمكان إلى حيث لا حيث. وعلم السيمياء، وهو ضرب من علوم السحر يستطيع من يبرع فيه أن يأكل النار ويلتهم الأفاعي حيّة. وعلم القرة، وهو فرع من السيمياء يختصّ بالرقى والتعاويذ والتمائم، وقد برع في هذا الفن بعض اليهود والنصارى الشرقيين. وعلم الرمل، ومن يبرع فيه يستطيع أن يقرأ مستقبل من يسأله ذلك، كما يستطيع أن يخبره باسمي أبيه وأمه. ويقول نيبور إنه قد صادف في القاهرة يهودياً برع في هذا الفن. وعلم السحر، وهو يختص بالإضرار بالغير، ويخبر أن رجلاً في مسقط عشق امرأة فاستحدث لها سحراً فهجرت زوجها إليه. ويستطرد هذا الرحالة فيذكر ما كانت أكثر مجتمعاتنا تظنّه علماً ولكنه كان في حقيقته جهلاً ورثنا في حاضرنا بعضه، فلا مراء أن بتنا نثق بأن الغرب موئل العلوم التي أهّلته ليكون لعالمنا العربي الطاعم الكاسي، وتيقنّا أن ليس لنا من العلم شروى نقير، فلا سبيل للحاق به. ونختم بقول نيبور إن العرب يشهدون على أنفسهم بأنهم أقل نزاهة من الأوروبيين الذين لا يخلفون بوعودهم، وإنهم يوصمون أنفسهم بالسرقة والاحتيال والرياء. وليس لنا أن ندافع عن قومنا بما يدمغون به أنفسهم حين يقارنونها بالأوروبيين، فقد ناء نيبور بعبء ذلك عنا حين قال: ينبغي عدم تعميم هذه الصفات على العرب كلهم، فمنهم من هم على غير ذلك!

العودة إلى أوروبا

زار نيبور بعد ذلك عدّة أماكن في فارس، ووصل إلى شيراز في الثالث من مارس، كما زار عاصمة كسرى وعدّة أماكن في جنوب العراق، بما في ذلك البصرة التي وصفها – ولا ندري أحقّ ذلك أم باطل – بأنها مدينة قذرة. وغادر إلى بغداد بعد أن مكث في البصرة أربعة شهور كاملة، واتجه من بغداد إلى الموصل، ووصل في ٢٩ المحرم ١١٨٠هـ/السادس من يوليو ١٧٦٦م إلى حلب ليخلع عنه اسم عبدالله الذي لازمه في العراق ستة أشهر، ثم غادر إلى قبرص وكرّ راجعاً إلى يافا، وغشي عكا ونزل في القدس في ضيافة بعض رهبان الفرنسيسكان، ثم عاد إلى يافا ومن ثم إلى عكا فصيدا فدمشق، ثم إلى صيدا مرّة أخرى فاللاذقية عن طريق طرابلس، ودخل حلب مرّة أخرى. وبعد هذا التطواف في فلسطين والشام ركب البحر إلى القسطنطينية، وغادر تركيا في ١١ المحرم ١١٨١/الثامن من يونيو ١٧٦٧ ليصل إلى كوبنهاغن في السادس من رجب ١١٨١/السابع والعشرين من نوفمبر، و لم يلقَ الرجل هناك ترحيباً أو استقبالاً يكافئ بعض ما صادفه في هذه المغامرة التي بدأت منذ يناير ١٧٦١ واستغرقت منه كل هذه المدة التي لم يمضِ فيها في اليمن – مقصد رحلته – إلا أقل من عام. هكذا انتهت رحلة نيبور في الأقاليم العربيَة التي زارها، والتي وصفها حين رفع تقريره إلى الملك بأنها كانت على قدر كبير من المجد والشهرة، وقد حدث لها أن فرضت سيادتها ولغتها وعلومها ودينها على نطاق واسع في العالم.

في اعتقادنا أن رحلة نيبور ممتعة أكثر منها مفيدة، خاصة للمؤرخين. فهي لم تكشف لهم عن كثير رغم أن الرجل كان مدققاً، واعتمد على مصادر نراها وافية بالنسبة إلى رحالة يجهل لغة الأرض التي مرّ بها مروراً عابراً. حدد نيبور مصادر الرواية التي اعتمدها وقصرها على التجار والفقهاء والمساكين. وانتقد أعيان المسلمين المشغولين بمصالحهم وبمتعهم ما يجعلهم يأنفون التحدث مع نصراني لا يجيد التحدث بلغتهم، وكذلك أولئك المحاطين بحاشية كبيرة وعدد غفير من الخدم، فهم أقل معرفة وعلماً وأشد تحفظاً ممن سواهم. ومع ذلك تبقى العلمية التي توصف بها الرحلة في المراجع الغربية التي تناولت أدب الرحلات غير واضحة لنا أبداً، ما يجعلنا ننقل هذه الرحلة من تحت مُسمّى العلم إلى مُسمّى آخر. فنحن حين نتابع نيبور الذي هو تارة عثماني يرتدي ملابس الأتراك ويُموّه مقصده من الرحلة على سادة اليمن وحكامها، وحين نراه في مناطق أخرى يدّعي أنه ماروني ويتحدث الإيطالية، ونراه في الساحل الفارسي يدّعي أنه إنجليزي – وفي الحقيقة كان نيبور مصاباً بالإنجلومانيا أو التعلق إلى درجة الهوس بالعادات والتقاليد الإنجليزية – ونرى الرجل ذاته في الموصل يقول: إنه دنماركي بروتستانتي، نتشكك في أمر هذا المغامر الذي ظلّ يراوغ ويناور. تسمّى نيبور باسم الخواجة عبد الله أولاً،

وفي فارس اتخذ لنفسه اسم آغا عبد الله، وفي مناطق مثل سوريا حيث يحمل التجار لقب معلم سمى نفسه معلم عبد الله. وفي الحقيقة كل الرحالة الذين لم يكن التجسس مهنتهم الأولى، من رسميين ومنصّرين وغيرهم، لم يكونوا مدلسين و لم يخفوا هوياتهم؛ فمنذ سادلير – وهو أول رحالة غربي يقطع شبه الجزيرة العربية من أدناها شرقاً إلى أدناها غرباً (١٨٢٠م) – مروراً بمقيم الخليج لويس بيلي الذي دخل نجداً من الكويت (١٨٦٥م) ثم دي جويري (١٩٣٥م) وغير هؤلاء وأولئك من الرسميين، احتفظوا بأسمائهم، أما الرحالة الجواسيس إلى شبه الجزيرة العربية فكان لكل منهم اسم مختلف. فهل كان نيبور بدعاً من هؤلاء؟

قد نظفر بإجابة حين نعرض رحلة الهر باركلي راونكيار Barclay Raunkiaer الذي أرسلته الجمعية الجغرافية الملكية الدنماركية إلى شبه الجزيرة العربية، فوصل الخليج العربي في عام ١٩١٢م في محاولة للتعبير عن أشواق كوبنهاغن "العلمية" التي ظلّت كامنة طوال هذه الفترة بعد أن عجزت عن التعبير عنها بعد رحلة نيبور. فقد أرسل وزير الخارجية الدنماركي إلى حكومة لندن يخبرها بهذه الزيارة التي ادّعى باركلي أنه سيقوم بها لاستكمال مهمة نيبور العلمية. غير أن حكومة الهند البريطانية رأت في تلك الرحلة أغراضاً أخرى غير علمية البتة، فعملت على عرقلتها عن طريق مقيمها في الخليج ووكلائها التابعين له في المنطقة.

الباب الثالث

رحلات الاستشعار الفرنسية البريطانية

الفصل السادس

دومنجو من الروّاد في رحلات الاستشعار البريطانية الفرنسية إلى الحجاز

لم تكن الشركات الأوروبية العاملة في الشرق تعبأ بأحداث الحجاز ولا المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية ولا بما يعتمل فيها من نزاعات محلية أو إقليمية مع العثمانيين، فهي أرض عُرفت بِشُح المصادر الطبيعية التي يمكن أن تثير وفرتها نهم تلك الشركات الغربية التي أخذت تستعمر مناطق شاسعة من بلاد الشرق. وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تهتم بالخليج العربي، شريان بريدها إلى أوروبا، الذي تطور في استراتيجيتها لاحقاً ليصبح الحدود الأمنية للهند البريطانية. أما فرنسا التي جاء اهتمام شركتها الهندية متأخراً عن اهتمام الإنكليز بالخليج، فلم تلبث أن استسلمت بعدئذ للتفوق الإنكليزي في هذا المضمار. وأظهرت فرنسا اهتماماً مبكراً في العصرالحديث بدأ مقصوراً على غايات تنصيرية تقليدية في مناطق جنوب الشام ساقها من ثمّ إلى جنوب شبه الجزيرة العربية. و لم يدخل الحجاز ووسط شبه الجزيرة العربية في صلب الاهتمامات السياسية لفرنسا إلا في الحقبة النابليونية. وفتر منذ انحسار المدّ البرتغالي الاهتمام بمكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة في تلك المجتمعات، إذ لم يكن التنصير في مقدمة اهتمامات تلك الشركات التجارية ما لم يرجع عليها بفائدة مادية ملموسة. و لم يكن الحجاز بمصادره الاستثمارية الشحيحة في تلك الفترة مطمعاً لتلك الرأسماليات التي أخذت تتكون في الغرب مع الثورة الصناعية.

بداية الرحلات الفرنسية إلى شبه الجزيرة العربية

تفيدنا أخبار الرحلة الأوروبية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي باهتمام لويس

الرابع عشر بتوجيه مبعوثه المقيم في صيدا للتدخل لدى "أمير البدو" لمصلحة الرهبان الكرمليين الذين كان البدو قد طردوهم من صوامعهم في جبل الكرمل. ولما كان هذا المندوب مُسنّاً، أوفد المدعو لويس دارفيو نائباً عنه إلى "أمير البدو" في عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م يلتمس عودة الرهبان إلى دير ذلك الجبل والعمل على حمايتهم من هجمات البدو، وقد تحقق لدارفيو النجاح في مهمته. وأعدّ الرجل كتاباً مشوّقاً – كما يوصف – حوى ملاحظات كثيرة عن البدو وأساليب الحياة في البادية. و لم يجد كتاب دارفيو طريقه للنشر إلا في عام ١١٢٩هـ/١٧١٧م بعد وفاة صاحبه. ويعتبر هذا الكتاب الموسوم بـ **رحلة من فلسطين إلى الأمير الكبير، كبير أمراء مناطق العرب المعروفين بالبدو**، من أوائل ما كُتب عن البدو في المكتبة الأوروبية، ومع ذلك فالكتاب – كما يقول ناقدوه – لم يكن مُعبّراً عن موضوعه. حشد دارفيو في مؤلفه العديد من القصص التوراتية وما جاء فيها من أخبار إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وراح يقدم تفسيرات طريفة من حياة البادية التي ربطها جزافاً بتلك القصص. فهو يعتقد – على سبيل المثال – أن البدو حين يقومون بغزو إنما يتحركون بدافع الثأر لأبيهم إسماعيل الذي تقول التوراة إنه ابن جارية، بينما يعدّه البدو الابن البكر لإبراهيم، الأحقّ من أخيه بإرث أبيه، ولذلك ترى البدو يسلبون الغير تكفيراً لما يعتقدون أن الغير قد سلبوا أباهم إسماعيل حقه. والتفسير، على غرابته، مريب. فالبدو كانوا يغيرون بعضهم على بعض، فهل كان هذا الحي من البدو الذي ينتمي إلى إسماعيل يغير على فريق آخر من البدو لا ينتمي إليه؟ جاء في التوراة أن سارة زوجة إبراهيم حين أدركت أنها قد شاخت من دون أن تنجب ولداً طلبت إلى زوجها أن يضاجع أمتها هاجر: "أرجوك أن تضاجع خادمتي لعلّ الله يرزقني منها أولاداً". (**تكوين ١: ص ١٦: عدد ٢**) وحين حملت هاجر من إبراهيم باتت الأمة تزدري سيدتها. وحدث لاحقاً أن حملت سارة بإسحاق فوعد الله إبراهيم أنه سيقيم مع إسحاق ومع ذريته من بعده عهداً أبدياً. (**تكوين ١: ص ١٧: عدد ١٩**). وحين أقام إبراهيم وليمة كبرى لمناسبة فطام إسحاق، رأت سارة ابن هاجر يضحك، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الأمة وابنها، لأن ابن الأمة يجب ألا يرث مع ابني إسحاق. فاغتمّ إبراهيم لذلك فخاطبه الإله: لا تهتمّ بشأن الولد وبشأن أمتك، افعل ما تطلبه منك سارة لأن إسحق سيخرج النسل الذي سيحمل اسمك. ولكنني مع هذا سأخرج أمّة من ابن الأمة لأنه من صلبك. ويحكي دارفيو من قصص التوراة خروج إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى الصحراء وتفجّر زمزم تحت قدمي إسماعيل عليه السلام، ثم ما كان من سُكنى إسماعيل الصحراء وتفوّقه في الرمي بالقوس (**تكوين ١: ص ٢١: عدد ٨–٢١**) وما أوحى الإله إلى هاجر من أن هذا الولد سيكون كالحمار المتوحش، وأنه سيرفع يده في وجه الجميع، وأن أيدي الجميع سترفع في وجهه، وأنه سينصب خيمته قبالة جميع إخوته (**تكوين ١: ص ١٦: عدد ١٢**). وهكذا تكوّن أول الانطباعات عن البدوي، ابن إسماعيل، في الذهن الأوروبي عموماً. وأصبحت هذه الصورة النمطية هي الطابع المميز لشخصية البدوي

الذي يغير على الجميع ويغير الجميع بدورهم عليه. ولعلّ من الثابت لدينا أن الرحالة الأوروبيين في شبه الجزيرة العربية، على اختلاف أقطارهم وتنوّع مهماتهم، ينقل بعضهم عن بعض، خاصة في ما يتصل بالبدائي من الممارسات والغريب من المفاهيم.

نجد ذكر مؤلف دارفيو لدى نيبور وهو يكتب عن شبه جزيرة العرب. ولا مندوحة من القول إن كتاب نيبور مثّل مصدراً رئيساً لكافة الرحالة الأوروبيين اللاحقين له، ولا ريب إذاً أن يُعجب بعض هؤلاء الرحالة بهذا البدوي الذي صوّره أوائل الرحالة في العصر الحديث لصاً نهّاباً، ويعتذر الرحالة عن طبيعة حياة هذا البدوي الاجتماعية المضطربة بأن هذا هو قدره! والتفسير إلى جانب كونه طريفاً وغريباً يوافق الروح العنصرية التي كانت المحرك الأبرز للاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق. فقدر أبناء إسحاق العلوّ في الأرض، وقدر أبناء إسماعيل مقاومة ما شرّعه الإله! فلا حول ولا قوّة إلا بالله.

ما لبثت فرنسا أن عملت على استثمار تلك الاهتمامات التقليدية التنصيرية استثماراً سياسياً. قضت استراتيجية فرنسا النابليونية توسيع دائرة الحرب مع إنجلترا لضرب مصالحها في الشرق وإعاقة الطرق البحرية لتلك الدولة التي كانت الأوفر حظاً في الملاحة في تلك الأرجاء. وما إن سحبت فرنسا فلول حملتها الخاسرة من مصر حتى أخذت – مع بداية القرن التاسع عشر – تعدّ العدّة لإرساء خطط جديدة تستجيب للمتغيرات الجذرية التي أخذت تعتمل في سياستها بنحو مختلف عمّا كانت عليه الحال سابقاً. فمن هذه المتغيرات اعتلاء محمد علي باشا، ذلك الألباني الطموح المتواضع الأصل، سدّة الحكم في مصر وطموحه في تأسيس أسرة حاكمة في الشرق العربي. وتزامن هذا الطموح مع النشاط الإقليمي للدولة السعودية الناشئة التي أخذت في هذا الوقت تخرج عن حدود نجد خاصة وشبه الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين وأطراف الشام. وأرسلت الدولة العثمانية في عام ١٢١٢هـ/١٧٩٨م حملة إلى الأحساء لصدّ الوهابيين، لكنها ما لبثت أن تراجعت تلاحقها الهزيمة، ما مكّن حشود السعوديين الحربية بعدئذ من الوصول إلى كربلاء وتطبيق مبادئ الفكر الوهابي في مزاراتها. وما لبث السعوديون أن تمكنوا من مكة المكرّمة في السنة التالية، فانقطع الدعاء للسلطان العثماني في الحرم الشريف، ثم ما لبث سعود بن عبد العزيز أن أخذ المدينة المنوّرة في عام ١٢١٨هـ/١٨٠٤م. وأدّت التطورات اللاحقة التي أخذت الامتداد السعودي إلى الساحل العماني وعمان، إلى انطلاق حركة الجهاد ضدّ الهيمنة الأجنبية التي أشعل الفكر الوهابي في بداية انطلاقه في أهل المنطقة جذوتها، وما كان لذلك من أثر في تعويق طرق إنجلترا البحرية، ليس في الخليج فحسب، بل في كافة الطرق البحرية الممتدة من البحر الأحمر والسواحل الأفريقية المجاورة عبر بحر العرب والمحيط الهندي حتى سواحل شبه القارة الهندية التي استعمرتها شركة الهند الشرقية البريطانية احتكاراً. كذلك أدّت المتغيرات المذكورة بالفرنسيين إلى إعادة النظر في سياستهم الاستراتيجية في الشرق واعتماد كافة هذه

المتغيرات التي كانت إنجلترا من جانبها تعمل على تحييدها.

عقد نابليون، حين قرر احتلال مصر، اجتماعاً تحت قبة الجمعية العلمية والأدبية الفرنسية في باريس، مع العديد من علماء بلاده العاملين في المجالات الإنسانية والعلمية المختلفة. وخاطب نابليون الاجتماع وبيده كتاب نيبور، مؤكداً أن معرفة الشرق واستكشافه ثقافياً واجتماعياً تمثل السبيل الأمثل لاستغلاله، استثماراً واستعماراً. وطالب نابليون الاجتماع بأن يختار من بين أعضائه جماعة منهم ترافقه في حملته على مصر. وقد حمل أسطول نابليون المتوجه إلى غزو مصر، إلى جانب الألف مدفع ومعدات الحرب وآلته، مئة وخمسة وسبعين عالماً من العلماء الفرنسيين في المجالات العلمية والإنسانية، إلى جانب مجموعة من الكتب ذات الاختصاص، وعدّة صناديق من الأجهزة العلمية والآلات التي تخدم الفلكيين والمهندسين والرسامين والكيميائيين والفنانين وغيرهم من صفوة العلماء والمبدعين.

رحلة رينو إلى الدرعية

كان سعي شركة الهند الشرقية التي تأصّلت قواعدها في الشرق مختلفاً عن سعي بونابرت. فلم يكن يهمها من أحداث نجد، الشحيحة المصادر المادية، المستعصمة بحصانتها الطبيعية وبصحراواتها ضدّ أي هجمات يمكن أن تقوم بها تلك الدولة الأسطولية العظمى، إلا العمل على ضمان استمرار سير بريدها البحري والصحراوي. ولعل من المفيد أن نشير إلى أن تلك الشركة لم تورد أي أخبار أو تُبد أي اهتمام بقيام الدولة السعودية إلا في عام ١٢١٠هـ/١٧٨٧م حين أخذت تلك الدولة تمتد إِلى مياه الخليج وتنحسر عنه. أفاض هذا التقرير الذي كتبه السير سترافورد جونز في استجلاء العلاقة بين الشيخين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب للتأكيد على سلفية الدعوة وبرنامجها الذي يحضّ على الجهاد. وقد عرف الساسة الإنجليز من أول تقرير كتب عن تلك الدعوة أنها تمثل "ثورة" إسلامية ديدنها الجهاد، وقرروا أن عليهم التعامل سلماً مع الدولة السعودية الناشئة من دون الدخول معها في حرب مباشرة، استبانوا أنها ستكون شرسة اعتباراً لمبادئ الجهاد ولطوبوغرافية المنطقة القاسية. وعلى ذلك تقرر أن يتركوا أمر القيام بحرب تلك الدولة – إن استدعت الحال ذلك – للقوى الإسلامية الإقليمية التي يمكن أن يعقدوا معها الاتفاقيات ويعملوا على دعمها لتطويق أي مؤثرات يمكن أن تنطلق من نجد تضر بمصالحهم التي كانت تتمثل في تلك الفترة أساساً في أن تظلّ الطرق الوسيطة بين إنجلترا والهند مفتوحة لبريدهم ولتجارتهم من دون دفع ضريبة أو أداء رسوم، وألا يصل الأثر الفرنسي عبر الدولة السعودية من مصر إلى أطراف الخليج. وبناءً على ذلك عقد الإنجليز في غرة جمادى الأولى ١٢١٣هـ/١٢ أكتوبر ١٧٩٨م معاهدة مع سلطان مسقط، وأرسلوا

في عام ١٢١٣هـ/أوائل عام ١٧٩٩م جون لويس رينو إلى الدرعية ليعتذر لإمامها ويتعهد له بمراعاة الشركة الإنجليزية للصلات الطيبة مع بلاده مستقبلاً.

كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية قد نقلت في عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م مقرّها مؤقتاً من البصرة إلى الكويت إثر خلاف وقع بين وكيلها مانتسي والسلطات العثمانية في البصرة. ولما كانت الكويت تتعرض في هذه الفترة لغزوات السعوديين لارتباطها ببني خالد الأحساء المناوئين للدولة السعودية الناشئة، فقد شارك العسكر الهنود الذين كانوا يحرسون مقرّ الشركة في الكويت في صدّ هجوم سعودي على البلدة، كما شاركت فيه أيضاً إحدى السفن الإنجليزية التي كانت ترسو عند تلك البلدة بقذائف مدفعيتها، ما أدخل الشركة مباشرة في دائرة عداء الدرعية التي باتت بعدئذ تحضّ الذين قبلوا بدعوتها في بادية العراق على اعتراض طريق بريد الشركة الصحراوي.

أبحر رينو من البصرة إلى القطيف التي دلف منها إلى الهفوف، ثم واصل طريقه إلى الدرعية التي بلغها بعد رحلة استغرقت عدّة أيام واستضافته لأسبوع كامل، في أول اتصال مباشر – في ما نعرف – بين الدولة السعودية والإنجليز. ولم يُعثر على أثر لتقرير رينو، ولكننا نجد له خطاباً بتاريخ ٢ المحرم ١٢٢٠/٢ إبريل ١٨٠٥ يتضمن إرشادات عامة لمن يرغب في السفر في شبه الجزيرة العربية وصف فيه الدرعية بالبلدة الجميلة ذات الموقع الجيد، ويضيف أنها شُيّدت على نمط المعمار العربي على جانبي نهير متدفق. وهي ممرعة يتوافر فيها العنب والتين، ولكنّ المواطنين – في ما قيل له – يأكلون الفاكهة قبل نضوجها. كذلك تمتلك الدرعية قطعاناً كبيرة من الأغنام ذات الآذان الطويلة ولمعظمها صوف أسود غزير، وأفاد بأن لحمها طيب المذاق. ورأى رينو أن خيول الدرعية أميز الخيول، وأفاد بأن أثمانها رخيصة جداً. وذكر رينو أن الإقامة في الدرعية مريحة، ويمتاز الوهابيون بالكرم "رغم أنهم متوحشون". وأشار إلى أنه حين زار الدرعية وجدها تحت حكم عبد العزيز بن سعود، "والد الحاكم الحالي". وكان عبد العزيز رجلاً نحيفاً يابس العود في حوالى الستين من عمره، ونعت رينو ذلك الإمام بالمثقف. ويرى رينو أن سعوداً هو الذي أسس الملك الذي أرسى قواعده بعدئذ ابنه عبد العزيز. وكان عبد العزيز يتولى تصريف شؤون الدولة بمفرده لا يستخدم سوى كاتب واحد فقط. ويصل عدد المقاتلين من جنده – كما يعتقد رينو – إلى نحو مئة ألف رجل، وقد يكون هذا العدد قد تضاعف بعدئذ بانضمام قبائل أخرى إليه، أما أفراد عائلته فيبلغ عددهم حوالى ثمانين شخصاً.

أما الفرنسيون فلم يكن الهدف من اتصالهم بالسعوديين عرضياً كما هو شأن الاتصال الأول للإنجليز، بل سعوا لاستحداث سياسة في شبه الجزيرة العربية يعارضون بها السياسة الإنجليزية في الشرق. وقع على الفرنسيين في تلك الفترة أن يرسلوا الرحالة إلى الحجاز لتقصّي الأبعاد الدينية التي أرست دعائم الدولة الوهابية، ورحالة آخرين إلى مسقط لاستقطاب سلطانها والعمل على استغلال علاقته ببعض سلاطين الهند المسلمين في جبهة تقف ضدّ

المصالح الإنجليزية. وعلى ذلك أرسلت باريس دومنجو باديا آي لبلخ إلى الحجاز، وأرسلت فنسنزو موريزى إلى مسقط، فيما اضطرت بريطانيا إلى أن ترسل بعدئذ بوركهاردت في إثر دومنجو إلى الحجاز، وتبعه بعد ذلك جيمس فورستر سادلير الذي أرسل إلى نجد في بعثة للقاء إبراهيم باشا بعد تدميره الدرعية. ولا يعدّ هذا العدد الكبير من الرحالة الغربيين إلا قدراً يسيراً من حركة الرحلة الغربية التي نشطت في شبه الجزيرة العربية في هذه الفترة. فقد كان في جيوش محمد علي باشا عدد من الفنيين والأطباء والعسكريين والإداريين الأوروبيين الذين كتبوا بدورهم عن شبه الجزيرة العربية، مع اختلاف بينهم في الدوافع وتباين في الرؤى.

باديا يصل إلى جدّة

يُعد دومنجو باديا آي لبلخ، وهو من مواطني قطلونيا وُلد في برشلونة في عام ١١٧٩هـ/١٧٦٦م لأبوين يهوديين، من أبرز الرحالة الذين عملوا في خدمة الاستعمار الفرنسي في هذه الفترة. أعدّ دومنجو نفسه للعمل في الرحلة إلى بلاد الشرق وأفريقيا، فاتخذ الجاسوسية والاستكشاف مهنة له. درس دومنجو اللغة العربية ومبادئ العلوم في بلنسية واتصل في عام ١٢١٦هـ/١٨٠٢م بالجمعية الجغرافية الملكية في لندن يعرض عليهم خطته للقيام برحلة استكشافية عبر جبال أطلس وصولاً إلى الدول الإسلامية الأفريقية في ما وراء الصحراء الكبرى. وكانت مثل تلك الرحلات إلى هذه المناطق من أفريقيا عبر المغرب تسند عادة إلى يهود الأندلس.

اتجه دومنجو من لندن التي رفضت خطته إلى باريس، ورحّبت الحكومة الفرنسية بعرضه، ولكن عدّلت في خطة سيره ووجهته وألزمته بوجهة أخرى. ولما كانت فرنسا في حالة حرب مع بعض القوى الأوروبية إضافة إلى روسيا القيصرية، فقد انتهج نابليون سياسة نشطة في الشرق. وكان قد أرسل بعثة إلى إيران وبعثة أخرى إلى تركيا، كما تطلع من مصر إلى حيازة قاعدة حربية في مسقط.

نزل دومنجو باديا آي لبلخ في طنجة في ربيع الأول ١٢١٨هـ/يونيو ١٨٠٣م وعُرف هناك بعلي باي العباسي، واتخذ له خدماً وحشماً وأبّهة تليق بشرف النسب الذي ادّعاه. التقى هذا الجاسوس سلطان المغرب وعاش في أوساط المسلمين هناك فترة جعلته حين رحل إلى القاهرة في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م مؤهلاً للتكريم، وقابل وهو في طريقه إليها حاكم طرابلس. والتقى في مصر محمد علي باشا الذي وصفه بأنه صاحب قدرات هائلة في المجالات العملية ولكن تنقصه الثقافة، وبما أنه يدين بمنصبه الذي حازه في مصر لفيلقه الألباني، فقد كان يغضّ الطرف عن تصرفاتهم الخشنة تجاه المواطنين ويعجز عن الوقوف في وجه ظلمهم لهم. وحين غادر علي باي القاهرة مع القافلة المتجهة إلى السويس في ٥ شوال ١٢٢١/١٥ ديسمبر ١٨٠٦

ترك هنالك قسماً من موكبه المرافق له، كما ترك بعضاً من متاعه هناك إلى حين عودته من رحلته إلى الحجّ. ضمّ موكب علي باي الذي خرج من القاهرة إلى السويس أربعة عشر جملاً وثلاثة خيول وعدداً من الأتباع والخدم، وحمل علي باي العباسي معه كافة الآلات الفلكية الحديثة ومستحدثات آلات علوم المساحة والقياس والاستكشاف المعروفة وقتذاك. وحين وصل علي باي إلى مكّة المكرّمة كانت شهرته قد سبقته إلى هناك، ووجد الترحيب من شريف مكّة الذي أعدّ له مسكناً فاخراً ملحقاً بقصره، وعيّن له "مرافق شرف"، وهو الرجل المسؤول عن السقاية في زمزم. وعلى الرغم من غفلة حكام هذه المناطق التي زارها اعتباراً من المغرب العربي حتى انتهى إلى مكة، لم يكن الرجل يخفي قلقه من مؤامراتهم، فكان يحتفظ بمادة تعينه على القيء وإفراغ معدته إذا أحسّ أنه تعرض لتناول السم من "هذا المرافق الشرقي" في مكة الذي ما كان يثق به، ولا بحكام الشرق عامة. ورغم الترحيب الذي وجده الباي من كافة الحكام الذين التقاهم، لم يكن اهتمام الرجل بالشؤون السياسية لهذه المناطق يظفر بالحظ الأوفر من عنايته التي تركزت على البحوث الفلكية والطوبوغرافية. وقد قاد هذا الاهتمام بعض النقاد إلى اعتبار الرجل عميلاً للبحرية الفرنسية أكثر منه عميلاً سياسياً لنابليون. وحين تتبّع رحلة باديا من المغرب حتى مصر، التي تخرج عن اهتمامنا هنا، نلاحظ أنه عمل بدقة بالغة على تحديد بعض المواقع، حتى لنكاد نجزم بأنه قد عيّن صلاحية بعض المواقع في جنوبي البحر الأبيض لاستعمارها واستثمارها لتزويد الجنود الفرنسيين بما يسدّ حاجة حملاتهم من الحبوب والمؤن الغذائية. أما في البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية فقد عُرف علي باي بأنه أول أوروبي يحدد بدقة تامة الطرق التي كانت تقود من البحر الأحمر إلى كل من مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، كذلك تمكّن أيضاً من تحديد أهم ثمانية عشر موقعاً على البحر الأحمر، وكان الأول من الرحالة الأوروبيين الذي حدّد بدقّة كبيرة موضع مكة المكرّمة فلكياً.

خرج هذا الرحالة من القاهرة في ٥ شوال ١٢٢١/١٥ ديسمبر ١٨٠٦ ووصل جدّة في ١٣ يناير. وصف دومنجو مدينة جدّة التي رأى فيها مركزاً لتجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر، ترد إليها بضائع الهند المختلفة وبن المخا، وتوزع من هناك فتبلغ السويس وينبع والقصير. ويرى أن الحركة التجارية لهذا الميناء كانت أبلغ رواجاً، وكانت المدينة أثرى مما هي عليه في وقته. فقد تراجع هذا الرواج نتيجة للظروف المحلية التي منها الحروب ضدّ الوهابيين، والظروف الإقليمية مما يجري في مصر وفي المغرب من عدم استقرار، والمشكلات الدولية الناجمة عن الحروب الأوروبية. صرفت هذه المشكلات المحلية والإقليمية العديد من المواطنين عن النشاطات الاقتصادية إلى العسكرية، وأدت إلى تراجع حركة الحجيج، كذلك أدت المشكلات الدولية إلى تباطؤ حركة التجارة. ويصف سوق جدّة بالعامرة ويضيف أن أسعارها باهظة.

يلاحظ دومنجو أن دفاعات جدّة لا تزيد على سور ذي أبراج يحيط بالمدينة ويقع خلف

خندق جاف يتراوح عمقه بين تسع أقدام وعشر أقدام. وتحرس المدينة حامية من الجند الأتراك يقضون سحابة نهارهم في المقاهي يدخنون ويحتسون القهوة ويلعبون الشطرنج. قدّر دومنجو عدد سكان جدّة بحوالى خمسة آلاف، ورأى فيهم عنصراً هجيناً من العرب والزنوج تخالطه آثار دماء هندية وصينية طفيفة، وهم مغرمون باقتناء الجواري الحبشيات.

باديا في مكّة

خرج علي باي العباسي من جدّة في ١٣ ذي القعدة على "شبرية فوق بعير ووصل إلى مكّة المكرّمة في ١٥ ذي القعدة ١٢٢١هـ/٢٣ يناير ١٨٠٧م. وبدأ بالتعريف بالحرم الذي يرى أنه يتكوّن من الكعبة أو بيت الله، وبئر زمزم، والقبة أو مقام إبراهيم وأربعة مقامات للمذاهب "الأرثوذكسية" الأربعة: مقام الحنفية المؤلف من دورين وكان يؤمه الأتراك أتباع هذا المذهب، وخُصّص مبنيان صغيران للمذهبين المالكي والحنبلي، أما أتباع المذهب الشافعي فقد خُصص لهم سطح المبنى لأداء صلاتهم. يُضاف إلى هذا محرابان أو قبتان والقوس الذي يشكل باب السلام "على شكل باب النصر" بالقرب من مقام إبراهيم، ثم المنبر الذي يعتليه الإمام يوم الجمعة ليؤم الصلاة. أما باحة الحرم فهي مسطحة شاسعة يحيط بها صف من الأروقة المقوسة، وهناك باحتان صغيرتان تتميزان بالفخامة. وللحرم تسعة عشر باباً، وله سبع مآذن خمس منها تقع ضمن المبنى الرئيس ومئذنتان تتوسطان المنازل المحيطة بالحرم. أما الباحة فمفروشة بالرمل، وهناك ستة ممرات مرتفعة مبلطة بحجر الصوان تؤدي إلى الأبنية الأربعة المخصصة لأتباع المذاهب السنية الأربعة. ووصف دومنجو الكعبة بتفصيل أخطأ فيه وأصاب. فهي عبارة عن مبنىً رباعي الأضلاع، ويرى أن أضلاعها غير متساوية وزواياها غير متكافئة، إلا أن الكسوة التي تغطي المبني تغطي على عدم انتظام الأضلاع فتسبغ على المبنى الشكل الرباعي المنتظم. يقول دومنجو أنه حين رأى الكعبة للمرّة الأولى لم يخامره شك في أنها منتظمة الأضلاع والزوايا، فأصبحت نتيجة لذلك حريصاً جداً على قياس أبعاد المبنى. ولكن كيف لي أن أقوم بذلك من دون أن أثير شكوك من يشاركونني هذا الدين. ولذلك أجريت مقاييس جزئية وتقريبية وحصلت على نتائج قد لا تكون بالغة الدقة، ولكنني أستطيع أن أدّعي أن هامش الخطأ قد لا يزيد على قدم واحدة.

يرى دومنجو أنه رغم إدراكه أن زوايا المبنى ليست متكافئة تماماً، من المعتقد أن زاوية الحجر الأسود تقع بشكل مضبوط في اتجاه الشرق. يذكر دومنجو أن الكعبة بُنيت من أنواع متعددة من الحجر المحلي غير المشذّب جُلب من الجبال المجاورة. ويُقدّر ارتفاع بيت الله الشريف بأربع وثلاثين قدماً وأربع بوصات، أما باب الكعبة المشرّفة فيقع على علوّ ست أقدام عن سطح الأرض. ويبلغ عرض الباب أربع أقدام وعشر بوصات ويقع في ضلع الكعبة الذي يلي زاوية

الحجر الأسود على بعد حوالى ست أقدام منه، وهو مكوّن من مصراعين من البرونز المفضّض ويُغلق بمزلاج فضي كبير. ويحيط بالمنطقة التي تقع أسفل الكعبة مباشرة بناء من رخام يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالى عشرين بوصة ثبتت عليها حلقات برونزية على مسافات متساوية رُبط عليها الجزء الأسفل من الكسوة السوداء التي تُغطي الكعبة.

يقول علي باي إن موضع الحجر الأسود "الحجر السماوي" يرتفع عن سطح الأرض حوالى اثنتين وأربعين بوصة، وهو محاط بإطار كبير صيغ من الفضة يبلغ عرضه حوالى قدم. يصف دومنجو الجزء المكشوف من الحجر الذي لا يغطيه إطار الفضة ويقول إنه يمثل شبه دائرة تبرز من داخل الصحن الفضي بحوالى ست بوصات. "ونعتقد أن هذا الحجر المكرم كان شفافاً، وأن الملاك جبريل نزل به من السماء كعهد إلهي لإبراهيم. وتحوّل الحجر إلى السواد الكثيف حين لامسته امرأة غير طاهرة". ويرى دومنجو أن هذا الحجر هو عبارة عن كتلة من البازلت البركاني داخلتها رؤوس بلورية صغيرة ملونة، إضافة إلى فلسبار قرميدي خالط قاعدة سوداء قاتمة كأنها الفحم، كما يُظهر أحد نتوءات هذا الحجر لوناً أحمر نوعاً ما. ويرى هذا الرحالة أن القبلات المتعددة واللمس المتواصل لسطح الحجر من قبل الزوار أدّى بهذا السطح إلى أن يأخذ شكلاً غير مستوٍ، حتى بات شبيهاً بشكل العضلات، ونستطيع أن نلاحظ في "تجويفه" العميق حوالى خمس عشرة عضلة بارزة.

يعتقد دومنجو أن باب الكعبة كان في يوم ما في مستوى سطح الأرض. فالكعبة هي البناء الوحيد القديم في هذا المجمع الذي استُحدثت مبانيه في أوقات مختلفة. ويقدم هذا الرحالة تعليلاً غير منطقي فيقول إن الحرم يقع وسط مكّة التي تقع في وادٍ شديد الانحدار يجري من الشمال إلى الجنوب. وحين أرادوا في الفترات اللاحقة إقامة أبنية أخرى لم يعملوا على حفر الجانب العالي لردم الجانب المنخفض من الوادي، بل أقدموا – بدلاً من ذلك – على حفر جميع الجوانب حتى يتمكن من يريد الدخول إلى الحرم أن ينزل إلى ذلك الطبق المنحوت من أي اتجاه قصده من خلال عدد من عتبات الدرج. ويرى دومنجو أن هذا الافتراض يعني أن الحجر الأسود لم يكن في موقعه هذا من المبنى أو أنه كان تحت الأرض، لأنه يقع على بعد قدمين أسفل مستوى الباب، "ما قد يجعل الكفار يقولون إن هذا الحجر لم يكن موجوداً، أو إنه كان تحت الأرض. أما عن نفسي فلن تخامرني مثل هذه الفكرة في ما يخصّ هذا العهد الإلهي القيم". وهنا يشير دومنجو صراحة إلى أنه مسلم مع عدم اعتقاد المسلمين في ما اعتقده في الحجر الأسود من أنه "عهد إلهي". ولا يعتقد العديد من النقاد الأوروبيين في صدق إسلام دومنجو الذي اتخذه جواز سفر إلى الأراضي المقدسة، ويدفعون بأنه حين مات وجدوا عند صدره بين تلافيف ثيابه صليباً. فهل غادر الرجل اليهودية، دين أبويه، إلى النصرانية أو الإسلام؟ هذا ما لا ندركه، إلا أننا ندرك يقيناً أن الرجل الذي حضر الحجّ ومارس مناسكه بما اتفق له لم يؤدّ الحجّ أبداً، فقد شغلته مهماته

الاستخبارية عن القيام بواجب ديني لم يكن في اعتقادنا مُؤهّلاً لأدائه.

يتحدث دومنجو عن الحجر أو "أحجار إسماعيل" وأبعاده، وارتفاعه عن سطح باحة الحرم، ويرى أن إسماعيل عليه السلام مدفون هناك. ويصف مقام إبراهيم في مواجهة باب الكعبة الذي يبعد عن المبنى حوالى أربع وثلاثين قدماً. ويقول إن طول المقام يصل إلى اثنتي عشرة قدماً وتسع بوصات، أما عرضه فهو سبع أقدام وثماني بوصات. ويستند سقف المقام إلى ستة أعمدة فوق مستوى قامة الرجل. وهناك قسم منه مغطى بالقماش ومحاط بشبكة برونزية جميلة لها باب من الفضة، وهو مغلق دائماً. ويضمّ هذا الحاجز من الشبك أحد المقدسات، وهو الحجر الذي ارتقاه إبراهيم عليه السلام حين كان يبني الكعبة. و"يقال إن هذا الحجر كان يزداد علوّاً كلما ارتفع البناء". وكان إسماعيل يحمل الحجارة التي تخرج منحوتة مشذّبة من منطقة الحجر إلى أبيه ليواصل البناء. ويضيف دومنجو أن حجر المقام كان مغطى بقطعة قماش سوداء موشّاة بالذهب والفضة ومزيّنة بقدر كبير من الذهب.

يُحدث دومنجو عن بئر زمزم التي تبعد عن الحجر الأسود حوالى إحدى وخمسين قدماً، ويرى أن محيط البئر يبلغ حوالى سبع أقدام، ويقدر عمقها بست وخمسين قدماً حتى مستوى سطح الماء. وقد زُيّنت حافة البئر بالرخام الجميل الذي يرتفع إلى علوّ خمس أقدام. ويقع على الشخص الذي يريد أن يحصل بنفسه على الماء من البئر أن يعتلي تلك الحافة التي أقيم بداخلها شبك من حديد وصحائف من نحاس تقي الناس السقوط في البئر. وبما أنه لا يوجد درج يُمكّن المرء من أن يعتلي حافة البئر، فإن على من يحاول ذلك أن يقفز فوق حجر يؤدي به إلى مستوى النافذة المجاورة للحافة فيثب من هناك إليها. ويرى دومنجو أن هذه العقبات مقصودة ولم تكن عبثاً، وذلك لمنع الحجاج من أن يحصلوا بأنفسهم على الماء، ما يحرم السّقاة المشتغلين بسحب المياه من الظفر "بالإكراميات" المنوطة بمن يشتغل بهذه المهنة.

توجد على حافة البئر ثلاث بكرات يمر من خلال كل منها حبل ينتهي بوعاء جلدي لسحب الماء الذي يصفه دومنجو بأنه مالح وثقيل جداً. وعلى الرغم من أن البئر عميقة، فإن درجة حرارة الماء الذي يُسحب منها أعلى من درجة حرارة الهواء الخارجي الحار بطبعه. ويرى دومنجو أن مياه زمزم الدافئة تختزن في جوفها سبباً كامناً يمدّها بهذه الحرارة. ويلاحظ الرجل أن هذه البئر غزيرة المياه وفياضة جداً، وهي صحية أيضاً. فعلى الرغم من أن آلاف الحجاج يستنزفون الكثير من مياهها في موسم الحجّ، لاحظ أن سطح المياه في البئر لا ينخفض. وقد حرص دومنجو على أن يعتلي البئر بنفسه ويملأ منها أربع زجاجات أحكم إغلاقها فوراً بكل الحرص الذي تتطلبه بحوث الكيمياء كي أتمكن في يوم ما من تحليلها... ومن المعلوم أن هذه البئر جاءت نتيجة كرامة أحدثها ملاك الإله لهاجر (Agar) عندما أوشكت أن تهلك عطشاً مع ابنها إسماعيل بعد أن طردت من بيت إبراهيم.

أجرى دومنجو فحصاً لمياه آبار مكّة وتبيّن له أنها متساوية في عمقها وفي درجة حرارتها وشفافيتها ومتماثلة في طعمها مع مياه زمزم، لا اختلاف بينها. وقال إنه فحص مياه آبار في مجاورة الحرم وأخرى في أطراف المدينة، ووصل إلى اقتناع بأن كل هذه الآبار تشارك زمزم في كافة صفاتها لأنها تأتي من مخزن جوفي واحد أحدثته مياه الأمطار يصل عمقه إلى خمس وخمسين قدماً، وأن الملوحة التي تشوب مياه هذه الآبار جميعاً تعود إلى اختلاطها بطبقة جصية. ويشير دومنجو إلى أن مياه هذه الآبار التي تشارك زمزم كافة خصائصها لا تسبغ على شاربيها "بركة السماء كما تفعل مياه هذه البئر العجيبة، فسبحان الله".

شُيّد حول بئر زمزم بيت صغير فيه غرفة كبيرة تضمّ البئر وغرفة أصغر خصصت كمخزن لأباريق السقاة، وبها درج يصل إلى أعلى الغرفة يقود إلى مقام صلاة الشافعية الذي تزينه قبة جميلة تستند إلى ثمانية أعمدة. أما القسم الثاني من السطح فيوجد فوقه ذراعان عظيمتان في وضع أفقي تعينان بالظل أوقات الصلاة، وهناك رجل موكل بملاحظة هذا التوقيت. فعندما يحين وقت الصلاة، يبدأ هذا الرجل ينادي للصلاة في نقطة ما من مقام الشافعية، وما تلبث أصوات المؤذنين الآخرين أن ترتفع في الوقت ذاته من المآذن السبع.

يصف دومنجو باديا آي لبلخ الغرفة التي تضمّ البئر فيقول إنها مربعة يبلغ طول ضلعها سبع عشرة قدماً وثلاث بوصات، وهي مرصوفة تماماً بالرخام الأنيق، ويدخل الضوء إلى هذه الغرفة من خلال ثلاث نوافذ تفتح في اتجاه الغرب وثلاث تفتح في اتجاه الشمال، ونافذتين من الناحية الشرقية. ويصف دومنجو الغرفة من الخارج والرخام الأبيض الأنيق الذي يزيّنها. ويضيف دومنجو أن عدد السقاة العاملين في السقاية من هذه البئر غفير، فهم لا يشغلون ذلك المخزن المذكور فقط ولكنهم ينتشرون أيضاً في القبتين المجاورتين وفي عدد آخر من المخازن الموجودة في محيط الحرم. وما إن يصل أي من الحجاج من ذوي الشأن إلى مكّة حتى يثبتوا اسمه في سجلّ "رئيس زمزم". ويكلف هذا المشرف أحد السقاة بأن يتولّى مدّ هذا الحاج بمياه زمزم يحملها له إلى منزله. ويكتب اسم ذلك الشخص المهم على أجساد المكلفين بتوصيل المياه له بالشمع الأسود، ويزين ببعض النقوش التي تحمل طقوساً معينة.

تُغطى الكعبة المشرفة بالكسوة "ثوب الكعبة" تماماً. وتثبت هذه الكسوة بحبال عند سقف المبنى، وتربط الكسوة من أسفل في الحلقات البرونزية في قاعدته. ويؤتى بالكسوة كل عام من القاهرة، وهي تتضمن أيضاً ستارة لتغطية الباب مطرزة بالكامل بخيوط الذهب والفضة. والكسوة في غاية الفخامة مطرزة في الثلث الأعلى منها بشريط من الذهب يسمى الحزام عرضه قدمان زُيّنت جوانبه الأربعة بشكل رائع. وعادة ما تُكسى الكعبة كل عام في عيد الإيستر "الأضحى؟"، ولكن الكسوة الجديدة لا تسدل في هذا الموسم بنحو كامل على المبنى شأن ما كانت عليه الكسوة السابقة لها، وذلك حتى تظلّ بمنأى عن أيدي الحجاج. أما الكسوة

القديمة فتقطع في الاحتفال المقام لمناسبة استبدالها يبيعونها بخمسة فرنكات للقدم الواحدة، ولكنهم أخذوا أخيراً يدلسون في المقاييس. وأما الحزام والستارة فيحملان إلى الشريف حقّاً خالصاً له ما لم يصادف الإيستر "العيد (؟) الوقفة (؟)" يوم الجمعة، فحينئذ تصبح القطعتان من حقّ السلطان العثماني الذي يُحمل له في كل سنة قدر من ماء زمزم.

يستطرد دومنجو باديا آي لبلخ فيقول: "يسودني اعتقاد أنه كان للكعبة في فترة سابقة باب آخر في مقابلة الباب الحالي على الجانب الآخر المواجه له تماماً، كما يبدو لي من تفحّص ذلك الحائط". ويرى أن ذلك الباب كان يماثل الباب الحالي شكلاً وحجماً.

يُوضع أمام باب الكعبة المشرفة خلال اليومين اللذين تفتح فيهما الكعبة للجمهور درج من البرونز يقوم على عجلات، له ست درجات يحيط بجانبيه، اللذين يبعد أحدهما عن الآخر حوالى ثماني أقدام، شبك من البرونز، ويلي ذلك سلّم به حوالى عشرة سلالم. فتح الباب في يوم ٢١ ذو القعدة/١٩ يناير وتزاحمت الجماهير قبالته، ولم يكن السلم قد وضع بعد. وجيء بالشريف محمولاً على الأكتاف وفي معيّته عدد من شيوخ القبائل الكبيرة. وكان الحراس الزنوج يُلوّحون بالعصي ليمنعوا المتجمهرين قبالة الباب من شرف الدخول إلى جوف الكعبة، وكان علي باي يقف في وسط الجمهور يحاول - مثل الآخرين - أن يتلقف قدراً من الماء الذي يسيل من ثقب تحت عتبة باب الكعبة ليشرب منه ويغتسل. وحين علت أصوات الجماهير تطالب بالمزيد من ذلك الماء المتدفق، أخذ الحراس الزنوج يرسلون بالطاسات وفي أيديهم قدر كبير من هذا الماء إلى الجمهور. وقد ظفر علي باي بجرة صغيرة من ذلك الماء، حُملت إليه، وشرب منها حتى ارتوى وصبّ ما بقي على جسده، "لأن هذا الماء المعطر بماء الورد يحمل - رغم كل شيء - بركة الإله". واستجابة لأمر الشريف، أشار كبير السقاة إلى علي باي العباسي بأن يتقدم ليشارك في غسيل الكعبة. وحين أشير إلى علي باي بأن يتقدم ليدخل إلى جوف الكعبة، أعجزه ذلك للزحام الشديد، إلا أنه وجد نفسه محمولاً على الأعناق فوق الرؤوس حيث تلقفه الحرس عند الباب وأفضوا به إلى الداخل. وجد الباي الشريف ومن معه يكنسون أرض الكعبة. وقدّم له الحراس مجموعة مكانس، وصبّوا له الماء صبّاً، فانصرف الرجل يكنس - كما يقول - في فورة إيمانية بهمّة بكلتا يديه ذلك السطح الذي كان قد غدا نظيفاً أملس كالزجاج. وبينما راح الشريف يصلي، قدمت إلى الباي قصعة من فضة ملئت بعجين مسحوق خشب الصندل المعجون بماء الورد، وراح دومنجو يشارك الآخرين في تعطير المكان، فمنحه "الحاكم الشريف" لقب "خادم بيت الله الحرام". وراح الباي يتلقى التهاني لهذا الشرف الذي ناله. وحين قام علي باي لتأدية الصلاة، انصرف الشريف وخرج الباي في إثره، فأنزله الحراس من فوق رؤوس الجمهور الذي تلقّاه بالترحاب وأنزلوه أرضاً وهم يقدمون له التهانيء لما ناله من شرف. وتوجه الباي بعدئذ إلى مقام إبراهيم للصلاة ثم انصرف بعدها إلى بيته "مبتلاً تماماً".

قدّم دومنجو وصفاً للقاعة الداخلية للكعبة المشرفة. يقف في وسط الغرفة عمودان يبلغ محيط الواحد منهما أقل من قدمين يسندان السقف. واعتذر الرجل عن وصفهما، لأنهما كانا مكسوّين بقماش فاخر، ويغطي القماش الفاخر المسدل من السقف كل الحوائط والأعمدة الأخرى. نُسجت هذه الستائر من الحرير الخالص، وهي ذات لون وردي، مطرزة بزهور من الفضة ومبطنة بالحرير الأبيض. ويقول دومنجو إن على كل سلطان عثماني يعتلي العرش خلفاً لآخر أن يرسل إلى الكعبة المشرفة هذه الستائر التي لن يجري تغييرها أبداً ما لم يجلس على العرش سلطان جديد. يقول دومنجو إن قواعد جميع أعمدة الغرفة قد داخلها البلى، وهي غير مغطاة بالستائر الحريرية، بل غطّيت بشرائح من الخشب يبلغ عرض الشريحة الواحدة حوالى بوصتين، ثبتت الواحدة فوق الأخرى بمسامير برونزية. أما الأجزاء السفلية من الأسوار الداخلية، فهي بدورها غير مغطاة بالستائر، لكنها طُعّمت بالرخام البديع الذي يظهر بعضه صوراً للزهور، وتظهر هنا فنون النحت والأرابسك. أما السقف، فهناك شرائح تربط بين كل عمود وآخر قيل إنها من الفضة، عُلّق عليها عدد غير محدود من ثريات الذهب المضيئة التي عُلّق بعضها فوق بعض. ويقع في الزاوية الشمالية من تلك الغرفة درج يقود إلى سطح المبنى ينتهي بباب مغلق محجوب عن النظر بستارة. أما السقف فيضمّ ميزاباً واحداً يصبّ في المنطقة الشمالية الغربية في حجر إسماعيل. و"يقال إن الميزاب صُنع من الذهب، لكنه يبدو لناظري كأنه من البرونز الصقيل".

يُحدث دومنجو بعدئذ عن شعائر الحجّ فيخطئ ويصيب. وقد نلاحظ في ما رواه أن الطريق بين الصفا والمروة هو طريق الشارع العام في مكّة الذي يضمّ السوق العام، وأن روّاد ذلك السوق يزعجون الحجاج حين يزدحمون في ذلك الشارع الذي يضمّ أيضاً محال الحلاقين التي يقصدها الحجاج والمعتمرون بعد الفراغ من مناسكهم للحلاقة أو التقصير. ويلفت دومنجو النظر إلى أن عرفات، وهو عبارة عن كتلة غرانيتية يقدر ارتفاعها بحوالى مئة وخمسين قدماً، قد عُرف بهذا الاسم لأن آدم عليه السلام تعرّف إلى حواء عنده بعد طول فراق. وينسب إلى آدم معبد صغير في أعلى الجبل تخليداً لذكرى ذلك اللقاء، إلا أن الوهابيين هدموا المبنى كما هدموا أيضاً العديد من المزارات التي أضيفت في فترات مختلفة، من قبل طوائف وفرق دينية مختلفة، إلى شعائر الحجّ وهي ليست منه، باعتبارها مظاهر بدعية. وبدورنا لا ندري لماذا غفل الوهابيون عن ممارسة بدعية يقول دومنجو، أنه قد قام بها، وهي توجّهه مع الحجاج إلى بيت أبي جهل "الشرير العدو اللدود لنبيّنا" ليلعنوا الرجل ويرشقوا بيته بسبع حصيات. يصوّر دومنجو نزول الحجاج من عرفات في تجمع ضمّ حوالى ثمانين ألف رجل وألفي امرأة وحوالى ألف طفل، إضافة إلى ستين أو سبعين ألفاً من الدواب ما بين حمار وجمل وحصان. كل هذه الجموع تجمهرت كتلة متراصّة وراحت تستحثّ الخطى مسرعة لتخرج من عرفات قبل حلول الظلام تتدافع أفواجاً تتلوها أفواج تثير

غمامة من الغبار تعتلي غابة من الرماح والبنادق والسيوف.

يشير دومنجو إلى صعوبة رمي الجمار في منى "لأن الشيطان الرجيم قد اختار أن يبني بيته في مكان ضيق" لا يتجاوز عرضه أربعاً وثلاثين قدماً وتعترض الطريق إليه الصخور الضخمة، وأفاد بأنه قد أصيب بجرحين في ساقه اليسرى وهو يحاول الرمي. ويعترف دومنجو ببساطة التعاليم الإسلامية وعظمتها وسلاستها، فليس ثمّة دين يضارعها في ذلك. ويشيد دومنجو بالمفهوم الإسلامي الذي لا يضع واسطة أو وسيطاً بين الإنسان وخالقه، فالكل أمامه سواسية لا تَفاضُل بين العباد إلا بالأعمال التي تقرّبهم إلى الله.

يتحدث دومنجو عن المزارات التي يقصدها الحجاج للصلاة فيها، ومنها مكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وجبل النور حيث تلقّى الوحي، وبيت أبي طالب الذي قضى صلى الله عليه وسلم فيه شطراً من حياته. ويذكر من أماكن الزيارة الأخرى جبل أبي قبيس "حيث هبط الحجر الأسود المعجزة من السماء" ومصلّى السيدة فاطمة وعدداً من أضرحة الأولياء والصالحين التي منع الوهابيون زيارتها، ففقد العديد من سكان المدينة الأرباح الموسمية التي كانوا يجنونها في مواسم الزيارات. ويذهب دومنجو إلى القول إن نصف سكان مكّة تقريباً يعملون بنحو أو بآخر في الأنشطة المتصلة بالحرم. فهناك، إضافة إلى أئمة المسجد والمؤذنين والمرتّلين والمطوّفين، حوالى أربعين خصياً من الزنوج العاملين في خدمة الحرم يقوم على رئاستهم شيخ الحرم، إضافة إلى السقائين وعمال إنارة المصابيح وحراس الأبواب وحراس أحذية الحجاج، وهناك أيضاً المفتي وحامل مفاتيح الكعبة المشرّفة.

لا نجد في ما كتبه علي بك العباسي استغراقاً في ما اهتمّ به الرحالة السابقون له واللاحقون من رصد للحياة الاجتماعية وحديث عن طبائع السكان وعاداتهم، فذلك لم يكن الهدف الرئيس من رحلته التي قدمت معلومات فلكية وطوبوغرافية وهندسية تفصيلية كانت لازمة لجيوش الاستعمار وأساطيله. ولا شك في أن الزمن قد تجاوز تلك الحقائق التي ما عادت تعني شيئاً بالنسبة إلى المؤرخ في الوقت الحاضر. يقول دومنجو إن مكّة تقع في وادٍ غير ذي زرع تحيط به جبال صمّ ملساء تضربها الشمس فتغدو فرناً، ولن تجد الزبد في مكّة إلا سائلاً كأنه الماء. لا مياه جارية في مكّة ولا عيون ولا غطاء نباتي، ولا تكاد ترى فيها أثراً لخضرة إلا ما كان من ثلاث أو أربع شجرات شوكية عند بيت أبي طالب وحوالى ثماني شجرات نبق متفرقات هنا وهناك. ورغم أن جوّها صحي، لا يعيش الذين يسكنونها إلا بفضل من الله ورحمة، ولولا ذلك لكانوا قد اختفوا من على ظهر البسيطة منذ أمد. ولا يرى دومنجو في العرب ذلك العنصر النبيل الذي يرى المؤرخون فيه شجاعة أورثته حصانة من الركوع أمام سطوة اليونان والرومان ومن إليهم من الغزاة. ويرد عدم خضوع الجزيرة لمستعمر إلى طبيعة الأرض و"ليس طبيعة الشعب"، فهي التي جعلت القادة يزهدون في

التضحية بالرجال والمال لفتح الصحراء والوصول "إلى شعب عاجز".

يرى دومنجو في مجتمع مكة طبقتين اجتماعيتين متمايزتين، فهناك أهل الوفرة واليسار من سكان المدينة الذين يمثلون أقلية في خضم السواد الأعظم من السكان. يسكن الأوائل منازل حجرية من ثلاث أو أربع طبقات، أو ربما أكثر من ذلك أحياناً. تزين واجهات هذه المنازل شرفات كبيرة ذات مشربيات، غير أن الغالبية منها مغطاة بستائر رقيقة من سعف النخيل تقي من وهج الشمس ولا تمنع انسياب الهواء. ويمكن أن ترفع هذه الستائر عند اللزوم. ويلاحظ أن الشوارع الترابية التي تفصل بين المنازل منتظمة إلى حدّ ما. أما الفقراء من أهل مكة ففقرهم مدقع، ولا يزيد نصيب الفرد منهم من الحياة على جمل وبضع رؤوس من الماشية. يعيش هؤلاء الأنفار شبه عراة في أكواخ أو خيام بلا أثاث إلا من قدر صغير أو إناء فخاري ورحى لطحن الحبوب وقربة ماء أو اثنتين، إضافة إلى حصير للفراش. وتستحوذ النساء كما يستحوذ الرقيق في شبه الجزيرة العربية على اهتمام الرحالة الأوروبيين كلهم. يقول دومنجو إن نساء مكة متبرجات ولكنهن غير جميلات، ولم تستهوه فيهن سوى عيونهن والكحل الأسود الذي يحددن به محيطها. وروى أنهن يزيّن أصابعهن ومعاصمهن وسيقانهن بخواتم وأساور، وتتدلى من غضاريف أنوفهن حلقات تلامس شفاههن العليا. أما في موضوع الرقّ، فلعل اللافت للنظر أن دومنجو يكاد يكون الوحيد من بين الرحالة الأوروبيين الذي اتهم المكيين بسوء معاملة الرقيق.

قد يمكن المؤرخ أن يفيد من بعض ما ذكره دومنجو عن الوهابيين. ففي هذا الوقت الذي اشتدت فيه سيطرة الوهابيين على الحجاز وتعاظمت في مكة المكرّمة، وذلك بعد أن حرّك سعود في عام ١٨٠٥م أبا نقطة، واليه على عسير، ضدّ الشريف غالب الذي كان قد أخذ يتنكر لما كان قد أعلنه سلفاً من ولاء للدرعية. ويقع دومنجو في العديد من الأخطاء وهو يحاول أن يصحح بعض الأخطاء السائدة في الغرب عن المسلمين في زمانه. يقول إن الأوروبيين يخلطون بين معنيي مسلم وعثماني، كما أنهم يعتقدون أن الوهابيين غير مسلمين! ويجتهد الرجل في إثبات إسلام الوهابيين فيقول في هذا الصدد رغم أن الوهابيين منعوا الحجاج من زيارة جبل النور والوقوف في المزارات الأخرى، "يذهبون إلى منى ويحصبون الشيطان"! ويرى دومنجو في دعوة ابن عبد الوهاب تزمّتاً يقعد بها عن الانتشار خارج حدود الصحراء. ويأخذ هذا الرحالة في سرد تاريخ الوهابيين حتى زمانه وخلافاتهم العقدية مع جيرانهم التي تُسوّى من قبلهم بالقوّة. ويستطرد فيصف الجيش السعودي وتنظيماته وأسلحته، كما يعرض نظم القضاء في الدولة السعودية. وعبّر عن رأيه في أن السعوديين لن يلبثوا أن يخرجوا من مكة والمدينة والمدن الساحلية، فسيطرتهم عليها - كما يراها - مؤقتة.

شهد دومنجو موكب الإمام سعود وهو يدخل مع جيشه إلى مكّة المكرّمة حاجّاً بعد أن منعت حشوده التي استولت في هذا الوقت من عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٦م على المدينة المنوّرة

قافلة الحجاج من الحجّ لخشيتهم – كما يقول دومنجو – من مؤامرات يقوم بها الشريف غالب بدعم من الوافدين إلى الحجاز. يقول دومنجو إنه شهد من على ربوة عالية في أحد شوارع مكّة سيلاً متدفقاً من الوهابيين – قدّر عددهم بين خمسة آلاف وستة آلاف رجل مسلحين بالبنادق ذات الفتيل والخناجر المعقوفة جعلوها في أحزمة حول خصورهم – ينحدر نحو الحرم، فيما أهل مكة الذين شبّههم هذا الرحالة في موضع آخر من كتابه بالهياكل العظمية التي اكتست جلوداً من أثر المجاعة التي نزلت بمكّة في السنوات الماضية، يهربون من أمامهم واجفين مذعورين. وحين أصبحت تلك الكتلة البشرية المتراصّة – التي كان الرجل منهم فيها يصعب عليه أن يحرك يديه بحرية من شدة الزحام – قرب الحرم، عملوا على تقسيم جمعهم إلى مجموعات صغيرة ليتسنّى لهم دخول المسجد من باب السلام. ولكن ما إن دلفت تلك المجموعات إلى صحن الحرم حتى أخذت تلك الجموع تتدافع وانفرط عقد نظامها وتعالت الجلبة والضوضاء هادرة، وضجّت الحناجر بالصلوات والدعاء. وحين أصبحت الجموع قبالة الحجر الأسود الذي كان كل فرد في الجماعة يسعى لتقبيله، ازداد التدافع واضطربت الجموع المتداخلة، و لم يفلح أحد قادتهم الذي اعتلى قاعدة قريبة ممسكاً بعصاه أن يردهم إلى الانتظام. فقد ضاع صوت الرجل وسط أصوات دعاء الجماعة وابتهالاتها، والذي ارتفع واختلط وتعالى، حتى غدا كأنه طنين النحل، وقد استثير فراحت جماعاته المهتاجة يزاحم بعضها بعضاً حول الخلية في غير نظام. واندفعت تلك الجموع البشرية المضطربة المتداخلة إلى بئر زمزم، وراحت الرجال تعبّ من مائها وتغتسل. وأدى التزاحم إلى أن تتقطع حبال البئر وتتساقط الدلاء، فنزل الرجال إلى البئر غير عابئين بشيء.

يحدثنا دومنجو عن سلوك الوهابيين الذين وفدوا مع "الملك" سعود وقائده أبي نقطة للوقوف بعرفة. ويروي أن ذلك الجيش الذي كان قوامه حوالى خمسة وأربعين ألف وهابي أو يزيدون قد اعتلى معظمهم في الموقف أكوار إبلهم. كما لاحظ دومنجو وجود حوالى ألف بعير كانت تُوظّف لحمل الماء وجلب حطب الوقود والعلف الجاف لإبل القادة وحمل الخيام. ويقف إلى جوار هذا الحشد حوالى مئتين من الفرسان يرفعون رايات مختلفة الألوان قيل له إنهم من خيالة أبي نقطة. و لم يستطع دومنجو أن يميّز الإمام سعود ولا القائد أبا نقطة وسط تلك الجموع التي كانت كلها في ملابس الإحرام، ولكنه أشار إلى وجود شيخ كبير ذي لحية بيضاء طويلة يتقدمه "العلم الملكي" الأخضر الذي كُتب عليه بأحرف بيضاء واضحة: لا إله إلا الله فأدرك أنه "الملك". كذلك شاهد أحد أبناء سعود وهو في حوالى السابعة أو الثامنة من عمره يعتلي صهوة جواد أبيض عليه لبادة من دون سرج مغطاة بقطعة قماش أحمر تناثرت عليها صور نجوم فضية.

أشاد دومنجو باديا آي لبلخ بالوهابيين الذين رماهم سابقاً بالتزمّت، فقال إنهم يتمتعون بخصال حميدة. فهم لا يعرفون السرقة واغتصاب حقوق الغير ولا التعدي عليها بالقوّة

أو الاحتيال. يؤدي هؤلاء الرجال أثمان ما يشترونه وأجور الخدمات التي تقدم لهم نقداً، أما من لم يكن يملك المال منهم فيؤديها عيناً من الكميات التي يحملها من البن والبارود والرصاص. وأشاد أيضاً بتحمّلهم المشاق، كما أشاد بانضباطهم العسكري، ولاحظ أنهم يطيعون رؤساءهم ولا يخرجون عمّا يؤمرون به. وادّعى دومنجو أنه ناقش أفراداً منهم في "مذهبهم"، وأشار إلى أنه يتّسم بالاعتدال، "ولكن مع ذلك فإن مجرد التلفظ بذكرهم كان يثير الرعب في نفوس المواطنين والحجاج". ويشير دومنجو إلى أن معارضي الوهابيين لم يدركوا مغزى الإصلاح الذي طبّقه هؤلاء على المزارات وما قاموا به من تدمير أضرحة الأولياء والصالحين التي كان الناس يؤدون لها قدراً من الإجلال لا يليق إلا بذي الجلال. وأضاف أن تلك الممارسات التي كافحها الوهابيون كانت قد أوشكت أن تتحول إلى نوع من أنواع العبادة التي لا تجب لغير الله، لا يشاركه فيها أحد. ويشير إلى أن الوهابيين قد هدموا مزار جبل النور الذي كان الحجاج يُجلّونه، فقد أثر أن جبريل "أملى" فيه على الرسول صلى الله عليه وسلم أول سورة من القرآن الكريم. كذلك أقام الوهابيون أسفل الجبل حاجزاً كبيراً يحول دون صعود الحجاج إلى ذلك المكان. وأشار دومنجو إلى أنهم هدموا أيضاً مزار جبل عرفات. ويدافع دومنجو عنهم حين يذكر أنهم فعلوا ما فعلوا بتلك المزارات بهدي من روح الإصلاح التي قضت بتطبيق نصوص الشريعة الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم، ونفذوا ذلك بحماسة بالغة تركت أثرها على الجمهور الذي استعدته تلك الممارسات. وأشار أيضاً إلى أن تطبيق هذا الإصلاح كان شاملاً كاملاً، حتى إن أياً من الحجاج الذين اعتادوا تدخين التبغ ما عاد يفعل ذلك إلا سرّاً. وذكر أن سعوداً عيّن قاضياً وهابياً ليحل محل الحاكم الزنجي الذي كان الشريف قد عينه على مكة المكرّمة. وعهد القاضي المعين حديثاً إلى الشرطة بأن تجوب المدينة لتحمل الناس على صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم والليلة.

لعلنا نلاحظ أن علي باي العباسي الذي أشاد بالوهابيين وسلوكياتهم لم يجرؤ على محاولة التصدي للقاء سعود، رغم أنه عمل سابقاً على لقاء كافة حكام المدن والأمصار التي زارها منذ أن بدأ رحلته بالمغرب. والسبب في تقديرنا أن الحيلتين: ادّعاء النسب العباسي واتخاذ مظاهر الأبهة والشرف، اللتين مثّلتا له جواز مرور إلى بلاطات أولئك الحكام ما كان يمكنهما أن تُيسّرا له لقاء سعود الذي كان في تطبيقه لأصول الفكر الوهابي عقدياً وسياسياً لا يعبأ بشريف أو مدّعي شرف. أما مظاهر الأبهة والترف والهيلمان فما كان لها أن تحرك ذلك العاهل. وكان رينو قد شهد قبل هذا على تقشف إمام الدرعية وبساطة مظاهر بلاطه.

كشف ما كتبه دومنجو عن تعاطف واضح مع الحركة الوهابية، وهو في الحقيقة تعاطف بارز في ما كتبه الرحالة الفرنسيون أو العاملون منهم لحساب فرنسا في ذلك الوقت. ولا نجد غرابة في ذلك، فقد كانت الدولة السعودية القديمة مناهضة للاستعمار الإنجليزي فكراً وعملاً، أو في الحقيقة

كانت الوهابية مناهضة للاستعمار بكافة أشكاله وأنواعه، إلا أن مناهضة الاستعمار الإنكليزي كان الأمر الأكثر وضوحاً لمجاورة بعض مظاهر هيمنته وسلطانه لحدود الدولة السعودية في الخليج. ولما كان الاستعمار الفرنسي يسعى بدوره لضرب كافة المصالح الإنجليزية في الشرق، فلا ريب أن يكون عدوّ العدو صديقاً رغم اختلاف الأسباب وتباين الأهداف.

دومنجو يغادر إلى أوروبا

غادر دومنجو آي لبلخ مكّة المكرّمة في ٢٤ ذي الحجة ١٢٢١/الثاني من مارس ١٨٠٧م إلى جدّة فينبع التي ركب البحر الأحمر منها إلى مصر. وفي القاهرة لقي الباي استقبالاً حافلاً. وانتهت أولى مهمات الرجل، فسافر إلى أوروبا عبر فلسطين حيث زار بيت المقدس ووصل إلى روما في الأول من شوال ١٢٢٢/الأول من ديسمبر ١٨٠٧. وغادر دومنجو إلى باريس حيث أجرى عدداً من اللقاءات مع الإمبراطور نابليون قبل أن يستقر في إسبانيا بعدئذ في خدمة جوزيف نابليون حتى تمّ إجلاء الفرنسيين منها، فعاد إلى فرنسا ليعيش باسم الجنرال باديا. ونشر دومنجو كتابه في باريس في عام ١٢٢٩ هـ/١٨١٤م، وفي لندن في عام ١٢٣١هـ/١٨١٦م.

الجدير بالذكر أن المسؤولين في ديوان محمد علي باشا قد اكتشفوا طرفاً من مهمة باديا في فترة لاحقة. كتب محمد آغا (وكيل) محمد علي باشا في مصر في ٢١ ذي الحجة ١٢٢٩/٣ ديسمبر ١٨١٤ إلى الأخير، حينما كان الباشا في الحجاز، بما يأتي: سبق أن حجّ حاج مغربي تحت اسم علي بك المغربي قبل تسع أو عشر سنوات، وكان قد نزل مصر في طريق مجيئه وعاد إليها ثانية بعد ذلك. وقد قابل في القاهرة دورتي، قنصل فرنسا. وكان هذا الرجل يتظاهر بمظهر السياح. وكان الكولونيل قد أخبر مولانا حينذاك أن لفرنسا يداً في مسألة الوهابية، وأن ذلك الرجل المتنكر يظن أنه من أبناء النبلاء في فرنسا، وأن الكولونيل حين قرأ في الصحف عرف أن علي بك قد كشف عن هويته وأظهر الغرض من سياحته، حدث الخواجة دورتي بذلك. وعند ذلك زلّ لسان الخواجة المذكور وقال إن علي بك، الرجل المتنكر، كان ذا صلة وثيقة بالشريف غالب، وأنه قد بعث بخطاب إلى بونابرت. راجع (**وثائق القلعة، بحر يرا رقم ٣:١١٩**).

أوفدت الحكومة الفرنسية دومنجو في مهمة أخرى إلى الحجاز لينتقل من هناك مع قوافل الحجيج عبر البحر الأحمر إلى تخوم الحبشة، ومن ثم إلى دارفور في السودان ليواصل منها إلى تمبكتو في الغرب الأفريقي وينتهي إلى السنغال حيث الأماكن في غرب ووسط أفريقيا التي كانت تظفر باهتمام الاستراتيجيين الفرنسيين الذين كانوا يخططون لاستعمار تلك المناطق. وبدأ دومنجو رحلته بسوريا، إلا أنه هلك في البلقاء على بعد حوالى مئة وعشرين ميلاً من دمشق في شوال ١٢٣٣/أغسطس ١٨١٨ بالزحار. وقد ساد الاعتقاد لدى مصادر الاستخبارات الفرنسية أن الاستخبارات الإنجليزية هي التي دسّت السمّ لهذا الرحالة الخطير فأوردته هلاكه.

الفصل السابع

جين لويس بوركهاردت

وُلد هذا الرحالة في لوزان في سويسرا في عام ١١٩٨هـ/١٧٨٤م ودرس في جامعات ألمانيا في لابيزج وجوتنجن وغيرهما. وهاجر هذا السويسري في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م إلى لندن بحثاً عن عمل. ورغم أنه كان يحمل خطاب تعريف من أحد أساتذته في جوتنجن إلى السير جوزيف بانكس، أحد العاملين في مؤسسة تسعى لتطوير العمل في استكشاف أفريقيا، لم يجد في لندن عملاً. وعاش الرجل معدماً، ولكنه في سعيه الدؤوب للظفر بالعمل في المجال الاستكشافي ظلّ يوثق علاقاته مع أعضاء تلك الجمعية، وعمل في الوقت ذاته على المثابرة في دراسة اللغة الإنجليزية التي نبغ فيها لاحقاً وصاغ بها كتبه بعدئذ.

استقطبت هذه المؤسسة الاستكشافية بوركهاردت في ما بعد، وقدمت له منحة لمدة عام في كمبردج تؤهله للقيام بهذه المهمة. درس بوركهاردت اللغة العربية وأطرافاً من علوم الصيدلة والكيمياء والفلك والمواد التي يحتال بها المستكشفون الأوروبيون للاختلاط بالأفارقة والشرقيين. وازداد بوركهاردت حذقاً حين اختار أن يلتزم أنشطة أخرى لتوطين نفسه على مشاقّ الرحلة. فأخذ يسير حافي القدمين في الريف الإنجليزي، ولا يتناول من الطعام إلا الكفاف الذي يقيم الأود، وينام على الأسطح الجافة.

كان اهتمام لندن في هذه الفترة بما يجري في مصر وعلى أطرافها كبيراً. فمع تطور حركة المتغيرات التي أحدثتها مغامرات محمد علي باشا في مصر وجوارها العربي والأفريقي، أخذت الرحلة الأوروبية التي كانت تهتم بتطور الأحداث في الساحة الوهابية تكتسب أبعاداً جديدة أكثر ارتباطاً بمخططات محمد علي الذي انبرى لقتال الوهابيين بعد أن قضى على المماليك الذين فرّ من بقي منهم على قيد الحياة إلى الصعيد، وتجاوز العديد منهم إبريم وصولاً إلى السودان. ولما كانت الجمعية الملكية البريطانية تسعى لمعرفة ما يدور في مصر ومحيطها بعمقه الأفريقي،

فقد وظفت في صفر ١٢٢٤/مارس ١٨٠٩ بوركهاردت ليقوم بتلك المهمة، وتزامن ذلك مع الفترة التي كان فيها الرحالة سيتزن في القاهرة. خرج بوركهاردت من إنجلترا إلى الشرق وتوجّه إلى مالطا أولاً وأبحر منها إلى سوريا. استقر في حلب حوالى عامين عمل فيهما على تحسين لغته العربية، وتقمّص دور المسلم وعمل على الاستزادة من حفظ القرآن الكريم والتفقه في العبادات الإسلامية.

قام بوركهاردت برحلات عديدة في بادية الشام وأتقن لهجة أهل البلاد حتى تمكن من أن يدّعي أحياناً أنه شامي أصلاً. ومع ذلك كان بوركهاردت الذي اتخذ لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله لا يتحرّج حين يتعرض لإلحاح البعض من أن يعترف بأنه إفرنجي تحوّل إلى الإسلام. لم يكن في ادّعائه الإسلام حتى في هذه الفترة المبكرة من مجيئه إلى سوريا يثير ريبة أحد، وذلك لتقيّده بالتعاليم الإسلامية، ولكثرة ما استظهره من القرآن الكريم عن ظهر قلب. تنقل بوركهاردت في سوريا، فزار دمشق وعدداً آخر من الحواضر السورية. كذلك زار البتراء، وإليه يرجع الفضل في تحديد منطقة خرائبها. خرج بوركهاردت من سوريا إلى القاهرة ليبدأ رحلته إلى فزان، ليقوم من هناك - كما جاء في بعض المصادر - برحلته لاستكشاف منابع نهر النيجر. وحين وصل هذا الرحالة إلى القاهرة، وجد المدينة موبوءة بالطاعون، فهرب منها إلى سيناء حيث ذاب في بدوها وازداد تمرساً في حياة البداوة.

جدّة

لم يذهب بوركهاردت إلى فزان لاستكشاف مناطق من أفريقيا الداخلية كما كان مقرراً، فقد أخذت رحلته مساراً آخر. فإذا صدقت المصادر التي أشارت إلى أن وجهته الأساسية كانت المناطق الغربية من مصر، ولكنه سار منها جنوباً لأنه لم يجد قافلة في ذلك الوقت تأخذه إلى الاتجاه غرباً، يمكن أن نقول إن مسار رحلة بوركهاردت استجاب للمتغيرات السياسية التي اكتنفت المنطقة. ففي الفترة التي تحرك فيها بوركهاردت من بريطانيا في عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، لم تكن دولة محمد علي باشا قد اكتسبت أهمية تجعلها مثار اهتمام الجمعية الجغرافية الملكية لاستكشاف مناطق أفريقيا الداخلية. وقد اكتسبت هذه الدولة بعدئذ، في الفترة التي كان فيها هذا الرحالة في مصر، زخماً في السياسة الأفريقية والعربية. ففي عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م اكتسبت دولة محمد علي في الفكر الاستعماري الغربي أهمية لم يكن لها نصيب منها قبل عامين، حين أوفدت الجمعية البريطانية بوركهاردت إلى المنطقة. وقد ازدادت تلك الأهمية بعد الانتصارات التي حققها طوسون باشا في الحجاز بحملته التي بدأت بعد أن قضى محمد علي باشا في بدايتها على المماليك. وحين سافر محمد علي باشا إلى الحجاز

ليشرف على الحملة بنفسه، كانت المدينتان المقدستان في الحجاز تحت قبضته التي امتدت إلى مدن داخلية أخرى، منها بيشة ورنية وخميس مشيط. وأصبح من اللازم للسياسة البريطانية التحرّي عن طبيعة تلك التحولات المنطلقة من الطرف الشمالي الشرقي من أفريقيا عبر منطقة حيوية مفصلية وسيطة في شريان مواصلاتها مع شبه القارة الهندية. واستجابة لهذه المتغيرات البعيدة الأثر، تغيّر مسار رحلة بوركهاردت، فقصد هذا الرحالة النبيل الجنوب والتقى ببقايا المماليك الهاربين من مذابح محمد علي، وواصل رحلته من مناطق المحس جنوباً وتوغّل في شمال السودان حتى بلغ دنقلا ومنها إلى بربر وسار منها إلى شندي. وكتب بوركهاردت في جمادى الأولى ١٢٢٨/مايو ١٨١٣ للجمعية الجغرافية الملكية من هناك يقول إنه يزمع الحجّ، وإنه قد أجّل رحلته المزمعة إلى فزان إلى حين عودته من الحجاز. ولعل من نافل القول إن الرجل ما كان يمكنه أن يغيّر من تلقاء نفسه خط سيره المرسوم له إلا إذا كان يدرك أن الهدف الذي سعت إليه الجمعية التي تموّله يستدعي هذا التغيير. فهي لم ترسله على نفقتها سائحاً، بل أرسلته باحثاً ومستكشفاً لتحقيق هدف قدّر هذا الرحالة أنه يستدعي منه تغيير خط سيره.

غادر بوركهاردت شندي إلى سواكن مع إحدى قوافل الرقيق التي رافقها إلى ذلك الاتجاه. وتدهورت حالته الصحية وأصيب بالتهاب في عينيه، ولكنه مع ذلك واصل المسير، فقد كان حريصاً على القيام بمهماته. ركب بوركهاردت البحر من سواكن، ميناء السودان على البحر الأحمر، في ٣٠ رجب ١٢٢٩/١٧ يوليو ١٨١٤، وقضى في البحر أربعة عشر يوماً ليصل إلى جدّة، وذلك لجهل ربان السنبوك بالطريق البحري الذي يربط بين سواكن وجدّة.

يقول بوركهاردت إنه وصل إلى جدّة مفلساً وفي أسمال رثة بالية لا تكاد تستر جسده. ذهب بوركهاردت وهو على تلك الهيئة البائسة إلى تاجر معتمد لدى صرافة في القاهرة حاملاً معه خطاب ائتمان نقدي صادر من تلك الصرافة، لكن ذلك التاجر ارتاب في أمره، وضنّ عليه بالمال، وخاصة أنه قد مضى على خطاب الاعتماد حوالى ثمانية عشر شهراً. وتكرّم ذلك التاجر باستضافة بوركهاردت لليلتين فقط كان عليه بعدها أن يجد لنفسه خاناً أو نزلاً يأوي إليه. واضطر بوركهاردت بعدئذ إلى أن يعيش لفترة على مبلغ ضئيل كان قد خاطه في قماش على شكل تميمة ربطها على ذراعه حرصاً منه على الاحتفاظ به.

زادت الحمى التي انتابت بوركهاردت في جدّة من مشاكله، فطلب وهو في فراش المرض إلى بحار إغريقي، كان قد تعرّف إليه في ذلك الميناء، أن يذهب بالعبد الصغير الذي كان قد اشتراه في السودان إلى السوق ليبيعه له. وقد حصل الإغريقي على ثمانية وأربعين ريالاً ثمناً للعبد. وحسب بوركهاردت مكسبه من هذه الصفقة، فوجد أنه قد ربح اثنين وثلاثين ريالاً كاملة.

يستعرض بوركهاردت بعض مواقع محمد علي باشا في الحجاز وحملة محمد علي باشا

الأولى التي لقيت هزيمة نالت من سمعته العسكرية، ثم ما جرى بعد ذلك من تعزيز لقوته العسكرية التي تمكن طوسون باشا بها من الاستيلاء على جدّة ومكّة والمدينة والطائف. ويرى أن تلك الانتصارات قد أثارت نهم محمد علي باشا، فعزم على إلحاق الهزيمة الكاملة بالقوّة الوهابية في موطنها في نجد. واتخذ محمد علي من الطائف قاعدة له وأخذ من هناك يراسل شيوخ البدو يخطب ودّهم ليكسب دعمهم لمخططاته.

كان بوركهاردت في حاجة إلى مال، وخاصة أن الحجّ لم يَحن ميقاته بعد، إذ يفصله عن شهر ذي الحجة/نوفمبر حوالى ثلاثة أشهر ونصف الشهر. وعلى الرغم من أنه كتب إلى الصرافة المعتمدة في القاهرة يطلب إليها أن توافيه بمبلغ من المال لتغطية نفقاته، لم يكن يأمل أن يصله منها مال إلا بعد حوالى أربعة أشهر. وانتهز بوركهاردت حاجته ذريعة للاتصال بمحمد علي باشا في الطائف، فكتب بما يلاقيه من فلس إلى بوصاري، الطبيب الأرمني المرافق للباشا، طالباً إليه أن يفاتح الباشا في إعارته بعض المال في نظير صك على صرافة في القاهرة. و لم يكن بوركهاردت يشك في استجابة الباشا لهذا الطلب، فقد سبق له أن قابل الباشا في القاهرة وحصل على دعم مادي من إبراهيم باشا، ابن محمد علي لتغطية بعض نفقات رحلته إلى السودان". ونظراً لما كان لي من معاملة مادية سابقة مع الباشا، فقد حاولت أن أعمل على تجديدها في الحجاز، خاصة أني قد سمعت أن الباشا قد سبق أن عبّر عن تقديره لشخصي وللعمل الذي أقوم به".

وفي الحقيقة لم يكن بوركهاردت يظفر بتقدير محمد علي باشا فقط، بل كان له حظ من ذلك أيضاً في العديد من الدوائر القريبة من صناعة القرار في حاشية الباشا. عرف يحيى طبيب طوسون باشا، الذي كان في هذه الفترة عاملاً لأبيه في جدّة، بأن بوركهاردت يعاني ضيقاً مادياً وقرر أن يعينه. كان يحيى يزمع أن يرسل مدخراته البالغة حوالى مئة استرليني إلى عائلته في القاهرة، فعرض على بوركهاردت أن يدفع له ذلك المبلغ ويأخذ منه الصك المسحوب على صرافة القاهرة. ودُهش الرحالة من هذه الثقة التي أولاه إياها يحيى وتقبّلها شاكراً، وقد عرف بوركهاردت أن بعض أصدقاء ذلك الطبيب الذين سبق لهم أن التقوه في القاهرة قد قرّظوا شخصيته، فما عاد الرجل يشك لحظة "في أمانتي وتقديري للمسؤولية".

بلغت الباشا أخبار وصول بوركهاردت إلى جدّة، وسمع أنه يعاني العوز ويسير في أسمال بالية، فأصدر أمره فوراً إلى سيد علي أوجقلي، جابي ضرائب جدّة، أن يمنحه خمسمئة قرش وملابس. وعبّر الباشا عن أمله بأن يفد بوركهاردت إلى الطائف لمقابلته، وكان في معية الرسول الذي حمل تعليمات الباشا إلى أوجقلي جملاً إضافياً أدرك بوركهاردت أنه قد أعدّ لنقله. وبالطبع فقد عبّر بوركهاردت عن كراهيته للقاء الباشا، ولكنه كان يدرك أن طلب الباشا لزيارة الطائف "كان أمراً لا يرد لكنه صيغ بأسلوب مهذب". و لم يُبدِ الرحالة ارتياحاً لقبول هدية الباشا الذي قال إنه لا يثق به. وكان بوركهاردت قد استبدل المئة استرليني (ثلاثة آلاف قرش)

التي حصل عليها من الطبيب يحيى ذهباً أخفاه في ثنايا ملابسه، وذلك لخشيته - كما يدّعي - من أنه قد يحتاج إلى المبلغ ليدفعه رشوة إلى بعض المسؤولين في خدمة الباشا ليجد طريقة تخرجه من الطائف إذا أراد الباشا أن يستبقيه هناك. وقد يكشف لنا هذا الهاجس الذي انتاب الرجل عن أسلوب تعامله مع الأحداث. فهو كما نلاحظ من سرده لملاحظاته يتجنّب الأسئلة المباشرة. وكان يجلس لساعات طويلة في المقاهي والحانات وأمام الحوانيت يدير الحوار مع جلسائه في الموضوعات التي يعنّ له أن يستقصيها. وكان في تسجيل ملاحظاته دقيقاً يتجنّب الأساليب البلاغية واستخدام المحسّنات البديعية. ولربما أفاد القارئ من جملة لبوركهاردت أكثر مما قد يفيده من فقرات متتالية في الموضوع ذاته لرحالة آخر. فهو في تحامله المقصود وغير المقصود على العنصر التركي يلخّص لنا السياسة الإدارية للعثمانيين في هذه الفترة التي كان العسكريون يتولّون فيها إدارة دفّتها: "إن الشخص الذي يملك المال يجب ألا يخشى شيئاً من الأتراك إلا إتلاف ماله". وقد نفيد من هذه العبارة أكثر مما نفيده من قراءة عدّة مصادر أخرى. ولا شك في أن الرجل كان يسعى للقاء محمد علي، ولكنه كان يخشى من أن يستبقيه لفترة قد تطول.

يصف بوركهاردت جدّة فيقول إنها تمتد طولاً إلى حوالى ألف وخمسمئة خطوة على امتداد ساحل البحر الأحمر، أما عرضها فلا يتجاوز في أبعد أبنيتها عن البحر نصف تلك المسافة. يحيط بجدّة سورغير متين بُني حديثاً، ولكنه يمكن أن يصمد ضدّ هجمات العرب الذين لا يملكون سلاح مدفعية. وتقف على كل أربعين أو خمسين خطوة على امتداد السور أبراج مراقبة زُوّدت بمدفعية صدئة. ويتابع السور على طول امتداده خندق ضيق لتعزيز وسيلة الدفاع عن المدينة وتؤيده قلعة صغيرة عند الطرف الجنوبي لها زُوّدت بثمانية عشر مدفعاً. أما الميناء فتحرسه بطارية مدفعية جُهّزت بمدفع ضخم قديم. وللمدينة بوابتان: باب مكّة في الجانب الشرقي من المدينة وباب المدينة في الجانب الشمالي منها. ويسكن قرب باب مكة في عدد من الأكواخ الأبالة الذين ينقلون الحجاج إلى مكة المكرّمة وبعض البدو وكذلك الحجاج من غير ذوي اليسار إضافة إلى الزنوج. أما الأكواخ الواقعة عند باب المدينة فتسمى حارة السواكني ويقطنها فقراء جدّة ومعدموها. وتجد فيها صنوف الموبقات من المسكرات المسمّاة "البوظة" التي تعدها النساء اللائي تندسّ في أوساطهن بائعات الهوى. وتضمّ جدّة عدداً من الأحياء الراقية أميزها ذلك الحي الذي يسير على امتداد خط الساحل، والذي يضمّ إضافة إلى المنازل ذات الطبقتين عدداً غير قليل من الخانات أعدت للتجار الوافدين، وأعداداً كبيرة من المحال التجارية.

تحدث بوركهاردت عن تجارة جدّة التي يرى أنها قد تدهورت في الفترة التي سيطر فيها الوهابيون على الحجاز. ويضيف أن السبب في ذلك يرجع إلى أن الوهابيين قد منعوا وصول

مواطني بعض المناطق إلى الحجّ، وكما يذكر أن الحروب التي وقعت في الحجاز واضطراب الأمن في بعض الطرق الداخلية قد ضاعفت ذلك التدهور، فقد أصبح التجار يترددون في التعامل مع المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية التي ما عادت طرقها آمنة. ويلاحظ بوركهادرت أن التجارة في جدّة تقع في أيدي تجار من اليمن وحضرموت، وهم الأكثر عدداً، وتجار من مصر وسوريا والأناضول وشمال أفريقيا ومواطني الهند الشرقية، خاصة أهل الملايو، إضافة إلى بعض العرب الحجازيين وأهل مسقط. ويخلص بوركهاردت إلى أنه لا مندوحة من القول إن أهل جدّة هجين خليط من هذه العناصر البشرية جميعها، ويضيف أن العديد من أهل جدّة يتزوجون بالإماء الحبشيات. كذلك يشير إلى وجود نحو مئة عائلة هندية من سورات وبومباي، ويغشاها بعض اليونانيين من النصارى المتعاملين بسلع الأرخبيل اليوناني مع مصر، كما يغشاها بعض البانيان أيضاً، ولكن هؤلاء وأولئك لا يستقرون فيها.

يقول بوركهاردت إن جدّة هي الميناء الأول لشبه الجزيرة العربية، ويخدم هذا الميناء التجارة المصرية أيضاً، فكل سلع الهند تفد إلى جدّة أولاً، كما يفد إليها البن المجلوب من اليمن الذي أصبح في الفترة الأخيرة يعاني منافسة البن المجلوب من جزر الهند الشرقية، ما جعل أسعاره تتذبذب، فانصرفت رساميل التجار من التعامل به واتجهت إلى التعامل مع السلع الهندية، فأرباحها محسوبة ومضمونة.

تصل الأساطيل التجارية من شبه القارة الهندية من موانئ كلكتا وسوارت وبومباي إلى جدّة مدفوعة بالرياح في أوائل مايو من كل عام. ويشتري كبار التجار في جدّة هذه السلع بالجملة، كما يرسل العديد من تجار القاهرة وكلاءهم بالأموال الوفيرة للتعامل مع تجارة ميناء جدّة بالجملة كذلك. غير أن الحصة الأكبر من تلك السلع تؤول إلى التجار الجداويين الذين يتعامل العديد منهم مع القاهرة بتلك السلع التي تُصدر إلى هناك وتباع لحسابهم. وما إن يحِن موعد إبحار تلك السفن من ميناء جدّة في الفترة من يونيو إلى أوائل يوليو حتى تأخذ أسعار تلك السلع في الارتفاع الذي يصل إلى حوالى ١٠٪ من السعر الأساسي ما إن تغادر آخر سفينة ذلك الميناء. ولا يسارع تجار جدّة عادة إلى بيع تلك السلع في تلك الفترة إلا من كان منهم في حاجة ملحة إلى المال. يستبقي التجار تلك السلع عادة في مخازنهم لفترات قد تصل إلى أربعة أو خمسة شهور قبل بيعها. أما التاجر الذي تمكنه أحواله المادية من تخزين تلك السلع حتى فبراير فإنه يحقق في العادة أرباحاً تصل إلى ٤٠٪. ويستطيع التاجر الذي يدفع بمخزونه من تلك السلع إلى مكة المكرّمة، ويصادف موسم الحجّ، أن يحصد أرباحاً أعلى من غيره. ويلاحظ بوركهاردت أن التجار الذين يستثمرون أموالهم في السلع الهندية يحصلون على أرباح مضمونة مجزية. فالسفن التجارية لا تفد إلى الميناء إلا مرّة واحدة في السنة وفي موسم معين، وتخضع السلع لقانون العرض والطلب. وأردف أن عدم وصول سفن أخرى إلا في

الموسم التالي يضمن عدم تذبذب الأسعار. وكذلك عدم تراجع أسعار السلع إلا إذا استبقاها التاجر إلى موسم توافد السفن في السنة التالية، وهذا ما لا يحدث بطبيعة الحال. ويذكر أن السفن التي تجلب البن من اليمن تصل إلى جدّة على مدار العام، لأنها تستطيع أن تبحر في محاذاة الساحل، ما يجعل التعامل في تلك السلعة غير مأمون العواقب لتذبذب الأسعار.

يعتقد بوركهاردت أن تجارة الهند التي تتخذ من جدّة ميناء رئيساً يمكن أن تتراجع إذا أخذت السويس بنصيب من هذه التجارة، ما يجعل جدّة ميناءً للحجاز فقط. ويرى بوركهاردت في محمد علي غفلة جعلته لا يعي مصلحته الحقيقية، فقد احتجز سفينة من بومباي كانت تبحر إلى السويس مباشرة في جدّة وطالبها بأداء الرسوم هناك. وينعى بوركهاردت على بريطانيا أسلوب تعاملها السلمي مع هؤلاء الحكام من أمثال محمد علي، الذين لا تجدي روح التصالح في التعامل معهم. فإذا تعرضت بريطانيا في البحر الأبيض للسفن الإسلامية عند مالطا – كما يرى بوركهاردت – فإن ذلك كفيل بأن يحمل محمد علي على احترام العلم البريطاني حيث يجده.

خصّ بوركهاردت ميناء جدّة بأربعين صفحة كاملة من كتابه :**رحلات في شبه الجزيرة العربية**، فكتب عن أحيائها ومبانيها وسكانها، غير أن التجارة فيها هي التي احتلت الحيّز الأكبر من اهتمامه، فهي التي أدّت إلى تلك التركيبة السكانية، الخليط المتجانس الذي تتآلف فيه العناصر وتتناغم في انسجام.

أحصى بوركهاردت واحداً وثلاثين محلاً تجارياً يتعامل في بيع التبغ و"التنباك" المصري والسوري وكذلك المصري المخلوط بتبغ سنار. وأحصى بوركهاردت إحدى عشرة بقالة للتجار الهنود لبيع السلع المختلفة من الخزف والزجاج والمرايا والإبر والمقصات والمبارد وورق اللعب، واثني عشر بائعاً للأدوية والعطور والبخور وزيت ورد الطائف والقرنفل، وواحداً وعشرين حانوتاً لبيع السلع التي ترد من الهند، وعدّد منها الملاعق الخشبية والمسابح والمرايا وورق اللعب والخزف الصيني والآنية الزجاجية التي ترد من البندقية، وستة تجار يبيعون المنسوجات المحلية والأخرى التي ترد من فرنسا والهند وكذلك الأقمشة الحريرية، وأحد عشر متجراً لبيع الثياب التي منها ثياب الإحرام، ولباس الحجّ والعمرة، والعباءات النسائية والرجالية والسجاد التركي وملافح كشمير والموصل، وثلاثة محال لبيع الآنية النحاسية التي ترد من مصر وأهمها أباريق الوضوء. والطريف أنه عدّد أماكن بيع اللبن، وقال إنه يباع في واحد وعشرين محلاً، كما أفاد بوجود محلين لبيع اللبن الخاثر، وثمانية عشر محلاً لبيع الخضر والفاكهة الواردة من الطائف، وواحداً وعشرين بائعاً للعسل والزيت والخل، إضافة إلى ثمانية محال لبيع التمور بأنواعها، ومنها "العجوة" أو عجينة التمر التي تكون قسماً من الطعام اليومي لأهل جدّة، واثني عشر محلاً لبيع الخبز، وخمسة محال لبيع السكاكر والحلويات وبعض أصناف البقول.

وأشار إلى حرص أهل جدّة على تناول اللبن، فكل فرد منهم ما إن يفرغ من إفطاره حتى يتبعه بكوب من اللبن وفنجان من القهوة. وعادة ما يتناول الأهالي فنجاناً من الزبد السائل أو السمن في كل صباح قبل تناول القهوة، فيما يتنشق البعض منهم الزبد فيجعلها في فتحات منخريه ظناً منهم أنها تمنع استنشاق الهواء النتن، كما يستعمل البعض الزبد لتدليك كافة أعضاء الجسد. ولا يقتصر تعاطي القهوة عند الجداويين على فترة ما بعد الإفطار فقط، ففي السوق سبعة وعشرون مقهى يغشاها المواطنون الذين يتناول بعضهم ثلاث فناجين من القهوة يومياً، بينما يعبّ آخرون منها حوالى ثلاثين فنجاناً كل نهار. ويذكر هذا الرحالة وجود خمسة محال لبيع الفول المصري (المدمس) الذي يعشقه المصريون، ومحلين لبيع اللحم المشوي (الكباب) يعمل فيهما الأتراك، ومحلٍ لبيع الحساء يباع فيه أيضاً "كوارع" الخراف ورؤوسها المطهوّة، ومحل للسمك المقلي، وخمسة محال لبيع الفطائر الحلوة، ومتجرين لبيع الفاكهة المجففة والجبن اليوناني واللحم المجفف (البسطرمة) الذي لا يستسيغه العرب. أحصى بوركهاردت أربعة محال للحلاقين، وذكر أن العرب يحرصون على تشذيب لحاهم وشواربهم، كذلك يقوم الحلاقون أيضاً ببعض وظائف الطبابة من حجامة وابتداع خلطات من الأدوية المليّنة. وأشار إلى وجود خمسة إسكافيين وساعاتي واحد. أما الصرافة فقد كان يقوم بها اليهود حتى طردهم الشريف سرور من جدّة "لسوء سلوكهم" فآلت المهنة إلى عرب جدّة. ويعمل في هذه المهنة التي تعود على ممتهنها بالربح العميم سبعة من العرب.

يلاحظ بوركهاردت أن تجار جدّة جميعهم يزينون معاصمهم بساعات أوروبية من أجود الأصناف. فالعديد من الحجاج الميسورين حين تزيد نفقاتهم عن الأموال التي جلبوها معهم يلجأون إلى بيع مقتنياتهم. وتأتي الساعات في مقدمة المتاع المُباع، ثم يأخذون بعدها في بيع أسلحتهم من مسدسات وسيوف وخناجر، ويبيعون بعد ذلك غلايينهم ثم يضطرون في آخر الأمر إلى بيع النسخ التي يحملونها من القرآن الكريم. ويلاحظ بوركهاردت أن أسواق جدّة ومكة تزخر بمعروضات من هذه المقتنيات في أعقاب موسم الحجّ مباشرة.

يحدثنا بوركهاردت أن محمد علي باشا كان قد أصدر أوامر صارمة لجنوده في جدّة بمراعاة حسن التعامل مع العرب الذين رأى أنهم يستجيبون سريعاً للاستفزاز. ويرى هذا الرحالة وجود تنافر بين العنصرين العربي والتركي ويفاضل بينهما ويصل إلى تفضيل الأوائل. ويرى أن سبب التنافر يعود إلى أن الترك يعدّون العرب غير متحضّرين، بينما يرى العرب الذين يصفهم بوركهاردت بأنهم "أمة أبية شجاعة" أن الأوائل أدنى منزلة منهم لأنهم لا يمتازون بالبساطة التي يمتاز بها العرب ولا يتحدثون العربية لغة القرآن. ويرى بوركهاردت أن مراسم الاستقبال المعقدة للباشا ذاته تتناقض مع بساطة التقاليد العربية الموروثة. وفي تقديرنا أن هذه المفاضلة باطلة، فالرجل لم يعش في بلاد الأتراك كما عاش في بلاد العرب، ولم يتلقَّ من الأتراك إلا

الجنود وبعض الإداريين الذين كانوا يعيشون حالة حرب مع العرب، والحروب عادة ما تقود إلى الكراهية التي لاحظ بوركهاردت بعض مظاهرها ففسّرها بما اتفق له.

الطائف

بدأ بوركهاردت رحلته إلى الطائف في ١١ رمضان/٢٤ أغسطس ١٨١٤ في قافلة ضمت إضافة إلى الدليل الموفد لمرافقته عشرين رجلاً من أبالة قبيلة حرب يحملون نقوداً إلى خزينة مكّة. غادرت القافلة جدّة مساءً ومرت بعدد من المنازل التي هي عبارة عن مقاه أقيمت لخدمة المسافرين عند آبار مياه في الطريق. كانت بئر رغامة هي أول منازل طريق هذا الرحالة إلى الطائف، ثم البياضية فالغراينة ثم بحرة التي كانت قرية عامرة ذات مياه عذبة وتقيم فيها فرقة خيّالة تركية مهمتها حراسة الطريق إلى مكة. وسار بوركهاردت مع القافلة إلى الهدا التي يقول إنها مكان إحرام أهل جدّة، وهي سوق عامرة أيضاً ومنها إلى الحجلية. و لم يواصل سفره من ثمّ مع القافلة التي عادة ما كانت تسافر ليلاً. ويلاحظ بوركهاردت أن الإبل لا تتناول العلف ليلاً، ومن ثمّ كانوا يريحونها نهاراً لتتناول علفها، ويرى في ذلك سبباً في حركة القوافل ليلاً.

كان الباشا قد طلب إلى الدليل ألا يسير ببوركهاردت في الطريق الشمالي الذي يمرّ بالحرم، ولكن الدليل الذي لم يشك في أن رفيقه مسلم لم يلقِ بالاً لذلك وسار به عبر ذلك الطريق المختصر. مرّ الدليل على أطراف مكة ومنها إلى الموابدة فوادي منى فبئر باسان فالعلمين فمسجد نمرة أو جامع إبراهيم فقهوة عرفات. وتمكن بوركهاردت من أن يلقي نظرة عجلى على مكّة المكرّمة، فيما كان الدليل ينزل به من سلسلة الجبال الواقعة عند التخوم الشرقية لتلك المدينة. واعتلى ركب الرجلين بعد ذلك سلسلة الجبال الجرداء بجلاميدها المفضية إلى الطائف. ومرّ الركب في تلك الجبال بعدئذ بقبر الرفيق وانتهى إلى قرية قري، من ديار هذيل، فتبدلت من ثم المظاهر المتجهمة الجرداء ليدخل الركب إلى أرض خضراء مثمرة حيث الهواء عليل وحدائق الأعناب وأشجار الفاكهة يكلل هاماتها الندى ويفوح شذى أريجها عبقاً، لينتشر بين تلك المساكن الصغيرة النظيفة التي بُنيت من الحجر والطين والتي تقف في مجموعات، كل مجموعة منها لا تتعدى أربعة إلى خمسة بيوت. قضى بوركهاردت مع دليله الليل في أحد تلك المنازل التي أُحسن ترتيب أثاثها البسيط المكوّن من سجاد بُسط على الأرض ووُضعت فوقه وسائد من الصوف والجلد، وإلى جانب ذلك معدات القهوة التي صُنعت من الطين، وبندقية فتيل حُفظت داخل غلاف جلدي. وفي الصباح فارق بوركهاردت هذا البيت الذي لا يدخله الضوء إلا من مدخله، منفذه الوحيد، وهو لا يكاد يصدق وجود منطقة خلابة كهذه في شبه الجزيرة العربية. ودخل ركب الرجلين بعد ذلك وادي محرم الذي تكثر فيه أيضاً أشجار

الفاكهة ولكن حدائقه تُروى بالآبار لا بالجداول المتدفقة كما هي الحال في الموقع السابق. وسار الركب من محرم عبر منازل ثقيف إلى الطائف التي وصلها بعد أن قطع اثنين وسبعين ميلاً من مكّة المكرّمة.

وصل بوركهاردت إلى الطائف في منتصف نهار رمضان. وساقه الدليل إلى منزل الطبيب بوصاري، فالوقت غير ملائم لمقابلة الباشا، إذ كل كبار القوم يخلدون إلى النوم في هذا الوقت من النهار. وكان على الرحالة أن ينتظر ليقابل الباشا بعد الإفطار. وذهب الطبيب بعد المغرب ليخبر الباشا بوصول ضيفه، فطلب الباشا أن يؤتى به. كان محمد علي يدرك أن الرجل جاسوس يتلصّص ليتلقط الأخبار، وأنه غير مسلم، "فاللحية وحدها لن تقف شاهداً على أنه مسلم". ولم يكن القاضي يشارك الباشا الشك في إسلام الرجل، فقد كان يرى في عزم بوركهاردت على زيارة المدينتين المقدستين الدليل على صدق إسلامه، وأنه ما كان له أن يعزم على ذلك إن لم يكن مسلماً. أما محمد علي فلم يخامره شك أبداً في أن الرجل لم يكن مسلماً. فعندما أثير في السنة التالية للسنة التي حجّ فيها بوركهاردت موضوع تَمكّنه من زيارة الحرم على الرغم من أنه نصراني، قال محمد علي للقنصل البريطاني إنه سمح لبوركهاردت بدخول مكة نتيجة للصداقة التي جمعت بينه وبين الإنجليز. ويعقب بوركهاردت على ذلك بقوله: "بالنسبة لمحمد علي باشا فإن من الأوفق له والأفضل أن يعتقد أنه مسلم غير ملتزم من أن يُظنّ به الغباء والغفلة". وكان بوركهاردت نفسه يدرك أن الاهتمام الذي كان يلقاه من الباشا مردّه إلى منعة بريطانيا وقوتها التي جعلته محترماً في نظر الباشا. وكان بوركهاردت، رغم تمسّكه في هذه الفترة بادّعاء الإسلام، كثيراً ما يدّعي علناً في الأوساط المتصلة بالباشا أنه إنجليزي، "ففي هذا الوقت لم يكن يظفر بالأمن الحقيقي في الشرق من رعايا أيٍّ من الدول إلا من كان من مواطني إنجلترا أو فرنسا".

التزم بوركهاردت بعادة الرحالة في ادّعاء البطولات المزيفة أمام قارئه، فكتب لنا أنه اعتذر أولاً لبوصاري عن لقاء الباشا متعللاً بأن الأخير قد أساء إلى مشاعره حين أمر الدليل بألا يذهب به عبر الطريق الذي يمر بمكّة المكرّمة، وأضاف أنه لن يذهب لمقابلة الباشا ما لم يستقبله كتركي (يقصد كمسلم). ونقل بوصاري - في ما يقول بوركهاردت - الرسالة إلى الباشا الذي أبدى رغبته في لقاء بوركهاردت، مسلماً كان أو غير ذلك.

ذهب بوركهاردت في حوالى الساعة الثامنة مساءً للقاء الباشا الذي كان يسكن في قلعة الشريف غالب نصف المهدمة. كان محمد علي يجلس في غرفة كبيرة وجلس إلى جانبه القاضي وحسن باشا، قائد الجند الأرناؤوط. وجلس في مواجهة الباشا حوالى ثلاثين إلى أربعين من رؤساء جنوده على شكل نصف دائرة، وحلّ عدد من شيوخ العرب في المنطقة الفاصلة بين الباشا ورؤساء الجند. وتقدم الرحالة فقبّل يد الباشا وجرى تبادل مفردات التحية والمجاملة.

وشُغل الباشا بمعالجة بعض شؤونه مع شيوخ البدو لفترة، ثم طلب إلى الجميع - في ما عدا القاضي وبوصاري والرحالة - الانصراف.

كان بوركهاردت أو بالأحرى الشيخ إبراهيم بن عبد الله يتوقع أن يحقق الباشا معه في شأن ادّعائه الإسلام فاستعد لذلك بجملة من الحجج والأدلة الفقهية، إلا أن الباشا الواثق من أن الرجل غير مسلم لم يُبدِ اهتماماً بهذا الأمر، بل ذهب مباشرة إلى الحديث في الشؤون السياسية واستجواب الرجل، بنحو غير مباشر، عن مهماته التي يؤديها. فقد كان الباشا يدرك يقيناً أن الرجل جاسوس بريطاني، وكان في ذلك مصيباً.

بدأ الباشا بسؤال الرحالة، أين وصلت في أرض الزنوج؟ فحدثه الرحالة في إيجاز عن رحلاته التي بلغت إلى شندي، فسأله عن الطرق في تلك المنطقة وأحوالها، فوصف له بوركهاردت الطريق بين أسوان وشندي، والطريق الذي يربط بين شندي وسواكن. وعاجل الباشا مضيفه بسؤال أزعجه كثيراً: أخبرني عن أحوال المماليك في المناطق التي زرتها، فقد بلغني أنك تعاملت مع اثنين من رؤسائهما حينما كنت في إبريم. وحبس الرجل أنفاسه وانزعج كثيراً حين نطق الباشا بكلمة "تعاملت"، فقد التقى فعلاً باثنين من بكوات المماليك في الدر في صعيد مصر. وكان محمد علي باشا - في ما يرى بوركهاردت - يشك في أن البريطانيين يفضّلون التعامل مع المماليك من دونه، وأن الرحالة الجاسوس ربما كان يحمل رسالة إلى بكواتهم. أكد الرحالة للباشا أن ذلك اللقاء جرى - عرضاً - بمحض الصدفة و لم يكن مقرراً ولا مرتّباً. وادّعى بوركهاردت أن رؤساء المماليك وضعوا في طريقه الكثير من الصعاب التي واجهته في المحس وتغلّب عليها. وأضاف بوركهاردت أنه كان يحاذر من أن تؤدي تلك المشكلات والمؤامرات التي حيكت ضدّه إلى قتله غيلة. واكتفى الباشا بتلك الإجابة مؤكداً للرحالة أنه ما إن يقضي على الوهابيين ويفرغ من هذه المهمة حتى يتفرغ للمماليك ليجتثهم من فوق الأرض. وسأل محمد علي: كم عدد الجند اللازمين لغزو السودان حتى منطقة سنار؟ فأجابه الرجل بأن حوالى خمسمئة جندي من المتدربين المؤهلين يمكنهم القيام بتلك المهمة. ولربما أراد الشيخ إبراهيم أن يدفع محمد علي إلى مغامرة غزو السودان حين أخبره أن الغنائم والأسلاب التي يمكن أن تُجنى من ذلك الغزو ستفي بنفقاته. وسأل محمد علي: وأيّ غنائم وأسلاب يمكن أن تقدمها تلك البلاد؟ فأجابه الرحالة: الإبل والعبيد، أما إذا توغلت الحملة ووصلت إلى سنار فيمكن أن يضاف إلى ذلك الذهب الذي يؤتى به من الحبشة. وأضاف بوركهاردت أن شيوخ المناطق السودانية وملوكها فقراء لا يتمتعون بأي ثراء، فالمال في السودان من نصيب المتعاملين بتلك التجارات فقط. واستفسر الباشا الرحالة عن كيفية قضاء وقته في تلك المناطق، فانتهزها الرحالة فرصة ليحكي للباشا بعض القصص المسلية التي أحدثت صداها في نفسه. وسأل الباشا الرحالة عن وجهته بعد الطائف، فأجاب بأنه سيذهب

إلى القاهرة ليستعد لرحلة أخرى إلى بلاد فارس. وهنا يكتب الرحالة أنه "لم يستصوب أن يُصدق الباشا القول ويذكر له أنه سيغادر من القاهرة إلى المناطق الداخلية من أفريقيا.

تمنّى الباشا للرحالة التوفيق في رحلاته، مضيفاً أنه يرى أنه من العبث، بل من الجنون، أن يقضي الإنسان حياته مسافراً لا يقرّ له قرار. وأجابه الشيخ إبراهيم بأن كلاً ميسر لما خُلق له، وأن المرء مسيّر لا مخيّر، وأن الأسفار هي قدره الذي قدّره الله له، ولا اعتراض على المقادير. وأضاف الرجل أنه يجد في أسفاره متعة لا تدانيها متعة أخرى في التعرف إلى الناس باختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، وأن متعة السفر تجبّ كافة ما يلقاه من متاعب، فلا يكاد المرء يحسها.

انتقل الباشا بعدئذ للسؤال عن أحوال أوروبا، وسأل الرحالة إن كانت لديه أخبار عنها، فأجابه بوركهادت بأنه حصل في جدّة أخيراً على أخبار قليلة وغير دقيقة. وأخذ الباشا يسرد على الرجل مجرى الأحداث في فرنسا التي انتهت بنفي نابليون إلى جزيرة ألبا. وانتقد الباشا شخصية نابليون ووصمه بالجبن. ويعتقد الباشا أنه كان يجب عليه أن يقاتل حتى يموت من دون أن يستسلم لسجّانيه ليعيش في قفص ويصبح في العالم أضحوكة. وأضاف الباشا أن الأوروبيين مخاتلون، شأنهم شأن العثمانيين. فكل القادة الذين كانوا من صنائع نابليون والذين أولاهم ثقته غدروا به وتخلوا عنه ساعة الحاجة. وتطرّق الباشا بعدئذ إلى العلاقات السياسية بين روسيا وبريطانيا، وإلى سوء العلاقات بين الأولى والباب العالي، وسأل هل يمكن أن يؤدي ذلك إلى الحرب بين القوتين؟ وأثار الباشا أيضاً مسألة الأطماع البريطانية في مصر، "فالأسماك الكبيرة تبتلع الصغيرة". وأضاف الباشا أن لمصر أهمية خاصة لبريطانيا، إذ يمكن أن تصبح سلة غذاء لمناطق مالطا وجبل طارق، وأن الجيش البريطاني الموجود في إسبانيا وجنوب فرنسا يمكن أن يعهد إليه بغزو مصر بعد الفراغ من مهماته هناك. ولم يشأ الرحالة أن يناقض رأي الباشا صراحة، فأشار إلى أنه يتفهم هذا الرأي عموماً. وقد لاحظ بوركهاردت أن المترجم كان كثيراً ما يتفادى ترجمة ما يقوله للباشا، ويبتدع بدلاً من ذلك إجابات توافق مزاج سيده وتتماشى مع أفكاره التي يتمسك بها، والتي يعتقد بورركهاردت أن البعثة الفرنسية في القاهرة قد غرستها في دماغه. وكان القاضي يتولّى الترجمة للباشا من العربية إلى التركية، فيما تولاّها في بعض الأحيان الطبيب بوصارى الذي كان الرحالة يتحدث إليه بالإيطالية. جرى النقاش بين الباشا والرحالة متصلاً لساعتين أو ثلاث، ولما حان وقت الانصراف طلب الباشا إلى الجاسوس أن يأتيه في الغد في الميعاد ذاته.

في اليوم التالي قرّر بوركهاردت أن يُشهد القاضي على صدق إسلامه، فزاره عصراً في منزله ليبدي أسفه من أن الباشا يشك في صحة إسلامه وهو الذي التزم بهذا الدين منذ سنوات. وجرى النقاش باستفاضة في علوم الدين حتى غربت الشمس وتناول الرحالة طعام الإفطار

مع مضيفه الذي ازداد اقتناعاً بصدق إسلام الرجل، فأمّ الضيف مضيفه في صلاة المغرب. "وقد كنت حريصاً على أن أتلو من القرآن أكبر قدر تسعفني به الذاكرة"، وانصرف الرجلان بعدئذ للقاء الباشا.

أبدى بوركهاردت ملاحظات لاذعة عن محمد علي وإدارته السياسية، وسخر من جهله بالعلاقات السياسية والأسس التي تقوم عليها. قال الباشا للجاسوس: أنا صديق الإنجليز. ويقول بوركهاردت إنه سخر من هذا القول "الذي لا يمكن أن ينطق به تركي (قصد أن يقول مسلما) لنصراني إلا إذا كان يخشاه أو يطمع في ما عنده من نقود". وأضاف الباشا أن العديد من الرجال العظام يصرّحون بما لا يقصدونه، وآمل ألا ينتهز الإنجليز فرصة وجوده في الحجاز ليعملوا على الاستيلاء على مصر. "فأنا أبذل كل جهدي دفاعاً عن ممتلكاتي" التي كان يخشى عليها من الإنجليز، أما السلطان العثماني فيدّعي الباشا أنه لا يخشى خطره. ولا يمكن أي جيش تركي - كما يقول محمد علي - أن يأتي مصر برّاً عبر سوريا"، فالأمر يتطلب وجود عدد كبير من الإبل لنقل الجنود، وهذا أمر غير متوافر حالياً. أما إذا أرسل السلطان مجموعات متتابعة من الغزوات على مصر فإنه سيتصدى لها في الصحراء ويمزقها إرباً. و لم يزد بوركهاردت في التعليق على ما ذكره الباشا من حرصه على ملك مصر سوى قوله له إنه يشبه شاباً عشق بنتاً جميلة كانت بدورها تبادله العشق. وعلى الرغم من أنه واثق من عواطفها تجاهه، غيرته عليها بلا حدود، ما يجعله يعمل على حجبها عن أعين الغرباء. فأجابه الباشا بأنه أصاب كبد الحقيقة "إني بالتأكيد أحب مصر حب الكلف بحبيبته، وإذا كان لي عشرة آلاف روح فأني سأجود بالروح تلو الروح لأحافظ على ملكيتها لي". وسألني الباشا عن أحوال مصر العليا كما وجدتها في رحلتي وعمّا إذا كان المواطنون هناك يحبون ابنه إبراهيم باشا، حاكمهم، فأجابه الرحالة بصدق بأن كل رؤساء القرى يمقتون ابنه لأنه أجبرهم على ترك ما درجوا عليه من معاملة قاسية للفلاحين، ولكنّ الفلاحين يقدّرونه كثيراً. ويعلق الرحالة في كتابه على ذلك بأن الفلاحين كانوا يعانون الأمرّين من بكوات المماليك، ومن الكشاف، ومن رؤساء قراهم أيضاً "ولكنهم باتوا الآن يعانون من طاغية واحد" وهو إبراهيم باشا الذي ضبط تصرفات حكام المناطق فانتظموا، وأضحى الباشا هو المستبد الوحيد.

وصلت في هذه الأثناء من دمشق إلى الباشا نسخة من اتفاقية السلم التي عقدت في باريس، فأخذ الباشا يناقش بنودها مع بوركهاردت بنداً بنداً. وقد لاحظ الجاسوس أن الباشا ينظر إلى يوم غير بعيد تنشب فيه حرب أخرى بين القوى الأوروبية تشغلها عنه وتخلّصه من القلق على سلامته. سأل الباشا كيف يمكن الإنجليز أن يتركوا نابليون سليماً في جزيرة ألبا؟ هل حاربوا عشرين عاماً متصلة ليحصلوا فقط على مالطا وعدد من الجزر الأخرى؟ وأشار

بوركهاردت إلى أن الباشا يخشى من أن تكون في المعاهدة بنود سرية تؤول بموجبها مصر إلى البريطانيين. وعبّر الباشا عن اعتقاده بأن الإنجليز لن يتركوا إسبانيا ما لم يحصلوا على عوائد ضخمة، "فالملك العظيم لا يعرف سوى سيفه وخزينته، فهو لم يجرّد سيفه إلا ليملأ خزينته". وحاول بوركهاردت أن يقنع الباشا بأن الإنجليز يراعون قانون الشرف، ويعملون على توازن القوى في أوروبا. وفي تقديرنا أن الباشا كان على صواب في ما علّق به من أن قانون الشرف لا يحكم المنتصرين. وسأل الباشا الرحالة عن عدد الجند الذين يمكن أن يدفعوا عن مصر أي عدوان قد يقع عليها من قوّة أجنبية، فأجاب الرحالة بأنه لا يعرف شيئاً عن الحروب إلا ما قرأه في بعض الكتب. فبادر الباشا الجاسوس بقوله إنه يعلم ذلك، ولكنه يعلم أيضاً أن للرحالة عيوناً نافذة، وعادة ما يتحرّى الرحالة عن كافة الأمور، وطالب محمد علي بوركهاردت بالإجابة عن سؤاله، فقدّر بوركهاردت عدد الجنود لهذه المهمة بخمسة وعشرين ألفاً من خيرة الجنود. فابتدره محمد علي مدّعياً أن له من الجنود ثلاثة وثلاثين ألفاً. ويقول الجاسوس إنه يعدّ ما ادّعاه الباشا ضرباً من الهراء، إذ تدلّ تحرياته على أن عدد جند الباشا لا يزيد على ستة عشر ألفاً مشتتين في مصر وفي الحجاز. وفي معرض حديثه أشار محمد علي إلى أنه ينوي اتخاذ فيالق إضافية أخرى تتألف من جنود زنوج. وعلى العموم، فقد أبدى هذا الرحالة ملاحظات طريفة عن محمد علي باشا وسخر من جهله بالعلاقات السياسية في أوروبا وأنه لا يميز بين سويسرا والسويد.

ظلّ بوركهاردت يذهب إلى قلعة الباشا كل مساء، وهجس أنه مراقب من قبل بوصاري ليلاً ونهاراً، وأنه ما عاد طليقاً ليواصل عمله الاستخباري وسط الجماهير. وأدرك أنه إذا طلب الإذن بالمغادرة فلربما أثار شكوك الباشا، فقرر أن يبتدع حيلة تدفع بوصاري للتخلص منه. أخذ بوركهاردت يزعج خدم المنزل بطلباته المتصلة، واختار أن يستخدم الغرفة المميزة في منزل الطبيب، وراح يطلب الطعام بنحو متكرر في غير أوقاته من المساء. وانخرط في هذه اللعبة لسبعة أيام كاملة، ما جعل بوصاري يسأله إن كان يزمع الرحيل فأجاب الرحالة بأن ذلك يعود إلى تقدير الباشا، وادّعى أنه لن يبتّ في هذا الشأن. ويبدو أن بوصاري قد أسرع إلى الباشا وفاتحه في رحيل بوركهاردت. فحين عاد بوصاري مساءً، أبلغ بوركهاردت أن الباشا وافق على مغادرته ويمكنه أن يرافق قاضي مكّة الذي سيغادر إلى المدينة المقدسة في ٢٣ رمضان/٧ سبتمبر، أي في اليوم التالي مباشرة. وطلب بوركهاردت إلى الباشا أن يمنحه فرماناً يضمن له التجوال بحرية، وضنّ عليه الباشا بذلك طالباً إلى الرحالة أن يذهب حيث يشاء، ولكن على مسؤوليته الشخصية.

مكّة المكرّمة

استأذن بوركهاردت القاضي في أن يتقدمه بالرحيل فأذن له، فشد الرحالة رحاله في صباح اليوم المحدد على حمار قاصداً مكة المكرّمة. والتقى بوركهاردت عند أطراف الطائف ثلاثة جنود ألبان كانوا بدورهم على حميرهم متوجهين إلى جدّة فاستأذنهم في أن يرافقهم فوافقوا. وكانت صحبة طيبة لبوركهاردت الذي عرف أن الجنود قد قدموا إلى الطائف لاستبدال نقودهم، فسعر صرف الريال الإسباني في الطائف ثلاثة عشر قرشاً، أما في جدّة فيساوي أحد عشر. ويذكر بوركهاردت أن الجنود قد خاطوا النقود التي يحملونها والتي تتجاوز ألف ريال في أكياس حملوها على حميرهم

ويبدو أنهم قد نسوا أن يستبقوا خارج تلك الأكياس مبالغ تفي بنفقات سفرهم. وحين التحقوا بي ولاحظوا أن "زكائب" حقائب سفري تفيض بالإمدادات، تركوا لي مهمة الإنفاق عليهم ودفع نفقاتنا المشتركة حيثما توقفنا في مقاهي الأكواخ في الطريق.

انحدر الركب في طريقه إلى مكّة وترجّل بوركهاردت في الميقات فأحرم، وكان يخشى ألا تقيه ملابس الإحرام البرد فيمرض. وفي الميقات أدركه ركب القاضي الذي يرى الرحالة أن الباشا كلّفه بمراقبته، ولكنه لم يأبه بذلك، "فهو رجل مستنير من مواطني إستانبول لا يقاسم العرب المتعصّبين مشاعرهم تجاه المشاعر المقدسة". ويرى القاضي أن بوركهاردت ما دام يتصرف كمسلم ملتزم فليس ثمة ما يثير الشكوك حوله. وعلى الرغم من أن بوركهاردت ذهب إلى معسكر القاضي، وجد الأخير غير مهتم بأن يُلزمه بمرافقته. وعلى ذلك اختار الرجل أن يمضي في طريقه مع الجنود الثلاثة الذين أمتعوه بالقصص المسلية التي خففت عنه التكاليف المادية التي تجشّمها تجاههم، "وفي وادي السيل الذي تكتنفه على الجانبين جبال شاهقة هبّت عاصفة هوجاء أرعدت بعدها السماء وأرسلت بزخّات متتالية عنيفة من المطر، ثم ما لبث الوادي أن سال أنهاراً ازداد فيضانها بالمياه المتدفقة من جنبات تلك الجبال". وحاول الركب أن يمضي في سبيله يشقّ عباب هذه الأمواج المتلاطمة التي كادت أن تبتلعهم، لكنه عجز عن ذلك فاختار الرجال أن يأووا إلى صخرة في الوادي لتجنّب السيل الذي وصل ارتفاعه إلى حوالى ثلاث أقدام. وما إن انقشعت العاصفة وانقطع جريان السيول حتى واصلوا المسير على أقدامهم، فما كان لهم أن يعتلوا حميرهم فوق تلك الأرض الزلقة، واضطروا – بدلاً من ذلك – إلى أن يدفعوا بها أمامهم. وخيّم الظلام كثيفاً، فقد حجبت السماء الملبدة بالغيوم عن ركبهم ضوء النجوم، فساروا يتلمّسون طريقهم في تؤدة حتى أدركهم الفرج حين أدركوا مقاهي عرفات التي كان قد غشيها ذلك السيل ولم يترك فيها كوخاً إلا بلّله. ووجدت المجموعة كوخاً أكثر جفافاً من الأخر فدخلوه وأوقدوا النار ليستدفئوا ويعدّوا القهوة.

وصلت المجموعة إلى مكّة المكرّمة في ظهر اليوم التالي. يقول بوركهاردت إن على كل شخص يدخل مكّة أن يقصد الحرم من فوره وألا يقوم بأي عمل دنيوي قبل زيارة الحرم.

اجتزنا صفوفاً من الأماكن التجارية والمنازل حتى بلغنا أبواب الحرم. وهنا استخلص صاحب الحمار الذي استأجرته أجره بعد أن أنزلني عنه. وتوافد على الفور عدد من المطوّفين الذين رأوني في ثياب الإحرام فأدركوا أنني سأزور الكعبة، فاخترت مطوّفاً من تلك المجموعة. وبعد أن وضعت حاجاتي في أحد المحال التجارية المجاورة، دلفت إلى المسجد من باب السلام، وهو الباب الذي يستحب أن يدخل عبره القادمون للزيارة للمرّة الأولى... لأداء شعائر الطواف.

يقول بوركهاردت إنه شعر بالاطمئنان في ذلك المكان الذي يقصده الخلق من كل فجّ عميق حيث لا لون يفصل بينهم ولا جنس. ويحدثنا أنه بعد أن أدّى الطواف الذي هو سنّة جاهلية، حيث كان الوثنيون من الجنسين يطوفون البيت وهم عُراة تماماً "ليتخلصوا من ذنوبهم كما تخلصوا من ثيابهم"، ذهب ليؤدي السعي بين الصفا والمروة. وأشار إلى أن السعي من ممارسات الجاهلية أيضاً. حيث كان للأرباب صنمان أعلى الصفا والمروة كان الجاهليون يمجّدونهما ويهرولون من أحدهما إلى الآخر. وعاد الرحالة بعدئذ ليقدم التفسير الإسلامي للسعي وسرد بأسلوبه الخاص قصة السيدة هاجر والأشواط السبعة "البائسة"، حيث راحت تلك السيدة تجري بين الصفا والمروة حتى تفجّر ماء زمزم "بضربة من جناح جبريل" فتدفق الماء تحت قدمي إسماعيل. وينقل بوركهاردت عن الأزرقي أن عرب الجاهلية كانوا ما إن يفرغوا من الحجّ بعد وقفة عرفات حتى يأخذوا طريقهم إلى مكّة ويتوقفوا في ازلفة (مزدلفة) فتفاخر كل قبيلة الأخرى بأنسابها وتذكر أمجادها وأبطالها وأيام حروبها. ويشرح بوركهاردت بمفهومه الذي لا يعترف بالوحي، إذ يبدو أنه لم يكن قد اهتدى إلى الإسلام بعد، سبب نزول الآية الكريمة التي جاء فيها ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة ١٩٨-٢٠٠). أنهى بوركهاردت العمرة تحت يدي الحلاق الذي أفاده بأن مكّة في رمضان تزخر بالزوار، وبالكاد أن يجد له مكاناً ينزل فيه. وجد بوركهاردت بعدئذ غرفة استأجرها واتهم صاحبها لاحقاً بأنه ابتزّه وسرق بعض ملابسه، رغم أنه تقاضى منه خمسة عشر قرشاً في الليلة الواحدة.

لم يتمالك بوركهاردت أن يعبّر عن دهشته لبهاء الحرم ليلاً، حيث تتلألأ فيه أنوار آلاف المصابيح التي تُضاء طيلة شهر رمضان، كما هي العادة في كل موسم، ووصف إفطار الحجاج

في الحرم. كان كل صائم يحمل في منديله تمرات وقطعة خبز وشيئاً من الجبن، وكان بعضهم يحمل شيئاً من العنب. يضع كل معتمر منهم منديله أمامه في انتظار موعد الأذان. وفي هذه الفترة يتبادل كل منهم قدراً ممّا يحمله مع من يجاوره في تؤدة وتقدير جم بعضهم لبعض. ويقوم بعض الحجاج بالسير بين الصفوف يحملون عناقيد العنب يضعونها أمام الصائمين، ويتعقبهم الشحاذون الذين يسيرون في إثر أولئك الحجاج يتناولون عناقيد العنب من أمام الصائمين. وحين يعتلي المؤذن المبنى الذي يقع فوق زمزم وينادي الله أكبر يسارع الجميع فيشربون من ماء زمزم الموضوع في جرار أمامهم، ثم يتناولون شيئاً من الطعام الذي أمامهم قبل أن يقوموا للصلاة التي ما إن يفرغوا منها حتى ينصرفوا إلى خارج الحرم لتناول طعام العشاء ثم يعودون إلى الحرم مرّة أخرى لأداء صلاة العشاء.

انصرف بوركهاردت في مكّة إلى أداء مهماته الاستخبارية، فكان عادة ما يقضي فترة الصباح الباكر وقسطاً من المساء في التجوال في المدينة يسير فيها حتى أطراف البلدة ليغشى المقاهي في تلك المناطق ليلتقي البدو. ويستضيف بوركهاردت مجموعة منهم على القهوة ويتركهم يثرثرون ويتحدثون عن أخبار بلادهم وعن عاداتهم ويخوضون في كل أمر يخصّ أمّتهم. أما في فترة الظهيرة فكان الرحالة يلزم منزله، وكان يقضي قسطاً من المساء في باحة الحرم حيث يهبّ النسيم بارداً. وإذا كان بوركهاردت يتلقط أخبار البدو من مقاهي أطراف مكّة، فقد كان يتقصّى أخبار الحضر والصفقات التجارية التي تعقد في مكّة ووصول أيّ من الحجاج من ذوي الاعتبار إلى المدينة في مجلسه الذي اعتاد أن يتخذه أمام محل لبيع العطور كان قد أقام صداقة مع صاحبه. كان الرحالة يقضي حوالى ساعة أو اثنتين يدخن نارجيلته في ذلك الموقع ويقدم القهوة "لأصدقائه". وكان في مكانه ذاك يتلقى الأخبار التي منها أيضاً بعض أخبار أوروبا التي يسمعها من الحجاج القادمين من إستانبول. وكان بوركهاردت يتقصّى خصوصاً أخبار جيش محمد علي باشا وغير ذلك من الأخبار، لا تفوته حتى أخبار القضايا التي ترفع إلى القاضي للحكم فيها والجدل الذي يُثار حول الأحكام الصادرة.

يبدو أن بوركهاردت قد بدأ في التفكير في تقبّل الإسلام في هذه الفترة في مكّة المكرّمة، حيث أخذت حدة نقده للشعائر تهدأ هوناً ما. وأخذ الرحالة يعترف بما تحدثه فيه صلاة المغرب من أثر وجداني عميق. فاجتماع ستة آلاف أو سبعة آلاف متعبّد قصدوا الحرم من بلاد بعيدة لأداء العبادة لا يمكنها – كما يقول – إلا أن تحرك المشاعر مهما بلغ بها التبلد، وتحملها إلى درجة من الصفاء الروحي. ويحكي بوركهاردت عن بعض الموروثات الخاصة بالحرم. فالمسجد الحرام – كما يقول البعض – يتّسع لكل الأتقياء الوافدين إليه من كل فجّ مهما تناهت أعدادهم. فالملائكة "الحافظة" يمكنها "بالكرامات" أن تزيد في سعة المسجد ليتسع لكل من يسعى إليه، حتى وإن قصده أهل الإسلام كافة. وينقل بوركهاردت قصة طريفة عن

معتمر وفد من أقاصي السودان بعد أن قطع رحلة طويلة اجتاز خلالها البراري والقفار حتى وصل إلى الحرم في الليلة الأخيرة من رمضان. راع الرجل بهاء المسجد واستحوذ على مشاعره منظر الكعبة السوداء المهيب حتى كاد يفقد الوعي ويسقط مغشياً عليه "إلى جانبي"، واستفاق الرجل ونهض وانفجر باكياً حتى فاضت عيناه بدمع غزير. وفي ذروة انفعاله نسي أن يتلو "الصلوات المعتادة" وصرخ داعياً الله أن يقبض في تلك اللحظة روحه "فهذه هي جنتك التي وعدت". ومن طرائف بوركهاردت الأخرى أن حاجاً من القاطنين في المنزل الذي يقيم فيه كان يعاني من مرض ما، ما جعله يقضي المساء كله عند زمزم يعبّ من مائها عبّاً "إذ يعتقد المسلمون أن ماء زمزم يشفي كافة الأمراض". ويظلّ الرجل المستلقي على الرصيف يستزيد من تناول الماء جهد طاقته ولا يفتر عن ذلك أبداً. وقد أوشكت هذه الممارسة أن تفضي به إلى الموت، ولكنه ظلّ يعتقد أن مرضه قد تفاقم لأنه لم يتمكن من أن يتناول من زمزم القدر الذي يحقق له الشفاء.

يصف بوركهاردت المسجد الحرام ومواقع المذاهب الأربعة فيه. ووصف الكعبة المشرفة وميزابها "الذي يقال إنه من الذهب الخالص" والحجر الذي يقع أسفل الميزاب "حيث دفن إسماعيل وأمه هاجر". ويصف كسوة الكعبة التي تنزع عنها في الخامس والعشرين من ذي القعدة فتظلّ من دون غطاء حتى العاشر من ذي الحجة، يقال عندها إن الكعبة تحرم ثم تستقبل بعد إحرامها الكسوة الجديدة. ويصف الحجر الأسود ومقام إبراهيم. ويصف بوركهاردت مبنى بئر زمزم التي كان ماؤها محتكراً للشريف يُباع للحجاج لقاء ثمن باهظ، حتى ألغى أحد عمال الإمام سعود هذه التجارة فأضحت "هذه المياه المقدسة مجاناً لكل من يطلبها".

يقول بوركهاردت إن المسجد تسوده في غير أوقات الصلاة الجلبة والضوضاء. فالحجاج الفقراء يفترشون ردهاته يقضون فيها موسم الحجّ حتى نهايته. وهو مأوى للمرضى والمعوقين وبأعدادهم الغفيرة التي تجتمع في ذلك المسجد. ويجتمع في المسجد كذلك أصحاب الأعمال يعقدون صفقاتهم فيه، ويجلس في بعض زواياه الفقهاء من أهل العلم يلقون مواعظهم، بينما تُعقد في بعض ردهاته حلقات الدرس لتلاميذ المدارس، ويلهو الأطفال في بعض جنبات المسجد. وترى الحمالين المثقلين بأحمالهم يعبرون باحة المسجد من هذا الجانب من المدينة إلى الجانب الآخر. وعبّر الرحالة عن إعجابه بهذه النشاطات الدنيوية في أكبر مساجد الإسلام، ولكنه أظهر استنكاراً لبعض الممارسات غير الأخلاقية التي تخلو من اللياقة والتهذيب "إلى حدّ الإجرام"، واستنكر أيضاً وجود عاهرات يندسسن في أوساط النساء اللائي يبعن القمح للحجاج لتقديمه إلى حمام الحرم.

لم يشهد بوركهاردت في مكة في وقفة عيد رمضان المظاهر الاحتفالية العديدة التي تميز تلك الليلة في مناطق أخرى من الشرق، كذلك فإن أيام العيد الثلاثة كانت تخلو من مظاهر

البهجة أيضاً. ولربما كان المظهر الوحيد للاحتفالات وجود بعض المهرجين المصريين وهم يستعرضون قدراتهم أمام الجموع التي تجمهرت حولهم في الشوارع. أما في ما عدا ذلك، فلم يكن هناك ما يحدث عن احتفالات، اللهم إلا تلك الملابس الزاهية التي يتفوّق العرب على كل المصريين والسوريين في اقتنائها والاعتناء بها.

سافر بوركهاردت في ٣ شوال/١٥ ديسمبر إلى جدّة لشراء بعض المواد التموينية، وظلّ مقيماً في جدّة لثلاثة أسابيع قبل أن يعود إلى مكة المكرّمة في منتصف أكتوبر. اشترى بوركهاردت من جدّة حملِ بعير من الدقيق والزبد والمخبوزات دفع فيها نحو ثلث ما يمكن أن يدفعه إذا اشتراها في مكة، كما اشترى له عبداً أيضاً. وعاد الرحالة إلى مكة ليجد أن عمرة رمضان قد انتهت، ولم تعد المدينة مزدحمة، فتمكن من أن يؤجّر مسكناً بهيجاً قضى فيه ما بقي له من أيام في مكة حتى انقضاء موسم الحجّ ومغادرته إلى المدينة المنوّرة.

يحدثنا بوركهاردت عن مكة المدينة الأنيقة وشوارعها الأكثر اتساعاً من غيرها من المدن الأخرى، ومنازلها ذات النوافذ التي تفتح في مواجهة الشوارع. فهي أكثر شبهاً بالمباني الأوروبية ممّا سواها. ويذكر بوركهاردت أن بيوت مكّة كافة – في ما عدا بيوت الأسر الثرية – أعدّت للاستثمار لاستضافة الحجيج في الموسم. ويلاحظ بوركهاردت أن المدينة قد خلت من الحدائق العامة، فهي جرداء لا أثر للخضرة فيها. ولاحظ أن باحة الحرم الشريف هي المنطقة الوحيدة المفتوحة للاجتماعات واللقاءات. ويلاحظ بوركهاردت أن أهل الحجاز يهتمون بالهندام ويحتفلون باقتناء الملابس أكثر ممن سواهم من المسلمين الآخرين الذين يسكنون المناطق الشمالية. ويضيف أن فقراء أهل مكة ينفقون أكثر كسبهم في شراء الملابس. ويذهب بوركهاردت إلى القول إن المكيين كافتهم يهتمون بنظافة ثيابهم أكثر مما يفعل أهل أي منطقة شرقية أخرى، وبما أن ملابسهم هي في العادة بيضاء اللون، تراهم أبداً يُوالون غسلها حتى تظلّ ناصعة البياض. ويقول بوركهاردت إن أثرياء مكّة وأهل اليسار فيها يبالغون في الاهتمام بملابسهم ويحرصون على استبدالها يومياً. فالرجل من الطبقة العليا قد يكون له ثلاثون أو أربعون حلة، فتراه يرتدي في كل صباح حلة غير تلك التي كان يرتديها في اليوم السابق. ويبدّل أهل الطبقات الوسطى ملابسهم عدّة مرات في الأسبوع الواحد. أما أهل الطبقات الدنيا فيبدلون ملابسهم مرّة في الأسبوع على الأقل. ويلاحظ بوركهاردت أن المكي حين يعود إلى منزله من متجره أو من جولة في المدينة يخلع رداءه ويعلقه على حبل مشدود في قاعة الجلوس أُعدّ خصوصاً لهذا الغرض. ويحرص المكي الثري منهم والفقير على ارتداء ملابس جديدة في الأعياد؛ فالأول يقتنيها والثاني يستأجرها من أي من التجار ليومين أو ثلاثة. ووصف ملابس نساء مكة الأنيقة الفضفاضة.

يرى بوركهاردت أن مكّة تُعدّ من أثرى مدن الشرق بسبب ما تحصده من أموال في موسم

الحجّ، إلا أن أهل مكّة كلهم، الثري منهم والفقير، استهلاكيّون مبذّرون يتلفون أموالهم في شراء الملابس والتمتّع بمباهج الحياة ولا يهتمون بادّخار الأموال، فهم واثقون من أن موسم الحجّ المقبل سيحمل لهم الثراء مجدداً، فلماذا يقتّرون على أنفسهم؟ ويخلص بوركهاردت إلى الحديث عن أسواق مكة ومتاجرها ومطاعمها. وبدا له شارع المسعى مثل سوق في إستانبول، فكثير من متاجره خاصة بالأتراك الذين يبيعون فيها الملابس التركية المستعملة والساعات الإنجليزية العالية الجودة، والسيوف المفضّضة المقابض، ومصاحف منسوخة بخط أنيق، وكافة ما يستغني عنه الحاج من متاع بعد الحجّ حين يكون في حاجة ماسة إلى المال. ويقع في هذا الشارع أيضاً عدد من المطاعم التي يتولّى الأتراك فيها تقديم أصناف من المعجنات، بما في ذلك فطائر المربى في الفترة الصباحية، كما يقدمون فيها لحم الضأن المشوي "الكباب" ظهراً، أما في المساء فيقدمون أطباق حلوى هلامية يعرفونها بالمهلبية. أما سوق سويقة أو السوق الصغير فيزدحم بالتجار الهنود يبيعون فيه صنوف العطور والمنسوجات القطنية والحرير والملابس الجاهزة. ويقع سوق النخاسة في وسط شارع سويقة. ويسترعي انتباه الحاج إبراهيم أن أسعار الحسناوات من الجواري البيض يتراوح بين مئة وعشرة ومئة وعشرين ريالاً.

ينتهي شارع سويقة إلى منطقة الشامية التي يقطنها عليّة القوم من الفقهاء العاملين في المسجد والتجار الأثرياء. ويضمّ هذا الحي عدداً من المتاجر التي يعمل فيها التجار السوريون يبيعون فيها حرير دمشق وحلب ولبنان، ومنسوجات نابلس القطنية والعباءات الحموية وأغطية الرأس البدوية المصنوعة في بغداد أو دمشق وسجاد الأناضول. ويذكر بوركهاردت أن العملة السائدة هي الريال الإسباني الذي يتراوح سعره بين تسع واثنتي عشرة ليرة، أما الليرة فتعادل أربعين بارة أو ديواني. ويقدم الحاج إبراهيم قائمة بأسعار لحوم البقر والضأن والدجاج والزبد وما إلى ذلك من المواد التموينية.

يقول بوركهاردت إن أهل مكة مثلهم مثل أهل جدّة ينحدرون من أعراق مختلطة. ففي كل موسم حج يتخلّف بعض الحجاج في مكّة ويتزوجون بالمكيات. ويستنتج بوركهاردت أن أغلب أهل مكة من نسل آباء أجانب يرجعون في أصولهم إلى أصقاع مختلفة في الكرة الأرضية، أما الأمهات فمكيّات. ويمتاز الأبناء بتبنّي التراث والتقاليد العربية الموروثة، حتى إن المرء لا يمكنه أن يميّز بين هؤلاء الهجين والعرب الخلّص. ومع ذلك يحرص المكي على حفظ نسبه الأصلي. ويضيف بوركهاردت أنه اتخذ مطوّفاً يرجع بأصله إلى الأوزبك التتار الذين يسكنون في مجاورة بخارى. ويشيد الحاج إبراهيم بأهل مكة ويصفهم بخفة الظل والبشاشة والكرم وحسن التعامل مع الأغراب. ويرى أنهم مهذبون لا يبدون خنوعاً ولا يمارسون السرقة ولا يختلسون. ويعود الحاج إبراهيم ليصفهم برقّة الدين، فهم غير منتظمين في صلاتهم أو قد لا يصلون ولا يقدمون الصدقات، بل يأخذونها. ويقول إن أثرياء مكّة يرحّبون على موائد

العشاء في منازلهم بأي شخص من دون سابق موعد، ويعتبر المضيف تلبية ضيفه للدعوة تفضّلاً منه. ويضيف أن مكّة لا تمثل مركزاً للمعرفة الإسلامية، "فالعلم والمعرفة لا يزدهران في مكان تُشغل فيه العقول جميعها باللهث وراء الربح أو الدخول إلى الجنة". ويلاحظ عدم وجود كمّ وافر من الكتب في أسواق مكّة، فالكتب التي يشتريها الحجاج من سوق مكّة تنفد ولا تعوّض، لأن البلدة تخلو من الورّاقين والنسّاخ الذين كان يمكن أن يستنسخوا البديل.

يتميّز المكي بثلاثة شلوخ في كل خد يسمّونها مشالى. ويفاخر الأهلون بهذا الوشم الذي يُجرى للمكي الرضيع ما إن يبلغ أربعين يوماً من عمره، والذي يحول دون أهل الحجاز الآخرين وادّعاء أنهم ولدوا في المدينة المقدسة أو الميناء المؤدي إليها. تمثل التجارة المصدر الأساس للكسب عند المكيين، فأغلبية السكان يعملون في هذا النشاط الذي اشتهروا به في العالم الإسلامي، كما يعمل العديد منهم بالطوافة، فكل من يقصد المدينة حاجاً أو معتمراً يحتاج إلى من يبصّره بالشعائر التي يجب عليه أن يمارسها في المسجد الحرام وفي المواقع الأخرى التي يزوروها في تلك المدينة. ويحدثنا بوركهاردت عن مهنة غريبة لا نجد لها ذكراً إلا عنده، وهي مهنة "المحلل". فالدلالة الاصطلاحية للفظ تعني الرجل الذي يُستدعى للزواج من المطلقة ثلاثاً فيطلّقها لتعود إلى زوجها السابق. ولكن هذا اللفظ عند بوركهاردت يتخذ معنى آخر ما سمعنا به من قبل ولا من بعد. يقول بوركهاردت انطلاقاً من جهل مطبق، إن الشريعة تمنع "غير المتزوجات" من أداء فريضة الحجّ، فلذلك يقوم بعض العاملين بالطوافة بالارتباط بعقود زواج مع الأرامل والمطلقات اللائي يرغبن في أداء الفريضة. ويضيف أنه من المعلوم للطرفين أن الزواج اسمي، فيجري الطلاق من ذلك المحلل ما إن ينتهي الحجّ.

يفيد بوركهاردت بأن العديد من الحجاج عادة ما يحملون معهم منتجات بلادهم يبيعونها في مكّة لتسهم في سدّ نفقاتهم، غير أن العديد من الهنود وبعض المصريين والسوريين عادة ما يبدأون بممارسة التسوّل ما إن تطأ أقدامهم أرض جدّة. أما الحجاج الزنوج فيحصلون على ما يسدّ نفقاتهم بالقيام بالأعمال الشاقة، فيعملون حمّالين ويشتغلون بالأعمال المضنية التي يحتاج إليها سوق العمل. ويفيد بوركهاردت بأن الإمام سعود كان في فترة سيطرته على الحجاز يظهر احترامه لأولئك الحجاج الزنوج لمثابرتهم. فالفارق بينهم وبين الحجاج الهنود الفقراء فرق شاسع. فأجساد الهنود الضعيفة لا تكاد تحتمل مقاومة النسيم إذا هبّ عليها، أما أصواتهم فهي خافتة لا تكاد تتبيّنها. ويبدو أن هذة الشريحة من الناس كانت سعيدة بهذا المظهر وذلك السلوك الذي يجعل صدقات المتصدقين تنهال عليهم من دون حساب. وقد استعذب هؤلاء الحجاج هذا الأسلوب، فامتلأت بهم شوارع مكّة، يستلقون على جنباتها، وعند أبواب الحرم، كما تغصّ بهم مداخل المقاهي وموارد الماء. ولا يتمكن أي حاج من أن يشتري شيئاً من دون أن تنال تلك الأيدي الممدودة قسطاً منه. ويسجل بوركهاردت على

النوتة الموسيقية النغمات التي تصدرها حناجر أولئك الشحاذين حين يطلبون التصدق عليهم ببعض الماء.

يذكر بوركهاردت أن الحجّ يفيض بأعداد غفيرة من الدراويش من كل طائفة يأتون من مناطق مختلفة، ويروي أن العديد منهم مجاذيب أو ربما مجانين، أو قد يتمثلون بالمجانين حتى ينالوا احترام الحجاج ويلقوا عطاءهم. ويتميز سلوك بعض هؤلاء الدراويش بعنف ومكر وتوحش يجعل البعض يتصدق عليهم مرغماً ليتخلص من أذاهم.

يسترعي الخصيان انتباه بوركهاردت، فهم الذين يتولون نظافة الحرم وترتيب شؤونه تحت إشراف رئيس الآغوات. يؤتى بهؤلاء الخصيان صغاراً وينشأون في بيت مشترك حيث يدربون على المهمات المطلوبة منهم حين يكبرون. وأشار إلى وجود عشرة خصيان بالغين وعشرين يافعاً منهم في المسجد الحرام. واستغرب بوركهاردت أن البالغين منهم جميعاً متزوجون من سوداوات رقيق وأنهم كانوا يملكون عدداً من الرقيق بين ذكور وإناث يعملون خدماً في منازلهم. ويظفر هؤلاء الخصيان باحترام أهل مكة، ويُقبّل أهل الطبقات الدنيا من المكيين أيديهم حين يصادفونهم في الطريق. وأشار إلى أنهم أثرياء، فهم يتلقّون أعطيات من الحجاج إضافة إلى رواتبهم التي يتلقونها من إدارة المسجد. ويضيف بوركهاردت أن الخصيان يرتدون زياً مميزاً، ويحمل الفرد منهم عصا يلوح بها في وجوه الجمهور إذا لاحظ فيهم عدم انتظام.

حان موعد الحجّ في منتصف نوفمبر، فوصلت قافلتان كبيرتان من مصر وسوريا تضمان آلاف الحجاج. يتقدم كل قافلة منها جمل يحمل المحمل الذي زُيّن بكثافة، والهدايا المقدمة إلى الحرم من القاهرة ومن سلطان إستانبول. ورأى بوركهاردت في المحمل وما حمل رمزاً "للسيادة" التركية على المدينتين المقدستين. ووصل في الوقت ذاته محمد علي باشا من الطائف لأداء الحجّ، وتفقد الجند القادمين من مصر في القافلة لتوظيفهم في حروبه ضدّ الوهابيين.

يقول بوركهاردت إن قافلة الحجّ السوري هي الأوفر عدداً. تتحرك هذه القافلة من إستانبول بحجاج تلك المنطقة ويلحق بها حجاج الأناضول وسوريا الشمالية حتى تصل القافلة إلى دمشق، حيث تتوقف هناك لعدّة أسابيع فيجتمع لها الحجاج من مناطق مختلفة. وتتحرك القافلة التي عادة ما يرافقها باشا دمشق أو أي من ضباطه العظام من دمشق، وتغشى في طريقها العديد من المدن حيث تجد الأمن والاستقبالات الاحتفالية. ويصنف حجاج القافلة بحسب المدن التي وفدوا منها. فكل مجموعة أتت من منطقة ما يجتمع أفرادها بعضهم مع بعض، ويحدد لها موقعها في القافلة بتسلسل يعتمد الجوار الجغرافي لتلك المدن. وتتعاقد كل مجموعة من الحجاج يتراوح عددها بين عشرين إلى ثلاثين حاجاً مع مقوم يقوم بتأمين كافة مستلزماتهم، من تأمين الإبل والزاد والماء والقهوة. ويُستثنى من الاعتماد على المقوم الحجاج من ذوي اليسار الذين ينفقون بما يناسب أوضاعهم، وكذلك الحجاج المعوزين الذين

لا يملكون، والذين يعمل بعضهم خدماً للأثرياء، ويقطع بعضهم الرحلة سيراً على الأقدام. ويستغرق عبور القافلة من دمشق إلى المدينة المنوّرة حوالى ثلاثين يوماً تسير فيها القافلة عادة من الثالثة بعد الظهر حتى السابعة من صباح اليوم التالي. وتجد القافلة الكثير من الدعم من رؤساء البدو في الحدود السورية، إضافة إلى أن موارد المياه في طريقها متوافرة لا يبعد بعضها عن بعض إلا حوالى إحدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة. ويذكر أن هذه القافلة كانت في عام ١٨١٤م تضمّ حوالى أربعة آلاف إلى خمسة آلاف حاج لهم حوالى خمسة عشر ألف جمل. أما قافلة الحجّ المصري التي لا تضمّ عدداً كبيراً من الحجاج يوازي ما تضمّه قافلة الحجّ السوري، فتتحرك من القاهرة وتشق طريقها عبر مسالك وعرة تسكنها قبائل البدو على ساحل البحر الأحمر، وهي قبائل يصفها بأنها متوحشة محبة للحرب والقتال. أما موارد المياه في طريق قافلة الحجّ المصري فهي قليلة ويقع بعضها على مسافات بعيدة من بعض، ومياهها في الغالب مالحة باستثناء مورد أو اثنين. ومع كل هذه الصعوبات، فإن فلاحي مصر الدنيا يفضّلون السفر عبر هذا الطريق الصحراوي ولا يحبّذون استخدام الطريق البحري. ويحدثنا بوركهاردت عن خط بحري يربط بين السويس وجدّة تصل تكاليف التنقل فيه والرسوم التي تُدفع لخزينة الباشا إلى حوالى ثمانية عشر ريالاً، وخط بحري آخر من القصير إلى جدّة يتكلف الحاج فيه من ستة إلى ثمانية ريالات.

يذكر بوركهاردت قافلة الحجّ الفارسي التي كانت تبدأ من بغداد إلى مكّة عبر نجد، وعادة ما يهاجمها بدو شمر، رغم أنها كانت تخضع لحراسة عرب عقيل. ويفيد بوركهاردت بأن حجاج هذه المنطقة يفضّلون الطريق البحري الذي يقود من البصرة إلى جدّة، فيما يفضّل عدد من الحجاج الانتقال عن طريق الصحراء إلى دمشق حيث يلتحقون هناك بقافلة الحجّ السوري. أما حجاج اليمن فقد كانوا يأخذون أحد طريقين: الطريق الأول يسير مع الساحل وينتهي إلى جدّة، أما الآخر فيسير عبر الجبال إلى الطائف ثم ينحدر من هناك إلى مكة. وسمع بوركهاردت أيضاً عن قافلة حج هندية تعبر إلى مكّة من خلال نجد، ولكنه لم يجد من مُجالسيه من سمع عنها أو عرف من أخبارها شيئاً. وهناك القافلة المغربية أيضاً التي يرافقها أحد أقارب ملك مراكش ولكنها غير منتظمة. تتحرك هذه القافلة باتجاه تونس وتغشى طرابلس وسرت ودرنة حتى تصل إلى القاهرة، ثم تأخذ بعد ذلك طريق الحجّ المصري. أما في طريق العودة من مكة فهي غالباً ما تمر في المدينة المنوّرة وتتجه من هناك إلى بيت المقدس. ويلاحظ بوركهاردت أن حجاج هذه القافلة يختلفون عن حجاج القافلتين السورية والمصرية في أنهم مسلحون ولا يحتاجون إلا إلى عدد قليل من الجند المرافق. أما حجاج سنار والحبشة فهم من المعدمين، يركبون البحر من مصوع أو بريال واحد إلى الساحل المواجه، ثم ينطلقون من الحديدة عبر جبال اليمن إلى جدّة، أو يركبون من سواكن أو القصير البحر بريالين إلى جدّة. ويعمل هؤلاء

في جدّة حمالين وخزافين وصانعي سلال ولكنهم لا يتسوّلون.

جرى استعراض المحملين السوري والمصري في شوارع المدينة بطريقة احتفالية، واتجها بعد ذلك إلى عرفات. وحين خرجت جموع الحجاج عمّت الفوضى المسيرة وفقد العديد منهم ذويهم في الطريق، فصاروا يتجوّلون هنا وهناك بحثاً عنهم، فيما كانت النيران تضيء المنطقة والمشاعل تشير إلى مكان نزول محمد علي وأميري الحجّ المصري والسوري. وانصرف العديد من الحجاج للصلاة وقراءة القرآن، فيما راح بعضهم يتجمعون في المقاهي يتسامرون ويغنون ويصفقون. وحين أطلّ الفجر انطلقت قذيفتا مدفعين من قائدي المحملين إعلاناً ببدء اليوم الأول لأداء مناسك الحجّ.

اعتلى بوركهاردت في التاسع من ذي الحجة/٢٥ نوفمبر قمة جبل عرفات. واسترعى انتباهه على نحو خاص فخامة الخيمة التي كانت تنزل فيها زوجة محمد علي باشا التي أتت من القاهرة لأداء الفريضة. وقد استخدم في نقل متاع تلك السيدة من جدّة إلى مكّة حوالى خمسمئة بعير. وأشار إلى أن معسكر زوجة الباشا يتكوّن من اثنتي عشرة خيمة من أحجام مختلفة، يحيطها سور من قماش مطرّز بألوان مختلفة يبلغ محيطه حوالى ثمانمئة خطوة، له مدخل واحد يحرسه خصيان يرتدون ملابس ذات ألوان زاهية. وتضمّ هذه الخيام المجتمعة وصيفات السيدة وخادماتها. ويسترسل بوركهاردت فيقول إن المنظر أعاد إلى ذاكرته قصص حكايات ألف ليلة وليلة.

يحدثنا بوركهاردت عن جبل عرفات أو جبل الرحمة الذي يبلغ محيطه حوالي ميل أو ربما ميل ونصف، ويصل ارتفاع قمته إلى حوالى مئتي قدم فوق سطح السهل الذي يقف عليه. تقوم على الناحية الغربية من الجبل عتبات غرانيتية واسعة ممهدة تقود إلى قمته، أما من الناحية الغربية فالعتبات غير ممهدة، فهي عبارة عن كتل من الغرانيت تفضي إلى القمة، سار بوركهاردت إلى أعلى الجبل من الطريق الممهدة، وعندما ارتقى أربعين عتبة وجد "موضع سيدنا آدم" أو مكان صلاته، حيث يقول التراث الإسلامي إن جبريل قد تبدّى لآدم في ذلك الموضع وعلّمه كيف يعبد الله. وحين وصل بوركهاردت إلى العتبة الستين وجد هناك مسطبة مستوية معبّدة من الجبل يقف عندها الإمام ليلقي خطبة عرفات. أما قمة الجبل ففيها الموضع الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم يقف فيه في فترة الحجّ "ليلقي الخطبة". وكان هناك مبنى محراب صغير خرّبه الوهابيون. ومن العادة أن يصلي الحجاج في هذا الموضع ركعتين تحية لعرفات، وأضاف بوركهاردت أن الأسر المكية كافة والأسر القرشية قد فرشت على تلك العتبات، وصولاً إلى القمة، مناديل ليضع فيها الحجاج صدقاتهم. وأحصى بوركهاردت من على قمة عرفات حوالى ثلاثة الآف خيمة، ثلثاها لقافلتي الحجّ ولمرافقي محمد علي باشا، وما بقي منها للشريف وأتباعه من البدو، ولكن أغلب الجمهور في عرفات لم يكن يملك خياماً،

ولاحظ أيضاً وجود حوالى عشرين إلى خمسة وعشرين ألف بعير كان ما يخص قافلة الحجّ السوري التي ضربت خيامها في جنوب وجنوب غرب الجبل - منها حوالى اثني عشر ألفاً في ما يخص المصريين الذين ضربوا خيامهم في جنوب شرق الجبل - منها ما يتراوح بين خمسة وستة آلاف بعير. ويعتقد بوركهاردت أن وقوف الحاج في عرفة يجب أن يكون فوق الجبل، ولكن لاستحالة التقيّد بذلك فقد "أُعلن" أن السهل المجاور للجبل يمكن أن يدخل تحت مسمّى جبل عرفات، ولا نعرف من أين أتى هذا الرحالة بضرورة الوقوف على الجبل من دون السهل، والأصل في الشرع أن عرفة كلها موقف. وقدّر بوركهاردت عدد الحجاج في ذلك الموسم بحوالى سبعين ألفاً، "ولا أعرف في العالم كله موضعاً صغيراً مثل هذا يضمّ هذا الخليط المتعدد الألسنة، فقد سمعت هناك حوالى أربعين لغة مختلفة ولكن، بلا شك، فإن عددها أكثر من ذلك". ويقوم بخطبة عرفات في العادة قاضي مكة يلقيها من على ظهر بعير دُفع لاعتلاء تلك العتبات وذلك اقتداءً بمحمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده الذين اعتادوا في هذا الموقف أن يلقوا الخطبة على تلك الهيئة، ولكن ذلك القاضي التركي غير معتاد ركوب البعير، فاضطر إلى أن ينزل عنه ليقرأ الخطبة باللغة العربية من كتاب كان يحمله في يده. وأفاد بوركهاردت بأن من لم يتيسر له حضور "خطبة الوقفة" لن ينال لقب الحاج. وأشار إلى أن الخطيب كان يتوقف كل أربع أو خمس دقائق ويرفع يديه بين الفينة والأخرى إلى السماء يستنزل بركاتها، فيما يتردد في الأفق في هذه اللحظات صدى لبّيك اللهم لبّيك الذي يكرره الحجاج الذين يلوّحون بالجزء الأعلى من ثياب الإحرام التي يرتدونها، حتى بدت جنبات الجبل المزدحم بالحجاج في ملابسهم البيضاء كأنها شلال متدفق بالغزير من المياه. أما إذا نظرت إلى السهل، فتراه أخضر يانعاً، وذلك لأنه يعكس ألوان المظلات الخضراء التي يحملها آلاف الجالسين فوق أكوار إبلهم في ذلك السهل، ويلاحظ أن جمهور الحج كان يختلف في تجاوبه مع الخطيب، فقد كان بعضهم يبكي بحرقة وينتحب على ما فرّط فيه من جنب الله، وهناك عدد آخر من الحجاج يقف صامتاً متمعّناً وعيونه مغرورقة بالدموع، وهناك عدد غفير من الحجازيين وعدد من الجنود الأتراك ظلّوا في ذلك الموقف يثرثرون ويتبادلون النكات، فيما جلس عدد من العرب والجنود يدخنون النارجيلات، وجلست امرأة في مكان غير بعيد تبيع القهوة وضحكات روّاد مقهاها وسلوكهم الغريب تثير الانتباه. وما إن فرغ الإمام من خطبته، التي استمرت حوالى ثلاث ساعات، مع مغيب الشمس، حتى تدافع الحجاج بأسرع ما يستطيعون "للدفعة" من منى (النفرة من عرفات). ويحدثنا بوركهاردت عن وقوع تنافس في بعض السنوات الماضية بين المحملين السوري والمصري، فكلاهما كان يحاول أن يكون الأسبق "في الدفعة"، ما أدى إلى احتكاك دموي. ويتناول الرحالة بعدئذ وصول الحجيج إلى المزدلفة لقضاء الليل، ويتحدث عن الألعاب النارية التي انطلقت تزين السماء والموسيقى التي

تصدح بها الفرق العسكرية المصاحبة للمحملين، ودويّ الطلقات النارية ابتهاجاً بالمناسبة. ونذهب مع بوركهاردت بعد صلاة الفجر إلى منى لرمي الجمرات في ثلاث مناطق حدد موقع اثنتين منهما بعمودين، أما الموقع الثالث فقد حدد بسور حجري. ويحكي عن أن الرمي ممارسة إبراهيمية. و"يروى أن الشخص الذي نوى إبراهيم التضحية به هو يعقوب، فيما ترى الأغلبية الساحقة منهم أنه إسماعيل".

يلي النحر الفراغ من رمي الجمرات، فقد قدّم "كل من يستطيع" أضحية خروفاً أو ماعزاً. ففي مدى حوالى ربع ساعة ذُبح حوالى ستة آلاف إلى ثمانية آلاف من الخرفان والماعز. وحين يحلق الحجاج رؤوسهم ويبدلون ملابس الإحرام بالملابس العادية، يهنّئ بعضهم بعضاً بتمام مراسم الحجّ.

لم يتمكن بوركهاردت من أن يستبدل ملابس الإحرام بغيرها "وظلّ فيها حتى المساء إلى أن استطاع العثور على جمليه المستأجرين اللذين فقدهما خلال النفرة في المساء السابق. ذهب بوركهاردت، بعد يومين قضاهما في منى، للطواف حول الكعبة التي كانت قد ازدهت بكسوة سوداء جديدة صيغت من قماش نُسج في القاهرة. وبعد أن أتمّ الرحالة السعي ارتدى ملابس الإحرام مرّة أخرى لأداء "الحجّ الأصغر" وزيارة المناطق المقدسة الأخرى، وعاد بعد ذلك للطواف والسعي مرّة أخرى. وهكذا أتمّ الرجل شعيرة الحجّ.

في ١٩ ذي الحجة/١ ديسمبر غادر بوركهاردت إلى جدّة التي ازدحمت بالحجيج العائدين إلى ديارهم. وعاد ذلك الرحالة بعد ذلك إلى مكة المكرّمة ليأخذ طريقه منها إلى المدينة المنوّرة، ولكنه لم يتمكن من مغادرة مكّة إلا بعد حوالى شهر من ذلك التاريخ. فقد وردت أخبار بأن محمد علي باشا يصادر الإبل لمجهوده الحربي، فهرب بها أصحابها وتفرقوا بها في الفجاج حتى لا يأخذها رجال الباشا. وكان من المستحيل على ذلك الرحالة أن يجد جملاً يستأجره ليشد الرحال إلى المدينة المنوّرة.

انحسرت موجة الحجاج في مكّة وغدت المدينة خاوية كأنها مهجورة. فشوارعها التي كانت تغص بالمارة ولا يستطيع المرء أن يشق طريقه عبرها إلا بصعوبة بالغة باتت خالية لا تصادف فيها إلا بعض نفر قليل من الشحاذين. وامتلأت تلك الشوارع بالأوساخ والقاذورات التي لم يُبدِ أحد اهتماماً بإزالتها. أما حوانيت البلدة التي كانت مزدهرة فلم يبقَ منها إلا حوالى ربعها فقط. وتكدست على أطراف البلدة أكوام من جيف الإبل النافقة تهب منها رائحة العفن قوية نافذة لتفسد الهواء في البلدة، وتضيف إلى الأمراض السائدة فيها أمراضاً أخرى. ولاحظ بوركهاردت مئات من هذه الحيوانات النافقة وقد ألقيت عند الأحواض التي كان يشرب منها الحجاج. وبات العرب القاطنون في تلك المناطق أسرى مساكنهم لا يستطيعون الخروج منها ليتجولوا إلا بعد أن يجعلوا في أنوفهم قطعاً من القطن. وكانوا يربطون تلك الواقيات القطنية

حين تكون خارج منخريهم بخيط يربطونه حول رقابهم.

يحدثنا بوركهاردت عن المسجد الحرام الذي تُحمل إليه الجنائز للصلاة عليها. يقول بوركهاردت إن ملابس الإحرام الخفيفة والمساكن غير الصحية وأحياناً العوز والفاقة والحاجة إلى درجة العدم، تسبب العديد من الأمراض المفضية إلى الموت. يأتي المريض ما إن يحس بدنوّ أجله ليبقى في ردهات المسجد برجاء الشفاء بالنظر إلى الكعبة أو الموت في تلك البقعة المباركة. ويمكن أن تصادف العديد من فقراء الحجاج الذين أرهق المرض أجسادهم التي هدّها الجوع يزحفون بعد أن خانتهم أقدامهم بين ردهات الحرم يمدّون أيديهم يستعطون الناس. وحين يتعذر عليهم تحريك أيديهم لطلب الصدقة يتمددون على الحصائر ويضعون أمامهم وعاءً لتلقى فيه صدقات المتصدقين. وحين يحسّ هؤلاء بدنوّ أجلهم يسجّون أجسادهم بثيابهم البالية ثم يسلمون الروح، وقد يمر يوم كامل حتى يستبين الناس أنهم قد فارقوا الحياة. ويقول بوركهاردت إنه قد تمكن بمساعدة أحد الحجاج اليونان من تحقيق رجاء أحد الحجاج كان على وشك أن يسلم الروح. فقد عرف منه بلغة الإشارة أنه يرجو أن يُسكب على جسده من ماء زمزم، فسارع الرحالة مع رفيقه اليوناني بصبّ ماء زمزم على جسد الرجل الذي ما لبث أن توفي وهو على تلك الحال.

كتب بوركهاردت بالتفصيل عن المواقع التي يزورها الحجاج في مكّة، والتي منها مولد النبي الكريم في بيت أبيه، ومولد ستنا فاطمة في بيت والدتها في زقاق الحجر، ومولد أبي طالب في المعلا، وقبر السيدة خديجة في المقبرة الكبرى في المعلا، وجبل أبي قبيس، وجبل النور، وجبل ثور.

خلص بوركهاردت بعدئذ ليسترسل في الكتابة عن حكومة مكّة وتنازع الأشراف على حكمها وتدخل الحكومات الإسلامية لمساندة هذا الشريف ضدّ ذاك. ويحدثنا عن وجود عدد وافر من الأشراف في مكّة، ويذكر أن لكل منهم جماعة من الأصهار والأصدقاء من بيوت الرئاسة في البادية، إضافة إلى حوالى ثلاثين أو أربعين عبداً مسلحاً. وينعت سلوكهم بالهمجي، فلا همّ لهم إلا زيادة السلطة التي يتمتعون بها وزيادة مداخيلهم. فكثيراً ما يتعرّض بعض هؤلاء الأشراف لقوافل الحجيج الصغيرة التي تفد إلى مكّة من جدّة أو المدينة وينهبونها ويقتلون من يقاومهم. ويرى بوركهاردت أن الشريف الحاكم في مكة لا يزيد على كونه زعيماً قبلياً تقمّص رداء العثمانيين في الحكم. ويذكر أن أبناء الأشراف يؤخذون إلى مرضعات في البادية منذ اليوم الثامن من الولادة، ويعيش كل منهم في أوساط قبيلة ما حتى يبلغ الثامنة أو العاشرة من العمر ويصبح قادراً على ركوب الخيل، قبل أن يعود إلى بيت أبيه. ويذكر بوركهاردت أن شريف مكة كان يذهب إلى المسجد ممتطياً جواده ويسير إلى جانبه عبد يحمل له مظلّة أنيقة، ولكنّ الوهابيين أجبروه أخيراً على أن يأتي إلى المسجد سيراً على الأقدام، وأن يستغني عن مظلته.

ويحدث بوركهاردت عن الضرائب والرسوم وضروب الاحتكارات التجارية ومصادر الدخل الأخرى التي كانت تثري خزينة الشريف وبنود الإنفاق التي تتحملها، ومنها احتفاظه بقوّة عسكرية قوامها حوالى خمسمئة فرد.

المدينة المنوّرة

وجد بوركهاردت قافلة من حجاج جاوة وماليزيا في طريقها إلى المدينة المنوّرة فرافقها في رحلة بدأت في ٤ صفر ١٥/١٢٣٠ يناير ١٨١٥. وحدث أن ضلّ أحد الحجاج الفقراء طريقه، فصادفه بعض من بدو عوف وطلب الماليزي إليهم أن يُلحقوه بالقافلة نظير وعد بأن يدفع لهم عشرين قرشاً ففعلوا. و لم يكن الرجل يملك نقوداً، فكان يتوقع أن يدفع عنه بنو جلدته المرافقين، ولكنهم ضنّوا عليه بذلك. وأخذت القافلة تستعد للرحيل، وأخذ الرهينة البائس يرتجف وينتحب لخيبة أمله بأن يرافقها. هنا يتحرك بوركهاردت ليكتب ما اعتاد الرحالة الغربيون كتابته من أنهم عادة ما يُقصدون لتقديم الحلول للمشكلات الأمنية والإنسانية عموماً لمرافقيهم في القوافل. رأى بوركهاردت أن يستغل ما يظفر به من مكانة في القافلة لظن مرافقيه أنه حاج له صلة بمحمد علي باشا، فأمسك الرحالة بخطام بعير القائد وشدّه إلى الأرض فبرك البعير. وأعلن بوركهاردت للجمع أنه لن يسمح لهم بالتحرك ما لم يؤدّوا الدين عن الرجل ليُطلق سراحه فيرافقهم. وأخذ بوركهاردت يستخلص من كل مسافر عشرين بارة حتى اجتمع له منها عشرون قرشاً. وقصد الرحالة بدو عوف واستثار فيهم النخوة، فقبلوا بعشرة قروش فقط، فأدّى بوركهاردت العشرة الباقية إلى الماليزي المسكين وسط دهشة المرافقين جميعهم، "فبحكم القيم التركية كان يجب أن تكون العشرة قروش الباقية من نصيبي نظير ما بذلته من جهود".

اتخذت القافلة الطريق المحاذي للسفوح الغربية لجبال الحجاز، وظلّت تسير منذ خروجها من مكّة في ذلك الاتجاه لثلاث عشرة ساعة متصلة من دون توقف على إبلهم التي تقطع ميلين ونصف الميل في الساعة. وحين بلغت القافلة في ١١ صفر/٢٢ يناير وادي الزقاق، بعد أن اتجهت إلى الشمال الشرقي واعتلت جبال الحجاز، أخذت طريقها إلى قرية الصفرة. وحاول بوركهاردت أن يشتري هنا "بلسم" مكّة الذي تنمو شجرته في هذه المنطقة، ولكنه لم يجد وعاءً يضع فيه الكمية التي يرغب في شرائها. و لم يعمد إلى شراء "القربة" بكاملها.

شدّت القافلة الرحال واستشرفت وادي الجديدة، ذلك الوادي الذي كانت قبيلة حرب تغير فيه على قوافل الحجيج، ولكنها توقفت عن ذلك – في ما يقول بوركهاردت – حين أقرّ العثمانيون دفع رسوم عن تلك القوافل وأقاموا هناك مركزاً للحفاظ على الأمن. وما زالت

القافلة تسير حتى بلغت أبواب المدينة المنوّرة في منتصف ليلة ماطرة. واضطر المسافرون إلى الانتظار وهم يرتجفون من البرد الذي اشتدّ في ساعات الفجر الأولى حتى فتحت الأبواب صباحاً. وهكذا انتهت في الثامن والعشرين من يناير الرحلة من مكة إلى المدينة التي استغرقت اثني عشر يوماً، توقفت القافلة خلالها ليومين في الطريق. وكان الإرهاق قد نال من بوركهاردت مبلغه وبدأ يعاني حدّة المرض.

اكترى الرحالة مسكناً يقع بالقرب من المدخلِ الرئيس للمسجد النبوي، ثم أدى بعد ذلك مراسم الزيارة التي لم تستغرق منه وقتاً طويلاً. و لم يجد بوركهاردت في السوق العام التموينات التي كان يسعى لشرائها، فقد شحّت المواد التموينية لأن البدو الذين يجلبونها إلى المدينة كانوا قد فرّوا بإبلهم حتى لا يصادرها الباشا لمصلحة مجهوده الحربي، فاضطر بوركهاردت إلى أن يشتري الدقيق والزبد من السوق "السوداء" بواسطة "مزور"، واللفظ كما يقول بوركهاردت بديل للفظ "المطوف" في مكة المكرّمة.

كان يحيى، طبيب طوسون، في المدينة المنوّرة فبادر إلى زيارة بوركهاردت. ووجد الطبيب عند الرحالة حوالى نصف رطل من لحاء الكينين. ولما كان عدد من رجال طوسون يعانون الحمى، فقد طلب الطبيب إلى بوركهاردت أن يعطيه ذلك الدواء فاستجاب له. واتضح للرحالة بعدئذ أنه ارتكب حماقة كبرى، فقد دهمته الملاريا ولمّا يمضِ يومان على تلك البادرة التي "كانت دلالة على الكرم"، فطلب إلى الطبيب أن يعطيه قسطاً من ذلك الدواء فاعتذر له بأنه قد أعطاه لمرضاه و لم يبقَ لديه منه شيء. وأعطى الطبيب للرحالة مسحوقاً مضاداً للملاريا كان قد فقد بالزمن مفعوله.

تمكنت الملاريا من بوركهاردت وأصبح يعاني من حالات إغماء بعد نوبات التقيّؤ اليومي المتكرر والتعرق الغزير حين تنخفض حرارة جسده، وكان يؤرقه وهو على فراش مرضه رؤية المشيّعين عبر نافذته وهم يمرّون بالجنائز عبر المدخل الرئيس للحرم النبوي، وظلّ يتشاءم من صوت الإمام وهو يؤدي الصلاة عليها. ويذكر بوركهاردت أن نسبة الوفيات كانت في المدينة عالية. و لم تكن حمّى الملاريا تفارق بوركهاردت حتى تعاوده مرّة أخرى، حتى إنه ما عاد يستطيع أن ينهض من سجادته على قدميه إلا بمساعدة ذلك العبد الذي اشتراه وهو "المؤهل لأن يعتني برعاية جمل ولكنه غير مؤهل لتمريض سيده العليل". و لم يكن لبوركهاردت من مؤنس سوى ذلك العبد وسيدة مسنة هي ربة المنزل الذي استأجره كانت تطلّ عليه كل مساء من شرفتها التي تعلو غرفته لفترة وجيزة، إضافة إلى المزور الذي ما فتىء يزوره بين الفينة والأخرى "على أمل أن يظفر بقسم من ممتلكاتي – كما أعتقد – في حالة وفاتي".

ظلّت الملاريا تعاود ذلك الرحالة منذ دخوله إلى المدينة المنوّرة في ١٧ صفر/٢٨ يناير حتى أوائل إبريل. وقضى الرجل بعد ذلك أسبوعين آخرين ليشفى وتكسب أرجله قوّة لتستطيع

حمله خارج الغرفة. وتمكن بوركهاردت في ١٢ جمادى الآخرة/٢١ إبريل أن يغادر مع عدد من البدو إلى ينبع في طريقه إلى القاهرة. ورغم أنه قضى القسط الأوفر من وقته في المدينة طريح الفراش، إلا أنه كتب عنها وأسهب، اعتقاداً منه أن المدينة كانت غير معروفة كثيراً للأوروبيين. وصف بوركهاردت المدينة المنوّرة ورسم لها مخططاً أوضح فيه معالمها المهمة. قال إن المدينة محاطة بسور ارتفاعه يتراوح بين خمس وثلاثين قدماً إلى أربعين قدماً، تفتح فيه ثلاث بوابات رئيسة، هي باب المصري في الجهة الجنوبية وباب الشامي بقرب القلعة في الجهة الشمالية وباب الجمعة في الجهة الشرقية، إضافة إلى بوابة فرعية في الجانب الجنوبي يشار إليها بالباب الصغير. وعدّد هذا الرحالة حارات المدينة وعرّف بها. كذلك كتب عن المسجد النبوي الذي يمتد في طوله إلى مئة وخمس وستين خطوة، ويبلغ عرضه مئة وثلاثين خطوة، وكتب عن مكانته عند المسلمين التي لا تبزّها إلا مكانة المسجد الحرام، وساق الحديث النبوي عن الروضة الشريفة. وذكر هذا الرحالة أن للحرم أربع بوابات على الزاوية الجنوبية الغربية، وهو الذي كان يعرف بباب مروان نقلاً عن السمهودي، وباب الرحمة وكان يعرف سابقاً بباب عاتكة، وباب الجبر وكان يعرف بباب جبرائيل، وباب النساء وهو الأقرب إلى حجرة السيدة فاطمة التي اختُلف في موضع قبرها، فبينما يراه البعض في المسجد يذهب آخرون إلى أنها دُفنت في البقيع. وكتب عن الحجرة الشريفة التي يرقد فيها إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم صاحباه أبو بكر وعمر. وأشار بوركهاردت إلى أن المسلمين يعتقدون بأن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض حين ينفخ في الصور ليعلن حلول يوم القيامة، ثم يُتوفى بعد ذلك ليدفن إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُبعثا بعدئذ معاً "ويصعدان" إلى السماء، وعندها يعهد الله إلى عيسى "كي يفرق بين المؤمنين والكفار (؟)". وذكر بوركهاردت أن غرفة القبر الطاهر تقع تحت قبّة عالية. وأن القبر محاط بشبك حديدي قوي من القضبان تتخلله بعض المنافذ التي تظهر من خلالها ستارة مسدلة موشّاة بأشكال الزهور إلى جانب نقوش بأحرف من فضة وأخرى من ذهب. ويقول إن تلك الستارة حين تبلى تستبدل بأخرى وترسل إلى إستانبول ليُكسى بها قبر من قبور السلاطين والأمراء.

يقول بوركهاردت إن للمسجد عدداً من المآذن تقوم إحداها في البقعة التي كان بلال "مؤذن الرسول وأحد أفضل المقرّبين منه" يقف ليدعو المسلمين إلى الصلاة. ويلاحظ الرجل – ولا ندري عن دقّة ملاحظته – أن المسجد لا يؤمّه عدد كبير من النساء. ويفسر هذه الظاهرة باعتقاده أن نساء المسلمين، ما عدا المسنّات منهن، نادراً ما يؤدين هذه الفريضة. ويذهب بوركهاردت في تفسير هذه الظاهرة المذهب ذاته الذي ذهب إليه الرحالة الغربيون الذين وفدوا إلى شبه الجزيرة العربية قبله أو بعده. فما من أحد منهم إلا كتب عن المرأة المسلمة، ولا تجدنّ منهم أحداً إلا يشارك بوركهاردت رأيه في أن النساء "مخلوقات أدنى درجة من

الرجال". ويذهب بوركهاردت بعيداً حين يروي أن بعض مفسّري القرآن الكريم أنكر عليهن دخول الجنة. ويأتي بغريبة حين يقول إن الرجال يكرهون المرأة الملتزمة بأداء الشعائر، لأن ذلك الالتزام يرفعها إلى مصافّ الرجال!

كتب بوركهاردت عن كنوز المسجد التي أخذها الوهابيون وباعوا بعضها إلى شريف مكّة، كذلك اشترى طوسون بعدئذ من الشريف قسماً قليلاً منها أعاده إلى المسجد. ولكنه لم ينسَ أن يستهجن ما كتبه بعض الذين زاروا المدينة وتحدّثوا عن المقتنيات العجيبة والثروات الخيالية التي تضمّها الغرفة الشريفة، وما ذلك إلا لأنهم – كما يقول – أرادو أن يُضفوا على شخصياتهم أهمية لنشرهم الشيء الغريب وغير المألوف. ولكنه يأتي بعد ذلك بفرية حين يتهم المسلمين "مهما بلغت معتقداتهم الخرافية" بعدم تقديم "تضحيات مالية كبيرة للمؤسسات الدينية كما يفعل الكاثوليك أو البروتستانت". ونسي الرجل أن المسلمين هم الذين استحدثوا نظام الوقف الشرعي للوفاء باحتياجات مؤسساتهم الدينية التي ليس منها – بطبيعة الحال – شراء تحف ثمينة لا تحتاج إليها تلك المؤسسات التي لا تشمل وظائفها المهمات التي تقوم بها المتاحف.

أفاد بوركهاردت بأن المسجد النبوي يحرسه الخصيان أيضاً، كما هي الحال في مكّة، ويتمتعون هنا أيضاً باحترام كبير. وأفاد بأن شيخ الحرم هو أهم شخصية في المدينة، رغم وجود طوسون باشا فيها، وأن طوسون كان يُقبّل يده كلما صادفه. وكتب بوركهاردت عن البقيع حيث يرقد عدد من الصحابة، وعن جبل أحد حيث قبور خمسة وسبعين من شهداء الصحابة، وأخبر أن الحجاج ما زالوا يزورون قبورهم "ويتلون عندها الصلوات". وتحدث بوركهاردت عن تطبيق الوهابيين للحديث: خير القبور الدوارس فعملوا على إزالة القباب وغيرها من تلك المظاهر البدعية، ولكنهم لم يتمكنوا من إزالة القبة أعلى مسجد الرسول، رغم أنهم حاولوا ذلك وأرسلوا اثنين لأداء المهمة فانزلقا ولقيا مصرعيهما.

يلاحظ بوركهاردت أن أهل المدينة خليط، كما هي الحال في مكّة، رغم وجود بعض الأسر القديمة أيضاً. كذلك يلاحظ أن مواطني المدينة ليسوا في سمرة أهل مكة، فأهل المدينة أكثر اختلاطاً بالسوريين، أما أهل مكّة فهم أكثر اختلاطاً بالأفارقة. ويلاحظ أن المدينة المنوّرة لا تظفر برواج تجاري، وهي ليست مثل مكّة في هذا الصدد.

يحكي بوركهاردت عن وصول زوجة محمد علي إلى المدينة "لاستكمال حجها" ولزيارة ابنها طوسون. ويقول إنها قضت قسطاً كبيراً من الليل في المسجد قبل أن تعود إلى منزلها المستأجر. وأمر طوسون بأن يُمدّ له بساط عند عتبة باب مسكن والدته قضى ليلته نائماً عليه. ويقارن بوركهاردت بين طوسون باشا وأخيه إبراهيم، وقال إن الأول كان باراً بوالدته وتقيّاً، ولكنه كان أقل ذكاءً من أخيه. أما التقوى عند محمد علي باشا فهي – كما يروي بوركهاردت – لا تتجاوز متطلبات الدبلوماسية الصرفة.

يعدد بوركهاردت أماكن الزيارة في المدينة المنوّرة ومنها مقبرة البقيع التي يرقد فيها الكثير من مشاهير الصحابة، حيث ترى هنا مناديل المتسوّلين وقد بُسطت أمامهم لتلقّي الصدقات. ويشير إلى أن التسوّل هنا امتياز يحتكره فرّاشو المسجد الذين تقاسموا في ما بينهم تلك المواقع، وكان منهم من يذهب ليجلس بنفسه أمام منديله المبسوط ومنهم من يرسل خادمه ليتولى المهمة عوضاً عنه. ويُعدّ جبل أحد من أشهر مواقع الزيارة في المدينة المنوّرة، فبقربه يقع قبر حمزة رضي الله عنه وقبور الصحابة الخمسة والسبعين الذين استشهدوا في معركة أحد، ومنهم مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش. ويضيف الرحالة أن أهل المدينة يفدون إلى الموقع موسمياً لثلاثة أيام في كل عام. وتُعدّ قباء التي تقع جنوب المدينة من المناطق التي يفد إليها الزوار، فهي المنطقة التي توقف فيها الرسول الكريم عندما استشرف المدينة وفيها مبرك الناقة ومسجد القبلتين. ويلاحظ أن قباء تُعدّ من أخصب المناطق في الحجاز.

يلاحظ بوركهاردت وفرة المياه في المدينة المنوّرة، ويحدثنا عن مزارع البلدة فيقول إن قسماً منها كان ملكية خاصة لبعض العائلات، والقسم الآخر وقفاً يُؤجر بعقود طويلة للمواطنين الذين يقومون بدورهم بتأجيره للمزارعين لفترات أقصر. وتنتج مزارع قباء الخُضَر المختلفة والبطيخ. أما المزارع العديدة الأخرى فتنتج الحنطة والشعير والبرسيم وأصنافاً من الفاكهة والتمور. ويلاحظ بوركهاردت أن النخلة في المدينة أقصر من مثيلتها في مصر وأقلّ حجماً، ولكن إنتاجها أشدّ حلاوة من تلك ويمتاز برائحة عطرية. وتشتهر المدينة بإنتاج حوالى مئة وثلاثين نوعاً من التمور ذات النكهات المختلفة والألوان المتباينة، والتي منها الزعفراني والأخضر والأصفر. وأشار إلى أن الحجاج يأخذون معهم هدايا إلى مواطنيهم من تمر المدينة في عبوات تضمّ كل منها حوالى مئة تمرة. ويسترسل بوركهاردت في وصف الأكلات الشهية التي يعدّها أهل المدينة من هذا التمر، الغذاء الرئيس لهم. فمنه ما يُعدّ مغلياً في الحليب أو مقلياً بالزبد، ومنه ما يُغلى في الماء ثم يُسكب عليه العسل. ويلاحظ أن نواة التمر تكوّن علف سوائم أهل المدينة ينقعونها في الماء ليومين قبل أن تقدّم إلى الحيوانات، ويلاحظ وجود محال متخصصة في بيع النوى يزوّدها المتسوّلون بما يلتقطونه منها في الشوارع والطرقات.

يحدثنا بوركهادت عن حكومة المدينة المنوّرة التي هي حرم آمن يحظر على الكفار دخوله كما يحظر الصيد أو القتل إلا للعدو المعتدي، ولكنه يلاحظ أن عدداً من النصارى اليونانيين الذين يخدمون في جيش طوسون باشا باتوا يخيمون ضمن حدود المدينة. ويفيد بأن آغا الإنكشارية هو الآمر العسكري في حكومة المدينة التي يتولاّها شيخ الحرم يعاونه القاضي. ويلاحظ أن سلطة شيخ الحرم والقاضي قد تقلصت أخيراً لمصلحة سلطة الآغوات الذين باتوا يورّثون السلطة إلى أبنائهم. كذلك أشار إلى أن شيخ السادات الذي هو زعيم الأشراف يتمتع بسلطة ما، وكذلك زعماء الأحياء. ويروي أن آغا القلعة، حسن القلعي، وهو "من حثالة

القوم"، كان مسؤولاً عن حكومة المدينة فسلّمها إلى الإمام سعود شرط أن يظلّ مسؤولاً عنها، ثم فاوض طوسون بعد ذلك وسلّمه المدينة. ويذكر بوركهاردت أن الآمر التركي طوماس كيث، أمين صندوق طوسون، وهو اسكتلندي الأصل، كان يتولى حكم المدينة في تلك الفترة.

ينبع

غادر بوركهاردت المدينة في ١٢ جمادى الآخرة/٢١ إبريل ١٨١٥ إلى ينبع، سالكاً في البداية الطريق ذاته الذي ساقه من مكّة إلى المدينة. وصادف ركبهم أمطاراً غزيرة. وفاضت الأودية بالسيول وتعطل الركب. وهطلت في اليوم التالي أمطار غزيرة أيضاً مصحوبة بعواصف رعدية، فاستضاف أحد التجار المساقطة في خيمته الرحالة الذي كان قد عاودته الحمى. وكان هذا الرجل الثري الذي وظّف عشرة من الإبل لنقل عائلته وأمتعته كريماً يبذل الصدقات في كل محطة ينزل بها.

واصل الركب بعد ذلك تقدمه حتى بلغ الصفرة، وعندها افترق طريق ينبع عن طريق مكّة. ومضى الركب في حال سبيله حتى صادفتهم بعض المرتفعات فترجّلوا عن إبلهم وأعانوها على الصعود، فبلغوا بدراً أولى "مواقع الرسول" صلى الله عليه وسلم. وأشار إلى موقع قبور الصحابة الثلاثة عشر الذين استشهدوا في تلك المعركة التي وقعت "على بعد ميل من المدينة القائمة". وقدّم بوركهاردت وصفاً للمعركة مُلخّصا عن بعض المصادر التي اقتبس منها وبتصرف، كذلك قدّم تفسيراً للآية الكريمة: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **(الأنفال ٤٢)** واستراحت القافلة في بدر ليوم كامل بعد فترة كانوا يواصلون فيها المسير لأربع عشرة ساعة كاملة في اليوم. وسارت القافلة بعد ذلك حتى وصلت مع مشرق يوم ١٩ جمادى الآخرة/٢٨ إبريل إلى بوابة ينبع. ويقول بوركهاردت إن المدينة مسوّرة ولها بابان هما باب المدينة وباب المصري. وكان يحرسها في السابق حوالى خمسين إلى ستين جندياً تابعين لشريف مكّة الذي كانت البلدة ملحقة به، يتولى الإشراف عليها حاكم معين من قبله أو وزير.

كان الميناء ممتلئاً بالحجاج العائدين إلى الديار، وبالجنود المسرّحين القاصدين إلى أوطانهم، فيما كانت أربع سفن ترسو في الميناء تنتظر لتبحر بزوجة محمد علي ومن معها إلى مصر. وتملّك بوركهاردت منذ الفترة الأولى لوصوله إلى المدينة الهلع الشديد، فقد لاحظ أن أهل البلدة يشيّعون عدداً كبيراً من الجنائز، فقضى ليلته تلك لا يكاد يغمض له جفن. فقد استوثق أن الوباء قد حلّ بهذه المدينة. وقد أكد له بعض الإغريق هذه الحقيقة التي أنكرها أهل البلدة في البداية

لاعتقادهم أن الله يحمي مدن الحجاز من الأوبئة. وما زال المرض الذي تأكد لبوركهاردت أنه انتقل من القاهرة إلى السويس وعبر منها إلى شبه الجزيرة العربية يفتك بأهل المدينة، حتى تراوح عدد الوفيات بين أربعين وخمسين في اليوم الواحد. وأخذ المواطنون يهربون من المدينة إلى ما جاورها من أرض خلاء، وأصبحت المدينة مهجورة تقريباً. وما لبث المواطنون أن عادوا إلى المدينة مرّة أخرى بعد أن لاحقهم الوباء خارجها، متعللين بأنه لا يجوز الهروب من قدر الله، وأن الله قد أرسل عليهم هذا الوباء ليذكّرهم بالعودة إلى رحابه. وامتلأت جنبات شوارع أحياء المدينة بالموتى والمحتضرين. ولزم الرحالة مسكنه الذي توفي فيه أحد مساكنيه من الذين أصابهم الوباء. واختفى خادمه الذي كان قد اشتراه لعدّة أيام، ثم عاد إلى سيده وعرف منه أنه كان يشارك المحسنين في غسل الموتى من الحجاج وتجهيزهم وتأدية طقوس الجنازة وكل ما يتصل بالعناية بالمتوفين الأغراب الذين لا أهل لهم في المدينة.

لاحظ بوركهاردت أن أهل المدينة أتوا بناقة زيّنوها بالريش وضروب الزينة الأخرى وجعلوا عليها أجراساً، وطفقوا يجوبون بها شوارع المدينة في طقس سحري حتى انتهوا بها إلى المقابر حيث نحروها لاعتقادهم أن الوباء سينقشع بهذه الممارسة. فقد جمعت الناقة في جسدها وباء المدينة كله واختزنته في لحمها الذي تُرك بعد نحرها في المقابر طعاماً للكلاب وضواري الطير. ويتهم بوركهاردت الصدر الأعظم والباشا بتعمّد عدم مكافحة الوباء، لأن ذلك من شأنه أن يورث خزائنهم الثراء. ويدّعي أن عدد وفيات التجار الأجانب في القاهرة والإسكندرية ودمياط جرّاء الوباء كان كبيراً، وأن مقتنيات هؤلاء المتوفين وأموالهم تذهب إلى بيت المال الذي تذهب إليه أيضاً مقتنيات الضباط والجنود المتوفين وأموالهم وممتلكاتهم. ويدّعي بوركهاردت أنه لاحظ في جدّة جثث المواطنين تُحمل إلى المقابر، فيما تنقل أموالهم إلى منزل آمر البلدة، ما زاد في ثروة الباشا. ويشير إلى أن الطاعون قد حصد في القاهرة وحدها حوالى ثلاثين أو أربعين ألف نفس، ما أورث خزينة الباشا حوالى عشرين ألف محفظة، أي ما يعادل عشرة ملايين ليرة، هذا إضافة إلى أن نقص عدد السكان في المدن يؤدي إلى انحسار نفقات الموارد العامة. أما الأرياف حيث المناطق المكشوفة التي تخلو من التلوث، فإنها لا تفقد عدداً كبيراً من المزارعين العاملين على خدمة الأرض وإثراء خزينة الباشا. ولا نملك إلا أن نستشعر الخزي ونشعر بالغثيان حين نقرأ ما كتبه بوركهاردت إلى الحكومة البريطانية يستصرخها باسم الإنسانية لاتخاذ إجراء حاسم ضدّ محمد علي باشا يدفعه إلى العمل على محاربة الوباء في بلاده. ولربما نرى أن ما جاء به هذا الرحالة في هذا الصدد يمثل زبدة ما ورد في كتابه، حيث كشف للمهتمين بحركة الاستعمار العالمي في تلك العواصم الغربية أن بعض حكام الشرق يعملون على إثراء جيوبهم باستثمار معاناة مواطنيهم، ما يجعل الحاكم والمحكوم كليهما فريسة سهلة للاستعمار.

يرى بوركهاردت أن أهل ينبع عرب صرحاء، ويستدل على ذلك بسلوكهم ومظهرهم، وهم يختلفون في ذلك عن أهل مكة والمدينة. ولاحظ أنهم يعيشون على الملاحة والتجارة، ويمارسون التهريب. وعلى الرغم من أن ميناء ينبع له مرسى جيد في خليج عميق يحميه من الرياح، يفرغ المواطنون السفن من قدر كبير من حمولتها قبل أن تدخل الميناء ليتفادوا دفع الرسوم الجمركية العالية التي يفرضها موظفو الجمارك الأتراك. ويفيد بوركهاردت أن موارد المياه في ينبع صحية، وأن مذاق الماء طيب لا يعادله مذاق أي ماء آخر شربه في الحجاز. ويلاحظ بوركهاردت أن المدينة تغطيها أسراب الذباب، وأن المواطن لا يستطيع أن يخرج من منزله إلا حاملاً منشّة ليطرد بها الذباب من أمامه، ولن يستطيع إنسان أن يلتقم لقمة من طعام إلا وتسبقه إلى فمه جماعات الذباب فتختلط بطعامه ولا سبيل له إلا أن يزدردها. ويمكن المرء أن يرى سحباً من الذباب تغطي السفن وهي تغادر الميناء.

فارق بوركهاردت ينبع ووصل إلى شرم عند فم خليج العقبة في ١٧ جمادى الآخرة/٥ يونيو، وتوجه منها إلى القاهرة التي عاد إليها بعد حوالى سنتين ونصف السنة من مغادرتها. وكتب بوركهاردت إلى والدته التي تمنّت عودته إلى الديار بأن "عودتي من دون استكمال مهماتي ستحط من قدري أمام رؤسائي وأمام الجمهور وأمامك أيضاً"، ما يدلّ على أن مهمته لم تكتمل بعد في التجسس على البدو والحضر ومعرفة سيرة محمد علي باشا في الحكم والإدارة من أفواه الجماهير ودراسة المتغيرات التي أحدثتها طموحاته في المنطقة.

تعددت الموضوعات التي خاض فيها بوركهاردت في كتاب الرحلات الذي أعدّه للنشر السير وليام أوسلي وصدر في يناير ١٨٣٠م. ويرى الكثير من النقاد الغربيين أن بوركهاردت قد أجاد في وصف الحرمين الشريفين إلى درجة أن من أتى بعده إلى هذين المسجدين من الرحالة الأوروبيين لم يجد شيئاً جديداً يضيفه إلى ما ذكره بوركهاردت. ويستشهد هؤلاء النقاد بما كتبه الرحالة الشهير بيرتون في كتابه الموسوم : **رواية ذاتية عن الحجّ إلى المدينة ومكّة**، من أنه حين أراد أن يصف الحرم المكي في أبعاده وعدد أعمدته وردهاته وغير ذلك أحال على بوركهاردت ووصفه "الدقيق والمضبوط". ويرى نقاد آخرون أن الرجل كان أكثر إجادة وأعظم فائدة حين تناول مقدسات المسلمين وشعائرهم وأفاض في وصفها بنحو غير مسبوق. وفي الحقيقة، إن الرجل قد قدّم للغربيين الكثير في هذا المجال، لأنه استعان بمصادر عربية أصلية استقى منها معلوماته التي صاغها بعدئذ حسب فهمه ووفق معتقداته. يذكر بوركهاردت في قائمة مصادره كتاب أبي الوليد الأزرقي، **أخبار مكّة**، وكتاب تقي الدين الفاسي بعنوان **العقد الثمين**، وكتاب قطب الدين المكي الموسوم: **الإعلام في أعلام البلد الحرام**، وكتاب عبد الله العصامي وعنوانه **تاريخ الحجاز**، إضافة إلى كتاب نور الدين علي بن أحمد السمهودي، **وفاء الوفاء في دار المصطفى**. ولا يمكن بحثاً جادّاً توافرت له كل هذه المخطوطات إلا أن يبهر قومه بوافر

علمه في هذا المجال، الذين يجهل العديد منهم أبسط أبجدياته.

يعتقد آخرون من النقاد الغربيين أن بوركهاردت قد تميز حين استقصى حياة البدو وأعراف البادية وعدّد القبائل وعرّف بولاءاتها، ولم يهمل وصف أدق أنماط حياتهم الاجتماعية، من طرق البدو للصيد بالأبواز والهررة البرية المروّضة، ووصف مساكنهم حين تحدث عن الخيمة وأجزائها وأبعادها وأشكالها. ونرى أنه أجاد أيضاً في وصف الأرض التي قطعها، رغم أن ذلك لم يكن من اهتماماته المباشرة، ولكنه مع ذلك لم ينسَ أن يعتذر بأنه كان يوالي أسفاره مع القوافل التي تدلج ليلاً. ونعتقد أن اهتمام الرجل تركز بصفة أساس على رصد الحياة الاجتماعية في الحضر كما في البادية أيضاً. وتناول دور الاقتصاد في تلك المجتمعات وما يمثله البحر الأحمر كشريان أساس يربط الحجاز بالجسد الإسلامي عامة وبشبه القارة الهندية خاصة. وفضح بوركهاردت الصلة بين الحاكم الذي حصر همّه في جمع الثروة وتحقيق مجده الشخصي والمحكوم الذي يستنزفه الحاكم حيّاً وميتاً. ولكننا لا نرى أنه أفاد الغرب بشيء كثير بما كتبه عن المقدسات الإسلامية، فقد سبقه إلى مكة المكرّمة لودفيكو فارتيما ثم دومنجو باديا آي لبلخ وأورليش جاسبر ستزن الذي عاصر بوركهاردت، وكان في زيارة لمكة المكرّمة في عام ١٢٢٢هـ/١٨١٠م. وقد أتى كل من هؤلاء الرحالة بالغرائب والعجائب التي تحرك العقل الغربي حينما يقرأ عن مقدسات الإسلام وطقوسه وشعائره. وكان ما كتبه بوركهاردت الذي اطّلع على بعض ما كتبه سابقوه عن هذا الموضوع أقل إثارة لمشاعر أولئك القوم ممن سبقه، فهو لوفرة مصادره ومحاولته التحري عن الحقيقة لم يكن كثير المبالغة في هذا الشأن، ولا نجد في كتابه من تحريف الكلم عن مواضعه والإفك المتعمد إلا القليل. وكانت المجتمعات الغربية حينما تقرأ لرحالة عن الشرق وثقافاته تتطلع إلى الغريب، وقد شهد على ذلك بوركهاردت نفسه. ومع ذلك لم تخلُ رواية بوركهاردت من الغريب، لكنه لم يكن غريباً يشبع نهمهم. أما البدو وحياة البادية فقد خاض فيها هذا الرحالة سلباً وإيجاباً. وكان الرحالة الأوروبيون السابقون له واللاحقون عبر العصور يتفنّنون في سرد الغرائب والعجائب عن البدو وحياتهم، وأبدى العديد منهم إعجابه بالشخصية البدوية التي لم ينسَ أن يعدد مثالبها أيضاً.

البدو

يرى بوركهاردت، في كتابه الموسوم: **مذكرات عن البدو والوهابيين** الصادر في عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م، في البدو عرقاً من أميز الأعراق في العالم وأكثرها نبلاً، وأن للبدو على الرغم من مثالبهم العديدة، كثيراً من الجوانب الأخلاقية التي يمتازون بها ويتفوّقون فيها حتى على الأوروبيين. فالبدو – كما يدّعي – ربما كانوا نهّابين وجشعين إلا أنهم يتمتعون

بعدّة فضائل تغطي على تلك الجوانب السلبية.

أكسبت الصحراء البدو ميزة يفتقر إليها أهل الحضر ومناطق الاستقرار الزراعي. فحبهم للحرية جعلهم يفضلون سُكنى خيامهم المنتشرة في الصحارى على مباهج الحياة التي يمكن أن تتهيأ لهم بالاستقرار. ويعدد بوركهاردت فضائل البدوي العفوي الكريم العطوف ذي الروح المسالمة ما لم يُستثر بعداء أو بما يخدش الشرف من قول أو فعل يدفعه دفعاً إلى حمل السلاح. ففي شوارع المدن قد يسمع المرء ألفاظاً بذيئة يتنابز بها أهل الحضر، ولكن مثل تلك الألفاظ لن تجري على لسان البدوي أبداً. فإذا حدث أن نعت أحدهم البدوي بأنه خائن أو كاذب أو خسيس أو نذل، فلن يجيب البدوي على مثل تلك الإساءة التي لا تغتفر إلا بالخنجر. أما إذا وقع شجار بين البدو و لم يلجأ أيّ من المتخاصمين إلى مثل تلك النعوت المستقبحة التي تدلّ على الذوق الفاسد المغرق في الفسوق والتي قد تشمل ألفاظاً تدلّ على ممارسة الملذات الحسية، فالأمر عادة ما يُسوّى بين الأفرقاء في فترة وجيزة. ولكن أي خلاف يجري فيه مساس بالشرف لن يُقبل فيه عذر ولا يصلح معه اعتذار، أما في ما عدا ذلك فالأمر هيّن يسير.

سبق سيتزن بوركهاردت في ذكر بعض ملاحظات عن البدو والبادية نُشرت في عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠م. ويبدو أن بوركهاردت قد اطّلع على هذا الكتاب فاتّبع منهجه، لكنه امتاز عنه بأن استغرق في التفاصيل. ذكر بوركهاردت العديد من القبائل في المناطق التي زارها أو في المناطق القريبة من تلك المناطق، وتحدث في ولاء تلك القبائل وشيوخها وأمرائها. وذكر هذا الرحالة أن خيام الشيخ تقع عادة في غرب المعسكر الذي ينزلونه، فمن ذلك الاتجاه يفد الضيوف وتأتي الغارات. ويحدثنا عن سلطة الشيخ في البيئة البدوية حيث لا يعرف البدو سيداً إلا الله، ويذكر أن واجب الشيخ يتركز فقط في القيام بأعباء القبيلة التي تعززها مجالس الشورى التي تنظر في الحرب والسلم، وفي استقرار القبيلة في مكان ما أو ارتحالها وكذلك حماية ديارها.

يرى بوركهاردت في البدو، رغم تفرّقهم وتشرذمهم، شعوراً عاماً بالفخار القومي يربط هذه القبائل بعضها ببعض برباط كفيل بأن يجعلهم يتضامنون لرد غزوات محمد علي باشا. فهم معتزّون بأصولهم العربية ويحسّون بوقع الخسائر التي نالت من بعض القبائل العربية الأخرى جراء عمليات الغزو الأجنبي. ويؤكد بورهاردت "على ما سبق أن ذُكر" من أن البدو يبدون جُبناً ظاهراً حين يحاربون للنهب والسلب، ولكن شجاعتهم تبدو مؤكدة لا مراء فيها حين يحاربون لصدّ عدو ينزل بأرضهم. وضرب بوركهاردت مثلاً بحروب الحجاز الأخيرة، مستشهداً بمعركة بسل التي وقعت في عام ١٨١٥م، ففي تلك المعركة حارب البدو بعضهم إلى جانب بعض وأرجل المجموعة منهم مربوطة إلى أرجل الأخرى حتى لا يتقهقروا، وقد وُجدوا مذبوحين بعد انتهاء المعركة وهم على تلك الهيئة، ليس فيهم من أدبر، فقد "أقسموا لنسائهم

أنهم لن يتقهقروا أبداً. أما التفرق والتشرذم في حياة البدو فيرى بوركهاردت أنهما جاءا نتيجة للحروب والغزوات الدائمة التي يعيشها البدوي والتي يعدّها ضرورية متلازمة مع هذا النمط من الحياة. فإذا ظلّ البدوي في حالة سلم تقلّصت ثروته. ويذكر بوركهاردت أن حروب البادية غير دموية، فالحي الذي يعمل على رد حي آخر أغار عليه يكتفي باسترجاع أسلابه فقط. ويسترسل فيذكر دور "الدخالة" في المجتمع البدوي، ويرى فيها وسيلة من الوسائل التى تشجع على السلم في ذلك المجتمع الذي يتعامل "بالخوّة" أيضاً. ويشير إلى أن القرى المجاورة لبعض القبائل المتنفذة تشتري أمنها "بالخوّة"، وهي عبارة عن ضريبة سنوية تؤديها القرية لضمان أمنها، كذلك تُفرض "الخوّة" على عابري السبيل أيضاً. ويذكر بوركهاردت في هذا الصدد "الصُرّة" التي تدفعها قافلة الحجّ للعبور عبر ديار القبيلة، والتي تحدد عادة باجتماع بين رؤساء البدو وخازن والي دمشق. ويفيد بوركهاردت بأن بعض القبائل لا تتلقّى "صُرّة"، لكنها يستبدل ذلك بالغلال أو بجُعل معلوم. وهكذا تضمن قوافل الحجّ سلامتها حين تعبر أراضي تلك القبائل. ويرى بوركهاردت أن الثراء لا يعدّ ميزة في المجتمع البدوي إلا إذا أتلفه صاحبه بالبذل والعطاء. فأفقر البدو يعيش مثله مثل أثراهم، يأكل الطعام ذاته، ويلبس الملبس ذاته، ولكن ربما استطاع الثري أن يقتني فرساً سبّاقة أو ربما عمل على أن تبدو زوجاته وبناته أكثر زينة من سائر نساء المخيم. ويعدّ الكرم الميزة التي تميز الشيوخ عن غيرهم، فقد يُخلع شيخ ليحل مكانه من هو أجود منه. وإذا مات الشيخ يخلفه أحد أبنائه أو أخوه أو أي من أقربائه المشهورين بالكرم والشجاعة. وفي بعض الحالات تجتمع القبيلة لتنتخب للشياخة من تشاء من رجالها وفق مقاييس البادية. وعندما تخرج القبيلة العربية إلى الحرب يتولّى القيادة فيها عقيد تنضوي كل القوّة المحاربة تحت سلطته، ولا يكون لشيخ القبيلة في هذه الحالة عليه من سلطان، ومن المعتاد أن يكون لكل قبيلة عقيدها الذي هو في الغالب شخص آخر غير الشيخ، ويندر أن تجتمع هذه الوظيفة مع وظيفة الشيخ في شخص واحد. يطيع العرب في أوقات الحرب العقيد، حتى ذلك الذي لا يتمتع بصفات الشجاعة منهم وحسن التقدير، ويخضعون لأوامره من دون خضوعهم لسلطة الشيخ، لاعتقادهم أن الغزو الذي يقوده الشيخ مصيره دائماً إلى الفشل. وللعقيد حقّ التشاور مع كبار القوم المشاركين في الحملة إذا رغب في ذلك أو إذا ارتاب في أمر يقتضي الرجوع إلى الآخرين، ولكنه في نهاية الأمر يعمل بما يراه، ولا يتورّع العرب عن اتباعه حتى ولو لم يجتمع رأيه مع آراء كبارهم. وإذا حدث أن خرج شيخ ما في غزوة ما، فإنه يلتزم في الفترة التي تستغرقها الحملة بما يشير به العقيد الذي يفقد مثل هذه السلطة ما إن تعود الحملة إلى الديار فتعود السلطة إلى يد الشيخ مرّة أخرى. ومع ذلك نجد للعقيد في وقت السلم منزلة مميزة في الحي، حيث يُستشار في أوقات الشدّة ويكون لرأيه اعتباره. ويخبر بوركهاردت أن بعض القبائل تُعيّن في أوقات الحروب ما تسميه الكفيل،

يختارونه من المشهود لهم في القبيلة برجاحة العقل، وتكون مهمته معالجة أي خلافات قد تطرأ في قسمة الغنائم والأسلاب. ويقول بوركهاردت إن العرب يعاملون المرأة بكرامة في أوقات الحروب ولا يمتهنون شرفها، فإذا جرى نهب حي ما ليلاً أو نهاراً فلن يتعرض لهن أحد من المهاجمين، ولكن في حالات العداء المستعر بين حيّين قد يطمع المهاجمون في سلب بعض ملابس النساء أو الاستيلاء على حليّهن فيطالبهن المهاجم بإعطائها له ويقف هؤلاء على بعد من النساء ويعطونهم ظهورهم ولا تحين منهم التفاتة ريثما تفرغ المرأة من التخلي عن المطلوب منها، فيأخذ المهاجم السلب وينصرف من دون التعرض لها بسوء. وأشار إلى أن جند الوهابيين يتعاملون بهذا الأسلوب.

يلاحظ بوركهاردت أن البدو الذين يسكنون المناطق الجبلية لا يقومون إلا نادراً بأعمال السلب والنهب في المناطق البعيدة ضدّ إخوانهم في السهول، وذلك لأنهم لا يملكون من الخيل والإبل، عدّة الحرب في ذلك المجتمع، القدر الكبير الذي يملكه أهل السهول، وإلى هذا السبب يعود زهدهم في شنّ الإغارة وعدم حبهم للحرب. كذلك فإن قبائل السهول نادراً ما تسعى لقتالهم، ففي مناطق الجبال إشكالات كبيرة ومخاطر لا تعرفها الغزوات التي تقع في السهول. فمن ذلك أن الفرار بالسلب والنهب لا يمكن أن يجري بالسرعة الخاطفة التي يتطلبها هذا العمل، إضافة إلى أن الغزاة يجهلون في العادة مداخل المناطق الجبلية ومخارجها، فمسالك المنطقة تبقى في الغالب حكراً على أهلها فقط.

كتب بوركهاردت عن ديار عتيبة التي تقع بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وتُحدّ بسلسلة الجبال الساحلية، وقرّظ شجاعتهم الفائقة، وقدّر عدد مقاتليهم بما يتراوح بين ستة آلاف مقاتل وعشرة آلاف، وأفاد بأنهم يملكون عدداً غفيراً من الإبل والخيول التي ترعى في ديارهم الممرعة، وأشار إلى حروبهم الدائمة مع جيرانهم، خاصة مع قبيلة حرب. كذلك أفاد هذا الرحالة بأن قبيلة شمر قبيلة حضر وبادية. وعرّج بعد ذلك للحديث عن العقيل الذين يرجعون إلى واحات الجزيرة العربية، وحدّث عن قبيلة بني عقيل التي يعتقد بأنها تنحدر من بني هلال، وقال إنهم كانوا في العصور القديمة أقوياء ولكنهم ما لبثوا أن ضعفوا فأصبحوا جماعات متفرقة مبعثرة في أرض نجد. ويُحدث هذا الرحالة بعدئذ عن ظهور "قبيلة صغيرة أخيراً ورثت هذا الاسم"، وقال إن كافة أهل نجد، بدوهم وحضرهم، الذين هاجروا إلى بغداد واستقرّوا فيها عُرفوا بعقيل بغداد، وأصبح لهؤلاء، لعقيل، قوّة ونفوذاً في تلك البلدة، لأنهم أصبحوا سند الباشا القوي في حروبه ضدّ البادية وخصومه في المدينة. ويقول إن كبير عقيل هو في العادة من مواطني الدرعية المشهود لهم بالشجاعة. ويشير إلى أن عقيل بغداد أبلوا بلاءً حسناً في معارضتهم للوهابيين، فكثيراً ما تغلّبوا على قوات وهابية كانت تفوقهم عدداً. وأضاف أن عقيل بغداد كانوا في هذه الفترة من مواطني

الأحساء والقصيم وجبل شمر، وهم قادة القوافل التي تربط بين سوريا والعراق.

أفاض بوركهاردت في الحديث عن قبيلة عنزة التي تنتشر في المنطقة من شمال الجزيرة العربية إلى سوريا والعراق، والذين تتراوح أعداد نفوسهم بين ثلاثمئة ألف وثلاثمئة وخمسين ألفاً، وتشغل ديارهم، بمن فيهم عرب الرولة، مساحة تبلغ حوالى أربعين ألف ميل مربع. ودرس تقاليد الزواج والطلاق وتنظيم الحياة الأسرية في هذه القبيلة. وأخبر أن العرب عادة ما يتخذون زوجة واحدة ولا يعدّدون، وأضاف أن بعضاً قليلاً منهم يتخذ زوجتين في وقت واحد، وأشار إلى أنه لم يصادف من يقول له إنه عرف أحداً جمع بين أربع زوجات في وقت واحد. ويتناول بوركهاردت بعدئذ تقاليد الزواج في عنزة ويعدّها في غاية البساطة. فإذا رغب رجل في الزواج من فتاة معينة، أرسل أحد أفراد أسرته أو واحداً من أصدقائه إلى والد الفتاة. فإذا لقي الطلب صدى في نفس الوالد فإنه يستشير ابنته التي لا تُرغم على قبول الطلب، فإذا وافقت الفتاة على ما أبداه والدها من قبول، يمسك رسول العريس بيد الوالد ويقول له: لقد وافقتَ على أن تزوج ابنتك لفلان، فيردّ الوالد بالإيجاب، ويحدد الرجلان موعد الزفاف الذي عادة ما يكون بعد خمسة أو ستة أيام من "الطلب". وفي اليوم المحدد يأتي العريس حاملاً خروفاً يذبحه أمام الشهود عند خيمة والد العروس، وعندما يسيل دم الخروف على الأرض تنتهي مراسم العرس ويأخذ المدعوون في الاستمتاع بالأكل والغناء. وعند مغيب الشمس يأوي العريس إلى خيمة تكون قد نُصبت له في طرف الحي ويبقى في انتظار عروسه. أما العروس في هذا الوقت فتظلّ تجري في دلال من خيمة صديقة لها إلى خيمة أخرى، بينما تجري صاحباتها وراءها حتي يقبضن عليها بعد فترة وتُساق من ثم إلى خيمة العريس الذي يستقبلها عند عتبة خيمته ويجرّها إلى الداخل، وتنصرف من ثمّ النساء اللائي زففنها إلى تلك الخيمة. ويستطرد بوركهاردت فيذكر أن العرف في القبيلة ألا يطلب الوالد مالاً لقاء زواج ابنته "حق البنت"، فذلك يُعدّ في عرفهم عيباً، ولكن قد يقدم العريس هدايا لوالد العروس أو لأخيها رغم أن ذلك يُعدّ عيباً أيضاً.

يذكر بوركهاردت أن الطلاق بدوره غير معقّد، فهو في بساطة الزواج أيضاً. فإذا زهد الزوج في زوجته، يمكنه أن يقول لها ببساطة: أنت طالق، ويهبها ناقة ثم يرسلها إلى خيمة أهلها. ولا يطلب إلى ذلك الزوج أن يبرّر فعلته ولا يُسأل عن سبب الطلاق ولا يسبب الطلاق الإساءة إلى أهل المطلقة ولا يُعدّ مسبّة لها. ويقع على المطلقة أن تنتظر "لأربعين يوما "قبل أن ترتبط بزوج آخر، وذلك حتى يُستبان حملها إن كانت حاملاً، أما الحامل فعليها أن تنتظر حتى تضع حملها. ويخبر أن الطلاق في أوساط عنزة كثير الوقوع، لا يمنعه أن تكون الزوجة حاملاً. فإذا وضعت المطلقة حملها فعليها أن ترعى طفلها حتى يتمكن من المشي، وعندها يمكن والده أن يأخذه إلى خيمته. ويفيد بوركهاردت بأن المطلقة إذا كانت عجوزاً ومعيلة

يمكنها أن تعيش مع أطفالها بالقرب من طليقها. ويستطرد فيقول إن سهولة إجراءات الزواج والطلاق تشجع على تواترهما، ويخبر أن هنالك عربياً في الخامسة والأربعين تزوج حوالى خمسين مرّة، ولا يرى بوركهاردت إشكالاً في ذلك ما دام ذلك الرجل كان يملك خمسين ناقة، ويشير إلى أن "القانون"، وربما قصد بقوله الشريعة، يبيح للزوجة حقّاً في نوع من أنواع الطلاق. فإذا لم تكن الزوجة سعيدة بزوجها فلها أن تفرّ إلى خيمة أهلها، وعلى الزوج – في هذه الحالة – أن يذهب إلى أهلها ويجلس إلى زوجته ويمنّيها بالوعود ويتحفها بالهدايا من ملابس وأقراط وسجاد للخيمة وما إلى ذلك. وقد تستجيب الزوجة فتعود إلى خيمة الزوجية، ولكنها قد ترفض فلا يملك الزوج حقّ الإرغام لأن أهلها لا يرتضون لها ذلك. وفي هذه الحالة يمكن الزوج أن يقول لها أنت طالق وبهذا تنتهي علاقتها به، ولكن يمكن الزوج أيضاً أن يترك زوجته معلّقة لا يطلقها، ولا تتمكن المرأة في هذه الحالة من أن تتخذ لها زوجاً آخر. ويشير إلى أن الزوج قد يقبل "رشوة" قوامها عدد من الإبل ليعلن طلاقه من زوجته، ولكنه قد لا يقبلها فتظلّ المرأة الناشز من دون زواج. وأشار بوركهاردت إلى أن هناك عدداً كبيراً من حالات النشوز في عنزة. ويضيف أن من المعتاد أن يتقدم أخو الزوج المتوفى للزواج من أرملة أخيه، ومن النادر أن يُرفض طلبه، ولكن يحق لتلك الأرملة أن تتزوج بآخر إذا رغبت، فليس ثمّة إرغام يقع عليها من أي طرف. ويخبر أن الإرغام الوحيد في الزواج في تقاليد هذه القبيلة هو أن لابن العم حقّاً لا يحتمل الاعتراض في الزواج من ابنة عمه. وعلى الرغم من أنه غير مُلزم بالزواج بها، لا تستطيع أن تتزوج بآخر ما لم يأذن ابن العم بذلك.

فصّل بوركهاردت في وصف خيمة البدوي، وذكر أسماء كل حبل ووتد فيها، وكل قطعة قماش تتدلّى من أركانها. فالخيمة تنقسم إلى قسمين: الأيسر للرجال والأيمن للنساء. وعدّد بوركهاردت موجودات قسم الرجال في الخيمة كما عدّد معدات المطبخ التي تُوضع في قسم النساء. وأفاد بوركهاردت بأن الخيام تتفرّق في موسم الوفرة ولا تجتمع في البقعة الواحدة سوى ثلاث أو أربع خيام يفصل بينها وبين مجموعة الخيام الأخرى مسيرة نصف ساعة أو يزيد. وتجتمع الخيام بعضها إلى بعض حين تكون هناك ندرة في الماء والكلأ.

يقارن بوركهاردت بين البدو والأتراك، ويرى أن الأخيرين يشاركون البدو نقائصهم، ولكن ليست لهم أي فضائل تُذكر لتُشكر. والمقارنة باطلة في تقديرنا، لأن بوركهاردت عاش مع البدو وتجوّل في بلادهم وخالطهم، وأثبت في ما كتب – بحسب رؤيته – إيجابيات سلوكهم وسلبياته، لكنه لم يعش في بلاد الأتراك و لم يعايشهم. فكل الأشخاص الذين صادفهم من هذا العنصر هم من العسكريين أو غيرهم من العاملين خلف حدود تركيا القومية. كان بوركهاردت الذي عاش في هذا العصر الذي سادته روح الاستعلاء القومي في أوروبا – مثله مثل كل الرحالة الذين عاصروه أو أتوا بعده – يفاضل بين الأعراق. وقضت السياسة الأوروبية

في تلك الفترة تفضيل العنصر العربي عامة على التركي الذي يتولّى حكم العرب، وذلك بهدف تحريض المجتمعات العربية لتهديم هذا الصرح الإسلامي الجامع الذي أخذ الأتراك أنفسهم يعملون على هدمه حين سادت لديهم الروح القومية وأحسّوا ما ادّعوه من تمييز عرقي على العرب، ففقدوا بذلك الشرعية الإسلامية التي أكسبتهم حكم بلاد العرب وغيرهم من المسلمين. ولربما كان بوركهاردت في سعيه لتفضيل العنصر العربي استجداء لإثارة خيال قارئه الغربي بتفضيله حياة البادية على حياة المدينة. كان بوركهاردت من الرحالة الغربيين القلائل الذين أدخلوا العنصر الأوروبي في المفاضلة مع عنصر البدو، فأنصفهم ما وسعه ذلك، ولكن العديد من الرحالة الآخرين لم يدخلوا العناصر الغربية في المفاضلة بين الأعراق، إلا إذا اعتبرنا أن الهنود الحمر من الغربيين. فقد قارن أحد هؤلاء الرحالة البدو بالهنود الحمر، ووجد أن كلا العنصرين لا يستحق الحياة ولا حتى تحت أديم سمائه.

أما الوهابيون فقد تناولهم بوركهاردت في كتابه: **البدو والوهابيون**، بطريقة علمية أكثر مما فعل الرحالة السابقون له. وأشار إلى ذلك بقوله إن ما جرى نشره عنهم خاطئ ومتناقض، ولا يعطي للقارئ صورة صحيحة كالصورة التي يحاول نقلها لهم من أميز ما وقف عليه من مصادر في الشرق. ومع ذلك يعتذر هذا الرحالة بأنه لم يتمكن في فترة وجوده في الحجاز من لقاء أي من أهل نجد الذين أصبحت الحجاز مغلقة أمامهم بسبب الحروب التي يشنّها محمد علي باشا، ويرى أن مواطني نجد مؤهلون أكثر من غيرهم لتقديم تفاصيل دقيقة موثوق بها عن الوهابية، وأن البدو الذين التقاهم من الذين دخلوا في هذا المعتقد الجديد يجهلون قواعده وكنهه بنحو مطبق. وبعد هذه المقدمة الموضوعية، يدخل بنا بوركهاردت مجال حكومة الوهابيين "ودينهم" الذي ينفي عنه أن يكون جديداً، فهم طائفة من المسلمين "المتطهرين"، أما حكومتهم فهي أبوية يقوم على رأسها شيخ كبير يمسك بيده السلطتين الروحية والزمنية، ويمارس سلطاته على النمط ذاته الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعله مع الذين قبلوا بالإسلام ديناً لهم.

يذهب بوركهاردت إلى أن عبد الوهاب، فقيه عربي، هو مؤسس هذه الجماعة. زار عبد الوهاب عدداً من المدن الرئيسة في الشرق وتقلّب في مدارسها وأصاب اقتناعاً بأن الإسلام قد أصبح على غير صورته الأولى، فقد داخلته البدع و"خرّبته تماماً"، وأن عامة أهل الشرق، الأتراك منهم بصفة خاصة، قد غدوا مهرطقين. ولم تصادف التعاليم والأفكار الجديدة التي بشّر بها هذا الفقيه رواجاً في شبه الجزيرة العربية التي ساح فيها طويلاً، إلى أن استقرّ هذا الفقيه أخيراً مع أسرته في الدرعية، في وقت كان فيه محمد بن سعود هو الشخص الرئيس في تلك البلدة. "أصبح هذا الشخص أول المتحولين، وتزوج من ابنة الفقيه بعد ذلك، وتداخلت الأسرتان تداخلاً ذابت فيه الفوارق حتى بات يُظنّ أن هذه الأسرة هي الأسرة الأخرى".

ويستطرد بوركهاردت فيقول إن عبد الوهاب، مؤسس هذه الطائفة، يرجع بنسبه إلى الوهبة من بني تميم التي هي من القبائل المتحضرة وتسكن قرية الحوطة بصفة رئيسة. وتقع الحوطة على مسافة خمسة أيام سفراً في اتجاه وادي الدواسر في الجنوب. "وهناك ولد عبد الوهاب". وتوجد في قفار في مقاطعة جبل شمر مستعمرة أخرى لبني تميم حيث يستقر أحفاد جماعة من بني تميم كانت قد هربت من الحوطة حين وقع عليها أن تؤدي دية عن قتيل. كذلك توجد لهم حاضرة ثالثة في دائرة نفوذ باشا بغداد في المنطقة الواقعة بين الحلة ومشهد علي. ويمكن التعرف إلى التميمي بتميزه على سائر البدو بقامته الفارعة وجبهته العريضة ولحيته الكثّة. أما عائلة آل سعود، "المؤسس السياسي" للحكومة الوهابية، فتعود إلى قبيلة المساليخ من عنزة. وتُعرف عشيرة المساليخ بمقرن أو مجرن كما ينطقها البدو. استقرّت هذه الأسرة في الدرعية وأصابت في تلك القرية نفوذاً جعل عبد الوهاب يسعى إليهم. وأصبح محمد بن سعود هو الأول الذي اتخذ لنفسه لقب الأمير، ولكن قوته القتالية كانت ضعيفة في البداية، ويُروى أنه خاض مناوشاته الأولى مع بعض أعدائه بسبعة رجال من الهجّانة فقط.

يعبّر بوركهاردت عن اعتقاده بأن رصد الحقائق التي تتصل بتاريخ الوهابية أمر يسير، لأنه سار على النمط ذاته الذي يتكرر في الصحراء يومياً، "قبيلة يسعفها الحظ حين تغير على أخرى، فتصيب بالسلب الذي تصيبه من الغنائم قوّة تمكنها من مدّ نفوذها على جيرانها". وقد تمكن عبد العزيز وابن سعود، وهما حفيدا محمد المؤسس الأول من فرض نفوذهما في شبه الجزيرة العربية، ووصلا بسلاحهما إلى أقصى ركن فيها. وأخذا ينشران مبادئ ديانتهما التي تمكنا بها من أن يصيبا نفوذاً سياسياً يتوافق مع تلك المبادئ، ما جعل العرب يعترفون لهما بالقيادة الروحية والزمنية على شاكلة ما حدث في بداية ظهور الإسلام. ويضيف بوركهاردت أنه يرى أن "من الضروري توضيح بعض المبادئ التي تأسّس عليها هذا الدين وقامت عليها هذه الحكومة". وينفي هذا الرحالة ما أشيع من أن الوهابية تمثل ديناً جديداً، بل سعت جهود عبد الوهاب لإصلاح "مفاسد المسلمين" ونشر الدين الحقّ في أوساط البدو الذين هم مسلمون ولكنهم كانوا يجهلون فقه هذا الدين ولا يلتزمون بأداء فروضه. وكما هي حال المصلحين جميعهم، فإنهم يعانون باتهامهم من سوء الفهم من أعدائهم وأصدقائهم عندما يدعون إلى أمر جديد غير مألوف. فعندما سمع الأعداء بهذه الطائفة الجديدة التي تتهم الأتراك بالهرطقة ولا تغالي في "احترام محمد" صلى الله عليه وسلم، جرى الاقتناع بظهور دين جديد، "وأن الوهابيين ليسوا مهرطقين فقط ولكنهم في الحقيقة كفار". وقد أكد الشريف غالب هذا الاعتقاد الذي غذّاه الخطر الماثل الذي ساد جيرته من الباشوات. ويرى بوركهاردت أن شريف مكّة ظلّ خصماً لدوداً يقف بعناد في وجه امتداد القوّة الوهابية، فجعل همّه أن يحقق مصالحه بتعميق الفجوة بين هؤلاء الإصلاحيين الجدد وبين الإمبراطورية التركية، ولذلك نشط في إشاعة تقارير كاذبة تؤكد أن الوهابيين كفار حقّاً، وذلك

كي يجعل كل محاولة للتقرب من الوهابيين للتفاوض معهم أمراً غير مثمر ولا ناجع. أما باشوات بغداد ودمشق والقاهرة فقد سعوا من جانبهم لإبراز صورة أكثر قتامة عن هؤلاء الوهابيين بحسبانهم معارضين "للإسلام التركي". أصبح من مصلحة هؤلاء الباشوات تضخيم مشاق طريق الحجّ وبيان جسامة أخطاره. فقد كان الأتراك يرسلون حرساً لمرافقة قوافل الحجاج، ووجد الباشوات أن الاعتذار بتلك المخاطر يجنّبهم المساءلة حين تقع حادثة ما لتلك القوافل، كما يمكنهم أيضاً أن يمنعوا قيام تلك القوافل والاعتذار بعدم الأمن في الطريق. يضاف إلى ذلك أن بعض الحجاج الذين تمكنوا من الوصول إلى مكّة المكرّمة "ولحقتهم إساءة من الوهابيين أو أولئك الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مكة ينشرون حين يعودون إلى الديار صوراً تُضخّم معاناتهم وتبالغ فيها لأنهم يفتقرون إلى الحياد لما أصابهم من ضرر". وبناءً على ذلك فلن يكون من المستغرب أن ينتشر في الشرق كله اتهام الوهابيين بأنهم يؤسّسون ديناً جديداً، وأنهم يُعاملون الأتراك بقسوة بالغة لكونهم مسلمين، يضاف إلى ذلك أن عامة الوهابيين لم يعمدوا إلى دحض هذا الاتهام، لأنهم بدو لم يكونوا قبل الدعوة الوهابية يعرفون من الإسلام شيئاً، وحين رُدّوا إلى هذا الدين بدا ذلك في نظرهم ديناً جديداً، خاصة حينما ينظرون إلى الممارسات التي يقوم بها الأتراك وأهل المدن ويقارنونها بالتزامهم. إن روح التعصب التي باتت تحرك هؤلاء البدو الذين لم يتمكنوا من رسم خط فاصل لما عليه الأمر حرّضتهم، من دون شك، على اعتبار الأتراك كفاراً، وقد بادلهم الأتراك هذا الاتهام. ويشير هذا الرجل إلى أن بعض "المثقفين السوريين والمصريين، على قلّتهم"، من الذين ذهبوا لأداء فريضة الحجّ ووجدوا الفرصة للتفاكر مع فقهاء الوهابيين، عادوا إلى ديارهم مقتنعين بأن ما يدعو إليه هؤلاء البدو هو الإسلام الحقّ. فعلى الرغم من أن آراء الجانبين لم تتطابق في بعض مساراتها، رأوا أن من الظلم نعت الوهابيين بالكفر. وإذا تجرّأ بعض هؤلاء المثقفين على البوح بما يعتقدون به، فإن صوتهم سيبدو خافتاً لن يعلو على هذا الضجيج المثار، وستلاحقهم، إضافة إلى ذلك، تهمة ضعف إسلامهم. وحين جرى بعد عام ١٨٠٣م اعتراض قوافل الحجّ ومنع الوهابيون وصولها إلى مكّة المكرّمة، ازداد الناس اقتناعاً بأن الوهابيين ألدّ خصوم الإسلام. ويفيد بوركهاردت بأن ما كتبه البعض شرقاً وغرباً في هذا الشأن ذهب إلى أن الوهابيين استحدثوا ديناً جديداً يعترف بالقرآن الكريم لكنه يلغي فريضة الحجّ. وسادت هذه الفكرة العموم، ولكنها لم تجد قبولاً من بعض الأذكياء من الحجاج الذين كتب بعضهم في هذا الشأن بعد أن استمد أحدهم معلوماته من أحد العاملين في بلاط سعود في الدرعية. كذلك استبان العديد من الحجاج حين انفتحت الدروب إلى مكّة، بعد أن استولى محمد علي باشا على الحجاز، خطل هذا القول وأدركوا أبعاد المؤامرة التي قام بها الشريف غالب والتي ما عادت تنطلي على أحد. وأثار بعض هؤلاء الحجاج مع أهل مكة أسئلة تتعلق بهذا الشأن.

يخلص بوركهاردت إلى أن سعود كان يحركه "اعتقاد غريب" بأن أهل المدن باتوا يجهلون

دينهم جهلاً مطبقاً، ما دعاه حينما استولى على الحجاز إلى أن ينشر في مكّة المكرّمة نسخاً من كتب العقيدة، وطالب أهل المدارس الفقهية المختلفة فيها بأن يحفظوا ما ورد في تلك النشرات عن ظهر قلب ويتقيدوا بالعمل بما جاء فيها. و لم تكن محتويات النشرات تتجاوز ما يعتقد به الأتراك "الأكثر أرثوذوكسية"، واكتشف سعود أن أهل مكة يعرفون تلك الأصول أكثر مما يعرفها أتباعه. ويسترسل هذا الرحالة فيشير إلى أن المبادئ الرئيسة في عقيدة الوهابيين تتطابق تماماً مع كافة المدارس الفكرية الإسلامية في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي، من اعتبار القرآن الكريم والسنّة المطهرة الأساس لكافة القوانين والتعاليم المنتظمة لهذا الدين، إضافة إلى مفسّري نصوص القرآن المحترمين (يقصد السلف الصالح). ويرى الوهابيون – تأسيساً على هذه القاعدة – أن الإسلام قد خالطته الكثير من الأفكار الخاطئة والممارسات (البدع) التي أبعدته عمّا كانت عليه الحال في عهود الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم أجمعين. كذلك كشف الوهابيون عن حالات عدّة خالف فيها الأتراك المبادئ الأولية للإسلام، وهذا أمر يعترف به الأتراك أنفسهم. ويعترف بوركهاردت بأنه غير مؤهل للحديث في هذا الموضوع ليقارن بين آراء الفريقين ويحكم فيها، وأشار إلى أنه سيكتفي في هذا الصدد ببيان بعض نقاط الخلاف الأساسية بين الفريقين.

أولاً: لا يقرّ الوهابيون "التجلة الزائدة" التي يبديها الأتراك للرسول صلى الله عليه وسلم التي ترفعه إلى مرتبة المعبود تقريباً، كما لا يقبلون منهم تعظيم عدد من "القديسين" (يقصد الصحابة والصالحين) وتوقيرهم إلى درجة تصل إلى نوع من أنواع العبادة. ويؤيد بوركهاردت الوهابيين في ما ذهبوا إليه في هذا الصدد، ويضيف أن الأتراك أنفسهم يعترفون بذلك، فالقرآن الذي يعترفون بأنه يمثل "شريعتهم المنزلة" يجعلهم يؤمنون بأن الرسول بشر غير خالد، ومع ذلك فإن "إفراطهم في حبه" لا يجعلهم يستوعبون ذلك ويعملون به. وهنا يخلط بوركهاردت حين يظن أن فقهاء الأتراك يعتقدون بأن الرسول الذي توفي ودفن لا يزال حياً في قبره، وأنه على اتصال "بحبيبه الله ما يجعل المؤمنين يلجأون إليه". ويضيف أن الأتراك لا يصلّون على النبي (يقصد يعبدونه) بوضوح، لكنهم حين ينطقون باسمه صلى الله عليه وسلم يفعلون ذلك بتوسل بالطريقة نفسها التي نستغيث بها حين نقول: يا إلهي. وهنا يكمن الخلاف الكبير الذي جرّ عليهم غضب الوهابيين. كذلك يبدي العديد من الأتراك حين يزورون قبر النبي من آيات التعظيم لمسجده كتلك التي يبدونها في حرم مكة الكبير، ويبذلون من التوسلات والابتهالات الشيطانية، كما يقول الوهابيون، ما ينزل بمستوى هؤلاء الأتراك إلى الكفر المنحط لأنهم يخلطون بين المخلوق الضعيف والخالق البارئ. ثانياً: يلقى العديد من الشيوخ (الصالحين) قدراً من التبجيل الذي يصرفه الأتراك للرسول وإن كان بقدر أقل. يوجد في كل قرية تركية وفي كل مدينة عدد من قبور لشيوخ مشهود لهم بالصلاح (الأولياء)، ما

أضفى عليهم قداسة جعلت المواطنين يعظّمون ذكراهم طوعاً ويقيمون على قبورهم القباب. وعند قبورهم يبذل الناس الدعاء إلى الخالق" حيث يتولى الولي الصالح تأييد توسلاتهم لأنه أقرب إلى عرش الإله منهم. وفي الحقيقة فإن هؤلاء الأولياء من المسلمين يلقون من التعظيم مثلما يجد القديسون في الكنيسة الكاثوليكية، وينسبون إليهم من الكرامات مثل تلك التي ينسبها الكاثوليك إلى قديسيهم".

يرد بوركهاردت هذه الممارسات إلى عصر الجاهلية، ويجادل في أن الوهابيين يعدّون الخلق كلهم سواسية في نظر الخالق، وأن التوسل باسم الولي والتشفع بعظامه البالية من شأنهما أن يُورثا الكفر، ويعتقدون أن البناء على القبور وزخرفتها حرام. وقد أورث هذا الأمر الوهابيين الذين راحوا يهدمون القباب المقامة على القبور معارضة قوية. فقد هدم الوهابيون هذه القباب في الحجاز واليمن ومنطقة ما بين النهرين وسوريا، وكان هذا بمثابة إعلان انتصارهم في تلك المناطق. وبما أن العديد من تلك القباب تتخذ مساجد، فإنها تلقى المصير نفسه وتهدم كذلك. لم تبقَ في مكّة قبّة قائمة على أساسها، فقد هدموا كل القباب التي كانت مقامة في مكان ولادته صلى الله عليه وسلم، ومكان ولادة أحفاده الحسن والحسين رضي الله عنهما، كما هدموا القباب المقامة على قبري عمّه أبي طالب وزوجته خديجة وهم يدعون: اللهم ارحم من دمّرها ولا ترحم من بناها. ويخبر بوركهاردت أن سعود كان قد أصدر أمره بهدم القبّة الكبيرة التي تقوم على قبره صلى الله عليه وسلم، ولكن البناء كان متيناً إلى الحدّ الذي أعجز المحاولات البدائية لهؤلاء البدو من أن تنال منه، وحدث أن سقط العديد من البدو من فوق القبّة أرضاً، فصُرف النظر بعد ذلك عن هذه المحاولة. ويردّ أهل المدينة هذا العجز "إلى تدخل السماء".

ثالثاً: القسم بغير الله يُعدّ عند الوهابيين انتهاكاً للشريعة، وكذلك بذل الصدقات (النذور) التي يجب ألا تذهب إلا إلى مصارفها التي نصّت عليها قوانين الشريعة وبالعدل الذي شرّعه محمد صلى الله عليه وسلم، وتبعه الخلفاء الأوائل في العمل به بنزاهة وتجرد. ويرى الوهابيون ضرورة التمسك بنصّ القانون لناحية عدم موالاة الكفار وأعداء الدين، والابتعاد عن كل ما من شأنه إثارة الريب، وعن كل مسكر وكل ما يمكن أن يؤدي إلى إثارة الغرائز من مخالطة النساء وغير ذلك، وألا يقوم المسلم بأي عمل يجافي الفطرة. ويتهم الوهابيون الأتراك بأنهم باتوا يقومون بكل هذه الممارسات علناً، وأن هذه الموبقات باتت ترد مع الحجاج القادمين إلى المدينتين المقدستين فلوثتهما. ودان الوهابيون سلوك التكبر والأنانية والمفاسد الأخرى التي تميز قادة القوافل، وأنكروا السلوك المشين لدى الأتراك من الغش والخديعة، واستهجنوا كل سلوك غير سوي مقارنة بالنقاء وبساطة الأخلاق التي جبل الوهابيون أنفسهم عليها. تمسك عبد الوهاب بالمبادئ الأصيلة التي قام عليها الإسلام، وساءه أن يرى تلك المبادئ تنتهك لدى شريحة كبيرة من أهل المدن التركية. لم يضع عبد الوهاب في اعتباره سوى العودة بالدين إلى

أخلاقه وفضائله التي كان عليها في البدايات، والتي أدركها ذلك الشيخ حين درس أميز الكتب التاريخية والفقهية الإسلامية التي تعود إلى ذلك الزمن. عمل الشيخ على تطهير الإسلام مما علق به من بدع ومما أدخله عليه "الأجانب" وكذلك الأتراك من سلوكياتهم في صلب تعاليم الإسلام القويم، وكان البدو أسرع تقبلاً لهذا الأمر من الآخرين. ويؤكد بوركهاردت أن عبد الوهاب لم يبتدع أي قانون أو قاعدة سلوكية جديدة في الإسلام، فقد جعل القرآن والسنّة مرجعيته التي لا يحيد عنها، وهو في ذلك لا يختلف عن الأتراك الأرثوذكس في شيء (يعتذر بوركهاردت عن استعمال كلمة أرثوذكس ويراها غير جائزة ولكنها تُقرّب المعنى)، فكلاهما يتبع الشريعة ذاتها، ولكننا نجد الاختلاف في أن الوهابيين عملوا للعودة إلى التطبيقات الأولى التي أهملها الآخرون فأضحت نسياً منسياً. وحين نلخص "الدين الوهابي" نجد أنه يعني في نهاية الأمر الدين الإسلامي ليس إلا. ويرى بوركهاردت نفسه مؤهلاً لبيان بعض الاختلافات بين الطرفين، لأنه عرفها من بعض المناظرات التي جرت بين علماء الأزهر وأحد الفقهاء الوهابيين في عام ١٨١٥م. فقد اجتمع هؤلاء العلماء مراراً بالفقيه الوهابي، وكان الأخير هو صاحب الحجّة الداحضة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ظلّ هذا الفقيه يستشهد على كل ما يقوله بالآيات والأحاديث التي كانت لا تعوزه أبداً، فقد كان يحفظها عن ظهر قلب. وأخيراً اضطر هؤلاء العلماء إلى أن يعلنوا أنهم لم يجدوا في الوهابية كفراً. ويرى بوركهاردت أن هذا الإعلان قد صدر رغماً عنهم، وهذا ما يجعله غير متشكك في صحته. كذلك قرأ العديد من علماء القاهرة كتاباً وضعه عبد الوهاب بنفسه، عالج فيه عدّة مسائل فقهية، وأعلن جميعهم بعد ذلك أنه إذا كانت هذه هي المبادئ التي تدعو إليها الوهابية، فهي لا تُعبّر إلا عن الإسلام الصحيح، وإنهم يؤمنون بكل ما ورد في ذلك الكتاب. وينتقد بوركهاردت العوامّ المتعصبين الذين نادراً ما يستطيعون تمثل روح المؤسس. اتّبع عدد كبير من هؤلاء العوام الوهابية وتمسك الكثير منهم بالقشور وعدّوها من الأساسيات، وذلك ما أعطى إشارات خاطئة لأعداء الدعوة إلى ظهور دين جديد. فإضافة إلى الحرب الشعواء التي شنّوها على قداسة الأولياء والصالحين، تعصّب بعضهم في مسائل اللباس، وفي تدخين التبغ. فالزي التركي الباذخ المبهرج لا يتناسب مع أصول السنّة، ولباس الحرير للرجال ممنوع تماماً، وكذلك تزيّنهم بالذهب والفضة، إلا اليسير منها. كره الوهابيون من الأتراك أثوابهم المبهرجة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يرتد عباءة مترفة، ومن الضروري على من يتبع الرسول أن يقتدي بسنّته وشكل لباسه، ويتقيد بأخلاقه. ويرى بوركهاردت أن المرء يستطيع أن يميز بين الوهابي، في شبه الجزيرة العربية، وغيره باللباس. فالعربي، إذا لم يكن وهابياً، يُدخل الحرير بنحو أو بآخر في لباسه، حيث يمكن أن تجده في في تطريز عباءته أو الرسم الذي في منديل رأسه. ويستطرد فيقول إن عدداً من علماء الأتراك قد أفتى بحرمة تدخين التبغ باعتباره ممارسة

ضارة، كما يعتبره المذهب المالكي "وهو أحد المذاهب الأرثوذكسية الأربعة" مكروهاً، وهذا هو السبب الذي جعل عدداً من العلماء في عدد من المناطق التركية لا يدخنون. و"رغب الوهابي أيضاً" في منع تدخين النباتات المخدرة التي يتعاطاها البعض في الشرق، مشيراً إلى أنها "ضدّ القرآن" وكذلك استعمال الغليون. وقد ضحّى أتباع الوهابي بتركهم التدخين تضحية عظيمة، وكان من الطبيعي أن يزداد عداؤهم للذين لا يزالون يتمتعون بهذا الضرب من الرفاهية، وكان التدخين أحد الأسباب الرئيسة التي سمّمت عقول الوهابيين تجاه الأتراك.

يضيف بوركهاردت أن الوهابيين عدّوا استخدام المسبحة، الذي انتشر على نطاق واسع في أوساط المسلمين، بدعة وحاربوها، لأنها ممارسة لم تثبت بالكتاب ولا بالسنّة. "وقيل إنهم منعوا تناول القهوة أيضاً ولكن ذلك لم يثبت عنهم، فهم يتعاطونها إلى درجة الإدمان". وينتهي بوركهاردت إلى القول إن عبد الوهاب حين جأر بدعوته لم يكن يفكر في قيام أسرة جديدة تحكم في شبه الجزيرة العربية، وذلك لأن قوته والقوّة التي كانت لأقاربه لم تكن ترقى إلى تحقيق هذا الطموح، ولكن حين دخل عبد العزيز بن محمد بن سعود في هذا الأمر واكتسب مباركة عبد الوهاب، اكتسب قوّة مكنته من إقامة حكومة "لا تتعارض بأي نحو من الأنحاء مع مصالح الأمّة العربية ورفاهيتها".

نهاية رحلاته

استقر الشيخ إبراهيم بن عبد الله، الاسم الذي اختاره بوركهاردت ليتنقل به في الشرق، في الحي التركي في القاهرة لمدة سنتين بعد عودته من الحجاز، وكان في هذه الفترة على صلة وثيقة بصديقه هنري سولت القنصل البريطاني. كتب الرجل عن مصر محمد علي وجنوبها وشرقها، وكان عليه بعدئذ أن يذهب غرباً ليستكشف فزان وجوارها. وظلّ بوركهاردت ثاوياً في القاهرة لسنتين كاملتين وهو ينتظر، فيما يقول، قافلة تأخذه في ذلك الاتجاه. ولا نعتقد بصدق قوله من عدم وجود قوافل طيلة تلك الفترة، فلم يعرف أن قافلة الحجّ من ذلك الاتجاه قد تعطلت، إضافة إلى أن العديد من جنود محمد علي باشا كانوا من أهل تلك النواحي وكانوا كثيراً ما يذهبون ويعودون. ونعتقد أن مهمة بوركهاردت في القاهرة لم تكن قد انتهت بعد. وبما أنه يسافر تحت هوية رحالة، فقد كان عليه أن يفسر سبب مدّ إقامته في القاهرة، فاضطر إلى الاعتذار بعدم وجود قوافل إلى فزان التي كان يمكنه أن يعبر إليها من أي قافلة مغربية.

توفي الشيخ إبراهيم بن عبد الله في القاهرة في ذي الحجة ١٢٣٢/١٥اكتوبر ١٨١٧ بداء الزحار عن اثنتين وثلاثين سنة. وأوصى الرحالة "صديقه" سولت بأن يتولّى المسلمون مراسم دفنه. وقد تمّ له ذلك، حيث دفن في مقبرة كبيرة للمسلمين كانت تقع خارج باب النصر. وقد

حمل شاهد قبره التعريف التالي : "هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج ابراهيم المهدي بن عبد الله بركهرت اللوزاني. تاريخ ولادته في المحرم ١١٩٩هـ وتاريخ وفاته بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة ١٢٣٢" ولا تقرّ الكتب الغربية في أدب الرحلة بصدق إسلام الرجل، وتعدّها شائعة عربية، فيما يمكننا أن نؤكد أن الرجل قد اهتدى في فترة ما بعد الحجّ. فما كتبه هذا الرحالة عن الوهابية، رغم ما ورد فيه من هفوات، يؤكد أنه كان على علم بالفروق بين الفرق في ما يخصّ العديد من المسائل الفقهية. يضاف إلى هذا أن الشخص الذي يحرص وهو ينازع الموت على أن يوصي بأن يُدفن في مقابر المسلمين ما كان له أن يكون كاذباً في لحظة الاحتضار التي لا تقبل الكذب. ويشير أحد أولئك الغربيين الذين كتبوا عن الرحلات الغربية إلى تأكيد عدم إسلام الرجل إلى "شائعة" أن الذين كانوا يجهزون الجثمان للدفن وجدوا شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله على باطن قدمه، و لم يحدثنا هذا الكاتب كيف يتيسّرللإنسان أن يكتب على باطن قدمه؟ وفي الحقيقة، فإن إسلام رجل في مكانة بوركهاردت – الذي هو من أوائل العاملين في استكشاف ما يدور في أراضي شبه الجزيرة العربية، في هذه الفترة المضطربة من التاريخ، ليُمكّن للسياسة البريطانية من أن تبني على ضوئه – يُعد طعنة نافذة للشعور الوطني في بريطانيا وفي الغرب عموماً. فالرجل الذي أرسل ليؤثر في توجهات ذلك المجتمع البدائي الغريب انخرط في تلك الثقافة، وذهب إلى أبعد من ذلك حين دخل في رحاب الإسلام الذي تعتبره الثقافات الغربية السدّ الذي يحول دون سيطرتها سلمياً على تلك البلاد. وفي هذا الصدد سخر الرحالة بيرتون مما سمّاها "القصة التي راجت في أوساط الأوروبيين" من أن الرجل أشهر إسلامه في مصر بعد عودته من الجزيرة العربية، وجلس في جامعة الأزهر لتدريس تلاوة القرآن، ويعيد بيرتون رواية القصة الساذجة التي تقول إن الفقهاء الذين كانوا يجهزون الجثمان للدفن وجدوا الشهادة مكتوبة على باطن قدمه دلالة على كراهيته العميقة للإسلام، ويضيف إليها أن شيخ الأزهر غضب عليه "غضبة مقدسة، وبضربة من سيفه جزّ رأسه عن جثمانه". ونعى بيرتون على الأوروبيين عدم تبرعهم لبناء قبر لبوركهاردت "مكتشف البتراء" سوى بعشرين جنيهاً فقط، وذلك "لأن المسلمين عدّوه رجلاً صالحاً".

الفصل الثامن

رحالة فترة سيطرة محمد علي باشا من مسؤولين وصعاليك متنطعين

ضمّ جيش محمد علي باشا الذي أرسله إلى شبه الجزيرة العربية بعض الأوروبيين. كتب بعضهم مذكراته عن فترة وجوده في المنطقة. وقد اعتبر النقاد هذه المذكرات ضمن الرحلة الأوروبية، ولكننا نعتقد أن مراجعة المؤرخ لهذه المذكرات يجب أن تختلف عن مراجعته لما كتبه الرحالة، ذلك أن للرحالة هدفاً معلوماً يوجه اهتمامه، أما هذه المذكرات التي كتبها هؤلاء العسكريون وأمثالهم فلا تزيد على كونها نوعاً من أنواع السيرة الذاتية أو المذكرات الشخصية، ما يجعلها أكثر براءة ممّا يكتبه الرحالة من ذوي الأهداف المحددة سلفاً، ولكنها قد لا تكون أكثر صدقاً من سابقتها، وقد تؤدي عن غير قصد من مُعدّيها إلى خدمة أهداف الاستعمار العالمي من فرنسي وبريطاني وغيرهما.

مذكرات موظفي حملات محمد علي في شبه الجزيرة العربية

لعل أول من يمكننا ذكره في هذا المجال طوماس كيث، ذلك الشاب الإيرلندي الذي كان يعمل طبالاً في فرقة موسيقى جيش إبراهيم باشا، ولكنه أظهر من الشجاعة والحصافة ما جعله يرتقي في وظائف ذلك الجيش حتى أصبح آغا المماليك وتَسمّى بإبراهيم. وما لبث طوماس أن أصبح في عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م حاكماً في المدينة المنوّرة. ومنهم أيضاً جيوفاني فيناتي الذي عمل في جيش طوسون باشا. ولد هذا المغامر في فرارا، وكانت أمّه قد نذرته لخدمة الكنيسة. وقد عمل جيوفاني في بداية حياته قسيساً، ثم انتقل للعمل مع القوات النابليونية في الكتيبة

الرابعة عشرة التي كانت تحارب في ألبانيا. وهرب جيوفاني من الخدمة العسكرية ليقع أسيراً في أيدي القوات العثمانية. ورفض الأسير جيوفاني الدخول في الإسلام، فسيق إلى العمل في المحاجر، وأعلن إسلامه بعدئذ، ولا ندري إن كان ذلك برغبة منه أو كان مكرهاً، وتسمّى بمحمد وأصبح حاملاً للمزمار لأحد القادة الأتراك. واضطر بعدئذ إلى الهرب إلى مصر بعد أن اكتشف ذلك القائد أن حاملِ المزمار قد أغوى زوجته. التحق جيوفاني في مصر بالحرس الشخصي لمحمد علي باشا، ثم ألحق بجيش طوسون في الحجاز الذي تلقّى في أول معاركه هزائم جعلت جيوفاني يهرب ليحتمي بمكة المكرّمة التي وصفها بأنها مدينة قد لا تكون كبيرة أو جميلة، ولكنها تملك شيئاً يجبر المرء على الخشوع والشعور "بالرهبة".

حين وفد محمد علي باشا إلى الحجاز استعطفه جيوفاني واعتذر عن هروبه فأعاد تعيينه، وخاض حينها بعض المعارك المظفرة قبل أن يعود إلى مصر مرّة أخرى ليعمل مترجماً لأحد الإنجليز. وارتكب الرجل في مصر العديد من السرقات والحماقات، ما يجعل مذكراته لا تزيد على كونها سيرة لصّ أفّاك مغامر ولكنها – على أي حال – سيرة تمثل نوعاً من أنواع أدب الرحلة الغربية في شبه الجزيرة العربية. فكل الرحالة الأوروبيين إلى شبه الجزيرة لا يخرجون عن دائرة المغامرين، كما لا يخرج العديد منهم عن دائرة الأفّاكين.

قد نجد في المذكرات التي تركها موريس تاميزيه الذي كان يعمل أميناً للفرقة الطبية المرافقة للحملة ضدّ عسير في عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م من المعلومات ما قد لا نجده عند كثير من الرحالة المحترفين. كان الرجل فرنسياً، ولكنه لم يكن يعمل في استخبارات فرنسا أو غيرها من الدول الأوروبية، إلا أن كتابه الذي وضعه في جزءين أدى إلى كشف منطقة عسير لأوروبا. وقد أفادت مذكراته بعثة من هيئة أركان الحرب الملكية الفرنسية وصلت إلى جدّة في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م كانت وجهتها إلى الحبشة، كما أفاد منها العديد من الرحالة الأوروبيين الذين أتوا بعده.

وصل تاميزيه إلى جدّة في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م. ويحكي تاميزيه عن جدّة التي تقول المرويات التي نقلها إنها اكتسبت اسمها من أم الخلق أو بالأحرى جدّتهم. فهي – كما يظهر قبرها – سيدة عملاقة يمتد جسدها الراقد في ذلك القبر بين المدينة المنوّرة وأفريقيا. أما القبة التي تُعين هذا القبر في جدّة فتقوم عند سرتها. وكتب تاميزيه في سكان جدّة وأحوالهم المعيشية، وأبدى اهتماماً خاصاً بالمجموعات الأفريقية التي تقطن هناك خاصة التكارنة الذين يفدون من بلاد التكرور عبر دارفور إلى منطقة ما عند موقع الخرطوم ويتجهون من ثم شمالاً إلى دنقلا فشرقاً إلى سواكن أو مصوع حيث يعبرون البحر الأحمر إلى جدّة. ويرى تاميزيه أن حكومة التكرور أو برنو كانت تُشجع هذه الرحلات عبر دارفور وكردفان وفيافي السودان التي يقطعها هؤلاء الحجاج سيراً على الأقدام، في رحلة يكسبون خلالها ما يعتاشون به من

بيع بعض العقاقير البلدية وجذور النبات التي منها نبتة "عرق المحبة" وكتابة التعاويذ والرقى المختلفة. ويستقرّ العديد من هؤلاء التكرور في السودان حين تعوزهم التكاليف أو يغلبهم الإجهاد، فلا يواصلون رحلتهم إلى الحجاز ولا إلى أهلهم يرجعون. ويواصل بعضهم الرحلة ويتوفى عدد كبير منهم في الطريق. وحين يصل العدد القليل من هؤلاء القوم إلى الحجاز لا يفكر إلا البعض القليل منهم في العودة إلى بلاده للمشاقّ التي خبروا حدّتها في رحلة قدومهم، فيستقرّون هناك مع نسائهم اللائي صاحبنهم، ولا يتمكن من يرغب في العودة إلى بلاد برنو بعدئذ من ذلك إلا من يتمكن من أن يتحدى مشاق طريق العودة الطويلة، ولا يمثل هؤلاء إلا نفراً قليلاً. وهكذا - في ما يعتقد تاميزيه - نجحت حكومات تلك المناطق في تحقيق أهدافها في تقليص أعداد السكان لتفي تلك الأراضي الجرداء في غرب أفريقيا بحاجات سكانها. أما في جدّة، فيلاحظ تاميزيه أن التكرور يسكنون على مشارفها في أكواخ تعوف حتى كلاب أوروبا سكناها. ويعمل الرجال سقّائين وحمّالين وفي مهن "حقيرة" أخرى، أما النساء فيعملن في صناعة بعض الآنية الفخارية.

يسترعي تجار الرقيق الذين يفدون إلى جدّة من سواكن نظر تاميزيه بما يمتازون به من أنفة وإباء. وهم في ذلك شأنهم شأن العرب، لكنهم يمتازون عنهم بمزيد من الطيبة واللامبالاة. ويصف تاميزيه وجوه هؤلاء الجماعة ويقول إنها دقيقة التقاطيع حسنة السمات، أنوفهم بارزة مستقيمة وعيونهم تحاكي عيون النسور حدّة ولمعاناً. أما شعورهم فهي فاحمة السواد كثّة طويلة، يدهنونها بالسمن ويجعلون بعضاً منها في شكل حزم على رؤوسهم يغرسون فيها قضيباً صغيراً ويتركون قدراً منها جدائل مسترسلة على أكتافهم. ويضيف أن ثيابهم بسيطة ولكنها أنيقة ونظيفة تعكس صورة الرفاهية التي يعيشونها.

يتحدث تاميزيه عن نشأة ميناء جدّة وينسب ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ويحكي أن بعض صائدي الأسماك وجدوه صلى الله عليه وسلم في جزيرة قبالة جدّة وقدموا له يد المساعدة فقدم إلى جدّة. ولبث الرسول هناك فترة يفكر في مغادرة شبه الجزيرة العربية التي لم يجد في أهلها إلا جحوداً وإنكاراً لرسالته، ولكنه قرر بعد تدبر أن يهاجر إلى المدينة المنوّرة. ويكتب تاميزيه في جزء آخر من كتابه عن قريش، وينسب إلى بعض الرواة قولهم إنه لم يبق منهم سوى ثلاثمئة فرد، فقد "لعنهم" الرسول صلى الله عليه وسلم بتنكرهم لرسالته. ويقول تاميزيه إنه وجد في من بقي من القرشيين فخاراً وميلاً إلى الاستقلال. ولا نجد من جانبنا أثراً لهذه القصة في السيرة النبوية، وخسىء الرجل، فالرسول الرحمة المهداة لم يكن فاحشاً ولا لعّاناً، وكان أبرّ الناس بأهله وصحابته.

نقل تاميزيه العديد من الأساطير السائدة في جدّة والطائف والكرامات المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ونعتقد أن روايته لهذه وتلك عادة ما تجنح إلى الزيادة والنقصان، وغالباً

ما تجنح إلى المبالغة. فكثير من مروياته تتعارض حتى مع مفاهيم العامة كما رأينا - في ما رواه هذا الرجل عن قريش على سبيل المثال -. كتب تاميزيه عن مضمن الغزالة، ويحكي أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى يهودياً ابتاع غزالة منتفخة الضرع، فطلب إليه أن يطلق سراحها لتُرضع صغارها وضمن له عودتها إليه إثر ذلك. فامتثل اليهودي وأطلق سراح الغزالة التي ما لبثت أن عادت إليه مساءً فذبحها وأكلها. ولما علم الرسول في اليوم التالي أعاد الحياة إلى الغزالة التي عادت إلى صغارها تاركة آثار أظلافها منقوشة على الصخر! ويضيف أن أكوام الحصى الموجودة على بعض الصخور في تلك المنطقة التي تضمّ آثاراً عديدة تُنسب إلى الرسول الكريم قد وضعها الزوار في ذكرى زيارتهم لتلك المناطق. وامتدت الأساطير التي رواها تاميزيه إلى البقرة العربية، فيروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أصيب بالإجهاد يوماً، فركب على ظهر بقرة. ولما كان صلى الله عليه وسلم معتاداً ركوب البعير ذي السنام، فقد برز للبقرة العربية سنام لجعل ظهرها أجلب للراحة لمتطيها الكريم.

في الحقيقة، إن رواية مثل هذه الأساطير التي وردت في مذكرات هذا الرجل - إذا صحّت - فإنها تكشف جانباً من تخلف المجتمع الحجازي حضارياً، وتفيد بتغوّل الخرافات وتداخلها في دائرة المعتقدات. وعلى الرغم من اعتقادنا بأن الأوروبيين كانوا حين يكتبون عن الشرق في تلك الأيام يزيدون في الروايات الغريبة التي يثبتونها لقرائهم لتكتسي الغريب المثير، قد لا يجد الباحث العربي في تاريخ تلك الفترة شواهد تؤيد صدق مثل هذه الروايات.

يرى تاميزيه في الجمل صديقاً للبدوي. فالبدوي يتحدث إلى البعير، رفيق سفره، يخاطبه وينشده قصائد الحب، ويلاطفه ويبثّه شجونه، ويروي له عن آبائه وأسلافه. وينصت الجمل إلى حداء صاحبه باهتمام بالغ، ويستلذّ بتلك الألحان البدوية، ويعبّر عن سعادته بحركات شدقيه وبأسنانه، فينطلق بصاحبه ليقطع الفيافي والقفار ويطوي المسافات البعيدة في رحلات يروي أخبارها الخلف عن السلف. أما إذا آنس البدوي من جمله جفاءً أو تقاعساً، فإنه ينتهره ويرميه بصنوف السباب، ولا يتورّع عن نعته بالنصراني، وفي هذا اللفظ - في ما يقول تاميزيه - ما يحطّ من شأن ذلك الحيوان.

وصل تاميزيه إلى الطائف في أوائل المحرم ١٢٥٠/مايو ١٨٣٤ في طريقه إلى عسير، بعد أن عبر إليها بحره وحداء ووادي فاطمة. وحين وصل إلى وادي السيل، كتب عن المراعي الخصبة وخيل قبيلة عتيبة. وأشار إلى أن لكل قبيلة ديارها التي تحدد حدودها بخطّ من الحصى أو بصفّ من الأشجار الصحراوية. وأشار إلى أن للقبيلة الحقّ في مصادرة الماشية التي تدخل حدودها المعلومة. وحين وصل تاميزيه إلى الطائف، عدّد ما حلّ بها من كوارث من أثر الحروب والطاعون منذ عام ١٨٠٢م، وقال إن عدد سكانها قد تقلّص في هذه الفترة من عشرة آلاف نسمة إلى ألفين وخمسمئة فقط.

يتحدث تاميزيه عن أودية الطائف التي تفترش الخضرة بساطاً مخملياً، وعن مناخها المعتدل، وسمائها الصافية اللألاءة. يبذر أهل الطائف القمح في أكتوبر ويحصدونه في مايو، أما البرسيم فيُجزّ حوالى ثلاث مرّات. وأفاض الرجل في الحديث عن الحيازات الخضراء التي يمتلكها في الطائف الأشراف وبعض الأئمة وكبار الموظفين والتجار الأثرياء. ولاحظ تاميزيه أن تلك المزارع كانت تُروى بالنواعير التي يديرها العبيد. ولا يحتاج صاحب المزرعة إلى أن يراقب أولئك العبيد، فالمراقبة مستمرة ما دام صاحب المزرعة يسمع صرير الناعورة. أما المزروعات في تلك المزارع فهي كثيرة ومتنوعة، منها الورد الطائفي الشهير. وتنتج مزارع الطائف مختلف صنوف الفاكهة التي عدّد منها الموز والشمام والبطيخ والخوخ والتوت والتين والإجاص والدراق والتفاح والجميز والمشمش والرمان. وتتدلى عناقيد العنب الأبيض والأسود من العرائش. أما بساتين الخضر فعامرة بالخيار والقرع والباذنجان والفلفل والبصل والبامية والملوخية والطماطم. ويلاحظ أن بساتين النخيل في الطائف قليلة العدد جداً. ويصف تاميزيه خروج مالكي هذه المزارع المصطافين فيها في مواقيت الصلاة إلى المسجد وهم على بغالهم المسرجة بسروج أنيقة، يسير عبيدهم إلى جانبهم ليمدّوا لهم سجاجيد الصلاة في المسجد. ويرى تاميزيه أن أصحاب اليسار في الطائف عادة ما يجتمعون للّعب بالنرد والشطرنج، ولكنهم لا يقامرون. وتدور عليهم في مجالسهم تلك أكواب القهوة والشاي، وهم يتحدثون في السياسة عادة، ولكنهم لا يخوضون في الموضوعات المتصلة بالدين والعبادات إلا لماماً.

تحرك الجيش بقيادة أحمد باشا في ١٩ صفر ١٢٥٠/٢٥ يونيو باتجاه بيشة. يردّ تاميزيه القائد أحمد باشا، وهو من أقارب محمد علي باشا، إلى أصول متواضعة، شأنه شأن محمد علي باشا نفسه. وقد لا تعني هذه الملاحظة شيئاً للمؤرخ، فالعسكريون من ذوي الأصول المتواضعة قبضوا على مقاليد الحكم في كافة البلاد العربية غير الواقعة تحت الحكم القبلي التقليدي العتيق، منذ العصر العباسي الأول، ولكنهم كانوا – بداية – يتولّون المهمات التنفيذية للحكومة، أما الدولة التي كان الخليفة على رأسها فكانت تحكمها الشريعة التي يراقب الفقهاء الزاهدون تطبيقها. وكان الخلفاء عادة ما يُجلّون الفقهاء أو يرهبونهم، وما كان يُمكن عسكر السلطان المتنفذين إلا أن يوظّفوا قوّتهم التنفيذية الضاربة لخير المجتمع. أما حين يتخلى الفقهاء عن الزهد ويشتغلون بتقاسم ملذّات الدنيا مع السلطان وينافقونه ويتخلون عن دورهم في مراقبة الحكام، فعادة ما يستبد العسكريون الذين فقدوا قيادة السلطان المشغول بملذاته، كما أمنوا مراقبة الفقهاء المنتفعين أو الخائفين، وما يلبث الظلم أن يسود تلك المجتمعات ويستشري. وقد عرفت المجتمعات العربية هذا الوضع منذ العصر العباسي الثاني حينما غدا الخليفة ذاته في كثير من الفترات تحت سطوة العسكر. وفي العهود المملوكية حيث الحكام من العسكريين بصفة شاملة، كان منهم من يستمع إلى الفقهاء برغبة منه أو عن رهبة من الفقهاء الجسورين

الزاهدين، فيسود العدل وتأمن الأمة نتيجة لذلك. ولكن العديد من هذه الطائفة من الحكام ما كانوا يهتمون لشرع أو يخشون فقيهاً. ولا مندوحة من القول إن محمد علي باشا كان امتداداً لهذه الزمرة الأخيرة. تمكن هذا الجندي المنحدر من أصول متواضعة وغير مصرية من مقاليد حكم مصر، وساقه طموحه العريض لينشئ فيها أسرة مالكة. وما كان لطموحه أن يتحقق إلا بعد أن أطاح جماعة الفقهاء الذين قادوا الثورة ضدّ الفرنسيين الغزاة وحرروا مصر ثم اختاروه عسكرياً ليقوم بالمهمات التنفيذية التي يقوم بها العسكر في المجتمعات الإسلامية. وما لبث محمد علي أن أفسد الفقهاء الذين حملوه إلى سدّة الحكم بالرشوة أو أرعبهم بالوعيد. وقد حذا كثير من العسكر من ذوي الأصول المتواضعة الذين تولوا بعدئذ حكم العديد من البلاد العربية حذو الباشا، حتى غدت لاحقاً ثقافة الحكم في البلاد العربية ثقافة عبيد. وظلّت ثقافة الرقيق في الحكم ناشطة في مضمونها، تستعبد الشعب في مجموعه وتسترضي السادة خارج الحدود. تخلّى العديد من فقهاء الأمّة الذين أفسدتهم سياسة العصا والجزرة عن مهماتهم وقعدوا عن تقديم المشورة الملزمة لأولئك المتنفذين من العسكرالحكام الذين لم يكونوا في بداية الأمر إلا سيفاً في أيد قادة المجتمع، ففسدت بذلك السياسة العربية في العصر الحديث.

يلاحظ تاميزيه أيضاً أن علاقة قادة الجيش كانت في مجملها جيدة مع المجموعة الأوروبية المرافقة لهم التي كانت تهيّئ لهم أجواءً من الترفيه كان ينفر منها شيوخ العرب المرافقون بحسبان أنها من ممارسات الكفار. ويتهم تاميزيه قادة جيش الباشا بالقسوة والإساءة إلى جنودهم وعدم المبالاة بهم. ويضيف في موضع آخر أن الجنود كانوا يتلقّون عشرة شلنات مكافأة عن كل زوج من آذان قتلى الأعداء. وفي الحقيقة فإن هذه الممارسة الهمجية ما كان يجب أن تلفت نظر هذا الأوروبي لأنها ممارسة أوروبية في الأساس. وقد كان البرتغاليون، طلائع الاستعمار الأوروبي إلى الشرق، يدفعون لجنودهم مبلغاً عن كل رأس لقتيل. وحين ازدادت أعداد القتلى وبات ترحيل رؤوسهم إلى البرتغال يمثل مشكلة حقيقية لكثرة ما جزّوا من رؤوس، توصّلوا إلى صلم أذني كل رأس لترحيلها لتُحسب مكافآت الجند على أساس أعدادها. ولعل من المؤلم أن نذكر أن جند البرتغال باتوا بعد ذلك إذا وقعوا على جماعة من المواطنين انبروا يصلمون آذانهم أحياءً قبل قتلهم، ليظفر كل منهم بأكبر عدد من الأذنين بدل من أن يُضيّع وقته في قتل أصحابها.

نصل مع تاميزيه المصاحب لجيش أحمد باشا إلى خميس مشيط، ويحكي لنا عن المعركة التي وقعت هناك وما جرى فيها من قتل وقطع للرؤوس وصلم للآذان، ثم ما كان من مغادرة عايض عاصمته أبها إلى قلعة مناظر بعد أن أصاب الهزيمة، ثم عن معاهدة الصلح التي عُقدت بين الجانبين في ٢٦ سبتمبر وانسحاب الجيش بعد ذلك عن طريق تهامة عسير. ووصف تاميزيه في طريقه مدينة أبو عريش وأهلها ومزروعاتها.

لم يكن تاميزيه عاملاً مع الفرنسيين، فقد كان في خدمة جيش محمد علي باشا، ولكنه وظّف مذكراته - قصد أو لم يقصد - في خدمة الأهداف الاستعمارية لفرنسا التي أفادت منها في خططها لاستعمار القارة الأفريقية من جيبوتي شرقاً حتى السنغال غرباً.

همرتون وجوب

أدت حملة محمد علي باشا وما استتبعها إلى تحوّل في الاستراتيجية البريطانية لم يستمر لفترة طويلة. لم تكن بريطانيا تعمل أبداً للتدخل في ظهير ساحل الخليج الذي لم تكن تملك وسائل التدخل فيه ولا تطمع في مصادره الضئيلة. ولكن حين أرسل خورشيد باشا سعد بن مطلق المطيري لضمّ البريمي إلى سلطته، وجدت السلطات البريطانية نفسها مضطرة إلى التدخل ومدّ حزام أمنها الذي كان لا يفارق السواحل إلى الداخل، لوضع حدّ في رمال الداخل يقطع على خورشيد الطريق إلى الساحل في تلك المنطقة الحيوية لأمن الهند البريطانية. ووقع على هنيل، مقيم الخليج البريطاني، أن يرسل مندوباً من قبله لدعم قبائل منطقة البريمي بالمال والسلاح، والعمل على عقد مصالحة بين النعيم والظواهر وتوحيدهما في جبهة واحدة ضدّ التمدد المصري. واستدعى المقيم شيوخ القبيلتين المذكورتين، وقدّم لهم حين التقاهم في عجمان بعض المال والسلاح، وحرّضهم على العمل يداً واحدة لدرء "الخطر المصري" عن بلادهم. وأرسل هنيل مع شيوخ النعيم العائدين إلى بلادهم في ٦ ذي القعدة ١٢٥٥/٢١ يناير ١٨٤٠ الكابتن همرتون الذي يُعدّ أول الغربيين وصولاً إلى تلك الواحة.

كتب همرتون عن الواحة ونخيلها الباسق ووفرة أشجار التين والرمان وحقول القمح الشاسعة الممتدة على امتداد البصر. وقدم همرتون وصفاً للأفلاج التي تروي الواحة، وقال إنها عبارة عن قنوات متدفقة تحت الأرض تُستحدث فيها ثقوب في منطقة بعد أخرى تسيل منها المياه، إضافة إلى فتحات التهوئة التي يحتاج إليها العمال الذين ينظفون الأفلاج ويرمّمونها. وأضاف أن بعض تلك القنوات كان طويلاً جداً يصل في بعض المناطق إلى مسافة أربع عشرة ساعة سيراً. وأضاف أن أهل المنطقة يعتقدون أن الأفلاج من صنع سليمان، عليه السلام. كذلك كتب همرتون بالطبع عن دفاعات الواحة ووصف أسوارها بالمهترئة، أما قلعتها الضخمة المحاطة بعدد من الأبراج التي يعتقد أهل المنطقة بأنها حصينة مانعة فهي ليست بأحسن حالاً من الأسوار، وأنها لن تستطيع أن تصمد ولو لساعة واحدة أمام المدفعية. وأشار همرتون إلى أن مدافع البلدة تفتقر إلى الذخيرة، وأن أهل المنطقة قد استعاضوا عن الدانات، حين ردوا عن البلدة سعد بن مطلق، بقطع من الحديد وكتل من الصخور والجلاميد.

غادر همرتون البريمي في يوم ٢٨ يناير برفقة محمد بن عبد الله، حاكم البريمي، مروراً بوادي

الجزي ووصل إلى صحار في ٣٠ منه. وجاء في مذكراته وهو يغادر البلدة "لو كنت وحشاً من نوع نادر لما أثرت كل هذا الفضول في أوساط أهل المنطقة الذين هرعوا زرافات ووحداناً لمشاهدة هذا الإنجليزي الذي يزور البريمي". و لعلنا نذكر في هذا الصدد أيضا تلك الرحلة التي قام بها الليوتنانت جوب في نوفمبر ١٨٤١ من العقير إلى الهفوف وراء خالد بن سعود الذى تركت له حكومة محمد علي إدارة نجد بعد جلاء قواتها من هناك. وكانت السلطات البريطانية في الخليج تخشى من أن يقوم خالد بارسال القائد سعيد بن مطلق في حملة على عمان، فذهب جوب لتحذيره مغبّة ذلك. وعاد جوب من الهفوف إلى الخليج عن طريق الهفوف - القطيف وذلك للنظر في أيث الطريقين أصلح من الآخر لجرّ المدافع إذا اضطرّت الحكومة البريطانية للدخول في حرب ضد ذلك الأمير.

فتوى بتحريم جهاد المستعمر

من المفارقات الطريفة التي حدثت في هذه الفترة في مجال خدمة الاستعمار محاولة الفرنسي ليون روشيه في عام ١٨٤١-١٨٤٢م الحصول على فتوى من علماء الحرم المكي تؤيد الفتوى التي حصل عليها في مناطق أخرى في المغرب ومصر تحرّم على المسلمين جهاد المستعمر الفرنسي في الجزائر.

ولد ليون في جرينوبل في جنوب شرق فرنسا في ١٨ شعبان ١٢٢٤/٢٧ سبتمبر ١٨٠٩ ودرس القانون في فرنسا، ولحق وهو في الثالثة والعشرين من عمره بأبيه الذي كان جندياً في الحملة الفرنسية التي استعمرت الجزائر في عام ١٨٣٠م. واستقرّ ليون هناك مع أبيه الذي حاز أرضاً واستثمرها في الزراعة. ويقول ليون إن والده ومن لفّ لفّه من المزارعين الفرنسيين في الجزائر يمكن أن يوصفوا بأنهم "أي شيء إلا كونهم مزارعين". عمل ليون في الحرس الوطني الذي استحدثه حاكم الجزائر الفرنسي، وقادته الصدفة إلى أن يتعرف إلى خديجة، وهي فتاة جزائرية كانت في الرابعة عشرة من عمرها، كاعباً زرقاء العينين مقوّسة الحاجبين ميّاسة القدّ، أدرك حين مرض بالحمى أنه وقع في حبها، فقد كان في فراشه يهذي باسمها. وذعر حين علم لاحقاً أنها ستُزفّ إلى شاب جزائري رغماً عنها، لأنها - كما يقول - أبدت ما يفيد بأنها تحبّ شاباً فرنسياً. وأخذ ليون يتعلم اللغة العربية ليبادل معشوقته الرسائل، وتمكن بواسطة زوجة أستاذه الذي يعلمه العربية أن يتعرّف إلى مسعودة الزنجية، مرضعة خديجة ومربيتها، وغدت مسعودة بعدئذ ساعي بريد الحب بين العاشقين. وتمكن الشاب بعدئذ من أن يلتقي بمحبوبته في بيتها في غياب زوجها الذي ما لبث أن ارتاب في أمرها، فنقلها وأسكنها في بلدة مليانة التي كان يسيطر عليها الأمير عبد القادر الجزائري دون الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون يسيطرون

على السواحل فقط. واضطر ليون بدواعي لواعج الغرام المتأجج إلى أن يعلن إسلامه ليتصل بالشيخ عبد القادر ويعيش في مليانة حيث يمكنه أن يلتقي الحبيبة. وادّعى ليون أنه حين أسلم راح – في ما يقول – يُصلي "لربه النصراني في مساجد المسلمين الذين جعلوه بإعلان إسلامه نصرانياً حقاً"، إذ يعترف ليون بأنه كان قبل إعلان إسلامه لا يهتم لنصرانيّته ولا يمارس شعائرها.

انتقل ليون إلى مليانة مهاجراً وراء خديجة. ودخل في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م في خدمة الأمير عبد القادر الجزائري، وغدا أحد كُتّابه المترجمين العاملين معه. ويكشف ليون من دون قصد عن مهمته الاستخبارية حين قال إنه كان يأمل أن يحقق لبلاده استسلام الجزائريين، وذلك بأن يقنع عبد القادر بأن "السلام مع فرنسا أميز وأوفق للمؤمنين الجزائريين الذين تمرّغوا في همجية سوء الحكم التركي"، ولم ينسَ بعد ذلك أن يضيف إلى هدفه القومي سعيه لتحقيق هدفه الشخصي حيث كان يسعى أيضاً إلى أن تُطلّق خديجة من زوجها ليخلفه عليها. وفي الحرب التي وقعت بين سيدي محمد التيجاني وعبد القادر الجزائري، وقع روشيه وهو يتسلّق سور البلدة في قبضة جند التيجاني في بلدة عين ماضي، فاحتالت خديجة التي كانت في هذه الفترة في تلك البلدة ترقبه من "الحرملك" وعملت لإنقاذه، ونجحت في ذلك، فأطلق التيجاني سراحه وعاد إلى معسكر عبد القادر! وحين سقطت عين ماضي لعبد القادر الجزائري بعد فترة من الحصار هلكت فيه خديجة، التقى ليون مسعودة التي أخبرته أن حبيبته قد هلكت غمّاً وكمداً من لواعج الحب الذي تكنّه له. وساء ليون ذلك، فارتدّ من فوره عن الإسلام. وحين طلب إليه عبد القادر أن يسهم في القتال ضدّ الفرنسيين الذين اجتاحوا المناطق التي كان يسيطر عليها، رفض ذلك بنحو قاطع، فالحرب التي رفع لواءها المسلمون لرد المستعمرين الفرنسيين عن بلادهم هي التي أودت بحبيبته. وأعلن ليون ردّته صراحة، ولم يعمد عبد القادر – في ما يقول – إلى تطبيق حدّ الردّة عليه. وهرب هذا الجاسوس الفرنسي الذي كان قد ادّعى الإسلام – متعللاً بدواعي إقامة سلام للفرنسيين وبالعشق والهيام ما أدخله في خدمة عبد القادر الجزائري ليكون عيناً للفرنسيين عليه – بعد موت خديجة إلى وهران حيث معسكرات الفرنسيين، ومنها إلى مدينة الجزائر التي وفد إليها في ٩ رمضان ١٢٥٥/١٦ نوفمبر ١٨٣٩.

وعاد ليون مرّة أخرى للعمل ضابطاً في صفوف الجيش الفرنسي حين تجددت الحرب ضدّ الجزائريين بعد انتهاء أجل الهدنة. ووضع روشيه خطة مع بوجاود، القائد العام للفرنسيين في الجزائر، على أن يعمل على إقناع فقهاء المسلمين بإصدار فتوى بتحريم قتال الفرنسيين، خاصة أنه في فترة ادّعائه الإسلام كان قد عرف حرمة المال والدم والعرض في شريعة المسلمين، وأدرك أنهم مأمورون بألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة. فوافق القائد العام هذا الضابط الاستخباري على المضيّ قُدماً في مشروعه والعمل على اتخاذ فريضة الحفاظ على النفس ذريعة لإبطال فريضة الجهاد. وبدأ روشيه بالتبشير بدعوته، وخدع الشيخ محمد التيجاني الذي وافقه الرأي،

وأرسل أحد مريديه مع ذلك الضابط الاستخباري لتأييد تلك الفتوى من فقهاء القيروان. وأنفق الجاسوس المال الفرنسي بسخاء على فقهاء جامع عقبة بن نافع حتى تمكن من الحصول على فتوى نصّها: "إذا تمكن الكفار من بلد مسلم وقاتلهم المسلمون حتى عجزوا عن إخراجهم عن ديارهم، فيمكن لهم أن يسالموهم بشرط أن يأمنوا على ممارستهم لدينهم والحفاظ على زوجاتهم وبناتهم!".

هرع هذا الجاسوس الذي جعل إلهه خدمة أهداف بلده في الاستعمار بالفتوى التي حصل عليها إلى مصر لتأييدها من الأزهر. والتقى روشيه محمد علي باشا في القاهرة الذي أبدى استغرابه لاستشراء المقاومة ضدّ الفرنسيين في الجزائر مقارنة بمصر التي كانت قد استسلمت لهم من دون مقاومة تُذكر، وعلّل الجاسوس الفرنسي ذلك بأن القبائل الجزائرية الشرسة أفادت من تضاريس بلادها، فهم يحرسون الممرات الواقعة بين الجبال ويتراجعون إلى صحرائهم الشاسعة حين يلاحقهم الفرنسيون، وهم أبداً بين كرّ وفرّ. أما مصر فهي أرض منبسطة وغالبية أهلها من الفلاحين المستقرين. وفي القاهرة قدّم الجاسوس الفرنسي فتوى القيروان إلى فقهاء الأزهر الذين تدارسوها لفترة طويلة ذات مساء ثم أقرّوها. وقضت المرحلة الثالثة من مهمته السفر إلى الحرمين الشريفين لتأكيد هذه الفتوى وتوثيقها. وكان المستشرق فلرسنيل، القنصل الفرنسي في جدّة، الذي كانت تجمعه علاقة صداقة مع شريف مكّة، يقضي بعض مهماته في مصر، فنسّق ليون معه أمر زيارته إلى الحجاز.

انطلق ليون في ٢٠ رمضان ١٢٥٧/٤ نوفمبر ١٨٤١ مع قافلة في اتجاه الأراضي المقدسة، فزار المدينة المنوّرة ثم انطلق منها إلى مكّة المكرّمة، وأحرم من الميقات في ٧ ذي القعدة/٢١ ديسمبر. وبعد أن أدى روشيه العمرة، استأجر في مكّة غرفة في الطبقة الثانية من منزل يقع عند الجدار الشرقي للمسجد ويطلّ على صحنه مباشرة. ويقدم الجاسوس وصفاً للفوضى التي يحدثها الأطفال والنساء وباعة الأطعمة والحلاقون في باحات الحرم المكيّ، وربما كان ينقل ذلك عن بوركهاردت أو يؤكد ما ورد عنده. ويحدثنا روشيه عن الابتزاز الذي يلقاه الحجاج الذين يضطرون إلى دفع مال للعاملين في الحرم عن كل خطوة يخطونها. وتلقّى روشيه في ١٧ ذي القعدة/٣١ ديسمبر ردّ الشريف محمد بن عون على رسالة التعريف التي جاء بها إليه من فرينسيل، وكان الجاسوس في هذه الفترة مهموماً لعدم احتفاله بعيد الميلاد "الذي يحتفل به في فرنسا والمستعمرات الفرنسية، فهو يعيش وحيداً بلا أنيس ولا جليس، مطارداً، يقوم بمهمة خطرة وسط قوم متهوسين... فلا بد لمثل هذه المعاناة أن تُكفّر عنه ذنوباً كثيرة".

التقى روشيه بالشريف وخاض معه في العديد من الموضوعات، خاصة تلك المتصلة بالحجاج الجزائريين. وكتب روشيه في جشع الأشراف وبذخهم وما أدى إليه ذلك من "تدهور في الايمان" قاد إلى عداء مع السعوديين الذين جاء الأتراك لصدّ عدائهم ودحرهم،

ولكن ما لبث الأتراك أن أصبحوا بدورهم طغاة أمثالهم، خاصة أنهم خضعوا في هذه الفترة الأخيرة "للوصايات النصرانية التي قوّضت أركان الإمبراطورية العثمانية التي تولى المرتدون فيها مناصب رفيعة. لقد غدا هذا الأمر سبباً للتدهور المحتوم في تضييع إيمان الشعب".

وعاد روشيه من جدّة إلى مكّة المكرّمة مرّة أخرى ليحدثنا عن أن الفتوى التي يحملها قد قُدّمت في اجتماع جرى في الطائف لجماعة من فقهاء مكّة والمدينة ودمشق وبغداد وتدارسوها، و لم تلقَ اعتراضاً إلا من واحد فقط من أولئك الفقهاء المجتمعين، و لم يكن اعتراض ذلك الشيخ بذي خطر، إذ لم يعبأ أحد من المجتمعين باعتراضه. وجرى في ذلك الاجتماع اعتماد الفتوى وختمها وتسليمها إلى مريد التيجاني الذي كان في رفقة روشيه.

تناول روشيه بعد ذلك وصف الوقوف بعرفات في ٩ ذي الحجة ١٢٥٧/٢٢ يناير ١٨٤٢ مشبّهاً الموقف بالحفلة الصاخبة: تضرّعات وابتهالات وأهازيج فرح وتصفيق وقرع طبول ومناداة الباعة على سلعهم، واختلط كل ذلك برغاء الإبل وصهيل الخيل ونهيق الحمير. ولمح رجلان جزائريان من الحجاج روشيه في ذلك المشهد، فرفعا أمره إلى القاضي الذي أبلغ الأمر فوراً للشريف. وتظاهر الأخير بإبداء علامات الغضب "بما هو جدير به في مثل هذا الموقف"، وأسرع بعدئذ لإنقاذ روشيه قبل أن ينتشر خبر وجوده بين الحجاج. أرسل الشريف محمد بن عون بعض عبيده لاختطاف روشيه وتأمين سلامته. وبينما كان العبيد يبحثون عنه، تعرّف إليه بعض حجاج الجزائر وصرخوا في وجهه "النصراني الكافر ابن الكافر". وحين اجتمع عليه الناس، اهتدى عبيد الشريف إلى مكانه فاختطفوه وأوصلوه سالماً إلى جدّة التي أبحر منها إلى مصر، ووصل إلى الأقصر في ١٥ ذي الحجة/٢٧ يناير. ولا يهمنا بعد ذلك من أمره شيء، فقد غادر مصر إلى إيطاليا وقابل البابا وانخرط في سلك اليسوعيين، ثم ما لبث أن عاد إلى الجزائر مرّة أخرى بعد أن لقيت فتواه قبولاً عند بعض الجزائريين، فاستسلم أولئك النفر لذلّ الاستعمار، إلا أن الأمير عبد القادر وعامة أهل الجزائر لم ينخدعوا بما جاء فيها، ومضوا في جهادهم الذي تُوّج - ولو بعد حين - بتحرير بلادهم.

سافر روشيه إلى فرنسا حيث نشر كتابه :**اثنان وثلاثون سنة مع الإسلام** صبّ فيه جام حقده الصليبي على المسلمين الذين لا يُقدسون الحياة لأن دينهم يحضّ على الجهاد! وتناسى أنه استغلّ قدسية الحياة عند المسلمين لإبطال الجهاد، ولكن ديدن هؤلاء الرحالة أن لكل مقام مقالاً، ولكل غرض كذبة تخدم وسائلهم. وربما أسهم ليون، الذي يعدّ نفسه ثالث غربي نصراني بعد دومنجو وبوركهاردت يدخل الحرم الشريف، في ترسيخ فكرة أن المسلم يفضّل الموت على الحياة في ضمير الغرب عن دين شرّع لمعتنقيه تحريم قتل النفس إلا بالحق، وأن من يقتل آدمياً واحداً فكأنما قتل الناس جميعاً. وكان الأجدر به أن يُعنون كتابه بليون وخديجة، فالقصة الرومانسية التي صاغها لتلك التراجيدية الحبيبة الهالكة التي يدّعي أنها غيّرت مجرى

حياته شبيهة بما يرد في ألف ليلة وليلة من قصص تحكي عن غرائب الشرق. أضاف ليون إلى قصص الخيال الإبداعي في ذلك الكتاب قصّة أخرى عن الشرق الذي تهوى نساؤه الأغراب من الغربيين، ويهوى رجاله الموت بما شرّعه لهم دين الإسلام من جهاد. ونعتقد أن ما ابتدعه هذا الرحالة من قصص عن خديجة، مثلها مثل فرية زهد المسلم في الحفاظ على الحياة، ما كان إلا ضرباً من الهراء صاغه قلم جاسوس روائي. ولما كان من اللازم في أدب الرحلة الغربية أن يحكي الرحالة عن المرأة العربية، ولئلا يكون ليون بدعاً من الذين كتبوا في هذا الفن، حاك هذه الأسطورة الطريفة ليرسي في ذهن قارئه الغربي صورة الفرنسي الذي ضحّى بكل عزيز لديه من أجل الحب وسيادة السلام ونقيضه العربي المحب للحرب والنزال والموت.

تولى الرحالة الأديب ليون روشيه عدداً من الوظائف في خدمة فرنسا في طرابلس وتونس، ثم عُيّن سفيراً في اليابان، وتقاعد بعد ذلك في فرنسا وهلك في عام ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.

متنطعون متأخرون

نستطيع أن نضيف إلى قائمة الرحالة الصعاليك المتنطعين البارون مولتزان الذي زار مكّة المكرّمة في عام ١٨٦٠م من دون تكليف من جهة رسمية - في ما نعلم - وانكشف أمره وأُبعد عن البلد الحرام. وقد تميّزت ملاحظات هذا المأفون بالوقاحة المحضة، فالمسجد الحرام عنده قلعة شياطين، والعبادات الإسلامية ضرب من الجنون. أما الطبيب هيرمان بكنيل الذي كان يعمل جراحاً في مستشفى سان بارثلميو في لندن قبل أن يلتحق بخدمة الجيش البريطاني في الهند، فقد ادّعى أنه يحمل هموم الإمبراطورية البريطانية، ورأى أن معرفة الإسلام فرض على كل بريطاني، لأن الإمبراطورية تضمّ أكبر عدد من المسلمين في العالم، وأن الإلمام بمعتقداتهم يجعلهم أسلس قياداً. ادّعى بنكل الإسلام وتسمّى بالحاج محمد عبد الواحد، وخرج إلى مكة المكرّمة حاجاً. وحين عاد من رحلته إلى بلاده نشر أخبار رحلته في صحيفة التايمز في عددها الصادر في ٢٥ أغسطس ١٨٦٢، ولم يكن في تهوسه وتعصّبه أحسن حالاً ممن سبقه في هذا المضمار.

تتكرر الرواية مع جون فراير كين، ابن أحد القساوسة الإنجليز، الذي كان قد هرب من منزل عائلته ولمّا يزل يافعاً، وعمل بحاراً في بعض السفن الهندية. وانتهز جون وصول رحلة للسفينة التي كان يعمل فيها إلى جدّة في عام ١٨٧٧م ليسير في ركاب أمير هندي مسلم في رحلة إلى مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة. وحين عاد جون ليستقرّ في بلاده، كتب سيرة حياته وضمّنها أخبار رحلته إلى المدينتين المقدستين، مدّعياً أنه قام بها خصوصاً ليكتب عنها ليصبح مشهوراً ويتلقّى دعماً يحقق به بعض ما يختمر في رأسه من مخططات. ولا يرى الذين اطّلعوا

على ما كتبه هذا المغامر شيئاً مفيداً، ويقولون إن كتاباته لا تزيد في مجملها عن سرد لروايات غريبة في قوالب لغوية ساخرة، ربما صاغها الخيال. ومن هذه القصص ما رواه من أن طفلاً مكيّاً اكتشف أن كين لم يكن مسلماً فطفق ينادي في رفاقه كي يأتوا لينظروا الكافر. وسرعان ما تجمهر حوله عدد جمّ من الناس وراحوا يحصبونه بالحجارة، ما اضطره إلى أن يخطف طفلاً يجعله كدرع يتقي به الرجم وهو يسرع الخطى في طريقه إلى مركز شرطة المدينة، وهناك أقسم بأنه مسلم، فتخلص بذلك من الجمهور الغاضب ولقي الحماية اللازمة.

يمكن أن نضيف آرثر وافيل إلى قائمة هؤلاء الرحالة المتسكعين الذين ساقتهم فكرة كتابة الرواية إلى المدينتين المقدستين، فزاروهما وكتبوا عنهما. وربما أن البعض من هؤلاء لم يصل إلى هناك، فصاغ ما كتبه عنهما من الخيال المحض أو اعتمد على شيء ممّا كتب السابقون له في هذا المجال وأضاف إليه. كان وافيل جندياً بريطانياً شارك في حرب البوير، ثم استقرّ في كينيا واشتغل ببعض المشاريع الاستثمارية هناك. تعامل وافيل في كينيا مع مجتمعها المسلم، وتعلّم اللغة السواحلية، وتطلع بعد ذلك – في ما يقول – إلى معرفة طبائع العرب وعاداتهم، ففكر في أن يقوم برحلة حجّ "ليكتسب لقب حاج"، ما يرفع منزلته في المجتمع المسلم ويستكشف بعد أن يثقوا به ما يريد استكشافه من طبائعهم وشخصياتهم. ادّعى وافيل الإسلام وذهب في عام ١٩٠٨م في رحلة إلى الحجّ وزيارة المدينة المنوّرة.

لاحظ وافيل أن عاطفة المسلمين الدينية تستثار وتتأجج في المدينة المنوّرة أكثر مما هي عليه في مكّة المكرّمة، فالشعور بالرهبة المشوب بالاحترام هو المسيطر على المسلمين في الحرم المكيّ، أما في الحرم النبوي فهناك دائماً العنصر الشخصي المشوب بالحب الصراح. راقب وافيل الزوار "الأتراك في معاطفهم الطويلة بياقاتها المرتفعة، وأهل الأناضول في سراويلهم الفضفاضة"، وراح يعدد الهويات المختلفة التي صادفها هناك من العرب، بدوهم وحضرهم، الذين توافدوا من كل صوب من شبه الجزيرة العربية، وانتقد الفوضى التي يحدثها البدو "حاملو الرماح والسيوف"، وأشاد بأهل الحضر الذين يلتزمون النظام ويقفون أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في هدوء كأنهم قد اصطفّوا في جنازة. ووصف الهنود "القذرين"، بالأكثر ثراءً والأشد فوضى. وكتب وافيل بتفاوت في نقد سلوكيات المصريين والأفغان والبلوش والسواحليين والأفارقة عموماً، وتزاحمهم للمس سياج القبر الشريف، تتعالى زفراتهم وهم يجهشون بالبكاء، حتى إن بعضهم يسقط فاقد الوعي.

عاد وافيل من الحجازعن طريق اليمن إلى كينيا التي استقرّ فيها حتى لقي حتفه في عام ١٩١٦م في بعض معارك الحرب العالمية الأولى وهو يقود فيلقاً كان معظم أفراده من المسلمين.

الباب الرابع

الشيخ منصور في بلاط مسقط

الفصل التاسع

روايات الشيخ منصور عن عمان

يقول الرحالة فنسنزو موريزي في مقدمة كتابه عن تاريخ السيد سعيد سلطان عمان إنه التزم الدقّة العلمية. "وإذا كان من واجب أي شخص يكتب في الموضوعات الوصفية أن يلتزم الحقيقة، فإن ذلك ألزم لمن يتصدى لسرد الحقائق التاريخية والجغرافية الذي يجب عليه أن يتحرّى الدقّة واحترام أمانة الكلمة. وإذا تيسر لمثل هذا الكاتب إلى جانب هذا الالتزام الأخلاقي المعرفة بلغة من يؤرخ لهم، فإنه سيكون – بلا شك – أقرب إلى ملازمة الحقيقة. أما إذا الكاتب كان من ذوي المكانة المرموقة وعاش الأحداث التي يكتب عنها، فإن ذلك سيكسبه قدرة على معرفة الأسباب والنفاذ إلى مسبّباتها. وأخيراً ينبغي على الكاتب أن يتحلى بوضوح الأسلوب وينأى به عن التزويق والبهرجة اللفظية واستعمال المحسنات البديعية. وإني وقد تحقق لي كل ذلك، أتطلّع إلى الظفر بالثقة التامة من القارئ حين أقدم له هذا العمل الذي أهلتني له إمكاناتي المتواضعة، راجياً أن يجد فيه الفائدة والمتعة".

جميل أن يعي هذا الرحالة هذه القواعد العلمية ويعمل على الالتزام بها. ولكن هل يمكن من يكتب في أدب الرحلات الغربية أن يكون بدعاً من سائر الرحالة فلا يدّعي معرفة بسائر الأمور الخاصة بهؤلاء العرب "البسطاء الغريبي الأطوار" الذين ساكنهم، وألا يُضخّم من ذاته ويحكي عمّا يظنّها بطولاته، ويبالغ في سرد معاناته التي صادفها في هذا المجتمع البدائي الذي هو غريب عنه داراً وأهلاً وثقافة وملّة، وألا ينقل على جناح الخيال ذلك القارئ الغربي إلى "عوالم الشرق الأسطورية" ويتأنق في أسلوبه ليعلو كعبه في فن الكتابة القصصية. ألم تكن للشيخ منصور مهمة سياسية تجعله حين يكتب للعموم يبدي قدراً مما رأى وسمع ويخفي القدر الآخر؟

ولد فنسنزو في روما وفيها تعلم، ولكنه غادرها فور تخرّجه من الكلية الرومانية، وذلك

- في ما يدّعي - لتعارض أفكاره التحررية مع أفكار أسرته. فقد تحرّج أن يخوض في الصراع الدموي الذي انتظم المقاطعات الإيطالية بعد الثورة الفرنسية ومناصرة أي طرف من أطرافها. ذهب فنسنزو إلى اليونان التي كانت تموج بالاضطرابات ضدّ سادتها الأتراك العثمانيين، وعمل في استخبارات نابليون، ورحل بعد ذلك إلى الأناضول حيث عمل طبيباً في البحرية العثمانية وشارك في حروبها ضدّ الروس. ودخل موريزي بعد ذلك إلى البلاد العربية واستقر في المخا مندوباً عن الحكومة الفرنسية، ثم ما لبث أن التحق في عام ١٢٢٥هـ/١٨٠٩م بخدمة سلطان مسقط ليتولى مهمات التطبيب في القصر، كما تولّى أيضاً تشغيل مدافع السيد سعيد. ولما كان سلاح المدفعية السلاح المقدّم على غيره لدى السيد سعيد، فقد غدا الرجل - في ما يبدو - قائداً للعسكرية العمانية. واكتسب فنسنزو موريزي في مسقط اسم منصور الذي أطلقه عليه السيد سعيد الذي عرّب فنسنزو إلى منصور تيمناً منه في ما يبدو بقائد مدفعيته. لم يستقرّ موريزي في مسقط غير سنة واحدة غادر بعدها إلى بغداد حيث عمل فيها طبيباً. وقد اتهمه أحد الضباط البريطانيين في فترة وجوده في مسقط بأنه جاسوس يعمل في خدمة بونابرت، ورغم دفاع منصور عن نفسه أمام السيد سعيد، زهد الأخير في خدماته، على ما يبدو. وانتقل موريزي من بغداد بعد ذلك للعمل في قيادة المدفعية لدى بعض الأمراء الفرس في كردستان وآذربيجان. وأسره الروس لفترة انتقل بعدها للعمل في طهران. وغادر فنسنزو إلى الهند عبر مسقط التي عمل فيها لفترة غير طويلة. وانتهت في الهند جولات هذا الرحالة الاستخبارية في الشرق، حيث غادر إلى البرازيل ليعود مرّة أخرى إلى أوروبا ويستقر في لندن. وقد عانى فنسنزو في ما بقي من عمره من شظف العيش واحتاج إلى بعض المال لعملية بتر ساقه المتعفنة. ويمكننا أن ندخل إلى عالم معرفة كتاب الشيخ منصور الذي بدأ بنبذة عن اعتلاء السيد سعيد سدّة الحكم في عمان.

السيد سعيد يعتلي سُدة الحكم في عمان

كان السيد سلطان، ابن الإمام، في طريق عودته إلى مسقط بعد حملة بحرية قام بها ضدّ القواسم، وأراد أن يسبق قوّة أسطوله في الوصول إلى هناك. وفيما همّ ببدء رحلته في مركب صغير، باغتته عصبة من القراصنة في خليج لنجة وتمكنوا بعد عراك عنيف من قتله. واشترى شيخ اسمه عبد الله جسد القتيل من القراصنة بمبلغ كبير ودفنه في الموقع الذي قتل فيه.

كان سلطان، السيّئ الحظّ، ينافح ضدّ سعود، الشيخ الثالث للوهابيين، ويحول بثبات دون محاولاته في التوسع، وقد تمكن من صدّ ذلك الشيخ الوهابي في مواقع عديدة. عمل السيد سلطان على إبقاء دروب البحر مفتوحة في فترة حصار البصرة وحماها من هجمات سفن

الوهابيين والقواسم، ما مكّن من وصول الإمدادت إلى تلك البلدة. واستحقّ سلطان بذلك تقدير باشا بغداد وظفر بمرسوم قضى بأن تُؤدّي له البصرة التي حماها منحة سنوية تقديراً لجهوده في هذا المجال، ولكن هذا الالتزام سرعان ما بات في طي النسيان.

سمع أبناء سلطان بما آل إليه أمر والدهم المسكين، وراحوا يدبرون المؤامرات في ما بينهم، كلّ يريد أن يتمكن من خلافته ووراثة أملاكه. وقبض بدر، أكبر الإخوة، على زمام الأمور واستبدّ بها من دون أخويه سعيد وسالم. عيّن بدر سعيداً على بركا، المدينة التي تقع على بعد ثلاثين ميلاً من مسقط، فيما أناط حكم مصنعة بسالم، أخيه الأصغر. وأدّت هذه الترتيبات إلى هدوء دوامة المؤامرات، ولكن إلى حين.

حين بلغ سعود، ذلك السياسي المحنك المحارب الصنديد، خبر مقتل "عدوّه اللدود"، رمى مسقط في عام ١٨٠٦م بجيش جرّار أثار التوجس وأيقظ نوازع الخلاف الداخلي. وعمل محمد بن خلفان، عمّ أبناء سلطان، وكان يحظى بثقة أبناء أخيه كلهم ويظفر باحترامهم، على ردم الهوة بينهم ودفن خلافاتهم. وجمع ابن خلفان أموالاً مكّنته من تأليف جيش يمكنه صدّ الغزاة. خرج هذا الجيش بقيادة السيد بدر في طريقه إلى البريمي، المدينة الواقعة على تخوم بلاده، لصدّ الوهابيين. وأبدى السيد بدر شجاعة وتصميماً وبذل كل جهد ممكن ليرجع بالنصر. ولكنّ بدر حين أدرك أن جموع الوهابيين تبزّ جموعه عدداً، عمد إلى تفادي الهزيمة بعقد صلح مع سعود. وكانت شروط الصلح مجحفة ما كان له ليقبلها لولا أنه رأى أن لا مناص منها ولا محيص عنها. ويذكر الشيخ منصور شروط هذا الاتفاق التي يقول إنها تجري على النحو الآتي:

- أولاً: أن يتولى السيد بدر الحكم في مسقط لا ينازعه في ذلك منازع، على أن يدفع للدرعية جباية قدرها خمسون ألف ريال سنوياً.
- ثانياً: أن يقيم في مسقط مبعوث دائم لسعود ليستوثق من أن مواطنيها ملتزمون بكل طقوس وشعائر "دين عبد الوهاب".
- ثالثاً: أن ترابط في مجاورة بركا مفرزة وهابية قوامها أربعمئة فارس للعمل على منع أي إخلال بشروط الاتفاق المبرم.
- رابعاً: أن يصبح السيد بدر حاكماً تابعاً لسعود مطيعاً لأوامره عاملاً بما يشير عليه به، وأن يتحول إلى "المذهب الوهابي الجديد"، وأن يقدم للحكومة الوهابية الدعم والمساعدة حين تطلبهما.

يستطرد منصور ليقول إن السيد بدر كان يشعر بالمرارة لأنه أصبح بعد عقده هذه المعاهدة مجرد حاكم متواضع تابع لسعود، إلا أنه – من ناحية أخرى – أصبح سلطاناً لمسقط تحت حماية حامٍ قوي ومعترف به شيخاً رئيساً لعائلته. ويضيف منصور إن السيد بدر – في ما

يشاع - هو الذي طالب في المفاوضات بإرسال الحامية الوهابية إلى بركا ليضمن بها حمايته إذا تمرّد عليه أخواه. ويرى منصور أن السيد بدر لم يجنِ من سعيه هذا الذي لم ترضَ به أسرته إلا الشر المستطير، فقد عجّل به ذلك مع عوامل أخرى ليلقى نهايته.

عاد السيد بدر إلى عاصمته وأقام فيها نوعاً من الحكم التصالحي، ولكن الأيام كانت حُبلى بالكثير، فقد كان أهل مسقط يعتمدون في حمايتهم على قوات أجنبية هي أشبه ما تكون بالحرس السويسري الذي يعمل في خدمة بعض أباطرة أوروبا. تتكوّن هذه القوّة من صعاليك من البلوش والجيديقال. تنتمي الفئة الأولى إلى مكران، وقد دفع بهم فقر بلادهم إلى بيع خدماتهم للأجانب. أما الجماعة الثانية فهم من همج السند الذين يمتازون بالشجاعة واختاروا أن يكسبوا رزقهم بالعمل تحت لواء السلطان المتوفى. تميز هؤلاء الجنود بالإخلاص لسيدهم السابق ولأبنائه من بعده، ولكنهم أنكروا أن يكون ولاؤهم خالصاً لبدر من دون سواه من إخوته. وقد دفعه هذا إلى أن يفكر في تسريحهم على أن يستعيض عنهم بالأربعمئة فارس الوهابيين المتمركزين في بركا. و لم يكن سعيد يقرّ أخاه على سياساته، وراح ينتقده، و لم يترك فرصة تمرّ من دون أن يهاجمه علانية. وأبدى سعيد سخطه أمام الجيديقال والبلوش الذين باتوا على علم بما يضمره بدر من تسريحهم والاستغناء عن خدماتهم. وكان هؤلاء الجنود يوافقون سعيداً الرأي، وأضمروا نية التعاون معه إذا بدرت من بدر بادرة تشير إلى تسريحهم.

قام سالم بزيارة إلى مسقط و لم يرضَ منه بدر قيامه من مصنعة وحضوره إلى مسقط من دون الحصول على إذن مسبق منه، فهدده وتوعده، ما جعله ينحاز إلى أخيه سعيد في بركا. طلب بدر إلى سعيد أن يسلمه سالم الذي لجأ إليه وأمهله ثلاثة أيام، وهدّده بأنه في حال امتناعه عن ذلك سيحرمه من كافة امتيازاته ويصادر أحد أجمل خيوله وأحبها إليه، وسيقوم بنفسه إلى بركا لتنفيذ الأمر. و لم يذعن سعيد لأمر أخيه بدر، ورفض أن يسلمه أخاه سالم، وأخذ يعدّ العدّة للدفاع. وأطلع سعيد جامدامدار، قائد البلوش والجيديقال، على معارضته بدر، وأنه سيقتله إذا تجرّأ وشخص بنفسه إلى بركا.

لم يرضَ بدر، ذلك الصنديد، بتمرد أخيه سعيد وصمّم على إنفاذ أمره. فأبحر في نفر قليل من أتباعه إلى بركا في الوقت الذي كان سعيد قد دبر بالاتفاق مع محمد بن ناصر، ابن عمه، مؤامرة للإيقاع به وقتله. و لم يكن بدر قد أخبر الحامية الوهابية في بركا بقدومه إلى هناك، بل قصد من فوره إلى القلعة وهو لا يدري أن كل خطوة يخطوها كانت تُقرّبه من حتفه. وجلس سعيد بين بدر ومحمد بن ناصر في غرفة في القلعة يحرس بابها عبد زنجي كان شريك سوء في الخطة المدبرة لاغتيال بدر. عنّف بدر أخاه سعيد على عدم الانصياع لأمره، و لم يرد الأخير ولا بكلمة واحدة، لكنه استلّ خنجره وغرسه في الناحية اليسرى من صدر بدر الذي هبّ واقفاً يريد أن يفرّ بجلده، فقد كان جرحه غير نافذ، ولكنه وجد أن ذلك العبد الأسود كان

قد أحكم إغلاق الباب. هرع بدر إلى النافذة ورمى بثقله إلى الأرض فسقط على كومة من الروث خففت من أثر الارتطام. اتجه بدر مسرعاً إلى الاسطبل ووجد حصاناً مُسرجاً جرياً وراء عادة العرب في أن تكون بعض خيلهم مستعدة دائماً لتسعفهم لحظة الخطر. امتطى بدر الحصان وراح يستحثّه للّحاق بحامية الوهابيين، فيما جدّ سعيد ومحمد بن ناصر وذلك العبد النوبي في مطاردته، وكانوا يستدلون على موضعه وسط أشجار النخيل بالقتام الذي تثيره حوافر حصانه. كان سعيد المدجج بكامل سلاحه يمتطي صهوة جواد أصيل ورثه عن أبيه فتمكن من اللّحاق ببدر وتله من اليمين فعاجله بدر بضربة قوية أخلّت بتوازن حصانه فكبا وطرح سعيد أرضاً. وطفق بدر يسابق الريح حتى تبدّت له خيام أصدقائه الوهابيين فمنّى نفسه بالنجاة، ولكن خاب أمله، فقد رماه النوبي برمح أورده هلاكه. وأدرك سعيد عظم الجرم الذي وقع فيه، وخشي مغبّة جريرته، وارتدّ عائداً إلى القلعة، وطلب إلى محمد بن ناصر أن يختبئ في إحدى غرفها حتى تهدأ الأحوال. وأرسل سعيد جماعة من خواصه ينادون في الفجاج بأن الوهابيين قد قتلوا بدر. و لم تكن الحامية الوهابية تعرف شيئاً مما جرى حتى بلغها خبر الحادث صدفة من إحدى النسوة، فتنادوا في عجالة وشدّوا الركاب يتدافعون في اتجاه قلعة بركا طالبين تسليمهم قتلة بدر. وتظاهر سعيد بالبراءة، وألقى الوزر كله على محمد بن ناصر، وطالبهم بالبحث عنه والقبض عليه. و لم ينطلِ الأمر على الوهابيين الذين كانوا على علم بالمؤامرات التي تُدار ضدّ بدر، فاقتحموا القلعة عنوة. وهمّ سعيد بالدفاع عن نفسه. ولاحظ، في هذا الوقت، سحابة غبار تظلّل الأفق، سرعان ما انجلت عن حشود كبيرة من العرب المتدفقين من كل حدب وصوب تجاه القلعة، تدوّي صرخاتهم المجلجلة تنادي بالثأر لأميرهم من الوهابيين، القتلة المزعومين. وكان هؤلاء العرب قد صدّقوا ما أشاعه خواص سعيد في هذا الصدد. أدرك الوهابيون أن لا قبل لهم بمواجهة تلك الحشود التي تفوقهم عدداً، فتراجعوا عن القلعة منسحبين وهم يهددون سعيد بالويل من انتقام سعود. وواصلت الحامية انسحابها في اتجاه الدرعية تلاحقها جموع العرب الغاضبة.

تذهب رواية منصور إلى أنه حين هدأت الأحوال تسلّل سعيد على عجل من القلعة في رفقة اثنين أو ثلاثة من أخلص أتباعه إلى مسقط، وتلقّاه الأهالي بالترحيب، ولقي من الجيديقال القبول، ونُودي به سلطاناً على البلاد. وهكذا قُيّض لسعيد، ابن الستة والعشرين عاماً، أن يرتقي عرش مسقط ويداه مضمّختان بدماء أخيه. وكان محمد بن ناصر قد اشترط على سعيد أن يقاسمه السلطة بعد نجاح المؤامرة على حياة بدر، ولكن راعه وهو مختبئ في القلعه ما اتهمه به سعيد، شريك السوء، أمام الوهابيين. ومع ذلك لم تفتر له همّة، فقد قرر أن يذهب إلى مسقط ليطالب سعيد بحصّته من الغنيمة، وهناك لم يحصد منه إلا الوعود الكاذبة، و لم يجنِ إلا معسول الكلام. أما سعيد فقد راح يشي بشريكه لدى الجيديقال ويشيع بين أعيان

البلاد أن محمد بن ناصر هو الوحيد – لا غيره أبداً – المسؤول عن مقتل بدر، ويحدثهم عن شناعة ما اقترفه حين "تآمر مع المرتزقة الوهابيين". ولما كان السيد محمد بن ناصر بدوره "مخاتلاً عريقاً في تدبير المؤامرات"، فقد أدرك ما يبيّته له سعيد، ففرّ من مسقط هارباً إلى إزكي التي تقع على مسافة خمسة أيام منها في الظهير العماني، حيث كان يسكن سابقاً. أعدّ محمد عدّته للدفاع، وعمل على تحصين المدينة، وكتب إلى سعود يسأله الحماية وينشد دعمه. أما السيد سالم فقد قنع بموقعه في مصنعه.

إدارة البلاد في عهد السيد سعيد

يقول منصور إن السيد سعيد، هذا الأمير الصغير، عمل منذ بداية عهده على استمالة الشيوخ الكبار من ذوي السلطة وتأليفهم. والتزم في إدارة شؤون حكومته بنصائح عمّه السيد محمد بن خلفان الذي بات يرى سلامة الدولة في سلامة ابن أخيه، وأن الأحداث السيئة التي وقعت لن تُعالج إلا بالحرص على تلافي تكرارها مستقبلاً". كذلك أرسل السيد سعيد مبعوثاً إلى الدرعية لاسترضاء سعود الذي كان يدرك تماماً مجرى الأحداث، فقد كان وكيله في مسقط يطلعه على التفاصيل الدقيقة لكل ما يحدث. عبّرت رسالة سعيد عن بالغ الحزن والأسى للجريمة التي وقعت وأورثته الحكم مكان أخيه، وادّعى أن القاتل الذي يتحمّل وزر هذه الجريمة هرب إلى إزكي ليتفادى العقاب الذي يستحقه، وأنه قد طلب حماية الوهابيين هناك. وأضاف سعيد أنه لن يصدق البتّة أن سعود سيقدم حماية أو دعماً لقاتل صديقه، فالعكس – في ظنه – صحيح، وأنه يدرك أنه إذا حدث أن وقع هذا الرجل في يد سعود فإنه سيودعه السجن. وتعهد السيد سعيد في نهاية الرسالة بالتزامه بشروط الاتفاق المعقود مع بدر سابقاً، وأبدى رغبته في عودة الفرسان الأربعمئة إلى بركا، مؤكداً أنهم سينعمون في عهده بالسلام، وواعداً بأنه سيسبغ عليهم كافة امتيازاتهم السابقة. واختتم سعيد رسالته بالتعبير عن أسمى آيات التقدير والاحترام لسعود والتجلّة للمبادئ الوهابية والحكومة التي تقوم عليها. أجاب سعود سعيد بقبول عروضه باستثناء عودة الفرسان المذكورين واعتذر عنها. كان سعود – كما يقول منصور – يدرك حرج الوضع في مسقط، ولا يريد أن يزجّ بنفسه في هذا الوضع الخطير. وانتهت رسالة سعود بالتعبير عن رغبته في أن يشمل سعيد بعفوه محمد بن ناصر وألا يلاحقه. ويرى منصور أن استجابة الدرعية لسعيد ضمنت لها سلاسة أداء الزكاة المتفق عليها، والتي لم يكن بدٌّ لمسقط من دفعها على أي حال. أما بالنسبة إلى سعيد، فقد كان يدرك خواء مظاهر هذه الصداقة المعلنة، ولكنه لضعفه وقلّة حيلته التزم بها مرجئاً الانتقام من "شريك السوء"، واستعادة أرضه من الوهابيين إلى فرصة أخرى.

وصف السيد سعيد

يصف موريزي السيد سعيد بالمربوع القامة، حسن التقاطيع، ويطفح وجهه بشراً. ويرى فيه رجلاً مجاملاً متفهّماً حلو المعشر، شغوفاً باكتساب المعرفة ويسعى دائماً وراء اكتساب معارف جديدة لا تتوافر لدى شعبه، "فنراه لذلك يديم مجالسة الأوروبيين الذين يفدون إلى مسقط". ويمتاز سعيد بحبه للعدل والإنصاف، لا يجريهما على رعيته فقط، بل يشمل بهما الجميع بمن فيهم رقيقه. وهذا ما جعل موريزي يغضّ الطرف - في ما يدّعي - عن "جريمته البشعة" التي حملته إلى العرش.

مسقط... الأرض والسكان

يحدد موريزي موقع مسقط بخطوط الطول والعرض، ويقول إنها تحتل رأساً صخرياً يتوغل في البحر إلى مسافة بعيدة، وينتهي في البرّ عند جبال عاليات تعكس على البلدة أشعة الشمس المحرقة التي يضيق بلظاها المواطنون، دعك من الأجانب الذين لم يخبروا مثل هذا الجو من قبل. ويسوق منصور، دليلاً مضحكاً على تأثير الحرارة على إنسان مسقط، حادثاً يقول إنه خبره شخصياً. فقد تلقّى مسقطي عربي ضربة سيف فلقت رأسه نصفين، وراعه عند تفحّص الغشاء الذي يُغلف المخ أن وجده غليظاً يابساً مثل كعب الحذاء! ويضيف أنه يعزو هذه الظاهرة غير العادية إلى تأثير أشعة الشمس.

يسير العرب - في ما يقول موريزي - حاسري الرؤوس على امتداد فصول السنة، عدا الشيوخ منهم وعامة تجارهم وعدد قليل من المواطنين ونفر من البدو تراهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش المعروفة في بعض مناطق الشرق. ويتّقي السلطان وبعض كبار الشيوخ حرّ شهري يونيو ويوليو القائظ بالهجرة إلى بركا حيث الجو ألطف ممّا هو عليه في مسقط. ويرتدي الموسرون من أهل مسقط الجلباب ذا اللون الأبيض المصنوع من الكتان أو من الموسلين الشفاف، ويستكملون هذا الزي بالعمامة. أما الفقراء الذين لا يمكنهم مقابلة تكاليف هذا الزي الباهظ الثمن، فهم مثلهم مثل الآخرين في مناطق عديدة من شبه الجزيرة العربية، يستترون بأسمال وخرق يشدونها حول خصورهم بأحزمة جلدية شداً وثيقاً، لو وقع على جلد أسد لترك أثره محفوراً فيه. ويستخدم هذا الحزام أيضاً لحفظ الأوراق والمحبرة والسكين وسائر ممتلكات ذلك الرجل، ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن العربي يحمل كل ممتلكاته معه أنّى ذهب. أما نساء مسقط فهن، على العموم، لا يحتجبن، فالحجاب مقصور على زوجات الشيوخ وأهل اليسار والأخريات من النساء الفاتنات اللائي يفدن

إلى مسقط من فارس وغيرها، وهن الأجمل بين نساء عمان.

يقول الشيخ منصور إن ميناء مسقط دائري تتوسطه جزيرة صغيرة يصل محيطها إلى حوالى ميل إيطالي واحد تقريباً، ما يجعل المرسى آمناً. وتقع مصادر المياه التي تخدم الميناء عند واجهة مسقط. وسوق مسقط عامرة بصنوف الخضر والفواكه المتعددة من برتقال وليمون وتمر. وتعدّ أسعار اللحوم في مسقط زهيدة لوفرة ما فيها من أبقار. أما السمك فكثير، حيث يزوّد البحر هذه المدينة بعدّة أطنان منه يومياً تسد حاجة السكان وتفيض، فيعلفون بما يبقى من الأسماك ماشيتهم، وهذا أمر يراه الرحالة غريباً غير مألوف.

تُعدّ مسقط ميناءً مُهيّأً بنحو تام لتموين السفن، ما أكسب البلدة رواجاً تجارياً. فإضافة إلى توافر المؤن الغذائية الرخيصة، هناك وفرة في المياه الحلوة. يمكن المراكب العابرة أن تتزود من هذه المياه، كما يمكنها الحصول على مياه أفضل من آبار أخرى أيضاً تقع على مسافة حوالى ميل من الساحل، هذا على الرغم من أن مياه السركار (الحكومة) التي استحدث لها السلطان قناة توصلها إلى الساحل مستساغة الطعم جداً.

تمتلئ المياه على ساحل مسقط بصنوف لا حصر لها من الرخويات ذات الرائحة الزكية والأشكال البهيجة. فالأصداف الزاهية الألوان، المتوهجة بالبهاء، والمكتسية جمالاً يخلب الألباب - خاصة حين يكون البحر صافياً بلا كدر كأنه البدر ليلة تمامه - تنعكس على السطح متلألئة أخّاذة. كذلك يجري صيد الرخويات من أعماق بعيدة في جوف البحر. ويصف منصور ليالي مسقط بالصافية الوضيئة. فحتى حين يكون جوّ البلدة غائماً وقمرها محاقاً، فإن سماءها تشعّ بهاءً يحاكي الليالي الأوروبية حين يكتمل بدرها. وتولد أشعة القمر في أحشاء بحر مسقط، وتنعكس على أمواجه بريقاً يتلألأ ورونقاً يأتلف في مهرجان بهي يزداد ألقاً ولمعاناً بألوان الأحياء الفوسفورية التي يزخر بها هذا البحر.

يصف موريزي الصخور الشاهقة التي تُطوّق ميناء مسقط بالجرداء تماماً، الخالية تماماً من الحياة النباتية. وتعيش في الجزيرة الصغيرة الواقعة عند مدخل الميناء فصيلة من الثعالب يسميها العرب "طالب"، تعتمد في غذائها بنحو تام على الأسماك التي تصطادها. ولما كان الماء غير متوافر هنا إلا في تجاويف بعض الصخور التي تختزن مياه الأمطار، فإن تلك الحيوانات لا تجد إلا دماء الأسماك تروي به ظمأها إذا انحبس المطر في سنة من السنين.

تحمي هذا الميناء قلعتان قديمتان بناهما البرتغاليون سابقاً هما الميراني والجلالي، ويعتقد منصور أن الاسمين ربما يعودان إلى مصدر قديم داخله التحريف بعد ذلك. وتتميز إحدى القلعتين بكفاءة بالغة، نظراً إلى ما تمتاز به من موقع من الميناء، ومكان مرتفع أمثل فوق قمة صخرية بارزة، وتمتاز بحجمها الضخم. وبنى البرتغاليون أيضاً كنيسة يسميها العرب الجريسة، كانت لم تزل قائمة في فترة وجود موريزي في مسقط وتستخدم مقرّاً لإدارة

الحكم. ويعتقد الكاتب أن الاسم مجرد تحريف للفظ "إجرزا" التي تعني الكنيسة في اللغة البرتغالية.

يلاحظ منصور أن السيد سعيد أحاط عاصمته بسور حجري رقيق بهدف تحصينها، ولكن المدينة تجد ضمانها الأوثق من الحصانة في تلك الصخور الشديدة الانحدار التي أحاطت بها الطبيعة مسقط، والتي أقيمت عليها أبراج مراقبة يقوم عليها حرس دائم.

بُنيت بيوت مسقط من الحجر، وهي جيدة البناء. وكان السلطان حين غادر منصور مسقط يبني له فيها قصراً على نمط المعمار الأوروبي. ويعتقد هذا الرحالة أن ذلك القصر حين يكتمل سيشكل خلفية جميلة للقسم الأقدم من المدينة. وتضمّ المدينة عدداً كبيراً من النفوس يصعب تقديره، نظراً إلى توافد الأجانب إليها بصفة دائمة، ونظراً إلى رواج حركتها التجارية. ويقدر منصور عدد البانيان في مسقط بحوالى أربعة آلاف يتعاملون في نشاطات عدّة. "أما اليهود والنصارى فليس لهم في مسقط وجود دائم، لكنهم يفدون إليها عابرين غير مستقرّين. ويُرجح موريزي، رغم أنه لا يملك دليلاً إحصائياً كما يقول، أن يصل عدد السكان في مسقط إلى حوالى ستين ألفاً، وليس في ذلك تجاوز للحقيقة.

تغلب على موريزي عنصريته التي تنعكس نقمة على الأرض وإنسانها حين يقول:

"لا توجد في هذه الأرض التي تصطلي بأشعة الشمس وسائل للتسلية والترفيه، ولن تصادف في أوساطهم وجهاً تسرّك طلعته، فوجوه العرب سمراء كالحة. فلا ريب أن يعاني الأجنبي الكآبة التي غالباً ما تؤثر عليه نفسياً وتودي بصحته".

الإدارة في مسقط

يلاحظ موريزي أن السيد سعيد يشرف بنفسه على إدارة البلدية التي ينيط تصريف أعمالها بأقرب أصدقائه إليه. ويرى الشرطه المسقطية، شأنها في ذلك شأن نظيراتها في كافة المدن الشرقية الأخرى، تتسم بالاستبداد التام وتتعامل بالخرافات والشعوذة. ومع ذلك يمكن القول عموماً إن الأملاك الخاصة مصونة، خاصة تلك الراجعة للأوروبيين. ويعود هذا – في تقدير موريزي – إلى الاحترام الذي يظفر به البريطانيون في مسقط. ويضيف: "على الرغم من كراهية العرب للفرنجة وتآمرهم ضدّهم، قد يتمكن الأجنبي من إقامة صداقة حميمة مع بعضهم فيسعفه ذلك حين يكون في أمسّ الحاجة للمساعدة".

ملاحظات حول ظهير مسقط ودروبه

يقول موريزي إن سلطة السيد سعيد تمتد في ظهير عمان إلى مسيرة أربعة أو خمسة أيام. وتقوم حول مسقط جبال تنحدر نحو فلج، حيث يمتلك السيد محمد بن خلفان بيتاً محصّناً جميلاً جداً. وتمتاز الأراضي الرملية والصخرية التابعة لمسقط بحدائقها التي تروى من الآبار التي تتوافر في تلك الأماكن. وتعدّ سهول صحار أكثر تلك الأراضي إنتاجاً. أما الرستاق التي تقع على بعد أربعة وعشرين ميلاً من البحر، فقد عرفت بحديقة الجزيرة العربية. وترسل فارس إلى مسقط عبر ميناء بندر عباس العديد من الفواكه ذات المذاق الطيب، ليس من بينها التمر، فبساتين النخيل في الساحل الفارسي لا تكاد تمورها تفي بحاجات إنسانها من هذه المادة الحيوية، لكن تمور البصرة تستكمل هذا النقص.

يتفرع الدرب الخارج من مسقط على بعد حوالى ثلاثة أميال منها إلى ثلاثة اتجاهات:

- الاتجاه الأول يجري إلى اليمين عبر الصخور إلى مطرح، التي هي مدينة ساحلية تقع إلى الشمال الغربي من مسقط.
- الاتجاه الثاني الذي ينحدر يساراً ويفضي إلى قرية سيداب الساحلية.
- الاتجاه الثالث المتمثل في الدرب الأوسط الذي يقود إلى ريام، وهي بلدة مسوّرة على هيئة قوس، تتجمع فيها شبكة الطرق التي تربط المناطق الداخلية من عمان. ويتفرع أحد الطرق الخارج منها إلى اتجاهين: اتجاه جنوبي جنوبي شرقي يقود إلى بو شير أو بو شكير التي تقع على بعد أربعة وعشرين ميلاً من مسقط أو على مسيرة يوم واحد منها. وعادة ما يقصدها المواطنون للاستحمام في مياه ينابيعها الدافئة. ويتفرع هذا الطريق من هناك إلى فرعين يأخذ أحدهما اتجاهاً جنوبياً شرقياً ليصل إلى الرستاق، أما الآخر الذي يجري في اتجاه جنوبي غربي فيقود إلى جبال ابن روي.

من الدروب الأخرى المتفرعة من ريام، الطريق الذي يلتزم اتجاه الغرب ويسير مجانباً بوشكير التي يتركها على ميسرته ويقود إلى منطقتي سمايل وإزكي. ويخرج من ريام أيضاً طريق آخر في اتجاه الشمال الغربي وينتهي عند تخوم المدن والقرى البحرية التابعة للسلطان. ويبدأ من الجبال العالية التي تقع صور، عند سفوحها درب يمرّ عبر قليهات التي تقع إلى الشمال الغربي من صور ويتجه إلى الجعلان التي تكوّن ناحية من نواحي ظفار. وتنتهي حدود أرض السيد سعيد من الناحية الشمالية الغربية قريباً من مدينة البريمي التي تقع على بعد حوالى مئة ميل من البحر أو على مسيرة أربعة أيام. وتبدأ من ثمّ أرض الوهابيين التي تمتد من هناك عبر صحراء شاسعة تقطعها الإبل في حوالى عشرين يوماً إلى الدرعية.

يروي موريزي أن أحد أصدقائه من البدو أخبره أن المرء يستطيع أن يغامر ويسافر براً

من مسقط إلى مخا، وأن ينابيع المياه الشبيهة بالأفلاج التي توجد في تجاويف الصخور الجبلية الملتهبة تنتشرعلى طول هذه الطريق العامر بالقرى التي تقوم على جانبيه، والتي يمكن أن تفي بكل حاجيات المسافر الحياتية. ويلاحظ الرحالة أنه لم يصادفه من ادّعى أنه قطع هذه الطريق، فالاعتقاد السائد في أوساطهم أن أهل الجانب الآخر من جبال ابن روي يأكلون لحوم البشر، الأبيض منهم والأسود، لا يفرّقون! ويرجع موريزي رواج هذه الفكرة في ما يبدو له نتيجه للعوائق العديدة التي حالت دون اتصال الطرفين في مسقط وحضرموت منذ أمد، إلى درجة أن مراكب مسقط لا ترسو في تلك الأماكن أبداً.

يمكن القول إجمالاً – كما يلاحظ الشيخ منصور – إن الأرض التي تقع تحت حكم السيد سعيد من ناحية الساحل تمتد إلى حوالى ثلاثمئة ميل إيطالي من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي على امتداد ساحل الخليج. وتتصل أملاك السلطان الحالي بالجانب الآخر من الخليج. فبندر عباس أو جمبرون من توابعه، كما تتبع له أيضاً ميناء مكران من مقاطعه كتش في السند، ويمتلك من الجزر قشم ولاراك وهرمز، كما تمتد أملاكه إلى زنجبار في الساحل الأفريقي، والتي يسميها العرب السواحل.

خزانة السيد سعيد

تنشط في زنجبار النخاسة التي يرى موريزي أن العرب والأوروبيين يتعاملون فيها على حد سواء. ولا ينقطع سيل ورود الزنوج من الداخل الأفريقي إلى زنجبار. ويقال إن السلطان يجني من هذه التجارة المقيتة حوالى خمسة وستين ألف ريال. كذلك يجني السلطان من جمارك مسقط التزاماً قدره مئة وثمانون ألف ريال سنوياً. ويقوم بالالتزام تاجر بانياني ثري. ويُضاف إلى هذه المبالغ سنوياً خمسة آلاف ريال رسوم إجازة تصدير الملح من مناجم هرمز. ويحصل السلطان على مبلغ مماثل لهذا من موارد قشم ولاراك وبندر عباس. كذلك يجبي السلطان زكاة بلوش أهل مكران يقتطعها من فقرهم المدقع، هذا إضافة إلى مبالغ أخرى تأتيه من موارد أخرى من المناطق الأخرى التابعة لمسقط أوقات السلم، وتنقل أعداداً كبيرة من الجنود في وقت الحرب. ولميناء مسقط حوالى أربعين سفينة تتراوح حمولة كل منها بين أربعمئة طن وسبعمئة طن اشتراها العرب من إيل دي فرانس، وهي من السفن الإنجليزية التي غنمها الفرنسيون من الإنجليز في الحرب الأخيرة بين البلدين. ولهذا الميناء أيضاً عدد من الداوات وأنواع من المراكب الصغيرة الأخرى.

يرى موريزي أن خزانة السيد سعيد لا تقوم بمقابلة نفقات باهظة تثقلها. ولا يتكفل السلطان إلا بدفع رواتب حوالى ألفين من الجنود البلوش والجيديقال، إضافة إلى نفقات مئات

العرب الذين يؤلفون مع عبيده حوالى ثلاثة الآف. ويستطيع سعيد - كما يقول منصور - أن يعبّئ في أوقات الحرب عدداً يصل إلى عشرين ألفاً من المشاة وحوالى ألفين من الفرسان. ولما كان من غير الممكن أن تتحمل الخزانة النفقات الإضافية التي تتطلبها الحرب، وجب على التجار الإسهام في نصيب فيها.

أخلاق العرب

يقول منصور إنه لن يكرر ما رواه السابقون عن أخلاق الشرقيين، ولكنه سيسرد في كتابه - على أي حال - طرفاً من ملاحظاته عن الحياة الخاصة للعرب قد تفيد في إشباع نهم القارئ في هذا المجال. ويضيف أنه سيروي بضع ملاحظات ربما بدت تافهة في حدّ ذاتها، ولكنها تكشف عن سمات شخصية هؤلاء القوم بنحو أكبر مما قد تكشف عنه فذلكة معقدة، وروايات متأنقة.

يبدأ ملاحظاته بالقول:

> إن العربي يصحو من نومه حين تأخذ خيوط ضوء الفجر الأولى في الانتشار، وأول ما يتفوّه به صباحاً عبارة: لا إله الإ الله، ثم ما يلبث بعدئذ أن يمد يده إلى زميله المسلم الذي يرقد إلى جواره منبهاً إياه بالقول: الصلاة... الصلاة... الصلاة. ويتكرر هذا المشهد بعينه حتى حين يكون هؤلاء العرب مسافرين بحراً، ويبدو هذا الأسلوب غريباً "في أعيننا غرابة بارزة"، ولا تظهر على الشخص الذي أوقظ بهذه الطريقة أي دلائل تفيد بكراهته إجابة النداء، اللهم إلا إذا كان الشخص قد قضى ليله كله في العمل ثم انتابته مع الفجر غفوة.
>
> ينام العرب عادة في مجموعات، وهذا هو دأبهم في أي منطقة يكونون فيها ليلاً. وقد رأيتهم على هذه الحال في المدينة، وفي البادية، وفي البر أيضاً. ومن المعتاد وجود فقيه في كل مجموعة من هذه المجموعات. أما إذا لم يوجد في المجموعة مثل هذا الفقيه المعروف، فإن الإمامة الدينية فيهم ستكون لأكبرهم سناً أو لأكثرهم معرفة بالفقه. يبدأ الأذان بآية من القرآن: الصلاة خير من النوم (!) ويردد الآخرون وراء المؤذن هذه العبارة، هذا بالرغم من أن ترداد المرهقين منهم يتناقض مع دلالتها.

يلاحظ منصور أن الإسلام يحضّ أهله على ألا يقفوا أمام ربهم إلا وهم في حالة حضور ذهني خالص وطهارة بدنية تامة، فيغسلون أيديهم ووجوههم وأقدامهم. أما إذا كانوا في رحلة طويلة

في الصحراء و لم يجدوا ماءً فإنهم يستعملون الرمل في الطهارة ويتيمّمون.

يسترسل منصور فيقول إن العرب يتناولون إفطارهم باكراً، ويتكوّن إفطار أصحاب اليسار منهم من الخبز ونظائره، والسمك المقلي، إضافة إلى الشاي والقهوة. أما الفقراء فإنهم يقنعون بتناول التمر وقليل من الأرز المغلي. أما وجبة الظهر فيسميها الميسورون الغداء. ويتكون الغداء عادة من لحم مطبوخ بأشكال شتّى، أما الفقراء فإنهم لا يصيبون بعد وجبة الإفطار إلا وجبة العشاء التي هي الوجبة الرئيسة في اليوم عندهم. ويقنع الفقراء في هذه الوجبة بالأرز والسمك، أما مائدة العشاء في منازل الأثرياء فهي تتكون من الأرز (البلاو) الذي يطبخ مع قطع من اللحوم الحمراء أو البيضاء. ويلاحظ أن الجنس العربي عموماً غير شرهٍ في طعامه، ولا يتميزون بالبدانة. وقد "نستطيع أن نُفسر سبب الحمية التي يمارسونها بحرارة الجو التي تورث الزهد في تناول الطعام. وعلى الرغم من أننا معشر الأوروبيين نعتقد أن العرب يتميزون بالبلادة والخمول إلا أن الواقع يكذب هذا الاعتقاد".

يشهد منصور أنه رأى العديد من الحرفيين العرب يكدّون في عملهم، شأنهم في ذلك شأن الأوربيين. وقد عرف رجلاً يكسب رزقه من حرفة ثقب اللؤلؤ، كان يوالي عمله بنحو دائم طوال يومه. ولا يأنف الفقراء من العرب أن يعملوا لدى أي شخص يحتاج إلى خدماتهم. ويظلّ هذا دأبهم في أغلب فصول السنة حتى يحين موعد جني التمور، عندها لن تجد من يخدمك. فالتمر هنا هو مادة الحياة الأساس وثمنه زهيد جداً، ولن يضارّ أصحاب التمور بأن يتناول عابر السبيل تمرات يقتاتها من تلك الثمار الوفيرة التي رعتها الطبيعة. ففي وقت خرص التمور، وهو وقت الوفرة والسعادة، يستطيع البعض منهم أن يجلس تحت الأشجار طوال يومه يقرأ القرآن ويرتله، حتى إذا غلبه النعاس، راح في سبات عميق في ظلال الحدائق التي توفر له قوته، وتهيّئ له المأوى.

يستورد العرب الأسلحة النارية كما يستوردون السيوف الجميلة من خارج شبه الجزيرة العربية التي لا تعرف هذه الصناعات رغم أنها مألوفة، بنحو أو بآخر، في فارس وفي تركيا. ويستخرج عرب مسقط ملح البارود بكميات وفيرة، ولكن بارودهم رديء جداً ولا يصلح إلا في إطلاق قذائف مدفعية أداء التحية، أما البارود الذي يجلبه الإنكليز وعامة الأوروبيين، فإنه يتفوّق في نيرانه على البارود العماني بنسبة ٤ : ١.

يلاحظ أيضاً أن صيد اللؤلؤ والصناعات المتصلة به تهيّيء كثيراً من فرص العمل لسكان عمان الذين تشتغل نسبة كبيرة منهم في الغوص، وفي صيد الأسماك. أما أهل البادية فلا همّ لهم إلا السير في أعقاب إبلهم وسوائمهم الأخرى. أما الذين يمكن أن نسميهم المتعلمين فإنهم يقضون سحابة يومهم في تدارس أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وشروحها الكثيرة، بينما يُشغل الشيوخ، وكذلك السلطان، في معالجة المشكلات التي تطرأ بين رعاياهم، وفي

استعراض خيولهم. ولعل من الجدير أن نذكر أن العرب حريصون تماماً على رعاية الشؤون التي تهمهم، خاصة إذا تضمنت تلك الأمور متعلقات مادية.

المرأة

تناول موريزي الحديث عن المرأة العربية الذي يخوض فيه في العادة كافة الرحالة الغربيين، ويرى أنه في كافة المناطق التي تسودها ديانة محمد، صلى الله عليه وسلم، فإن المرأة تعامل معاملة الجارية، تُباع وتُشترى كما السوائم. ويروي أنه كان له دين على أحد العرب فطلب إليه أن يمهله في الأداء إلى حين يتمكن من عقد صفقة مربحة على ابنته الجميلة. ولقد عُرض على هذا الرجل في ابنته ألف قرش، ولكنه يرى أنه ثمن بخس، وصمّم ألا يتنازل عنها إلا مقابل ألف وخمسمئة قرش. ويضيف "في الحقيقة، بالرغم من أن الشرقيين يعاملون زوجاتهم كأنهم من جنس أدنى منهم لا يرقين إلى درجتهم في الإنسانية، يعاملونهن أمام الآخرين بأقصى درجات الاحترام".

المرأة في مسقط

يقول موريزي إن المرأة المسقطية تُعنى بالأعمال البيتية من تجهيز الطعام وما إلى ذلك، وتستغلّ من تعرف القراءة منهن ما بقي لها من وقت في قراءة القرآن الكريم. أما أعمال الغزل والنسيج وما يتصل بها فهي حرف نادرة عند نساء مسقط، فحرارة الجو تجعل هؤلاء القوم يكتفون بالقليل من الملابس التي يمكنهم أن يستوردوها من الهند بتكلفة أقل. "وفي الحقيقة فإن هؤلاء القوم لم يعرفوا بعد تلك النظم السياسية التي جعلت حكام أوروبا يحظرون على أنفسهم وعلى مواطنيهم كثيراً من متع الحياة، ولا حجّة لهم في ذلك إلا أنها مستوردة من بلاد أجنبية".

"من الجدير بالذكر أن المرأة الشرقية تتزين بتلوين حواجبها ويديها، ولكني رأيت في مسقط نساءً يلوّنّ كل جزء من أجسادهن بلون أصفر خفيف".

الزواج

يرى موريزي أن شريعة محمد، صلى الله عليه وسلم، تبيح إشباع الرغبات الجنسية بتعدد

الزوجات، إلا أن العرب – كما يقول – لا يستغلون هذا الامتياز كما يفعل الأتراك. فالقليل منهم من يتخذ أكثر من زوجة واحدة أو ربما زوجتين على الأكثر، والسلطان نفسه، لم يكن له – حال فترة وجوده بين ظهرانيه في مسقط – إلا زوجتين فقط.

يلاحظ أن العمانيين يحيون حفلات الزواج عادة بضرب الدفوف والنفخ في مزمار جلدي. "ولا يمكن وصف الموسيقى الصادرة عن هاتين الآلتين بأنها متناغمة". وتفاخر العروس عادة بما تملكه من ذهب ولآلئ وضروب الزينة الأخرى التي نجد مثيلاً لها في فارس وفي الأناضول. وتقام في مناسبات الأعراس ولائم صغيرة غير باهظة التكاليف حيث يقدم الطعام للمدعوين عند نهاية مراسم الاحتفال.

يلاحظ أيضاً اختلاف عادات الزواج في الشرق من منطقة إلى أخرى. ففي فارس حيث زواج المتعة يمكن الرجل أن يُطلّق زوجته ليومه من دون اعتراض من الفقهاء، أما في شبه الجزيرة العربية فإن الطلاق ليس بهذه السهولة. ويستطرد موريزي فيقول إن مسلمي تركيا يأخذون بما أباحه دينهم من تعدد الزوجات، ولا يجد الرجال حرجاً في استبدال زوجاتهم بأخريات كلما دعتهم الظروف إلى ذلك. ويشهد الشيخ منصور أنه قد تعرّف في كل هذه المناطق، كما تعرّف في شبه الجزيرة العربية، إلى رجال قضوا أعمارهم سعداء مع زوجة واحدة فقط ظلّوا يتمسكون بها حتى إذا اتخذوا زوجات أخريات.

وليمة

يلاحظ موريزي أن احتياجات العرب الشخصية قليلة جداً، ما لا يضطرهم إلى استخدام الخدم. وعلى وجه العموم فإن للأغنياء منهم عدداً من العبيد الذين يتولون إعداد القهوة، وهو أمر يتطلب الكثير من الجهد. وإن لمن الطريف حقاً أن تستمتع بسماع ذلك الرنين الذي يحدثه الزنجي بالمدق في الجرن حين يستغرق في ذلك العمل. يدفع الزنجي بالمدق إلى داخل الجرن وفق مساحات زمنية معينة، ويطرق به وفق نمط معين، فيحدث بذلك نغماً يبدو لسماعه كأنه رنين الأجراس.

حضر الشيخ منصور وليمة غداء كبرى أقامها السيد سعيد في منطقة ساحلية تقع بين سبى ومطرح، دعا إليها حوالى خمسين شخصاً وقدّم لها وصفاً طريفاً. ففي حوالى الساعة الواحدة مُدّت قطعة سجاد طويلة على الأرض، ووُضعت عليها أعداد كبيرة من الأطباق الصينية التي حوت حوالى خمسين دجاجة مشوية، وقدراً من قطع اللحم الكبيرة المطبوخة مع أوراق الشمندر أو الملفوف (الكرنب) أو السبانخ، كل على حدة. والجدير بالذكر أن هذه الأنواع من الخضر تزرع في الحدائق المحلية. وصُفّت على تلك السجادة أيضاً مجموعة أطباق أخرى

ملئت بأضلاع الضأن، أما منتصف السماط فقد ضمّ طبقين كبيرين من الخشب فيهما خراف مطبوخة بكاملها من دون أن تقطع وُضعت فوق كمية كبيرة من الأرز المطبوخ "البلاو". وانتهت هذه الوجبة الأولى، فأتوا بعد ذلك بما يسمونه الحلو، وهو يتكون من الأناناس المحفوظ بلب البرتقال ولب اللوز والزنجبيل. وانتهت الوليمة بتقديم عدد من أميز أصناف البرتقال الطازج الذي جُلب من بندر عباس خصوصاً لمائدة السلطان.

جلس المدعوون متربعين بعضهم إلى جوار بعض، دونما اعتبار لمقتضيات الوجاهة الاجتماعية وما إلى ذلك. وقد ضمّ هذا الجمع عدداً من شيوخ العرب، والتجار، وبعض أقارب السيد سعيد، وغيرهم، كانوا كلهم سواسية على مائدة السلطان. وحدث أن جلس إلى جوار منصور أحد الحكام، وراح يضحك من دواخله على مفارقات ذلك الحادث الذي وقع صباحاً حينما انفجر المدفع وكاد يودي بحياة ذلك الرحالة.

أقيمت هذه الوليمة لمناسبة تأسيس مسبك للمدافع تحت إشراف أحد اللاجئين الفرس لتجربة بعض المدافع التي صُبّت حديثاً. و لم تخلُ تلك المناسبة من الخطر، فقد انفجرت إحدى تلك الآلات البدائية على بعد حوالى خمسين ياردة من المكان الذي كان منصور يقف فيه، ويدّعي منصور أنه كان قد حرص على أن يبعد عن ذلك المكان كافة الحاضرين خوفاً من وقوع أي حادث يسبّبه جهل ذلك المهندس الدعي المسؤول عن المدفع. ويستطرد فيقول:

> وقد وقع الحادث الذي توقعته فعلاً، وتطايرت شظايا النحاس في كل الاتجاهات حولي، وسقطت إحداها فوق المظلة التي كنت أقف تحتها، ولكنها لم تسبب لي أذى. أما السلطان فقد كان حينها يقف على بعد مسافة بعيدة خلف الأسوار في مأمن، فصرخ: مسكين منصور! وأرسل بعدئذ عدداً من عبيده لتهنئتي بالسلامة والنجاة غير المتوقعة. أما الأمر الذي أثار في نفسي الدهشة كثيراً فهو أن ذلك الفارسي الوغد اتقى الحرج الناجم عن الأمر، وكذلك العقاب الذي ربما كان سيلقاه، بإصراره على إسناد فشله إلى شخصي بصفة كاملة.

يلاحظ موريزي أن الوليمة لم يكن فيها من السوائل "المشروبات" الا الماء النقي. ويلاحظ أيضاً أن العرب لا يتناولون الماء أثناء الطعام، بل يتناولون عدّة جرعات منه حين يفرغون من تناول الطعام. وانتهت تلك الوليمة بأن ردد كل واحد منهم عبارة: الحمد لله، ثم عاد كل منهم بقاربه إلى مسقط.

الألعاب

يقول منصور إن العرب عادة ما يروّحون عن أنفسهم إذا اجتمعوا بعد العشاء بممارسة عدد من الألعاب. ومن ألعابهم وضع اثني عشر كوكباً فارغاً في وضع مقلوب ويضعون تحت واحد منها خاتماً. ويكمن سر اللعبة في حزر الكوب الذي يغطي الخاتم. ومن ألعابهم أيضاً أن يعصب أحدهم عينيه بعصابة ثقيلة ويأخذ الآخرون في صفعه تباعاً، ويقع على معصوب العينين أن يحزر من الذي صفعه.

الصلاة

يأوي المسقطيون إلى النوم - كما يقول منصور - مبكرين، قبل الساعة العاشرة مساءً، حتى لو كانوا مسافرين في البر والبحر. وتنتهي فترة نومهم الأولى في الغالب بعد منتصف الليل. وحين النوم يفترش الفقراء منهم الغبراء، أما الآخرون فإنهم يفرشون الحصر أو المراتب المحشوة بالقش، يضعونها على هياكل خشبية ذات أربعة قوائم تشبه السرير الأوروبي. وينام الشيوخ والتجار الأثرياء فوق مراتب القطن التي تغطيها ملاءات السجاد الفارسي.

يلاحظ أن العرب لا يُبدلون الثياب التي يرتدونها نهاراً بملابس أخرى للنوم، فهم ينامون في ثيابهم ذاتها التي ينصرفون بها حين يصبحون لأداء أعمالهم. وينسحب هذا أيضاً على الأثرياء منهم، فهم لا يبدلون ثيابهم سوى مرّة واحدة أو مرتين فقط في الأسبوع.

"يُؤدي المسلمون الورعون الصلوات خمس مرات في اليوم وفقاً لمواعيد محددة يراعونها بقدر كبير من الدقّة والضبط. وتُعدّ الصلاة الوسطى، هي التي يُؤذّن لها قبل غروب الشمس بحوالى ثلاث ساعات، أكثر صلواتهم قداسة، ويحددون وقتها حينما تصبح المسافة الفاصلة بين ظلي الرأس والقدم حوالى ثلاث ياردات".

"يتجه المسقطيون في صلاتهم غرباً تجاه مكّة المكرّمة. وإذا حدث أن حلّ أيّ من المسلمين في بلد ما فإنه لايبرحه حتى يتبيّن اتجاه المسار الذي سيسلكه حتى لا يفقد اتجاه القبلة. وبما أن المعرفة الجغرافية في هذه المنطقة من العالم ضئيلة، فقد كنت كثيراً ما أستمتع حينما أكون مسافراً بحراً بذلك الجدل الذي يثور بين الفقهاء حول هذه النقطة المعقدة".

ضروب من النشاط الاقتصادي

يدّعي موريزي أن مباهج أوروبا الكثيرة ورهق الأعمال التي عادة ما يمارسها الأوروبيون للوفاء

بها غير معروفة أبداً في أوساط الشرقيين. فالعربي لن يضيّع وقته في الحلاقة أو في تنظيف ردائه بالفرشاة، أو في تلميع حذائه، أو في غير ذلك من العادات التي حتّمها على الأوروبيين الحرص على الأناقة وحب الاستحسان. ويلاحظ أن العرب القاطنين في كافة مناطق شبه الجزيرة العربية الشاسعة، ولا يستثني من ذلك الفلاحين، لا يجهدون أنفسهم ولا يعرفون تلك المشاق الكبيرة التي يتكبدها العديد من سكان أوروبا التي عادة ما تكون نتائجها وبالاً عليهم. فالنخلة هنا تدرّ نتاجاً وفيراً بنحو ذاتي تقريباً، والبقول لا تزرع هنا إلا نادراً، ويمكن القول في هذا المجال إن أياً من هؤلاء العرب لم يتناول في حياته أكثر من مئة رطل من الذرة الشامية، و لم يستثن من هذا التقدير إلا عرب العراق.

ينسج بعض نسوة شبه الجزيرة العربية نوعاً من "الشالات"، ولكن هذه الصناعة غير رائجة كثيراً على أي حال. وتتولى النساء عادة ترتيب شؤون المنزل وتنظيف ما قد يوجد فيه من أثاث قليل. ويقضين ما بقي لهن من وقت في تلوين أيديهن ووجوهن بالحناء، ويبذلن جهودهن في مراعاة أصول النظافة والطهارة التي هي فرض في ممارستهن لطقوس الدين والعبادات، كذلك فإن الطهارة تجعلهن مقبولات في عيون أزواجهن.

المأتم

يرى موريزي أن المآتم بدورها بسيطة أيضاً. تُغسل الجثة وتُلفّ في رداء كتاني أبيض اللون، ثم يحملها أقارب المتوفى وعدد قليل من الأصدقاء إلى المقابر التي لا تبعد كثيراً عن المدينة. وحين يعود المشيّعون من المقابر يو لم أوثق المقربين من أقارب المتوفى وليمة للحاضرين. أما النسوة فيعبّرن بالنحيب والصراخ عن حزنهن، وتعدد كل واحدة منهن الخسائر التي نزلت بها بفراق ذلك المتوفى.

مقتل بانياني ثري

يلاحظ موريزي أن علاقات الأفراد في هذا المجتمع أقل تعقيداً من مثيلاتها في أوروبا. فكل القوانين المنظمة لعلاقات المجتمع تقع بين دفتي كتاب واحد هو القرآن الكريم. ويذهب إلى القول إن المحامي الذي يفد إلى مسقط سيموت جوعاً بالتأكيد. ويفيد بأن السجون في مسقط خاوية على عروشها، وقد قيّض له أن يزور السجن عدّة مرات و لم يصادف إلا سبعة سجناء فقط في إحدى زياراته، كان اثنان منهم من الزنوج تمرّدوا على سادتهم، أما الآخرون فكانوا

من العرب الذين تورطوا في سرقة بعض الأشياء، كذلك لم يسمع خلال فترة وجوده في تلك البلدة التي يقول إنها امتدت لعامٍ كامل عن تنفيذ عقوبة الإعدام إلا مرّة واحدة، وذلك عندما أُعدم هندي من راجيبوت عقاباً على جريمة غريبة.

كان للراجيبوتي دين قدره خمسمئة ريال على أحد أثرياء البانيان، وماطل البانياني الذي كان ملتزم جمارك ميناء مسقط في أداء الدين. ويشهد منصور بأن ذلك الرجل كان مشهوراً بالمماطلة واستغلال العمال، حتى إنه كان في بعض الأحيان يحرمهم أجورهم. وهدد الراجيبوتي بأنه سوف يستخلص حقه بالقوّة ما لم يسدّد البانياني دينه خلال أربع وعشرين ساعة. ورفع البانياني أمر التهديد إلى السيد سعيد وعبّر عن مخاوفه من أن يقوم الرجل بتنفيذ ما هدده به، فأمر له السيد بتعيين جندي لحراسته. وفي الموعد المحدد في اليوم التالي جاء الراجيبوتي إلى منزل غريمه وتمكن بضربة واحدة من سيفه أن يودي بحياة ذلك الحارس، ثم اقتحم المنزل، وبذلك السيف ذاته الذي كان لا يزال يقطر دماً أطاح رأس عدوّه الكريه ثم ولّى هارباً. وبعد ثلاثة أيام وُجد الرجل مختبئاً في أحد المساجد، فاقتيد من فوره وسُلّم إلى أقارب الحارس القتيل. وشدّ هؤلاء الأخيرون وثاق يدي القاتل ورجليه، ثم وخزوه بالسيف عدّة وخزات في أماكن متعددة من جسده قبل أن يريحوه بالطعنة القاتلة.

رمضان ومكابدة الصبر

يفيد موريزي بأن البلاد العربية تؤرخ وفق التقويم القمري، وتقسّم السنة إلى أشهر قمرية، منها الشهر المعروف برمضان الذي هو شهر الصيام والتقوى. ويلاحظ أن المسلمين يصومون في رمضان ثمانية وعشرين يوماً لا يتناولون في الفترة من شروق شمس كل يوم حتى مغيبها طعاماً ولا شراباً. فإذا غربت الشمس يستطيع الفرد منهم أن يتناول من الطعام والشراب ما يحفظ عليه حياته. ويعبر عن رأيه بأن العرب يعانون من الصيام أكثر من أي أمّة إسلامية أخرى، لأن مناخ بلادهم غير محتمل حيث تشتدّ الحرارة بدرجة كبيرة. ولكن رغم هذا العناء، فإنهم يراعون واجبات الصيام بكل صرامة.

"حين كنت في الأستانة في شهر نوفمبر وحلّ شهر رمضان، لاحظت أن احتمال حدة العطش كان ممكناً. ومع ذلك فإني أعتقد أن الامتناع التام عن تناول كافة السوائل خلال اليوم أمر يفوق الاحتمال حتى في تلك المناطق الباردة نسبياً، خاصة إذا وافق شهر رمضان شهري يوليو وأغسطس".

يقول موريزي إن الأثرياء يقضون سحابة يومهم خلال شهر رمضان في النوم. ولكن ماذا يكون من أمر الفقير الذي لا يستطيع إلا أن يكسب قوته بالكد والعرق؟ ويخلص إلى القول:

لا بد أن معاناته ستكون قاسية. وعلى وجه العموم، يمكن القول إن العرب هم الجنس الوحيد في العالم الذي يبزّ كافة الأجناس الأخرى في تنظيماته الاجتماعية، ويمتاز بمبادئه التي تنبع من قوّة تأثير أفكاره الدينية. وأجد أن العرب أكثر أعراق الدنيا نجاحاً في الأمور التي تتطلب قدراً كبيراً من الصبر، ولذلك فإن مراعاتهم التامة لقواعد الصيام في رمضان لا تبدو لي أمراً مستغرباً. ويرى أن صبر العربي يتمثل في كافة ضروب حياته، فهو يقنع بعدد من تمرات يقيم بها أوده، وأن كثيراً من المسنين لم يذوقوا طوال حياتهم طعاماً غير التمر إلا من رحم ربي. كذلك يسير العربي حافياً فوق رمضاء الرمال التي تضربها أشعة الشمس عمودياً، وتراه يستقبل برأسه الحاسر تلك الأشعة المتوهجة من دون أن يشكو. وقد تستغرق الرحلة من العربي عدّة أيام، يسير نهاره كله على هذا النحو، حتى إذا دهمه الليل افترش الغبراء، لا يعرف له سريراً غير الثرى. أما إذا نزل بالعربي المرض، واعتصره الألم، فلن يصدر منه ما ينمّ عن التأوّه. وحين تحيط به الأمراض، وتلفّه النكبات من كل جانب، وتدلهمّ به ضروب المصائب، فإنه لا يفعل أكثر من أن يصرخ قائلاً:

> الله أكبر.
>
> لم أسمع أن عربياً واحداً تلفّظ بما لا يجوز في حقّ نبيّه أو في حقّ خالقه، ويعود ذلك إلى روحه المؤمنة بالقضاء والقدر. إن العربي لا يزال ينظر إلى القرآن (الكريم) تلك النظرة القوية الشفوقة التي ميّزت أسلافه، وهو، مع ذلك، لا يسعى إلى دفع الآخرين واستمالتهم إلى الدخول إلى رحاب دينه، ولن يبذل ولا ريالاً واحداً لدفع النصراني لمفارقة دينه.

السحر والتعاويذ

وجد موريزي في بعض المدن العربية، مثل مسقط، اعتقاداً في بعض الأوساط بقوّة السحر، ويعتقدون أن للسحرة قوّة تحويل الرجل إلى تيس. ولهذا نجد أن هؤلاء الذين يؤمنون بالسحر يدققون النظر ويتفحصون العنز التي يزمعون شراءها، حيث يعتقدون بوجود علامات معينة تدلّ على العنز التي تحولت بالقوّة السحرية. وقد أكد له أحد خدمه أن عنزة ما نطقت بالعربية الفصحى، وطلبت إلى سيدها عدم ذبحها. ويدّعي أن هذا الخادم أصيب بالذعر حين رآه يوماً ما يقوم بضرب أحد هؤلاء المشعوذين، "رحت أجرّه من لحيته إلى أحد الفقهاء لتجريمه، فأنا أدرك أن القرآن الكريم يحظر بصفة قاطعة أعمال هؤلاء المدلسين، ومع ذلك فقد كان بعض خدمي يخشون عليّ مغبّة ما قمت به وعقابيل هذا الأمر، وتوقعوا أن أصحو من نومي

ذات مرّة وقد نبتت فوق رأسي أو برز من جبهتي قرنا تيس". وعموماً فلن يستوقفنا هنا أمر حوادث الشعوذة العربية، فأمر معالجتها هيّن، لأن كثيراً منها ينشأ عن تفكير الأشخاص المتخلفين وعقلياتهم.

يشير موريزي إلى أن العديد من المسلمين يضعون عصابات حول أذرعهم تحمل علباً فضية، لمن يستطيع اقتناءها، أو علباً من أي معدن آخر، توضع في داخلها أوراق مكتوب عليها آيات من القرآن. ويفترض أن تحجب هذه التعاويذ عن حاملها العديد من ضروب الشر. ونجد أيضاً أن بعض الأتراك، وبعض العرب كذلك، يضعون داخل هذه العلب أوراقاً تحمل كلمات معينة يكتبها لهم بعض الدراويش المشهورين.

حجر الفلاسفة

يستطرد منصور في رواية أحاديث خرافية، فيحدث بأنه قابل بعض العرب الذين ألحّوا في سؤاله عن حجر الفلاسفة، وكانوا يعتقدون جزماً بأن الأوروبيين يدركون كنه ذلك السر المربح الذي يحوّل خام الرصاص أو الحديد إلى ذهب نضار. ويدّعي أنه أنكر وجود مثل هذا الأمر، وجادلهم في أن جنود البحر الأوروبيين ما كان لهم أن يعتدوا على السفن العربية وينهبونها إذا كانوا يملكون هذا الفن الذي من شأنه أن يهيّئ لهم من الأموال ما يشبع نهمهم. و لم يقتنع هؤلاء الرجال بهذا الدليل العقلي. "وفي الحقيقة، فإن بعض المحتالين من الفرس والأرمن، وبعض الأوروبيين، يتظاهرون بأن لهم القدرة على ذلك الأمر". يأتي هؤلاء المحتالون بثلاثة قضبان من الحديد، وبعدد مماثل من قطع الذهب، يضعونها خلسة في إناء يضعونه على النار، ويأخذون أمام المشاهدين في صبّ الإكسير الأعظم في ذلك الإناء، ثم يرمون قطع الحديد أو الرصاص، ويستخرجون بعدئذ أمام المشاهدين المشدوهين تلك القطع الذهبية، والكل مشدوه بما يرى. ولن يفشل ذلك المحتال في بيع قدر كبير من ذلك المحلول الكيميائي الذي أنجز تلك النتائج المدهشة.

من مفارقات موريزي

يروي أنه أراد أن يروّح عن نفسه "بالضحك على هؤلاء العرب، وكنت ذات يوم قد أخذت بعض معداتي وخرجت لأتفحص مياه بعض الآبار". تجمعت حوله جماعات من العرب يستطلعون ما يقوم به، ويسخرون منه ويقهقهون، فهم يعتقدون أن الأوروبيين قوم

من المجانين. جادلهم في أنه ليس مجنوناً، خاصة إذا كشف لهم عن السر الذي جعله يقوم بهذا البحث، وأضاف أن أحد البرتغاليين كان قد ألقى كنزاً في بئر في مسقط وصفها بأنها الأوفر مياهاً، وهو يبحث في هذه البئر عن ذلك الكنز المفقود لاستخراجه، واستخلاصه لنفسه، لأنه الوريث الوحيد لتركة أهله الأوروبيين. وما إن سمع العرب كلمة كنز، تلك الكلمة التي لها في نفوسهم وقع سحري غريب، حتى أنكروا كل حق له في تفحّص تلك الآبار، وانبروا يتدافعون بعضهم في إثر بعض إلى قاع البئر. وانصرف الشيخ منصور عنهم وتركهم على حالهم تلك و"هم يزعقون ككلاب البحر، ودخلت منزلي وأنا أكاد أختنق من الضحك".

الموسيقى والترتيل

يلاحظ موريزي أن للعربي شغفاً بالموسيقى، تجده يرفّه عن نفسه بالنقر على طبل صغير، أو يعزف على جيتار ذي وترين، أو ينفخ في مزمار جلدي من القرب (موسيقى القرب). ويرى أن مثل تلك الآلات بسيطة ببساطة متناهية. ويسترعي الانتباه أن الأصوات المتجانسة المتناغمة التي تثيرها تلك الآلات تؤثر في هؤلاء الناس تأثيراً كبيراً. "فهم مغرمون بالغناء بنحو مثير، حتى لنجد أن صلاتهم يؤدّونها بنوع من الترتيل".

احترام الرحالة

يدّعي موريزي أن الدارسين للبيئة كانوا في زمانه يلقون كل مساندة في البلاد العربية، ولن تتعرض بحوثهم أو توقفها أي عقبات. والمهندسون المعماريون، والطبيعيون، يجدون في أسفارهم الاحترام، ويظفر الطبيعيون خاصة بإعجاب الشرقيين. ويرى أن العرب قوم يمتازون بالكرم، ويجد أن مشاركتهم في الأكل مع النصارى لا تبدو عندهم أمراً غير عادي. فليس العرب بالمتوحشين الذين يفرون حين يقابلون أوروبياً، فالأوربي يمكنه أن يقطع الصحارى في زيّه الوطني من دون أن يخشى شيئاً. قد يتجمهر حوله بعض الصبية والنسوة بدافع الفضول والنظر إلى ملامحه وملابسه، وقد يعبّرون عن إعجابهم بتفوّقه لأنه "أبو مدفع"، فهم يعتقدون أن كل أوروبي مدفعي بالضرورة. وينتهي موريزي إلى أن الأوروبي يجد الحماية والاحترام في البلاد العربية كلها، وأن القضاة يأخذون بشهادته، ويثق التجار بكلمته ويعتبرونها مثل الذهب. "إن نجاح الحملة الفرنسية في مصر ونجاح كل من روماتزوف وسيواروف وعبور

الإنجليز مضيق الدردنيل وحملات حكومة الهند على الخليج، جعلت للإنجليز هيبة مشوبة بالخوف في نفس العربي".

لغة المسافر

يرى موريزي أن العقيلي، وهو اللقب الذي يطلق على الجندي العربي الذي يعمل في حراسة المسافرين عبر الصحراء أو على ضفاف دجلة والفرات، جدير بالثقة الكاملة جرّاء تلك الفضائل التي يعكسها سلوكه وهو يؤدي التزامه بتجرّد. ويضيف أن هناك حراساً أتراكاً، وهم التتر الذين يعاملون من يحرسونهم كإخوانهم تماماً. ويستطرد فيقول إنه من المعتقد عموماً أن معرفة اللغة العربية لازمة للأوروبي الذي يزور هذه المناطق، ولكنه يعتقد من واقع تجربته الخاصة خلاف ذلك، حيث استطاع أن يعوّض نقص المعرفة بالعربية باللغة التركية، وخاصة أن حرس عقيل جميعهم يعرفون التركية إلى جانب اللغة الأم. ويضيف أن عدداً من الأرمن والإغريق الموجودين بكثرة في هذه المناطق قادرون على التحدث بالتركية، كذلك فإن اللغة التركية تظفر في فارس بتقدير خاص. ويتحدث أغلب أثرياء تجار العرب هذه اللغة أيضاً. فحتى مطلق القائد الوهابي الذي تحدثت إليه أثناء إحدى جلسات المفاوضات مع سلطان مسقط كان يستطيع أن يعبّر عن أفكاره بهذه اللغة الواسعة الانتشار.

مذاهب المسلمين

يعتقد الشيخ منصور أن الطبقات الدنيا من المسلمين تنتمي إلى أربعة مذاهب رئيسة. وهي السنّة والشوافع، والخوارج، والمالكية. ويضيف أن معتنقي هذه المذاهب كان يبغض بعضهم بعضاً سابقاً، انطلاقاً من التعصّب الديني، ولكن تلك الأفكار المتعصبة قد ذابت حالياً إلى حدّ بعيد. ويشير إلى أنه كثيراً ما رأى أصحاب هذه المذاهب في المساجد يقيمون الصلوات بنحو جامع، ولكن لا يزال بعض المتهوسين، مثلهم مثل آخرين في مناطق أخرى من العالم، يخرجون عن هذه الدائرة المتسامحة التي تضمّ كافة المسلمين الذين يعدّون كل من نطق بالشهادة المشهورة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، جديراً بالسعادة الأبدية. ويعبّر موريزي عن جهل عميق حين يرد نشأة المذاهب إلى الحرب بين عمر وعلي رضي الله عنهما، التي أدت إلى انهيار "الحكم الفاطمي". ويضيف هذا الرحالة إلى جهله خلطاً آخر حين يدّعي أن الفوارق المذهبية في أغلب المناطق في الشرق تعالج بعدم اعتبار نسبي، ولكن في

القسطنطينية مثلاً، فإن الشخص الذي يتبع المذهب الشافعي ويقرّ بذلك علناً ويجاهر به، فمن المؤكد أنه يجرّ على نفسه خطراً وبيلاً. وقد شاهدت في بغداد أحدهم يضرب سُنّياً في الشارع أمام الملأ.

الجمارك

يرى موريزي أن الطغيان الآسيوي لا يعبّر عن نفسه في دائرة الشرطة (في الدولة العثمانية)، فكل إنسان مهما كانت هويته أو ملته يستطيع أن يدخل البلاد ويغادرها من دون أدنى مضايقة، وهذا عكس ما هي عليه الحال في أوروبا. ويقترح على موظفي الجمارك الشرقيين أن يتعلموا سوء المعاملة من العاملين في هذا المجال في أوروبا. ويذكر أنه حينما وصل ساموريبا، سكرتير القنصل الفرنسي في بغداد، إلى مقرّ عمله في تلك البلدة، أرسل إليه صاحب خزينة الباشا عدداً من موظفيه إلى مسكنه لفحص متاعه، فما كان من هؤلاء الموظفين إلا أن فتحوا حقائب الرجل وأغلقوها من دون أن ينظروا إلى ما بداخلها.

الأجانب في الخليج

يقول موريزي إن الأجانب في الخليج هم في الغالب من الصابئة واللوتية والبانيان. والصابئة نصارى من أتباع يوحنا المعمدان، ويرى هذا الرحالة أن البعض ينظر إلى الصابئة أحياناً على أنهم مسلمون، لأنهم يستطيعون ترداد آيات القرآن الكريم. أما اللوتية فهم – في تقديره – يرجعون إلى قبيلة من القبائل التي ترتحل باستمرار ولا يقرّ لها قرار، وهم يشبهون غجر أوروبا. ويضيف أن أعداداً كبيرة من هذه القبيلة تتجول حول منطقة مطرح. أما البانيان فهم موجودون بكثرة في هذه المنطقة تراهم حيثما توجهت، ولكنه يجد أن أعدادهم تزداد بصفة خاصة في مسقط. فقد أسبغ عليهم السلطان العديد من الامتيازات، وهم بسلوكهم الحسن، وبثرائهم أيضاً، يلقون تقديراً عاماً واحتراماً في هذه المنطقة خاصة.

يتعصّب هؤلاء البانيان – كما يفيد موريزي – لعبادة البراهما. ويلاحظ أن تخوم مسقط تزدحم بأبقارهم الهانئة التي تنعم بالكلأ، والتي يرعاها مواطنو الهندوستان، هؤلاء الذين يرون فيها تجسيداً للإله الذي صعد إلى السماء على ظهر هذا الحيوان. وتراهم يبجلون أيضاً كافة الحيوانات الأخرى، مثلهم في ذلك مثل أتباع كلورنيلوس جانسون. فهم لا يأكلون أي نوع من اللحوم، مهما كان مصدره الحيواني، ولا يتناولون السمك، ويمكن أن يعد تعدياً شنيعاً منك

إذا حاولت أن تقتل ذبابة وأنت في معيّتهم. ويلاحظ موريزي أن صائدي الأسماك يأتون إلى هؤلاء البانيان بالسمك حياً فيحصلون على ثمنه لقاء وعود منهم بأنهم سيعيدون السمك إلى البحر مرّة أخرى. وعليه تجدهم يحرصون على تجنّب مثل هذه اللقاءات التي تكلفهم شططاً للقيام بواجبات معتقداتهم الدينية. ويضيف موريزي أنه على الرغم من أن البانيان يعتمدون في غذائهم بصفة كاملة على الخضر والأرز واللبن والزبادي، إلا أن أجسامهم تتميز بالضخامة وقوّة البنية. والجدير بالذكر أن البرص، وهو من الأمراض المنتشرة في الشرق، يندر أن يصيب هؤلاء القوم. ويلاحظ أن الحتليت إضافة إلى توابل أخرى كثيرة تمثّل في طعامهم قيمة كبرى. ويفيد بأنه عندما يصاب البانياني بوخز الضمير على ذنب اقترفه، يسرع إلى البقرة يقدم إليها الشعير أو أي نوع من العلف، كما يقدم إليها العلف أيضاً إذا حزبه أمر كان حريصاً على إنجازه. ويعدّ ما يقدمه هذا الرجل للبقرة في الحالة الأولى عملاً من أعمال تكفير الخطايا والذنوب، أما في الحالة الثانية فهو صدقة يستجدي بها عطف ذلك الإله.

يرى موريزي أن البانيان يمتازون بنشاط جمّ، ما جعلهم يسيطرون على كافة المعاملات المالية في شبه الجزيرة العربية، وهم في ذلك مثل اليهود الذين يسيطرون بدورهم على مثل هذه المعاملات في تركيا. ويتّسمون بالانضباط، حتى إنه لم يسمع أبداً أن اتصالاً جنسياً وقع بين سيدة بانيانية ورجل من النصارى أو المسلمين، كما يلاحظ أن رجال البانيان لا يتزوجون من نساء عربيات أبداً، "وذلك للحواجز الدينية وأيضاً للمحافظة على نقاء السلالة".

البرتقالة الأفريقية

يمكن شراء العبيد السود من أسواق مسقط - كما يفيد موريزي - وقد سمح له السلطان ذات مرّة بشراء فتاة أفريقية، اسمها طرنجية، والاسم حين يترجم عن لغتها يعني البرتقالة. قال له أحد خدمه من العرب إنها جلبت من غندار في الحبشة، ثم نقلت إلى بربرة ثم إلى المخا. ويدّعي موريزي أنه تمكن من أن يتعلم بعض كلمات من لغتها: فالأوروبي عندهم يسمى زنجو، ويقول إنه لا يعرف المعنى الدقيق لهذه الكلمة، أما إذا أراد أن يسأل عن: "ما معنى هذا الشيء"؟ فكان عليه أن يقول: نيني جعبة؟ وعن طريق هذا السؤال الأخير الذي أدمن الرحالة استعماله، تعلم من تلك الجارية البائسة عدداً كبيراً من المفردات التي لن يفيدنا الزج بها في هذا المجال. ومع ذلك يثبت الرحالة بعض الكلمات من لغة خادمته ومنها: كونيدا التي تعني: يأتي، أو يذهب، أو يفارق، أو يصعد، أو يجري. أما كوبي فتعني: ينكسر، أو يقع، أو يحدث سوءاً. ومن شواهد هذه المفردات التي ذكرها موريزي في هذه العجالة استطاع القول إن تلك اللغة ضحلة جداً، يستطيع كل من يعرف حوالى مئتي مفردة من مفرداتها، أن يسافر عبر تلك البلاد

وأن يكون حديثه مفهوماً بنحو مقبول.

عندما يتقابل أحد الزنوج التابعين للسلطان مع زنجية، فإنه يلقي عليها التحية الآتية: جامبو، والكلمة تعني الحب، وتجيبه الزنجية: أيا مبو سنا، والإجابة تعني: هل أنت بخير يا صديقي؟ فيرد الرجل: سنا... سنا، أي بخير... بخير.

كانت طرنجية في حالة رعب دائم من سيدها، فقد كانت تخشى - كما يقول - من أن يلتهمها. وقد عمل من جانبه على تهدئة روعها، فدفع بها إلى أحد العرب. ويضيف موريزي أن البعض قد لا يدرك أن روح التسامح تتزايد بنحو متصاعد بين عرب هذه المنطقة، وقد يدهش هؤلاء حين يعرفون أن السلطان سمح له بشراء خادمة مسلمة. ويؤكد أن التعصّب ضدّ النصارى قد خفّت حدّته في هذه المنطقة، وتضاءل إلى درجة أن الاتصال بين الأوروبي ومومس من الوطنيات ما عاد يسترعي الانتباه، ولكن إذا حدث مثل هذا الأمر في تركيا، فلربما عرّض النصراني نفسه لخطر عظيم.

عادة تخزين المخدرات في الفم

يقول نيبور إن العربي اعتاد أن يضع في فمه قطعة من نبات الـ Chestmt؟ (القات) "وأجد من جانبي أن هذه العادة ما زالت تمارس بين عرب اليوم". يجعل العربي هذه المادة مع قطعة صغيرة من نبات الحشيشة وبعض الأفيون في لفافة من ورق يسمى طامبول Tambul، فتصبح في حجم كف الصبي الصغير، ثم يضعها في فمه، ويعتقد أن لهذا الخليط أثراً جيداً جداً على صحة الإنسان.

السلاح عند العرب

يقول منصور إن سلاح العربي يتكوّن من الحربة والخنجر والسيف، وهم يتخذون الدروع التي يصنعونها من جلد الحوت، أو جلود أسماك كبيرة أخرى، ويكون سمكها في حجم سمك الإصبع. أما شكلها فهو يشبه الصحون الكبيرة التي يستعملها الريفيون الإيطاليون في تقديم حساء الخضر. وهذه الدروع قوية تماماً، وتبدو في مناعتها كأنها يمكن أن تصد قذيفة مدفع. أما الأسلحة النارية المستعملة هنا فهي البندقية ذات الفتيل، ولكنّ المقاتلين الذين كان يقودهم المطيري لم يكونوا يملكون بندقية من هذا السلاح البدائي. وقد حصل السيد سعيد في الفترة الأخيرة على مسدسات وردته من بومباي. ويفيد بأن الإمام عمل

على تسليح فرسانه بهذا السلاح، كذلك أرسل إليه الجنرال ديكان من الموريشوس مدفعي ميدان خفيفين، وأيضاً بعض مدافع المورتارز هدية خالصة له. ويعتبر جيش مسقط الآن مُعدّاً على النمط الأوروبي. وترى السلطان في أوقات السلم يتسلح بخنجر البلوش المزين بنحو فاخر، ولكنه عند الحرب يستغني عن مثل هذه الأسلحة، ويتخذ أسلحة أخرى أجدى نفعاً وأقل فخامة، لتعينه على الدفاع. ويرى منصور أن الدراية التي يتعامل بها العربي مع حصانه في الميدان، خاصة عرب الوهابيين، أوفر من تلك التي يتعامل بها المماليك مع هذا الحيوان.
يضيف موريزي أن الأتراك والفرس والعرب كذلك أصابوا لهم دراية نسبية بتشغيل المدفعية، وتعلموا أيضاً بعض فنون الحرب الأوروبية، ولكنها لم تكن مجدية تماماً. فعندما تقدمت طوابير الحرب الروسية ضدّهم بمدافعها المشحونة بقذائفها، هرب المدفعيون الأتراك تاركين مدافعهم. ويدّعي أن أحد الجنرالات الروس أخبره أن أمثل الإجراءات التي يمكن أن تعارض بها جيشاً شرقياً هي أن تباغت معسكرهم بقصف من مدافع أثقل عيار ممكن، وبعد أن تؤدي الضجّة التي يحدثها الدويّ دورها في نفوسهم، تستطيع بعدها أن تهاجم المشاة.

منصور يدخل في حرج

إذا كنتُ من الذين يهتمون للشكليات، و لم أحاول دائماً، خلال إقامتي في أوساط العرب، أن أستثمر الظروف لانتقاء أفضلها، فما كان لإقامتي الا أن تكون سحابة قاتمة تخيّم على حياتي تمطرها شقاءً وتزمتاً. وكان علي في هذه الحالة أن أعتبر نفسي - دونما داع - بائساً حقاً.
يعدّ هؤلاء القوم من "لا يقدس" محمد صلى الله عليه وسلم وكل من لا يتقيّد بمنهج القرآن الكريم كافراً. ويشير إلى أنه كان - بالطبع - معدوداً في هذه الفئة. وبالرغم من اعترافه بأنه كان دائماً يتمتع في أوساط العرب بكثير من العطف والتقدير، فقد خاطبه ذات مرّة أحد العرب من معارفه قائلاً: يا منصور، أنت شجاع وطيب وأمين على الرغم من كونك كافراً.
وفي الحقيقة فإن البعض قد يستاء عندما يوصم بمثل هذا اللفظ الذي يمكن أن ينعت به الحيوان، لأنه يحمل في دلالاته معاني جارحة، ولكن بالرغم من هذا، لم أملك إلا أن أبتسم حين سمعت تلك العبارة التي قصد منها الشكر والتقريظ.
يذكر الشيخ منصور في مجال شعوره بالإساءة من قبل العرب أنه جاء إلى منزله ذات مرّة رجل يسوق حصانين مريضين من خيول السلطان، وطلب إليه أن يعالجهما. ولما كان الرجل، بحكم منصبه - كما يقول - طبيباً للخاصة، فقد شعر بالإساءة حيث عومل على أساس أنه طبيب بيطري. وبناءً على ذلك فقد طرد ذلك الرجل وحصانيه وأسرع إلى القصر يشكو إلى السلطان ما لقيه من إساءة. قال له السيد سعيد: " لا تغضب يا منصور، فأنا الذي أرسل

الحصانين إليك! لماذا لم تلتزم أوامري وتعمل على معالجتهما؟" ولاحظ منصور أن الإمام كان جاداً وهو يتحدث معه في هذا الصدد. و"لذلك فقد أنتقيت ألفاظي وأجبته بأن المهنة التي حملتني إلى مسقط هي مهنة الطب، وليست البيطرة. وأجاب الأمير بخطاب موجز، لكنه غير منطقي: عندما يمرض أحد جنودي أو أحد عبيدي، يمكن أن أرسله للعلاج لدى أي أحد. فالعبد لا يكلفني شيئاً كثيراً. يمكنني شراء العبد بخمسة وعشرين ريالاً فقط. ولكن إذا مرض لي حصان ممتاز، فإني لن أستطيع أن أعوضه بأقل من ألف كرونة. فأجبته بأني أعالج الرجال الذين هم في منزلتي سواء بسواء، وأن الرجال لا يقارنون بالحيوان من أي صنف كان، حتى لو كان المسقطي يساوي خمسة وعشرين ريالاً أو لو كان لا يساوي شيئاً البتة. وانفجر الأمير يقهقه بضحكة مجلجلة شاركه فيها كل الجالسين،" وانتهى النزاع عند هذا الحدّ.

علاج الحروق

بينما كان موريزي يتجول في يوم ما على ساحل البحر، أبصر مجموعة من الرجال تقف قرب إناء فخاري مملوء بالبارود أخرج من مخازن السلطان لتوزيعه على الحاضرين. يدّعي أنه قال لهم: إنه ليس من الحكمة في شيء وضع مادة قابلة للالتهاب كهذه في مكان مفتوح مثل هذا الذي يسير فيه البلوش وغلايينهم في أفواههم، فضحكوا من تدخله في ما لا يعنيه، فما أشار به يبدو غير منتظر من إفرنجي. تركهم - في ما يقول - وذهب في حال سبيله، و لم يكد يسير حوالى خمسين خطوة حتى راعه دوي انفجار رهيب، فالتفت فإذا خمسة من العرب كانت ثيابهم تتطاير من حولهم وهي تشتعل ناراً. وكانت صرخاتهم المذعورة تستغيث تطلب النجدة، فأشار إليهم أن اقفزوا في البحر، فقفزوا وانطفأت النار.

عاد موريزي ليتفحّصهم فهاله ذلك المنظر المخيف الذي آلت إليه أشخاصهم. فقد تآكلت جلودهم بنحو كامل، وتغيّرت ألوان بشرتهم من اللون الأسمر إلى لون أبيض كاللبن، وكان هذا دلالة على حالة مستعصية خطيرة من أثر الحروق. توفي رجلان في الحال، رغم الجهود التي يقول إنه بذلها لإنقاذهما، فقد كانت النار قد تمكنت من فورها من صدريهما. أما الثلاثة الآخرون فقد استعادوا صحتهم بعد فترة علاج طويل متصل، استعمل لهم فيه علاجاً مكوّناً من نخالة الكتان المعجون بخليط زيت الزيتون وسائل قلوي طيار. Volatile ويرى موريزي أن العرب أخذوا يتعاملون بعد هذا الحادث مع البارود بحرص أكبر مما كانوا عليه.

أطفال بدو عمان

يلاحظ موريزي أن بدو عمان يتركون شعر رؤوس أطفالهم ينمو ويطول حتى يسيل مسترسلاً على أكتافهم على هيئة ما يُسمّى في إيطاليا تسريحة برنيقة. وكان هذا الرحالة يستطيع أن يتعرّف إلى الأطفال الذين يفدون من الصحراء بهذه الهيئة. وقد هيّأ له حب الاستطلاع الذي يميز هؤلاء الأطفال فرصاً كثيرة ليلتقي بهم، فهم عادة ما يأتونه لينظروا إلى هذا الأوروبي المختلف عنهم والذي يعدّونه "نوعاً من فصائل الحيوان، ولكنهم حين يتبيّنون أني أشبه مواطنيهم في كل شيء إلا في التقاطيع، يأخذون في إطلاق وابل من الأسئلة الخاصة بأوروبا". يسألونه عمّا إذا كانت توجد في أوروبا جبال أو بحار أوخيول أو ثيران، وكيف يتصرف الأوروبي عندما يزوره بدوي؟ وكان يجيبهم عن أسئلتهم دائماً - كما يقول - بكل تهذيب، وعادة ما تكون إجابته عن السؤال الأخير بأنهم في أوروبا يعتبرون جميع الخلق أخوة، ويعاملونهم وفق هذا المنوال.

يرسل العرب أبناءهم إلى المدارس ليتعلموا القراءة والكتابة، وليحفظوا القرآن الكريم عن ظهر قلب. وإن لمن المضحك حقاً أن ترى هذه المجموعات من الطلبة مع أساتذتهم يرتّلون القرآن، وهم يحركون رؤوسهم ذات اليمين وذات اليسار، كأنهم الجرذان الجبلية.

إن شاء الله

يقول موريزي إنه كثيراً ما كان يتطلع كي يظفر بنيل كرم السلطان، وكان غالباً ما يتفضل عليه به، ولكن الرحالة لم يكن - كما يقول - مقتنعاً بذلك الشرط الذي كان يضعه غالباً على الاستجابة لطلبه. فبدلاً من أن يقول له يا منصور، لك ما تريد، كان يجيبه: إن شاء الله. ويرى الشيخ منصور أن هذه العبارة حين تترجم إلى الإيطالية فإنها لا بد أن تعني الرفض الصريح للطلب.

يضيف موريزي أنه سمع هذا التعبير كثيراً، ما دعاه إلى أن يسأل أحد الفقهاء عن السبب في أن الأتراك والفرس والعرب يجيبون كل من يسألهم عن حاجته به. فأجابه الرجل بأن هذا اللفظ يعني أن الله، إذا رضي عن طلبك، وأراد أن يستجيب له فلتكن مشيئته. ويدّعي موريزي أنه عرف أيضاً أن هذا اللفظ يتكرر عند المسلمين الورعين اقتداء بسنّة نبيّهم. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع جنوده يعانون نقصاً في المؤونة حتى كادوا أن يهلكوا، فأتاه جنده وسألوه في إلحاح متى سيجري توزيع المؤن التي ستصل إليهم؟ فأجابهم: غداً! وجاء الغد و لم يأتِ معه بالفرج، فعاود الجند السؤال، وأعاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الإجابة. وتكررت الحال على هذا المنوال نفسه لأيام متتالية يسألونه (صلى الله عليه وسلم) ويجيبهم الإجابة نفسها. وألحّ الجند في السؤال، فأجابهم النبي الطاهر في المرّة الأخيرة: إن شاء الله غداً. وما إن أقبل الغد حتى جُوزي الرسول (صلى الله عليه وسلم) لخضوعه وامتثاله لمشيئة الله بوصول قافلة الإمدادات الوفيرة. وعندما سأل الحواريون محمد (صلى الله عليه وسلم) عن هذا الحدث، أجابهم بصوت هادئ: يا أبنائي الأعزاء: كنت أدرك تماماً أن الله لن يرسل لكم الطعام في أول مرّة تسألونه إياه فيها، وعليه فقد كنت أجيبكم بكلمة غداً مجردة، ولكن ما إن قدّمت المشيئة حتى ظهرت القافلة من فورها. وقد قصدت بذلك أن أؤكد لكم بأسلوب لن تنسوه أبداً أنكم يجب أن تُخضعوا كل تصرفاتكم، مهما كان نوعها، لمشيئة الله.

ويعقّب منصور على ذلك: "في الحقيقة، فإن الدرس الذي يستخلص من هذه الحادثة يتفق مع أسمى آيات التقوى". وربما أمكننا أن نعقب بدورنا على هذه القصة المختلقة التي لا نجد لها أثراً في السيرة النبوية، بأن صورة الرسول صلى الله عليه وسلم في الذهن الأوروبي تضعه دائماً أمام جنوده مقاتلاً ولا تضعه وسط صحابته مرشداً وهادياً، وذلك في إشارة خبيثة موروثة إلى العنف الذي يعتقدون بالتواتر أنه يميز الإسلام وأهله.

اتهام ودفاع وحكم بالبراءة

يرى موريزي أن العرب، بصفة عامة، كرماء، وأن الكرم عندهم توجه عقلي فلسفي، وشهد أن المعاملة التي لقيتها السيدة تايلور في رأس الخيمة عندما أسرت تبرهن تماماً على أنهم يمتازون بالشجاعة مع الكرم. و"سأسرد هنا حادثة أخرى تكشف النبل في شخصياتهم".

أصيب في الهجوم الذي وقع على شيناص أحد خدم السلطان بضربة من حربة اخترقت عظامه القريبة من منطقة العمود الفقري واخترقت معدته في الجزء الأيمن منها، ثم نفذت من بطنه. وبلغت فوهة الجرح عند الظهر ثلاثة قراريط، أما في المنطقة الأمامية فقد بلغت الفتحة التي أحدثتها الحربة قيراطاً واحداً. واستُدعي موريزي بأمر مباشر من السيد لعلاج ذلك الخادم. وكان دمه يتدفق غزيراً، وكان النزف متوالياً في دفعات، ما جعله يعتقد أن أحد الأوردة، أو ربما أحد الشرايين الرئيسة، قد قطع، فأدرك أن مجهوداته في علاجه لن تنجح! وعموماً فقد رأى أن يظهر تجاوباً مع رغبة الأمير، فقام بتضميد الجرح، كما قام أيضاً بتشجيع الجريح، وطلب إليه أن يأمل خيراً. وشعر هذا الرجل بدفء نبل مشاعر طبيبه فضغط على يده وهو يقول:

"يا صديقي لا تجزع، اتركني أمُت في هدوء، إن الحياة الحقّة هي الحياة الأخرى، وإن

الإنسان الحكيم هو الذي يزهد في أن يمتد به أمد هذه الحياة الدنيا التي يتحتّم على المرء أن يقضيها في خدمة سيده".

يستطرد موريزي فيقول إن النغمة التي خرجت بها هذه الكلمات من فم هذا العبد جعلته يقتنع بأن الموت أمر لا يقضّ إلا مضاجع الأشقياء والأغنياء، فلهؤلاء وأولئك ما يخشونه منه، ولا شك في أنهم من الخاسرين خسراناً مبيناً. ويضيف: لربما كان هذا الإيمان والاطمئنان النفسي هما السبب الأساس الذي أدى إلى شفاء ذلك الرجل. قدم الطبيب للجريح في اليوم التالي مباشرة جرعة من الأملاح، ووضع كمادة "لبخة" فوق مكان الجرح الملتهب عند المعدة. وقد أدهشه أن يُشفى الرجل ويبلغ الشفاء، فأحشاؤه في تقدير الطبيب كانت قد تمزّقت، وما كان الشفاء ممكناً إلا أن يكون الرجل مختلفاً عن بقية الخلق في تكوينه الجسدي، وقد عزا الرجل شفاءه إلى براعة موريزي وعنايته به، "وقد زاد هذا الأمر كثيراً في نفوذي لدي السيد سعيد".

"في فترة علاج هذا الرجل جاء السيد (هـ) وهو رجل أشدّ مني قوّة، فأرخى العنان لنفسه وقال بلغة واضحة للجميع إنني رجل دعيّ مخادع، وإن تجربتي في الطب تقوم على جهل مطبق. وكان ذلك الرجل يرمي بذلك إلى إثارة النقمة عليّ في أوساط البلوش، وقد ساعدته معرفته باللغة الفارسية على التفاهم معهم. وعلى العموم لم يصغِ أي رجل منهم إلى ترّهاته، ولم يؤدِّ شرّه إلى أي تبعة مباشرة غير طيبة، ولم يصبني منه أذى. وحين وجد السيد (هـ) أن محاولته هذه ضدّي كانت غير ناجحة ولا ناجعة، اتصل بالسيد سعيد وأبلغه أني جاسوس أعمل لحساب نابليون، وأني قد أرسلت خصوصاً إلى مسقط لأعمل في الاستخبارات، وأرسل التقارير إلى فرنسا عن السيد سعيد. وفي الحقيقة فإن السيد سعيد الذي لم يكن يتصرف من دون روية، أكد للسيد (هـ) أن هذا الاتهام، إذا ثبت ضدّي، فتبعته المحققة هي أني سألاقي حتفي من دون شك. وأخذ السيد سعيد يقلّب الأمر، ولكنه لم يخاطبني فيه ولا بكلمة واحدة حتى بلغنا صحار، وكان الأسطول الإنجليزي قد غادر في هذه الفترة".

"أرسل إلي السيد سعيد أربعة من حرسه البلوشي يطلبني إلى حضرته السلطانية. وأدركت أن شيئاً ما يدور في الهواء يكاد يطبق بي، فرفضت الانصياع للأمر. وكم كانت دهشتي كبيرة وخوفي بالغاً حين أشهر أولئك الحرس سيوفهم في وجهي وهددوني بالقتل إذا لم أستجب للأمر فوراً. وتيقّنت حينئذ حرج موقفي فاستجمعت أطراف شجاعتي وتحليت بالكياسة وحسن التصرف كي أتمكن من درء الاتهام الذي سيوجهه سيدي لي. ومن حسن الحظ أن ذلك الرجل الجريح الذي رويت قصته آنفاً كان قد عوفي بدرجة تمكنه من الحركة، فطلبت إليه أن يرافقني في القارب إلى حيث ينزل السلطان. واقتادني البلوش إلى السلطان الذي أخذ يرمقني بنظرات تفيض بالشفقة، وخاطبني بلهجة حازمة: يا منصور لقد أخبرني السيد (هـ) عندما كان الأسطول والجيش في شيناص بأنك لست طبيباً، بل جاسوس أرسلك نابليون لتخون من

تعمل معه. ولك مني حقّ الدفاع عن نفسك، ولكن إذا لم تصدقني القول فسأقتلك. فأجبته من دون وجل، ورجوته أن ينصت إلى قولي لأدافع عن نفسي، وله أن يقرر بعدئذ وفق مشيئة الله، وعلى ضوء ما يمليه عليه ضميره من عدالة. وعملت بعدئذ على تفنيد الاتهام على النحو الآتي: إن كنت طبيباً أو لم أكن، فإن علاجي لخادمكم هذا خير دليل على ذلك، وإذا كنت جاسوساً أو لم أكن، فأنت يا أيها الأمير خير شاهد على ذلك. ثم ما هي الأسرار التي يمكنني أن أنقلها عنكم؟ فكل أمر تقوم به، وكل تخطيط تتخذه، هو أمر علني معروف لكافة الناس، فأنت لا تحاول أن تخفي أي شيء من سياساتك. إنه لعمل غير مجدٍ أن يأتي شخص إلى مسقط ليرسم قلاعك، وهي قلاع جرى قبلئذ وصفها بدقة، كما جرى تصويرها في الكتب والمصنفات البرتغالية. أما إذا كان الهدف من جاسوسيّتي أن أقوم بتحريض أتباعكم على الثورة ضدّكم، فلك أن تحكم بنفسك: ماهي فرص النجاح لكافر مثلي في أن يستدرج مسلماً؟ يا أيها الأمير: أرجو ألا تقلق على سلامة سيادتك على أراضيك، أو على قوتك التي هي - بالرغم من أنها لا يُستهان بها - بعيدة جداً عن يد إمبراطور فرنسا. عليك أن تهتم فقط بأمر جيرانك. ولن تجد أجنبياً تفانى في خدمتك بإخلاص، وكثيراً ما عرّض حياته للتلف مثلي. إني أشهد الله على براءتي، وأدعو الله أن يقتصّ لي من ذلك الشخص الذي اتهمني. وعموماً فقد وضعني الله تحت سلطانك، وقد أوكلت نفسي بنحو كامل إلى عدالة حكمكم، ولا أطلب منك إلا أن تعرف أن الرجل الذي رماني بهذا الاتهام هو أشدّ مني قوّة، وكان يمكنه أن يقتلني بنفسه، ولكنه لم يشأ أن يفعل ذلك، إنما رمى باتهامه لي عندك كي يجعلك أداة تنفيذ ما يصبو إليه. فلعنة القتل تحل دائماً بذلك الذي ينفّذها مباشرة، وستكون نهاية حياة القاتل مماثلة لنهاية حياة المقتول، والقصاص الإلهي يصوغها وينفذها بالأسلوب ذاته... إني أيها الأمير أتحدّى أي شخص يقول إني قمت منذ وصولي إلى مسقط بأي عمل مشين يُسيء إلى أي شخصية محترمة. لقد رأيت أيها الأمير مني التفاني في خدمتك، وإني أقسم لك بكل ماهو مقدس بأنك لن تجد مني إلا ذلك التفاني لمواجهة أي أخطار تعرض لك. وإذا كان قدري أن يُهدر دمي، فلا تجعل يدك التي طالما قبّلتها بإخلاص حقيقي وبالإعجاب كله، تسدد لي الجرح القاتل، فمن الأوفق لك أن تتركني أواجه قدري وأسقط قتيلاً وأنا أدافع عن شرف سيد نبيل محترم ذابّاً عن حقوقه. وانتهيت بأن اعتذرت بعدم معرفتي باللغة العربية معرفة كاملة، وعبّرت عن أملي بأن يكون الأمير، بالرغم من ذلك، قد فهم مقصدي. وكم كانت فرحتي بالغة حين سمعت السلطان بعد أن أنهيت حديثي يخاطب الحاضرين قائلاً: لقد تحدث منصور وأجاد. وهدّأت هذه الجملة من روعي، وسكنت مخاوفي حين انفرجت أسارير وجهه، ما جعلني أثق بأن تفضّله ما زال موصولاً. وفي الحقيقة فإن تلك الاتهامات التي أثارها ضدّي ذلك العدو قد أصبحت منذ هذه اللحظة دفينة في طي النسيان".

"عدت إلى المركب وأنا أفكر في الأسلوب الذي يجب عليّ اتباعه ضدّ السيد (هـ). وقد أسعفني الحظ بعدئذ في أن أسمع أنه في بوشهر. تسلّحت وذهبت إليه... في اليوم التالي اصطحبني الكابتن "–" إلى منزله، وكان الرجل يتوقع حضوري. وما إن دخلت إلى غرفته حتى أخذ في الاعتذار عن كل ما بدر منه، وقال إنه حين ساق ضدّي كل هذه الاتهامات لم يكن إلا آلة في يد رئيسه الكولونيل "س" الذي أمره بذلك، وكان من المحتّم عليه أن يطيع الأوامر. وقد اعتبرت ما جرى في هذا اللقاء في حضور طرف ثالث اعتذاراً كافياً، وحييته كصديق دُفع به دفعاً إلى أن يسبّب لي الأذى من دون رغبة منه في ذلك".

العربي وسوائمه

يرى موريزي أن عطف العرب وكرمهم لا يعبّران عن نفسيهما في ما يتصل بالجنس البشري فقط، ولكنهما يمتدان في أحيان كثيرة إلى الحيوان. فعندما تدخل إلى الخيمة، فإنك عادة ما ترى الخيول والمهرات والثيران والأبقار وهي تمرح بالقرب من سيدها وأطفاله. ولا تجد في العربي تلك الفظاظة التي تدفعه إلى معاملة خيوله بالضرب، بل يعمل على تطويعها وتأديبها بالحسنى. ويضيف موريزي أن اهتمام العرب بهذه الحيوانات النبيلة هو أمر معروف لكل قارئ، ولكن يمكنه أن يزيد هنا إلى ذلك أن للخيول قيمة عالية، ما يجعل العرب يطعمونها جيداً ويضعون الأغطية على أجسامها لتقيها قسوة الطقس. ويلاحظ أنهم يستعملون لها لجاماً مختلفاً عن اللجام الذي يستعمله الأوروبيون، فالأول أكثر متانة من الثاني، ما يمكن الفارس من إيقاف حصانه فجأة حينما يكون مندفعاً في أقصى سرعة له. والعربي هنا يبدو كأنه يسدّ أذنيه عن صوت الرحمة، إذ يرتد ذلك الحيوان إلى الوراء وفمه يقطر دماً جراء شدّ لجامه.

يستطرد موريزي فيقول إن الفرس يشاركون أهل شبه الجزيرة العربية في أنهم مثلهم يكسون أيضاً خيولهم بالأغطية، ولكن بما أن بلاد فارس باردة نسبياً، فإن كمية القماش التي يستعملونها لغطاء الفرس تزيد بمقدار مرتين أو ثلاث عن تلك التي يستعملها العرب. ولذلك فإن الفارسي يضطر أحياناً إلى أن يصطحب معه حصاناً آخر إلى جانب الحصان الذي يمتطيه، وذلك حتى يحمل عليه متاعه، كما يحمل عليه أيضاً مجموعة الأغطية الكافية لكلا الحصانين.

يدّعي موريزي أنه يتحدث العربية بدرجة تجعله مفهوماً، ولكنه يلاحظ أن لهجات اللغة العربية تختلف من مقاطعة عربية إلى أخرى، ما يجعل مهمة التواصل اللغوي تصعب عليه أحياناً. فأهل مسقط تختلف لهجتهم عن لهجة أهل مصر، حتى إنهم بالكاد يستطيعون أن يتفاهموا. ويستطرد فيعبّر عن رأيه في أن اللغة العربية لم تحدث فيها تغيرات كبيرة كالتي

حدثت في اللغات الأوروبية المختلفة، ويرى أنه يمكن أن نفهم ذلك بنحو عام عندما نقارن بين الشعوب نصف المتمدنة وشعوب الأمم المتحضرة. ففي الأخيرة هناك فيض من الأفكار الجديدة يتنامى وقعها أبداً ويتسع بسرعة فائقة، ما يقتضي إدخال عدد كبير من المفردات الجديدة لتحمل تلك المعاني الجديدة، وهذا ما يُؤدّي بالضرورة إلى تعديل العديد من المفردات التي كانت سائدة سلفاً.

العنبر والأفيون

يقول موريزي إنه وجد ضرورة خلال رحلاته المتكررة في الشرق إلى تبادل الهدايا، ولكن بما أنه لم يكن من ذوي الاعتبار الذين يمكنهم تبادل الهدايا، فقد لجأ إلى بذل هدايا مغايرة. فإذا أراد المسافر أن يقدم هدية إلى العربي أو الفارسي أو التركي، فلن يجد أمثل من تقديم قطعة من العنبر، وذلك لما له من خصائص يفترض أنها مهيّجة مثيرة للباءة. وصرّح بأنه اعتاد أن يحمل معه دائماً أقراصاً من هذا الدواء مخلوطاً بالأفيون، واعترف بأن هذا الأمر قد حقق له – إضافة إلى ذلك – مبيعات كبيرة حيثما حلّ.

قصة عمانية

يقول الشيخ منصور إن غرام الشرقيين بالحكايات والقصص الخرافية معلوم لكل من يعرف الشرق، "والقصة التالية التي سأسردها لم تظهر، مدى علمي، في أي لغة أوروبية. وهي قصة رواها لي أحد الملالي في مسقط، وهي من قبيل القصص التي تُروى لكسر الرتابة في ولائم المسلمين". قال:

"حدث أن وجد أعرابي ثعباناً يصطلي بنار موقدة كادت أن تتلفه وتودي بحياته، فرقّ له، وهرع إلى إنقاذه. غير أن الثعبان ما إن بلغ النجاة حتى التفّ حول الأعرابي شاهراً أنيابه يريد أن يقضي عليه. واستعطف الرجل الثعبان طالباً إليه ألا يسيء إلى من أنقذ حياته. ولم تنطلِ تلك الحجّة على الثعبان الذي احتجّ بدوره بأن طبيعة الأشياء تقضي بأن تقضي جماعة الثعابين على جماعة بني آدم. وتوسّل الرجل إلى الثعبان واستعطفه بأن يحتكما إلى أول من يصادفهما، وينزلا عند حكمه، وقبل الثعبان بذلك.

صادف الرجل والثعبان في طريقهما ثوراً فاحتكما إليه. وأصغى الثور إلى القصة باهتمام بالغ، ثم أصدر حكمه فوراً: إلدغ هذا الوغد، ولا تأخذك فيه رحمة، فهو من بني البشر الذين

يستغلون جهودنا فنظلّ طيلة فترة فتوّتنا وعنفوان شبابنا نجرّ المحاريث وحبال الآبار طول يومنا، أما حين نهرم فإنه يذبحنا من دون رأفة، ويقتات على لحومنا.

أصاب الرجل الهلع من هذا الحكم القاسي، وتمتم متلعثماً بأنه لا يجوز النزول عند حكم هذا الثور الذي لا بد أن له موجدة على بني البشر. وطلب الرجل إلى الثعبان أن يتحاكما إلى حصان كان يرتع قريباً من ذلك المكان، و لم يمانع الثعبان. واستمع الحصان إلى القصّة كاملة، و لم يكن أقل حقداً على الرجل من الثور. ورأى الحصان في تخليص الرجل للثعبان من النار عطفاً متكلفاً، وأهاب بالثعبان أن يقضي على العدو المشترك من دون رحمة وألا تأخذه فيه شفقة. وشرح الحصان بدوره معاناته مع بني آدم، فهم يدربون الخيل ويعلمونها، ويتخذونها زينة، ويحسنون معاملتها، ولكن ما إن يرهق الزمن قوائمها، وتأخذ قوّتها في الوهن، حتى يجرّدها صاحبها من كل زينة، ثم يحكم عليها بالأعمال الشاقة في الأحمال والجرّ، ويلهب ظهورها بالسياط إذا توانت في بذل طاقتها. وتحفز الثعبان ليقتصّ للحيوان من الإنسان. وتصادف في هذه اللحظة أن مرّ بهما ثعلب، فطلب الرجل إلى الثعبان أن يكون لهذا الثعلب الحكم النهائي، فوافق الثعبان. وغمز الرجل للثعلب وأشار إليه خلسة بأنه سيثيبه عشر دجاجات إن هو خلّصه من هذا الوضع الخطير. وفهم الثعلب الإشارة، واستجاب لها، ووضع على وجهه قناعاً من الحكمة، ثم أفتى بأنه لن يحكم في أمر خطير كهذا في واقعة لم يرها عياناً بياناً. وطلب أن تُشعل نار يردها الثعبان ثم يقوم الرجل بتخليصه. وحين أشعلت النار، وقذف الثعبان بنفسه في أتونها، تناول الرجل عصاه، وقضى على الثعبان. وطالب الثعلب الرجل بقضاء ما عليه من دين، فوعده خيراً، وطلب إليه أن يرافقه إلى القرية ليُؤدي له الدين. وعند مشارف القرية طلب الرجل إلى الثعلب أن يختبئ في غار قريب ريثما يأتيه بالدجاج، وذلك حتى لا تؤذيه الكلاب التي قد تمرّ بتلك الناحية.

أوى الثعلب إلى الغار، وانبرى الرجل سائراً في اتجاه القرية التي ما إن بلغها حتى عمد إلى جمع كافة كلابها، وساقها أمامه سوقاً في اتجاه الغار حيث يختبئ الثعلب، واستبان الثعلب ما دُبّر له حينما تعالى نباح الكلاب قرب الغار، فأخرج عنقه مستطلعاً الخبر، وأدرك أنه وقع فريسة لخداع الرجل. خرج الثعلب من الغار وأطلق لساقيه العنان، والكلاب تجري في إثره، وهو يصرخ وينادي على الرجل: أهذا جزاء من عمل على إنقاذ حياتك؟ ثم ما يلبث أن يصيح مخاطباً الكلاب التي تلاحقه: لا تثقوا بوعود بني الإنسان! وظلّ الثعلب على حاله تلك، يجري وهو ينادي، حتى أدركته الكلاب، ومزّقته إرباً.“

الفصل العاشر

روايات منصور عن الدولة الوهابيّة وعلاقتها بالقواسم وعمان

الوهابيّة عند منصور

في فترة ما في منتصف القرن الماضي، رأى عبد الوهاب، من مواطني الحلة على ضفاف الفرات، في المنام ناراً تخرج من جسده وينتشر لهيبها حتى غطى المناطق المجاورة وأحالها إلى رماد. وأسرّ عبد الوهاب بالرؤية إلى أحد الملالي من الذين يفسرون مشيئة الله، فأوّلها بأنه سيُولد لعبد الوهاب ولد يُنشئ ديناً جديداً ويأتي بخوارق المعجزات. وحملت زوجة عبد الوهاب وأنجبت في عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م مولوداً ذكراً سمّاه محمد. وتبنّت "قبيلة نجد" التي ينتمي عبد الوهاب إليها الدين الجديد الذي بدا لهم كأنه قد ظفر برضا الله. وتمكن عبد الوهاب، بصفته نبيّاً لهذه الطائفة المظفّرة ورسولاً مُرسلاً لتبليغ الرسالة وقائداً للجيش، أن يمدّ من نفوذه السياسي، مظهراً ابنه للناس كأنه الميثاق الثمين لقدرة الإله القادر الكفيل بنصرة الوهابيين.

توفي عبد الوهاب وخلفه ابنه في قيادة الطائفة، ولكن بما أنه كان أعمى، فقد اضطر إلى اللجوء إلى رجل آخر اسمه عبد العزيز، وهو أخٌ لأبيه بالتبنّي، ليكون نائباً عنه في تصريف شؤون الدولة، على أن يتولى هو إدارة الشؤون الدينية. وتمكن عبد العزيز من أن يواصل الانتصارات التي بدأها النبي المتوفى، وأن يسمو فوق التحديات التي مثلتها المعارضة ويسحقها سحقاً. ولا نجد أن من المفيد ذكر أسماء الشيوخ الذين تصدّوا بالسلاح لمعارضة التوسّع الوهابي أو أن نحدد التواريخ التي وقعت فيها تلك المعارك. ويكفي أن نشير إلى أنه بوفاة محمد باتت

كل المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية في قبضة الوهابيين، وغدت السلطة كلها بيد عبد العزيز. نهب الأخير مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وخرّب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وادّعى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن نبيّاً مُرسلاً. وامتدت سطوة عبد العزيز من هناك إلى أبواب حلب وبغداد، وأعمل ذبحاً في قافلة للشيعة كانت في طريقها لزيارة مرقد علي رضي الله عنه. ونهب عبد العزيز كل نفائس ذلك القبر المتراكمة عبر العصور، وتقدّم بعدئذ إلى البصرة التي هدّدها بالويل والثبور.

توفي عبد العزيز فورث ابنه سعود كل سلطانه وصولجانه وأملاكه الشاسعة، ولكنه ما لبث أن توفي بدوره في عام ١٨١٣م فورثه القائد الوهابي عبد العزيز الثاني. وتمكن محمد علي باشا، حاكم القاهرة، من أن يسترد منه مكّة والمدينة، ولكنه لم يتمكن حتى الآن من أن يمدّ من نطاق غزواته إلى الداخل نتيجة لشحّ المياه وعدم توافر الإمدادات والمساندة اللازمة للجيش التركي. وفي عام ١٨١٤م استطاع العثمانيون أن يستولوا على تربة التي تقع على مسافة غير بعيدة من الدرعية، ولكنهم سرعان ما جلوا عنها نتيجة للهجمات المتواترة التي شنّها فرسان الوهابيين الذين ضيّقوا عليهم بإغلاق المسالك وردم كافة الآبار التي كان طوسون، ابن محمد علي باشا، قد أمر بحفرها.

في الحقيقة، إننا نترك لفطنة القارئ - مهما كانت درايته بهذه الفترة من التاريخ طفيفة - أن يقرر بنفسه فائدة ما أورده هذا المدلس الذي رسم، بادّعائه المعرفة، لمن يقرأ له في الغرب صورة مشوهة لم ترد فيها ولا حقيقة واحدة تؤيدها الشواهد أو تثبتها الوثائق. ولا نلوم موريزي على عدم تحرّيه حقيقة العقيدة في الفكر الوهابي، فالأمر - رغم أنه فوق استطاعته - لا يعني القارئ العربي في شيء. كان على الشيخ منصور وغيره من رحالة هذه الفترة أن يجنحوا للمبالغة والتهويل لتفسير ما أحدثه هذا الفكر من تغيير جذري في سياسة شبه الجزيرة العربية، أدى بالصحراء النجدية إلى أن تتحد مع بواديها لتأليف قوّة فتية تمكنت في فترة وجيزة من توحيد نجد والحجاز، وسعت إلى ما وراء ذلك بنجاح، ما جعل القوى الدولية تتطلع إلى التعامل معها سلماً وحرباً. ولمّا لم يكن لموريزي أو لغيره من الكتّاب الغربيين تصور الديناميكية الكامنة في تجديد الفكر الإسلامي وآثاره البعيدة المدى، فقد استسلموا لفكرة ظهور دين جديد الذي هو الوهابية التي لمّت شعث عرب شبه الجزيرة العربية المتفرقين، فعملوا من ثمّ على اجتياح المنطقة وتوحيد قواها على شاكلة من قاموا بذلك عندما اعتنقوا الدين الإسلامي حين ظهوره، وعملوا على زلزلة أعتى القوى الدولية التي عاصرت بداية الرسالة.

حوار بين الشيخ منصور وأحد المبعوثين السعوديين إلى مسقط

بدأ الشيخ منصور حواره مع أحد المبعوثين الوهابيين إلى مسقط بأن عبّر له عن رغبته في السفر إلى الدرعية ليمارس مهنة النطاسة هناك، وسأله عمّا إذا كان من المستحسن أن يخوض غمار تلك المغامرة، فأجابه بأنه لا يرى في الأمر أي مغامرة، وخاصة أن مهنة الطب من المهن المربحة جداً في الدرعية. "ونحن، رغم أننا نبغض الكفرة، مع ذلك نقدّر الكفاءة، خاصة لدى الأطباء. وعموماً، فإنك إذا دخلت إلى رحاب ديننا فستصبح في ذروة السعادة".

سأل منصور الرجل: ماهي أهم مبادئ معتقدكم؟

فأجاب بأنهم مثلهم مثل المسلمين الآخرين لا يختلفون عنهم في شيء. وتقوم أهم مبادئ معتقداتهم على إفراد العبادة لله، وعدم الشرك به، وتنزيهه عن كل ما يعتري الخلق، واتباع سنّة السلف الذين لا يحيد الوهابيون عن طريقهم، لما عُرف به السلف من تقوى وصلاح وخلق قويم. كذلك فإن الوهابيين يشهدون بأن الله خالق الخلق واحد، وأن القرآن كلامه، وأنه خلق الخلق لعبادته وشكره على النعم التي يسبغها عليهم. ويجب على الوهابيين أن يجاهدوا الكفار لحملهم على الصراط المستقيم. وتحرّم المبادئ التي يسير عليها الوهابيون الخمور، وكافة المسكرات الأخرى، وتحظر عليهم أيضاً سماع الموسيقى، وحضور مجالس اللهو، وتدخين التبغ، وتناول القهوة. وهم يلتزمون التزاماً كاملاً بنصوص القرآن الكريم، ولا يتسامحون مع الخارجين عن العقيدة، ولا يسمحون للكفار بأن يساكنوهم إلا إذا كانوا من العبيد، ولكن، مع ذلك، "عليك إذا رغبت في السفر إلى الدرعية، وأردت أن تعيش في كنفنا، مع رفضك اتباع ملّتنا، فلك أن تساكننا بشرط أن تسلك سلوكاً إنسانياً رفيعاً، وتحترم كل وهابي".

سأل منصور الرجل: ترى أي نوع من المدن هي الدرعية؟

فأجاب بأن الدرعية تقع على منخفض من الأرض بين تلّين بارزين، وهي مدينة تضمّ الكثير من ينابيع المياه العذبة، وتنتج أرضها العديد من صنوف الكروم والتمور وكافة أنواع الثمار، وتوفر مراعيها الكلأ لقطعان الماشية الكبيرة التي تمدّهم بالألبان والأجبان واللحوم، كما تُربّى في الدرعية الطيور الداجنة بمختلف أنواعها. وفي الدرعية تُصنع العباءات، وهي من سلع التجارة الرائجة هناك.

سأل منصور: إن ما سردته يعني أن أرضكم توفر لكم كافة ضرورات الحياة الطيبة، فهل توفر لكم، زيادة على ذلك، ما تتطلبه نفقات الحروب الخارجية؟

فأجاب الرجل: إنهم لا يعتمدون في سدّ نفقات الحروب الخارجية بصفة شاملة على نتاج أرضهم في الدرعية فقط، بل يعتمدون على الزكاة التي تأتيهم من المناطق المختلفة، وأموال الجباية المختلفة، كما يعتمدون أيضاً على ما يمكن أن يصيبوه من الغنائم.

كان تعليق منصور أن نفقات الحروب باهظة، فأجاب الرجل بالنفي، لأن كل فرد فيهم جندي ملتزم بالجهاد في سبيل الله من دون انتظار أجر من أحد. ومع ذلك فإن الجندي يُسمح له بالعودة إلى دياره إذا قضى سنة في الغزو بعيداً عنها، وذلك ما لم تكن هنالك ظروف قاهرة تستدعي بقاءه حتى تكلل أسلحتهم بالنصر. وقال الرجل إن الدولة تمدّ الجندي الذي لا يملك دابة بجمل يركبه ويحمل عليه متاعه وذخيرته. وأضاف أن الجمل يمكن أن يحمل جنديين يقطع بهما الفيافي المترامية، ويستطيعون بهذا الإجراء أن يرموا أرض المعارك بعدد جمّ من الرجال الذين لم يضنِ أقدامهم طول المسير. وأردف الرجل قائلاً إن للدرعية سلاح فرسان ممتازاً. فخيولهم، كما هو معروف عنها، مشهورة بالقوّة ومشهود لها بالكفاءة، وذلك بحكم نشأتها وتربيتها على تحمّل المشاق، وتدريبها وصبرها على الجوع من دون أن تفقد من حيويتها أو من قدراتها شيئاً. وأضاف الرجل: "إن لنا خيولاً نفاخر بها كافة الأمم". واستطرد قائلاً إن الجندي منهم لا يحمل مُعدّات كثيرة، فكل بضاعته قربة ماء، وقربة أخرى يملأها بالحلوى التي هي عبارة عن تمر يُطبخ مع الزبد ويُلت ويُعجن حتى يصبح كتلة واحدة متجانسة، كما يحمل الجندي أيضاً زكيبة من الشعير لحصانه، أما الإبل فتقتات على نباتات الصحراء وشجيراتها وعلى نوى التمر. وحين لا تتوافر لها موارد الماء فإنها تكتفي بأقل مما مقداره رطل واحد من الماء. أما الجنود، فحين يعوزهم الماء، يعتمدون على لبن النوق، كما أنهم يجدون في أشقّ الظروف كفايتهم من اللحم لأنهم ينحرون الإبل التي توهنها صعاب الطريق ويضنيها طول السفر. وأضاف الرجل أن الجنود يعدّون الحلوى وما يحتاجون إليه من تموين في منازلهم على نفقاتهم الخاصة، أما الجنود الذين لا تسعفهم مصادرهم، فإن أثرياء العشيرة يقدمون لهم ما يحتاجون إليه. أما الثري الذي يبخل بماله ولا يمدّ يد العون للمجاهدين الصابرين، فيستحق عقوبة الموت. فالوهابيّون يحاربون لإعلاء كلمة الله، ويجدون أن كلاً منهم مطالب ببذل كل ما يستطيعه لتحقيق تلك الغاية. فالجهاد يكون بالنفس، كما يكون بالمال كذلك. والثري الذي يضنّ بماله، مثله مثل الجندي الذي يولّي العدو دبره، خائن مرتد مستحق للموت. وتتكفل الخزانة العامة للدولة في الحروب بالمستلزمات الضرورية التي لا يستطيع الأفراد تدبيرها، من البارود وما يماثله من أنواع القذائف. أما ملابس الجندي فهي ملابسه المعتادة، وهي متواضعة لا تُكلف الكثير، فأكثر المناطق في بلادهم تتميز بجوّها الشديد الحرارة في موسم الصيف، المعتدل في فصلي الربيع والشتاء، ولا يتطلب الطقس اقتناء الكثير من الملابس. وأضاف الرجل أن الجندي الوهابي يقاتل وهو واثق بأن النصر من عند الله، وتتعالى صيحاته في يوم المعركة: الله أكبر، وهي صيحة كافية لتصيب الأعداء بالذعر والخوف، "وسنعمل على متابعة حروبنا في العالم لنشر كلمة الله فيه".

سأل منصور الرجل: كيف كان طريقك من الدرعية إلى مسقط؟

أجاب بأنه سلك من الدرعية طريقاً غير معمور، لا تكاد تجد فيه إلا جماعات قليلة من العرب الرحل الذين يمكنك أن تظفر منهم بما تحتاج إليه من قوت، خاصة اللبن (الزبادي). وانتهى به ذلك الطريق بعد عشرة أيام إلى القطيف. وركب الرجل البحر من القطيف، وكانت الرياح مواتية، فبلغ مسقط بعد عشرة أيام أخرى.

سأل منصور: هل تعتقد أن باشا مصر يستطيع أن يجنّد قوّة حربية كبيرة مؤهلة يزحف بها (ضدّكم) كما تشير التقارير العامة؟

أجاب الرجل أنه يدرك أن لطوسون باشا، ابن الوزير، قوّة كافية لغزو المدن والقرى الواقعة على ساحل البحر الأحمر. أما الصحراء فالوهابيون سادتها، فهم يستطيعون أكثر من غيرهم أن يألفوا مشاقها ويعايشوا قسوتها. وحين يجد العثمانيون أن جهودهم غير مثمرة ويتملّكهم اليأس، يمكن الوهابيين حينها أن يستردوا المدن التي اغتصبت منهم.

يضيف الرجل أن طوسون باشا حين عمل على عبور الصحراء في اتجاه الدرعية، أرسل طلائع جيشه مع عدد من المرشدين ليمهدوا الطريق لعبور شوكة الجيش الرئيس الذي كان يسير في إثرهم. وقد عمل هؤلاء المرشدون والمرافقون على تهيئة الآبار، وتوفير المياه للجيش. ولكن ما إن وصلت الاستخبارات بهذا الخبر، حتى تصدّى سلاح الفرسان الوهابي لهذه الطلائع قرب تربة، وانقضّ عليهم في هجوم مباغت، ولم يبلغ القائد طوسون باشا خبر هلاك هذه الفرقة المستطلعة إلا بعد حين. لقد حالف الوهابيين التوفيق أيضاً في عدّة معارك أخرى، ما اضطر ذلك القائد الذي أعجزته الحيلة إلى التراجع إلى مكّة المكرّمة، وبتراجعه أصدر سعود أمراً بطمر كافة الآبار الكائنة في المنطقة الفاصلة بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة من جهة، والدرعية من جهة أخرى، وردمها بالأحجار. وعبّر الرجل عن اعتقاده بأن هذا الإجراء سيؤدي إلى وقف الغزو تماماً. ونجد في هذا اللقاء حديثاً عن أن الوهابيين "لا يكنّون الحب" للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو قول تكرر كثيراً عند الرحالة منذ أن ذكره نيبور ونقل عنه من الرحالة من جاء بعده. يقول منصور إن الوهابي الذي حاوره أكدّ له أن دور محمد صلى الله عليه وسلم قد انتهى بتبليغه الرسالة، وأن الوهابيين ما عادوا يعترفون إلا بالتوحيد وإفراد العبادة لله وحده من دون سواه. ويبدو أن موريزي أساء فهم ما رمى إليه الرجل الذي قصد، في ما يبدو، القول إن رسالة السماء قد اكتملت بوفاة الرسول الذي بلّغ الأمانة وأبان الطريق إلى الله الواحد الأحد الذي لا شريك له. وعموماً فإن هؤلاء الغربيين يفتقرون إلى طبيعة فهم الفصل في الإسلام بين طبيعة الذات الإلهية وطبيعة الرسل الإنسانية، كما أنهم لا يدركون أن محبّة الرسول صلى الله عليه وسلم هي عند كل طوائف المسلمين من كمال الايمان. ويرى الوهابيون أن محبّته صلى الله عليه وسلم إنما تكون باتباع سنّته والاهتداء بهديه. وخالفت هذا المفهوم الوهابي مدارس إسلامية أخرى من صوفية وغيرها وناقضته، وتلك فوارق بين الفرق

الإسلامية ذهب أصحابها فيها مذاهب شتى لا يتسع لها ذهن غير المسلم. ومع ذلك، علينا أن نحاول فهم بواعث هذا القول الذي ردّده العديد من الرحالة الغربيين و لم يظفر بردّ أو إدانة من أئمة الوهابيين وقتها. ونعتقد أن محاربة الوهابيين للبدع بلا هوادة في مجتمعها الذي كان قبل دعوة ابن عبد الوهاب يزخر بالبدع، هو السبب الأساس في ذلك. روى بعض الرحالة من المظاهر الشركية التي كانت سائدة قبل ضمّ الوهابيين للحجاز تمرّغ بعض الحجاج في ثرى بيت الرسول وتعفير وجوههم بترابه، حبّاً للمكان وتمجيداً لصاحبه عليه أفضل الصلاة والسلام، وحصبهم بيت أبي جهل بالحجارة كراهة لموقفه من الرسول الكريم. وكادت هذه الممارسات البدعية أن تدخل في صلب شعائر الحجّ، فتصدى لها الوهابيون بقوّة، حيث دمّروا بعض تلك المشاهد، ما عاد عليهم بهذا الاتهام. كذلك روى رحالة آخرون عن كنوز القبر الشريف في المدينة المنوّرة التي كان أهل النذور يأتون بها من البلاد الإسلامية المختلفة، وتراكمت هذه الهدايا حتى شبّه بعض الرحالة الغربيين المسجد ببعض متاحف أوروبا. واستولى الوهابيون حين ضمّوا الحجاز على تلك الكنوز، باعتبار أن وضعها في ذلك الحرم الشريف بدعة لا أساس لها في الدين. أما الأساس التاريخي لتلك الكنوز، فكان إظهار التجلّة للرسول صلى الله عليه وسلم، ووقف هذه الكنوزعلى إعمار المسجد وإصلاحاته، وإنفاقها في ما يفيد المسلمين. ومع الزمن نسي الناس الغرض من تلك النذور، وغدت من "محفوظات" المسجد الشريف. وحين استولى عليها الوهابيون لتمويل حملاتهم التي يعتقدون أنها تُشن لتصحيح العقيدة، أكد البعض اتهامهم بعدم تقدير الرسول أو – كما جاء عند البعض أحياناً – عدم الاعتراف بنبوته صلى الله عليه وسلم. وكان هدم الوهابيين للقباب المشيّدة على قبور آل البيت والصحابة رضي الله عنهم جميعاً هو الشاهد الأبرز عند البعض على عدم حب الوهابيين للرسول صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته، فيما احتجّ الوهابيون بالحديث: "خير القبور الدوارس". ونعتقد بدورنا أن للبدو دوراً قوياً في تأكيد هذا الاتهام الذي لحق بالوهابيين. ولا مجال هنا للخوض في الفقة الذي ساد نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وممارسات التوثين التي سادت البادية، بل الحاضرة على حدّ سواء. وعندما جاء الشيخ بدعوته التي كان التركيز فيها أولاً وآخراً على التوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد، استوعب الذهن البدوي تلك الرسالة و لم يزد. لم يكن الفارق بين التقديس المفضي إلى الشرك والحب الواجب للرسول صلى الله عليه وسلم المفضي إلى كمال الايمان واضحاً تماماً في أذهان البدو الذين حملوا الرايات الوهابية وتلقّوا الأمر بتهديم القباب والأضرحة. وهناك رأي آخر يقوم على أن الأشراف والدولة العثمانية والشيعة هم الذين روّجوا لهذه الفكرة وأذاعوها حتى نقلها عنهم الغربيون. لم تجابه الدولة الوهابية عدوّاً في العالم الإسلامي أشرس من الأشراف الذين كانت تساندهم الدولة العثمانية التي اعتدّ العديد من مسؤوليها بالإسلام الصوفي، كما لم تستعدِ تلك الدولة قوّة أكبر من قوّة الشيعة

حين هدمت قباب الصحابة وآل البيت ومزارات الشيعة في العراق المتصلة بالإمام الحسين وأبيه الإمام علي وبعض قرابتهما رضي الله عنهم أجمعين. فهل سكت فقهاء الوهابيين و لم يعمدوا إلى دحض هذا الاتهام حتى لا يفتر جندهم من البدو عن مجابهة الأشراف الذين لا يستمدون شرعيتهم في الحكم إلا من قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، رغم أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم ويتقاتلون على كرسي الحكم حتى في باحات الحرم المكيّ الشريف من دون مراعاة لحرمات الإسلام، وحتى لا تخمد همم البدو في تهديم المزارات التي تحوي كنوزاً يمكن أن تعين الدولة على المزيد من التوسع وضم مناطق سنيّة وشيعيّة أيضاً.

يقول منصور:

هكذا انتهى حديثي مع هذا المبعوث الوهابي، وقد تمّ لي هنا إثبات كل التفاصيل المفيدة في هذا اللقاء. واعتماداً على ما أثبته من معلومات هنا، وكذلك على ما أفدته من معلومات أخرى من مصادر أخرى، فإني لا أشك أبداً في أن الأجنبي يمكن أن يصل الدرعية، وأنه قد يصيب هناك ما يكافئ جهد تعبه. ومع ذلك آثرت ألا ألبّي الدعوة التي قدّمها هذا المبعوث لزيارة تلك المنطقة لأشبع نهم حب الاستطلاع، فالأمر - في ما يبدو - تكتنفه العديد من الصعاب.

إعجاب منصور بالوهابيين

يرى الشيخ منصور أن "الشعب الوهابي" برهن بما لا يدع مجالاً للشك أن العرب حين يجدون القيادة النشطة، والبذل، والعطاء، فإن ذلك قمين باستثارة هممهم الخامدة. فإذا لم يتمكن هؤلاء الوهابيون من نشر أفكارهم في أقطار الشرق كافة، وإذا لم تحسّ الأقطار المجاورة لهم عظم خطورتهم، فيجب ألا يردّ ذلك إلى بساطتهم، بل مردّه إلى مقاييس المدنية الحديثة التي حولت الحرب إلى عمل علمي، وجعلت لوفرة المال، ودقّة التنظيم، واختراع البارود، السبق على الشجاعة في ميادين الحروب. إن أتباع الإمام عبد العزيز ليسوا أقل حماسة ولا أدنى إخلاصاً من أتباع الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكن لم يُقدّر لهم أن يقابلوا، كما قُدّر لأسلافهم، جنود هرقل المهترئين الخائرين، إبل قُدّر لهم أن يواجهوا الفرس والأتراك، وهما أمّتان مكّنهما الثراء، وعلوّ الهمّة، ووفرة المصادر، من الاعتماد على ترسانة الحرب الأوروبية. وهنا - في ما نعتقد - يمكن أن نجد للشيخ منصور عذره في جنوحه إلى رمي الوهابية واتهامها بالدين الجديد.

يمتاز العنصر العربي عموماً بالكرم والسخاء، وهم لا يأنفون من مشاركة النصارى في طعامهم، كما أنهم يحسنون معاملة الأجنبي. والعقيلي، وهو اللقب الذي يطلق على الجندي العربي العامل في حراسة القوافل عبر الصحراء في أرض العراق، جدير بالثقة الكاملة، وذلك استلهاماً من روح المسؤولية التي يؤدي بها عمله. أما الجارقادرية (؟) الذين ينقلون ببغالهم المسافرين، فهم على درجة كبيرة من النذالة وإن تظاهروا بغير ذلك، إذا كان المسافر من التجار المسلمين أو الأرمن المرموقين.

الدرعية

يعتقد منصور أن الرحالة الذي يريد أن يجوب الأراضي الوهابية يستطيع أن يدخلها متنكراً بصفة من يمتهن العمل في إصلاح الساعات. فقد قيّض له ذات مرّة أن يتعرف إلى أرمني وفارسيين، وكانوا ثلاثتهم يحترفون هذه الحرفة. وقد أقام بعض هؤلاء الرجال لفترات طويلة في القطيف وفي البحرين كذلك، كما زار أحدهم مدينة الدرعية. وقد أفاد هذا الأخير بأن الدرعية تشبه مدن العرب الأخرى، ولا تمتاز على سائرها بشيء يُذكر. فالمدينة في مجملها لا تزيد على تجمع لمساكن حجرية وأخرى شُيّدت بالقش من دون تخطيط. وبناءً على ذلك فإن الدرعية ليس لديها أي ميزة جمالية تستطيع أن تفاخر بها المدن الأخرى، ولكنها مع ذلك تستطيع أن تفاخر بوفرة متطلبات الحياة فيها. وقد أفاد هذا الأرمني منصور بأنه وجد حرفة إصلاح الساعات غير رائجة، فاشتغل بمهنة إصلاح السيوف والأسلحة الأخرى وتزيينها، وبأنه وجد لهذه المهنة سوقاً رائجة. فالأسلحة، في هذه المدينة المعسكر هي المتعة الرئيسة، ومبعث الفخر في المدينة.

ملاحظات عن الوهابيين

يرى الشيخ منصور أن الوهابيين يفاخرون بأن فرسانهم يجيدون الطعن بالرماح، كما يمتاز مشاتهم باستعمال السيف، ولا تضاهيهم في هذا الصدد أي أمة أخرى. وتجدهم يردّدون دائماً عبارة "البدوي أبو سيف" فإذا أشاروا إلى الإفرنجي قالوا: أبو مدفع. وكلمة "أبو" تعني حرفياً والد، ولكنهم يستعملونها – كما يقول منصور – للتعبير عن نمط التميز والتفرد ووصف الفرد بما يشتهر به. ولما كانت شهرة البدوي باستعمال السيف لا تُمارى، وكذلك شهرة الإفرنجي باستعمال المدفع، فإنهم يستعملون للأول تعبير أبو سيف بينما الآخر هو أبو مدفع.

يلاحظ منصور أن الوهابيين لا يستعملون ألفاظ التبجيل أو الألقاب التي تدلّ على التعظيم وعلوّ الشأن والرفعة والشرف، اللهم إلا ما كان من استعمال لفظ الشيخ، وهو لفظ لا يمكن أن يسبغ على كافر أبداً. ويذكر أن أحد الأسرى الوهابيين لم يتمالك نفسه من أن ينفجر مقهقهاً حين سمع أحدهم يناديه بالشيخ منصور. ويلاحظ أن قاموس الوهابيين يخلو من لقب سيد، فهو غير مستعمل عندهم البتّة. ويضيف أن لقب سيد يُعدّ من أرفع الألقاب التي يمكن أن تطلق على الأفراد في الشرق سابقاً، "ولكن اللقب أخذ يفقد مدلوله ثم ما لبث أن داخله الانحطاط، حتى إنه أصبح في القاهرة يُسبغ على النصارى. أما لفظ شيخ فلم يسبق أن أُطلق في القاهرة على أي أوروبي من قبل".

ينهي منصور حديثه بإعجابه بالوهابيين بالقول إنه يرى فيهم صفات الشجاعة والنشاط والتحفز، وكافة تلك الصفات التي تميز الأمم الناهضة، كذلك يجد في حكومتهم الجديدة النشطة جرأة في مجال التخطيط، وعلوّ همّة في مجال التنفيذ، ولا يجد في المنطقة من يتجرّأ على معارضتهم أو الوقوف ضدّهم إلا هؤلاء البدو الذين يتبعون إمام مسقط، والذين يعتمد عليهم هذا الأمير في الحروب، كما يعتمد عليهم كقوات وطنية رادعة.

أرض القواسم

يأخذ موريزي في التحري عن العلاقة بين الوهابيين والقواسم بمقدمة يحاول أن يحدد فيها أرض القواسم والتعريف بتاريخهم، فيقول إن شيناص وخور كلبا وخورفكان والشارقة والجزيرة ورأس الخيمة التي تقع إلى الشمال من مسقط، كلها من توابع القواسم. نصب قاسم مؤسس قبيلة القواسم خيمه على موقع بحيث تتمكن السفن العابرة من رؤيتها، فاشتهر الموقع من حينها برأس الخيمة. خلّف قاسم ذرية تناسلت وتكاثرت وازداد عدد أفرادها فلم تتمكن موارد أرضهم من الوفاء بنفقاتهم، فعبروا إلى سواحل إيران وأقاموا هناك عدّة مستوطنات، وأسّسوا مدناً ازدهرت في خرج ولنجة ولفت وعدّة مدن أخرى في الساحل والجزر. وتحالف القواسم مع عدد من العرب الآخرين وألّفوا حكومة واحدة حملت اسم حكومة القواسم. وما لبث القواسم أن اعتنقوا في عهد عبد العزيز، الأمير الوهابي الثاني، مبادئ عبد الوهاب المستحدثة ودخلوا في حروب متصلة مع جيرانهم، لا سيما إمام مسقط. وتقع البحرين إلى الشمال الغربي من بلاد القواسم، وهي مجموعة جزر تشتهر بمغاصات اللؤلؤ النفيس، وتجاورها القطيف التي اضطر حاكمها محمد بن سلامة إلى الرضوخ لسعود. وتقع القرين ضمن هذا النطاق أيضاً، وهي مكان أقل أهميَة، يسكنه العتوب الداخلون في حلف الوهابيين وإن لم يدخلوا تحت سيطرتهم. وأهل القرين من أمهر البحارة العرب وأكثرهم جرأة.

بعد أن يرسم موريزي النطاق الذي يتحرك فيه القواسم، يقول إنه إذا حاول أن يعدد أعمال القرصنة التي قام بها ميساجارا (مسيو صقر) رئيس القواسم في البحار العربية في عام ١٨٠٨م لاسودّت صفحات كتابه من دون أن يستقصيها

الحملة ضدّ القواسم (١٨٠٩–١٨١٠م)

يروي منصور تفاصيل هذه الحملة التي يقول إنه شاهد عيان عليها وشارك في بعض معاركها، فيقول إن السلطان بدأ في عام ١٨٠٩م يعدّ لحرب لم يكشف عن الجهة التي ينوي أن يصبّ جام غضب أسلحته عليها، متوافقاً بذلك مع ما جرى الاتفاق عليه مع حاكم بومباي من ضرورة التزام التكتّم. وكانت مراكب "القراصنة في الفترة القريبة الماضية قد غطت خليج فارس وقضت على كل نشاط ملاحي عربي فيه". وراحت تلك السفن توالي نجاحاتها في عام ١٨٠٩م فأسرت في هذا العام منيرفا، المركب البريطاني الذي كان في طريقه من بومباي إلى البصرة. وقد أسرت هذه السفينة "المنحوسة" بالقرب من جزيرة الشيخ سعيد وذُبح بحارتها "على الطريقة الوهابية المعتادة في مثل هذه المواقف". فقد جرّ العرب قائد المركب إلى مقدمته وقطعوه إرباً إرباً. وكان قبطان السفينة قد هرع إلى مخزن الذخيرة وبيده عود ثقاب مهدداً بنسفها بمن عليها لتصبح هباء منثوراً يتطاير في الهواء. وتدخلت سيدة أرمينية من مواليد بوشهر، كانت زوجة لضابط بريطاني، لتقنع البحار لاروس بالكفّ عن هذه المحاولة اليائسة، وطلبت إليه أن يستجيب لعرض الشيخ القاسمي بأن يستبقي على حياته شرط أن يعتنق "دين عبد الوهاب". وقد ارتضى الملاح هذا الشرط "المخزي وأعلن إسلامه. وقد روى لي هذا الملاح هذه القصة حين التقيته شخصياً بعد ذلك في بوشهر". وتلا ذلك مهاجمة مجموعات من قراصنة القواسم حوالى أربعين قارباً شراعياً، كما هاجمت المركب البريطاني مورنجتون ولكنه تمكن من الإفلات نتيجة مصادفته رياحاً مواتية، ولولا ذلك لكان مصيره كمصير منيرفا.

يضيف موريزي أنه قد بات في حكم الضروري التصدي لمواجهة هذه التحديات باتخاذ إجراءات حاسمة تكفل حرية الملاحة في الخليج. وفي نوفمبر ١٨٠٩م ألقى أسطول إنجليزي يضمّ الفرقاطتين كارولين وشانون وسفينتي حرب هما مورنجتون وتانيت وعدداً آخر من المراكب الصغيرة وسفن النقل، مراسيه في ميناء مسقط. ولقي الأسطول ترحيباً من مواطني مسقط الذين احتفلوا بوصوله. وتمكن سعيد، اعتماداً على قوّة حلفائه الإنجليز، من المجاهرة بعدائه للوهابيين، وطلب إلى مندوبهم في مسقط مغادرتها. وكان سعيد قد أعدّ في هذه الأثناء قوّة من ستة الآف رجل وجهز قوّة بحرية. وتزوّد الأسطول الإنجليزي في مسقط بالماء والخضر والمؤن الأخرى، واستأجروا أربعة وعشرين مركباً عربياً لنقل القوات من سفنهم إلى الساحل.

وانطلق الأسطول بعد حفلة تكريم أقامها للسلطان في طريقه إلى رأس الخيمة. اجتمع لهذا الأسطول الانضباط والتخطيط السليم ما منحه التفوق على الشجاعة المجردة. تمكن هذا الأسطول من أن يدمر في مدى أربعين يوماً فقط رأس الخيمة والشارقة ولنجة ولفت ومناطق أخرى عديدة، وأباد حامياتها، و لم يخسر سوى قبطان واحد فقط دهمته طلقة وأصابت رأسه فأردته صريعاً في بداية الهجوم على رأس الخيمة. وأحرق الأسطول كافة سفن القواسم.

يروي موريزي أن سعيد كان قد أرسل إلى "صديقه صقر" يطلب إليه أن يسالم الإنجليز ويجمع ما بقي من أسطوله إلى أسطول مسقط لمعارضة الوهابيين. ويرى أن صقر استجاب لنصيحة سعيد، ولكن لم يقرّه مواطنوه على ذلك ورفضوا الانصياع لأمره و لم يخاصموا الوهابيين. وعزل سعود – نتيجة لذلك – عامله صقر الذي تمرد عليه، وسيق أسيراً يرسف في أغلاله إلى الدرعية. و لم يُعدّل سعيد خططه رغم ما آل إليه أمر صقر، فأبحر إلى بركا في سفينته سالي. وكانت سفينته الجنجافة مع ثمانين قارباً في انتظاره هناك، إضافة إلى قوّة مشاة من خمسة آلاف رجل مستعده لتنفيذ ما يشير به. ويدّعي موريزي أن السلطان أخذه إلى تلك الغرفة التي كانت شاهداً على الحادث الذي أدى إلى مقتل بدر ورفعه إلى العرش وقال له: "يا منصور لقد طوّقتك بكرمي وعليك ردّ الجميل بمساعدتي في هذه الحرب". ويقول إنه أبدى استعداده لذلك حتى لو أدى به الأمر إلى أن يُضحّي بنفسه من أجل سعيد. وزوّده السلطان بعد ذلك بتوجيهاته. وغادر الأسطول المسقطي بركا بقيادة السلطان، فيما قاد أخوه سالم القوّة البرية. وفي صحار التحقت بالجيش البري قوّة أخرى من حوالى ألف من المشاة ومئة من الفرسان بقيادة السيد عزان، أحد أقارب السيد سعيد. واتجهت القوات إلى أرض القواسم لتُحكم السيف والنار في رقابهم "والعمل على تحقيق شعار حروب العرب الهمجية".

يقول موريزي إنه كان مع السلطان في المركب سالي حين هاجم لنجة، و لم يصادف أي مقاومة هناك و لم تواجههم إلا صرخات البؤساء، النساء منهم بصفة خاصة اللائي أخذت السيوف تقصف رقابهن، فيما كانت النيران تلتهم البيوت المبنية من القش لا تستبقي منها شيئاً ليؤوي تلك الأسر البائسة. وتحرك منصور بعد ذلك في ركاب السلطان – في ما يقول – إلى شيناص التي تحميها بطارية مدفعية، ورسا الأسطول عند ساحلها. وكان سعيد يدرك سلفاً أن الهجوم المباشر على المدينة سيكلفه شططاً، وأنه سيخسر العديد من رجاله حتى لو كسب الحرب. وعلى ضوء ذلك، قرر سعيد أن يهاجم خور سهيل التي هي أقل تحصيناً من شيناص ويستولي عليها، ما يفتّ في معنويات أهل شيناص وقد يدفعهم ذلك إلى الاستسلام. بدأ سعيد بتنفيذ خطته بإنزال أربعة مدافع إلى الساحل أخذت تصبّ حممها تباعاً لخمس ساعات متصلة على السور. وراح البلوش والجيديقال يهاجمون بضراوة وهم يشقون طريقهم في اتجاه السور ويقتلون كل من يصادفونه في طريقهم، في الوقت الذي كانت فيه النار تلتهم

المدينة. ولجأ نحو سبعمئة مواطن إلى بيت حجري تحصّنوا فيه وأخذوا يدافعون عن أنفسهم باستماتة. ويدعي الشيخ منصور أن بطارية مدفعه راحت تعمل جاهدة لدكّ ذلك البيت على رؤوس من بداخله. وعرض سعيد على من في البيت الاستسلام وتسليم أسلحتهم وممتلكاتهم نظير الإبقاء على حياتهم فوافقوا وانسحبوا إلى الجبال. وفي مدى ثلاثة أيام أمكن المنسحبين أن يعززوا قوتهم بأعداد كبيرة من بدو الداخل وعادوا مجدداً إلى الميدان. ويقول موريزي إن سعيداً قد ندم ساعتها واستبان الخطأ حين لم يأخذ بنصيحته بأن يستبقي أولئك المتمردين أسرى، وأن يحبسهم لئلا يعودوا إلى حربه!

داخل جيش سعيد اضطراب عظيم حين رأوا تلك الحشود تتدفق عليهم من الداخل، فقد كانوا يظنون أنهم انتصروا حين انسحب المتحصنون بذلك البيت الحجري. وكان منصور - كما يدّعي - يخشى على السلطان من أن يمسّه مكروه، فطلب إليه أن يسبح إلى مركب صغير كان قد جهزه بالمدافع وببحارة برتغاليين لمقابلة الطوارئ. وكان منصور - في ما يقول - يدرك تماماً أن العرب لن يلاحقوا المركب، فهم حين يصيبون نصراً لا يسعون في العادة إلى تأمينه، أو يضعون في اعتبارهم أن العدو قد يكرّ عليهم مرّة أخرى، بل يسارعون، بدلاً من هذا، إلى جمع الغنائم.

"تراجعت قواتنا عبر السهل وانسحبت بشكل منتظم إلى الساحل. ونشر أسطولنا قلاعه ميمماً مسقط تاركاً خور سهيل وشيناص في أيدي سادتها القدامى. وأدّت لنا بطارية ميناء مسقط سيلاً من الطلقات التحية، كأننا عدنا مظفّرين. وتزامن رجوعنا مع وصول الأسطول الإنجليزي الذي أدّى مهمته وجاء إلى مسقط للراحة والاسترخاء لعدّة أيام قبل أن يعود أدراجه إلى بومباي. أخذ السلطان المدفوع بالرغبة في الثأر والانتقام وغسل العار الذي لحق به يحرّض سميث بقوّة ليقدم دعماً لقواته لتدمير شيناص اللعينة. وتزامن هذا مع وصول خبر مفاده أن قوّة كبيرة وهابية كبيرة قد تحركت من الدرعية بقيادة مطلق المطيري تتابع مسيرها بأقصى ما تستطيع لدعم المخلصين لسعود ودحر الخارجين عليه. وقد دفع هذا الخبر الطرفين العربي والإنجليزي للتنسيق والعمل بسرعة والتقدم فوراً إلى شيناص".

يقول الشيخ منصور إنه خرج في يناير ١٨١٠ مع هذه الحملة على صهوة جواد ليرافق السيد عزان، حاكم صحار الذي كان يشكو من علة مزمنة، ليقدم له العناية الطبية اللازمة. وكان زميله في الركب السيد محمد بن هلال، ذلك الرجل الذي يتمتع بشجاعة فائقة النظير. ويضيف أن الجيش سار من صحار في اتجاه شيناص، تعترض طريقه بين الفينة والفينة جماعات من فرسان القواسم تناوشه وتقتل من تجده في الطريق، ولكنها لم تأنس في نفسها القوّة الكافية لشنّ هجوم كبير. وفي مساء أحد الأيام عندما كان الشيخ منصور مع محمد بن هلال على رأس خمسين بلوشياً راعهم أن يروا جماعة من الفرسان على ميمنتهم "فناديناهم بالعربية: مين؟

فأجابوا: رجال صدوق مال السيد عزان. لم ندقق في أمرهم وطلبنا إليهم التزام المؤخرة. وما إن خيّم الظلام حتى باغتنا أصدقاؤنا المزعومون الذين كانوا في حقيقة الأمر من القواسم - تتعالى صرخاتهم المتواترة: الله أكبر. ولا يمكن تصوير هول المفاجأة التي لفّت الجميع، وما عدنا نسمع إلا دويّ الرصاص وصليل السيوف وقعقعة السلاح، وما بتنا نبصر إلا وهج الطلقات أو لمعان السيوف. وأصيب محمد بن هلال بضربة حربة أسفل كتفه الأيسر، وتعقّد الموقف بنحو بالغ. وانسحب أولئك الرجال فجأة من دون أن يتركوا وراءهم أثراً يدلّ عليهم، حتى توهمنا أننا كنا نتقاتل في ما بيننا نتيجة لخطأ ما، وجدير بالقول إن هذا الأمر يمكن أن يقع في الجيوش العربية "نتيجة الفوضى وسوء التنظيم".

مضت الحملة حتى بلغت شيناص والشائعات عن تقدم جيش الوهابيين تلاحقهم، ثم بلغهم بعدئذ الخبر اليقين: فعندما سمع سعود ما حلّ برأس الخيمة، استدعى زهرة مواطنيه وألّف منهم جيشاً صغيراً زوّده ألف بعير ليعبروا الصحراء بأقصى سرعة ممكنة. ويدّعي منصور أنه طفق من فوره يحثّ أهل شيناص على التسليم سريعاً، ولكنهم ظلّوا يماطلونه ويراوغون ويطيلون في أمد المفاوضات أملاً بأن يصلهم جيش مطلق. و لم يرضَ سميث بالمماطلة وعمل على حسم الأمر حين أمر مدفعيته بفتح نيرانها على البلدة. وقد تمكنت المدفعية البريطانية في مدى ثماني ساعات من تحقيق نجاح ملموس. وعند الساعة الثالثة مساءً انهار البرج، كما هوى جزء كبير من السور الملاصق له. واختلطت صرخات الأسى بأصوات تهتف: الله أكبر. وتقدمت القوات المتحالفة في رتلين. وقد التزم الإنجليز الجانب الأيمن، أما الجنود المسقطيون فكانوا في الميسرة، وصُرفت لهم قصاصات صغيرة من قماش شراع سفينة أوروبية ليجعلوها شارة لهم يعلقونها فوق عمائمهم علامة فارقة تميزهم عن القواسم. "وقد برهن هذا الإجراء على نجاعته".

يقول موريزي إن المحاصرين استبسلوا وأظهروا شجاعه فائقة، ولكن الكولونيل سميث غيّر مواقع بطاريته وراح يمطرهم بوابل من النيران، وأحدث فيهم مجزرة كبرى، فلاذوا بالفرار والمهاجمون في إثرهم يروون ظمأ سيوفهم من دماء من يتمكنون من اللحاق به. ولجأ حوالى ثلاثين رجلاً وخمس وسبعين امرأة إلى برج خرب وحاربوا بضراوة، مفضّلين الموت على الاستسلام لعدو قاسٍ لا يرحم. ولكن حين استبانت هذه الجماعة أن النيران باتت تلتهم المدينة وتأتي على كلّ ما فيها اضطروا إلى قبول شروط التسليم. ويضيف موريزي أنه ربما كان من العسير تقدير حجم خسائر القواسم التي ربما تجاوزت سبعمئة قتيل، في حين لم يخسر الإنجليز سوى خمسة عشر رجلاً فقط إضافة إلى خمسين عربياً. وقد علمت أن الأسرى قد حُجزوا في السفن البريطانية وجرى نفيهم بعدئذ إلى بومباي بعد ذلك. أما الأسيرات، هؤلاء التعيسات، فقد واجهن مصيراً أقل إثارة للشفقة من مصير اللائي قضين نحبهن في اليوم الأول

من الحرب، إذ تشير كافة الاحتمالات إلى أنهن لقين حتوفهن بعدئذ على أيدي رجالهن وفقاً للقانون المحمدي القاضي بقتل أي امرأة أقامت علاقة مع أي أوروبي!

المدد السعودي

وصل مطلق على رأس ألفي رجل إلى رأس الخيمة التي لم يجد فيها سوى قلة من القواسم المشغولين بإصلاح ما دمره الهجوم. وأيقن أن شيناص باتت تواجه مصيراً مشؤوماً لا بد من تداركه، فانعطف بجيشه يميناً وواصل مسيره السريع تجاهها، تظلّل جيشه سحابة غبار الداعمين لتقدمه من رجال البريمي والمدن الأخرى التي مرّ بها. أما سميث فكان قد حشد جنوده وأقام معسكره في مجموعة واحدة عند الساحل، وطلب إلى السلطان أن يقيم معسكر جيشه إلى الشمال منه. وأجريت مناورات أظهرت انضباطاً واضحاً في صفوف الجنود، إلا إن مجموعة كبيرة من جنود مسقط، خاصة الخيالة، لم تنضبط وراحوا يبحثون عن الغنائم. ومع اقتراب العدو أصابهم الهلع فهرعوا يتسابقون، لا يلوون على شيء للّحاق بمعسكرهم. وأخطأوا في اضطرابهم معسكر السيد سعيد، واندفعوا في اتجاه المراكز المتقدمة للمعسكر الإنجليزي. ولما كان قائد ذلك الرتل لا يعرف إن كانت هذه المجموعة من الأعداء أو الأصدقاء فقد نادى فيهم مُحذّراً إياهم من الاقتراب، طالباً إليهم أن يُمّموا معسكر العمانيين. ولكن تلك المجموعة واصلت هروبها تجاه ذلك الرتل الإنجليزي، ربما مدفوعين بالخوف من هجوم الوهابيين الوشيك، أو ربما بعدم معرفتهم للموقع الصحيح. وما كان من الإنجليز إلا أن اعتبروهم قسماً من القوّة المعادية، فرموهم بسيل من قذائف المدفعية سرعان ما أنتجت خمساً وعشرين جثّة ممددة على ذلك السهل.

اقترب مطلق من المدينة وأدرك حجم الدمار الذي ألحقته المدفعية بها، فآثر التراجع عنها ليعسكر في مزارع النخيل خارج مدى المدفعية. وظلّ مطلق لثلاثة أيام متصلة يترقب فرصة سانحة للهجوم، فيما ظلّ الجيش ملتزماً معسكره عند الساحل. ولما أدرك سميث أن المعركة قد يطول أمدها، أخبر السلطان أن الأوامر الصادرة له تلزمه بتدمير مدن القواسم الساحلية وليس بملاحقتهم في الصحراء، وأن جيشه الذي لا يضمّ سلاحاً للفرسان غير مؤهل لكسب معركة في الرمال، وعبّر له عن عزمه على سحب قواته والإبحار بها إلى بومباي. ولما كان سعيد يدرك بدوره أنه لن يحقق شيئاً من دون الاستعانة بالإنجليز، قرّر أن ينسحب عائداً إلى مسقط. وما إن أسفر صباح اليوم التالي، حتى كان الإنجليز على سفنهم متأهبين للرحيل. وكان السلطان على رأس أسطوله في قسم من رجاله يستعد للمغادرة، فيما كانت قوّة مسقط على الأرض التي وصل عدد أفرادها إلى حوالى أربعة آلاف بقيادة السيد عزان

مرابطة تراقب تحركات مطلق. وما إن رأى" ذلك القائد الشجاع الهصور سفن الإنجليز تهمّ بمغادرة المرسى، حتى وثب كالهزبر الجوعان في انقضاضه على المسقطيين المذعورين".
ووقعت معركة أو في الحقيقة مجزرة استمرت لساعتين أمام أعيننا، أدرك بعدها سعيد أن جيشه قد انهار تماماً، فقد ذُبح منه للتوّ حوالى ألفي شخص، فيما لم ينقذ الناجون إلا سرعة عدو خيلهم وإبلهم. وأسرعت مجموعات من أولئك الرجال التعيسين وألقت بنفسها في البحر وراحت تسبح نحونا تبغي النجاة باللحاق بنا. وناء المركب بحمله وازدحم بمن فيه، ولم يعد هناك متّسع للمزيد من الآخرين. وراحت تلك المخلوقات التعيسة تتزاحم على مركبنا الذي خشينا عليه من الغرق، ما اضطرنا إلى أن نردهم عنه بسيوفنا فغرقوا أمام نواظرنا وضمّهم البحر في أحشائه.

معاهدة عدم اعتداء

يقول الشيخ منصور إنه كان قد تلقّى أمراً في بداية الهجوم بالاقتراب من الساحل بمركبين مجهزين بالمدافع، إلا أنه لم يتمكن من الإسهام في تلك المعركة التي انتهت قبل أن يتمكن من المشاركة فيها. وقبل أن يتحرك الأسطول، رأوا فارساً يرفع خرقة بيضاء على رمح يُلوّح بها طالباً التفاوض، فأرسل القائد الإنجليزي مترجمه في أحد القوارب إلى الساحل للتحرّي عن الأمر. ولم يكن ذلك الفارس سوى مطلق شخصياً، وقد عبّر عن رغبته في عقد اتفاق مع الإنجليز على الشروط الآتية:

- ألا يعتدي الوهابيون ولا أتباعهم مستقبلاً على مراكب الإنجليز وأتباعهم.
- ألا تدعم الحكومة الإنجليزية السيد سعيد في "حربه الظالمة بعد خلعه الولاء وعدم أدائه الزكاة المتفق عليها سلفاً".

رجع المترجم من الساحل بهذين الشرطين وجرى تداول وافق بعده الكولونيل سميث على الصلح، وصرّح بأنه سيلتزم الحياد مستقبلاً في أي معارك أخرى تقع بين سعيد والوهابيين. ولا يعدّ هذا القرار - في تقدير منصور - غير حكيم، ولا يرى فيه غدراً بالسلطان الذي لم يكن يربطه ميثاق ملزم بشركة الهند الشرقية، إضافة إلى أن الكارثة التي وقعت أخيراً قد برهنت للقائد البريطاني بما لا شك فيه استحالة حصوله على أي شيء من مساندته السلطان. أما الماء والمؤن وغير ذلك من الإمدادات التي حصلت عليها الحملة من السلطان، فقد تلقى مقابلها بنحو كاف من دون إجحاف، وذلك حين جرى تدمير رأس الخيمة وشيناص والقلاع الخطرة في المناطق الأخرى التابعة للقواسم. ويستطرد موريزي ليقول إنه يترك تقدير الجانب الأخلاقي لهذا الإجراء السياسي الجدير بالإطراء لفطنة القارئ، ولكنه يبدي إعجابه به. ويرى موريزي

أن العلم البريطاني قد ضمن بهذا الاتفاق حرية الحركة في الخليج من دون مضايقات أو عوائق، ما أعلى من شأن حكومة الشركة الإنجليزية في المنطقة، وحمل ذكرها إلى مناطق بعيدة في شبه الجزيره العربية لم تكن قد سمعت بها سابقاً. ويضيف منصور: "إن تعليق العداء بين الطرفين قد تحوّل من ثمّ إلى حلف دائم أقسم الجانبان بكل الصدق على مراعاته. وأعطى القواسم للإنجليز ضماناً وثّقوه بتسليمهم رهائن من أكثر بيوت تلك القبيلة نبلاً!".

ينفرد منصور، من دون أي مصدر آخر، برواية التوصل إلى عقد هذا الاتفاق الذي لا نجد له ريحاً في أضابير وثائق بومباي. ولعل في هذا إضافة إلى أسلوب صياغة الحدث، ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الاتفاق - إذا صحّت موافقة سميث عليه - كان خاصاً بما بقي من عمر هذه الحملة التي ربما ظنّ مطلق أنها ما زالت مستمرة، فيما كان سميث يدرك أنها قد وصلت إلى نهايتها. وبناءً على ذلك وافق سميث على عرض مطلق الذي لا يعني له شيئاً، إلى درجة أنه لم يشر إليه في تقاريره. وندرك من جانبنا أن آليات العمل لحكومة بومباي لا تتيح لهذا القائد ولا لغيره من العسكريين أو التنفيذيين تقرير سياسة ولا عقد اتفاق يتصل بالسلم والحرب، فأقصى ما يستطيعه هؤلاء في هذا المجال لا يتعدى إبداء الرأي الذي قد يأخذ به مجلس الحكومة أو قد يهمله. أما في ما يتصل بعقد اتفاق وهابي بريطاني كالذي أشار إليه، فنرى أن الرجل ربما خلط وأثبت شروطاً ورد بعضها في اتفاق عام ١٨١٤م بين الجانبين، وإن لم تكن صيغته تتوافق تماماً مع هذا المضمون.

حصار صحار

يواصل موريزي سرده للأحداث، فيقول إنهم أبحروا إثر مغادرة الأسطول الإنجليزي إلى بندر عباس، حيث جرى تجنيد بعض الرجال وأبحروا من هناك إلى صحار لنجدتها. وكان السيد عزان قد انحاز بعدّة مئات من فلول جيشه إلى تلك البلدة بعد الهزيمة التي وقعت في شيناص وتحصّن هناك، غير أن مطلق قد سار في أثره. وحين وصل سعيد بالدعم، وجد الوهابيين الذين كانوا قد اتخذوا لهم معسكراً على سيف البحر يطوّقون المدينة، فأرسلت المراكب العمانية عليهم شواظاً من نيرانها وكبّدتهم خسائر جسيمة، ما اضطرهم إلى نقل معسكرهم من ساحل البلدة إلى ظهيرها.

وانتقم مطلق بإتلاف ماشية ضواحي صحار وقطع أشجارها وحرق أكواخها. وانطلق مطلق في طريقه إلى رأس الخيمة في جموع من جيشه الذي ترك ثُلّة منه عند صحار أوكل قيادتها إلى ابنه. وراح ذلك الرجل يشعل النار ويعمل السيف حيث حلّ في الأراضي المسقطية.

مفاوضات فاشلة

يحدثنا الشيخ منصور عن مفاوضات صلح شهدها بنفسه، جرت بين مطلق قبل مغادرته المنطقة وأحد الشيوخ المكلفين من قبل السلطان، لم تؤدِّ إلى نتيجة لعظم المبلغ الذي طلبه الوهابي. ويضيف:

"لقد اعترتني الدهشة في هذا اللقاء لتلك اللهجة المهذبة التي كان يتحدث بها مطلق، وعجبت لدماثة أخلاقه التي تعكسها تصرفاته كلها. واستنتج مطلق من تقاطيع وجهي أنني أوروبي، وقال إنه سمع عن أبو مدفع الموجود لدى السيد سعيد. وحدثني وهو في غاية التأثر عن قذيفة سقطت على معسكره قبل أيام أودت بحياة عدد من رجاله كانوا يعدّون طعامهم تحت ظل نخلة. واسترجعت هذا الحادث الذي جرى على النحو الآتي: بينما كنت أبحر على متن قارب مدفعية عند ساحل المدينة الذي خلا تماماً من الناس، أبصرت عن بعد دخاناً يتصاعد في الظهير، فأشرت إلى أحد المدفعيين البرتغاليين المرافقين بأن يصوّب في ذلك الاتجاه. وكان من نتيجة ذلك ما ذكره هذا القائد حالياً".

يقول موريزي: استغرقت المفاوضات ثلاثة أيام، لاحظ خلالها أن بعض أهل صحار كانوا يترددون بشكل متواتر على معسكر الوهابيين، ما أثار ريبته، وانتابه شك في أنهم يدبرون مؤامرة ما. ويضيف أن "مبادئ ابن عبد الوهاب الجديدة" قد وجدت لها أنصاراً عديدين في أوساط جنود السيد سعيد، وما العمل على إطالة أمد هذه المفاوضات إلا ذريعة حاول الوهابيون بها أن يعرفوا من خلال المترددين عليهم عدد الناجين من الكارثة الأخيرة والمواقع التي ترابط فيها تلك القوات. وفي اليوم التالي، بينما كان العلم الأبيض لا يزال مرفوعاً، وقف الشيخ منصور عند بوابة المدينة، وراح يعترض سبيل كل شخص من رجال الإمام يخرج منها يسأله عن مقصده، ولاحظ أن إجاباتهم كانت مضطربة، ما أوصل شكّه إلى اليقين. ومرّ به رجل ينوء تحت ثقل لفافة كبرى، فطلب إليه أن يطلعه على ما تحويه. لم يجبه الرجل، بل انطلق يجري وانطلق منصور خلفه مهدّداً إياه بإطلاق النار من مسدسه، فرضخ وأطلعه على محتويات اللفافة، وكانت مليئة بالبارود. أخذ منصور الرجل إلى السيد سعيد فاستجوبه، ولم تكن إجاباته إلا توسلات "بجاه النبي محمد أن يرأف به. ورغم جرمه الواضح وخيانته البالغة لم يعاقبه سعيد إلا بضربة عصا وسباب مهين: يا كافر... يا خائن".

اتجاهات السياسة الفرنسيّة في مسقط

فشلت المفاوضات بين مطلق ورجال الإمام، وسار مطلق متراجعاً بالقسم الأوفر من جيشه

إلى أرض القواسم. ووجد مطلق مدداً في البريمي، رفع العدد الكُليّ لرجاله إلى ثمانية آلاف مقاتل نظّمهم في ثلاث كتائب، جعل نفسه في قيادة واحدة منها وأناط قيادة الثانية بابنه محمد، وكلّف محمد بن ناصر الذي كان "شريك سوء لسعيد وأمسى ألدّ أعدائه" بقيادة الكتيبة الثالثة. رمى مطلق الساحل بإحدى الكتائب، وأرسل الأخرى إلى الداخل، فيما استقرّ هو في البريمي يتابع من موقعه في الوسط تحركات الكتيبتين ويوجههما. خرّبت كتيبة محمد بن ناصر سمايل وغادرتها إلى إزكي ومنطقة جبال ابن روي، فيما انتشرت كتيبته وكتيبة ابنه في أراضي السلطان في مجاورة بركا ومسقط. كان السيد سعيد قد تراجع في هذه الفترة إلى عاصمته بعد أن أقام تحصينات في السويق ومطرح وبركا.

يستطرد موريزي فيروي أنه التقى السلطان "التعس" في بركا وكان وضعه حرجاً. ويدّعي أن الأمير طلب إليه بإلحاح أن ينصحه في ما يمكنه اتخاذه من إجراءات دقيقة وفعالة تنقذه من الدمار. "وسمحت لنفسي بأن أقترح عليه بعض التدابير التي تنافي المبادئ السياسية في أوروبا ما لم يتبع بعض ساستها الميكيافيلية، ولكنها – على أي حال – يندر أن تجابه بالرفض إلا من نفر قليل من هؤلاء الطغاة الشرقيين."

أجاب السيد سعيد بأن ما أشير به عليه يناقض تعاليم القرآن الكريم ويجافي شرع الله. وجادله موريزي – كما يدّعي – بأن مصالح الملوك والأمم حين تتعارض مع التعاليم الإلهية يجب أن تُنحّى هذه التعاليم جانباً لترجح الكفة الأخرى!

"ولم أكد أكمل جملتي هذه التي استثارته حتى انتفض الرجل غاضباً وصرخ في وجهي بحدة قائلاً إن من الأيسر عليه أن يفقد ملكه ويخسر حياته توّاً على أن يخالف ضميره ويعصي خالقه. ولولا خشيتي من أن أوجه النقاش وجهة خطيرة لأجبته بأن لا جريمة أبلغ عند الخالق من جريمه قتل الأخ التي اقترفها، ولذلك فقد اكتفيت بالقول إن قلبه الذي يستهدي بهذه المبادئ النبيلة هو الذي سيهديه إلى طريق الصواب". شهد جانباً من هذا اللقاء م. دالونز، وهو تاجر فرنسي أرسله الجنرال دي جيان، حاكم إيل دي فرانس، في بعثة إلى السلطان لينصحه بمسالمة الوهابيين واتباع أفكارهم الدينية. وكان سعيد زاهداً في هذه النصائح اعتماداً على المساعدات التي تقدمها له شركة الهند الشرقية البريطانية التي كان يثق بسياساتها ويعتمد على حسن نياتها تجاهه.

يستطرد الشيخ منصور فيقول: "كنت أكره منه هذا السلوك والثقة اللامتناهية بتلك القوّة البريطانية التي كثيراً ما خذلته. وقد أجاز لنفسه ذات يوم أن يعبّر له عن رأيه في أن هناك فوارق أساسية بينه وبين الإنجليز تكمن في الدين وفي التقاليد، وهي فوارق تحول تماماً دون التحالف الدائم مع تلك القوّة، وأن عليه – بدلاً من ذلك – أن يسعى للتحالف مع الصدر الأعظم أو ملك فارس فيجد الدعم والمساندة بنحو أكبر مما يجده عند الإنجليز. وأجاب سعيد

بأن له مع حاكم بومباي معاهدات جعلته يظفر باحترام كافة الأمة الإنجليزية. واهتبل الشيخ منصور الفرصة – في ما يقول – ليبيّن له أن الأمة القوية تختلف عن الأمة الضعيفة اختلافاً شاملاً كاملاً. وحين تدخل الأولى في علاقة تحالف وثيق مع الثانية فلا بد أن تصبح الأخيرة مجرد ذيل تهزّه الأولى وتحركه كيفما تشاء. وبما أن ملكه لا يُداني ملك الإنجليز، ولا يُضارع قوّة الباب العالي ولا يُماثل ملك فارس، فإن كان له أن يختار حليفاً فحري به أن يربط نفسه بالقوّة التي هي أقرب ما تكون إلى عاداته وتقاليده ومذهبه. ويدّعي موريزي أنه ذكّر سعيداً بسخرية الإنجليز من جنوده إبان الحملة الأخيرة، وأن خيام جنودهم وتجهيزاتهم كانت أفضل مما لدى جنوده".

هنا غشت وجه سعيد سحابة حزن فضحت مخاوف الوضع الذي يعانيه، وعكست آلام روحه من الوضع البائس الذي يمرّ به. و لم يجد ما يعبّر به عن ذلك إلا أن يردد بشكل متواتر: الله أكبر، الله أكبر، وينهي الحديث برشفات من فنجان القهوة.

نعتقد أن ما أورده موريزي في هذا الصدد يفضح مهمته في مسقط كما يكشف عن بعض أسس الاستراتيجية الفرنسية في الشرق الإسلامي بصفة عامة وفي الخليج بصفة خاصة. لم يكن لفرنسا في هذا الوقت في المنطقة وجود استعماري قوي بعد أن انتهت جولة السباق الاستعماري الأولى فيها لمصلحة الإنجليز. ولمّا لم يكن لفرنسا من قوّتها العسكرية في المنطقة ما يمكنها تقديمه لسعيد لتكسب به الموقع الاستراتيجي الرائد لعمان الذي ظفر به الإنجليز دونهم هناك، فقد عمدت سياستها إلى دفع سعيد للدخول في عباءة الوهابيين، القوّة الأبرز في مناهضة الوجود الإنجليزي في الخليج، أو للتحالف مع الدولة العثمانية التي كان لا يزال لها من قوتها سياسات قد تختلف أو تتفق مع القوى الدولية الأخرى في ذلك العالم، أو ربما شاه فارس الذي لم يكن في هذا الوقت على وفاق مع الإنجليز. حاول حاكم مستعمرة إيل دى فرانس على هدي هذه السياسة زعزعة إحدى الركائز الإنجليزية يساعده الشيخ منصور، الجاسوس الفرنسي، فاستخدم المنطق بدلاً من السلاح حين حذّر سعيد من التحالف مع قوّة لا تجمع بلاده بها أواصر أخلاقية ولا روابط جغرافية ولا جوامع ثقافية، وأنها ستحقق بتحالفه معها أهدافها، ولن تفيد مسقط إلا بالنزر اليسير الذي يمكن أن تخدم من خلاله استراتيجيتها المحدّدة، ولن تجني مسقط جرّاء ذلك إلا التبعية وفقدان الهوية.

لعلنا هنا نشير إلى أن هذا الحديث حقّ أريد به باطل محض، ويدلل على روح السياسة الغربية في المجال الدولي عامة، فلا ثوابت لها إلا النفاق تتبعه القوّة العسكرية. ولا نبالغ حين نقول إننا أكثر الأمم بلادة في فهم التاريخ، نُقاد في دروبه عُمياناً نتوكأ على عكاكيز غربية، رغم أن أشجار بلادنا يمكن أن تمدنا – مع إصرارنا على البلادة والعمى – بعكاكيز أقوى وأجمل وأزكى رائحة من تلك التي تلوثت بدمائنا ودماء إخواننا العُميان الآخرين الذين يسلكون

الطريق ذاتها. إن عوامل الفرقة المذهبية والطائفية والعرقية والقبلية والأسرية والإثنية عموماً والإيديولجية والاجتماعية، الخليط من هذا وذاك، متوافرة في بلادنا، ولكنها كلها عوامل متغيرة ما كان يجب أن تتفوق على العوامل الثابتة من الترابط الجغرافي والتاريخ المشترك، حلوه ومرّه، والأمن المشترك والثقافة المشتركة في هذه الأرض المباركة، مهد الحضارت ومهبط الوحي الإلهي الذي عمّ العالم هُدى وصلاحاً. ولعل ما أورده موريزي يشير إلى أن الدول الاستعمارية تخدم مصالحها المشروعة وغير المشروعة في أرضنا وفق علاقات بعضها مع بعض، ويحاور بعضها بعضاً اعتماداً على تناقضات مجتمعاتنا في ما يخصّنا، كأننا الأيتام غير الراشدين على مائدة لئام شرهين. أضحى تبادل مصالح العرب مع الغير وتنظيم حقوقهم لدى الغير بيد الغير، وفق توافق ذلك الغير بما يخدم مصالحه وليس عبر تبادل متساوٍ للمصالح المشروعة مع الغير. وغدت شعوب أمّتنا دُمى في مسرح التاريخ تحركها أشباح من خلف ستار شفاف وصفوه زوراً بالشرعية الدولية.

تحركات مطلق

يستطرد منصور فيقول إن مطلق شدّد في هذه الأثناء الحصار على بركا وطوّقها برجاله بنحو كامل، وغدا من المستحيل على السكان الخروج منها، وكان لا بد من اتخاذ إجراء لمقابلة هذا الوضع. وجرى التخطيط لدهم الوهابيين ليلاً وأخذهم على حين غرّة. ويدّعي الشيخ منصور أن سعيد الذي "لا تُعدّ الشجاعة بأي حال من الأحوال من مميزاته الشخصية" لم يرغب في قيادة الجيش بنفسه، بل أناطها بالسيد محمد بن هلال وبشخص موريزي. خرج محمد وموريزي على رأس مئة وخمسين مسلحاً بالبنادق والمسدسات من إحدى بوابات مدينة بركا في الساعة الحادية عشرة مساءً تحت ستار من دويّ المدافع التي راحت تقصف عشوائياً بقصد تشتيت انتباه العدو. وأسرعت السرية تعدو تجاه معسكر الوهابيين وهي تقتل كل من تصادفه في طريقها، واستمرت بعدوها المتواصل السريع حتى وصلت إلى بوابة المدينة الشمالية، أما الجنوبية التي كانت موصدة، فلم يقتنع حراسها بفتحها لهم إلا بعد حين. وحين أشرقت شمس اليوم التالي استبانت بركا أن المهاجمين قد ارتدوا وابتعدوا عن أسوارها بحوالى عشرين ميلاً. ويرى منصور أن خسائر الوهابيين ربما لم تكن كبيرة، ويضيف أنهم لم يفقدوا أياً من رجالهم. ويفيد بأن السلطان قد تراجع بعد رفع الحصار عن بركا إلى مسقط ليجد أن جيش العدو بات قريباً منها. و لم يجد السلطان إلا أن يتحصّن بأسوار قصره "ليصلي إلى السماء التي بدت له كأنها الوحيدة التي تستطيع أن تقيه الدمار الماثل".

استعانة سعيد بالفرس

يقول الشيخ منصور إنه ترك مسقط لاقتناعه بأن سلطانها لم يعد يستمع إلى نصائحه أو يوليه الرعاية التي كان يظفر منه بها سابقاً. ويقول إن ما يورده في مفكرته من حقائق يعتمد فيها على بعض المصادر الموثوق بها التي محّصها ودقّق فيها قبل أن يثبتها. ويلاحظ أن موريزي أطلع القارئ بالسبب الذي يدّعي أنه كان الدافع له إلى المغادرة، ولكنه لم يشر إلى دوافع عودته بعد ذلك إلى مسقط مرّة أخرى. يروي منصور اعتماداً على مصادره أن السيد سعيد أرسل أخاه السيد سالم في أواخر عام ١٨١١م إلى طهران يسألها المدد، "وذلك اعتماداً لما بين الشاه والوهابيين من عداء، نظراً إلى نهب الأخيرين قوافل الحجاج الفرس في الحلة". ولكننا نرى من جانبنا أن منصور، شأنه شأن أكثر الرحالة الجواسيس في ذلك الوقت، يرصد ظاهر الأحداث ولا يغوص في دواخلها. فالخلاف بين القوتين المشار إليهما هنا يكمن في التناقض المذهبي، وما الهجوم المشار إليه – إن وقع – إلا مظهر من مظاهر هذا التناقض التاريخي.

يقول منصور إن الشاه استجاب لبعثة سالم الذي عاد بعد عدّة أسابيع في رفقة قوّة عسكرية بقيادة سعدي خان، أحد أفراد الأسرة القاجارية. وتكوّنت هذه القوّة من ألف وأربعمئة فارس وأربع وحدات مدفعية مع طاقم تشغيلها من الجنود الروس الهاربين، إضافة إلى عدد من مدافع "الزمبلك" التي تُحمل على الإبل وفوهاتها إلى الخلف فتطلق النار من ماسورتها في هذا الاتجاه. ركب سالم البحر مع القوّة الفارسية من بندر عباس (جمبرون) على المراكب السلطانية، وأنزلها في بركا حيث قوبلت بالترحيب. وانضمّت إلى هذه القوّة قوة أخرى من جنود سعيد قوامها أربعة آلاف مقاتل. وخرجت القوّة المشتركة لملاقاة مطلق الذي لم يجبن ولم يتهيّب اللقاء. وجرت قرب نخل، القرية الواقعة بين مسقط وبركا، معركة ضارية تكبّد فيها الوهابيون خسائر جسيمة، ما اضطرهم إلى التقهقر إلى سمايل. وازداد جيش السلطان عدداً بمن انضمّ إليهم في تلك المناطق. ويتهم الشيخ منصور العرب بعدم الولاء لحكامهم، فهم لا يعبأون بخصومات حكامهم، بل يعملون أبداً للانضمام إلى الفرقة الغالبة، أيّاً كانت. ويدّعي أن هذه هي السمة العامة عند كافة العرب. والدليل على ذلك – في ما يقول – أنه عرف رجلاً غيّر موقعه بين الجانبين المسقطي والوهابي أربع مرّات في غضون سنة واحدة فقط، وذلك رغم أنه كان من أتباع الدين "المحمدي الأرثودوكسي!". ولا ندري من جانبنا أي دين يقصده موريزي، ولكنه ربما قصد الوهابية التي يعتقد أنها دين، أو ربما قصد بها واحداً من المذاهب السنّية.

لاحقت القوّة المسقطية مطلق في سمايل، فانسحب منها إلى إزكي نظراً إلى عدم قدرته على مجابهتها، فقد كانت تبزّ قوّته عدداً وعتاداً. حصّن مطلق مواقعه في إزكي بمعاونة صديقه

السيد محمد بن ناصر الذي ما كان يشك في إخلاصه أبداً، وكتب من هناك إلى الدرعية يطلب مدداً عاجلاً. وفي هذه الأثناء ظنّ سعيد أنه قد أنزل هزيمة ماحقة بعدوّه، فعمل على فتح جبهة أخرى. أوكل سعيد قيادة هذه القوّة إلى محمد بن هلال وسعدي خان، وجهّز قوّة بحرية قادها بنفسه إلى أرض القواسم لتدمير رأس الخيمة التي كان قد أعيد بناؤها بعد ما أحدثه فيها الإنجليز من دمار. و لم يكن أهل تلك البلدة قد نسوا حرفتهم القديمة "في القرصنة التي عملوا بها زمناً طويلاً"، ولكنهم باتوا يهاجمون السفن العربية فقط ولا يتجرّأون على مهاجمة المراكب التي ترفع العلم البريطاني الذي أسبغ عليها حصانة وأمناً.

كان السيد سعيد قد كتب في الفترة التي كان فيها السيد سالم في فارس ينشد دعمها إلى حاكم بومباي يطلب إليه أن يبيعه مدافع مورترز. ويعلق الشيخ منصور على ذلك بأن العرب كالقرود، مقلدون بالغريزة. لاحظ العرب الآثار المدمرة التي أحدثتها هذه المدافع في فترة حصار شيناص، فتوهموا أنهم سيحدثون أثراً مماثلاً باستخدام هذا السلاح. أرسلت بومباي المدافع التي عيّن سعيد لها مدفعي فارسي كان يدّعي كفاءة تامة في استخدامها. وعند التجربة قام هذا المهندس الدعي الذي اتهمه موريزي بأنه "تميز مثل السيد سعيد بالجهل المطبق" بإشعال فتيل القنبلة قبل أن يُحكم وضعها في ماسورة المدفع، وانتشر الدخان واشتعلت النيران. و لم يجد السلطان المرعوب مخرجاً إلا التضرع "بمحمد (صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً) وبفاطمة (رضي الله عنها وأرضاها). و لم يُصب في الحادث أحد بسوء، ما دعا الأتقياء في مسقط يعتقدون أنهم قد أصابوا السلامة بتدخل النبي (صلى الله عليه وسلم) بشكل مباشر لإنقاذهم".

لم يُثنِ هذا الحادث سعيد، فقد مضى في تجهيز بحريته بتلك المدافع التي اشتراها، وعيّن لها مدفعيين فُرساً ليزيد في كفاءتها، وانطلق ليهاجم رأس الخيمة. واستغل مطلق فرصة خروج "عدوّه" من مسقط لتنفيذ خطته الجهنمية بمعاونة الفرس، فأرسل إلى المدينة من يشيع فيها أن ملك فارس قد أرسل جنوده للسيطرة على البلاد وإخضاعها لسيادته تحت ذريعة حفظ الأمن فيها. وسرت تلك الشائعة غير المؤسسة على حقيقة سريان النار في الهشيم، فأوغرت صدور كل الذين رأوا أن هذا العمل يزري بشجاعتهم وينال من وطنيتهم. واشتجر النقاش وعمّ الخلاف بين مصدق ومكذب. وانتهز مطلق، ذلك القائد المشهود له بالهمّة والشجاعة التي لا تُمارى، فرصة هذه البلبلة، وكان يعدّ عدّته في هذه الأثناء للهجوم. وحين أدرك أن فرصة الوثوب "على عدوه" قد حانت، انبرى لهم وأوقع بهم بالقرب من سمايل هزيمة نكراء، و لم ينجُ من ذلك الجيش سوى سعدي خان الذي ولّى الدبر يسابق نحو مئة من الناجين الآخرين من الفرسان إلى بركا. ولقي الآخرون مصارعهم جراء تلك الهزيمة النكراء التي لقي فيها "صديقي السيّئ الطالع محمد بن هلال "أيضاً حتفه مع زمرة من المدفعيين الروس الذين لم

يسعفهم فرارهم من المعمعة. و لم يعمد مطلق إلى الزحف إلى رأس الخيمة لإنقاذها، بل اتجه نحو مسقط مباشرة وأحرق مطرح، إحدى ضواحيها، واختار أن ينزل من مسقط منزلاً يحرمها من كل مدد يمكن أن يأتيها من المناطق المجاورة لها. أما سعيد فلم يملك بعد أن بلغه خبر الهزيمة الماحقة التي نزلت بجيشه إلا أن يتراجع فوراً إلى عاصمته لحمايتها من الخطر الماثل الذي بات يتهددها. وحين أشرف سعيد على مسقط وأبصر ضواحيها تضطرم ناراً "ذرف دموع الندم على التبعات التي جرّها عليه غباؤه ما أورثه الوهن وقلة الحيلة". وحين استعاد الرجل صفاء ذهنه، أشبع سعدي خان لوماً وتقريعاً وأرسله إلى بندر عباس مشيّعاً بعدم الرضى، وتفرّغ الإمام من ثمّ لتقوية حصون مسقط والمدن الأخرى التي ما زالت تعترف به سيداً لها، فيما كانت همسات المواطنين تتعالى شيئاً فشيئاً بالمصائب التي صبّت عليهم سحبها الوابلة وسوّدت أيام عهده. وانطلق مطلق يغزو الأقاليم الداخلية، ما إن ينزل أرضاً حتى تغدو يباباً صفصفاً، يتوعد "سكانها البائسين ويهددهم ولا يرضى منهم إلا الانتظام في الدين الوهابي، في حين شقّ على أولئك البدو مفارقة دين آبائهم الذي اعتنقوه منذ زمن بعيد!". ولا تعليق لنا على هذا المشهد الذي صوّره موريزي بنحو درامي سوى أنه يحكي عن أطياف حقائق لوّثتها ترّهات زيف مقيم.

موريزي ينعى مطلق

يقول الشيخ منصور إن مطلق واصل القتال غير عابئ، "فهو البطل المغوار الذي لا يهاب ولا يخشى على نفسه أخطار المعارك. وهو المحنك الذي يدرك صدق القول بأن العدو، مهما تناهى ضعفه، فأمره خطير يجب الحذر منه، وأن من يبلغ القمة يغدو في الغالب مشرفاً على الانحدار".

ويضيف أن الحظّ واكب ركاب مطلق زمناً، ولكنه لم يكمل الشوط، فقد خانه في نهاية المشوار. فبينما كان ذلك القائد عائداً من الجعلان في طريقه إلى سمايل في رفقة مجموعة صغيرة من جنده، هاجمته قبيلة العوابي، وهي من القبائل المشهود لها في القتال، فأردته قتيلاً بعد معركة عنيفة. وجزّ العرب رأسه وحملوه مع سلاحه إلى السلطان في مسقط وهو لا يكاد يصّدق ما تراه عيناه. و"هكذا مات في نوفمبر ١٨١٣ ذلك العدو القوي الشكيمة، الكفوء الذي ظلّ مجرد ذكر اسمه يثير الهلع في المساقطة".

يصف موريزي مطلق فيرى فيه رجلاً وسيماً تحيطه هالة من البطولة التي تمازجها رقّة متناهية، ما أكسبه احترام أتباعه، فبذلوا له إخلاصهم صافياً. ويضيف "ربما يرد البعض الشجاعة التي امتاز بها هذا الرجل إلى الجبن الذي تميز به أعداؤه، وهذا قول ندحضه من

دون مراء ولا مجافاة للحقيقة"، فقد حارب هذا البطل الإنجليز. ولئن تقلّب به الحظّ في لقائه معهم، فإننا لا نملك إلا أن نشيد بحكمته. فحين وصل إلى شيناص ووجد أن الأوروبيين يفوقونه قوّة، لم يتصدَّ لهم ولم يهاجمهم. وشهد موريزي لمطلق بأنه، من دون مبالغة، أكثر قادة الشرق كفاءة وأوفرهم حنكة. وينتهي موريزي بعد هذا الرثاء المؤثر لمن وصفه بالعدو إلى القول إن سعود أوكل قيادة المنطقة بعد مطلق إلى ابنه الذي لا يمتاز بشجاعه أبيه ولا يتميز بدربته وحنكته. فبعد مقتل مطلق فقد الوهابيون كل أمل لهم بإخضاع السلطان. وإذا جاز أن نعلق على رثاء موريزي لمطلق، نلاحظ أنه الرحالة الغربي الأول والأخير الذي امتدح من العرب قائداً أو حاكماً يمثل هذه الصفات، ربما باستثناء فريد حين امتدحت الآنسة جيرترود بل عبد العزيز بن سعود الذي هالتها طلعته حين التقته في البصرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

التحالف بين محمد علي باشا ومسيو صقر والسلطان

تصادف الوقت الذي جيء فيه برأس مطلق إلى مسقط مع وصول مركب صغير من جدّة على متنه "مسيو صقر"، سلطان القواسم المخلوع، الذي كان قد تمكن من أن يهرب من الدرعية إلى مكّة المكرّمة ويضع نفسه تحت حماية العثمانيين. لم تطرأ في ذهن محمد علي باشا وهو يهاجم الوهابيين أن يستعين بتحالف مع السيد سعيد سلطان مسقط، ولكنه فطن إلى ذلك أخيراً حين قابل "ميساجارا"، لعلّه يحدث بذلك تحولاً في العمليات العسكرية بتوظيف طريق الساحل الآخر من شبه الجزيرة العربية. أرسل الباشا "ميساجارا" إلى سعيد طالباً إليه أن يدعمه ويعيده – إذا كان ذلك ممكناً – إلى شياخة رأس الخيمة مرّة أخرى. ويعتقد موريزي أن محمد علي روّج لانتصاراته وطلب إلى السلطان أن يؤيّد هذه الجهود بعدد من المراكب والقوارب التي تمكنه من مواصلتها. واستجاب السلطان لهذه المبادرة التي بعثت فيه أمل إصلاح أحواله المتردية، وداخله الزهو لما أظهره تجاهه بلاط القسطنطينية القويّ.

جهّز سعيد مركباً حمل إمدادات وذخيرة أرسلها إلى جدّة، وأكّد في رسالته إلى طوسون باشا استعداد مسقط لتقديم كل مساعدة ممكنة لخدمة عملياته ضدّ العدو المشترك. كذلك جهز سعيد أسطولاً أناط قيادته ب"بالمسيو" صقر للعمل على استعادة ملكه القديم وإعادة بعث الإخلاص في نفوس أتباعه القدامى الذي كان قد خمد. ولما كان "ميساجارا" يدرك أن فرصة النجاح في رأس الخيمة غير واعدة، فهي مستعصية على الهجوم، اختار أن يهاجم لنجة والمناطق القاسمية الأخرى على الجانب الآخر من الخليج. ورضخت تلك المناطق لأمر سيدها القديم، وزاد الرجل في عدد جنوده بالدعم المالي المقدم له من مسقط. وانقسم ولاء قبيلته المقاتلة، قسم انحاز إليه وآخر إلى الوهابيين.

ارتفعت معنويات السيد سعيد الذي يقول موريزي إنه كان عاجزاً عن حماية نفسه، ولكنه بات بعد ذلك يهب العروش. كان باشا جدّة يراسله بين حين وآخر وينهي إليه تمكنه من استعادة مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة وطرد الوهابيين من ساحل البحر الأحمر. وعرف من تلك الرسائل أيضاً أن الباشا لم يصادف حسن الطالع في داخل شبه الجزيرة العربية، وذلك لما يميز الوهابيين من قدرة على تحمل المشاق وصبر وجلد وشجاعة في خوض المعارك. وتضيف رسائل الباشا أن دون أسوار الدرعية مسيرة طويلة وشاقة عبر صحراء يسيطر عليها الوهابيون. ويعلق الشيخ منصور على ذلك بقوله إن دولاب الحظّ عندما يأخذ في الدوران فإن سرعته – كما يلاحظ الفلاسفة والشعراء – تتزايد في تواتر متصل لتصل أقصى مدى لها. فبينما كانت أخبار انتصارات طوسون تتقاطر على سعيد، بلغه خبر وفاة سعود، "الحاكم الوهابي السياسي المحنك الذي يتصف بالشجاعة والجلد وبعد الهمّة"، وتولى ابنه عبد العزيز الذي يرى الناس فيه أنه يفتقر إلى ما تميّز به أبوه. وقد أدخلت هذه الأخبار الاطمئنان والسعادة إلى قلب سعيد، الرجل الذي كان على شفا حفرة من الانهيار. وأخذت أرض السلطان تحصد ثمار هذا الاستقرار الذي لاحت بوادره. أصدر سعيد أوامره بإعادة إعمار ما كان قد تهدّم من مدنه، وطفق المزارعون يفلحون أرضهم كما كانوا سابقاً يفعلون، وهدهدت التجار آمال الثراء الفاحش. وأقبلت جموع البدو تهنّئ أميرها وتبذل له فروض الطاعة والولاء. وعمل سعيد – من جانبه – على تدعيم قوته البحرية، فأمر ببناء سفينة كبيرة في أحواض بومباي.

داو وهابيّة في مياه مسقط

أما على الجانب الآخر، فنجد أن هذه الأحداث لم تفتّ في عزم الشيخ صالح، رئيس رأس الخيمة، الذي مضى بكل همته – كما يقول موريزي – في مواصلة العداء. وراحت مراكبه تهاجم بضراوة المراكب الأخرى المبحرة في المياه القريبة من سواحله. والويل للبحارة "البؤساء" الذين يقعون في يده، فمصيرهم المحتوم التعذيب والقتل، ولن يحظى بالرحمة منهم إلا القليل. ودشّن عبد العزيز –الذي وجد فيه الوهابيون قائداً قادراً على حمل راياتهم يرتقي بها مدارج النصر – عهده بإنفاق عشرة آلاف ريال في تسليح داو كبيرة باثني عشر مدفعاً، وجعل عليها أربعمئة رجل، ووجّهها للقبض على كل مركب عربي يبحر في مياه الخليج. أبحر هذا المركب، فظهر بقيادة قائده جعفر فجأة في ميناء مسقط، وأطبق على المدينة وسط دهشة السكان المذعورين. ويستطرد منصور قائلاً إن التعبير عن مدى الهلع الذي انتاب أولئك الناس جراء هذا الحادث غير المتوقع يحتاج إلى براعة قلم سيّال ليحكيه وعبقرية شاعر مجيد ليسطره. استولى على السكان الذهول وخيّم الوجوم عليهم، فاصفرّت وجوههم وألجمت المفاجأة

ألسنتهم، وما كان أي منهم يدري ماذا يقول للخلاص من هذا الخطر الماحق. واكتفى جمعهم بالنظر بعضهم إلى بعض بعيون زائغة وقلوب واجفة. كان للسلطان الذي أحاط نفسه بجماعة من البدو لدعم قواته النظامية عدد من السفن مربوطة في مراسيها في الميناء، بما فيها السفينة كارولين التي تظفر بالإعجاب، والتي بُنيت أخيراً في بومباي. وكان على سعيد، "الواجف مثل بقية أفراد شعبه"، أن يظهر الجلد. فاعتلى مركبه الجديد وراح على رأس ألف مسلح بالحراب، بمن فيهم خواصه وأقاربه وعبيده، على مركبين آخرين من ذوي الثلاث صواري مجهزين بالمدافع لمواجهة تلك الداو التي كانت تبحر بالقرب من مطرح. أرسلت كارولين نيران مدفعيتها على تلك الداو التي كانت خارج مدى النار فاستنكفت الرد عليها وأبحرت في اتجاه رأس قليهات. واطمأن سعيد بما بدا له كأن العدو قد ولّى هارباً، فأصدر أمره إلى رجاله بملاحقة ذلك المركب، أما هو فقد انقلب راجعاً على متن كارولين إلى مسقط، مكتفياً بحصاده من النصر المؤزّر حيث جرى استقباله بالهتافات. أما المركبان الآخران فقد أبحرا إلى أعالي خليج قليهات، وأبصر رجالهما الشيخ جعفر وهو يستولي على مركبين لبانيان وعرب موسوقين بالسلع ويُعمل سيفه في رقاب بحارتهما، فلم يعملوا على الاقتراب منه بأكثر من ثلاثة أميال، ثم قفلوا بعد ذلك عائدين إلى مسقط مسرعين ليزفّوا بشرى نجاحهم إلى سيدهم ويحدثوه عن بطولاتهم. أما جعفر فقد أبحر إلى عرض البحر بحثاً عن غنائم جديدة يصيبها.

خاتمة كتاب موريزي

يقول موريزي إن القارئ قد يظن أنه ينمّق حديثه في سرده هذا أخبار تلك المواقع وينفي ذلك عن نفسه، فهو كما يدّعي، يروي واقع الحال ولا يزيد. ويضيف أن حديث رجال الإمام، العائدين من دون ملاحقة جعفر، عن شجاعتهم لم تنطلِ على الإمام، ولكنه – مع ذلك – لم يستطع أن يوصمهم بالجبن "لئلاّ يصيبه نصيب من ذلكَ"، فاتهمهم بدلاً من ذلك بالخيانة. وعاقب سعيد رجاله بقوله: اخسأوا، وسبّهم حين نعتهم بلفظ الكفار المخزي. و لم يرضَ تجار مسقط بما جرى، فاستنكروه وجأروا بالشكوى من أنهم يدفعون الضرائب لدعم هذه القوات التي لا تستطيع حتى النظر في وجوه أعدائها، ولكنهم اضطروا مرغمين إلى الرضوخ لسوء حظهم، "فهو قدر مكتوب يجب على كل مسلم أن يمتثل له".

يقول الشيخ منصور إن جعفر أبحر بعد أن انضمّت إليه مراكب قاسمية أخرى إلى منطقة خور مازو بالقرب من كتش على ساحل مكران، فأرسلت مسقط ثلاث سفن لردّه، ولكنها سرعان ما تراجعت "كالعادة" بعد عمليات غير مثمرة. ويخاطب موريزي القارئ مرّة أخرى ويطلب إليه ألا يظن أنه يتصيّد أخطاء سيده السابق ويكيل له اللوم، أو أنه يحمل له ضغينة ما،

فهو يكتب على هدي المبادئ التي يؤمن بها والأخلاق التي نشأ عليها، ما يحتّم عليه التزام الحقيقة المجردة ولا يبالغ فيها. ويدّعي أن سرده يبيّن مدى صدق ارتباطه بسعيد والإخلاص الذي بذله في خدمته، ويخشى أن يكون عطف سعيد المتواصل على شخصه وأفضاله المتواترة قد حجبا عنه بعض مساوئ ذلك السلطان. ولا نجد من جانبنا - إذا جاز لنا التعليق على إلحاحه المتواصل على حثّ القارئ ليصدّق ما يكتبه - إلا أن نقول: يكاد المريب أن يقول خذوني!

يختم موريزي كتابه المعنون: **تاريخ السيد سعيد سلطان عمان** بقصة هروبه المزعومة من عمان ثم عودته إليها مرّة أخرى في عام ١٨١٤ بعد رحلة بحرية صارع فيها مركبه الأنواء والعواصف، وأدّت جهوده ومعرفته وحصافته إلى إنقاذه، ليستقبله بعدها السيد سعيد مرّة أخرى ويرسله في مهمة إلى السويق على رأس بعثته لعمّه "السيد أحمد بن الإمام". وإذا عرفنا أنه لم يكن للسيد سعيد في السويق أو غيرها عمّ بهذا الاسم أبداً، يمكننا على ضوء ذلك تقويم الكتاب وتقدير مدى دقّة المعلومات الواردة فيه.

الباب الخامس

رحلة سادلير عبر شبه الجزيرة العربية

الفصل الحادي عشر

سادلير في رفقة الكتيبة المصرية المنسحبة من الأحساء

جورج فورستر سادلير المولود في الثاني والعشرين من ربيع الثاني ١٩/١٢٠٣ يناير ١٧٨٩ في كورك من أعمال إيرلندة الجنوبية، من أب أنجلو إيرلندي هو جيمس سادلير الذي هاجر إلى إيرلندة في فترة حكم كرمويل، وأصبح عمدة لكورك في عام ١٧٩١م، وهي المدينة التي كان عمّه عمدتها في عام ١٧٨٥م. وقد شغل جورج فورستر أيضاً منصب عمدة كورك في عام ١٨٣٧ بعد تقاعده من الخدمة العسكرية. أما والدة جورج فهي جوانا فورستر التي كانت من كورك أيضاً. ويُعدّ جورج فورستر سادلير أول رحالة غربي – في ما نعرف – قطع شبه الجزيرة العربية عرضاً من أدناها إلى أدناها

التحق سادلير بالفرقة السابعة والأربعين مشاة في الخامس من المحرم ٤/١٢٢٠ إبريل ١٨٠٥، ورُقي في عام ١٨٠٦م إلى رتبة الملازم. وقام هذا الضابط بعدّة مهمات عسكرية في الهند، وأرسل في عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م على رأس مجموعة من الضباط والأفراد من الهند في مهمة لتدريب الجيش الفارسي، تنفيذاً لبند من بنود اتفاق عقد مع الشاه في عام ١٨٠٩م أتاح لشركة الهند الشرقية البريطانية مهمة تدريب الجيش الفارسي في نظير أجر معلوم. ويبدو أنه أبدى نجاحاً في مهمته أهّله في عام ١٨١٣م ليُرقّى إلى رتبة النقيب. ونتيجة لحسن بلائه في أداء مهمته، منحه الشاه رتبة رائد عند انتهاء فترة انتدابه لفارس في عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م، كما قلّده سيفاً تعبيراً عن فرط تقديره له. ويبدو أنه أحيل على التقاعد بعد ذلك، ولكنه ظلّ يتقاضى، بأمر من الحاكم العام في الهند اللورد هاستنج، راتباً شهرياً. وعمل مرّة أخرى مع بعض الفيالق البريطانية في الهند، وشارك في العمليات العسكرية التي انتهت باستعمار أواسط شبه القارة الهندية والعمل على إخماد المقاومة الهندية في تلك المناطق تماماً. وعُيّن سادلير بعد ذلك في عام ١٨١٧–١٨١٨م في وظيفة سياسية تحت رئاسة جون ماكولم الذي كان يتولى

إدارة الملفات الخاصة بالخليج العربي. ولعل ذلك كان السبب الأول في اختياره للقيام بمهمة التنسيق مع سلطان عمان ومع إبراهيم باشا للمشاركة في الحملة البريطانية المزمعة لضرب مناطق القواسم في الخليج. وقد تلقّى سادلير أمراً مكتوباً من السير إيفيان نيبان في ١٨ جمادى الآخرة ١٢٣٤/١٣ إبريل ١٨١٩ للبدء بمهمته التي كانت ترمي - بحسب الرسائل المتبادلة بين حاكم عام الهند وحاكم بومباي - إلى تكليف إبراهيم باشا بالقيام بحملة برية على رأس الخيمة، على أن تقوم بحرية الهند بمهمة الإسناد والحصار البحري. ووقع على سادلير أيضاً أن يقدم إلى الباشا التهانئ على ما حققه من نصر على الدرعية وتسليمه سيف شرف اعترافاً منهم بشجاعته وحسن تقديره. و لم يتمكن هذا الضابط الذي دخل إلى شبة الجزيرة العربية من بوابة القطيف من مقابلة الباشا إلا على مشارف المدينة المنوّرة. وسافر سادلير من هناك إلى ينبع فجدّة. وحقق حين قطع شبه الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها ما لم يحققه غربي قبله، رغم أنه لم يكن يقصد ذلك الأمر الذي لم يكن من أهداف مهمته التي لم يتيسر له تحقيق شيء منها. فحين احتجّ سادلير على هدية الباشا التي كُلّف بحملها إلى هاستنج بحجّة أنها لا تتناسب مع مقامه الرفيع، حيث اشتملت على سرج مهترئ ولجام قديم إضافة إلى فرس وحصان، غضب إبراهيم باشا واستعاد منه الهدية ومزّق الرسالة التي كان قد كتبها للحاكم العام الهند، وكانت تلك الحادثة تعبيراً أكيداً عن أن مهمة الرجل كانت فاشلة تماماً.

أبحر سادلير بعد فشل مهمته من جدّة إلى المخا ثم إلى بومباي إلى أن بلغها في ٢٦ رجب ١٢٣٥/٨ مايو ١٨٢٠. و لم يجد هذا الضابط حين خاطب الحاكم العام ما يُبرر به فشل مهمته، إلا أن سوء الطالع قد رمى به أمام شخصية متسلطة لا تراعي أبسط حقوق الإنسان "المقدسة". فهو ينهب الممتلكات ويصادر الأموال ويقتل مخالفيه ليشبع رغباته في القتل والتدمير. فهل كان وصف سادلير لإبراهيم باشا ونعته بأقذع الألفاظ ممّا سنجده في تقريره هذا معبّراً عن حقيقة الرجل فعلاً أم تراه يعبّر بذلك عمّا اعتراه من سخط لما لقيه في رحلته لمقابلة الرجل ويعمل على تبرير فشل مهمته؟

سجلت هذه الرحلة نهاية عمل سادلير في القسم السياسي في إدارة الهند، حيث ألحق بعدها باللآلاي السابع والأربعين الذي كان معسكراً في حيدر آباد الدكن. وشارك ضمن هذا اللآلاي في الحرب في بورما في الفترة ١٨٢١-١٨٢٤م. وأحيل سادلير على التقاعد في ١٢ ذي القعدة ١٢٥٢/١٧ فبراير١٨٣٧، فعاد إلى كورك وشغل فيها منصب العمدة كما ذكرنا من قبل. واستقرّ الرجل في تلك البلدة، وفيها تزوج عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٨م، ولكنه ما لبث أن هاجر إلى نيوزيلندة في ١٢٧١هـ/١٨٥٥م وهلك في أوكلاند في ٨ جمادى الأولى ١٢٧٦/٢ ديسمبر ١٨٥٩.

يقول التقرير، محل دراستنا هنا، إن حكومة بومباي أصدرت أمرها إلى سادلير - كاتب هذا

التقرير – للذهاب إلى نجد للقاء إبراهيم باشا الذي تمكن من الانتصار على الدرعية، عاصمة الوهابيين، لتهنئته على ما أصابته حملته من نجاح، وتحسّس خططه في ما يتصل بأي فتوحات أخرى يزمع القيام بها في شبه الجزيرة العربية، وللتفاهم معه بشأن المدى الذي يمكن أن يسهم فيه مع البريطانيين في ضرب رأس الخيمة والمناطق القاسمية الأخرى التي تعتبرها تلك الحكومة مراكز للقراصنة. ولما لم يكن موقع معسكر إبراهيم باشا معلوماً على وجه الدقة لدى حكومة بومباي، فقد طلبت تلك الحكومة إلى سادلير أن يغشى مسقط أولاً لمقابلة إمامها للتباحث معه بشأن الحملة التي تُعدّ لها بومباي على مناطق القواسم في الخليج العربي، ولكي يتحرّى عن أيسر الطرق التي يمكن أن تقوده إلى موقع معسكر الباشا في سهولة ويسر. ولعل ما أورده سادلير في كتابه *Diary of a journey across Arabia, Oleander reprint 1977*، يُعدّ أوفى تفصيلاً مما جاء في هذا التقرير الذي اعتمدناه في هذه الدراسة. جاء في الكتاب أن نبيان، حاكم بومباي، أصدر أمره في ١٣ إبريل إلى سادلير كي يغادر على الطرّاد ثيتس ذي الأربعة عشر مدفعاً إلى الخليج لتهنئة إبراهيم باشا على تدميره للدرعية، وللتباحث معه في شأن العمل على الإجهاز تماماً على ما بقي من فلول القوّة الوهابية. وطلب نبيان إلى سادلير أن يُلقي بهذه الخطة إلى الباشا من دون أن يبدي اهتماماً كبيراً بها. كذلك قضى الأمر الصادر من نبيان إلى سادلير أن يطلب دعم إمام مسقط في هذا الصدد، وأن يدفعه إلى التنسيق مع الباشا في هذا الاتجاه. وقضت مهمته أيضاً العمل على التجسس على الجيش التركي ومعرفة قدراته (ص. ١٢ – ١٣).

لم يورد سادلير في هذا التقرير اسم الإمام المذكور و لم يترجم له. ويمكننا أن نتولّى هذه المهمة عنه. فالإمام المقصود هو السيد سعيد بن سلطان (١٢٢١–١٢٧٣هـ/١٨٠٦–١٨٥٦م). وهو أبرز حكام دولة البوسعيد، إذ تمكن من تأسيس دولة آسيوية أفريقية امتدت من زنجبار ومناطق عدّة في الساحل الشرقي لأفريقيا إلى المكلا في اليمن. وضمّت مقاطعات عمان جميعها وسواحلها حتى جزيرة هرمز، وتعدّتها إلى مناطق في السواحل الشرقية للخليج وصولاً إلى بلوشستان. ومع ازدياد الهيمنة الهندوبريطانية على هذه المناطق وازدياد الضغط الوهابي على الأراضي العمانية، اضطر سعيد إلى الرحيل إلى زنجبار في عام ١٨٣٣م، وعيّن ابنه ثويني في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م حاكماً على مسقط. ورغم أن سعيد كان يملك أكبر أسطول بحري في المنطقة الممتدة من رأس الرجاء الصالح إلى سواحل اليابان، إلا أن الضغط الذي واجهه من القوى الغربية في هذا المجال أوهنه، فأخذ يخسر ممتلكاته الساحلية تباعاً. وحين توفي السيد سعيد في ١٨٥٦م كان لحكومة الهند من السطوة والنفوذ والهيمنة في المنطقة ما جعلها تتدخل بالوساطة بين أبنائه المتنازعين على وراثته، فتمكنت من شق مملكته إلى قسمين. فأصبح ثويني حاكماً على مسقط وتوابعها، فيما أصبح أخوه ماجد حاكماً على زنجبار والشق الأفريقي من المملكة. وقد ظلّت أسرة البوسعيد تحكم في زنجبار حتى عام

١٣٨٢هـ/١٩٦٣م حين أُطيحوا بانقلاب لاحق العرب العمانيين، فاضطر الكثير من ذوي الأصول العمانية إلى العودة إلى عمان.

وصل سادلير إلى مسقط في يوم ١٣ رجب ١٢٣٤/٧ مايو، وتلقى في اليوم التالي مباشرة زيارة من وزير الإمام للترحيب به وتحديد موعد مقابلته للإمام. ورُتّب ذلك من دون أي تعقيدات، فليس ثمّة إلا القليل من المراسم في بلاط ذلك العاهل. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وفد الوزير إلى الساحل ليصحب سادلير إلى قصر الإمام. وقد لقي الرجل هناك استقبالاً حافلا من الإمام وأخيه في المجلس الذي صُفّت فيه الكراسي وكُسيت أرضه بسجاد أنيق. وبعد أن تبودلت بين الإمام وضيفه عبارات التحية والمجاملة، قدّم ذلك الضابط لمضيفه الخطاب الذي كلفته بومباي بتسليمه إليه، فقام الإمام من مقعده وتسلّم الرسالة شاكراً. وقد أثبت سادلير في كتابه نص خطاب نيبان إلى الإمام وجاء فيه:

"من إفيان نيبان إلى إمام مسقط، في ٢ إبريل ١٨١٩.

سرّني ما ورد في خطابكم بتاريخ الثالث من ربيع الثاني رداً على خطابنا لكم الذي كنت قد بعثت به إلى سموّكم مع الكابتن تيلور. وأسعدني ما جاء فيه من أن سموّكم قد وافق على الخطوات التي ترى الحكومة اتخاذها لتدمير قوّة قراصنة القواسم. ويسرني أن أعرّفكم إلى الكابتن سادلير، حامل هذا الخطاب، الموفد إلى إبراهيم باشا للتفاوض مع سعادته بشأن الإعداد لحملة مشتركة ضدّ رأس الخيمة. ويطيب لي إخباركم أن الحكومة تثق تماماً في هذا الضابط الذي أوفد للتباحث مع سموكم في جميع النقاط المتعلقة بهذا الأمر". (ص. ١٤٢-١٤٣)

امتدّت زيارة سادلير الأولى للسلطان التي كانت زيارة تعارف وترحيب بنحو استثنائي غير معهود لفترة انصرف بعدها سادلير إلى مركبه. وفي مساء اليوم ذاته وفد إليه الوزير مرّة أخرى وخاض معه في بعض الشؤون المتعلقة بمهماته. و لم ينل ذلك الوزير المسنّ تقدير سادلير فنعته بأنه "فاتر الشعور، بليد إلى حدّ ما، يتميز ببعض اللامبالاة حين نزن سلوكه بميزان الحرص المميز لسلوك العنصر العربي بشكل عام".

يقول سادلير إن ظروفاً عديدة، لم يفصح لنا عن كنهها، استبقته في مسقط حتى ٢١ رجب/١٥ مايو. وقد مكنه ذلك من لقاء الإمام عدّة مرات. ويصف نتائج تلك المقابلات بأنها مرضية وفي حدود ما كان يرجوه ويتمناه. ويصف سادلير الإمام فيرى فيه رجلاً بسيطاً في مظهره، مهذباً، رصين الأخلاق، لا يضطرب ولا يتكدر إلا حين تثقل عليه وطأة العمل، و"كثيراً ما يحدث ذلك لأنه يشرف بنفسه على كافة الأمور صغيرها وكبيرها". واستبان سادلير أن الإمام زاهد في التعاون مع إبراهيم باشا، ربما لأنه كان يخشى من أن تمتد حملة الباشا لتشمل الاستيلاء على البحرين. وحاول الإمام أن يثير في نفس سادلير المخاوف بشأن رحلته إلى الدرعية لمقابلة الباشا، ووعد بأن يقدم للحملة البريطانية المزمعة على القواسم كافة

ما تحتاج إليه من تسهيلات في النقل وفي الأقوات أيضاً، مؤكداً لسادلير سهولة الانتصار على القواسم من دون الاستعانة بالباشا وجنده التركي.

وجد سادلير فسحة من وقته في يوم ١٩ رجب/١٣ مايو - كما يقول - فانتهزها فرصة ليقوم بزيارة سالم، أخي السلطان، فتلقّاه الرجل بالترحيب والاحترام. "وبما أن هذا السيد سبق له أن قضى بضعة شهور في شيراز، فقد وجدها فرصة ليثبت لي أنه جوالة، حيث قدم لي الشربات والفواكه على الطريقة الفارسية. ولكن بما أن تدخين التبغ محظور على شيوخ "قبيلة" أو مذهب الإباضية، فإنه لم يتمكن من استكمال الاحتفاء بضيفه على تلك الطريقة".

لاحظ سادلير أن أبواب مجلس سالم قد أغلقت، وساد جو من السرية والتكتّم، فراوده شعور بأن السيد لا يريد أن يظهر أمام الملأ وهو يتناول الطعام مع "كافر". ولكن حين قدّمت الفاكهة والمشروبات استبان الرجل أنه واهم، فكل مرافقي السيد لم يأنفوا من أن يأكلوا من الطبق ذاته الذي أكل فيه أو يتناولوا شراباً من الإناء الذي سبق له أن شرب منه. ولربما أمكن القول هنا إن ما أورده سادلير من أن التدخين ممنوع على شيوخ قبيلة الإباضية غير دقيق، فليس هناك ما يسمى "قبيلة" الإباضية. ولكنه يعود ويصحح قوله في هامش كتابه حين يجعل الإباضية طائفة، ويقول - نقلاً عن نيبور - إن المشروبات الكحولية "القوية" محظور تناولها لدى أفراد هذه الطائفة، كما هي الحال بالنسبة إلى الطوائف الإسلامية الأخرى. كذلك تحظر الإباضية على أفرادها تدخين التبغ وشرب القهوة. ويضيف: لكنهم يقدمونهما من باب اللياقة للأجانب.

غادر سادلير ذلك المجلس وعرّج في طريق عودته إلى الساحل على بيت الوزير الذي قدّم له القهوة. ولاحظ أن تدخين التبغ لم يمثّل جانباً من الضيافة في مجلس ذلك الوزير، ما دعاه إلى القول إن مراسم الضيافة لدى العرب أقل لياقة منها لدى الفرس. ويلاحظ سادلير في حاشية كتابه أن ذلك الوزير لم يكن من "أتباع المذهب الإباضي".

أجرى سادلير جملة من التحريات في مسقط عن موقع معسكر إبراهيم باشا وأيسر الطرق التي تقود إليه وأكثرها أمناً، فقرر أن يصل إليه عن طريق القطيف. وأبحر سادلير من مسقط إلى بوشهر ليحصل من هناك على قبطان "ريّس" ليقود مركبه عبر مدخل ذلك الميناء. ويصف سادلير الرحلة إلى بو شهر بالمزعجة، إذ لم يبلغ إلى هناك إلا في اليوم السابع من يونيو. وكتب سادلير في هذا اليوم خطاباً إلى نيبان بما ترامى إليه من أخبار إبراهيم باشا، وأفاد بأن البادية قد ثارت عليه "رغم أنه تقرّب من الشيخ عرار بن سعدون، شيخ بني خالد، وعمد إلى تكريمه، كما أكرم ماجد ومحمد، ابني عرار، أيضاً. وأبدى سادلير في هذا الخطاب شكه في أن يتمكن الباشا من التعاون الذي تنشده الحكومة.

أبحر سادلير من بوشهر بصحبة قبطان مستأجر إلى القطيف، لكن اتضح له عند الوصول إليها أن ذلك القبطان "الكهل الغبي" كان جاهلاً تماماً بمدخل الميناء، وانتهى بالمركب إلى طرف

لسان رملي اضطرت المجموعة إلى قضاء الليل عنده. ولما باءت محاولات ذلك البحار بالفشل وأدرك سادلير أن لا فائدة ترجى منها، أرسل مرافقه الشيخ خميس بخطاب إلى الحاكم التركي للقطيف يطلب إليه أن يمدهم بملاّح يقود مركبهم إلى المرسى. وتأخر خميس ولم يعد حتى صباح اليوم التالي، فأخذ البحارة يقومون بمحاولات جادة لاستكشاف تلك القناة التي تقع عند المنطقة الجنوبية من ذلك الخليج الصغير الذي يقود إلى المرسى ولكن من دون جدوى. وما لبث رحمان بن جابر (المقصود هو رحمة بن جابر) الذي يقطن عند القسم الجنوبي بالقرب من مدخل ذلك الخليج الصغير أن أرسل في عصر يوم ٢٦ شعبان/١٩ يونيو رسالة إلى سادلير مهنئاً بسلامة الوصول. طلب سادلير إلى رحمة في الرسالة التي ردّ بها عليه أن يمدهم بملاح يقود مركبهم إلى الميناء، فأرسل إليه رحمة ملاحين "ذكيين" تمكنا في عصر يوم ٢٠ يونيو أن يصلا بالمركب إلى ميناء البلدة، مستفيدين في ذلك من حركة المد. ولاحظ سادلير أن طريق الملاحة إلى مدخل الميناء يقع في القسم الشمالي من هذا الخليج الصغير، حيث توجد قناة عميقة تسير في محاذاة اللسان الرملي الذي يفصل هذا الخليج الصغير عن المياه العميقة.

وصول سادلير إلى القطيف

أرسل خليل آغا، الحاكم التركي للقطيف، في يوم ٢١ يونيو يوسف آغا لاستقبال سادلير على ظهر مركبه والترحيب به نيابة عنه ومرافقته إلى الساحل. وكان مركب سادلير قد رسى عند سيهات الواقعة على القسم الجنوبي من خليج ذلك الميناء على بعد ثلاثة كيلومترات من القطيف. ونصح خليل آغا ضيفه بأن يبقى في سيهات لا يغادرها إلى القطيف التي أخبره بأنها منطقة موبوءة، وأن بقاءه فيها ولو لليلة واحدة فقط قد يمثّل خطراً داهماً على حياته. اضطر سادلير إلى البقاء في سيهات، ولاحظ أن مقرّ سكنه يبعد عن المرسى حوالى اثني عشر ميلاً، كما لاحظ أن الساحل على طول امتداده ضحل جداً، وأن الإبل والخيول كانت تخوض إلى المرسى لتقلّ المسافرين، كما تُستغلّ الإبل والحمير أيضاً في نقل الأمتعة والسلع.

قدّم سادلير وصفاً للقطيف والمناطق المتاخمة لها "في حدود ما تسمح به الرؤية" غير المتروية.

تبلغ سعة خليج القطيف عند مدخله عشرين ميلاً. ويتكون جانبا هذا الخليج من لسان رملي طويل رفيع يحدّه ما يعرف برأس تنورة من الناحية الشمالية، بينما تُسمّى المنطقة الجنوبية الظهران... وترقد جزيرة تاروت كمحارة صدف تُحاكي شكل المروحة في وسط مدخل ذلك الخليج عند أقصى بقعة منه فتقسمه إلى قسمين: قناة شمالية عميقة تُؤمن الإبحار في يسر، وأخرى جنوبية ضحلة تتعسر فيها حركة المراكب. وتبلغ هذه الجزيرة في امتدادها الطولي من

الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حوالى عشرة أميال. أما الساحل الرئيس في هذه المنطقة فيميزه جبل الظهران المخروطي الشكل الرابض فوق تلك المنطقة. كذلك يقوم فوق مرتفع من الأرض تحيط به المياه من كل جانب على مسافة ما من الميناء الحصن أو القلعة المعروفة بالدمام. ويذكر سادلير أن رحمة بن جابر رمّمها في الفترة الأخيرة.

تقع قرية سيهات على بعد أربعة أميال من قلعة القطيف التي تقوم في مواجهة جزيرة تاروت. وبما أن القناة الشمالية هي الأوفر أمناً للملاحة، فإن المرسى يقع على مسافة ما من القطيف. ويتحتم على المراكب الكبيرة التي تقصد القطيف أن تبحر في محاذاة جزيرة تاروت، على أن يسلك المركب المجرى المحاذي للعنق الرملي الرفيع حتى تصبح على بعد حوالى ستمئة قدم من الساحل حيث توجد جزيرتان رمليتان في أعالي ذلك الخليج الصغير. ويصبح الإبحار بعد ذلك غير ممكن لوجود رمال في ذلك القاع الضحل. وجدير بالذكر أن المرسى في هذه المنطقة آمن، حيث تكون السفن فيه بمنأى عن الأنواء الشمالية الغربية.

قلعة القطيف التي يقول سادلير إنها ربما كانت من قلاع البرتغاليين، مستطيلة في غير انتظام وتطلّ بجانبها الأطول على البحر. وتقع الطابية في أقصى الجانب الشمالي منها. لهذه القلعة الحصينة ثلاث بوابات، وتمتاز كحصن بوجود كميات وافرة من المياه، كما تضمّ عدداً من المنازل الجيدة البناء. ويعقد خارج تلك القلعة في يوم الخميس من كل أسبوع سوق تباع فيه لحوم الضأن والأرز والتمر والشمام والبطيخ الذي يصل وزن الواحدة منها إلى ما بين خمسة وثلاثين رطلاً وأربعين رطلاً. ويتحدث سادلير عن الإنتاج الزراعي للمنطقة فيقول إن المواطنين ينتجون الأرز بكميات كبيرة، "ولعل في ذلك ما يفسر وخامة الجو في القطيف"، كما يزرعون القمح والشعير بوفرة مميزة. وتمتد هذه الحدائق الوفيرة المياه مترامية على مرمى البصر، لا يفصل بينها إلا بعض النجوع الصغيرة التي لا تحد إلا بالصحراء من جانب والبحر من الجانب الآخر. ويلاحظ أن هذه المزارع عامرة بالنخيل وبأشجار التين الكثيفة وبعدّة أصناف من الفواكه والحمضيات والخضر، ذكر منها الخوخ والمانجو والرمان والعنب والبصل والباذنجان والبازلاء. أما تجارة القطيف التي كانت تجري بصفة أساسية مع البحرين فيصفها سادلير بأنها كانت غير رائجة. تمد البحرين القطيف بالسلع الواردة من سورات وبكميات السكر والبهار الواردة من مناطق أخرى في الهند. ويكمل سادلير قائلاً إن البحرين تُعدّ المخزن الرئيس لتجارة البحران والقطيف والعقير. ويُعرّف سادلير في حاشية كتابه البحرين بأنها جزيرة، أما البحران فيقول إنها القسم الساحلي المواجه لتلك الجزيرة. ويسترسل فيذكر أن هذه المناطق جميعها تستمد سلع التجارة من تلك الجزيرة وترسلها إلى الأحساء التي تدفع بها من ثمّ إلى المنطقة الوسطى من البلاد. ويرد سادلير حالة الكساد في تلك الفترة إلى الاضطرابات التي تلفّ الإقليم، ما ألهى الناس عن الاستهلاك، كما تناقص الطلب على السلع بعد أن رحل البدو في

اتجاه الشمال، وكان المسؤولون الأتراك ينشطون في استحصال الأموال، ما أدى إلى هروب التجار أو عدم الكشف عن أصولهم المالية التي كانت قائمة قبل وصول الأتراك. ويعتقد أن أغلب السلع التي تفد إلى الأحساء باتت تردها عن طريق العقير حيث طرق المواصلات تربط مباشرة بين المنطقتين. ويرجح أن ذلك ربما كان من العوامل التي سبّبت تدني وتيرة الحركة التجارية في القطيف.

يصل عدد السكان في منطقة القطيف – كما يعتقد سادلير – إلى خمسة وعشرين ألف نسمة يسكنون تسع قرى مسوّرة وسبعاً غير مسوّرة. وتضمّ مدينة القطيف وضواحيها المتاخمة حوالى ستة آلاف نسمة، ليس فيهم هندوس ولا نصارى. ويعتقد أن الدخل الحكومي من المنطقة يتراوح بين خمسة وسبعين ألفاً وست وثمانين ألف كرونة ألمانية تُجبى من المصادر الآتية:

تُحصّل نقداً من القرويين وسكان المدينة (إعفاء من الجهاد) ٢٠٠٠٠ جنيه ذهباً.
ضريبة الأرض وتمثل عشر الإنتاج وتُجبى عيناً ٦٠٠٠٠.
جمارك البحر وتتراوح بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠.
ضريبة الميناء وصيد السمك والغوص طفيفة لا تكاد تذكر.

ظلّ سادلير قابعاً في القطيف في الفترة من ٢٢ إلى ٢٨ يونيو. ولسوء حظه – كما يقول – فقد جرى استدعاء الحاكم التركي على عجل فاضطربت أمور الحكومة. واستبان سادلير، تبعاً لذلك، أنه لن يظفر بالحماية ولا بالمساعدة من الجهات الرسمية، ولهذا لجأ إلى الاستعانة بمشرف آل عريعر، ابن أخي محمد بن عريعر، شيخ قبيلة بني خالد. وكان مشرف قد زار سادلير في مناسبة سابقة وعرض عليه أن يمدّه وفريقه بالدواب التي تقلّهم إلى الأحساء. قبل سادلير العرض، كما انتهزها فرصة كي يخاطب محمد بن عريعر بخطاب ادّعى فيه أن روابط الصداقة الطويلة الأمد التي ربطت بين قبيلته والبريطانيين تجعله يأمل أن يمد له الشيخ يد المساعدة حتى يتمكن من استكمال رحلته بسلام. وقد تلقى سادلير من محمد في اليوم التالي ما يفيد بأنه لن يتوانى عن تقديم أقصى ما يسعه من مساعدة ودعم. وجاء مشرف – كما وعد – في يوم ٦ رمضان/٢٨ يونيو يسوق الدواب المطلوبة التي جاء بها من مخيمات البدو التابعين له، النازلين على بعد عدّة أميال من القطيف، إضافة إلى ستة من الجياد المسرجة.

الرحلة إلى الهفوف

تحرك ركب سادلير من سيهات في الساعة السادسة من مساء يوم ٢٨ يونيو سالكاً اتجاهاً غربياً في طريقه إلى أم ربيعة التي كانت مركز تجمع كبير لبدو الخوالد، والتي تبعد عن سيهات حوالى

تسعين ميلاً. وأناخ الركب في الليلة الأولى عند آبار على مشارف حدائق النخيل في مضارب البدو التابعين لمشرف، والتي كانت على بعد ميلين فقط من القطيف وخمسة أميال من مكان تحركهم من سيهات. وراحت أشعة القمر تلامس في دلال أديم تلك السهوب الرملية المترامية التي تحاكي صفحة مياه المحيط امتداداً وشكلاً وتشكيلاً. ويصف سادلير معسكر البدو فيقول إنه يتكوّن من خيام ضرب بعضها قرب بعض في صفوف، يضمّ كل صف منها عشر خيام.

استأنف الركب المسير في اليوم التالي بعد أن رفع العرب الأحمال على الإبل بتكاسل. وطفقت القافلة تضرب في الصحراء فوق أرض تشكلت من تلال وسهوب رملية مغطاة بطبقة كثيفة من الملح. وراحت أخفاف الدواب وحوافرها تغوص في كل خطوة تخطوها في تلك الأرض غوصاً. ويلاحظ سادلير عدم وجود أي أثر للخضرة في تلك الأرض إلا ما كان من بعض حشائش تكوّمت فوق بعض التلال في شكل حزم متناثرة، وشجيرات أخرى ذات لون بُنيّ تظهر هنا وهناك. وقد تقع العين أحياناً على شجيرات خضراء التصق بعضها بالبعض الآخر فبدت كأنها كومات مبعثرة من الخضرة. وتمتاز هذه الحشائش الخضراء بأوراق سميكة بيضاوية الشكل مشبعة تماماً بمادة ملحية مُرّة المذاق ترعاها الإبل، ولكنها في ما يبدو لا تستسيغ طعمها. ويطلق العرب على هذا النبات اسم أشنان، ويحصلون من رماده حين يُحرق على مادة البوتاس.

من ثمّ دخل الركب أرضاً صحراوية لا تختلف كثيراً عن سابقتها، إلا أن أديمها لم يكن ملحياً كسابقتها، كما لم تكن رمالها بمثل تلك الكثافة. وواصل الركب المرحلة الرابعة من مسيرته، ففارق تلك التلال الرملية التي لا يمل سادلير من تشبيهها بأمواج المحيط العارمة التي يعلو بعضها بعضاً قبل أن تنكسر. ولاحظ سادلير أن انكسار تلك التلال كان في اتجاه الجنوب عموماً.

كان الجوّ خلال هذه الرحلة قائظاً بنحو لا يحتمل - كما يقول سادلير - وكانت رياح الصحراء الملتهبة تلفح وجوههم بين الفينة والأخرى بزخّات قوية، حتى إنه كان يجد صعوبة في التنفس. ويلاحظ أيضاً خلوّ هذا الطريق من موارد الماء، فآخر الآبار التي وقفوا عليها كانت تقع على بعد أربعين ميلاً من القطيف. وكان ينزل عندها جماعة من البدو يرعون خرافاً وأغناماً يصل عددها إلى مئتين. وقطع الركب في اليوم الخامس صحراء مقفرة يباباً. وقد أفاده بعض البدو من ذوي الدراية بالمنطقة بعدم وجود أي قرى في هذه الصحراء إلا في المناطق الشمالية والشمالية الغربية منها، حيث توجد حوالى سبعة نجوع يعمر كل نجع منها ما يتراوح بين خمس عشرة إلى مئة وخمسين أسرة يعملون في رعاية أشجار نخيلهم ويمارسون قدراً من الزراعة. أما الأرض التي تقع إلى الشرق من هذه المنطقة وإلى جنوبها الشرقي فهي سباسب قاحلة يباب. وصادف الركب في هذا اليوم قطيعاً من الوعول يصل عدده إلى حوالى مئتين.

يوجه سادلير نقده للعرب الذين يرافقونه ويتجاوزهم إلى العنصر العربي كله. "فالعرب، دون شعوب الأرض كلها"، لا يتحرّون الراحة في أسفارهم، ولا يعدّون للرحلة قبل الشروع بالقيام بها عدّتها. كذلك فإنهم لا يتقيّدون خلال الرحلة بخطة توجه مسيرتهم. يتوقفون عن المسير حين يعنّ لهم ذلك، على الرغم من أن المنازل التي تفصل بين أماكن نزول القوافل ليست بعيدة بعضها عن بعض. وقد ينزل هؤلاء المسافرون في مواطن لا يوجد فيها ماء ولا كلأ ولا حطب حريق. وكان ذلك الوقوف المتكرر يستنزف كميات المياه التي يحملونها، خاصة أن العرب يتناولون، من دون حرج، الماء من أي قربة يمكن أن تصل أيديهم إليها. ويدّعي الرجل أنه حاول أن يحثّ مرافقيه على مواصلة المسير لمسافات أبعد ولكنهم لم يعبأوا بقوله. وفي مساء اليوم السادس للرحلة، الثاني من يوليو، بينما كانوا ينزلون أرضاً جرداء بلقعاً لا ماء فيها ولا شجر، وقد نفدت كميات المياه التي كانوا يحملونها، اهتبل الشيخ مشرف تلك الظروف القاسية لابتزازه. يدّعي سادلير أنه سبق أن وعد مشرف بهدية يقدمها له حين يصل سالماً إلى معسكر عمه في أم ربيعة، فتعجل الرجل تلقّي الهدية وألحّ عليه بأن يعطيه إياها لأنه يريد أن يتقدم الركب إلى أم ربيعة، ويريد أن تكون الهدية شاهداً على اقتناع سادلير بأنه قد أدى مهمته على أكمل وجه وقدّم له أميز الخدمات. واضطر سادلير إلى أن يعطيه الهدية التي بدا مشرف مقتنعاً بها فانصرف. وما هي إلا لحظات حتى عاد مشرف أدراجه إلى خيمة الرجل ليطالب في هذه المرّة بقيمة إيجار الخيول، وكان سادلير - في ما يقول - على اقتناع بأن مشرف قد قدم له الخيول مجاملة منه له من دون أن يسأله أجرة عنها، وخاصة أنه يعتقد أن قيمة الهدية المعطاة لمشرف كانت كافية لمقابلة نفقات الترحيل! ودخل الرجلان في مساومة، حيث أصرّ مشرف على أن يتلقى عشرة ريالات عن كل حصان، وجادل بأنه لا يطالب إلا بما يستحقه، فكل مُلّاك الخيول الآخرون في هذه الرحلة قد تقاضوا أجرة مماثلة. وحين تعنّت سادلير، هدّده مشرف بأنه إذا لم يؤدِّ قيمة الأجر فوراً فإنه ربما وجد نفسه مضطراً إلى أخذ دوابه والرحيل عنه تاركاً إياه حيث هو في تلك المنطقة. ويدعي سادلير أنه وجد نفسه وقد أصبح تحت سيطرة ذلك "الهمجي" بنحو تام، وأدرك أن لا مناص من أن يدفع، فأدى له على مضض ستين ريالاً "أنهت ذلك الجدل العقيم". وسرعان ما سرت بعد ذلك شائعة عن وجود لصوص في المنطقة، فذعر سادلير لذلك واتصل بمشرف يبلغه أن اللصوص في هذه المنطقة لا يمكن إلا أن يكونوا من رجال قبيلته، وحمّله مسؤولية حمايته. "وحين استيقن مشرف أنني أعني ما أقول، وأن ثلاثة أو أربعة من الرجال المرافقين لي مسلحين بنحو جيد، أذعن للأمر وأكد حمايته لي، فقولي كان راجحاً بحيث لا يمكنه إنكاره".

وفي حقيقة الأمر، فإن الرحالة الغربيين كافتهم يروّجون هذه الأفكار السلبية عن العرب، ما يوحي لمن يقرأ لهم من بني جلدتهم أنهم تجشّموا مخاطر جمّة تغلبوا عليها بثباتهم ورباطة

جأشهم. وفي تقديرنا أنهم مخادعون أو ربما كانوا – إن أحسنّا الظنّ بهم – واهمين. فليس ثمّة حام لهم ولا معين في تلك السباسب المترامية إلا أولئك البدو المرافقين لهم، الذين يراعون مقتضياتِ "الخوّة" فيدفعون عمن يجاورهم أكثر مما يدفعون عن أنفسهم.

وصل سادلير في الثاني من يوليو إلى مخيم الشيخين محمد وماجد في أم ربيعة الذي يعمره الخوالد. ووجد هذا الضابط ترحيباً من محمد الذي وصفه بأنه كان شيخاً مسنّاً أطرش. وكان الرجل متلفعاً بالملابس إلى درجة أثارت استغراب سادلير. كان الرجل يضع شالاً بديعاً فوق قفطان قرمزيّ اللون يبدو تحته ثوب مُوشّى بخيوط الذهب يُغطي ثياباً أخرى، ولكنه – مع ذلك – كان حافياً لا يدرك ما يمكن أن يقدمه الحذاء للإنسان من راحة في تلك الأرض المرمضة. "ولما كان ذلك الشيخ يؤدي الصيام خلال شهر رمضان، فقد رأيت أن لا أستبقيه معي لفترة طويلة في هذا الجوّ القائظ، فغادرني الرجل حافياً كما جاء".

"وزار سادلير محمد في المساء، وكان قد كتب رسالة إلى ذلك الشيخ يشكو له فيها ما بدر من مشرف، ابن أخيه، حينما كان مرافقاً له. وقرأ سادلير تلك الرسالة في حضرة جمهور كبير في مجلس الشيخ محمد بصوت عالٍ وذلك حتى يُسمع ذلك الشيخ الأصم. وأبدى محمد امتعاضه مما أحدثه مشرف. وحين عاد الرجل إلى خيمته وفد إليه ماجد الذي اقترح أن يرد إليه مشرف المبلغ الذي تلقّاه منه والهدية، ولكن سادلير رفض العرض. وغيّر سادلير مجرى الحديث فاستأذن ماجد للانصراف بعد أن تناول معه القهوة وشاركه في تدخين التبغ. وجاء مشرف بعدئذ إلى خيمة سادلير في رفقة اثنين أو ثلاثة من وجهاء العرب ورمى بنفسه تحت قدميّ وأبدى الندم على ما بدر منه واعترف بخطئه، وطلب مني أن أصفح عنه حيث كان يدرك ماذا سيكون من شأنه غداً. وأدركت أن الحكمة تقضي أن أقدّر مكانة مشرف في قبيلته وأن أبدو شهماً حتى أظفر بثقة تلك القبيلة. كذلك وجدت أن العفو عن الرجل أميز وأكثر فائدة من الإصرار على أمر أشك في أنه قد لا يتحقق، وعلى ذلك بادرت بالعفو عمّا كان منه". زار سادلير في يوم ٤ يوليو الشيخ ماجد رداً لزيارة الرجل السابقة له، ولكي يفوض إليه تسهيل أمر رحيله الذي تقرر أن يكون في مساء ذلك اليوم. يقول سادلير إنهما تبادلا خلال الزيارة عبارات تنمّ عن حسنِ النيّات، وعبّر كلاهما للآخر عن أغلظ مواثيق الصداقة. ويقول سادلير إنه كان قد سمع حديثاً طيباً عن الشيخ محمد وأخيه ماجد، وإنه حين حلّ بمضاربهما كان يأمل في يجد أن حقيقتهما تتطابق مع ما سمعه عنهما من إطراء. ويدّعي أنه حين حلّ بمضاربهما وجد من الرجلين من الترحيب وتأكيد أواصر الصداقة ما زاد من ثقته بهما رغم ما كان من مشرف، ابن أخيهما، معه حين كان في الصحراء. ويعود سادلير بعد ذلك ليرمي الشيخين محمد وماجد كليهما بالإساءة ويتهم نيّاتهما. فهما في تقديره متمرّسان في فنون المكر والخداع. "ولهذا كان من الصعوبة بمكان أن أتنبأ بالسبب الذي جعلهما يؤجلان تقديم الدواب اللازمة

للرحلة. وراح الرجلان – بدلاً من ذلك – يتحدثان عن جماعات من اللصوص قالا إنهم من العجمان يكمنون للمسافرين بالقرب من الأحساء".

يعتقد سادلير أنهما سعيا من وراء إثارة ذلك إلى إيهامه بأن مخاطر الطريق الطارئة والمقيمة تبيح لهما رفع قيمة إيجار الدواب وتتيح لهما انتزاع وعد منه بتقديم هدية ثمينة لهما. ويرى سادلير أن هؤلاء الشيوخ المتنفذين في قبائلهم يقدمون للمسافر الدواب التي تقلّه وتنقل له متاعه، وهم الذين يمدّونه بالحرس الذي يؤمن له الحماية في الطريق. أما إذا حدث أن حاول المسافر أن يحصل على الدواب بوسيلة أخرى، فلن يكون مثل هذا الشيخ مسؤولاً عن حمايته، وربما كان أول من يتصدى لنهبه في الطريق.

لم يعجب سادلير بالشخصية البدوية التي استهوت بعض الرحالة الأوروبيين الآخرين، "فالتسويف والتغرير والتدليس والغش والخداع" هي مجمل صفات البدوي التي يقول سادلير إن كلماته تقصر دون تصويرها للعقل الأوروبي. "فهم على الجملة عصابات من اللصوص"! ويسترسل الرجل فيقول إن من سلوك البدوي أن يبدو متواضعاً مستكيناً حين يساوم المسافر في الأجر قبل بدء الرحلة، لكنه ما إن يدلف إلى الصحراء حتى ينقلب سلوكه ليصبح نقيض ذلك تماماً، وحينها يصبح المسافر تحت رحمة أصحاب تلك الأرض "الذين يحكمون بالاستبداد ويفرضون مشيئاتهم كيف شاؤوا". وإذا نشأ أي نزاع بين البدوي المرافق والمسافر، فإن البدوي لن يتوانى عن التخلي من فوره عن رفيقه ويتركه في قلب الصحراء ليهلك عطشاً. وإذا حاول المسافر أن يلزم البدوي بوعوده وبما سبق له أن اتفق عليه، فإن ذلك لن يسعفه ويبدو غير مُجد ما لم يكن لدى ذلك المسافر من القوّة القدر الذي يجعله قادراً على فرض ما يريد، أما إذا حاول أن يجادل البدوي بمستوجبات العدالة والإنصاف، فإن ذلك يبدو له أمراً مثيراً للضحك.

يشكو سادلير من أن اتفاقه مع الشيخ مشرّف قضى بأن يؤجّر له عدداً من الإبل تنقله ومجموعته المرافقة إلى الأحساء في مدى ثلاثة أو أربعة أيام، على أن يدفع له أربع كرونات ألمانية عن كل بعير، وذلك لأن معسكر أم ربيعة الذي يقع على بعد ثلاث مراحل من القطيف لا يفصله عن الأحساء سوى مرحلة واحدة. وقد وافق مشرف في المرحلة السابقة على أن يتلقى من سادلير مقدماً ثلاث كرونات عن كل بعير على أن يمدّه بالخيل تكرماً، ولكنه عاد ونكث بوعده. وحين شكا سادلير للشيخ محمد في أم ربيعة سلوك مشرّف المستهجن – في ما يقول سادلير – راوده الأمل بأن ذلك الموقف لن يتكرر. "لكن ذلك البدوي الذي عاش حتى شابت لحيته، كان بدوره متمرساً في فنون الخداع، فجادل بأنه ليس لمشرف الحقّ في أن يؤجر إبل الآخرين في المراحل التي تلي مضاربه، وأنه لا أحد غيره صاحب الحقّ في الاتفاق معي على قيمة إيجار الدواب إلى الأحساء. وطلب محمد مني أن أدفع كرونتين ألمانيتين عن كل

بعير. وكان هذا الشيخ قد وعدني سابقاً بأن يستخلص لي من مشرّف مبلغ الستين كرونة التي سبق لي أن دفعتها له، ولكنه بدلاً من أن يفي بوعده أضاف إلى غدر ابن أخيه تسلطاً جديداً".

تحرّك سادلير من أم ربيعة إلى الأحساء في اليوم السابع من يوليو، وقطع حوالى تسعة وستين ميلاً في اتجاه جنوبي شرقي ليصل إلى الأحساء عبر طريق وافر المياه. ويلاحظ سادلير أن قرية هودية التي جانبها الركب عن يساره في طريقه إلى الأحساء التي تبعد عنها حوالى اثنين وأربعين ميلاً، كانت القرية الوحيدة المسوّرة، وأن الأرض على مشارف تلك القرية كانت مخضرّة بالزراعة، كما كانت هناك قطعان من الخراف ترعى خارج السور. ونعتقد أن هذا الوصف مع اعتبار الزمن الذي استغرقه السفر ينطبق على الحنية التي يقول عنها عبد الله بن خميس في **معجم اليمامة** (ج١ ن الرياض، ١٣٩٨، ص ٣٥٣-٣٥٤) إنها تعني منحنى الوادي، وهذا الوادي يلبّ بجبل الجبيل خلفه من الشرق، وكل ما سال من جبل الجبيل مشرقاً يتلقفه وادي الحنية. أما الجناح Jooniah، القرية التي تقع على بعد حوالى واحد وعشرين ميلاً من الأحساء، فهي مليئة بأشجار النخيل، كما توجد فيها كمية وفيرة من المياه، إذ تقع قربها بحيرة تجلب النماء إلى ذلك السهل. بيد أن ما ترسله تلك الصحراء الملحية من شوائب سرعان ما يتلف هذا النماء ويقضي عليه. وينطبق وصف سادلير لما سمّاه الجناح بقرية الجديدة، وهي قرية اندثرت ولم يبقَ منها حين زيارتنا لهذه المنطقة في شتاء عام ١٩٨٠م متتبعين خطى سادلير إلا أشجار أثل تقوم عند آثار عين مندرسة. وتبعد هذه القرية عن الأحساء حوالى خمسة وثلاثين كيلومتراً. وقد أقيم في هذا الموقع مركز تفتيش في عام ١٣٥٦ هـ، ولكنه تحول في عام ١٣٨٤ هـ إلى مقرّه الجديد عند شركة الأسمنت في الأحساء. أما البحيرة التي أشار إليها هذا الرحالة فتُعرف عند أهل الأحساء باسم بحيرة القطار.

الأحساء

وصل سادلير إلى الأحساء في يوم ١٩ رمضان/١٢ يوليو، وتلقّاه الكاشف - كما يقول - بالاهتمام اللائق به في حدود ما تسمح له به مصادره المحدودة. وتبودلت في اللقاء التأكيدات المشتركة للصداقة التي تربط بين الحكومتين، والتعبير عن الأمل بأن تزداد رسوخاً. ولم يجرِ التطرق في هذا اللقاء إلى أي موضوعات أخرى. وفي يوم ١٧ كتب سادلير من الأحساء خطاباً وافيا بالتفاصيل إلى حاكم بومباي ضمّنه أخبار ما صادفه من مشاق وامتدح فيه الكاشف الذي استقبله في الأحساء استقبالاً طيباً وقدّم له المساعدة المطلوبة، ولكنه لم يتمكن من أن يعرف منه شيئاً عمّا يمكن أن تتمخض عنه مهمته، لأن الكاشف كان يجهل بنحو مطبق خطط الباشا ونيّاته. وكان من أهم ما أشار إليه الخطاب أن الوضع السياسي في المنطقة لا

يتطابق مع التقارير التي كانت تصلهم في بومباي، والتي كانت تصور لهم أن الوضع مستقر بفضل انتصارات الباشا. استبان الباشا أن سيطرته على المنطقة تتطلب توفير عدد غفير من الجند لفرض الأمن وتأمين الحماية للطرق وميزانية كبيرة غير متوافرة له. ولذلك راح الباشا يستعين بالقبائل لتحقيق أهدافه، ولكنه لم يحقق من إربه شيئاً، فقد تعددت الهجمات التي تهاجم قوافل التموين. وأشار سادلير إلى أن الباشا قد أمر كاشف الأحساء بسحب جنوده البالغ عددهم مئتين وخمسين واللحاق به في سدير الواقعة على بعد مرحلتين بعد الدرعية. وأفاد الخطاب بأن إبراهيم باشا يعسكر في سدير، وأنه سيبقى هناك لشهر كامل ريثما يتمكن من التخطيط للانسحاب، وأنه سيوكل إدارة منطقة الأحساء إلى شيوخ بني خالد في نظير أن يؤدوا له العوائد المالية والرسوم، وأشار سادلير إلى أن الباشا قد دمّر الدرعية تماماً، وأن هدفه من ذلك لم يكن فقط إنهاء رمز السيطرة الوهابية، ولكنه قصد به عدم وضع حامية في ذلك الموقع. أما بالنسبة إلى عنيزة فالوضع مختلف، حيث قرر الباشا استبقاء قوات هناك لمواجهة قبائل الدويش القوية، ولكي تكون نقطة وصل مع الأحساء لضمان وصول العوائد المالية. وأبدى سادلير اعتقاده بأن البدو ينتظرون خروج الأتراك من بلادهم بفارغ الصبر، فهم يعدّونهم دخلاء، فيما يقوم الأتراك من جانبهم بمقابلة ذلك بأساليب عنيفة. وعبّر سادلير عن اعتقاده بأن الباشا يعمل على أن تكون سيطرته على دروب الأحساء إلى القطيف والعقير نافذة، ولكنه لا يتطلع إلى فتح طرق جديدة إلى رأس الخيمة وفرض السيطرة على تلك الأرجاء. ويرى سادلير أن الباشا إذا فقد السيطرة على تلك المناطق الشرقية من الجزيرة العربية فسيكون من الصعب إقناعه بالعمل على السيطرة على مناطق أخرى من ساحل الخليج، لأنه لا يستطيع ضمان دوام سيطرته عليها في الوقت الذي لا تساوي فيه تلك السيطرة ما يقابل الجهد والمال المبذول. ولعلنا نلاحظ هنا أن ذلك الضابط قد نعى الجانب الأبرز لمهمته، وأدرك أنه لن يرجع منها إلا بالفشل، ولكن في ما يقول بدا مصمماً على مواصلة مهمته، وأنه لن يعود من حيث أتى تقديراً منه للمركيز هاستنج، فالمهمة التي كُلّف بها ليست مقصورة على "إقناع الباشا بمشاركتنا في حملة عسكرية ضدّ رأس الخيمة فقط، بل ترمي إلى أبعد من ذلك، ما يستدعي أن أواصل المهمة". وهنا إشارة واضحة إلى أن هذا الضابط قصد بعدئذ الشق الثاني من المهمة، وهو التجسس على الجيش التركي ومعرفة خطط الباشا. ونرى أنه لم يوفق في تحقيق هذا الهدف أيضاً. ويستطرد سادلير قائلاً إنه يعتقد أن الباشا لا يتطلع إلى الحصول على موقع استراتيجي على سواحل الخليج خلافاً لما هي الحال على البحر الأحمر، وذلك لسهولة الاتصالات من ذلك الجانب مع مصر ونقل التموينات.

ظلّ سادلير في الأحساء في انتظار أن يتحرك في رفقة الكاشف إلى موقع إبراهيم باشا الذي كان في هذه الفترة في سدير. وقضى الكاشف فترة طويلة في الإعداد لتجميع رجال القوّة

التركية المنتشرين في تلك المنطقة تأهّباً للرحيل واللحاق بالباشا حسب أمره. صبّ سادلير في حاشية كتابه جام غضبه على الدليل الذي أستأجره مرافقاً له، وذكر أنه اختاره لمرافقته لأنه كان قد سكن الساحل العربي لعدّة شهور، كما سبق له أن قام برحلتين إلى الدرعية. "وقد رأيت أن أستخدمه، فمن المفيد لي أن يكون برفقتي أحد المعروفين لدى شيوخ البدو. ولكن ما إن بلغت الأحساء حتى تبيّن لي أنه محتال، وأنه قد شارك في إحداث كافة المشكلات التي صادفتها مع بدو الخوالد. وعزمت لذلك على التخلص منه، فأرسلته من الأحساء بخطابات يوصلها إلى القطيف".

يكتب سادلير عن الأحساء فيقول إن اللفظ يطلق للدلالة على المنطقة كلها، أما المدينة الرئيسة في الإقليم فهي الهفوف، التي يذكر أنها مدينة تضمّ بيوتاً متواضعة يحميها سور من اللبن يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً. ويحيط خندق جاف بالسور الذي ينفتح على الخارج من خلال بوابتين. وللبلدة ضاحية غير مسوّرة تقع إلى الشرق من قلعة الهفوف، تفصلها عن المدينة أراضٍ زراعية وحدائق نخيل. ولا يزيد عدد سكان القطيف – في تقدير سادلير – على خمسة عشر ألف نسمة، ستمئة فرد منهم قادرون على حمل السلاح.

أما قلعة المبرز التي تقع على مسافة ثلاثة أرباع الميل (نعتقد أنه يقصد أن يقول على مسافة ٣–٤ أميال) إلى الشمال من الهفوف فهي ذات أسوار عالية، ويحيط بها خندق جاف أيضاً، ولا تفتح هذه القلعة على الخارج إلا من خلال بوابة واحدة فقط. أما ضاحية المبرز أو القرية غير المسوّرة الملحقة بها فهي ليست في اتساع ضاحية الهفوف. ويعمر منطقة المبرز حوالى عشرة آلاف شخص، أربعمئة منهم قادرون على حمل السلاح. وتمتد في اتجاه شرقي من المبرز حدائق النخيل التي تتواصل امتداداتها بنحو غير منقطع. ويقطن في هذه المنطقة – في ما يروي – حوالى خمسين ألف نسمة في قرى ونجوع غير مسوّرة. ويضيف أن الزراعة في منطقة الأحساء تعتمد على كميات المياه الوفيرة التي تستمد من الآبار والبحيرات. وتحدّث عن وجود مزارع للشعير والأرز والفواكه والخضر بالقرب من حدائق النخيل، ولكنه يرى أن أصناف الفواكه غير جيدة، فالمشمش الذي حصل عليه في هذه المنطقة والتين وكذلك البطيخ غير طيبة المذاق. ونفى سادلير – اعتماداً على ما أفاده به بعض العرب – وجود أنهار أو مجاري مياه دائمة الجريان في المنطقة، وأشار إلى أن المصورات الأوروبية المعاصرة له تظهر نهراً جارياً يمر قرب الأحساء. وعلّل هذا الخطأ بوجود أودية في المنطقة تتدفق بالمياه حين تترع بأمطار الشتاء. كذلك أبان أن طوبوغرافية الأرض وأوديتها وجبالها هي التي تحكم جريان هذه الأودية الموسمية واتجاهات تدفقها. ولاحظ سادلير أن أشجار الأثل أو العبل أو الطرفاء التي تنمو على أطراف الأودية تصل إلى ارتفاعات شاهقة. ويولي أهل المنطقة تلك الأشجار عناية فائقة، ذلك لأنهم يستعملون أخشابها في بناء سقوف منازلهم. ويمكن أن يفي الوادي

الذي تنمو هذه الأشجار على أطرافه في الموسم الواحد المواطنين بما يحتاجون إليه من أخشاب في تلك السنة.

يرى سادلير أن التجارة في هذه المنطقة رائجة، وذلك لتوافر كميات كبيرة من التمور التي يستهلكها البدو، وتُعد المنطقة بمثابة قناة تستقبل السلع التي تفد إليها بصفة رئيسة من العقير وتفضي بها إلى الداخل.

في الطريق إلى منفوحة والرياض

أخذ سادلير في يوم ٢٨ رمضان ١٢٣٤/٢١ يوليو يعدّ العدّة لمرافقة الكاشف إلى معسكر إبراهيم باشا، وأمدّه الكاشف بمهامندار وحصان وعدد من الإبل، وأوكل به إلى المهامندار، وقد سبق للكاشف أن وعده بذلك سلفاً وأوفى بما وعد. وأخذ سادلير يخطط للحصول على تعهد من شيوخ بني خالد لحمايته حين يعود من رحلته إلى الأحساء. تناسى سادلير ما كتبه في مذكراته عن تمرّس هؤلاء القوم بالغش والخداع وما إلى ذلك من نعوت قاسية، فكتب إلى محمد وماجد آل عريعر رسالة رقيقة ادّعى فيها أن علاقة أسلافهم بالمسؤولين البريطانيين كانت طيبة ومتميزة، ولكن العلاقة بالمنطقة أفسدها الوهابيون "أعداء بريطانيا" حين سيطروا عليها. أما وقد استعاد الخوالد وضعهم في المنطقة مرّة أخرى، فإنه سعد بما سمعه منهما سابقاً من تعهدات بالصداقة الدائمة الودّ غير المشوب للبريطانيين. وخلص الرجل بعد هذه المقدمة إلى القول إنه سيعود بعد الفراغ من مهمته عن طريق الأحساء ليستقل سفينة بريطانية ستكون في انتظاره في القطيف، وإنه يعد تعاونهما لحمايته حين يدخل حدود منطقتهما دليلاً على الصداقة مع الحكومة البريطانية.

في مساء ذلك اليوم ركب الكاشف متقدماً المسيرة من دون أن يسأل عن سادلير الذي لم يلتقِ به مرّة أخرى بعد أن "وصلته الهدية"، كما لم يُبدِ المهامندار به أدنى اهتمام. وقد دعا ذلك سادلير إلى القول إن حسن الضيافة ومراقبة الأجانب في معسكرات الجيش التركي وما يستتبع ذلك من شكليات أو مراسم ضرورية لا تكوّن قسماً من تقاليد العسكرية التركية، إذ لم يظهر أولئك الأتراك في فترة مرافقته لهم أي نوع من الانتباه الخاص. وتوقف الركب في الساعة الثامنة مساءً عند قرية هوارة، وهي قرية ذات أسوار تقوم في منطقة عامرة بحدائق النخيل، تمتاز بوجود كميات وفيرة من المياه التي تفيض بها بحيرة كبيرة، كما توجد فيها عين مياه حارة. وغادر الركب هوارة في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة، وواصل المسير لمدة إحدى عشرة ساعة متصلة حتى وصل إلى أم ربيعة حيث أناخ. وهكذا فقد دخل سادلير مرّة أخرى إلى تلك القرية، ولكنه لاحظ أن الطريق الذي اتخذته هذه المفرزة إليها كان أقصر

من الذي كان قد سلكه سابقاً، وأنه خلافاً لسابقه يمر بصحراء جرداء لا أثر فيها لموارد مياه ولا للخضرة، ولا تقع العين إلا على بعض كومات من الحشائش المبعثرة هنا وهناك. ويمكننا أن نضيف هنا لفائدة القارئ أن أم ربيعة باتت بعد ذلك هجرة للعجمان، وهي تبعد عن الأحساء حوالى مئة كيلو متر، ولا يفصلها عن عريعرة سوى أقل من أربعة كيلومترات.

تحرك الركب من أم ربيعة في الساعة الرابعة من مساء يوم ٣ شوال ١٢٣٤/٢٥ يوليو سالكاً اتجاهاً غربياً عبر أرض تشكلت من تلال رملية جافة لا تفيض بالرمال الغزيرة التي تميز السهوب المنبسطة، فهي أكثر ثباتاً وصلابة من تلك التي قطعوها سابقاً. وتوقف الركب في الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم ٢٦ عند بئر كبيرة في سهل تحيطه التلال. ولعلنا نلاحظ أن سادلير كان دقيقاً في حساب المسافات بحساب الزمن الذي تستغرقه الرحلة بين موقع المغادرة وموقع الوصول. وقد مكننا ذلك - خلال رحلتنا بالسيارة في إثر سادلير - من حساب الفاصل بين موقع معلوم وآخر مثله بالكيلومترات.

استأنفت القافلة التي تزوّدت الماء من تلك البئر مسيرها في الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم في اتجاه غربي مع انحدار طفيف إلى الجنوب، لتتوقف مرّة أخرى في الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٧ في منطقة لا ماء فيها. ويلاحظ سادلير أن درجة الحرارة كانت في ذلك اليوم ألطف مما كانت عليه في الأيام السابقة، كما لاحظ أيضاً أن كومات الحشائش الصحراوية أضحت أكثر تواتراً مما كانت عليه في المسيرة الأسبق. ففي هذه الأرض تنمو بعض الحشائش وكذلك بعض الشجيرات والأشجار البرية التي تنتج نوعاً من ثمار عين البقر المعروف في الهند. وصادفت القافلة في هذه المسيرة أيضاً وعولاً وغزلاناً، وتمكنت من أن تصيد بعضاً منها. ويلاحظ أن الغزلان توجد في مناطق لا تتوافر فيها المياه أو التي توجد فيها آبار عميقة لا يستطيع هذا الحيوان الوصول إلى مائها. وخلص إلى أن هذه الغزلان لم تتذوق طعم الماء لمدة طويلة.

استأنفت القافلة المسير في الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم سالكة طريقاً غربياً، وتوقفت في الثامنة من صباح الذي يليه في منطقة لا أثر فيها للماء. وقبض أعرابي على قنفذ في الصحراء وقدمه هدية لسادلير. ويلاحظ الرجل أن ذلك الحيوان كان نحيفاً ضئيل الجسم لا يضارع القنافذ التي سبق له أن شاهدها في الهند حجماً. أعاد سادلير القنفذ إلى البدوي، فما كان منه إلا أن ردّد عليه اسم الله وذبحه وأزال جلده وشواه والتهمه. ويعبّر سادلير عن اعتقاده بأن العرب يأكلون كل شوارد الصحراء لا يستبقون الجربوع ولا الضبّ ولا الهوام الأخرى، عدا الخنزير فإنهم لا يستحلّونه. وهم لا ينفرون من تناولها شريطة أن تذبح بالطريقة الشرعية. ويضيف سادلير في حاشية كتابه أنهم إذا لم يذكروا اسم الله على الذبيحة يحظر عليهم أكلها. ولعلّ الرجل سمع أو ربما قرأ الآيات الكريمة أو بعضاً منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (**البقرة: ١٧٢-١٧٣**) أو الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (**الأنعام: ١٢١**)، وكذلك الآية الكريمة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (**الأنعام: ١١٨**).

يستطرد سادلير فيذكر أن نسبة وجود حيوانات برية في شبه الجزيرة العربية ضئيلة جداً مقارنة بنسبة الحيوانات التي توجد في أي منطقة من العالم تتساوى مساحتها مع مساحة شبه الجزيرة. فالمسافر لا يصادف من هذه الحيوانات شيئاً عبر المسافات الطويلة التي يقطعها في تلك الأرض المفتوحة، حيث لا شيء يمكن أن يحجب النظر. فخلال فترة رحلته مع هذه القافلة لم يرَ من الحيوانات إلا حوالى اثني عشر جربوعاً، وثلاثة أو أربعة من الغزلان النحيلة الجسم، وبعض الوعول ذات الصدور السوداء. وقد تقع عين المسافر أحياناً على بعض الحمام الأزرق، ولكنه لن يشاهد من أصناف الطيور الأخرى إلا عدداً يسيراً من الغربان.

تحرّكت القافلة في الساعة الرابعة من مساء يوم ٢٨ يوليو في اتجاه الغرب أيضاً، وواصلت سيرها حتى انتهت في اليوم التالي إلى رماح. حيث توجد سبع آبار عميقة بعيدة الغور. ويورد عبد الله بن خميس بيتاً من الشعر النبطي لشاعر شعبي يصوّر فيه بعد أغوار آبار رماح:

يا تل قلبي تل دلو رماح وسط القليب
صار العوض منها العراقي والدلو ما كفاه

(**عبد الله بن خميس نفسه، ج١، ص: ٤٧٥**) وهناك بيت نبطي آخر لأحمد الناصر، ساكن بريدة، يحمل المعنى ذاته:

تليتني تل دلو رماح يا كامل الزين مسموح.

وفي الحقيقة فقد تكرر في الشعر العربي ذكر رماح كثيراً، ويبدو أنها كانت مأهولة عامرة مشهورة في صدر الإسلام، فقد تغنّى بها أكثر من شاعر فحل. ولعل قصيدة جرير في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان التي يذكر في مطلعها الحسناوات العربيات وهن يجتزعن على رماح من أشهر القصائد في هذا المجال وأعذبها.

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشية همّ صحبك بالرواح
تقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب يمنعني مراحي
يكلفني فؤادي من هواه ... ظعائن يجتزعن على رماح
عراباً لم يدن مع النصارى ... و لم يأكلن من سمك القراح

وفي رماح يقول ذو الرمة:

وفي الأظعان مثل مها رماح | علته الشمس فأدرع الظلالا

ويقول كذلك:

كأن نعاج الرمل تحت خدورها | بوهبين أو أرطى رماح مقيلها

وقالت أعرابية:

خليلي إن حانت بمورة موتتي | وأزمعتما أن تحفرا لي بها قبرا
ألا فأقريا مني السلام على فتى | وحرة ليلي لا قليلا ولا نذرا
سلام الذي ظنّ أن ليس رائيا | رماحا ولا من حرتيه ذرى خضرا.

ويمكن أن نختتم ما قيل شعراً في رماح ببيت لعبيد بن الأبرص:

وقد باتت عليه مها رماح | حواسر ما تنام ولا تنيم

تزودت القافلة الماء من تلك الآبار. ويلاحظ سادلير أن الإبل تُستغلّ في رماح لسحب المياه من الآبار، ويعتقد أن هذا الحيوان غير مؤهل بطبيعته للقيام بهذه الوظيفة. وعبّر سادلير للكاشف عن دهشته مما شاهده، فأفاده الأخير بأن إبراهيم باشا وظّف الإبل في جرّ مدافعه من سواحل البحر الأحمر إلى الدرعية. ويعتقد سادلير أنه لم يكن يتوقع أن يتمكن العرب أو الترك من تسخير هذا الحيوان والإفادة من طاقاته إلى هذا الحدّ، ولكنه أصبح بعد ذلك على اقتناع بكفاءة الجمل ومقدرته على العمل كحيوان من الحيوانات التي تصلح لجرّ الأثقال، ويضيف أن الأتراك أوفر علماً من العرب الذين لاحظ سادلير أن ليس لهم حظ من العمل في القافلة سوى بذل الجهد للقيام بالأعمال الشاقة.

هبّت بعد عصر يوم ٢٩ عواصف رعدية مصحوبة بأمطار غزيرة. وتحرك الركب صباحاً في هذه المرّة وانطلق في السادسة والنصف من صباح يوم ٣٠ في اتجاه جنوبي غربي، فوصل الثمامة ظهراً بعد أن قطع إليها تلالاً اكتسى سطحها بالحصى والحصباء، وتناثرت في ما بينها برك ممتدة من مياه تلك الأمطار التي أنعشت موات الصحراء. ويبدو أن هذه الأمطار كانت قد غطت منطقة شاسعة في نجد، فقد ذكرها عند ابن بشر (**عنوان المجد، مكتبة الرياض الحديثة، بدون، ج ١، ص: ٢١٩**) حيث كتب:

"في الثامن من شوال أنزل الله سبحانه سيلاً عظيماً سالت منه أغلب بلدان نجد وتدارك السيل والغيث عليها أياماً وذلك في شهر تموز الرومي، وهو وقت اصفرار الثمار واحمرارها، و لم يقع منه ضرر عليها وجعل الله في بركة".

لاحظ سادلير وجود عين في الثمامة تقوم على جوانبها أشجار أثل ضخمة. وتحرك الركب في الخامسة والنصف من صباح الحادي والثلاثين من يوليو سالكاً في بداية المسير اتجاهاً جنوبياً مع انحراف بسيط إلى جهة الغرب، ثم أخذ المسير بعد ذلك اتجاه الجنوب الغربي، ومضت بعدئذ غرباً حتى وصلت إلى العرمة في الساعة الثانية والنصف مساءً. وصادف الركب هنا

وادياً جافاً إلا من بعض البرك التي كوّنتها مياه الأمطار. ويذكر عبد الله بن خميس أن هذا الوادي يُعدّ من أكبر أودية العرمة باليمامة، وكان يعرف قديماً بوادي الغيلانة. ويضيف أن هذا الوادي ينحدر من قمة العرمة مشرقاً تتدفق فيه عدّة روافد صغيرة، ثم يشق سهلاً تحيط به التلال والحزون، وهذه هي روضة مصدة التي ينمو فيها الشجر الحمضي والعرفج وغيره. ويلتقي تحت هذه الروضة شرقاً وادي مصدة بالثمامة فيكوّنان وادياً واحداً. ويفضي هذا الوادي بعد ذلك بقليل إلى منحنى يستقبل ماء الثمامة. وبعد ماء الثمامة شرقاً يصب رافدان في وادي الثمامة هما الشويهران. ومن تحتها شرقاً يصب في هذا الوادي رافد آخر قليل الحطب، يليه آخر يعرف باسم جريذي الذي يُعدّ من أودية العرمة المعروفة. ويتصل وادي اليمامة بعد ذلك بوادي المساجدي. وعند مصب المساجدي في الثمامة هناك ماء الغيلانة المعروفة وهي غير ثابتة، وعدد آبارها ست أو سبع. ثم يدفع وادي اليمامة في روضة خزيم مع غيره من الأودية حيث تستقر مياهه قلّت أم كثرت فيه. (نفسه، ج ١، ص: **٢٣٩-٢٤٠**). ويستطرد سادلير في وصف هذا الوادي فيقول إنه يستمد مياهه عادة من التلال الجرداء التي تغطيها الحصي المختلطة بكتل الأحجار الكبيرة المُهشّمة في هذا السهل الصخري العاري تماماً من النبات، ويجري في اتجاه شمالي شرقي ليغوص بعد ذلك في الصحراء.

واصلت القافلة سيرها في الساعة السادسة والنصف في اليوم الأول من أغسطس لتتوقف من ثم عند جبل بهبهان، ووجدوا هناك مجرى ما زال يتدفق بمياه الأمطار. وقد ورد أيضاً ذكر روضة بنبان عند عبد الله بن خميس كروضة من رياض اليمامة. راجع: (**المرجع السابق، ص ٥١٣**) ولم تبكر القافلة في المسير في اليوم التالي، فلم تتحرك إلا في الحادية عشرة صباحاً. واضطرت بعد ذلك إلى التوقف في الساعة الرابعة مساء لهطل أمطار غزيرة مصحوبة بزوابع رعدية. وواصلت القافلة سيرها لتعسكر في يوم ١٢ شوال/٣ أغسطس على بعد ميل من منفوحة. ويشكو سادلير من أن القافلة التي جدّت في المسير في بداية الرحلة أضحت في نهاياتها مزعجة وبطيئة. ويأخذ سادلير في وصف هذه القافلة التي يقول إنها قد تألّفت من حوالى ستمئة جمل تقريباً. كانت الإبل تسير في صفوف، انتظم في الصف الأول عشرة من الإبل، سار في إثره خمسون صفاً آخر من الإبل على تشكيل مماثل وهيئة منتظمة. أما الإبل التي كانت تنقل متاع المسافرين فقد ألّفت قسماً منفصلاً عن المسيرة الرئيسة. ويعود سادلير ليذكّر بهاجسه الدائم خلال الرحلة من مقارنة المحيط بالصحراء والجمل بالسفينة، ويقرر أن العرب يشاركونه الرؤية ذاتها، فالجمل في قولهم هو سفينة الصحراء.

تقدم مسيرة القافلة ضابط من سلاح الفرسان في رفقة عدد من الأدلاء العارفين بالدروب. وكان يشعّ خلال المسير ليلاً من مقدمة الركب ضوء مصباح كبير ربط بأعلى عمود مرتفع ثبت على ظهر بعير. وبدا ذلك الضوء المنبعث من على ظهر الجمل لسادلير كأنه النور العالي الذي

تمتاز به سفينة القيادة لتستهدي بها السفن الأخرى التي تبحر في إثرها. ويضيف سادلير أنه كان يسمع خلال مسير القافلة دوي طلقات المسدسات التي تنطلق من مقدمة الركب ومؤخرته لتحديد مواقع الجماعات من المسيرة الرئيسة ومنع تشتتها كي لا تضلّ.

يمكن قطع الطريق من الأحساء إلى الدرعية مباشرة مروراً بالسلمية في عشرة أيام فقط بدلاً من الأربعة عشر يوماً التي استغرقتها الرحلة. وكان الكاشف يزمع أن يسلك هذا الطريق، ولكنه غيّر رأيه بعد ذلك لخشيته من أن ينازل قبيلة السعدة saadeh؟ فاتخذ طريقاً شمالياً غربياً بدلاً من ذلك، فكان ذلك سبباً في تأخير وصولنا إلى منفوحة. كانت هناك مجموعة من الجنود الأتراك في السلمية، وكان الكاشف قد طلب إليهم أن يلحقوا به في رماح، ولكنه حين وصل إلى هناك لم يجد لهم خبراً، فاضطر إلى أن يأخذ طريقاً آخر أضاف إلى إرهاق المسافرين في الرحلة تعباً على تعب. كان الركب في بداية الرحلة يدلج ليلاً لا يخشى من هجوم في تلك المراحل الأولى من الرحلة، ولكنه اضطر بعدئذ إلى السفر نهاراً خشية وقوع هجوم عليهم لا يأمنون معه رد المهاجمين ولا غدر أصحاب الإبل المرافقين لهم، الذين يتوقون ليصادفوا مثل هذا الهجوم لاهتبال الفرصة لمشاركة زملائهم في نهب القافلة، أو ربما لينتهزوا هذه الفرصة ليلوذوا بالفرار.

منفوحة والرياض

استقرّ الركب في الفترة من الثالث عشر حتى الحادي والعشرين من شوال/الرابع حتى الثاني عشر من أغسطس في منفوحة. ويلاحظ سادلير أن تلك المدينة كانت محاطة بسور وخندق، لكن إبراهيم باشا هدم سورها وردم خندقها. منازل منفوحة جيدة البناء شُيّدت باللبن والحجارة، ويتكوّن بعضها من طبقتين وسطح. وتسكن منفوحة حوالى ألفي أسرة. وتقع الرياض على بعد حوالى ميل من منفوحة. وتفصل بين القريتين خرائب وأسوار منهارة مع وجود بعض المنازل التي لا تزال قائمة. ويلاحظ أن الرياض ليست في كثافة منفوحة السكانية. ويلاحظ سادلير أن أشجار النخيل الكثيفة التي تُروى من الآبار العميقة رياً جيداً تحيط بكلتا القريتين، الرياض ومنفوحة، وأن أمطار الشتاء التي تتدفق في الوادي بغزارة من سفوح التلال المجاورة تكوّن نهراً طافحاً متدفقاً.

السكان في القريتين يعيشون في حالة مزرية، وهم في هذه الفترة أكثر بؤساً مما كانت عليه حالهم منذ أن خبروا الحكم الوهابي. فالأسوار التي كانت تمثّل الحماية لهاتين القريتين وتحمي ممتلكات المستقرين فيهما قد أزيلت تماماً، كذلك استنزف الأتراك كافة المحاصيل والحبوب التي كان يعتمد عليها المواطنون، فباتوا بلا قمح ولا أرز، رغم أن الأهالي كانوا

قبل الغزو يزرعون القمح والشعير بكميات كبيرة وكذلك الذرة الشامية، كما كانوا يزرعون القطن أيضاً. ويقول سادلير إنه لم يجد في القريتين أثراً للخيل العربية، و لم تقع عينه خلال فترة إقامته ولا حتى على حصان واحد. ويشير إلى أن أهل منفوحة رفضوا استقبال القافلة وانتضوا أسلحتهم وصعدوا إلى سطوح منازلهم تأهّباً للقتال، فيما تغافل شيخ البلدة عن زيارة الكاشف. واضطرت القافلة إلى أن تتعامل سلمياً مع هذا الرفض، حتى تمكنت في النهاية من شراء احتياجاتها من المواد التموينية بأسعار مضاعفة. وأخذ الباعة يتوافدون إلى المعسكر يومياً، يقيمون ما يمكن أن يُسمّى سوقاً، يبيعون فيه الخروف بأربع كرونات، أما لحم الإبل فكان من نوعية غير طيبة ولا يأتي به الجزارون إلى هذا السوق، وعلى من يطلبه أن يذهب إلى موقع أولئك الجزارين في منطقة بالقرب من منفوحة. البيض في سوق المعسكر ثلاث بقرش. وكانت الخضر في هذا السوق شحيحة جداً. عرض الباعة الباذنجان والبصل والسبانخ وبعض الخضر الأخرى. ويصف سادلير البطيخ المعروض بالرديء جداً، وكذلك الفاكهة من تين وخوخ وغير ذلك. وتمكن سادلير من أن يشتري من ذلك السوق برسيماً وقصباً علفاً لدوابه. وأشار سادلير إلى أنهم ظلّوا طوال الرحلة يتناولون لحم الإبل. فما إن تبدو علامات المرض على البعير إلا وتكون بسم الله وسكين الجزار في انتظاره. وحين تستهلك لحوم هذه الحيوانات لا يبقى منها إلا هياكلها العظمية التي تشهد بأن القافلة قد مرّت من هنا.

هطلت في فترة وجود سادلير في المنطقة أمطار غزيرة ومتواترة لم يكن يتوقع هطلها في ذلك الموسم من السنة، فاستفسر القرويين الذين أكّدوا له أنها ظاهرة غير مألوفة و لم يسبق حتى لأكبر الرجال سناً في المنطقة أن وعى سقوط أمطار على هذا النحو في هذه الفترة من السنة. فالأمطار الغزيرة التي ألفوها هي تلك التي تهطل في فصل الشتاء عادة، حيث يكون الجو في هذه المنطقة الجبلية المرتفعة بارداً جداً. قال له محدثه العربي المسن: الله أكبر، فقد عشت لأرى ثلاث عجائب تحدث في يوم واحد: وجود أتراك وإفرنج في منفوحة وهطل أمطار في منتصف الصيف.

وصلت مفرزة الأتراك التي كانت ترابط في السلمية إلى منفوحة في ١٣ أغسطس وأفادت بما يأتي:

> يسكن الخرج بالقرب من السلمية أربعة من شيوخ آل سعود، منهم عبد الله وعبد العزيز، وكان إبراهيم باشا قد أصدر أمره بالعفو عنهم ووعد بحمايتهم وخلع عليهم الخلع. ويستطرد سادلير فيقول إن هذين الاسمين، عبد الله وعبد العزيز، يتكرران بشكل متواتر في تاريخ الوهابيين. ويذكر سادلير أن الباشا حين أخذ

في الانسحاب من هذه المنطقة من الجزيرة العربية، أمر الجوخدار باشي بقتل هؤلاء الشيوخ الأربعة. ولما لم يكن مع الجوخدار باشي قوّة كبيرة من الجند تمكّنه من تنفيذ الأمر بالقوّة، إذ لم تتجاوز القوّة التي كانت معه خمسة عشر جندياً، احتال عليهم ولجأ إلى قتلهم غيلة. دعا الرجل الشيوخ إلى وليمة انتهت باغتيالهم. و لم يستمرئ البدو هذا الغدر، فلم تمضِ سوى بضعة أيام على الحادث حتى تجمّع منهم حوالى ألف وخمسمئة بدوي هاجموا تلك القوّة التركية في السلمية، ما اضطرها إلى الاحتماء بأسوار القلعة، و لم تظفر الفرقة بالنجاة إلا حين وصلت وحدة الدعم التي أرسلها الكاشف لتعود بهم. ويضيف سادلير أنه تيقّن تماماً أن أهل المنطقة لا يزالون على وهابيّتهم، وأنهم معادون للأتراك، وأن لهم أقارب في رأس الخيمة.

الدرعية

تحرّك الركب مغادراً منفوحة في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٢ شوال/١٣ أغسطس ليمر بالدرعية في الحادية عشرة صباحاً، ثم توقف في العيينة التي وصفها سادلير في كتابه بأنها خراب في خراب، في الرابعة من مساء ذلك اليوم. أخذ الركب في بداية المسيرة اتجاهاً شمالياً، ثم ما لبث أن اتجه غرباً. وتقع الدرعية على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من منفوحة على رأس وادٍ عميق متسع تحيط به جبال جرداء. تمتد إلى الغرب من الدرعية سلسلة من الجبال تقف في اتّجاه شمالي غربي جنوبي شرقي، كما تبدو في أفق المنطقة الشمالية سلسلة جبال أخرى تمتد في اتجاه شمالي شرقي.

تقوم الدرعية على وادٍ متسع جداً عامر بالنخيل، وكانت تنمو فيه أشجار التين والمشمش والعنب والرمان وصنوفٌ وفيرة أخرى من فواكه وحمضيات. أما أشجار نخيلها فقد كانت ممتدة على امتداد البصر وكانت تعطي ثماراً وافرة. وبما أن إبراهيم باشا قد صمم على أن يجعل هذا المكان خراباً بلقعا فقد أمر بقطع النخيل، كما أمر باجتثاث كافة أشجار الثمار الأخرى. يلاحظ أن المدينة كانت عامرة بأهلها في يوم من الأيام، ولكنها غدت بعدئذ عشّاً للخراب لا يؤوي إلا النزر القليل من السكان، فقد فرّت الكثير من الأسر التي أسعدها الحظ بالنجاة من أهوال الحرب إلى منفوحة. لقد سوّيت بأمر من إبراهيم باشا الأسوار التي كانت تطوّق الدرعية وقلاع المدينة وأبراجها وجلّ منازلها بالأرض. وتمتد خرائب المدينة إلى مساحات

شاسعة، ولكننا نستطيع أن نستدلّ على شكلها بآثار ما بقي من سورها المتهدم. بُنيت المدينة على مرتفع من الأرض يحمي أحد جوانبه وادٍ عميق متسع، كما تحميه من الجانب الغربي سلسلة من الأبراج المتلاصقة التي كانت الأسوار تربط بينها. ويطلق على القسم الغربي من المدينة اسم طريفة، فيما يُعرف القسم الشرقي المحاط بالأبراج والأسوار بالسهل. ويوجد في هذا القسم مجرى لا ينضب ماؤه الذي يتدفق على امتداد السنة من ذلك الوادي العميق. أما في الشتاء فتتدفق مياه هذا المجرى هادرة دفاقة.

تحركت القافلة من العيينة في الساعة الرابعة صباحاً من يوم ١٤ أغسطس عبر وادٍ يجري في اتجاه غربي فشمالي، انتهى بهم إلى سهل ما لبث أن أفضى بهم إلى وادٍ ضيق متعرج عبر مجموعة تلال مهدمة (نعتقد من جانبنا أنه قصد بوصفه هذا مجموعة تلال مصيقرة) انتهى بهم إلى سهل حيسية Husscah.

توقف الركب في الساعة الواحدة مساءً عند آبار حيسية وتزوّد من آبارها ماءً جيداً. وكان هذا الطريق سالكاً بصورة عامة، وكانت تربته متماسكة يمكن المرء أن يشاهد فيها الآثار التي خلّفتها مدافع إبراهيم باشا التي سُحبت عبر هذه المنطقة. ولاحظ سادلير أن مظاهر السطح والتضاريس ليس فيها ما يعترض سحب تلك المدافع إلا ما كان من بعض المسالك الوعرة التي تقود إلى هذا السهل وبعض التلال القريبة من الدرعية. ويتطابق قول ابن بشر مع سادلير حين قال: "ثم إن الباشا لما نهب البلد (ضرما) وسار إلى الدرعية فصار مسيره مع الحيسية ثم إلى وادي حنيفة عند بلد العيينة وبلد الجبيلة. ثم سار في الوادي حتى نزل الملقى، نخل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود المعروف في الوادي أعلى الدرعية، بينها وبينه مسيرة ساعة". (**سبق ذكره، ج ١، ص ١١٦**).

تحرّك الركب من حيسية في الساعة الرابعة من صباح يوم ١٥ أغسطس سالكاً في البداية طريقاً شمالياً غربياً، ثم انحدر غرباً ليأخذ بعد ذلك طريقاً شمالياً غربياً. وتوقف في الساعة الواحدة من الظهر في أورر Aoore حيث حصلوا هناك على مياه مرّة بعض الشيء. يقول سادلير في كتابه إن ركبهم قد مرّ في الساعة العاشرة بخرائب لسور قرية ومجموعة آبار عندها بعض حدائق نخيل تسمى قصر البرة. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن أورر المذكورة عنده هي العوينيد، لأن المياه بين الحيسية وثرمدا هي البرة فرغبة فالعوينيد.

واصل الركب المسير في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٦ أغسطس في اتجاه الشمال الغربي حتى بلغ ثرمدا في الساعة التاسعة والنصف صباحاً. ويصف سادلير في كتابه الأرض حول ثرمدا بالمخضرّة، ولكنه يضيف أن الباشا قد هدم البلدة. ويذكر أيضاً وجود قرية قرب ثرمدا يسميها ميرية بها عدّة آبار غير مستساغة الطعم. وكانت الصحراء تمتد أمام الركب منبسطة حصوية شاسعة مترامية جافة كطبيعتها، لا تكاد ترى فيها إلا

النزر القليل من الشجيرات. ويمكن أن نلاحظ أن سادلير قد تعمّد في تقريره حذف بعض ما أورده في كتابه الذي جاء فيه:

> تحركنا في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٧ أغسطس فقطعنا أرضاً حصوية منبسطة أفضت بنا إلى قرية قرين التي جانبناها على شمالنا، لنصل في الساعة الثامنة إلى بعض حدائق النخيل، ثم دلفنا بعد ذلك إلى وادي شقراء في الساعة التاسعة والنصف صباحاً حيث توقفنا هنالك. وقبل أن نضرب خيامنا في شقراء، جاء من يقول إن بدو عتيبة قد أغاروا على شقراء ونهبوا سوائمها. فخرجت على الفور ثلة من الجند تطارد أولئك البدو، فتمكنت من خمسة منهم عادوا بهم أسرى وقطعت رقابهم فور وصولهم. وقد أخافت هذه الواقعة بدو البني خالد المرافقين للركب، فأخذوا يفكرون في الهروب حالاً خشية من أن يترصدهم بدو عتيبة عند عودتهم لينالوا ثأرهم منهم. وقد تمكن اثنان من هؤلاء من الهرب ليلاً.
>
> تقع شقراء في منطقة من الأرض منخفضة جداً. ويبدو أن أسوارها كانت حصينة، فقد صمدت أمام مدافع إبراهيم باشا لثمانية أيام متصلة. وحين تمكن الباشا من المدينة أمر بتهديم السور، ولكنه لم يهدم المدينة التي وجد فيها سادلير سوقاً قائمة ومسجداً وصفه بالجميل. ولاحظ أن المدينة محاطة بحدائق النخيل الكثيفة التي كانت تُروى بنحو جيد من الآبار العميقة. ويشير إلى أن أربعة من العرب المرافقين للحملة سقطوا في تلك الآبار، إلا أنهم تمكنوا من إنقاذ اثنين منهم.
>
> تحرك الركب من شقراء في الخامسة صباحاً من يوم ١٨ أغسطس في اتجاه غربي، ليتوقف في الساعة الواحدة مساء عند تلال رملية حمراء جرداء لا ماء فيها ولا علف، ولا ترى فيها سوى السراب الذي بدا لناظري كأنه المحيط الشاسع الذي أحاط بنا، فحجب كل شيء سواه. وواصلت القافلة المسير في الساعة الرابعة صباحاً من يوم ١٩ لتقطع بعد جهد جهيد تلك التلال الرملية وتنتهي إلى سهل ترسّبت فيه بقايا من مياه الأمطار. وتوقف الركب بعد ذلك في عيون الصير (لعله قصد عيون الصوينع)، وهي قرية صغيرة ذات أسوار توجد فيها آبار قضى الركب ليلته عندها ليتحرك في مساء اليوم التالي في اتجاه شمالي غربي، ولكنه توقف بعد أن سار لمدة أربع ساعات أدرك بعدها أنه ضلّ الطريق. وساد القوم هرج ومرج، فأناخوا وقضوا ليلهم هناك يترقبون انبلاج صبح اليوم التالي ليهتدوا إلى الطريق الصحيح. وتحركت القافلة في الساعة

الخامسة من صباح يوم ٢١ بعد أن استبانت سبلها، فسلكت اتجاهاً شمالياً غربياً لتتوقف في الساعة العاشرة في أرض غطّتها مياه الأمطار وجدوا فيها حشائش رعتها دوابهم. وانطلق الركب من هناك عبر أرض مترعة بالمياه معشوشبة هوناً ما، ما يدل على أن موسم الأمطار كان جيداً. وتوقف الركب في الساعة الثانية عشرة والنصف عند رمال حفروا فيها فأصابوا منها ما يكفيهم من الماء. وفي يوم ٢٣ أغسطس تحركت القافلة في الساعة الخامسة صباحاً في اتجاه شمالي، لتنحرف بعد ذلك غرباً حتى وصلت في الساعة التاسعة صباحاً إلى المذنب، وهي قرية غير مسوّرة تقع في منطقة وفيرة الزروع، كثيرة النخيل الذي تمتد حدائقه على امتداد البصر، رغم أن مذاق مياه آبارها مر. وفي الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم التالي تحركت القافلة في اتجاه شمالي غربي عبر أرض صحراوية جرداء تغطيها صفائح من أحجار مهشمة لتتوقف في الساعة الثانية عشرة والنصف في عنيزة.

عنيزة

يذكر سادلير أن عنيزة التي أصبحت خراباً في خراب، كانت المكان الوحيد الجدير بالذكر في المنطقة التي قطعها الركب من منفوحة إلى الرس. تقاسمت قلاع عنيزة المصير الذي جابهته القلاع الأخرى في نجد التي صبّ إبراهيم باشا جامّ غضبه عليها، غير أن نخيل عنيزة ما زالت به بقية قائمة على سوقها.

تقع عنيزة في واد، وتُروى مزارعها بنحو جيد من الآبار العديدة. غير أن عنيزة التي تُعدّ المدينة الرئيسة في هذه المنطقة هي – بحكم موقعها الجغرافي الممتاز من طرق القوافل – تمثل مركزاً نشطاً من مراكز التجارة. فقد عُرفت عنيزة طوال تاريخها بأنها نقطة الوصل بين الخليج العربي والبحر الأحمر. تفد إلى المدينة القوافل سنوياً من الكويت والقطيف والأحساء، لتنطلق منها إلى المدينة المنوّرة وموانئ البحر الأحمر ومنطقة جبل شمر، ما جعلها مركزاً جغرافياً وسياسياً واقتصادياً لشبه الجزيرة العربية. وقد قابل سادلير في عنيزة بعض التجار الذين وفدوا إليها من الكويت والزبير، والذين ينسبهم سادلير إلى العتوب. وقد حدث له أن قابل في شقراء كذلك جماعة من هؤلاء التجار. ويلاحظ سادلير وجود بعض السلع في حوانيت عنيزة يذكر منها الأرز الهندي. ويذكر سادلير في كتابه وجود حامية في عنيزة مهمتها ضبط قبيلة عنزة التي تسكن الصحراء الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة عنيزة. ويضيف أن ديار تلك

القبيلة تمتد عبر منطقة شاسعة لتتصل بديار قبيلة مطير التي تمتد بدورها من شرق شقراء في اتجاه الكويت والخليج حيث قبائل بني خالد التي تشغل جنوب هذه المنطقة حتى الأحساء. وهناك تبدأ منطقة تعمرها قبائل أخرى أهمها العجمان الذين لا يملكون قوّة كافية لمعارضة الخوالد. ويستطرد سادلير في كتابه فيذكر أن قبيلة عتيبة التي تتمركز في جنوب غرب الدرعية قد ضعفت كثيراً وتشتتت حتى كادت أن تنقرض. أما قبائل حرب ومسروح فتسكن المنطقة الواقعة في الغرب من عنيزة، تلك الأرض التي تمثل قسماً من المنطقة الواقعة بين الرس والمدينة المنوّرة. ولنا أن نلاحظ الاضطراب الواضح في هذا النص. فالرجل لم يقف بنفسه على تلك الأراضي جميعها ليستقصي سكانها ولكنه - في ما هو وارد - قد بنى حديثه على السماع، وما آفة الأخبار إلا رُواتها.

الرس

وصل سادلير إلى الرس في الساعة الواحدة من مساء يوم ٦ ذي القعدة/٢٦ أغسطس بعد مسيرة استمرت منذ الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم ليجد أن الباشا كان قد غادرها قبل يومين من وصولهم إليها، فقرر سادلير أن مهمته لم تعد ذات جدوى بعد أن غادر الباشا منطقة نجد إلى الحجاز، وباتت محاولة إسهامه في حرب البريطانيين ضدّ مناطق الجهاد البحري في الخليج أمراً بعيد المنال. كذلك عرف سادلير ما يريد معرفته عن جيش الباشا وتبعثره وقلّة حيلته وعدم انضباطه وضعف مصادره التمويلية، وأدرك أن لا فائدة ترجى منه تدفع البريطانيين إلى محاولة دفعه للتعاون معهم. ولم يكن من الممكن للرجل العودة من حيث أتى، فقد كان ذلك أمراً مستحيلاً. فالمنطقة كانت تمور بالثورة نتيجة لعدم التزام الكاشف بوعوده للقبائل وغدره بهم. فقد وعد الكاشف بني خالد الذين استطاع بمعاونتهم له أن يخرج من الأحساء وعداً غليظاً بأنه سيرد عليهم إبلهم ريثما يجري استبدالها بالعدد ذاته منها من إبل قبيلة الدويش (يقصد مطير). ولكنه حين وصل إلى مضارب هذه القبيلة الأخيرة حنث بوعده ولم يفِ به، وزاد بأن عضلهم أجور إبلهم وصادرها. وطرد الكاشف أصحاب هذه الإبل "التعساء" فهاموا على وجوههم بلا ركاب ولا مؤن ليتلقفهم الأعداء من كل جانب، فهم لا يملكون ما يعينهم على الدفاع عن أنفسهم. و"تراهم الآن يهيمون على وجوههم في الصحراء يعانون المصير ذاته الذي يعانيه الحجاج من جراء أعمالهم".

قرر سادلير أن يسافر من الرس إلى البصرة كما سبق للكاشف أن وعده بذلك سلفاً، وتعهد له بمدّه بمرافقين يعبرون به إلى تلك الوجهة. ويعبّر سادلير في هذه المناسبة عن ضيقه الشديد حين اكتشف أن الأفندي الذي تركه الباشا لتصريف الأمور في المنطقة يجهل جغرافية هذه

المنطقة التي خاض فيها سيده حرباً دامت لثلاث سنوات: "بدا لي هذا الموظف طفلاً غريراً لم يحدث له أن فارق القاهرة قط". جادل الأفندي التركي الضابط البريطاني بأن أمر رحيله إلى البصرة يتعذّر تحقيقه، ونصحه – بدلاً من ذلك – أن يواصل الرحلة إلى المدينة المنوّرة، ويمكنه من هناك أن يذهب إلى بغداد عن طريق سوريا!

من الرس أرسل سادلير في ٢٦ أغسطس تقريراً عن سير مهمته إلى نبيان رئيس مجلس حكومة بومباي ضمّنه ما مرّ به من تجارب منذ أن غادر الأحساء، وركز فيه على الدمار الشامل الذي أنزله الباشا بكافة مناطق شبه الجزيرة العربية، وجشعه في طلب المال وتحصيله وسلب المواطنين حتى في المناطق البعيدة عن نجد. "فقد جمع الكاشف من أهل الأحساء قبل أن يغادرهم مليوناً ومئتي ألف قرش".

الفصل الثاني عشر

سادلير يلتقي الباشا في المدينة المنوّرة

الطريق إلى المدينة المنوّرة

أفادنا بعض كبار السن - مشكورين - من الذين خبروا طرق القوافل بين الرس والمدينة المنوّرة وسلكوا دروبها واحترفوا العمل فيها لفترة طويلة بأن موارد الماء ومنازل القوافل في هذا الطريق تتبع أحد مسارين هما:

الطريق الأيمن، وموارده هي: القرية - الزعفرانة - النفرة - الحناكية - صويدرة - فالمدينة المنوّرة.

الطريق الأيسر وموارده هي: اللفية - المشاش - الطرفية - مشاش الركبان - المحافر - الحناكية - صوديرة - فالمدينة المنوّرة.

يبدو لنا واضحاً أن القافلة التركية التي رافقها سادلير من الرس في ٢٨ أغسطس قد سلكت الطريق الأيمن كما يتضح من وصفه للطريق.

تحرك سادلير في درب المدينة المنوّرة - بعد أن وجد أن لا مناص من ذلك - في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ٢٨ أغسطس في رفقة بعض الحرس التركي سالكاً طريقاً جنوبياً ينحرف إلى جهة الغرب، حتى وصل في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة إلى آبار مؤتة Mutta. وانطلق الركب من هناك في الساعة الخامسة من صباح ٢٩ أغسطس سالكاً طريقاً غربياً انحرف بعد ذلك إلى الجنوب ليتوقف عند آبار يوداس Uddas في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً ليرحل من هناك مُيمماً جهة الغرب في الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، فتوقف في الثالثة والنصف مساء عند آبار ذو روية Zureaweeh. وقد أورد

سادلير في كتابه أنهم أصابوا الماء من بعض آبار كانت عبارة عن حفر ضحلة، ويعزو ذلك إلى غزارة هطل الأمطار في ذلك الموسم، ويُسمّي المنطقة مشاش باطن العرمة. واصل الركب من هنالك مسيرته غرباً حيث تحرك في الرابعة صباحاً من يوم ٣١ أغسطس ليتوقف في الواحدة والنصف مساء. واستمر الركب في اتجاهه غرباً في مسيره في الأول من سبتمبر حيث تحرك في الساعة الخامسة صباحاً، وتوقف في الساعة الثالثة والنصف مساء ليواصل سيره في هذا الاتجاه أيضاً في الساعة الرابعة والنصف من صباح الثاني من سبتمبر ويتوقف في الساعة الواحدة مساءً. ويضيف سادلير في كتابه "... لمحنا جبل ماوية عن بعد ونصبنا معسكرنا على مسافة منه غرباً". ويضيف سادلير في كتابه أن وادي ماوية كان يضمّ الكثير من "الهياكل العظمية للوهابيين التي نالت منها عوامل التعرية". "... وأخذ الركب بعد ذلك طريقه غرباً ثم انحدر نحو الجنوب حين تحرك في الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم في العاشرة من صباح ٤ سبتمبر". ووصل الركب الحناكية التي أشار سادلير في كتابه إلى وجود حامية تركية فيها لحماية المدينة المنوّرة، ولاحظ أن الماء في الحنكية وفير والعلف للسوائم وفير.

غادر الركب الحناكية في ١٦ ذي القعدة/٥ سبتمبر وطوى مسافة بعيدة من الطريق، ثم ارتاح لفترة شدّ ركابه بعدها في الساعة الثالثة من مساء يوم ٦ سبتمبر، وسرى ليلاً ولم يتوقف إلا في الساعة الثالثة من صباح يوم ٧ سبتمبر في موقع استراحة يشرف على المدينة المنوّرة.

وصل سادلير في التاسعة مساء يوم ١٩ ذي القعدة/٨ سبتمبر إلى بير علي. وبما أن دخول المدينة المنوّرة محظور على النصارى، فقد أرسل إبراهيم باشا الباشكار أغاسي من المدينة للترحيب بسادلير وتوجيهه للنزول في بير علي التي تقع على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من المدينة المنوّرة، وكان حريم الباشا يُقمن في ذلك الموقع أيضاً. سأل الباشكار أغاسي ضيفه إن كان يريد أن يسلك إلى ذلك الموقع الطريق الذي يسير في محاذاة المدينة أم ذلك الذي يجانبها حتى لا يقع في حرج، إذ قد يصادف أن نقابل بعض المتعصبين المنقطعين للعبادة الذين قد يثيرون لغطاً بشأن زيارتي، خاصة مع ما يقع على الأتراك في هذه المدينة المقدسة من ضرورة إلزام أنفسهم بتوقير القديسين (يقصد الفقهاء والعلماء) فيلزمهم أن يبذلوا كل جهدهم لمراعاة التعصب الذي تقتضيه ديانتهم.

ولا نعرف من جانبنا تعصباً في الإسلام أو مغالاة، رغم أن كافة الرحالة الغربيين قبل سادلير وبعده يرمون هذا الدين بعبارات تفيد هذا الهراء. وفي اعتقادنا، إن عتاة المستعمرين الذين استطاعوا تذويب شخصية العديد من أهل المناطق غير الإسلامية المستعمرة في بوتقة ثقافاتهم فصاغوها كما أرادوا لخدمة غاياتهم، استعصت عليهم - إلى حدّ بعيد - الشخصية الإسلامية التي ظلّت حتى في حال ضعفها وتفرقها ووقوعها في براثن المستعمرين حرباً على ثقافات الغرب العنصرية التي تدّعي تفوقاً أخلاقياً يؤهّلها لقيادة الآخرين. فالمسلمون رغم تفرقهم

وتشرذمهم ما زال العديد منهم يدرك أن العزة ليست إلا لله ورسوله وللمؤمنين، وفي التمسك بالهوية القومية، فلا ريب أن عدّ سادلير ومن لفّ لفّه هذا الاعتداد بالذاتية تعصّباً وتهوساً.

يضيف سادلير أن لباسه الأوروبي لم يُثر انتباه أحد خلال رحلته الطويلة "المزعجة" التي انتهت إلى المدينة المنوّرة. فقد كان العسكريون يعاملونه بكل احترام. ولم يحدث لأي منهم أن ذكر له شيئاً بشأن مقتضيات مراعاة أي أمر يتصل بالدين. وعلى الرغم من الرغبة الملحّة التي كانت تدفع سادلير – في ما يقول – إلى زيارة المدينة المنوّرة ليشبع نهمه في المعرفة، إلا أنه ما إن دخل "أرض الخرافات والتعصب المحمدي حتى نهاني النهى أن أسيء إلى نفسي. ولذلك طلبت إلى الآغا أن يوصلني إلى بير علي بالطريق الذي يراه مناسباً.

يلاحظ سادلير أن الطريق من الرس إلى المدينة المنوّرة يمر عبر صحراء مجدبة لا أثر فيها لأي نوع من أنواع المزروعات. فهي عبارة عن سهول حصوية مترامية، يقطع اتصالها أحياناً وجود بعض التلال الصخرية وسلاسل من التلال الرملية، إلا أن الماء متوافر في هذا الطريق من عدّة آبار لا تفصل بينها مسافات بعيدة.

المدينة المنوّرة

يعود سادلير فيذكر مرّة أخرى أنه لا يجوز لأمثاله من "الكفار" دخول المدينة المنوّرة، ولكنه – مع ذلك – عمد إلى تقديم وصف للمدينة يرى أنه ربما لم يكن دقيقاً. يذكر أن المدينة المنوّرة تقع في فجوة من الأرض تتوسط جبالاً صخرية جرداء. وهي مدينة مسوّرة، بُنيت أسوارها وأبراجها من الحجر الجيري، وطُليت المآذن باللون الأبيض، ما جعل منظر المدينة وسط هذا القفر الصخري الكئيب يشع بهجة وجمالاً. تفتح أسوار المدينة من خلال ثلاث بوابات: باب دمشق وهو أشبه بالقلعة منه بالباب. نصبت فوق هذا الباب مجموعة من المدافع ويُنشر من على سارية في أعلاه العلم التركي في أيام الجمع. أما البوابتان الأخريان فهما باب الجمعة وباب مصر. وتحتلّ مساحة السطح الذي يقوم فوق كل من هذين البابين ثلاثة مدافع. تضمّ المدينة مسجدين إضافة إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قبره الطاهر، وفيه أيضاً قبور السيدة فاطمة والصديق أبو بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً. ويقال إن المبلغ الذي صرفه الصدر الأعظم لترميم المساجد والأضرحة وصل في "هذه السنة" إلى ستمئة كيس. كذلك يُوجد في المدينة حوالى ثلاثين كلية أو مدرسة ينتظم فيها الشباب. ويضيف أن المدينة المنوّرة التي تضمّ حوالى ستة آلاف منزل نصفها متهدم يعمرها نحو ثمانية آلاف نسمة.

للمدينة قاضٍ واحد فقط، ومفتيان يمثلان المذهبين الحنفي والشافعي، وعلى عاتقهما تقع مسؤولية تفسيرِ المسائل الشرعية. وفي اعتقادنا أن الرجل لم يفهم ما تعنيه وظيفة المفتي، فهو

لا يزيد على كونه فقيهاً، ربما كان من المجتهدين، ينظر في ما استعصى على البعض في مسائل العبادات والمعاملات وينصح بما يراه، ولا يُعدّ رأيه ملزماً لجماعة المسلمين.

يذكر سادلير أن أهل المدينة يعيشون على الصدقات التي تردهم سنوياً من أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي من قبل أشخاص يطلبون الدعاء لهم. كذلك يقدم الحجاج الأعطيات لأهل هذه البلدة، إضافة إلى ما ترسله لهم الدولة من مبالغ سنوية معتمدة.

"وفي الحقيقة، فإن أقطار العالم الإسلامي تقدم الشيء الكثير لهؤلاء الشحاذين الذين استمرأوا البطالة والكسل، ولكنهم غدوا بفضل أموال الصدقات أغنياء، فداخل قلوبهم الكبر حتى أضحوا يعاملون من أحسن إليهم بتعالٍ وازدراء. وعلى الرغم مما اتّسم به أهل المدينة من بخل واضح جعلهم مضرب الأمثال في شدّة الحرص على المال، ينفقون على أسرهم ببذخ".

ويستطرد سادلير في الإساءة إلى أهل المدينة المنوّرة واتهامهم بالبخل ليكشف عن مدى الغلّ الذي يحمله المستعمر للإسلام وأهله، فيقول إن على كل شخص يزور محراباً ويقف عنده للدعاء أن يدفع لأهل المدينة بسخاء. وعلى الرغم من أن "رحمة الله" قد أمدّت هذه المدينة بكميات وفيرة من المياه، على الأجنبي أن يدفع "لقاء أي جرعة ماء يصيبها". ولا ندري لماذا لم يرق هذا النشاط الفندقي المشروع سادلير! ولا يمكننا أن نفسر ذلك إلا بتحامل هذا الضابط البريطاني على أهل تلك المدينة المنوّرة التي تضمّ أحفاد الأنصار الذين ضربوا مثلاً فريداً في الأثرة والكرم في تاريخ البشرية وهم بعد من أبناء المهاجرين من مكة مع الرسول الكريم ثم من أصقاع العالم الإسلامي الذين لازموا مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. ويضيف سادلير أن أهل المدينة معفون من دفع الضرائب، وأن الأموال تُجمع بعد موسم زيارة الحجاج إلى المدينة ثم تُوزع على مستحقيها وفق نسب معلومة.

توجد داخل المدينة حديقة كبيرة زاخرة بالتمور والكروم والرمان والفواكه الأخرى وصنوف الخضر. وتشرب المدينة من مجرى عيون الزرقاء الذي يوصف ماؤه بالجيد، كما توجد في المدينة عدّة آبار أخرى. وتقع إلى الشمال من المدينة مجموعة حدائق نخيل، ويسكن البعض في هذه المنطقة. أما بير علي التي تضمّ مجموعة من الخرائب فهي تقع إلى الغرب من المدينة. ويوجد في هذا الوادي المتصل بالجبال في المنطقة الجنوبية الغربية مجموعة من القرى وحدائق النخيل.

قافلة الحجّ الشامي

وصلت إلى المدينة المنوّرة في طريقها إلى مكّة المكرّمة قافلة الحجّ الشامي يقودها صالح باشا، والي سوريا، ذو الثلاثة طوغات (الطوغ: ذيل الحصان، وكان يدل على العلامة التي تمنح للباشا

حين ترفيعه إلى درجة أعلى). وقد تولى صالح حمل كسوة الكعبة المشرفة إلى المدينة المنوّرة. وتقع على إبراهيم باشا، باشا جِدّة والأراضي المقدسة، ذي الثلاثة طوغات أيضاً، مسؤولية سلامة الحجيج من المدينة إلى مكّة. وكان في قافلة الباشا عدد من المدافع التي تستخدم في أداء التحية، كما يدلّ دويّ قذائف المدافع على وصول الباشا.

تطلع سادلير إلى إحصاء أعداد الحجاج التي وصلوا مع القافلة ومعرفة الهيئة التي يكونون عليها حال دخولهم المدينة المنوّرة، ويعترف بأنه لم يتمكن من ذلك. يقول سادلير إنه عرف من الخدم المرافقين له الذين زاروا المدينة في ذلك المساء، كما عرف من الحجاج الأتراك الذين التقاهم، أن أعداد الحجاج الذين وفدوا مع القافلة لم تكن كبيرة وأنها أقلّ مما كان يسمع عنها سابقاً. ويعتقد سادلير أن ما تعرضت له قافلة الحجّ في السنة السابقة في طريق عودتها إلى ديارها من اعتداء نجم عنه مقتل عدد من الحجاج كان له أثره الذي جعل عدد حجاج هذه القافلة لا يتجاوز خمسمئة حاج. ويضيف سادلير أن قافلة دمشق تضمّ حجاج إستانبول وآسيا الصغرى إضافة إلى حجاج دمشق، وكلها مناطق كثيفة السكان، ما يجعل عدد الحجيج الذين وفدوا مع القافلة ضئيلاً ولا يتناسب مع ما توقعه. ويقول إن الصدر الأعظم كان قد أصدر أمره بترميم كافة الآبار وخزانات الماء في كافة منازل الطريق وتجهيز المنازل بما يلزمها. وقد جرى تنفيذ الأمر جزئياً في تلك السنة. ويذكر سادلير أنه لم يسمع بأن أياً من حجاج تلك القافلة قد لقي حتفه في الطريق.

سادلير يجتمع مع الباشا

وصل سادلير بعد مسيرته التي يصفها بالطويلة الصعبة إلى بير علي في وقت متأخر من الليل، فتلقاه أنطونيو سكوت، الطبيب الإيطالي للباشا، بالترحيب. وكان أنطونيو يشرف في بير علي على رعاية حريم الباشا. وأقبل الباشا في مساء اليوم التالي في رفقة نفر قليل من الجند المهندمين المسلحين للقاء ضيفه في بير علي. نزل الباشا في خيمة طبيبه، فليس له في بير علي منزل آخر سوى الخيام التي كانت تؤوي حريمه. وبعث الباشا طبيبه إلى سادلير يستدعيه إلى لقاء طلب بأن يكون مقصوراً على السلام والتحية من دون مراسم أو خوض في المهمات الرسمية. ورحّب الباشا بسادلير، واعتذر له عن تجشّمه الصعاب خلال رحلته الطويلة للقائه، فيما أبدى سادلير للباشا أسفه لأنه لم يتمكن من لقائه في الدرعية ليقدم له تهانئ حكومته في تلك البقعة التي شهدت قمة انتصاراته. يقول سادلير إن الباشا انتابه شعور غامر بالزهو، إذ طارت أخبار انتصاراته حتى وصلت كلكتا، وإن حكومتها قد قابلت تلك الأخبار بالاستحسان. ويقول سادلير إن الحديث دار بينهما في ذلك المجلس – حيث استضافه الباشا بتدخين "الشيشة"

والقهوة التي قدمت لمن في المجلس في أكواب مفضضة، فيما قدمت للباشا في كوب مُرصّع بالألماس - في بعض الشؤون العامة الخاصة بالهند وتأسيس البريطانيين حكومة هناك. ويرى سادلير أن معرفة الرجل بتلك الأمور كانت سطحية جداً. وتجاذب الرجلان أطراف الحديث في شؤون مختلفة. وطالت فترة الزيارة حتى منتصف الليل، "وكنت أخشى أن تستمر إلى مطلع الفجر". وحين همّ الباشا بالانصراف، قدّم لضيفه قليلاً من التبغ (النشوغ) من علبة مرصعة بالألماس، وأخبره أنه لن يمكث في بير علي لفترة طويلة، إذ سيغادر في عصر اليوم التالي، مضيفاً أنه سيزوره في خيمته في صباح الغد للتباحث في المهمات المكلّف بها.

وفد الباشا في صباح اليوم التالي إلى خيمة ضيفه وهو يحمل بين ذراعيه ابنه عثمان، فيما كان ضابط من مرافقيه يحمل له ابنته فاطمة. وبادر سادلير إلى تقديم الخطاب الذي كُلّف بتوصيله إلى الباشا والهدية التي كانت عبارة عن سيف. وجاء في هذا الخطاب المؤرخ في ٢ يناير ١٨١٩ ما يأتي: "... لقد سرّني ما بلغني من النجاح الباهر الذي حققته جيوش الدولة العثمانية بقيادتكم. فحين وردني نبأ احتلالكم الدرعية انتهزت هذه السانحة كي أهنئكم على شجاعتكم الباهرة وحسن تقديركم ودقة خطط جيشكم المحكمة، ما حقق هذه النتيجة العظيمة ألا وهي سقوط تلك القوّة التي نمت نمواً سريعاً حتى باتت ذات خطر جليل، فوقع على سعادتكم مسؤولية إخضاعها. وهذه التهنئة هي تعبير عن الصداقة التي تربط بين حكومتي الهند ومحمد علي باشا وتقدير لصداقته وصدق نواياه تجاه الحكومة البريطانية. وقد نما إلى علمي أيضاً أنكم تزمعون استخدام جيوشكم المظفّرة لردع الشيوخ المتمردين الآخرين، خاصة شيوخ القواسم، وقسرهم على الطاعة. ولعلكم تدركون ما تقوم به هذه القبيلة من عمليات قرصنة في الخليج الفارسي، الأمر الذي أدرجهم في مصافّ أعداء الحكومة البريطانية. وأرى أن قيام حملة مشتركة يتعاون فيها الجيش الذي يقوده سعادتكم مع حملة أسطولية تسيّرها الحكومة البريطانية سيكون أمراً مثمراً ومرغوباً فيه... أرفق لكم مع هذا خطاب الحاكم العام بالتهنئة على نجاحكم الباهر وتصميمكم الذي تجسّد في تدمير القوّة الوهابية. كما يطيب لي أن أشيد بشجاعة قواتكم. إن التقدم السريع الذي حققته قواتكم في اتجاه سواحل الخليج يقودني إلى الاعتقاد بأنها تتمكن من أن تقضي على القواسم الذين يودون بأمن الخليج، فقد عمّت عمليات القرصنة التي يقومون بها سواحل شبه الجزيرة العربية وتجاوزتها لتصل إلى مكران. وقد أصابت تلك العمليات نجاحاً كبيراً. وسترسل الحكومة البريطانية حملة أسطولية إلى الخليج فور انتهاء فترة الرياح الموسمية ويمكن سعادتكم التعرف إلى خطط هذه الحملة للتعاون معها وذلك بالتفاوض مع سادلير، الضابط الذي يظفر بتمام ثقتنا...".

أظهر الباشا امتنانه للتهانئ الواردة في الخطاب، كما أبدى إعجابه بالسيف وجرابه، وامتدح ذوق الحاكم العام للهند. وعندما استلّ الباشا السيف من جرابه الذي امتدح أسلوب

صناعته، قال إن هذا السيف من أكثر السيوف التي سبق له أن شاهدها روعة وجمالاً. وطلب الباشا إثر ذلك من مرافقيه الانصراف. ودار الحديث بعد ذلك عن أهداف الرحلة، واعتذر الباشا بأنه لا يملك أن يقطع في هذا الشأن بشيء، فالأمر يرجع إلى والده. وطلب الباشا إلى سادلير أن يكتب إلى سولت في مصر ليناقش الأمر مع محمد علي باشا شخصياً، ووعد من جانبه برفع الأمر إلى والده وبأن يبلغه نتيجة اتصاله حين يلتقيه بعد الحجّ في جدّة. ورغم أن الباشا حاول أن يُلقي في روع ذلك الضابط البريطاني أنه العسكري الذي لا يُبارى، أشار إليه صراحة بأن الأمر كله بيد والده، وأنه كُلف بمهمة تدمير الدرعية نتيجة لأمر من الباب العالي لوالده شخصياً، أما هو فلا يدرك من أبعاد هذه الحملة شيئاً ولا الهدف من ورائها، فكل ما يهمّه منها هو تنفيذ أمر والده. وأضاف أنه قد قام بما كُلف به، وأن عليه الانتظار لتلقّي أوامر جديدة من والده.

أمر الباشا بتجهيز وجبة الإفطار، فأعدّت المائدة على عجل، وأخذ الباشا مكانه على رأس المنضدة. ويذكر سادلير أن أدب المائدة التركي يقضي بأن تقدّم الأطباق تباعاً، واحداً تلو الآخر، على أن يأكل الضيوف كلهم جماعة من الإناء ذاته مستعملين الملاعق الخشبية، لكن الباشا تبنّى أدب المائدة الإنجليزي وبرع في استعمال الملعقة والشوكة والسكين. ولم يغادر الباشا هذا النمط إلا في عدم تقديم الشاي على المائدة حيث وضع الشربات عوضاً عنه. وجاء الخدم، بعد أن رفعوا المائدة، بالقهوة والتبغ (الشيشة). وظلّ الباشا في خيمة ضيفه حتى الساعة الحادية عشرة وهو يتطرق إلى مواضيع مختلفة، منها العلاقة بين شاه فارس وبريطانيا. وطلب الضابط إلى الباشا أن يرافقه في طريقه إلى مكّة على أن يواصل سيره من دون دخول البلدة المقدسة إلى جدّة لينتظره هنالك ريثما يفرغ من أداء مناسك الحجّ ليبلغه نتيجة اتصاله بوالده. ووافق الباشا على الاقتراح أولاً، ولكنه عاد وتراجع عنه، وطلب إلى ضيفه أن يسير في صحبة قافلة الحريم إلى ينبع حيث سيغادرن من هناك إلى السويس، وأضاف الباشا أنه ينوي أيضاً المغادرة بعد الحجّ إلى السويس. وفي ١٠ سبتمبر كتب سادلير إلى سولت خطاباً شرح فيه بالتفصيل ما لاقاه من عنت في رحلته وراء الباشا، وطلب إليه تحريض محمد علي باشا على التعاون عسكرياً مع سلطات الهند لاستكمال تأمين الجزيرة العربية بهزيمة القبائل التي توالي الوهابيين.

الرحلة إلى ينبع

تقرّر أن تبدأ رحلة حريم الباشا إلى ينبع في يوم ١٥ سبتمبر في قافلة تضمّ نحو ثلاثمئة من أجود الخيول العربية التي انتقاها الباشا من مختلف أرجاء الجزيرة العربية لتنضمّ في مصر إلى

مجموعات أخرى كان الباشا قد بعث بها إلى هناك، الأمر الذي سيحرم الجزيرةِ العربية لعدّة سنوات مقبلة من أصائل الخيل. وأشار سادلير إلى أن أصحاب الخيل الأصيلة كانوا يتحاشون الظهور بها في معسكرات الباشا حتى لا تصادر ويعود صاحبها الطامع في بيعها بخفّي حنين، ما يجعله مكان سخرية الجميع واستهزائهم. ويذكر سادلير أن البدوي الذي يعرض خيله للبيع لا يمانع في فحصها، بل ربما يأتي بشهادة مكتوبة توثّق نسبها. ويدخل البدوي البائع والمشتري المسافر عابر السبيل في مساومة عادة ما تنتهي إلى أن يصيب البائع المبلغ الذي يرغب فيه. أما في أوساط البدو، فعادة ما يتم التقايض بعدد معلوم من الإبل للفرس أو الحصان.

بدأت الرحلة إلى ينبع في السابعة صباحاً متوجهة نحو الغرب. وسار ركب الحريم في عرباتهن التي يصفها سادلير بغير المريحة في مقدمة القافلة. تتكوّن هذه العربات من عمودين طويلين متوازيين يُربطان أحدهما إلى الآخر عند منتصفهما بمسطبة أقيمت فوقها سدّة كُسيت بإحكام بأقمشة غليظة لا تحجب النظر فقط ولكنها تمنع أيضاً مرور الهواء إلى داخلها. يرفع هذا الجهاز وتثبت أطراف العمودين على سرجي جملين أحدهما في مقدمة الآخر. ويبرز رأس الجمل الذي يسير خلف الآخر فيما بين العمودين حتى يتمكن من رؤية الطريق. ويضيف سادلير أن وسيلة النقل هذه قد استعملت سلفاً في ترحيل المدافع القصيرة ومدافع المورتارز ومعدات ثقيلة أخرى تطلّبتها الحملة. وبالطبع فإن تلك المعدات لم تكن تغطى بهذا القماش السميك. ويعتقد سادلير أن إبل شبه الجزيرة العربية التي هي أكثر نشاطاً وأبلغ سرعة وأقل تحملاً من الإبل المصرية غير مهيأة لهذا النمط المرهق من العمل. فالإبل العربية تبدو حيوانات رقيقة ضامرة حين تقارن بالإبل المصرية. تعيش الأولى على عشب الصحراء وشجيراتها، بينما تُعلف الأخرى – التي هي حيوانات ثقيلة وضخمة تمشي في خطوات ثقيلة بطيئة – بكميات من الذرة الشامية وصنوف العلف الأخرى.

توقف الركب في الساعة الخامسة مساءً عند بئر في سفح تلٍّ يقوم في أعلاه برج صغير أبيض اللون في منطقة تكسوها شجيرات زاهية وأشجار. وفي الساعة الخامسة من صباح يوم ١٦ سبتمبر تحركت القافلة عبر وادٍ تحيط به جبال وعرة، ثم توقفت في الساعة الثانية عشرة عند بئر يتيمة في قرية الجديدة، وهي قريةٌ بائسة بُنيت أكواخها بالأحجار. وفي تقديرنا إن سادلير كان يشير إلى قرية الجديدة، وهي من قرى وادي الصفراء وتبعد عن بدر بمقدار ثلاثة كيلومترات. ويلاحظ سادلير أن قسماً من هذه القرية قد بُني على جانب الجبل، فيما بُني القسم الآخر على حافة الوادي الذي لا تطرقه الشمس إلا لثلاث ساعات فقط في اليوم، ما يجعل الجو في القرية وخيماً غير صحي. يوجد في هذه القرية ماء وفير جيد، وفيها مزارع نخيل وحدائق أخرى متعددة تنتج البطيخ والعجور والخضر المختلفة، إلا أن أصنافها غير جيدة. تسكن هذا الوادي قبيلتا مسروح وميمون (كلا الفريقين ينتمي إلى حرب). وقد نحت رجال القبيلتين

في قمم الجبال المحيطة دروباً ومسالك تمكنهم من التجمع السريع. ويمكن القبيلتين أن يجمعا قوّة كبيرة للدفاع عن مدخل واديهم، ولهم من أسلحتهم التي تتكوّن من البندقيات الصغيرة والمسدسات وما شابه ذلك، ما مكنهم من الدفاع عن أرضهم ببسالة حين زحف طوسون باشا عليها. و لم يتمكن الباشا من عبور ذلك الوادي إلا بعد أن دفع ثمناً باهظاً من دماء رجاله. تحركت القافلة في الرابعة من صباح اليوم التالي، ووصلت عند ظهر ذلك اليوم إلى قرية حمرة (الحمراء)، وتزودت هنا بعض الماء، وارتوت الإبل التي لم ترد الماء منذ أن غادرت بير علي.

تحركت القافلة في الساعة الرابعة صباحاً في يوم ١٨ وتوقفت في الساعة الحادية عشرة صباحاً عند بئر بعيدة الغور لكنها طيبة الماء. ويضيف سادلير في كتابه أن ركبهم وصل بعد ثلاث ساعات من مغادرته الحمراء إلى تلٍ يتفرّع من عنده طريقان؛ يتجه أحد هذين الطريقين جنوباً ويسير في اتجاه جدّة ومكّة المكرّمة، أما الآخر فيتجه غرباً إلى وادي السلطان. وقد سلك الركب الطريق الثاني فوصل في الساعة الحادية عشرة إلى بير سلطان وفيها بئر طيبة المياه تقوم بقربها أطلال مسجد. تحركت القافلة في الثالثة صباحاً في يوم ١٩ وسارت حتى بلغت ملحا (تسمى الآن المملحة أو العذيبة) ذات المياه المالحة العسرة في الساعة الرابعة من يوم ٢٠. ويشير سادليرإلى أن الطريق من المدينة المنوّرة حتى هذا الموقع يتبع الأودية العميقة الضيقة التي تحيط بها جبال عالية جرداء جافة. وعلى الرغم من أن أرض هذه المناطق حصوية، إلا أن أوديتها تضمّ بعض الشجيرات. ويلاحظ سادلير أن طبيعة الأرض تتغير عند ملحا، فتنفتح على سهل كبير يُحدّ من الغرب بالبحر الأحمر الذي ترقد ينبع على سواحله. وقد وصلت القافلة إلى ينبع في العاشرة من صباح يوم الثاني من ذي الحجة/٢١ سبتمبر.

ينبع وضواحيها

يرى سادلير في ينبع ميناءً عربياً متواضعاً. ويذكر أن الميناء محاط بسور شُيّد بالحجارة لكنه متداع رغم أنه قد بُني حديثاً على أنقاض سورٍ قبله. ويضيف أن المساحة التي يحيط بها السور تكفيَ لبناء خمسة أمثال المنازل القائمة فعلاً. ويعتقد أن هواء المدينة فاسد وغير صحّي جرّاء وجود هذه الساحات التى تراكمت فيها أكداس من القمامة وجيف الخيل والإبل النافقة.

يشرب سكان المدينة من المياه التي يجمعونها في موسم الأمطار ويحتفظون بها في حفر (مخازن) عميقة مغطاة. ويرى سادلير أن هذا المورد غير مضمون، فقد حدث أن انحبس الغيث لثلاث سنين متتالية، ما أورث المدينة شُحّاً في الماء، وخاصة أن آبار المدينة رديئة المياه تنبعث منها رائحة نتنة، ما يجعل ماءها شديد الشبه بالماء المرتجع من بؤرة السفينة. ومع ذلك، يمكن أهل المدينة الحصول على ماء جيد من آبار أخرى تبعد عن البلدة حوالى ثلاثة أو أربعة أميال.

يلاحظ سادلير وجود مدينة أخرى تحمل اسم ينبع تقع على مسافة ما إلى الجنوب قليلاً. وعلى الرغم من أنه لم يزرها لانحراف صحته وللجو القائظ الرطب الذي كان سائداً، يفيد بأن تلك المدينة تقع في منطقة تتوافر فيها المياه الجيدة، كما أنها عامرة بالحدائق التي تنتج الفواكه والخضر، وتمدّ الميناء بما يحتاج إليه من المواد. وحين راودت سادلير الرغبة في أن يروّح عن نفسه ويتغلب على مرضه والجو القائظ بزيارة تلك المنطقة ذات المروج الخضراء والمياه الوفيرة، نصحه البعض بألا يفعل، فتلك المدينة الداخلية غير صحية، وهي في هذا الصدد أبلغ وخامة من الميناء.

نهاية الرحلة

ركب سادلير في اليوم الأول من المحرم ١٢٣٥/١٩ أكتوبر ١٩١٩ مركباً أقلّه إلى جدّة في رحلة بحرية استغرقت منه أربعة أيام. والتقى هذا الضابط بإبراهيم باشا هناك مرتين، وكان الباشا قد أظهر في البداية عدم اكتراث به و لم يستدعِه إلا بعد أن أبدى سادلير عدم ارتياحه لتلك المعاملة. و لم يكن سادلير سعيداً بلقائه إبراهيم باشا الذي جرى في جدّة للمرّة الأولى في يوم ٢٩، فقد وصمه في كتابه بأقذع الألفاظ.

"لقد قُدّر لي أن أتعامل مع شخصية إبراهيم باشا التي لا تعكس إلا القسوة والهمجية وعدم الوفاء بالعهود، حتى المقدسة منها. كان الباشا ينهب الجميع لا يستثني حتى تلك القبائل التي أسهمت في إنجاح حملته، كما كان يصادر ممتلكات أتباعه الذين دانوا له بعد هزيمتهم بالتبعية، واعتقدوا أنهم باستسلامهم له سيكونون بمنجاة عن سطوة غضبه. لقد سقط كل هؤلاء وأولئك تحت رحمة هذا الباشا المتعطش إلى سفك الدماء".

لم يتلقّ سادلير من إبراهيم باشا الرد على اقتراحات الهند الذي كان قد وعد به بعد استشارة أبيه. وحين طلب سادلير مقابلة الباشا مرّة أخرى، حدد له يوم السادس عشر من نوفمبر. وجرى خلال هذا اللقاء التفاكر بشأن الرد الذي يمكن أن يقدم إلى الماركيز هاستنج والهدايا التي يمكن أن تقدم له. وبعد أن جرى الاتفاق على الصيغ والألقاب التي يجب أن يخاطب بها هاستنج، أمر الباشا بفرس وحصان هدية للحاكم العام، و لم يسمح لسادلير بمعاينة الخيل قبل نقلها إلى الميناء. وأتى الخدم باللوازم المكملة للهدية، وكانت عبارة عن سرج مهترئ ولجام قديم. واحتجّ سادلير بأن هذه المعدات القديمة لا تليق بمقام هاستنج واعتذر عن عدم قبولها وأعادها إلى الباشا الذي ما كان منه إلا أن أمر بإلغاء أمره السابق، وأمر بعدم إرسال الخيل إلى الحاكم العام وتمزيق مسوّدة الكتاب المرسل إليه، وزاد الباشا بأن أبلغ سادلير بأنه سيردّ حال وصوله إلى القاهرة الهدية التي سبق أن تلقّاها من الهند.

غادر الباشا جدّة إلى القصير في يوم ٣٠ محرم/١٧ نوفمبر. وما إن دوّت طلقات المدافع بتحية وداع الباشا من البر والبحر - في ما يقول سادلير - حتى عمّت الفرحة وجوه أهل جدّة الذين سرّهم أنهم قد أفلتوا من قبضة طغيانه، ولم تكن الفرحة بادية على أساريرهم فحسب، ولكنها عكست نفسها في تجمعاتهم أيضاً. وفي اليوم التالي لمغادرته زار تجار جدّة الذين تربطهم علاقات مالية مع الإنجليز مع الريس حسن، الحاكم المعين حديثاً لجدّة، والعربي الجيلاني أحد الأفراد من المنحدرين من عائلة كانت تقدم من خلال علاقاتها بالأشراف خدمات جلّى للإنجليز، واعتذروا له بأنهم لم يظهروا ترحيبهم به في وجود الباشا لموقف الباشا منه. أما العربي الجيلاني الذي كانت علاقاته بالأتراك حسنة، فهو كذلك لم يتدخل لمساعدة سادلير الذي علّق بقوله "إن خوف الرجل من مسدس الباشا كان أثره أكبر من ذهب الإنجليز".

يذكر سادلير أن جدّة كانت تزدحم في تلك الفترة بعد موسم الحجّ بالمسلمين من كل لون وعرق، واكتظّت شوارعها بالحجاج الفقراء الذين افترشوا الشوارع حتى ضاقت بهم ولم يعد الانتقال عبرها من مكان إلى آخر متيسراً. ويذكر أيضاً أن مخيمات الحجيج كانت تنتشر خارج المدينة، وأن أعداد من يقطنها تصل إلى نحو ثلاثين ألفاً من الهنود الذين قدموا عبر سورات وملبار وكلكتا، إضافة إلى أهالي السند وماليزيا، وكذلك تركيا التي يفضّل حجاجها الطريق البحري على البري. كذلك يسكن تلك المخيمات أيضاً القادمون إلى جدّة عن طريق البر أو البحر من عمان وسواحل البحر الأحمر وأعداداً من المغاربة أيضاً.

ظلّ سادلير ثاوياً في جدّة في انتظار أن تهيّئ له الظروف مركباً يقلّه إلى الهند. وفي يوم ٨ ربيع الثاني ١٢٣٥/٢٣ يناير ١٨٢٠ وصلت الفرقاطة الإنجليزية برنس أوف ويلز فاستقلّها سادلير ووصل بعد رحلة مضنية - كما يقول - إلى بومباي. (وصل سادلير إلى المخا في ١١ فبراير وثوى فيها لستة أسابيع قبل أن يتمكن من مغادرتها إلى بومباي التي بلغها في ٨ مايو ١٨٢٠). وهكذا انتهت هذه الرحلة التي قطع فيها هذا الضابط الجزيرة العربية من أقصاها في الشرق إلى أقصاها في الغرب، وكان له السبق في هذا المضمار على كل الرحالة السابقين له. فهل كان الرجل فعلاً جوالاً من الملح حُمل من ساحل في شبه الجزيرة العربية إلى ساحلها الآخر من دون أن يحقق هدفاً أو ينجز شيئاً؟ ربما كان ذلك صحيحاً.

سادلير يكتب في إبراهيم باشا وإنجازاته

يقول سادلير: "بعد أن فرغت من بيان ما كان من أمر رحلتي من القطيف إلى جدّة، سأحاول أن أرسم صورة صحيحة عن حياة إبراهيم باشا وما وقع في حملاته الأخيرة في شبه الجزيرة

العربية، وذلك اعتماداً على الحصيلة التي تيسّرت لي من أفواه الذين شاركوا في الأحداث وذلك بعد تمحيصها بالمقارنة بينها".

يبدأ الرجل بالقول إن المشهور أن إبراهيم باشا هو ابن محمد علي باشا، ولكنه ولد بعد أشهر قليلة بعد زواج أمه بأبيه، ما جعل البعض يذهب إلى أنه ابن بالتبني فقط. ويجدر بنا أن نذكر أن ابن بشر قد أشار بدوره حين كتب ".. ركب إلى مصر رجال من أهل القصيم والبوادي وزخرفوا القول لصاحبها وتلقّى قولهم بالقبول. فشمّر في تجهيز العساكر إلى نجد مع ابنه وابن زوجته إبراهيم وذلك بتقدير العزيز العليم" **(ابن بشر، سبق ذكره، ج١، ص ١٨٧)**.

يستطرد سادلير فيقول إن إبراهيم قد قضى في إستانبول عاماً رهينة لدى السلطان، ولكنه ما إن عاد إلى مصر حتى عُيّن دفترداراً للقاهرة، وقد أظهر في هذه المهمة براعة فائقة ونظّم شؤون الدخل، ولكن عُرف عنه أنه سيّئ الخلق قاس لا يرحم، فقد طاولت قسوته حتى العاملين معه. وأصاب إبراهيم بك بعد ذلك شهرة كعسكري شجاع حين قاد فرقة من ثلاثمئة من الفرسان خاض بهم حرب محمد علي ضدّ المماليك، انتهت بذبح جميع من وقعوا منهم في أسره وقتل الآخرين منهم الذين كانوا يقيمون في قرى صعيد مصر. وجرى بعد ذلك تعيينه لجمع ضرائب مصر العليا وقائداً للجيش الذي حشد لقتال المماليك، فهاجمهم ففرّوا من أمامه ودفع بهم إلى ما وراء إبريم (وهي قرية تقع حالياً في النوبة المصرية). وعاد إبراهيم بك بعدد من أسرى المماليك إلى إسنا (في صعيد مصر) جعلهم في مجموعات وأوكل حراسة كل مجموعة منهم إلى بعض من يثق بهم. وحين عاد إلى القاهرة بعث إلى محمود أفندي، المهردار التابع له في الصيد، أن يقتل جميع أولئك الأسرى، فامتثل الرجل لأمر سيده وافتتح المجزرة بيده شخصياً.

عُيّن البك إبراهيم في عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩ حاكماً على مصر العليا مع احتفاظه بمنصبه دفترداراً، وعمل البك على تنفيذ توجيهات والده للعمل على رفع مدخول الخزينة، وأنفق مبالغ باهظة في تنشيط الزراعة. وظلّ البك في سلوكه العام عنيفاً قاسياً. أمر البك في سانحة ما بأن يُشوى أحد الأقباط حياً على سفود، وفي سانحة أخرى اتهم فيها أحد الأقباط بخيانة الأمانة، أصدر البك أمره بأن يوضع الرجل فوق كومة حطب مشبع بالزيت ثم أشعلها ناراً. ويلاحظ سادلير أن عقوبات الباشا لا تشمل المجرمين فقط، بل تتعداهم حين يكون غاضباً معكر المزاج إلى الآخرين لا يستثني من ذلك حتى خواصّه والتابعين لأسرته. ولا ندري لماذا ركز سادلير على حادثتي قتل اثنين من الأقباط رغم أنه يشهد بأن ضحايا الباشا أكثر من أن يشملهم الحصر. وعلينا أن نلاحظ أن الأقباط قد حظيوا بمناصب إدارية ممتازة في جيش إبراهيم باشا، فيما أصاب النصارى في سائر البلاد التي دانت للباشا مكاسب ووظائف لم تكن لهم سابقاً. ويستطرد سادلير فيقول إنه إذا حاول أن يستقصي سرد الحوادث غير الإنسانية التي رُويت له عن البك والظروف التي جرت فيها وأسماء الضحايا لانتفخت سجلاته إلى حدّ كبير

ومثير. جرى في عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ترفيع البك إلى باشا بطوغين وعُيّن حاكماً لجرجا، فعمل في هذه الفترة على أن يكافح غلظة طبعه ويكبت قسوته تبعاً لمقتضيات الوضع الجديد، وأخذ يقلد المزاج الأوروبي، وصارت كأسه مترعة بالخمر أبداً. وفي عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م أسندت إلى الباشا قيادة الجيش الزاحف إلى شبه الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين. كان التخطيط أولاً أن يتكوّن هذا الجيش من المتطوعين، ولكن الأعداد التي تقدمت للمهمة كانت غير كافية، ولذلك أمر إبراهيم باشا كل جنود الفرقة التي كانت تحت قيادته أن تشارك في الحملة. وأمر الباشا كل فارس من فرسانه بأن يحصل على بعير يحمل عليه متاعه ويمتطيه حين يصبح لزاماً عليه أن يريح حصانه. يقول سادلير إن الخيل المصرية غير مهيّأة لتحمل المشاق الجسيمة، وإنها أقل سرعة في العدو مقارنة بالخيل العربية، ومن ثمّ صدر أمر الباشا بإراحة خيل فرسانه حتى لا تفقد نشاطها. ولكن بما أن الحكومة لم تعمل على مدّ الفرسان بما يتطلّبه الأمر من الإبل، فقد دار همس في أوساط الجند عن السبب الذي يجعلهم يتحملون عبء هذه البدعة المستحدثة.

صدرت الأوامر للفرسان الذين كانوا في القاهرة أن يتقدموا إلى السويس، أما المشاة فقد أقلّتهم السفن من القصير إلى ينبع على دفعات متتالية. وقد أبحر الباشا نفسه في هذا الطريق وأقام معسكره في ملحا قرب ينبع، وظلّت قواته في معسكرها ذاك لأربعين يوماً في انتظار أن يزوّدها البدو بالإبل والمستلزمات الضرورية الأخرى. ويلاحظ سادلير أن قبائل جهينة وميمون وعوف ومسروح تقطن المنطقة الممتدة من ملحا في اتجاه المدينة المنوّرة. وكان الباشا ينتظر أن تأتيه هذه القبائل بالدعم طواعية ولكنهم لم يفعلوا. فأرسل الباشا حملة ضدّ قبيلة جهينة عادت من هنالك بألف من الإبل وألفين من الغنم غنيمة. ولم تخسر هذه السرية في هذه الحملة سوى رجلين فقط، فيما خسر البدو نحو مئة وخمسين رجلاً. ولعل في هذا ما يفيد بعدم تكافؤ القوى بين القبائل والجيش الغازي. ومع ذلك فقد خسر الباشا نحو أربعمئة من رجاله في ملحا جراء انتشار الوباء في أوساطهم. وحين بدأ الجيش يتحرك في اتجاه الحناكية، ضمّ في ركابه نحو مئتين من سلاح الفرسان التركي ومثلهم من خيالة المغاربة، إضافة إلى تسعمئة من المشاة يجرّون معهم ثلاثة مدافع. ووصلت بعد ذلك سرية من نحو أربعمئة فارس بقيادة عازون علي أحد الضباط المشهورين. وكان طوسون باشا قد أوكل إليه حراسة المدينة المنوّرة حين غادر إلى مصر. ووصل إبراهيم باشا إلى الحناكية وأقام معسكره هنالك لمدة خمسة وعشرين يوماً قبل أن يرسل سرية على قبيلة حرب، رجعت منهم بألف وخمسمئة من الإبل وستة آلاف رأس من الغنم وكميات وفيرة من التمور. وأبدى العديد من شيوخ البدو بعد أن أصابهم الرعب جراء تلك الغزوات التي اتسمت بروح النهب رغبتهم في الانصياع لأمر الباشا. وتقبّل الباشا منهم عرضهم المساعدة بسرور، وأصاب بدعمهم له قوّة كبيرة عزّزت من قدرات قواته. وأرسل الباشا بعد ذلك غزواً آخر ضدّ قبيلة عتيبة التي كانت تسيطر على الصحراء الواقعة بين مكة

المكرّمة والدرعية. غير أن هؤلاء البدو الذين عرفوا قبل وقت كاف خطة الباشا خبّأوا إبلهم وأغنامهم، وهربوا من وجه تلك السرية التي لم ترجع له إلا بسبعة عشر رجلاً من أولئك البدو أسرى أهدر الباشا الغاضب دماءهم وشرع بنفسه في ذبحهم بسيفه الخاص. فقد أزعج الباشا الفشل المريع الذي صادفت حملته، خاصة في رجوعها إلى معسكرها. فقد عانت من نقص المؤن التي كانت تخطط للظفر بها، كما عانت من العطش، إذ تمكن البدو من طمر كافة الآبار التي تقع في طريق عودة الحملة التي لم ترجع من الغنائم بشيء. وحين عاد الباشا من هذه الحملة الخاسرة بلغه خبر ترفيعه إلى باشا من ذوي الثلاثة طوغات، وكان عليه أن يذهب إلى المدينة المنوّرة ليتسلّم الخلعة وينشر الفرمان القاضي بترفيعه. ويفيد سادلير بأن الباشا ما إن وطئت قدماه الأراضي المقدسة حتى حرّم على نفسه تعاطي الخمور التي كان يحتسيها قبل ذلك في السر، وأمر بإهراق كافة ما تبقّى من كميّات الخمور التي كان قد جلبها من القاهرة.

عاد الباشا من رحلته إلى معسكره في الحناكية مرّة أخرى، ووفد إليه هناك شيوخ عنيزة ورؤساء قبائل أخرى، وجرى في اللقاء تبادل تأكيدات الصداقة المشتركة والوعود ببذل كل طرف مساعدته للطرف الآخر. وبعث الباشا سرية ضدّ عرب شمّر كانت مكوّنة من ستمئة من سلاح الفرسان التركي وألف فارس من البدو وخمسمئة بدوي على الإبل التي أمدته بها القبائل التي دخلت في الطاعة أخيراً جراء تلك الحملة. وحين وقعت المعركة وُضع هؤلاء البدو في المقدمة يليهم سلاح الفرسان الذي كان يقسر البدو على التقدم ويمنعهم من التقهقر. وكانت النتيجة أن خسر البدو نحو ألفي قتيل وثلاثمئة جريح، فيما لم تتجاوز خسائر الأتراك خمسة قتلى وجريحين فقط.

أرسل الباشا القائد عازون علي على رأس كتيبة من الجيش تجرّ مدفعين إلى ماوية بناءً على ما أشار به بعض شيوخ البدو من مناصريه لردع جماعة الوهابيين الذين بدأوا بشن هجماتهم على مواطن القبائل التي حالفت الباشا. وتقدم الدويش شيخ قبائل مطير إلى ماوية لقتال كتيبة الباشا، ولكنه تراجع حين بلغته أنباء انتصار عازون علي على الوهابيين. بلغت الجموع الوهابية التي كان يقودها عبد الله (رئيس طائفة الوهابيين) بنفسه نحو عشرة آلاف مقاتل ركوباً على الهجن، لكنهم ما لبثوا أن هُزموا أمام قوّة عازون الأقل عدداً. ويمكننا أن نلقي نظرة على ما كتبه ابن بشر في هذا الصدد: "ثم دخلت السنة الثانية والثلاثون بعد المئتين والألف والعساكر المصريون في الحناكية مع إبراهيم ومعه البوادي المذكورون (بوادي مطير وحرب وعتيبة وعنزة الدهامشة)، وهو يغير على بوادي نجد. فأغار على الرحلة من قرب عند إبانات، الجبلان المعروفان في نجد، فأخذهم وقتلهم. ثم إن عبد الله بن سعود أمر على بعض النواحي من الوشم وسدير أن يتجهزوا بشوكتهم إلى القصيم، فساروا إليها ثم أمر على شوكة أهل القصيم أن تجتمع بهم فاجتمع أهل تلك النواحي ورئيس الجميع حجيلان بن حمد

ونزلوا بالغيل، الموضع المعروف بين الخبرا وبريدة، فأقاموا فيه حوالى أربعة أشهر. ثم إن عبد الله تجهز غازياً من الدرعية لعشرة بقين من جمادى الأولى وقصد ناحية الحجاز، ونزل قرب الرس، واستلحق الشوكة التي مع حجيلان في القصيم، وسار مسنداً وادي الرمة حتى نزل العلم، الماء المعروف، وهو يريد الغارة على بوادي الذين مع الباشا، فأنذروا عنه ورحلوا عنه إلى الحناكية ونزلوا على الباشا، فلما علم ذلك عبد الله نزل مسكة القرية المعروفة في عالية نجد ونزل علية وأقام فيه عدة ايام، ثم رحل منها وسار إلى نجخ، القصر المعروف في عالية نجد، ونزل عليه وأقام فيه أياماً، فبلغه أن علي ازن ومعه عسكر من الترك وبوادي كثيرة ساروا إلى ماوية، الماء المعروف قرب الحناكية، بينه وبينها يومان فنزلوها فتجهز عبد الله من خبرا نجخ يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة، وأحضر ثقيل القش في القصر وقصد ماوية. ولما كانت صبيحة الجمعة منتصف الشهر المذكور، فاض عليهم في ماوية بغتة وهم على مائهم، فحمل المسلمون عليهم حتى قربوا من محطة العسكر، فثور الترك مدافعهم، فخاف بعض البوادي الذين مع عبد الله. وانصرف عبد الله ومن معه ونزلوا قرب جبل ماوية قبالة الترك، فثبت الترك وبواديهم لما رأوه نزل ووجهوا مدافعهم إلى المسلمين ورموهم بها فأثرت فيهم. فأمر عبد الله على بعض المسلمين أن يرحلوا وينزلوا الماء، فلما همّ بالرحيل خافت البوادي وتتابعت فيهم الهزيمة ووقع في قلوبهم الرعب، فاتصلت الهزيمة في جموع المسلمين واختلطت الجموع بعضها في بعض، وتبعهم الترك والبوادي وقتلوا رجالاً وأخذوا كثيراً من السلاح وغيره سقط في الأرض من أهل الركايب. وركب عبد الله في كتيبة من الخيل وحمى ساقة المسلمين. وهلك في تلك الهزيمة بين القتل والأسر والظمأ نحو مئتي رجل. وهذا أول وهن وقع في المسلمين. ثم إن عبد الله قصد نجخ وحمل ثقله ونزل الخبرا ثم رحل منها إلى عنيزة ونزلها...» **(ابن بشر، سبق ذكره، ج١، ص ١٨٨-١٨٩)**.

يقول سادلير إن الباشا ما لبث أن وصل إلى مسرح العمليات وأصدر أمره بقتل جميع الأسرى الوهابيين، وذلك حتى يصلم آذانهم ويزيد بها أعداد الآذان التي كان يبعث بها هدية لأبيه في القاهرة. لقد وجد الباشا صعوبة في ترحيل الرؤوس المقطوعة، فاستعاض عن ذلك بترحيل الآذان فقط. وفي اعتقادنا أن الباشا عمل بذلك على تقليد البرتغاليين الذين اعتمدوا هذه الممارسة الهمجية حين وفدوا لاستعمار الشرق. ويلاحظ سادلير أن عدد قتلى تلك المعركة كان كبيراً جداً، وأنه حين مرّ بسهل ماوية في يوم ٢ سبتمبر وجد هناك كمّاً هائلاً من الهياكل العظمية التي نالت منها عوامل التعرية. ويشير إلى أن تلك المعركة كانت حاسمة في تحديد مصير عبد الله الذي لم يجد إثرها إلا التراجع إلى الرس ومن ثمّ إلى عنيزة فالدرعية، من دون أن يقابل الأتراك بعد ذلك في حرب مكشوفة أبداً.

حشد الباشا جيوشه في ماوية وكان فيها ستمئة من الخيالة وألف وأربعمئة من الجنود

النظاميين ونحو أربعمئة أو خمسمئة من الجنود المغاربة، إضافة إلى مئة من رجال المدفعية يعملون على ثمانية مدافع كبيرة ومدفع قصير ومدفع مورتارز أيضاً. وفي هذه الأثناء أرسل شيخ قبيلة مطير أحد أبنائه إلى الباشا مهنئاً بانتصاره، ثم شخص بعد ذلك بنفسه إلى معسكر الباشا بعد أن توصل الابن مع الباشا إلى اتفاق. ولقي هذا الشيخ ترحيباً من الباشا. ويضيف سادلير أن شيخ مطير كانت تحركه ضغينة ضدّ عبد الله، فقد كان الرجل موتوراً لأن الأول كان قد قتل اثني عشر رجلاً من شيوخ مطير من ذوي قرابة ذلك الشيخ. وحين دخل عرب مطير في حلف الباشا وموالاته، زاد ذلك في أعداد الإبل التي كانت تحتاج إليها الحملة لنقل معداتها، ما مكّن الباشا من نقل الذخائر والمؤن تمهيداً لحصار الرس.

وصل الباشا إلى الرس وأعلن في رجاله على مشارفها أنه لن يضرب خيام معسكره أو يأمر فرسانه بالنزول عن صهوات جيادهم إلا بعد أن يجتاح ذلك الموقع تماماً. وأمر الباشا الطوبجيباشي أن يتقدم بمدافعه إلى أسوار المدينة حتى يصبح على بعد ثمانين خطوة منها فقط ثم يرمي بقذائفه أقوى بروجها. ولما كانت قوات الأتراك في وضع مكشوف، فقد نالت منها نيران قذائف الرس، ما جعل عدد قتلى الأتراك يزيد على عدد قتلى مواطني المدينة المحاصرة بعشر مرات. وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ نيران المدفعية التركية، وطفقت تصبّ جامّ غضبها على البرج الرئيس والسور المجاور له لثلاثة أيام متتالية، ولكنها لم تنجح في إحداث ثلمة في الجدار تمكّنها من الدخول إلى المدينة. وقرر الباشا بعدئذ ردم الخندق الجاف الذي يطوق السور من الخارج، فأعدّ الجند حزماً من جريد النخل ربطوها بعضها بالبعض الآخر وشدّوا على الخندق الذي ردموه بجوالات ملئت بالقش. وانبرى نحو ستمئة من الجنود المختارين في محاولة لعبور الخندق وتسلق السور، ولم تسعفهم حزم الجريد وجوالات القش، فقد كانت غير كافية لردم الخندق. وازدادت معاناة الجند المهاجمين الذين غدوا بين نارين، حين راح الباشا ومجموعة المماليك المرافقين له يرمون بالنار أي جندي يحاول التقهقر، فيما كان المدافعون عن الأبراج والأسوار يرمونهم بوابل من النيران، ما جعل معاناتهم مأساوية حقاً. وزاد في حدّة المأساة أن الباشا أمر بعدم دفن جثث القتلى في تلك المعركة، فقد شغله عن دفنهم ما يعتقده من فشلهم في تحقيق النصر.

قاومت الرس الحصار لثلاثة أشهر ونصف الشهر أظهر فيها الوهابيون من الحنكة القتالية ما عجز عنه الباشا وقادته. أقام الأتراك في هذه الفترة منصّات عالية من جذوع النخل اعتلاها الجنود ليصوّبوا نيرانهم منها إلى داخل المدينة ولم يُجدهم ذلك. كذلك دفعوا بالمدافع إلى حافة الخندق، ولكن من دون طائل. وحاول الأتراك اقتحام المدينة مرتين، ولكنهم تراجعوا في المرتين، وقد تكبدوا خسائر فادحة وفقدوا نحو تسعمئة قتيل ومئة جريح. وعلّل الأتراك سبب الفشل بصلابة التراب الأصفر الذي شُيّد به السور، ويرفض سادلير هذا السبب ويرى

أن ذلك عائد إلى عدم يقظة الأتراك، وإلا فكيف يمكن تفسير دخول قافلتين إلى المدينة على غرّة من الأتراك بسلام، مع أن الأرض حول المدينة عبارة عن سهل مكشوف. ويضيف سادلير أن التكاليف التي تكبّدتها الحملة في الذخيرة والمتفجرات في ذلك الموقع وصلت إلى اثنين وخمسين ألف كرونة ألمانية على النحو الآتي:

- حمل أربعمئة جمل من الذخيرة استنزفت بالكامل حين أرسلت الحملة نيرانها على المدينة المحاصرة.
- ثلاثون ألف طلقة من الذخيرة الحية استُهلكت كلها حين صوّبت المدفعية نيرانها على المدينة.

طال أمد الحصار فاضطر الباشا إلى رفعه عن المدينة بالشروط الآتية التي ارتضاها أهلها:

- ألا تدخل قوات الباشا إلى المدينة.
- أن يدفع الأتراك قيمة ما يحتاجون إليه من المواد التي يحتاجون إليها من المدينة.
- أن تظلّ الرس محايدة إلى أن يتقرر مصير مدينة عنيزة.

في هذا الصدد يذكر ابن بشر وصول الباشا إلى الرس في خمس بقين من شعبان وأن أهلها ثبتوا. .. وحاربوه. وأرسل عبد الله المرابطة مع حسن مزروع والهزاني صاحب حريق نعام فحاصرهم الترك أشد الحصار، وتابعوا الحرب عليهم في الليل والنهار، كل يوم يسوق الباشا على سورها صناديد الروم بعد ما لا يجعل السور بالقبوس فوق الأرض مهدوم. فأنزل الله السكينة على أهل البلاد والمرابطة وقاتلوا قتال من حمى الأهل والعيال وصبروا صبراً ما له مثال. فلما هدمت القبوس السور بالنهار بنوه بالليل. وكلما حفر الترك حفراً بالبارود حفر أهل الرس تجاهه حتى يبطلوه، وفي بعض الأحيان يثور عليهم وهم لا يعلمون. وطال الحصار إلى اثني عشر ذي الحجة، وذكر أن الترك رموه في ليلة خمسة آلاف رمية بالمدافع والقنبر والقبس وأهلكوا ما خلف القلعة من النخيل وغيرها. هذا وعبد الله بن سعود وجنود المسلمين في عنزة على الحال المذكورة. وأرسل أهل الرس إليه إما أن يرحل إلى الترك ويناجزهم وإما أن يأذن لهم بالمصالحة. فأقبل عساكر وقبوس وإمداد من الترك كثيرة ونزلوا على إبراهيم ومن معه في الرس واستعظم أمره وكثرت دولته. فوقعت المصالحة بينه وبين أهل الرس على دمائهم وأموالهم وسلاحهم وبلادهم وجميع ما عندهم والمرابطة يخرجون إلى مأمنهم بسلاحهم وبجميع ما معهم. فخرجوا من الرس وقصدوا عبد الله وهو في عنيزة... (ابن بشر، ج١، ص ١٨٣).

غادر الباشا الرس إلى عنيزة التي آثر شيوخها بعد خمسة أيام من الحصار إبرام صلح معه وسلّموا له قلعة المدينة وسمح الباشا لحامية الوهابيين في المدينة بأن تغادر بأسلحتها وأمتعتها.

وتختلف رواية ابن بشر عما جاء عند سادلير حيث قال:

> ... إن الباشا ساق عليهم الترك فوقع بينهم قتال شديد في وسط النخل وخارجها. فقتل من الترك قتلى كثيرة وجرح عليهم جرحى عديدة فتكاثر عليهم إفزاع الترك. وجرح الأمير حمد بن يحيى ببندق جرحاً شديداً فدخلوا البلد واحتصروا فيها. ثم إن الباشا جر القبوس والقنابر والمدافع وجعلها فوق المرقب الشمالي، فرمى البلد منه رمياً هائلاً أرهب ما حوله من القرايا والبلدان من أهل سدير ومنيخ وأهل المحمل وغيرهم، حتى سمعه من كان بالعرمة ومجزل وما حولها. فلما أحصر أهل البلد فيها أنزل قبوسه ومدافعه وقنابره من رأس الجبل وقربها من السور وحقق عليهم الحرب والرمي المتتابع حتى قيل إنه رماها في ليلة بثلاثمئة حمل من الرصاص والبارود. وذكر لي رجل كان في وسطها قال: إن رصاص القبوس والمدافع والقنابر والبنادق يتضارب بعضها ببعض في الهواء فوق البلد وفي وسطها. ثم إنه هدم ما يليه من سورها وقطع نخيلها إلا قليلها وأهل البلد ثابتون في أكنافها يقاتلون. فقرب الباشا القبوس من السور وهدم ما يليه من الدور والقصور... وفي كل ليلة وليلة والباشا يناديهم ويدعوهم إلى المصالحة ويأبون عليه. فلما كان يوم الخميس وقعت المصالحة بين الباشا وبينهم... (ابن بشر، ج١، ص ١٩٠-١٩١).

يذكر سادلير أن الباشا تمكن بعدئذ من بريدة وأقام معسكره هناك لمدة شهرين كاملين في انتظار وصول الإمدادات. وغادر الباشا بعدئذ إلى شقرا وهمّ بقطع نخيلها، ما جعل مصالح أهلها تتقاطع مع واجبات الحامية الوهابية القابضة على قلعة المدينة، فلم تجد بُدّاً من التسليم، فسمح الباشا لها بالمغادرة بعد مصادرة أمتعتهم وسلاحهم.

ظلّ الباشا في الأشهر الثلاثة التالية من دون حراك في انتظار وصول الإمدادات، ثم تحرك بعد ذلك إلى ضرما التي كانت بلدة مزدهرة جداً. صدّ أهل المدينة الهجوم التركي أولاً، فحاصرتهم الحملة لأربعة أيام، ثم عاودوا الهجوم مرّة أخرى فألقت المدينة بمفاتيحها إليهم.

سمح الباشا لفلول حامية ضرما بالمغادرة بعد أن جرّدهم من أسلحتهم. وبما أن مزاج الباشا لم يكن معتدلاً، فقد سمح لجنده بأن يعملوا في أهل المدينة العزّل السيف لسبعة أيام حسوماً صلم فيها الجنود آذان من صادفوه من المواطنين وتلقوا من الباشا الجائزة المعتادة وقدرها خمسة كرونات ألمانية عن كل زوج من الأذنين. وقد أصاب الباشا كل هذه الانتصارات قبل بداية

شهر فبراير ١٨١٨، وهي فترة كان فيها الجو بارداً على نحو غير مألوف وماطراً. وقد تكرر هطل الأمطار الغزيرة في هذه الفترة. و لم تفت هذه الملاحظة ابن بشر، حيث ذكر "... هب السماء عليهم تلك الليلة بالمطر ومعه برد شديد يجمد منه في الجو القطر...".

تحرك الباشا من ضرما قاصداً الدرعية في جيش قوامه ألف وتسعمئة وخمسين رجلاً من المشاة، وأربعة آلاف وخمسمئة جندي من الأرناؤوط والأتراك، وألف وثلاثمئة من الجنود المغاربة، إضافة إلى مئة وخمسين مدفعياً ومئتي مهندس وواحد وعشرين "أسطى" وأحد عشر جندي تزويد. وكانت هذه المجموعة الأخيرة تشرف على تشغيل اثني عشر مدفعاً من ذوات الاثني عشر رطلاً وخمسة مدافع تركية ومدفع سويدي واحد ومدفعي مورتارز ومدفع واحد قصير. ويفصّل سادلير في كتابه هذه الأعداد على النحو الآتي:

- فرسان أتراك الباشا والأرناؤوط ٨٥٠
- فرسان عازون علي ٤٠٠
- فرسان رشوان آغا ٣٠٠
- فرسان البربر ٤٠٠
- المشاة البيادة والأرناؤوط ١٧٥٠
- المشاة البيادة الأتراك ٢٥٧٥
- المغاربة (البربر) ١٣٠٠

ويستطرد سادلير فيذكر أن الباشا بادر بالهجوم على قرية الفضول، وهي قرية كبيرة مسوّرة ذات أبراج من ضواحي الدرعية، تضمّ حدائق نخيلها الممتدّة بيوت المواطنين. وقد تمكن الباشا من احتلال هذه القرية في غضون سبعة أيام، انسحب بعدها الوهابيون إلى الدرعية التي وجدوا وقتاً كافياً لتعزيز دفاعاتها، نظراً إلى أن الباشا لم يسارع في الهجوم، لكنه تأخر في الفضول لبضعة أيام. ويلاحظ أن العديد من الوهابيين قد تخلّوا عن عبد الله وهجروه، ما أدى إلى توهين قوته وقدراته. وظلّت الدرعية تحت الحصار لسبعة أشهر كاملة، شهران منهما كانت فيهما مدافع الباشا من دون ذخيرة لانفجار وقع في مخزن البارود. وأدى هذا الحصار الطويل إلى تقوية روح المقاومة في بعض القرى المجاورة للدرعية، وكان الباشا ينفذ إليها السرايا تباعاً لإسكاتها، وكان ذلك سبباً في تشتت جنود الباشا، ما أدى إلى تعطيله وعدم تمكنه من اجتياح المدينة وأخذها عنوة. وعمل الباشا أخيراً على الهجوم على طريفة، فيما كان المحاصرون يشددون الحراسة على منطقة السهل وهي القسم الثاني من المدينة الذي كان المواطنون يعتقدون أن الحملة ستهاجمه أولاً. وتيسّر للأتراك نتيجة لذلك احتلال طريفة من دون عناء، و لم يستدعِ الأمر منهم إطلاق قذيفة مدفع واحدة. واستمرت مقاومة السهل

ضارية لثلاثة أيام لاحقة قبل أن تفتر، و لم تجد بعد ذلك بُداً من التسليم، ذلك أن عدد المهاجمين لهذا الحي كان يفوق عدد المدافعين عنه. و لم يجد عبد الله سوى أن يتحصن بالقلعة التي قاومت بعدئذ لثلاثة أيام ثم استسلمت حين يئست من المقاومة، فاضطر عبد الله بعد ذلك إلى التفاوض. وقد روى ابن بشر عن مقاومة السهل ثم استسلامه بعد ذلك بالمفاوضات. جاء عند ابن بشر عن هذه المعركة الفاصلة أن الباشا جرّ القبوس والقنابر على القصر فحربه حرباً لم يرَ مثله، وثلم رؤوس البروج والجدران. وتفرقت العساكر على أهل الدرعية في منازلهم ودخلوا شيئاً منها. ووقع حرب وقتال شديد بين أهل السهل من الدرعية وبين الترك. وأهل السهل من أهل البجيري والحوطة والنقيب والمريح حافظين جهتهم ومنازلهم وعبد الله بن سعود ومن معه من الأعيان في منزلهم بين البابين باب سمحان وباب الظهيرة. فلما رأى عبد الله بن سعود البوار انتقل من سمحان وقصد منزله في الطريف وترك مخيمه ومدافعه ومن معه من العساكر ونزل في منزل عبد الله ووجه قبوسه إلى باب الظهيرة ورماها رمياً عظيماً. وتفرقت عساكر الترك على أهل السهل وأمسكوا فيه بيوتاً ونخلاً وكادوا أن يأخذوه عنوة وجالوا أهله جولة عظيمة واشتدت وطأة الترك عليهم فحماهم الله تعالى وكفّ أيدي الترك عنهم فهموا بالمصالحة. فرد بعضهم على بعض أنها لم تكن المصالحة إلا بإخراج تلك العساكر من البيوت والنخيل وقتل ما أمكن منهم. فشهر سيفه عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتدب واجتمع عليه أهل البجيري ونهضوا على الترك من كل جانب كأنهم الأسود، وقاتلوا قتالاً يشيب من هوله المولود، فأظلمت البجيري كأنها الليل، وصريخ السيوف في الرؤوس كأنه صهيل الخيل، فأخرجوهم منها صاغرين وقتلوا من الترك عدّة مئين... ثم أرسلوا إلى الباشا وطلبوا الصلح فأجابهم إليه بعد ما كان أبيّاً، ولان لهم بعد ما كان قاسياً. فخرج إليه من الأعيان عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود والشيخ العالم علي بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن مشاري بن معمر، فأرادوا منه أن يصالحهم على البلد كلها فأبى أن يصالحهم إلا على أهل السهل أو يحضر عبد الله بن سعود. فانفصل الصلح بينهم على أهل السهل على دمائهم وأموالهم وما احتوت عليه بلدهم وذلك في يوم الأربعاء سابع ذي القعدة ١٢٣٣ **(ابن بشر، سبق ذكره، ج ١، ص ٢٠٧-٢٠٨)**.

لعلّنا نجد في ما ذكره هذا المصدر اختلافاً عما ذكره سادلير، فقد كان استسلام طريفة لاحقاً لاستسلام السهل".... فأخرج عبد الله المدافع إلي هي في القصر وجعلها بمسجد الطريف ورماهم بها. وانحاز إليه كثير من أهل البجيري وأهل النواحي فوقع هذا الحرب نحو يومين. ثم تفرق عن عبد الله أكثر من كان عنده وبذل لهم الدراهم فأخذوها وهربوا. فلما رأى عبد الله ذلك بذل نفسه للترك وفدى بها عن النساء والولدان والأموال..."

أما الفاخري فهو أيضاً يجعل سقوط طريفة تالياً لسقوط السهل. يحدد الفاخري المواقع

التي جرى فيها القتال في منطقة الدرعية، فيذكر أنها المغيصب وغبيرا وسمدا والسلماني والصنع والبليدة والمغترة وقرى عمران والحاجي وكثلة وعرقة ومشيرفة، ويضيف "أن الغزاة قد ضيّقوا بعد ذلك على أهل السهل فأخرجوا عبد الله بن عبد العزيز وعلي بن الشيخ ومحمد بن مشاري يستأمنونها فأمنوا فملكها العسكر... وبقي الطريف فيه عبد الله بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبد الله إلى الباشا" (**محمد بن عمر الفاخري، الأخبار النجدية، دراسة وتحقيق عبد الله بن يوسف الشبل، ص ١٤٨-١٤٩**)

يذكر سادلير أن الباشا تعامل بصلف حين التقى عبد الله، فمدّ له يده فتسلّمها الأخير وقبّلها دليلاً على الخضوع. طلب عبد الله إلى الباشا أن يعفو عن أتباعه الذين أخلصوا له حتى النهاية وعن إخوته وأفراد أسرته، وعن مدينة الدرعية فلا يعمل على تدميرها، وأن يستبقي عليه حياته. واستجاب الباشا لبعض مطالب عبد الله بالعفو عن جنوده وأفراد أسرته، وتعهد له بضمان سلامته الشخصية حتى وصوله إلى القاهرة، ولكنه لم يتعهد بعدم تدمير المدينة. و لم يجد عبد الله إلا أن يوافق على ما أمضاه الباشا، وسلم نفسه له في ٤ ذي القعدة ١٢٣٣/٤ سبتمبر ١٨١٨، وأرسل من ثم مصحوباً بأفراد أسرته إلى القاهرة. ويضيف سادلير أن أحد أبناء عبد الله قد تمكن أن يفلت من الحراس أثناء الرحلة ويهرب، "ولكنني لم أتمكن من أن أعرف ماذا صار من أمره بعد ذلك". ومن المهم أن نذكر هنا أن سادلير أخطأ حين ذكر أن الشخص الذي تمكن من الإفلات من الحراس هو أحد أبناء عبد الله، والصحيح أن الذي أفلت هو مشاري بن سعود الكبير الذي استرد الدرعية بعد ذلك وحكم فيها لفترة وجيزة حتى قبض عليه محمد بن مشاري بن معمر وسلّمه للأتراك فأعدموه (ابن بشر، ج١، ص ٢٩٦-٢٩٧).

يقول سادلير - من دون أن يذكر المصدر - إن الباب العالي كان قد أصدر أمره بتدمير الدرعية تدميراً تاماً، ولكن إبراهيم باشا كتم الأمر و لم يعلنه حتى يستطيع أن يستخلص من السكان ما يمكنه أن يستخلصه منهم في نظير حماية أنفسهم والحفاظ على ممتلكاتهم. وحين استنزف الباشا المواطنين حتى النهاية، وبعد أن أصابت قواته الثراء جرّاء النهب والسلب، أصدر الباشا أمره بتدمير البلدة فاجتثّ كل عود أخضر في تلك المدينة، وأحرق كل عود يابس فيها. ظلّ الباشا معسكراً مع جيشه عند أطلال الدرعية حتى منتصف عام ١٨١٩م. وظلّ في هذه الأثناء يرسل السرايا على أرجاء متفرقة من تلك المنطقة، فمدّ بذلك سلطته حتى بلغت سواحل الخليج، ولكنه سرعان ما استبان أن قوته أخذت تتفرق وتتشتت جراء هذه السياسة التوسعية في أرض صحراوية يتميز أكثر فجاجها بالجفاف، وأدرك أنه لن يتمكن نتيجة لذلك من حماية خطوط إمداداته إلا بجهد جهيد. لقد كان البدو في ثورة دائمة لم يهدأ لها أوار، فيما ظلّت قوات الباشا تلاحقهم في تلك الصحارى الشاسعة التي كانت متاهاتها تعصمهم من جند الباشا. وأخيراً اقتنع الباشا بأن مصادر تلك الأرض المجدبة لن تتمكن من أن تفي

بسد نفقات الجيش القائم على حراستها، كما أدرك أيضاً أنه لن يستطيع الاعتماد على ولاء البدو، فقرر نتيجة لذلك أن يتخلى عن المناطق الشرقية من الجزيرة العربية وينسحب من هناك ليتمكن من تأثيل سلطته في المنطقة الغربية حيث يمكنه أن يلقى الدعم والإمداد من مصر بسهولة ويسر. فقام الباشا بإخلاء كل مواقعه وسحب كافة حامياته من المنطقة الواقعة إلى الشرق من الرس، وذلك بعد أن دمّر أسوار كافة القرى والمدن في المنطقة التي انسحب منها، وذلك حتى لا تقوم لأولئك العرب الذين جرّدهم من وسائل دفاعاتهم قائمة مرّة أخرى، و لم تنجُ من هذا المصير سوى قلاع الأحساء لبعدها عن مناطق العمليات، أما ما تبقى من تلك المناطق فقد غدا مسرحاً للخراب والدمار بعد أن شرّد الباشا المواطنين وغنم ماشيتهم واستولى على دوابهم وممتلكاتهم و لم يستبقِ لهم شيئاً.

اعتقد سادلير أن جذوة الوهابية قد خمدت بسقوط الدرعية وخروج الإمام عبد الله منها. وبالطبع فقد برهنت الأحداث اللاحقة أن الدعوة لم تخمد، بل ظلّت تؤجّج ضمير المجتمع النجدي حتى بعثت مرّة أخرى بجهود الإمام تركي بن عبد الله بن سعود في الدولة السعودية الوسطى. ويستطرد سادلير فيقول: "ولكني عرفت من البدو الذين التقيتهم أنهم سنيون وأنهم لا يزالون يداومون على الصلوات المفروضة حتى في أقسى الظروف". ويبدي سادلير ملاحظة ساذجة حين يقول إن "الأتراك الذين هم أكثر استنارة من العرب لا يسمحون للصلاة وفروض الدين أن تفسد عليهم راحتهم". ونراه قد أساء إلى الجند الأتراك وهو يقصد مدحهم، فليس في إهمال طهارة الروح والجسد راحة إلا للأنجاس. ويذكر سادلير أنه قابل بعض المواطنين في منفوحة والرياض من النازحين من الدرعية أقرّوا له صراحة بأنهم وهابيون منهجاً. ويستطرد فيذكر أن هؤلاء الحضريين هم غير البدو الذين فارقوا الوهابية التي ما كانوا ليثبتوا عليها إلا مرغمين حين كان لدولتها قوّة وسطوة.

وصل في فترة إقامة سادلير في جدّة خليل باشا عائداً من حملته على أبو عريش. وكان خليل باشا قد أرسل من مصر على رأس فرقة من الأتراك والأرناؤوط لدعم قوات إبراهيم باشا أثناء حصاره للدرعية، ولكن وصوله إلى جدّة تزامن مع سقوط الدرعية، فأمره محمد علي باشا بالتقدم إلى أبو عريش بدلاً من ذلك. وقد تمكنت هذه القوّة من عدّة مناطق، ودخلت العديد من الموانئ الساحلية تحت سيطرة الأتراك. ويذكر سادلير إلقاء القبض على "محمد بن محمود" الذي يصفه بآخر زعماء الوهابيين في اليمن وإرساله مقيّداً بالسلاسل إلى جدّة في طريقه إلى مصر. وجدير بالذكر أن هذا الزعيم المقصود هو محمد بن أحمد المتحمي أحد زعماء عسير. وكان قد كوّن مع سعيد بن مسلط بن مجثل جبهة مقاومة في عسير لصدّ تقدم القوات التركية في المنطقة. وقد تمكنت قوات خليل باشا من أسر المتحمي في الملاحة شمال أبها. ويسترسل سادلير فيتعرض للعلاقة بين محمد علي وإمام اليمن وكذلك الزعماء الآخرين الذين أرسلوا إلى

الباشا مهنئين بسقوط الدرعية، ومنهم شاه فارس. ويشير سادلير في تهكم واضح إلى الهدايا التي ينوي الشاه إرسالها إلى "مقام الرسول والأماكن المقدسة" الأخرى عن طريق محمد علي، ويذكر أنه لو كان على اتصال بالشاه لنصحه بأن يحوّل هذه الهدايا التي تشمل الجواهر والياقوت والفيروز والألماس إلى مقام الإمام علي رضي الله عنه، فذلك أوفق له "وأجدر أن يؤجل زيارة عزرائيل له، فالتوسل بالأتراك غير مقبول. ولو درى الشاه أنه لو قُدّر له أن يقع في يد محمد علي باشا فسيجد أن الباشا يمثل أقرب مساعدي عزرائيل للوصول إليه!".

الباب السادس

الساحل المهادن بين عامي ١٨١٦ - ١٨٣٠م

الفصل الثالث عشر

ملاحظات صحافي عن القواسم
قبيل حملة عام ١٨١٩-١٨٢٠م

للقواسم بعد انضمامهم إلى الوهابيين تاريخ مجيد في جهاد البريطانيين في الخليج العربي والبحر الأحمر ومناطق أخرى في بحار الشرق، وصلت حتى سواحل مكران وكتش والسند. كان القواسم في فترة ازدهار الدولة السعودية القديمة يد تلك الدولة في البحر. و لم تتمكن أي قوّة غير إسلامية من تأسيس نفوذ لها في الخليج أو هيمنة إلا بعد انكسار تلك الدولة ثم سقوطها على يد قوّة إقليمية من محيطها. وفي الحقيقة، حين ننسب كل هذا الجهاد الذي حمى الذمار والديار في تلك الفترة إلى القواسم فإننا نظلم بذلك قبائل وعشائر أخرى. فالقواسم ما هم إلا أسرة أو عشيرة أو ربما قبيلة كانت تسكن مناطق متفرقة على جانبي الخليج، أبرزها رأس الخيمة التي كانت قصبة سلطتهم، غير أن اسمهم اكتسب في قاموس شركة الهند الشرقية معنى مجازياً، فأصبح في تقديرهم علماً على كل من حمل السلاح وخرج مجاهداً باسم الدولة الوهابية دفاعاً عن السيادة الإسلامية في بحار الشرق. ولا نستغرب هذا التحريف الذي اكتسبه هذا اللفظ حين ندرك أن لفظ وهابي كان قد اكتسب بدوره في قاموس تلك الشركة معنى أوقع العديد من الذين يكتبون التاريخ في الوهم والخطأ. فالوهابية كانت تعني في مفهومهم كل حركة إسلامية مناهضة بالسلاح للمستعمرين. وعلى ذلك فقد صنّف البريطانيون كثيراً من الحركات المناهضة لهم في شبه القارة الهندية حتى تلك التي اعتمدت الإسلام الصوفي مرجعاً لها بأنها وهابية. واعتمد بعض المعاصرين - جهلاً منهم - هذا التعريف، فتضاعف سوء الفهم حتى كاد يسود. كان القواسم بعد أن انتظموا طوعاً وقسراً في الدعوة الوهابية، بفضل ما كان لهم من سفن وخبرة في الدروب البحرية، الأسبقين في حمل لواء جهاد السعوديين في البحار، فأصبح لذلك اسمهم علماً على كل من اعتمد الجهاد سبيلاً لحماية مقدّرات الأمّة، وهكذا دخلت

ضمن مُسمّى القواسم في قاموس الإداريين البريطانيين في الخليج عدّة قبائل غير قاسمية.

رحّبت قبائل النعيم، أكبر قبائل الظاهرة، خاصة الذين يقيمون في ضنك وقابل والسنينة، بالامتداد السعودي في اتجاه عمان، ربما لأنهم غافريون في وقت كان فيه الانقسام القبلي بين هؤلاء والهناويين كبيراً. أما عشائر بني ياس التي كانت قبيلة تسكن البر بصفة عامة و لم تكن في ذلك الوقت قد ألفت العمل في البحار كثيراً، فقد كانت أضعف من أن تحمل سلاحاً تقاوم به امتداد تلك الدولة، فاستسلمت أمام المدّ السعودي الأول في ١٧٩٢م وتعهدت بالطاعة ودفع الزكاة. كان القواسم، رغم أنهم من الغافريين، يعارضون المدّ السعودي، ما دفع النعيم إلى محاصرة رأس الخيمة بدعم سعودي يقوده راشد بن سنان المطيري. وكان للقواسم من القوّة البحرية ما جعلهم يقاومون الحصار البري ويردون المحاصرين على أعقابهم. ودفعت الدرعية من ثمّ بدعم جديد للنعيم بقيادة مطلق المطيري، وأطبق الجمع من جديد على رأس الخيمة فاستسلمت، فأكرم المطيري شيخها صقر بن راشد وعاهده.

لم يدخل صقر ميدان الجهاد في البحر مختاراً، فقد كان الزعاب من طينج وأهل الجزيرة الحمراء والرمس توّاقين للجهاد في البحر، فطلبوا إلى مطلق أن يفاوض أهل رأس الخيمة ليعيروهم سفنهم للجهاد، على أن يكون لهم سهم في الغنائم. وخشي القواسم أن يفقدوا سفنهم فتصدّوا للأمر، وخاصة أنهم كان لهم في حروب البحر القبلية التي أعقبت سقوط دولة اليعاربة باع طويل. كانت حروب البحر السابقة نتيجة لانفراط عقد السلطة العمانية والفوضى التي وقعت في أعقابها، ولكن الامتداد السعودي اللاحق جعل القواسم أصحاب إيديولوجيا يستندون إلى ظهير موحد يتوق إلى الجهاد. انخرط القواسم مع القبائل الأخرى الأسبق منهم قبولاً للدعوة والجهاد في بوتقة واحدة فأصبح اسمهم، بحكم تمرّسهم السابق في قتال البحر وبفضل امتلاكهم للسفن، علماً للجهاد يطلقه البريطانيون على أي فرد "همّه القرصنة ومتعته القتل يغلّف سفالته بغلاف من التقوى والإيمان. لن ينجو المرء بحياته إذا ظفروا به، إذ ينصّ الكتاب المقدس على حرمة نهب الأحياء ووجوب تجريد الموتى".

وبالطبع فإن هذه النعوت الممقوتة التي أسبغها البريطانيون على المجاهدين لا يمكن تفسيرها إلا بشدّة غيظ من كان يحاول الهيمنة على هذه المياه العربية وخاب في تلك الفترة فأله مما كان يلقى من تصميم المجاهدين وقوّة بأسهم وصدق توجههم لحماية دينهم ودنياهم. والثابت لدينا أن أولئك المجاهدين لم يكونوا قراصنة يعترضون الملاحة الحرّة، بل كانوا أتباع دولة يطلبون جزية مشروعة، أو ما يمكن أن نطلق عليه حديثاً رسوم عبور كان يجب على السفن الأجنبية العابرة للمياه العربية أن تؤديها، وما كانت تلك القوى الغربية الوافدة تريد أداء هذا الرسم، فعرّضت بذلك سفنها للمصادرة. وقُدّرت الخسائر التي تكبّدها الإنجليز جرّاء عمليات الجهاد البحري في الفترة بين ١٧٩٣ـ١٨٠٣م بحوالى ثلاثة ملايين استرليني، وهذا ما دفع بالإدارة

البريطانية في الهند إلى الدخول في حلف مع مسقط التى كانت خسائرها المادية في مواجهة الدرعية جسيمة أيضاً. فقدت مسقط جراء تلك الاضطرابات التي أجّجتها بين نجد وعمان الخلافات الفكرية والأطماع الاقتصادية والتمزق القبلي ما بين غافرية وهناوية، الكثير من رواج تجارتها البحرية التي أضحت إلى كساد، كما راح سلطانها سلطان بن أحمد في ١٦ شعبان ١٢١٩/١٩ نوفمبر ١٨٠٤ ضحية النزاع مع الوهابيين. ودخلت السلطنة إثر وفاة سلطانها في نزاع أسري على العرش زاد من توهين قوتها، فمدّت يدها إلى الإنجليز. و لم يمضِ شهران على مقتل سلطان حتى استولى القواسم، أو قل القبائل المنتظمة في طاعة السعوديين التي عُرفت بالقواسم، على سفينتين لوكيل البصرة الإنجليزي، فعمد إلى الاتصال بالدرعية لتخليصهما، ولكنه لم يفلح. وينتقد سلك بكنجهام مسلك هذا الوكيل الذي لم يسبق له أن احتجّ قبل مصادرة سفينتيه على أي تجاوزات أخرى سابقة وقعت على سفن تحمل العلم الإنجليزي. فقد أخذ القواسم يتصيّدون السفن البريطانية منذ عام ١٢٠١هـ/١٧٨٧م حين قبضوا على شراعية إنجليزية كانت تحمل رسائل بين البصرة وبومباي، كما استولى القواسم إثر مقتل سلطان على بندر عباس الواقعة في المسار البحري للسفن العابرة للخليج والتي كانت تابعة لمسقط، وأدّى ذلك إلى مضاعفة الخسائر البريطانية لسيطرة القبائل الوهابية على ذلك الموقع الاستراتيجي المهم. وبرز الحلف العماني البريطاني ضدّ القواسم والقوى العربية البحرية الأخرى المناهضة لهاتين القوتين واضحاً حين اجتمعت قوّتهما الأسطولية في تحالف لاستخلاص بندر عباس، وأصلت سفن التحالف في ١٠ ربيع الأول ١٢٢٠/٧ يونيو ١٨٠٥ قلعة تلك البلدة ناراً حامية. وحين اتجه الأسطولان العماني والبريطاني لضرب قشم، سارع شيخ رأس الخيمة إلى نجدة حلفائه من بني معين، فوقعت سفنه في كمين. واضطر الشيخ إلى الدخول في مفاوضات أوّلية مهّدت لمفاوضات أخرى في مسقط عقدت في أكتوبر ١٨٠٥، وانتهت تلك المفاوضات إلى اتفاق فبراير ١٨٠٦ بين القواسم والبريطانيين.

خرج شيخ القواسم بموجب هذا الاتفاق الذي عقده من وراء ظهر الدرعية عن حومة الجهاد، فأقيل واقتيد إلى الدرعية أسيراً. وعُيّن شيخ الرمس شيخاً على القواسم، وزيد في مربوط الزكاة على رأس الخيمة، وجرى تقصير الظلّ الإداري، فغدا الشيخ الجديد تابعاً للقائد السعودي في البريمي بدلاً من تبعيته المباشرة للدرعية كما كان الأمر سابقاً. وأصدرت الدرعية أمرها للشيخ الجديد بتعبئة السفن القاسمية للقبض على سفن "الكفار" في الخليج، ما يعني عدم الاعتراف بما أحدثه الشيخ السابق من اتفاق مع الإنجليز. وبلغ الجهاد ذروة سنامه في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٨م حيث أصبح للقبائل التي عُرفت بالقواسم من العدد والعدّة ووفرة المراكب البحرية ما جعلهم يهاجمون حتى السفن العسكرية البريطانية الكبيرة.

اتخذت حكومة الشركة قرارها بإرسال حملة على القواسم، ومهّدت لذلك بالعمل على

تحييد فارس ومحاولة جرّ الشاه فتح علي خان بعيداً عن فرنسا التي كانت بدورها تنازعهم محاولة السيطرة على مياه الخليج. أقام الإنجليز مع الشاه اتفاق صداقة منحه العديد من المميزات العسكرية والحوافز الاقتصادية. وبهذا نفض الشاه يده في سبتمبر ١٨٠٨ من حلف الفرنسيين. ووصل في أكتوبر من هذا العام هارفرد جونز ممثلاً للبلاط البريطاني في بلاط الشاه، ما وثّق تلك العلاقات بين الجانبين. وجاءت بعد ذلك اتفاقية تلست لتدفع بالشاه دفعاً إلى أحضان البريطانيين. وهكذا تمكن البريطانيون من زمام فارس. وما لبث البريطانيون أن فرغوا من ضرب حركات المقاومة النشطة في شبه القارة الهندية حتى وافق منتو، الحاكم العام في الهند، على إرسال حملة على القواسم بشرط أن تقتصر عملياتها على البحر وجزره والمناطق الساحلية فقط، على أن تراعي الحملة مناطق السيادتين التركية والفارسية، وأن تتوخّى أقصى درجات الحذر من قيام مواجهة مباشرة مع السعوديين. ورغم ذلك، فقد وافق منتو على أنه يمكن الحملة أن تستردّ بعض المناطق التي خسرها إمام مسقط للقواسم وتعيدها إليه.

في الحقيقة، كانت بريطانيا تخشى الدخول في معارك بريّة في شبه الجزيرة العربية، لأن جيوشها لم تكن مؤهّلة لذلك، فقد بنت قوتها على الأسطول الذي حكمت به مخانق البحار التي تمكنت منها بعد هزيمة قراصنتها للأرمادا الإسبانية. وقد أدّت تلك الهزيمة النكراء التي حلّت بهذا الأسطول الذي كان الأقوى في ذلك الوقت، وكان ذلك نتيجة هبوب رياح شتّتت سفنه حتى أضحت غنيمة سهلة للقراصنة البريطانيين، إلى انفراط عقد الإمبراطورية الإسبانية. وانفتح من ثمّ رتاج بحار العالم لتمارس فيه إنجلترا القرصنة التجارية التي اعتمدت الهيمنة على الطرق البحرية بشراعيات تدفعها الرياح. ولم يعمد الاستعمار البريطاني لاحقاً إلى استخدام جيش بريّ إلا في عمليات محدودة يضرب بها قمّة السلطة المركزية في البلد المستهدف، ثم يُعيّن فيه حاكماً عاماً مع طغمة قليلة من الموظفين يديرون البلاد بمعاونة فئة من الحكام المحليين وشيوخ القبائل ورؤساء الجماعات وشرطة وجنود من أبناء البلاد المغلوبة. ولا مندوحة من القول إن قوّة الاستعمار البريطاني قد تأثرت كثيراً حين بدأ العمل بالطاقة البخارية التي اعتمدت الفحم وقوداً لها. فقد اضطرت قوى الاستعمار البريطاني إلى زيادة تعاملها العسكري مع اليابسة، إذ احتاجت إلى إقامة مستودعات لتخزين الفحم على نقاط ساحلية ما، كانت لا تدرّ ريعاً، كما فتحت الطاقة البخارية اليابسة على البحار بالقطارات والبواخر النهرية، ما اضطر تلك الدولة إلى إقامة المزيد من النقاط الساحلية تسدّ بها الجحور التي انفتحت من البر على البحر. لم يكن للبريطانيين – قبل اختراع الطيران – جيش يمكنه أن ينازل السعوديين في قلب شبه الجزيرة العربية، خاصة وأن تلك الصحراء ما كان يمكنها أن تُقدّم ريعاً يدفع المستعمر للقيام بالمغامرة. ومن هنا جاء تريّث البريطانيين في الهند في نزال هذه القوّة البحرية المستندة إلى ذلك البر الشاسع المتحكم في الطرق البريّة التي تربط بين الخليج والبحر

الأبيض، ومن هنا أيضاً جاء التحذير للقادة البريطانيين في الخليج من أي عمل استفزازي قد يجرّ في أعقابه عمليات برية في شبه الجزيرة العربية.

جهّز منتو حملة أسطولية تمكنت بالتعاون مع مسقط من ضرب رأس الخيمة في ٤ شوال ١٢٢٤/١١ نوفمبر ١٨٠٩، ولكنها انسحبت على عجل حين عرفت أن دعماً سعودياً كان في طريقه إليها. وجاست الحملة في عدّة مناطق على ساحلي الخليج وتراجعت بعد أن خرّبت ودمّرت وأوهنت القوّة القاسمية، ولكنها لم تقض عليها. وكتب إمام الدرعية إلى البريطانيين مُحذّراً من مغبّة الاعتداء على قبائله البحرية، طالباً إليهم عدم التدخل في الخلافات بينه وبين جيرانه. وفتح هذا الخطاب قنوات اتصال بين القوتين البريطانية والسعودية انتهت في عام ١٨١١م إلى تعهد سعودي بعدم مهاجمة السفن البريطانية نظير ألا يساعد البريطانيون "أعداء الإمام" قصدت به الدرعية فضّ التحالف بين مسقط والبريطانيين. وأعقب ذلك تعهد سعودي آخر في ١٨١٤م عُقد بعد مفاوضات مباشرة أكّد سابقه. ويبدو أن الإمام سعود قد أحسّ بوطأة تقدم جيوش محمد علي تجاه عاصمته، فعمل على تهدئة الجبهة البحرية والعمانية. وصدر أمر سعود إلى الحسين بن رحمة، واليه على القواسم، بعدم مهاجمة السفن الإنجليزية التي ترفع علماً يميّزها عن غيرها. وقد تمكنت السفن "القاسمية" بعد هذا الاتفاق من السيطرة على مسارات بحرية وصلت في أكتوبر ١٨١٤ إلى سواحل مكران وكتش والسند، وذلك بعد أن أمنت تدخل السفن البريطانية ضدّها. وما لبث أن دبّ الخلاف بين القوتين حين استولت السفن العربية على بعض السفن الهندية التي ترفع العلم البريطاني، ووقع بذلك تناقض في تفسير نصوص الاتفاق. فبينما رأى القواسم أن السفينة تستمد جنسيتها من جنسية مالكيها والعاملين عليها، كان البريطانيون يرون أن جنسية السفينة تتبع العلم الذي ترفعه. أرسل المقيم بروس مندوباً إلى رأس الخيمة بخطابات احتجاج إلى الإمام وواليه على رأس الخيمة وإلى مندوب الإمام الموقّع على تعهد ١٨١٤م. وعومل المندوب في رأس الخيمة بطريقة غير لائقة، فعاد إلى سيده الذي رفع تقريراً غاضباً إلى رئاسته في الهند. وقرّرت الهند بعدها إرسال قوّة أسطولية صغيرة إلى رأس الخيمة لاستعراض القوّة وتقديم مطالب محدّدة واجبة النفاذ والتهديد بتحمل وزر عدم رضا الحكومة البريطانية إذا جرى تجاهلها. وحذّر نبيان، الحاكم العام للهند، تلك الحملة من استعمال القوّة، مهما كانت الدواعي، لأن قوّتها كانت محدودة مقارنة بقوّة القواسم البحرية المستندة إلى ظهيرها الصحراوي، وكان نبيان يرى أن العمل العسكري ضدّ العدو، إذا لم يكن رادعاً، فإنه يؤدي بالضرورة إلى عكس الهدف المرسوم.

تصادف أن كان جيمس سلك بكنجهام في طريقه إلى الهند، فطلب إليه قائد هذه القوّة أن يرافقه إلى رأس الخيمة ليساعده في التواصل مع شيخ رأس الخيمة في الترجمة، على أن يواصل طريقه من هناك إلى الهند في السفينة التي ستحمل التقرير الذي ستتمخض عنه المهمة. ولعل

اهتمامنا بما كتب هذا الرجل يعود إلى أنه كان شاهد عيان علينا أن نأخذ منه بعد تجريده من الصلف الاستعماري المصاحب لكتابات الغربيين حين يتناولون موضوعات عربية إسلامية تتصل بالمقاومة والجهاد، وبعد تنقيته أيضاً من حماسة الصحافي الناقد لسياسات حكومته، آخذين في الاعتبار أنه لا يمكن أن يكون محايداً. انتقد بكنجهام ما اعتبره تهاون سلطات الهند البريطانية تجاه القواسم وعدم الثأر فوراً لشرف العلم البريطاني. وعلينا بعد ذلك أن نُخضع ما شاهده هذا الرحالة للنقد على ضوء شواهد تاريخية أخرى لنعتمد المؤيد منها. ويقدم لنا تقرير هذا الصحافي أيضاً مسحاً لبعض جزر الخليج الراقدة عند مدخله، ويعرض تاريخها القديم والمعاصر له، ويدّعي أن للغربيين معرفة قديمة بهذه الجزر، وأن بعضها ربما استمدّ اسمه من أصول لاتينية.

ولد هذا الرحالة في الأول من ذي القعدة ١٢٠٠/٢٥ أغسطس ١٧٨٦ في منطقة فلوماوس ابناً لمزارع في تلك المنطقة، ولكن رحالتنا آثر منذ فجر صباه أن يركب البحر. جاب جيمس سلك بكنجهام العديد من أصقاع العالم واستقرّ في الهند حيث عمل هناك في الصحافة. أسس سلك في عام ١٨١٨م دورية بعنوان: جرنال كلكتا ذاع صيتها. وكان بكنجهام صحافياً لاذع النقد، طاول قلمه حكومة الشركة في الهند ورجالها، ما اضطر جون آدم، الحاكم العام بالإنابة، إلى حظر الدورية وطرد صاحبها من الهند. عاد سلك إلى بريطانيا وأثار زوبعة في برلمانها انتهت بقرار باعتماد معاش دائم تدفعه له حكومة الشركة في الهند. وأسس سلك بعد ذلك في بريطانيا في ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م مجلة الرائد الشرقي، كما أسس في عام ١٨٢٨م صحيفة المجمع، و لم تصادف أي من هاتين النشرتين نجاحاً يُذكر. ولما كان سلك صحافياً ناقداً وكاتباً له آراؤه السياسية فقد اشتهر بأنه كان من أبرز المنادين بالإصلاح الاجتماعي في بريطانيا فقد انتخب نائباً عن شيفيلد (١٨٣٢ــ١٨٣٧م)، كما نال سلك في عام ١٢٦٧هـ/١٨٥١م جائزة اعترافاً بالقيمة العلمية لكتاباته كرحالة جاب مناطق شاسعة في الشرق وأمريكا وأوروبا، وكصحافي ناقد وكاتب سياسي حاذق، وكانت تلك الجائزة تدرّ عليه مبلغاً سنوياً ثابتاً. وحين هلك جيمس سلك بكنجهام في لندن في ١٥ شوال ١٢٧١/٣٠ يونيو ١٨٥٥ كان قد أتمّ إعداد كتابين من أربعة كان يزمع إصدارها عن سيرته الذاتية، وقد نُشر هذان الكتابان في عام ١٨٨٥م. ونعتقد أن ما كتبه سلك بكنجهام يكشف عن كثير جدير بما يظفر باهتمام المؤرخ؛ فالرجل رحالة نشط، صحافي ناقد، سياسي بارز، برلماني ذرب اللسان كان لحديثه تأثيره في الرأي العام البريطاني، خاصة في ما يتصل بالشأن الهندي والأقطار التي ربطتها شركة الهند البريطانية بالهند، ويُعدّ الخليج على رأسها.

يقول بكنجهام إنه في الثامن والعشرين من ذي الحجة ١٢٣٢/١٨ نوفمبر ١٨١٦ كان الأسطول يقف على أهبة الاستعداد في مياه بوشهر، وكان يضمّ شالنجر، السفينة الحربية

الإنجليزية (سفينة جلالته) التي يقودها الكابتن بردجز، إضافة إلى طرّادات شركة الهند الشرقية: ميركيوري وإيريال وفستال". وقد صدر الأمر في هذا اليوم الثامن عشر من سبتمبر لهذا الأسطول للتحرك في مهمة إلى رأس الخيمة والموانئ القاسمية الأخرى في الخليج الفارسي، على أن يبحر أحد هذه الطرّادات بعد أن تنتهي المهمة إلى بومباي، وأن تبقى السفن الأخرى في انتظار التعليمات اللاحقة.

يقول بكنجهام إنه تعرّف إلى قادة هذه السفن، وسرعان ما عرضوا عليه أن يرافقهم، وهو في طريقه إلى الهند، إلى أقصى موقع يمكن أن يصل إليه الأسطول في ذلك الاتجاه، وأضافوا مؤكدين أنه يمكنه أن يواصل رحلته إلى بومباي على السفينة المكلفة بالإبحار إلى هناك. وفي الحقيقة، فقد سبق لبكنجهام أن قابل الكابتن بلاست، قائد الطرّاد ميركيوري، في مخا عندما كان في طريقه إلى الهند للمرّة الأولى، ولكن نظراً إلى اعتلال صحّة هذا القائد فقد تعذّر عليه القيام بهذه المهمة، فأسندت القيادة إلى كل من بروس، المقيم في بوشهر، وتيلور من قوات بومباي، يرافقهما الملا علي، وميرزا فارسي، وسكرتير أرمني، وملاّح وعدد من الملحقين المحليين ليساعدوا في تقدم سير المفاوضات مع القواسم. وبما أن ميركيوري كانت هي السفينة الأضخم، وبما أنها الوحيدة من دون الأخريات التي كان من المؤكد عودتها إلى بوشهر، فقد انتظم عقد هؤلاء جميعاً عليها. أما بكنجهام والكولونيل كورسيلس، وكلاهما كانت وجهته بومباي، فقد كانا يزمعان أن يركبا أياً من السفن الأخرى، لكنهما نزولاً عند رغبات بروس وتيلور الصادقة والمُلحّة، استجابا لهما ووافقا على الانضمام إلى تلك المجموعة رغم أن عددها كان كبيراً.

بداية ظهور القواسم

يقول سلك بكنجهام إن عرب القواسم الذين يبحر هذا الأسطول إلى معاقلهم، يسكنون منذ فجر التاريخ المنطقة الواقعة على خط الساحل بين رأس مسندم والبحرين على الساحل العربي... ويعمل هؤلاء العرب في البحر، ولبعضهم تجارة يجريها مع البصرة وبوشهر ومسقط، وتتصل تجارة بعضهم بالهند. كذلك يعمل بعضهم بحّارين في المراكب الصغيرة التي تربط بين موانئ الخليج الفارسي، في حين يعمل البعض الآخر في سواحل الغوص في البحرين. ويُعدّ القواسم من أفضل أهل الخليج، فهم الأكثر نشاطاً والأبلغ أمانة، وعرفوا بالوفاء بالعهود واشتهروا بمراعاة الذمم، وكانوا يفضلون كل من عداهم. ويضيف بكنجهام أن الدعوة الوهابية انطلقت من الدرعية وصاخت لها جميع نجد، ثم وصلت إلى أطراف عمان وراحت تتطلع إلى غزو البحر. واتجهت أسلحة الوهابيين إلى رأس الخيمة، قصبة القواسم، وكانوا القبيلة

الوحيدة في هذا القسم من شبه الجزيرة العربية الذين لم يستجيبوا بداية لهذه الدعوة. وظلّ هؤلاء البحارة "غير المتدينين" يناهضون كافة محاولات الوهابيين التي وظفوا فيها السيف والقلم لاستقطابهم ودفعهم لاتباع التعاليم الوهابية التي تفضي إلى الخلاص، ويدّعي سلك أن الدعوة لم تصادف أي اقتناع أو هوى في نفوس القواسم.

اتسعت دائرة القوّة الوهابية التي ما لبثت أن انتظمت فيها كافة البوادي الشاسعة وتضافرت جهود الشيوخ مع المحاربين لكسر شوكة هؤلاء "المنكرين للدعوة الذين تمادوا في غيهم لفترة طويلة"، لم يرعبهم التهديد فارتقوا فوق المخاوف وتعالوا على القسر. وأخيراً أملى السلاح كلمته، فلم يلبثوا أن استسلموا أخيراً لتلك الطائفة المستحدثة، وأقسموا على الولاء لها والإخلاص لمبادئها والإيمان بشرائعها ومعتقداتها، وتعاهدوا على أن يلتزموا بما يمليه عليهم القادة المتمرسون الأوفر علماً ممن سواهم بتلك الشرائع والمعتقدات.

يعتذر بكنجهام عن الحديث عن مبادئ "عبد الوهاب" وتحليل فحواها، ويدّعي أنها لقيت من التحليل والتفصيل ما لا يستدعي منه المزيد. ويستطرد ليقول إن الوهابية تدعو إلى التمسك بلا هوادة بعبادة الله وحده من دون سواه، والتصديق بأنبيائه الذين منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وأنهم يعدّون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء. ويضيف أن الوهابيين يرون في القرآن الكفاية في ما يتصل بالقيادة والسياسة والأخلاق، ويؤكدون ضرورة التمسك بأهدابه ما يعني: "حقّهم في محاربة الكفار ودحض معتقداتهم بالسيف والنار، فالكفار وما ملكوا غنائم لهم وأسلاب". ويضيف: إنهم يرون وجوب التمسك بهذه المبادئ التي هي فرض واجب ملزم للجميع وليست من قبيل المندوبات، وأن من يغفل عن القيام بذلك أو يتهاون يُعدّ جباناً آثم قلبه. ويرى سلك أن الوهابيين لم يكتفوا بأن يطلبوا إلى القواسم العودة عن موبقاتهم السابقة فقط، ولكنهم طلبوا إليهم أيضاً تبديل ما درجوا عليه سابقاً من التواصل وحسن التعامل مع المنكرين لكلمة الله المخالفين لها، والرجوع عن التعايش السلمي معهم. وقد صاخ القواسم الذين كانوا في سابق عهدهم قانعين مادياً بالأسماك التي تجود بها مياههم، وبالكفاف الذي تدرّه عليهم أرضهم بشغف شديد لهذه المبادئ، وتعلّقوا بها بكل الحماسة التي يمكن أن تشتعل في قلوب المؤمنين الجدد "بالديانات الجديدة". ويرى سلك أن جذوة الحماسة الدينية – ما إن تُوقد – إما أن تشتعل ناراً متّقدة أو قد تخبو، فليس هنالك شيء وسط في هذا المجال. ويضيف أن هذه الشرارة التي اندلعت قد ألهبت حماسة القواسم فاتجهوا بكلياتهم إلى الحرب والغزو، خاصة بعد أن أقنعهم قادتهم بأن لا غالب لهم إلا الله، وأنه تعالى ناصرهم حتى "لو واجهوا الجحيم". وحين توطّنت مشاعر القواسم واستقامت على ما أفتى به معلّموهم، تعالى نداء الحرب وأضحى السلب ديدنهم، فأقسموا أن يمحقوا الكفار باسم الرحمن الخالق الرحيم، مبتهلين إليه أن يمدّهم بدعمه للقيام

بهذا الواجب المقدس. وبما أن موطن القواسم لا يهيّئ لهم القيام بالغزو برّاً، اتجهوا إلى البحر الذي يجاورهم ووجدوا فيه متسعاً لذلك. ففي هذا البحر كانت مراكب جميع الأمم من كل دين وملّة ولون تجري بمتاجرها آمنة غير مروّعة، وأصبح من حظّ القواسم أن يحصدوا أرباح هذه الأمم جميعها ويستولوا عليها.

يقول بكنجهام في مجال سرده لتاريخ القواسم إنهم بدأو بتصيّد المراكب الصغيرة غير المسلحة التي تجوب السواحل، فآلت إليهم غنائم سهلة. وتوالت نجاحاتهم في هذا المضمار، واستمرأوا حلاوة الغنائم ووفرة الأسلاب فتطلعوا إلى المزيد. وفي فترة ما من عام ١٧٩٧م كانت فايير، السفينة التابعة لشركة الهند الشرقية، وهي إحدى السفن المقاتلة من ذوات العشرة مدافع، ترسو في المياه الداخلية لميناء بوشهر في الموقع ذاته الذي ضمّ أيضاً داوات القواسم. ويضيف بكنجهام: لم يسبق - حتى هذا التاريخ - لعمليات القواسم أن استهدفت أياً من المراكب البريطانية، ربما لأنهم كانوا يخشون مجابهتها أو يتهيّبون العلم البريطاني، فقد كانت عملياتهم كلها حتى ذلك التاريخ موجهة ضدّ الملاحة المحلية، لكن الأمر اختلف بعد ذلك. تقدّم قادة هذه الداوات إلى الوكيل الفارسي لشركة الهند الشرقية البريطانية بطلبات لتزويدهم بذخيرة وطلقات مدافع إنجليزية الصنع، فأصدر الوكيل الذي لم يكن يدرك النيّات المبيتة لأولئك الرجال أو يشك فيهم، توجيهاته لقائد السفينة المسؤول بصرف الكمية المطلوبة. وكان ذلك القائد موجوداً في بيت الوكيل، فحمل القواسم أمر الصرف إلى القائد المناوب الذي لم يتوانَ عن تنفيذه. وأرخت الداوات أشرعتها وتهيّأت للإبحار في الوقت الذي كان فيه طاقم فايير يتناولون إفطارهم على سطح السفينة، فيما كان ضباطها في الطابق الأسفل. وفجأة أرسلت اثنتان من الداوات وابلاً من القذائف على السفينة الإنجليزية، فيما تهيّأ القواسم لاعتلائها. وسرعان ما قفز الضباط إلى السطح وأصدروا أوامرهم للطاقم بأن يأخذ كل منهم مكانه المحدد وقطعوا حبال المرسى وأبحروا بالسفينة كي تتاح لهم فرصة المناورة. وجرى الاشتباك بين ذلك الطرّاد الصغير والداوات القاسمية الأربعة المسلحة بمدافع كبيرة، والتي كان على متنها عدد غفير من الرجال، واستعر وطيس القتال. وهلك في تلك المواجهة الليوتنانت كاروثير، الضابط المناوب، وكان قد أصيب أولاً بقذيفة في خصره شدّ عليها بقطعة قماش واستمرّ يقاتل حتى عاجلته قذيفة أخرى أوردته هلاكه. وآلت القيادة بعد ذلك إلى سولتر الذي قاوم بشجاعة، وتمكن بعد مقاومة مستميتة من دحر المهاجمين وراح يتعقّبهم إلى مسافة ما في البحر ثم عاد بمركبه بسلام إلى المرفأ. ومع ذلك فقد كان عدد الرجال الذين أزهقت أرواحهم على ظهر ذلك الطرّاد كبيراً. ويستطرد سلك فيقول إن ذلك الغدر كان يجب أن يقابل برد مباشر وانتقام سريع، إلا أن ذلك لم يحدث، إذ تقاعست السلطات الإنجليزية في الهند، و لم تحتجّ على هذا العمل، بل إنها لم تطلب تفسيراً لما جرى.

يضيف سلك إنه قد مضت عدّة سنوات على هذه "الجريمة" و لم تندمل الجراح بعد. وظلّ القواسم في هذه الفترة في حالة حرب استهدفت العديد من المراكب الإنجليزية الصغيرة التي تبحر في الخليج، ما حرّضهم في عام ١٨٠٤م على القيام بعمل آخر ضدّ العلم البريطاني. وحدث أن أسرت سفينة فرنسية الطرّاد البريطاني فلاي على مقربة من جزيرة قن في الخليج، وكان ذلك الطراد قد جنح في الضحضاحات القريبة من ساحل تلك الجزيرة. وفي هذه الأثناء ألقى المسؤولون بالرسائل والأموال التى كانت في حوزتهم في البحر لئلاّ تصير إلى العدو الفرنسي في مياه لا يزيد عمقها عن قامتين، وتحرّوا في علامات الموقع البارزة حتى يتمكنوا من استخلاصها مستقبلاً إذا أتيحت لهم الفرصة. ألقى الفرنسيون القبض على طاقم الطراد والمسافرين عليه أيضاً، وأخذوهم إلى بوشهر حيث كانوا قد جمعوا هناك عدداً من الأسرى من سفن إنجليزية أخرى استولوا عليها في أوقات متفرقة. وأطلق الفرنسيون بعدئذ سراح جميع الأسرى، ما عدا القائد ماينوارنغ والضابطين آرثر وميلارد اللذين جرى ترحيلهما إلى بوشهر، ربما بهدف مبادلتهم بأسراهم كما يعتقد بكنجهام. وتمكنت المجموعة المسرّحة،بمن فيهم عدد من الضباط منهم بول وفلورز وكذلك البحار بنيل، من استئجار داو من بوشهر ليأخذهم إلى بومباي. وأبحرت الداو إلى أسافل الخليج، وبلغ المنطقة التي كان الرجال قد ألقوا فيها الرسائل والأموال. وتمكنوا من العثور على الرسائل التي كانت تظفر منهم بالاهتمام، فهي مرسلة من إنجلترا إلى بومباي، وكان أولئك الرجال حريصين على الحفاظ عليها وتسليمها إلى السلطات بأقصى سرعة ممكنة من دون أدنى إبطاء.

أبحرت الداو من هناك إلى وجهته، فاعترضته مجموعة من قوارب القواسم عند فم الخليج وتمكنت منه بعد مقاومة جُرح فيها البعض. وسيق الأسرى إلى رأس الخيمة على أمل الحصول على فدية. وهناك جرى استعراضهم في المدينة التي لم تكن قد شهدت من قبل، في ما تعيه ذاكرة الزمان، "مخلوقات مثل هذه". وراحت نساء القواسم تتفحصنهم بدقة بالغة، حتى إنهن " لم يقتنعن كيف يمكن الكافر الأغلف أن يختلف عن المؤمن المختون إلا بعد التجربة والبرهان". وظلّ أولئك الإنجليز البؤساء في قبضة العرب حتى استيأس الأخيرون من الحصول على الفدية، فقرروا أن يقتلوا أسراهم بدلاً من استبقاء عدو لا فائدة ترجى من الاحتفاظ به. وفي محاولة من أولئك الأسرى للحفاظ على حياتهم أو بالأحرى إطالة أمدها، أسرّوا ل"شيخ القراصنة" بأنهم كانوا قد ألقوا بأموال عند ساحل جزيرة قن لم يتمكنوا بعدئذ من استخلاصها، لكنهم يمكن أن يهتدوا إلى مكانها ودفعها إليه فدية يشترون بها حريتهم. وطلب الأسرى إلى الشيخ أن يمدّهم بغوّاصين من ذوي الكفاءة لاستخراج ذلك المال. ووافق الشيخ على العرض ووعد بإطلاق سراحهم إن كانوا صادقين.

أبحر الأسرى مع الغوّاصين الذين اعتادوا الغوص في مياه البحرين. وحين اهتدى الأسرى

إلى الموقع، أخذ رجال الشيخ يتدافعون بعضهم في إثر بعض حتى خلا منهم المركب أو كاد، فقد اشتغلوا جميعهم بحصاد الذهب. وهنا واتت الأسرى فرصة الهروب، فتمكنوا من التغلب على تلك الفئة القليلة التى كانت على المركب، وأرخوا الشراع، وشرعوا في الإبحار أملاً بالخلاص ولكنهم لم يفلحوا، فقد تنبّه الغواصون لما جرى وأدركوهم وعادوا بهم. ومع ذلك فقد وفوا بوعدهم لهم حين تمكنوا من المال، وأطلقوا سراحهم. و لم تكن لدى هؤلاء المسرّحين وسيلة تمكنهم من مغادرة تلك الجزيرة التي حين نزل بها أولئك القراصنة أحدثوا في سكانها مذبحة هائلة. وهرب الرجال الأسرى خشية من أن ينزل بهم ما نزل بأهل الجزيرة، ولجأوا إلى شعاب الجبال وثنايا الأودية. وكانوا إذا جنّ الليل يتسربلون ظلامه ليسرقوا عنزة يعودون بها إلى مخابئهم ليسدّوا بلحمها رمقهم أو قد يصيبون شيئاً من خشاش الأرض يقتاتونه.

استكمل "القراصنة" مواجهاتهم الدموية مع سكان الجزيرة، فقتلوا من قتلوه منهم وشردوا الآخرين، ثم انسحبوا مُحمّلين بالكنز الذي استخرجوه من البحر أو التقطوه عند الساحل. وخرج أسرى الإنجليز من مخابئهم ليتدبروا أمر الإبحار من تلك الجزيرة إلى الساحل. وفي لحظة يأس، أتحفهم الحظ بحطام مركب، فالتقطوا من أخشاب الجزيرة وغير ذلك ما أعانهم على إصلاح أعطابها، وبنوا لهم طوفاً كذلك. ركب الرجال في ما استحدثوه من وسيلة إبحار ويمّموا الساحل الفارسي. و لم يتمكن المركب من الإبحار بعيداً فغرق بمن عليه، ولكن الطوف بلغ إلى الساحل بالبقية سالمين. وبقيت حزمة الرسائل في عهدة أولئك الرجال سالمة لم يمسّها العرب الذين ما كانوا يدركون لتلك الأوراق معنى أو يعرفون لها مغزى، فيما احتفظ بها الإنجليز كأنها أثر مقدس.

تتبّع الرجال الناجون خط ذلك الساحل راجلين متجشمين صنوفاً من الأهوال وألواناً من المشقات، يتنسّمون مناطق قرى تلك المنطقة ليصيبوا الماء والزاد. وأخذ أولئك العراة المفلسون من كل متاع يهيمون فوق تلك الأرض التي يجهلون مسارات دروبها وموارد مياهها، و لم يكن فيهم من يعرف لغة سكانها بنحو يعين على التواصل. تعرّضوا مراراً للسرقة والنهب وهم الذين لا يملكون ما يقيم أودهم ولا ما يستر أجسادهم ويقيها لفح الشمس الحارقة نهاراً ولا عضة البرد وقشعريرة زمهريره ليلاً! وراح البحارة الهنود والخدم المرافقون للإنجليز الذين كُتبت لهم النجاة معهم يتساقطون من الإعياء والجوع والعطش واحداً تلو الآخر، وشاركهم بعض الأوروبيين في المصير ذاته. أجهد بعض هؤلاء الرجال طول المسير، و لم تقوَ أرجلهم على حملهم فسقطوا، و لم يكن في وسع زملائهم إلا أن يتركوهم حيث هم بعد أن يرمقوهم بنظرات وداع تنمّ عن أنهم إلى المصير ذاته مقبلون. ورُوي أن أحد أفراد المجموعة قد خانته قدماه وهو على بعد ميل واحد من إحدى القرى، فتركه زملاؤه الذين ما كانوا يستطيعون

إسعافه حيث هو، ثم عادوا ليتفقدوه صباحاً فإذا هو كومات مبعثرة من عظام رمة بعد أن تناوشته الذئاب ليلاً ومزقته و لم تستبقِ منه سوى تلك العظام التي نتنت. لم يتمكن أولئك الرجال من حمل زميلهم حين سقط، ولكنهم، مع ذلك، ظلّوا يحملون حزمة الرسائل رغم حدّة الصعاب و لم يفرّطوا فيها أبداً.

عبرت المجموعة من الساحل إلى جزيرة بوشعيب التي طالبهم شيخها بأن يدفعوا له مالاً لقاء دخولهم أرضه أو ربما نظير حمايتهم فيها. واجتهد أولئك البؤساء في التوسل إلى ذلك الشيخ "اللئيم" وسألوه العطف والرحمة. وحين لم يُلقِ الشيخ بالاً و لم يستجب لتوسلاتهم، رفعوا أصواتهم مهددين الرجل، رغم أنهم يدركون أن لا حامي لهم هناك ولا نصير. و لم يتزحزح ذلك الشيخ البخيل و لم تأخذه رحمة بهم، ما زادهم جرأة وألهب في نفوسهم مشاعر التحدي، فهددوه بقوّة هذه المرّة بالويل والثبور وعظائم الأمور من انتقام تنزله الحكومة البريطانية به إن لم يقم حالاً بتجهيز مركب يأخذهم من فورهم إلى بوشهر. وسرعان ما رضخ الشيخ للتهديد، فأعدّ لهم مركباً أخذهم إلى بوشهر.

كان من بين الناجين شاوُل الذي كان ضابطاً في السفينة الإنجليزية، وبنيل البحار الإنجليزي وغيرهما. وقد انتهى المطاف بالمجموعة إلى بومباي حيث سلموا الحكومة حزمة الرسائل وأثيبوا على ذلك بخطاب شكر فقط، و لم ينالوا فوق ذلك شيئاً يمكن أن يكافئ جسامة المعاناة الفريدة التي مرّوا بها. ويتضح لنا من هذه التراجيديا الجيدة السبك والإخراج التي صاغها هذا الصحافي، أنه عمل على دغدغة الشعور القومي في بلاده لدفع الحكومة للقيام بعمل عسكري ضدّ القواسم يقرّه الرأي العام، إضافة إلى الإشادة ببني جنسه لإصرارهم على تحمّل مسؤولية توصيل الرسائل، وحرصهم على أداء الواجب أكثر من حرصهم على حياتهم وحياة زملائهم.

شانون وتريمر

تمكن المجاهدون أو القراصنة، كما يسمّيهم سلك، في السنة التالية من سفينتين شراعيتين هما شانون وتريمر كانتا في طريقهما من بومباي إلى البصرة، بعد مقاومة غير عنيفة أبداها المركب الأول الذي كان بقيادة الكابتن بياكوك. أعدم القراصنة جماعة من بحارة السفينتين وأسروا منهم جماعة أخرى، وأعملوا السيف في رقاب الهنود. وكان أحد العرب المهاجمين قد أبصر بياكوك وهو يعمل على حشو بندقيته بالبارود فأخذه أسيراً. وحين عادوا به إلى الساحل أخذوا يتداولون في شأن عقابه، ثم أصدروا حكمهم عليه ببتر يده التي عمدت إلى مقاومتهم، ونُفّذ الحكم فوراً بضربة سيف واحدة. و لم يقم العرب بتضميد الجرح ولا بأي عمل آخر لمنع النزف، وتركوا بياكوك من دون أدنى عناية. وكان لبياكوك من رباطة الجأش ما جعله يفكر في

طريقة ينقذ بها نفسه من موت محقق. وقع بصره على إناء يحتوي على دهن، فطلب إليهم أن يضعوه فوق النار حتى يسخن ثم غمس بعدئذ جرحه فيه فتوقف النزف وأنقذ بذلك حياته.

يضيف سلك أن البحارة الأسرى أخذوا يتسللون من ذلك الميناء العربي تباعاً ويهربون. أما السفينتان شانون وتريمر اللتان كانتا تتبعان مانتسي، وكيل الشركة في البصرة، فقد زاد القراصنة بعد الاستيلاء عليهما في تسليحهما ووضعوا على إحداهما عشرين مدفعاً. وجهزت هذه السفينة الأخيرة في رأس الخيمة وأبحر بها العرب في الخليج، وقامت بعدد من عمليات القرصنة في تلك المياه.

كان يمكن - كما يقول بكنجهام - أن يمرّ حادث القبض على هذين المركبين من دون أن يثير اعتراضاً من أحد كما كانت الحال مع فايبر. ولكن بما أن المصالح الذاتية تعلو على شرف العلم البريطاني "الذي لا نجد له نصيراً يثأر لما يعتريه من هوان"، فقد أرسل مانتسي احتجاجاً شديد اللهجة إلى "شيخ القراصنة" وتوعّده بالانتقام. وبما أن مانتسي "من المرتدين للزي الحكومي" المنتسبين إلى الحكومة، فقد اعتبر القراصنة أن التهديد صادر من الحكومة ذاتها، مع أنه لا يعدو أن يكون من شخص فرد استبيحت ممتلكاته. لقد أغفلت الحكومة حادث فايبر وتجاهلت الإساءة التي لحقت بالعلم البريطاني و لم تحرك ساكناً لوقف ما يقوم به هؤلاء "النهابون الخارجون على القانون" من تعويق للحركة التجارية. و لم تكتفِ بذلك، بل إن الرئيس في المجلس أصدر أمراً منع بموجبه قادة بحرية بومباي من أن يهاجموا، على أي نحو كان، ومهما كانت الدواعي والاعتبارات، أهل الخليج الأبرياء أو يتعرضوا لهم بأي شكل من الأشكال، وهدّد بأن الحكومة لن تتسامح مع من يخالف هذا القانون ويتعرض للعرب أو يعمل على إثارة غضبهم. ويبدو لنا في هذه الفقرة الخطاب الإعلامي لهذا الصحافي أكثر وضوحاً، وذلك حين انتقد البريطانيين العاملين في الشرق الذين اتهمهم بأن اهتمامهم بمصالحهم الخاصة يفوق اهتمامهم بـ"شرف" العلم البريطاني الذي يضمن لهم رواج مصالحهم الذاتية في المنطقة.

مورنجتون وتيجنماوس

يستطرد بكنجهام في سرد مكافحة القواسم للسفن البريطانية التي راحت تبحر في الخليج من دون أداء رسم عبور، فيفيد بأنه بعد سنتين من استيلاء القواسم على السفينتين المذكورتين، تعرض فري، وهو من مراكب شركة الهند الشرقية من ذوي الستة مدافع، لهجوم من عدد من مراكب الجهاد العربية. كان فري بقيادة الليوتنانت جوان يحمل رسائل من البصرة إلى بومباي. واستبسل المركب في الدفاع، وتمكن من صدّ الهجوم، ولكنه تكبد خسائر في العديد من رجاله الذين خرّوا صرعى. ويدّعي سلك أن المركب حين وصل إلى بومباي وقدّم

قائده تقريراً بشأن تلك المعركة التي خاضها، لم يجد من الحكومة إشادة بمقاومته الناجزة ولا تقريظاً لجهوده في الحفاظ على الرسائل، بل وجد منهم توبيخاً وتعنيفاً لأنه خالف الأوامر الصادرة عن الحكومة، وتجرّأ على مضايقة العرب الذين ادّعت تلك السلطات أنهم لم يعتدوا على أمن البحار.

اتهم سلك الحاكم في بومباي بجهل "شخصية هؤلاء البشر". ويدّعي أن الحاكم لم يكن على اقتناع أبداً بأنهم معتدون، وكثيراً ما اتهم هذا الحاكم الضباط الإنجليز بأنهم يستفزّون العرب ويسبّبون إثارة العداء، ويشعلون فتيل الهجمات التي باتوا يشتكون منها. وبناءً على ذلك – يرى بكنجهام – فإن الحاكم ما فتئ يصرّ على رأيه السابق من ضرورة الالتزام بأوامره بنحو قاطع، وعدم استهداف أي من المراكب العربية ما لم تبادر بالهجوم، ويتحتم على القادة ألا يفتحوا نيرانهم على أي منها إن لم تكن هي البادئة بإطلاق النار. ويرى بكنجهام أن تسامح سلطات الحكومة البريطانية في الهند قد زاد من جرأة "تلك العصابات"، ما أفضى بها إلى شنّ هجوم على أضخم مقاتلتين من مراكب بحرية بومباي وأقواها سلاحاً وأوفرها عتاداً، وهما المورنجتون ذات الأربعة وعشرين مدفعاً وتيجنماوس ذات الاثني عشر مدفعاً، وحققوا نجاحاً في ذلك الهجوم. ولم يجد العرب ضيراً في مواصلة الهجمات على السفن البريطانية ما دامت الحكومة تسلك هذا "المسلك الخانع" الذي لا يستطيع أحد أن يجد له تفسيراً ولا تبريراً، ولا يدرك كنهه إلا أعضاء هذه الحكومة. وهنا نلمح من هذا الصحافي تحريضاً صريحاً على ضرب العرب في بحارهم، الأمر الذي لم تكن السلطات البريطانية في الهند تتغافل عنه في هذه الفترة إلا مضطرة، وذلك لأنها كانت تضطلع بأعباء مهمات عسكرية أخرى أكثر إلحاحاً في مناطق أخرى في الشرق.

منيرفا

ازدادت بهذا النجاح الذي حقّقه العرب عدّتهم وقوي عتادهم وتنامت قوتهم، وراودهم الشعور بالفخار جرّاء الانتصارات التي حققوها بهجماتهم "المذلة" على العلم البريطاني، فازدادوا جرأة فوق جرأتهم. هاجم القواسم في عام ١٨٠٦م المركب منيرفا الذي كان في طريقه إلى البصرة. أحاط بمنيرفا عدد من المراكب القاسمية التي تبحر دائماً في مجموعات يعاضد بعضها بعضاً. واستمرت مقاومة منيرفا لصدّ تلك الهجمات العنيفة المتقطعة لعدّة أيام. وراح القواسم يتعقبونه حتى واتهم الفرصة حيث مكنتهم قوّتهم العددية من اعتلائه، ويدّعي سلك أنهم أحدثوا فيه مذبحة كبرى. وقيل إن قائده لقي حتفه ثم قُطّعت جثته إرباً إرباً وأُلقي بها في البحر قطعة إثر أخرى. ولم ينجُ من المذبحة سوى النائب الثاني للربان وأحد الفنيين، ويعتقد

سلك أن العرب ربما استبقوهما للإفادة من خبرتيهما، كما نجت أيضاً زوجة الكولونيل تيلر، وهي أرمنية، ودخلت في معاناة الأسر.

يضيف سلك أن المركب منيرفا اقتيد إلى رأس الخيمة حيث جُهّز بعشرين مدفعاً من عيارات مختلفة، وأرسل للإبحار في الخليج. واحتفظ القواسم بمساعد الربان في رأس الخيمة، فيما كانوا يرسلون الفني إلى المناطق الداخلية للحصول على مواد تصنيع القذائف والمتفجرات. أما السيدة تيلر فقد أطلق سراحها بعد عدّة أشهر حين افتداها زوجها بمبلغ كبير.

سلايف ونايلوتيلوس

في غضون أسابيع قليلة بعد هذا الحادث - كما يقول بكنجهام - هوجم سلايف، المركب البريطاني ذو الثمانية مدافع، وهو من ناقلات شركة الهند الشرقية، وتبلغ حمولته ستين طناً. كان سلايف يبحر ضمن قافلة بحرية تحمل وفداً رسمياً برئاسة هارفارد جونز من بومباي إلى فارس، ولكنه تأخر هوناً ما عن المجموعة، وفوجئ بالداوات تهاجمه فاستسلم. ويبدو أن قائده الكابتن جراهام أحجم عن إطلاق النار تنفيذاً - في ما يبدو - لأوامر بومباي بألا يكون مركبه البادئ بإطلاق النار. وعلى الرغم من عدم مقاومة سلايف الذي لم يرسل عليهم سوى قذيفة يتيمة، فقد أصيب كافة الأفراد الذين كانوا فيه بجروح جرّاء قذائف الحجارة التي راح العرب يرسلونها على دعائمها الرئيسة قبل أن يعتلوها ويسيطروا عليها. وحين باتت السفينة غنيمة سهلة في أيديهم، أعملوا السيف في رقاب من تبقّى من الأحياء. وسقط جراهام مثخناً بجراحه في ردهة المركب عند مدخل إحدى غرفه، فسحبه بعض بحارته إلى المخزن حيث كانوا يختبئون وأحكموا إغلاق مزاليجه. أما محمد حسين خان الذي كان سكرتيراً ملحقاً بالبعثة، فقد تمكن من الاختباء في إحدى غرف السفينة.

يستطرد بكنجهام فيقول إن "الأعداء" أبحروا بالمركب في اتجاه ديارهم، يكلّلهم الزهو بالنصر الذي حققوه. و لم تمض سوى ساعات على الحدث حتى أبصر الكابتن كوربت، قائد الفرقاطة نيريد والقائد المسؤول عن المجموعة، سلايف يبحر محفوفاً من كل جانب بالداوات، فأيقن أنه وقع في قبضة القواسم. عمل كوربت من فوره على ملاحقة القواسم وأبحر صوبهم بكل ما يستطيعه من سرعة، فترك العرب سلايف وأخلوه، وأسرعوا هاربين. ولاحقهم كوربت، ولكنه لم يتمكن من اللحاق بهم لأن الفرقاطة أبطأ من الداو. واستعاد كوربت السفينة ولكنه لم يحقق نصراً رغم ما قيل من أنه أصاب إحدى الداوات بقذيفة أغرقتها.

يفيد بكنجهام بأنه لم تمضِ سوى ثلاثة أيام على هذا الحادث حتى هوجم المركب نايوتيلوس ذو الخمسة عشر مدفعاً والتابع للشركة أيضاً. ما إن دلفت هذه السفينة إلى مدخل

الخليج وتجاوزت جزيرة أنجار حتى اعترضها عند النهاية الجنوبية من جزيرة قشم بالقرب من الساحل الفارسي أسطول للقراصنة، في تشكيل ضمّ بغلة وداواً واثنين من الترانكي. كانت الترانكي، وهي مراكب ذات أشرعة ومجاذيف، تمتلئ بالرجال المسلحين بالأسلحة التقليدية، فيما كانت كل من البغلة والداو مسلحّة بمدافع كبيرة. وبدأ الهجوم على نايوتيلوس بنحو مدروس مخطط له. راح المركبان الكبيران يعترضان مسار نايوتيلوس، فيما كان مركبا الترانكي يلازمان جانبيها، يتربّص الرجال فيهما لاهتبال أول فرصة ممكنة لاعتلائها. والتزم القائد البريطاني بأوامر بومباي، فلم يطلق النار إلا حين بات القراصنة على مرأى منه وسمع أهازيجهم الحربية التي تهزأ من الموت وهم يتراقصون ويهزون سيوفهم اللامعة في الهواء، فأطلق القائد تجاههم قذيفة تحذير تلتها أخرى ولكن بلا جدوى. وعقد القائد اجتماعاً مع ضباطه تقرّر فيه إطلاق النار على المهاجمين لدرء الخطر الذي أصبح وشيكاً، فقد باتت حياتهم في خطر. وبدأت العمليات العسكرية، وتبودلت النيران مع المركبين المسلحين اللذين اضطرا إلى التراجع والهروب، وأسرع الترانكيان في إثرهما. وراحت نايوتيلوس تلاحق القراصنة وترسل عليهم وابلاً من قذائفها حتى دحرتهم، وكانت خسائرهم جسيمة، في ما يعتقد، بينما قُتل أحد الإنجليز في حمأة المعركة وقتل آخر من غيرهم.

حملة ١٨٠٩م- ١٨١٠م

يرى بكنجهام أن "هذه الاعتداءات" المتواترة أدّت إلى أن تعيد بومباي النظر في سياسة التسامح والخور بعد أن أدركت عدم جدواها، وخاصة أن الرأي العام قد بات يضجّ منادياً بالثأر للإساءة التي باتت منذ عدّة سنوات تطاول العلم البريطاني والسفن التي تبحر في حمايته. وقرّرت بومباي أن ترسل عليهم حملة مشتركة من القوات الأوروبية والهندية، تتكامل فيها سفن الأسطول مع السفن الحربية للشركة، وكذلك سفن الشحن التي يمكنها أن تقوم بأعمال الخدمة والمساندة. وقد اختير للقيام بهذه الحملة كل من الفرقاطة لاشيفوني بقيادة الكابتن وينرايت الذي عُين قائداً للأسطول، وكارولين سفينة جلالته (الأسطول البريطاني) ذات الثمانية والثلاثين مدفعاً بقيادة الكابتن غردون، إضافة إلى ثمانية من مراكب بحرية الشركة هي: مورنجتون وتيرناتي وأورورا وبرنس أوف ويلز وإيريال ونايوليتوس وفستال وفيري، وأربع ناقلات كبيرة، وكذلك إسترمبولي حاملة القنابل. أما القوة العسكرية فقد تألفت من جنود الكتيبة الخامسة والستين مشاة والفرقة السابعة والأربعين وفرقة من مدفعية بومباي، وقد بلغ عددهم الكُلي نحو ألف رجل، أضيف إليهم ألف آخرون من القوات المحلية (السباهي)، ووُضعت هذه القوّة العسكرية بكاملها تحت قيادة الكولونيل سميث من الكتيبة الخامسة والستين مشاة.

يضيف بكنجهام أن هذا الأسطول بدأ بإبحاره في شهر سبتمبر، وغرقت إسترمبولي ولما تكن قد غادرت الميناء بعد، وغرق معها عدد كبير من بحارتها بمن فيهم الضابط سيلي، من سلاح المدفعية، والليوتنانت تيلور من البحرية. وأبدى بكنجهام دهشته من أن إسترمبولي، هذه السفينة التي ظلّت خارج الخدمة لفترة امتدت لأكثر من ثلاث سنوات لأنها غير صالحة للملاحة، تُعاد للعمل ليس للمساندة فقط، ولكن لتحمل شحنة من القنابل تنوء تحت ثقلها أعتى السفن الحربية الأخرى وأقواها. وأضاف أن العاقبة الحتمية لهذا الإجراء غير السديد، أو لنقل المتسرّع البليد، أن فقدت الحملة تلك السفينة وخسرت معها القنابل التي هي العتاد الأساس لذلك الأسطول الذي يُمثّل القذف المدفعي مهمته الأساس، إضافة إلى ما أدّى إليه غرقها من فقد لضابطين "عزيزين" وعدد من البحارة الذين كانوا على متنها.

وصل الأسطول بعد رحلة شاقة إلى مسقط التي قضى فيها وقتاً للراحة والتخطيط للهجوم والإعداد لتنفيذه. وقد أتاحت هذه الفترة من الاسترخاء للعدو الاستعداد للمواجهة. وأخيراً تحرك الأسطول إلى رأس الخيمة، قصبة قراصنة الخليج، وأنزل جنوده هناك تحت غطاء كثيف من نيران السفن والقوارب. وتدفقت حشود كبيرة من المواطنين لصدّهم، ولكن الجند أظهروا من الثبات والشجاعة إضافة إلى دقّة التنظيم ما أدى إلى تفوقهم. وصدر الأمر بإعلان عام يقضي باستباحة المدينة، فاشتعلت من ثمّ البلدة ناراً لم يسلم منها أي حيّ من أحيائها. وأحرقت الحملة حوالى ستين شراعاً بما في ذلك منيرفا التي كان القواسم قد استولوا عليها سابقاً والتي كانت راسية في الميناء. وهكذا تمّ غزو المكان تماماً والسيطرة عليه من دون خسائر تُذكر في أرواح الجند المهاجمين. و لم يصب الجنود المهاجمون من السلب إلا القليل، فقد تمكن القواسم من ترحيل مقتنياتهم وإخلاء المدينة من المنقولات والأموال التي كانوا قد نقلوها إلى الدواخل ما إن عرفوا بتحرك الحملة تجاه بلادهم. و لم تعثر الحملة على الفني الذي كان القواسم قد أسروه في منيرفا، ولكنهم عثروا على مفكرته التي ضمّت مذكرات عن اليوم السابق للقتال، ما يُوحي بأنهم قتلوه مع بداية الاشتباكات.

ما لبثت جذوة النصر أن خبت حين ورد تقرير يفيد بتدفق قوات كبيرة من الظهير لنجدة المدينة. ورغم عدم وجود أي مؤشرات على صحّة التقرير، أصيب القادة بالهلع، وصدر الأمر للجند الغازي بالكفّ عن النهب والسلب وبالانسحاب فوراً. وبدأ الجنود بالانسحاب تلاحقهم نيران المواطنين الذين استعادوا روح التحدي حين رأوا الجنود يتقهقرون، ما أهّلهم لادّعاء النصر. وما إن انبثق نور الصباح التالي حتى أبصر الجنود وهم على متون السفن جموع المواطنين تتجمع عند الساحل تنشر أعلامها وتطلق تجاه السفن نيران بندقياتها وتلوّح بسيوفها وحرابها في الهواء. ولعلّ في هذا المشهد ما يفيد – كما يقول بكنجهام – بأن الغزو لم يحقق هدفه المنشود، وبأنّ الحملة لم تظفر بنصر ناجز. ويضيف: "كم أسف الضباط على سرعة

انسحابهم من دون أن يستكملوا النصر الذي بدا وشيكاً". ويقول بكنجهام إنه لا يدري ما إذا كان الانسحاب قد جرى نتيجة لتعليمات سابقة من بومباي أو كان نتيجة أن القادة في الميدان قد جبنوا واختاروا عدم المواجهة.

انسحبت الحملة من رأس الخيمة وأبحرت إلى لنجة، وهو ميناء آخر للقواسم على الساحل الفارسي. وتراجع الأهالي إلى الجبال في المنطقة الداخلية حاملين معهم كل منقولاتهم. وتمكنت الحملة بعد ذلك من الاستيلاء على المدينة من دون مقاومة، فأحرقوها عن بكرة أبيها وأصبحت أثراً بعد عين، أرضاً بلقعاً، كما دمّرت الحملة البريطانية كل المراكب التي كانت راسية عند ذلك الساحل.

اتجه القسم الأكبر من الأسطول البريطاني من لنجة إلى مسقط للتزود بالإمدادات، أو ربما رؤي عدم الحاجة إليه في ذلك الموقع، فلا دور له يمكن أن يقوم به في العمليات اللاحقة. وأبحر قسم ثان من الحملة لتمشيط مسارات الخليج، فيما سارت سفن القسم الثالث والأخير من الأسطولِ الذي ضمّ الفرقاطة لاشيفوني ومورنجتون وتيراناتي ونايلوتيلوس وفيري وسفينتي نقل من لنجة إلى لفت، وهو ميناء آخر للقواسم يقع في القسم الشمالي من جزيرة قشم. وكان جنود هذا القسم من الحملة من البريطانيين بصفة أساسية، وقد بلغ عددهم نحو خمسمئة رجل. ولما كانت القناة البحرية المؤدية إلى لفت ضيقة، فقد صدر الأمر إلى القوارب أن تُربط إلى مراسيها على مسافة ما من البلدة. ونزلت أرتال من الجند، ولكنهم ووجهوا بمقاومة من المواطنين الذين كانوا قد استعدوا لصدّ الهجوم، واتخذوا لهم مواقع دفاعية، فقد تحصّنوا في قلعة كبيرة قديمة نُصبت عليها بطاريات مدفعية. وكانت القلعة بدورها محصّنة بحواجز طبيعية، أضافت أيدي المواطنين إلى حصانتها أبعاداً أخرى.

تقدم الكولونيل سميث على رأس قواته للنزال، وجرت عدّة مناوشات تراجعت بعدها حشود المواطنين إلى القلعة ليحتموا بها. كانت سماكة سور القلعة بالغة، فقد وصلت – في ما قيل – إلى حوالى أربع عشرة قدماً، تتخللها كوات إطلاق الرصاص، ولم يكن فيها سوى بوابة واحدة منيعة تدعمها قضبان حديدية بالغة الصلابة ومزاليج ضخمة. وكانت القوّة البريطانية المعتدية تجرّ معها مدفعاً ضخماً أعدّ خصوصاً لهدم مثل هذه الحصون. واستقرّ الرأي على نسف تلك البوابة بقذائف هذا المدفع، على أن يتبع ذلك هجوم خاطف للسيطرة على القلعة. وحين أصبحت القوّة على مقربة من القلعة، فوجئت بإطلاق نار كثيف من الكوات لم تكن تتوقعه. وتقهقرت القوّة أمام كثافة النيران وتراجعت تاركة خلفها ذلك المدفع الذي لم يرسلوا منه ولو قذيفة واحدة. واحتمى الجنود المهاجمون وقادتهم بالتلال وسلسلة عروق الرمال الواقعة تحت أسوار القلعة مباشرة. وحاول ضابط إيرلندي إنقاذ المدفع، فانطلق من مكمنه في اتجاهه مباشرة، وأصدر إشارة إلى زملائه بأن يحذوا حذوه، ولكنه عُوجل بطلقة أوردته هلاكه

من فوره. وارتفعت بعض الرؤوس لتتدبر طريقاً للخلاص، فطارت من فورها في الهواء. واضطرت القوّة إلى البقاء في مكامنها حتى أليل الليل، فخرجت تحت جنحه منسحبة إلى الساحل تجرّ أذيال الهزيمة. ومع ذلك فقد أرسل القائد من هناك إلى شيخ القلعة يطالبه بإخلاء القلعة والتسليم قبل الثامنة صباحاً، وهدّد بأنه سيصلي القلعة من مدافع السفن ناراً حامية.

أسفر الصبح وتطلعت العيون من السفن نحو القلعة وراعهم ما رأوا. كان هناك رجل يُلوّح من أعلى القلعة بعلم الاتحاد (البريطاني) ولم يكن ذلك الرجل سوى الليوتنانت هول، قائد إسترمبولي التي كانت قد غرقت قبل أن تبدأ مهمتها، وكان قد نجا منها سباحة وتسلّم بعدئذ قيادة فيري. تقدم هول خلال الليل إلى القلعة وهو لا يحمل في يده سوى العلم البريطاني. وحين وصل إلى بوابة تلك القلعة التي كان الكثير من المواطنين قد هجروها خلال الليل هربت البقية الباقية منهم حين أبصروا هذا القائد يسير نحوهم في ثبات. ويتساءل سلك: هل اقتنع الهاربون بعدم جدوى المقاومة أم هم هجسوا بأن من غير المعقول أن يسير إليهم هذا القائد فرداً غير متبوع بجيش جرّار يسير خلفه فآثروا الفرار؟ ومهما كان الأمر، فقد أخلى المواطنون القلعة فاحتلها ذلك الضابط الجريء وراح من أعلى أسوارها يُلوّح لزملائه الذين ألجمتهم المفاجأة برؤية العلم المكلّل بالنصر، فلم يجدوا إزاء ذلك إلا التعبير عن الإعجاب بما قام به ذلك الضابط. وسُلّمت المدينة بعد ذلك لجماعة الإمام الذين كانوا يرافقون الحملة، فالمدينة كانت تابعة للإمام سابقاً، وكان القواسم قد استولوا عليها منه.

من ثم تحركت الحملة إلى مغو الذي هو ميناء صغير يقع على الساحل الفارسي، ثم يمّمت بعد ذلك الساحل المقابل إلى حيث الشارقة والجزيرة الحمرا والرمس والمناطق المواجهة لرأس الخيمة. ولم تقم الحملة بأي عمليات قتالية في تلك المواقع، إلا ما كان من تدمير بعض المراكب العربية التي وجدتها في طريقها. وكان هذا الإجراء الأخير هو أقصى ما سمحت به حكومة بومباي لقيادة الحملة، فقد توهمت الحكومة أن ذلك العقاب كان رادعاً. وقامت هذه القوّة بعدئذ بتمشيط مياه الخليج، وغادرت من ثمّ إلى مسقط حيث لحقت بالقوات التي سبقتها إلى هناك.

تحركت قوّة الحملة بعد ذلك مدعومة بحشود من قوات الإمام إلى شيناص التي تقع بين مسقط ورأس مسندم لتستخلصها من القواسم لمصلحة ذلك الإمام الذي كانت تلك المدينة سابقاً في حوزته. وحين أصبحت القوّة في مواجهة البلدة، أرسلت إلى شيخها في قلعته إنذاراً وطلبت إليه التسليم، لكنه رفض أن يستجيب. وفتحت القوّة نيران سفنها على البلدة، لكنها لم تحدث نتيجة تُذكر. وفي الصباح التالي أنزل جميع أفراد القوّة إلى الساحل ومعهم البطاريات الأرضية وجميع ما يستلزمه الحصار، وأقامت القوّة معسكراً لها هناك. وفي الأيام اللاحقة أرسلت القوّة حوالى أربعة آلاف قذيفة تجاه القلعة التي هرع إليها المواطنون

مستعصمين بها طلباً للنجاة بعد أن أحرقوا بيوتهم بأيديهم. وبدا لقادة الحملة أن فتح ثلمة في القلعة أمر ممكن، وكان ذلك مدعاة لتركيز التصويب عليها. واستعرت مقاومة المواطنين الذين شهد بكنجهام باستبسالهم حين قال إن العربي يظلّ في مكمنه يقاتل ما مكّنه معصمه من الإمساك بمقبض السيف أو من رفع حربته إلى أعلى من خلال ركام أسوار تلك الأبراج، لا يردّه عن ذلك حتى وإن أصبح مطموراً في خرائبها بنحو لا يرجو بعده أن يبلغ النجاة. وقد قيل إن خسائر العرب من القتلى والجرحى قد بلغت ألفاً في تلك المعمعة. وسُلّمت القلعة بعد الاستيلاء عليها إلى قوات الإمام. و لم تعثر الحملة هناك على مراكب لتدمرها، فطبيعة المكان لم تكن تهيّئ ملاذاً للسفن. ولعلنا نلاحظ هنا بداية لمشكلات تحديد السيادة والهوية القومية في الخليج التي عملت بريطانيا على حسمها بما يتفق واستراتيجياتها الدائمة واستثماراتها اللاحقة من دون النظر إلى عدالة هذا الحلّ أو ذاك. عمد البريطانيون عين عملوا على تحديد السيادة القومية في الخليج إلى شقّ الخليج قسمين بموجب خط وهمي: قسم فارسي بين وآخر عربي بين، وبينهما نطاق حرام من المياه والجزر، تُوزع فيه السيادة على ضوء قواعد قد تبدو متناقضة أحياناً ولكنها توافق استراتيجياتهم وتماشي تحولاتها. حبس البريطانيون بهذا الخط كافة السفن العربية المسلحة عن الساحل الشرقي للخليج، وأخذت المواقع العربية هناك تذوب وتسقط في النهاية للدولة الفارسية. وضمنت الاستراتيجية البريطانية تأمين خط مواصلاتها في الخليج، خاصة بعد أن حكمت بالجزر المأهولة بالعرب الواقعة قرب ذلك الساحل الشرقي لفارس أيضاً. ففارس لم تكن تملك قوّة أسطولية تنازع البريطانيين السيطرة هناك، كما لم تكن لحكومات إيران اهتمامات دائمة بجزر الخليج، ما مكّن بريطانيا من تولّي السيطرة عليها باسم الحكومة الفارسية من خلال الخط الوهمي المذكور سابقاً، وعن طريق الهدنات البحرية المعقودة مع العرب. وقد لقيت هذه التسويات في فترات لاحقة نقداً من بعض العرب المهتمين بالشأن الخليجي. ونعتقد أن علينا حين ننظر إلى هذا الأمر أن نسأل عمّا إذا كانت السيادة على الأرض هي حقّ لتلك الدولة المركزية العريقة أم هي حقّ للقبائل المقيمة على تلك الأرض منذ أمد بعيد، حتى وإن اختلفت هويتها القومية عن هوية العديد من العناصر المكوّنة لتلك الدولة المركزية التي كانت علاقتها بشيوخ تلك القبائل علاقات تحالف فقط. ويتطلب الجواب عن هذا السؤال بحثاً علمياً لمسألة تجاوزها الزمن، حتى لم يعد هناك طائل من وراء بذل مثل هذا الجهد لاستجلائها. أما الجزر العربية الواقعة عند الساحل الغربي في الخليج فقد حددت بريطانيا تبعيتها لهذا الجانب أو ذاك من العرب بحسب قبول هذا الحاكم أو ذاك بـ"النصيحة" البريطانية، كما أخذت السياسة البريطانية في الخليج في اعتبارها في هذا الصدد أيضاً قوّة الحكومة الفارسية وضعفها، وكانت بريطانيا غالباً ما تحرص على استرضاء فارس لما لها – حتى في حال ضعفها – من أثر لا يستهان به في المجال الدولي. ومع ذلك فقد كان في

الخليج عدد من الجزر التي ارتكزت عليها قواعد السيطرة البريطانية على دروب البحر، وما كان لبريطانيا أن تُفرّط في السيطرة عليها مهما رفض حاكمها العربي قبول النصيحة البريطانية أو مهما بلغ شأن قوّة حكومة إيران المركزية.

يقول بكنجهام إن جوّاً من القناعة ساد أوساط الحكومة في بومباي بأن الحملة قد أنجزت أهدافها بالقدر الكافي، فأصدرت أمرها للقوات بأن تعود إلى قواعدها، وإلى مراكب الشحن بأن ترجع إلى مراسيها في بومباي، على أن تظلّ الفرقاطات والمراكب العسكرية الأخرى في الخليج لعدّة أشهر أخرى لتعمل على تطهيره قبل أن تتفرق. ويرى بكنجهام أن الحكومة أخطأت التقدير، فالحملة – في تقديره – لم تحقق أهدافها. ويضيف أن استتباب الأمن في هذه البحار لن يتحقق إلا باستئصال تام واجتثاث ناجز لهذا العنصر البشري! ويقول إن ما أنجزته هذه الحملة لا يزيد على حمل القواسم على احترام العلم البريطاني، أو إنهم ربما أصبحوا يخشونه لفترة قد تمتدّ إلى عدّة سنوات لاحقة.

اتفاق قصير الأمد

يفيد سلك أنه لم يمضِ وقت طويل بعد انتهاء هذه الحملة حتى أوفد القواسم مبعوثاً إلى بروس، مندوب الشركة البريطانية في بوشهر، لتسوية بعض شؤونهم ولعقد اتفاق لتنظيم العلاقة بين الجانبين. وأُبرم الاتفاق الذي نصّت بنوده على احترام القواسم العلم البريطاني بنحو قاطع، وعلى قيام صداقة أبدية بين الجانبين. ويشير بكنجهام إلى أن صياغة هذا الاتفاق قد جرت وفق النمط السائد بين القوى الأوروبية الأرقى والدول الآسيوية، ويرى أن عقده مع هذه الجماعة لا يتّسم بصدق النيّات، وأنه لن يجد طريقه إلى التنفيذ. ويضيف: "فقد كانت هناك دائماً نيّة مبيتة من قبل العرب للحنث بالعهد والنكوص عنه متى ما تهيّأت لهم الفرصة أو تهيّأ لهم أنهم يمكن أن يحقّقوا من وراء نقضه مكسباً".

كرّ المبعوث عائداً إلى رأس الخيمة حيث التقى الشيخ والأعيان. وسُئل الرجل عمّا أنجزه فأجاب في زهو بارز، ظناً منه بأنه سينال الاستحسان من مستمعيه، بأنه قد ساوى بين القواسم والإنجليز بهذا الاتفاق الذي أبرمه، والذي نصّ على أن المعاملة بينهما تقوم على قدم المساواة والتماثل في مراعاة الحقوق والالتزامات المتبادلة. وهنا انبرى له أحد "المتعصبين" فحمّل الكلمات ما لم تحتمله من معان لم يرم إليها ذلك المبعوث البتّة. احتجّ الرجل بأن من العار على المبعوث أن يُساوي بين الكُفار والأجانب، أو بينهم وبين البقية الباقية من أهل الأرض الذين لا يزالون قائمين على عبادة الله الملك الحقّ. ونادى ذلك الرجل في الجمع بضرورة أن يُعاقب المبعوث على الجرم الذي ارتكبه بعقده هذا الاتفاق. وما إن قدح الرجل هذه الشرارة

حتى اندلعت ناراً ألهبتها الحماسة واضطرمت بوقود الفخار الديني وغلت دواخل الصدور بما لا يمكن السيطرة عليه. لعن القوم ذلك المبعوث الذميم وعاقبوه بنتف شعر لحيته من جذوره ومسحوا وجهه بالبراز، وأركبوه على حمار جاعلين وجهه إلى ذيل الدابة، وطافوا به وهو على هذه الهيئة في المدينة يشيّعه صراخ الصبية وزعيق النساء ليكون عبرة لمن يعتبر، فلا يأتي بحدث مماثل. ولا ندري إن كانت هذه الرواية حقيقية أو أنها من نسج الخيال، ولكننا لا نميل إلى تصديقها، فلن يرسل القواسم، أو في الحقيقة الوهابيون، مبعوثاً ليفاوض الإنجليز عنهم ما لم يكن من رؤساء العشائر والقبائل، ولن ترضى تلك العشيرة أو القبيلة التي ينتمي إليها ذلك المبعوث من الآخرين من أمثالهم الإساءة إلى رموزها على هذا النحو المشين. أما العقاب بمسح وجه الرجل بالبراز فتلك كذبة كبرى، لأن مثل هذا العمل يتعارض مع كافة الأعراف والتقاليد وضروب الثقافة السائدة ذلك المجتمع.

يسترسل بكنجهام ليحدثنا عن تاريخ عقوبة نتف اللحى، وينقل بعض المتواترات في القصص الديني من العهد القديم، ما يجعلنا نُرجّح أنه صاغ روايته في إشارة منه إلى القارئ الغربي إلى أن العربي في الخليج سادر في بدائيته وما زال يعيش عصر الآباء الأوائل. يحكي بكنجهام عن مبعوثي داؤد عليه السلام الذين أرسلهم إلى ملك العموريين في ما وراء نهر الأردن، وعدّهم ذلك الملك جواسيس فحكم عليهم بحلاقة نصف لحاهم وقصّ ثيابهم وتقصيرها إلى مستوى الأرداف. ويضيف بأن حلق اللحى كان يُعدّ الطامّة الكبرى، إلى درجة أن داؤد حين سمع بما وقع على رسله من عقاب أوفد إليهم من يقابلهم في طريق عودتهم ليطلب إليهم أن يمكثوا في أريحا لفترة حتى ينبت شعر لحاهم مرّة أخرى قبل أن يعودوا إليه، وقد كان رجال الوفد العائدون إليه من وراء الأردن في حال من الحرج البالغ جرّاء ما نزل بهم من ازدراء. ويستطرد فيقول إن أهل أسبرطة كانوا أيضاً يعاقبون الجبناء الذين يرتدّون على أعقابهم في الحرب بحلق نصف لحاهم. أما العرب فيُحكى أن أحدهم أصيب بطلقة في فكه فاختار – كما يقول بكنجهام – أن يفقد حياته على أن يحلق لحيته لتأمين علاجه. ويسوق هذا الرحالة عدداً من القصص ليدلل بها على قدم هذه العقوبة وكيف أنها تُعدّ مذلة جداً. ويضيف أن البعض يعاقبون بنتف شعر اللحى لا بحلاقته، وهذا ما كانت أثينا القديمة تفعله بالزناة، وأن فارس القديمة كانت تعاقب بالنتف أيضاً. ونقل عن بلوتارخ أن كسرى ملك الفرس استعاض عن نتف لحى كبار قادته الذين يرتكبون الأخطاء بنزع عماماتهم المميزة لهم. ويضيف سلك عن أن أباطرة الرومان قد مارسوا هذه العقوبة أيضاً، فقد أمر دومشيان بحلق لحية الفيلسوف أبولونيوس. ويعود سلك إلى قصصه التوراتي مرّة أخرى ويقول إن نحميا قد أنزل عقوبة نتف اللحى ببعض اليهود الذين تزوجوا بنساء من أشدود (عمون) ومواب، وأنهم حاكوا بذلك "سليمان الذي لا مثيل له بين ملوك الأرض الذي أوقعته النسوة الأجنبيات في

الخطيئة". نعوذ بالله من سفسطة هذا المتحذلق التي تورث الكفر. ويضيف هذا الرحالة أن النتف كان أكثر إيلاماً من الحلاقة، ويلاحظ أن البعض كان يضع الرماد على المنطقة المنتوفة للتخفيف من حدّة الألم.

ما بعد الاتفاق

يقول سلك بكنجهام إن القواسم قاموا بعد ذلك بعدّة عمليات صغيرة ضدّ الملاحة الإنجليزية، وكان هناك شكّ في بومباي في أن تلك العمليات تمثل انتهاكاً للاتفاق المبرم، وزادت تلك الانتهاكات في قوّة القواسم وأضافت إلى همّتهم بُعداً جديداً وضاعفت من فخارهم. وجرت عدّة اشتباكات بين المراكب القاسمية وأخرى تابعة لبحرية بومباي كانت تحرس المراكب العربية التي تسير في قوافل تحت حراسة العلم البريطاني. ووقع بعدئذ حادث قطع الشك باليقين من أن القواسم كانوا توّاقين للانتقام، وأن تلك الرغبة لديهم قد تنامت طرداً مع تنامي قوتهم. فقد عملت مراكب القواسم منذ عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م، وقد تضاعفت أعدادها عند مدخل البحر الأحمر، على تعويق الملاحة في ذلك البحر. وقام الأمير إبراهيم في عام ١٨١٦م بالاستيلاء على أربعة مراكب تابعة لسورات على مقربة من مخا وسلبها شحناتها الثمينة. وكانت تلك المراكب ترفع العلم البريطاني وتحمل تصاريح مرور بريطانية أيضاً وتخضع للقانون البريطاني. وذبح القواسم، كما هي عادتهم - كما يقول بكنجهام - بحارة تلك المراكب و لم ينجُ من الموت منهم إلا جماعة قليلة عادت لتحكي تلك القصة.

مضت عدّة أشهر قبل أن تدقق بومباي في ملابسات الحادث، ولكنها ما إن استوثقت من صحّته حتى قرّرت إرسال حملة إلى الخليج الفارسي. وتألفت الحملة من المركب الشراعي التابع للأسطول البريطاني شالنجر ذي الثمانية عشر مدفعاً، إضافة إلى فرقاطتي الشركة ميركيوري ذات الأربعة عشر مدفعاً وفستال ذات الاثني عشر مدفعاً. وحمل الأسطول رسالة إلى بروس، المقيم في بوشهر، تطلب إليه الاحتجاج على هذا العمل، وأمراً بأن يحمل إلى شيخ القواسم عدّة مطالب للعمل على معالجة الوضع وفق الاتفاق المبرم بين الطرفين.

خرجت قطع الأسطول من بومباي في أوائل سبتمبر، وواجهت في إبحارها عدّة صعوبات، منها أن ميركيوري فقدت بفعل الرياح شراعها الأساس. وتمكنت شالنجر بعد رحلة مضنية من الوصول إلى بوشهر في النصف الثاني من نوفمبر، وتبعتها بعد عدّة أيام فرقاطتان. وتزامن مع وصولهما أيضاً وصول السفينة إيريال من البصرة، فوجّه بروس إيريال بحمل رسالة إلى شيخ رأس الخيمة، وكلف مبعوثه بالتحري عن الأمر وتوبيخ الشيخ لخرقه الاتفاق المبرم بين الجانبين بتعدّيه على العلم البريطاني. أبحرت إيريال إلى رأس الخيمة وعادت بإنكار صريح من ذلك

الشيخ بأن القواسم قد قاموا في الوقت المشار إليه بأي تعدٍّ على أي مركب بريطاني من أي نوع في منطقة البحر الأحمر. وأنكر الشيخ بصفة خاصة أي تعرض من جانبهم لأي سفينة تابعة لسورات. وأضاف الشيخ أنهم لا يعتبرون أن تعرضهم لسفن سورات - حتى إذا وقع - تعدّياً على البريطانيين وخروجاً على الاتفاق المبرم، فشروط الاتفاق تقتضي بعدم التعدي على المراكب التابعة للبريطانيين "من طائفة عيسى" عليه السلام فقط، وأنهم لم يقيّدوا أنفسهم في الاتفاق المذكور، و لم يحدث لهم أن التزموا أبداً، وأنهم لن يتنازلوا البتّة عن حقّهم المشروع في تصيّد سفن الهندوس "الوثنيين" والعمل على تخليص الأرض من عبدة الآلهة الوثنية.

تقرر بعد فشل هذه البعثة أن يقوم بروس بنفسه مع تيلور وهيئة موظفيه من كتبة ومترجمين ومن إليهم بالتوجه إلى رأس الخيمة لإبلاغ شيخها رسالة حكومة بومباي لمعالجة هذه المسألة. وتقرر أن ترافق هذه البعثة كافة المراكب الحربية الموجودة حتى تسبغ عليها هالة من الهيبة يمكن أن تدفع بالقواسم إلى الرضوخ لمطالب بومباي. تركّزت مطالب بومباي على وجوب إعادة مراكب سورات وما حملته من سلع أو التعويض عنها بما مقداره اثنا عشر لخ ربية. كذلك طالبت بومباي بتسليمها الأمير إبراهيم لمعاقبته على ما اقترفه من جرم، إضافة إلى تسليمها اثنين من وجهاء القواسم رهينة لضمان حسن سلوكهم في المستقبل. وتنتهي الرسالة التي حملها بروس ورفاقه إلى أن بومباي يمكن أن تتغاضى عما حدث وتعفو عنه إذا استُجيب لمطالبها كاملة وأمضاها القواسم من دون أدنى اعتراض. ووجهت بومباي بروس في حال عدّ القواسم هذا التسامح ضعفاً ورفضوا هذه المطالب إلى أن يُعلم الشيخ بأن عليه أن ينتظر ما يجرّه عليه رفضه من عدم رضى الحكومة البريطانية وغضبها مما لحق بعلمها من إساءة. وطلبت بومباي إلى مقيمها أن يغادر والأسطول المرافق له ذلك الميناء بعد تبليغ الشيخ الرسالة، وعليه ألا يحاول القيام بأي عمليات عسكرية في حال رفض الشيخ الاستجابة للمطالب المذكورة.

الطريق إلى رأس الخيمة

وصل المركب الذي كان عليه سلك بكنجهام إلى قبالة الشارقة ليل ٦ المحرم ١٢٣٢/٢٦ نوفمبر. ويورد هذا الرحالة أن الشارقة ليست جزيرة كما ورد عند نيبور، بل هي مدينة صغيرة تقوم على ساحل رملي في الجانب العربي من الخليج، يتراوح عدد سكانها بين خمسمئة وستمئة نسمة. وتقع الشارقة على بعد حوالى أحد عشر فرسخاً من جزيرة صغيرة هي الجزيرة الحمرا التي لا يفصلها عن أبو حايل سوى ثلاثة فراسخ. ويضيف سلك أن هذه المناطق ترسل مراكبها إلى البحرين في أشهر الصيف للعمل "في الهيرات". أما في فترة الشتاء، حين يتعطل هذا العمل، فإنهم يحصلون على قوتهم مما تنتجه أرضهم من تمور وما تدرّه قطعانهم من

ألبان، وعلى ما يصيبونه من أسماك تمتلئ بها سواحلهم. ويورد أنهم يجلبون أرزاً من مسقط والبحرين اللتين تستوردانه بدورهما من السواحل الفارسية، أما الذرة فهي في الشارقة شيء يكاد يكون نادراً.

تقع فشت التي هي منطقة فقيرة ذات كثافة سكانية منخفضة على مسافة أقل من ساعتي إبحار من الشارقة. أما عجمان التي هي مدينة ساحلية صغيرة، فتقع على بعد عدّة ساعات إبحار إلى الشمال الشرقي من فشت، ويتراوح عدد سكانها بين أربعمئة وخمسمئة نسمة. ولا يعمل أهل عجمان مثل أهل الشارقة في مغاصات اللؤلؤ، بل يعتمدون اعتماداً كاملاً على صيد الأسماك المتوافرة عند سواحلهم وعلى بساتين تمورهم وألبان قطعانهم كذلك. ولا يتوافر لديهم الأرز ولا أي من أنواع البقوليات الأخرى، شأنهم في ذلك شأن سائر أهل المنطقة.

يعمر ظهير هذه المنطقة التي هي عبارة عن سهل رملي منبسط يمتد إلى مسافة عدّة فراسخ، قبل أن يتصل بسفوح سلسلة الجبال، عدّة عشائر عربية عمادها بنو قتب والنعيم، وهما قبيلتان كبيرتان يسكن أفرادهما خيام الوبر وتقوم ثروتهما الرئيسة على الإبل. ويلاحظ بكنجهام أن وجود الخيول في هذه المناطق نادر، وكذلك الأغنام، فوجودها في تلك الأماكن لا يكاد يُذكر. وحدثنا سلك عن بني ياس الذين هم أكثر نفراً من بني قتب ومن النعيم، ويسكنون في ما وراء سلسلة تلك الجبال. وذكر أنهم بدو أقحاح أقل تحضّراً وأبلغ بدائية من القبيلتين المذكورتين آنفاً، ولكنهم مثلهم لا يسكنون الخيام. ولا يعرف الياسيون فراشاً سوى الغبراء، ولا لحافاً إلا السماء، ولا من ضروب الثروة غير الإبل التي يتخذون من وبرها ملابسهم وخيامهم، ومن ألبانها أقواتهم، ولا يعرفون طعاماً غير مستخرجات ألبان تلك الإبل من الزبد والجبن واللبن (الرائب). واتهم الياسيين بأكل لحم إبلهم النافقة، مضيفاً أن ذلك لا يحدث إلا نادراً. يسكن بنو ياس متاهات رملية جرداء لا يتوافر فيها من مصادر المياه إلا القليل، وماؤهم – على شحّه – مرّ جداً غير مستساغ الطعم البتة، لا يروي ولا يطفئ الظمأ، ولا يستطيع المرء تجرّعه إلا إذا بلغ منه العطش مبلغاً لا مزيد فوقه، فيضطر إلى أن يرتشف منه ما لا يكاد يبلّ به ريقه. ولا ترد إبل بني ياس هذه المياه الشحيحة المرّة إلا مرّة كل يومين أو ثلاثة، وتستغني عنها برعي النباتات الشوكية المرّة المذاق المبعثرة فوق تلك السباسب التي لا تعرف أي شكل آخر من أشكال المزروعات، ما يجعلهم يجهلون طعم الثمار. أما البقوليات من أرز وذرة وصنوفها الأخرى، فلا يكادون يعرفون لها طعماً. ويقول سلك بكنجهام إن قبائل المنطقة من بني قتب والنعيم وبني ياس وغيرهم مسلمون من طائفة الوهابيين، ملتزمون دينياً، لا يُفرّطون. ويبلغ شغفهم بدينهم حدّ التضحية بأنفسهم لنصرته في أي زمان ومكان مهما غلا الثمن. ويحدثنا بكنجهام بعدئذ عن أم القيوين التي استشرفتها مراكبهم صباحاً، والتي تقع في اتجاه الشمال الشرقي من عجمان على خط الساحل على مسافة إبحار لا تزيد على ساعتين منها، فيقول

إن مراكب الحملة أبحرت على بعد حوالى ثلاثة أميال من سواحلها والتزمت عرض البحر خشية من أن تجنح وتعلق غواطسها في ضحضاحاتها. ويضيف أن ساحلها رملي أبيض تنمو فيه أشجار النخيل، وترتفع في الأفق البعيد في ما وراء ذلك الساحل قمم تلال مكسّرة تجري في اتجاه شمالي.

يذكر سلك أن لأم القيوين أسطولاً كبيراً من المراكب، استطاع أن يحصي منها حوالى عشرين كانت راسية عند الساحل ناشرة قلاعها ربما للإبحار إلى رأس الخيمة أو غيرها من المرافئ. وقد أبحر عدد من القوارب الصغيرة ذات المجاذيف في اتجاه المراكب الإنجليزية التي اعتقد قادتها أنهم يريدون التحدث إليهم، إلا أنها ما لبثت أن استدارت وعادت من حيث أتت.

باتت المراكب الإنجليزية في الساعة التاسعة مساءً في مواجهة أم القيوين تماماً التي بدت مبانيها واضحة لهم - كما يقول سلك. وتبدّت للجنود من على السفن أبراجها الدائرية الشكل التي تقع على مسافات غير متساوية بعضها من بعض والتي يربط بينها سور مهترئ. وأبصر الجنود وسط بساتين التمور التي تجاور تلك الأبراج التي يعلو أحدها سارية علم، منازل متلاصقة وأكواخاً متناثرة. ورفع السكان العلم العربي الملوّن على السارية ثم عادوا فأنزلوه. ولاحظ سلك وجود ثلاثة مراكب كبيرة في الخور أو المياه الخلفية إلى الشمال الشرقي، وقد بدت أشرعتها واضحة من خلف اللسان الرملي المنخفض. كذلك لاحظ أيضاً وجود عدد من المراكب التي أصابها البلى فأريحت عند الساحل. ويرى سلك أن ظهور المراكب الإنجليزية في المنطقة قد أصاب المواطنين بالدهشة أو ربما بالتوجس والخوف، فخرجوا أرتالاً واحتشدت جموعهم على الساحل تراقب المراكب البريطانية في حذر بالغ.

واصلت المراكب إبحارها ووصلت قبالة منطقة مأهولة تسمى بيت سالم الخميسي. ورأى بكنجهام أن اسم المكان قد يعود إلى حدث مهم أو قصّة جرت أحداثها في هذا المكان. وبعد أن حدّد هذا الرحالة الصحافي المكان بخطوط الطول والعرض قال إنه يضمّ منازل واسعة وسط آجام النخيل، وعبّر عن اعتقاده أن المكان ربما كان في يوم ما مركزاً محصّناً. وبعد أن قطعت المراكب حوالى ثلاثة أميال من بيت سالم، استشرفت الجزيرة الحمرا التي تقف على تلّ رملي صغير منخفض يفصله عن الساحل شريط مائي ضيق لا يسمح بمرور أي مركب مهما كان صغر حجمه. ويذكر أن حملة ١٨٠٩م قد خرّبت تلك المدينة تماماً، وأنها لم تستردّ عافيتها بعد ذلك، فقد هجرها سكانها منذ تلك الفترة وجلوا عنها إلى رأس الخيمة بحثاً عن الأمن المتبادل، إذ زادوا في ذلك الوقت من أعداد المدافعين عن تلك المدينة، فيما عملت المدينة على حمايتهم بما كان لها من قوّة. ويذكر سلك أن المكان كان لا يزال يضمّ عدداً من المنازل القائمة على أساساتها وبعض الأبراج التي بُنيت من الحجر الأبيض والتي يلجأ إليها السماكون أحياناً.

فترت الريح بعد أن اجتازت الحملة الجزيرة الحمرا وتكاسل دفعها وهجرت أشرعة المراكب حتى شلّت حركتها تماماً. وأخذت المراكب بعد ذلك تتهادى حتى تبدّت لها رأس الخيمة فوق خط المياه عند سفوح جبال ضخمة، في المنطقة التي تقع إلى الشرق من الشمال الشرقي من مسار المركب الذي عدّل المسار إلى هذا الاتجاه. ولاحظ سلك أن مراكبهم لم تتمكن من الإبحار في ذلك الاتجاه بأكثر من ميلين في الساعة، خاصة أن عمق المياه كان يتناقص كلما اقتربت السفن من خط الساحل.

تعارف وتعرّف

أثار وصول الحملة إلى رأس الخيمة توجساً في أوساط المواطنين الذين - كما يقول بكنجهام - كانوا معبئين لمواجهة أي إجراءات معادية قد تعمد الحملة إلى القيام بها. ويضيف أن المواطنين قضوا ليلتهم السابقة يُعدّون ما يمكنهم الدفاع به عن أنفسهم، من توفير الذخيرة والبندقيات وتجهيز المدافع والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة من على الأبراج والقلاع.

يقول بكنجهام إن شالنجر أوفدت عند انبلاج النور في فجر ٧ المحرم/٢٧ نوفمبر تيلور والملا العربي على أحد زوارقها إلى الساحل بخطاب مضمونه الاحتجاج على ما سبق أن قام به أهل رأس الخيمة من اعتداء على سفن ترفع العلم البريطاني في البحر الأحمر، الأمر الذي يناقض الاتفاق الموقّع بين الطرفين العربي والبريطاني. وطالب الخطاب الشيخ بردّ "المنهوبات" كلها أو أداء قيمتها الإجمالية التي قدّرت باثني عشر لخ ربية، كما طالب أيضاً بتسليم الأمير إبراهيم الذي قاد هذا الهجوم لحكومة بومباي لمعاقبته. ولضمان عدم الخروج عن فحوى الاتفاق، طالب الخطاب أيضاً الشيخ بتسليم الحكومة البريطانية اثنين من أبنائه رهينتين لضمان حسن سلوكه مستقبلاً. وينتهي الخطاب بتحذير الشيخ من أن رفضه هذه المطالب أو أياً منها يعني تحدّيه الصريح للحكومة البريطانية. وأمهل الخطاب الشيخ حتى ظهر ذلك اليوم لتقديم رد واضح ومحدد لتتمكن الحملة على ضوء الرد من اتخاذ الإجراءات اللازمة.

عاد الملا حامد وزميله من الساحل من دون رد على المطالب المذكورة، وقال الرجلان إنهما شقّا طريقهما من الساحل إلى بوابة المدينة التي فتح حراسها الباب لعدّة بوصات فقط كانت كافية لتسليمهم الخطاب، ثم ما لبثوا أن أغلقوه في وجهيهما فلم يجدا بُدّاً من العودة أدراجهما دون تلقّي أيّ ردّ عليه، وأفادا بأن المواطنين لم يسمحوا لهما بالتحرك في أي اتجاه سوى اتجاه الساحل.

أدرك الكابتن بردج، قائد القوّة الأسطولية، ضرورة أن يتولى تنفيذ المهمة بشخصه، وطلب إلى سلك أن يرافقه ليشد من أزره ويتولى مهمة الترجمة كذلك. وعبّر القائد لبكنجهام عن

خشيته من أن يكون الخطاب قد ضلّ طريقه إلى الشيخ، أو أن الشيخ ربما يدّعي ذلك ليتملص من تنفيذ ما ورد فيه. كذلك أفاد القائد بأنه يريد أن يتلصّص بشخصه ليتفحص عن قرب الأوضاع في المرفأ وما جاوره، ويقف على قوّة الاستحكامات وكافة ما يتصل بوسائل الدفاع عن المدينة.

انطلق الرجلان في زورق تجاه الساحل ولاحظا تناقص العمق تدريجياً كلما اقتربا منه. كانت مراكب الأسطول تقف على عمق ست قامات، فيما بلغ العمق عند الساحل قامتين ونصف القامة فقط. ولكن رغم ضحالة تلك المياه فإن أربع داوات قاسمية كبيرة مسلّحة بالمدافع ومجهزة بالرجال كانت تتمركز فيها متراصّة في مواجهة البحر المفتوح. وقد قدّمت مدافع الداوات التحية للزورق الحربي الذي ردّ بمثلها. وحين ترجّل الرجلان في الساحل وجدا نفسيهما أمام رجال مسلحين انتظموا صفوفاً متراصّة تسدّ الساحل على امتداده، حمل بعضهم البندقيات، فيما تسلح العديد منهم بالسيوف وبالحراب والدروع. كان أكثر أولئك الرجال من الزنوج الذين يستخدمهم القواسم في الحروب بصفة خاصة – في ما يقول بكنجهام – ويضيف أن الرقّ عند هؤلاء العرب لا يقتصر على الكافر والعدو فقط، ولكنه يُعدّ سلعة كسائر السلع.

يقول بكنجهام: توهّمنا بداية أن الحراس سيعترضون طريقنا قياماً بمهمتهم التي تقتضي قطع أي تقدم في اتجاه الساحل، ولكن ذلك لم يكن إلا حدساً كاذباً. تقدمت نحو الرجلين جماعة من الحراس، بادرهم بكنجهام بالعربية طالباً مقابلة الشيخ حسن بن رحمة: "فلدينا رسائل يجب أن تُسلّم له يداً بيد". واستجاب الحراس من فورهم للطلب وسمحوا لهما بالذهاب لمقابلة الشيخ برفقة اثنين منهم. لم يكن بكنجهام مُسلّحاً، فيما حمل بردج سيفاً فقط. واقتيد الرجلان عبر أزقة ضيقة تفصل بين أكواخ وأبنية صغيرة تقوم فوق أرض معشوشبة. وكان الحارسان شديدي الحرص على ألا يطّلع الإنجليزيان على عورات المدينة، فاتخذا من الاحتياطات ما يحول دون رؤيتهما أي شيء. و"لم نتمكن أبداً من أن نلاحظ أي شيء عن الخطّة التي تقوم عليها المدينة". وراح الرجال والنسوة في المدينة يتسابقون تجاه هذا الموكب ويتجمهرون لرؤية هذين الأجنبيين ويسدّون بجموعهم الطريق، وانبرى لهم حاملو الحراب من الحرس، فراحوا يفرّون في اتجاهات مختلفة.

وصل الرجلان إلى بوابة المبنى الرئيس الذي يقع في منتصف البلدة تقريباً. وهناك قابلا "شيخ القراصنة" الذي كان في رفقة نحو خمسين مُسلحاً.

ألقيت عليه تحية المسلمين: السلام عليكم، فردّ عليّ بمثل ما قلت. وصدّق الشيخ ما ادّعيته حين عرّفت بنفسي بأني تاجر مصري كنت في طريقي إلى الهند، وبما أنني أعرف لسانه كما أعرف اللغة الإنجليزية، فقد تقدمت لهذا القبطان الإنجليزي لأعينه على الترجمة وأعمل على

التقريب بين الطرفين للتواصل، إذ يحزنني أن تُراق قطرة دم واحدة نتيجة لجهل أو سوء فهم من أي من الطرفين. وتبادلنا مع الشيخ عبارات الترحيب، فدعانا إلى الجلوس.

وبما أن اللقاء قد جرى في الشارع العام حيث لا سجّاد أو حصائر أو مساند، جلسنا على الغبراء. ونقلت له استفسار بردج عمّا إذا كان الخطاب قد وصله ووعاه وفهم فحواه، وأيضاً ضرورة أن يقدم ردّه عليه في غضون الفترة الممنوحة، أي قبل ظهر اليوم. أجاب الشيخ بالإيجاب عن أسئلتنا وطمأننا إلى سلامتنا الشخصية ما دمنا على أرضه، وعبّر عن رغبته في أن تُحلّ المسائل العالقة بين الطرفين بروح الصداقة والود. وأجابه بردج مؤكداً مبادلته الأمنيات الطيبة، وأضاف أنه لن يقوم بأي عمل من شأنه خرق الثقة أو النيل من حسن النيّات. وتبع ذلك حديث قصير وجملة من الاستفسارات والردود، غادر بعدها الإنجليزيان المجلس في صحبة حراس راحوا يبعدون المواطنين عن طريقهم حتى وصلوا إلى الساحل من الطريق نفسها التي سلكوها في قدومهم.

يصف سلك الشيخ حسن بن رحمة بالرجل الأسمر الداكن اللون، الضئيل الجسم، وربما كان في الأربعين من عمره. ويرى في نظراته دهاءً وفي ابتساماته سخرية هازئة. ويضيف أن تقاطيع وجهه حسنة رغم ما اعتور إحدى عينيه، وأن أسنانه بيضاء منتظمة جميلة، وأن لحيته الخفيفة قد أحاطت ذقنه فقط لم تتعداها. ولا يزيد زيّ هذا الشيخ عن اللبس العربي المعتاد، إضافة إلى عمامة كشميرية وشال قرمزي من صنع فارس. أما أتباعه فكانوا يرتدون الزيّ العربي المعتاد فوقه عباءات طويلة وكوفيات أرخوها فوق رؤوسهم. وكانت أسلحتهم هي من النوع ذاته الذي يحمله سيدهم. حمل كل منهم سيفاً طويلاً مستقيماً عريضاً له مقبض على هيئة الصليب خال من النقوش، كبير شديد الشبه بسيوف النورمان القدماء، كما حمل بعضهم حراباً قصيرة ودروعاً مستديرة صُنعت من نوع قاس من الجلد وطعّمت بقطع معدنية بارزة دائرية الشكل.

بعد أن يحدد بكنجهام موقع رأس الخيمة بخطوط الطول والعرض، يلاحظ دقّة ما ورد في هذا الصدد في سجلات الحملة البريطانية الأولى. ويستطرد ليقول إن المدينة تقع على لسان ضيق من الأرض يمتد في اتجاه شمالي شرقي، ما يجعل شمالها الغربي في مواجهة البحر المفتوح. ويُحدّ طرف المدينة الجنوبي الشرقي بخور يجري في اتجاه الجنوب الغربي، ما يجعل الرسو آمناً في تلك المنطقة. ويضيف أن المدينة تشغل حيزاً من الأرض يمتد إلى حوالى نصف ميل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، فيما يصل عرضها الممتد بين ساحل البحر وضفة الخور إلى حوالى ربع ميل. تحمي المدينة أبراج دائرية يربط بينها سور. وينفي سلك وجود سور يطوّق المدينة بأكملها، رغم أنه لا يستبعد إمكان أن السور الذي يربط بين القلاع كان في يوم ما محيطاً بالمدينة كلها. ويلاحظ سلك أن القلعة التي تقوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة

تمثل مع البرج الدائري القائم في وسط المدينة أقوى نقاط الدفاع عن تلك البلدة، ففي كلا الموقعين نُصبت المدافع، أما الأبراج الأخرى فهي ربما كانت مؤهلة لإطلاق البندقيات فقط.

تبدو المدينة عادية في مظهرها وفي مبانيها التي شُيّدت من الحجارة غير المشذبة، أما عامة المساكن فهي عبارة عن أكواخ تقوم فوق أرض تعلوها الحشائش الطويلة السيقان. ويلاحظ أن الأزقة ضيقة متعرجة تتلوى بين المنازل والأكواخ. ويقدر سلك عدد النفوس في المدينة بنحو عشرة آلاف على الأقل، ثلاثة آلاف منهم قادرون على حمل السلاح، وأن أكثر من نصفهم من الزنوج أو من أصول زنجية. ويدير الحكومة الشيخ حسن بن رحمة بصفة شاملة من دون منازع، فيما يتولى قريبه الأمير إبراهيم قيادة القوّة البحرية للقواسم. ويذكر بكنجهام أن لرأس الخيمة حوالى ستين مركباً كبيراً يعمل على كل منها عدد يتراوح بين ثمانين وثلاثمئة، وحوالى أربعين مركباً ذات أحجام أقل تعمل من الموانئ التابعة لهم في الرمس والشارقة على الساحل العربي وجاراك ولنجة على الساحل الفارسي ولفت في جزيرة قشم. ويقدر القوّة الأسطولية التي يمكن رأس الخيمة حشدها عند الحاجة بحوالى مئة مركب على الأقل مسلحة بحوالى أربعمئة مدفع تحمل حوالى ثمانية آلاف مقاتل من مواطنيها وسكان المناطق التابعة لها، كلهم مسلح بالبندقية أو السيف أو الحربة. ويضيف سلك أن هذه القوّة البحرية لا تبحر كلها مجتمعة إلا إذا تعرضت مدينتهم رأس الخيمة لغزو. ويعزز اجتماع هذه القوّة البحرية الكبيرة حشود أخرى برية من الوهابيين الذين يمكنهم – في حال تعرض البلدة لهجوم – أن يدفعوا بمجموعة كبيرة من الرجال في مدى لا يقل عن عشرة أيام ولا يتجاوز خمسة عشر للدفاع عنها. ويضيف أن رأس الخيمة تحصل على المدافع وطلقاتها مما تستولي عليه من سفن، أما الذخيرة والسيوف والحراب فعادة ما تستورد من فارس.

يقول سلك إن رأس الخيمة تقع في سهل رملي منبسط، ويضيف أن الناحية الجنوبية الشرقية من الخور والتي تمتد منه في اتجاه الشرق عامرة بغابات النخيل الكثيفة التي تنتج من التمور ما يسدّ حاجة المواطنين وعلف دوابهم. ويضيف أن هذا السهل الرملي المنبسط الذي يتعرج من منطقة إلى أخرى ويمتد إلى حوالى عشرين ميلاً ينتهي بسلسلة عالية من الجبال الجرداء. وترتفع أعلى قمة من قمم تلك الجبال إلى حوالى ستة آلاف قدم فوق سطح البحر. ويكشف شكل تكوينات تلك الجبال أنها من الحجر الجيري، و"لكننا لم نتمكن من الحصول على عيّنات منها للتحقق من ذلك". ويلاحظ وجود طبقات رسوبية بيضاء تجري بشكل أفقي عند سفوح تلك الجبال، ما يسبغ على شكلها انتظاماً تفتقر إليه أعاليها المكسّرة غير المستوية، ويفيد أن أعلى القمم تظهر في المنطقة التي تقع خلف المدينة مباشرة وتمتد في اتجاه جنوبي شرقي، أما إلى الشمال الشرقي فتأخذ الجبال في الانخفاض التدريجي وتنتهي على شكل رؤوس صخرية بارزة في خصب وقشم. أما إلى الجنوب الغربي فينتهي انخفاضها التدريجي إلى مستوى

السهل قبل أن تذوب تماماً في الصحراء العربية التي تليها. ويحدثنا سلك عن الشحوح، سكان تلك الجبال، الذين يتميزون عن غيرهم من السكان في محيطهم بسحناتهم البيضاء الفاتحة وشعرهم الخفيف غير المجعد وعيونهم الزرق التي تحاكي عيون الأوروبيين، وأضاف أنهم يتحدثون لغة خاصة بهم يقول كل من سمعها إنها أشبه بقوقأة الدجاج.

يعيش الشحوح في القرى والخيام ويوالون شيخاً من عنصرهم، ويتوزعون في عدّة قرى أهمها شعم وخصب وجاعدي، وتسبغ كل من هذه القرى اسمها على المنطقة المجاورة لها. ولا تُعدّ موانئ ساحل الشحوح ضرباً من الموانئ إلا بالكاد، فالشحوح لا يعملون في التجارة وليس لديهم سفن حربية ولا تعمل قواربهم إلا بصيد السمك لسدّ حاجاتهم الغذائية. وينتهي بكنجهام إلى القول إنهم من أهل السنّة والجماعة وإنهم قاوموا "حتى الآن جهود الوهابيين لتحويلهم إلى مذهبهم". ولا نعرف من جانبنا لماذا اجتهد "الوهابيون" السنيّون لتحويل هذه الجماعة السنية إلى الوهابية "السنيّة" إلا أن يكون ذلك قصوراً فاضحاً من سلك في فهم الفروق بين الفرق.

يعود سلك ليستطرد في وصف الطوبوغرافيا، فيقول إن مرسى رأس الخيمة مُعرّض لعربدة الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تهبّ على الخليج. ويضيف أن القاع الرملي ينحدر تدريجاً نحو البحر اعتباراً من ثلاث قامات عند الساحل وصولاً إلى ست قامات في المنطقة، حيث يقف الأسطول. ويذكر سلك أن المنطقة التي رسا عندها القارب حين ذهبا إلى الساحل، والتي تقع على مرمى حجر من منازل البلدة، يصل غورها إلى قامتين ونصف القامة. ويقع خلف هذا مباشرة سلسلة تؤلف حاجزاً رملياً يبلغ ارتفاعه حوالى عشر أقدام تجري في موازاة الساحل لحوالى نصف ميل قبل أن تتصل به ثانية لتكوّن كاسراً للأمواج. ويبلغ عمق المياه وراء هذا الكاسر مباشرة حوالى قامتين ونصف القامة تجري في مياهه الهادئة الداوات الخفيفة، لا يفصلها عن الساحل سوى مئة ياردة تروح وتغدو آمنة وراء هذا الحاجز من كل هجوم يمكن أن يأتيها من البحر. ويضيف سلك أن مدخل هذا الخور يعترضه حاجز لا ترتفع المياه فيه لأكثر من إحدى عشرة قدماً، ما يجعله غير قابل للإبحار إلا للمراكب ذات الغواطس الصغيرة. ويلاحظ أن تيارات خط الساحل تجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. ويمضي سلك في وصف تأثير حركة المد والجزر وهبوب الرياح على التحكم في سرعة دخول المراكب إلى الميناء.

ينتقل سلك ليحدثنا عن الرمس التي هي مدينة مأهولة تحرسها عدّة أبراج. تقع المدينة على بعد حوالى سبعة أميال إلى الشمال الشرقي من رأس الخيمة، ووراء خور يعترض مدخله حاجز، ما يهيّئ للمركب ملاذاً آمناً. والمدينة، شأنها شأن الجزيرة الحمراء التي تقع في غرب الجنوب الغربي من رأس الخيمة وعلى بعد أحد عشر ميلاً منها، تابعة لرأس الخيمة.

جولة المفاوضات الأولى

عاد بكنجهام والقائد من الساحل إلى شالنجر انتظاراً لحلول الموعد المضروب لتلقّي ردّ الشيخ على المطالب التي عملت بومباي على فرضها عليه. وعند الظهر، ورغم بروز رأي في أوساط الحملة يدعو إلى التريّث والانتظار لساعة أخرى، أرسلت شالنجر قذيفة تحذيرية، وصدرت الإشارة إلى السفن الأخرى لتأخذ مواقعها وتبقى على أهبة الاستعداد. وسرعان ما لاحظت قوّة الحملة مركباً يخرج من الميناء يحمل مندوبي الشيخ للتفاوض مع الوفد البريطاني. قال المندوبون باستحالة ردّ الغنائم لأنها قُسّمت منذ زمن بين المعنيين بحسب الحصص المتعارف عليها، ولا سبيل إلى استردادها منهم. وأضافوا استحالة أداء الأثمان المطلوبة، إذ يتجاوز المبلغ الذي حدّدوه كل الثروة التي في حوزتهم ولا سبيل إلى الوفاء بذلك. وقال الوفد باستحالة تسليمهم الأمير إبراهيم الذي هو من أقرباء الشيخ وأخلص أصدقائه، وأنكروا أنه قام بأي عمل يستوجب العقاب. فالمراكب التي غنمها تخصّ الوثنيين الهنود الذين لا يعرفون ربّاً ولا يدينون بكتاب. واقترح الوفد إرسال مندوبين بضمان الأمان إلى بومباي للتفاوض، مع التأكيد أن هؤلاء المندوبين لن يُقبض عليهم ليكونوا رهائن، كما جاء في لائحة المطالب. وأكد المفاوضون أن المشكلات بين الطرفين يمكن أن تُحلّ بالحوار الهادئ للوصول إلى تسويات مقبولة، فالعمل المتسرع لفرض الرأي بالقوّة لن يفيد في شيء.

تعثرت المفاوضات حيث أصرّ القائد الإنجليزي على ضرورة تلبية كافة الشروط التي حملها إليهم بحذافيرها من دون أدنى اعتراض، وأبلغ الوفد أنه لن يتزحزح عن موقفه المعلن في الرسالة قيد أنملة. واستمهله المفاوضون العرب حتى الغد لمزيد من التفاكر، "ولكن – في نهاية الأمر – فإن الأمور بيد الله ورهن بمشيئته، وإن ما يقدره الله لا بد واقع". واستجاب القائد لطلب الوفد بإمهالهم يوماً آخر رغم التعليمات الصادرة له بوجوب تلقّي الرد في الوقت المحدد، وأن عليه في حال عدم تلبية الشيخ لمطالب الحكومة أن يعبّر له عن عدم رضا الحكومة البريطانية وتهديده بأن الرفض سينعكس سلباً عليه وعلى قومه. وقضت الأوامر أيضاً بأن على القائد من ثمّ أن يعود أدراجه بعد ذلك من دون القيام بأي عمليات قتالية.

أصدر القائد الإشارة إلى السفن بالاسترخاء وإلغاء حالة التأهب والاستعداد التي كانت معلنة. وغابت شمس ذلك اليوم وجرى النسيم بليلاً من الشمال الغربي، ولكنه ما لبث أن تبدل عاصفة. ورأى القائد أن الدواعي الأمنية تقتضي التراجع إلى عرض البحر لقضاء الليل. وتراجعت مراكب الأسطول لتواجه في منتصف الليل عاصفة كأداء أبعدت السفن عن مواقعها. وحين أسفر الصبح، وجد القائد أن العاصفة قد دفعت بأشرعة مراكبه إلى سواحل جزيرة قشم على مقربة من الساحل الفارسي، وكان القائد يأمل قبل هذا أن يعود بأسطوله

إلى مرساه السابق قبالة رأس الخيمة قبل شروق الشمس، ولكن هيهات.

جزر الخليج الأدنى

يروي سلك أن حدّة العاصفة قد انكسرت، خاصة بعد أن ولجت مراكب الأسطول المياه الهادئة بين قشم وأنجار. وتوقف الأسطول على بعد حوالى ثلاثة أميال من الطرف الجنوبي لجزيرة قشم في مياه عمقها عشر قامات. وأشار سلك إلى خطأ تقدير بعض قادة السفن الذين ورد عندهم أن عمق المياه على بعد ستة أميال من ساحل الجزيرة لا يتجاوز خمس قامات.

قشم - كما يقول سلك - هي الجزيرةَ الأكبر في الخليج الفارسي، إذ يبلغ امتداد طولها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ستين ميلاً، فيما لا يتجاوز عرضها في أقصى مدى له عشرين ميلاً، وهذا ما يفسر تسمية العرب لها بالطويلة. ويقال إن الجزيرة كانت مأهولة في غابر أيامها بعدد غفير من العرب الذين هجروها للاعتداءات المتكررة عليهم من قبل القواسم، ولكن قراهم التي طردوا منها ما زالت قائمة تحدث عنهم.

لقد نهب القواسم الجزيرة وجردوا الأهالي من ثرواتهم وسلبوا منقولاتهم واستولوا على ماشيتهم، فلم يجد هؤلاء مناصاً إلا الفرار إلى جبال الساحل الفارسي التي هيّأت لهم ملاذاً آمناً. ويقال إن أودية الجزيرة لا تزال خصبة مثمرة، وما زالت عيون المياه العذبة متوافرة، ولا يزال النخيل مثمراً غير منقطع العطاء، غير أن الماشية قد أصابها ما أصاب السكان.

يدخلنا سلك في مجاله المعرفي المتعدد الجوانب في الطوبوغرافيا والفلك وعلوم اللغة والمعارف الدينية والفلسفة السياسة، فيخطئ ويصيب. ويبدو الرجل لنا حاطب ليل، صحافياً موغلاً في وطنيته، يجمع الغثّ إلى السمين، ولم يبرأ الرجل من الداء الملازم لكافة الرحالة الغربيين من ادّعاء المعرفة الشاملة الكاملة بكل شاردة وواردة تتصل بالمناطق التي زاروها. يقول بكنجهام إن سلسلة الجبال الوسطى التي تقسم الجزيرة إلى قسمين في امتدادها الطولي كانت في الأصل سهلاً مرتفعاً، ولكنها ما لبثت أن تآكلت بفعل الزمن في مناطق عدّة. وكشفت المرتفعات التي ظلّت صامدة شامخة، والتي يبلغ متوسط ارتفاعها حوالى ألف قدم عن جمال خلّاب. ويضيف أن تربة الجزيرة بيضاء ناعمة، ولكنها تحتوي على الإثميد أيضاً. ورغم أن تلالها جرداء مجدبة، أوديتها مخضرّة خصبة. وقد اشتهرت قشم التي عرفها البرتغاليون باسم كوشومي، في فترة وجودهم في الخليج، بثرائها في الزرع والضرع، ولكنهم كانوا قد وصموها بأنها متلفة للأبدان. ويبدي سلك رأيه في أنها، لوعورة جوّها، ربما ما زالت كذلك.

تقع جزيرة هرمز إلى الشمال الشرقي من قشم على بعد حوالى خمسة فراسخ منها، ويضيف أنها عرفت عند الإغريق باسم هرموزيا. كانت هرمز تاريخياً مركزاً تجارياً مشهوراً ومخزناً

للسلع. وعلى امتدادها الشرقي تقع جزيرة لاراك التي عرفها الإغريق باسم أوراكتي، وهي جزيرة عالية تلجأ السفن إلى سواحلها إذا دهمتها العواصف الشمالية الغربية، فتجد الحماية عند ساحلها المحجوب عن تلك الرياح. أما جزيرة أنجار التي تقع بالقرب من الطرف الجنوبي لقشم، والتي تُعرف عند العرب باسم نيام، فقد مثّلت مرسى طيباً لمراكب هذا الأسطول. ويفصل هذه الجزيرة الأخيرة عن قشم مضيق ضيق آمن المرسى يبلغ عرضه ميلاً، أما عمقه فحوالى ست قامات. وهذه الجزيرة المنخفضة السواحل المرتفعة نسبياً في المنتصف دائرية الشكل تقريباً، ويبلغ محيطها حوالى أربعة إلى خمسة أميال. ويناقش سلك بعض ما أوردته استخبارات الحملة الإنجليزية عن القواسم في عام ١٨٠٩م وما أجرته من مسوحات وملاحظات، ويؤيد ما جاء فيها بنحو عام. يقول إن تربة الجزيرة تتكون أساساً من الرمل والطين. وحين يتغول البحر ويطغى على الجزيرة يتحجر الطين ويأتلف مع الصخر الجامد، فيكوّن تربة هذه الجزيرة. وقد كشفت تلك الحملة عن وجود جذوع نخل متحجرة، وكذلك وجود ترسّبات الملح في الطبقات التي تلي سطح التربة مباشرة، التي يبدو أن البحر قد غمرها في فترة ما. ولاحظ هذا الرحالة وجود حفرتين في أحد المرتفعات كانت مصادر الحملة في عام ١٨٠٩م قد صنفتهما منجمين. ويستطرد سلك ليقول إن مظاهر تربة الجزيرة التي تعكس لون الصدأ تنبئ عن وجود معدني الحديد والكبريت. ويضيف سلك أن المياه العذبة متوافرة في القسم الجنوبي الغربي من الجزيرة فقط، ويلاحظ أن المياه التي ظفرت بها الحملة السابقة كانت مياه أمطار جرى تخزينها في خزانات ضخمة كانت موجودة سلفاً، وأن إصلاح هذه الخزانات وترميمها لا يتطلب إلا القليل. أما في حالة شحّ الأمطار، فيمكن الحصول على المياه من قرى قشم المجاورة.

يقول بكنجهام إن جزيرتي قشم وأنجار كانتا تُعرفان قديماً باسم أونجانا وهو الاسم الذي يعتقد أنه حرّف بمرور الزمن ليصبح أنجار الذي قصره العرب على هذه الجزيرة فقط من دون قشم التي عرفوها بالطويلة، ثم حُرّفت أنجار مرّة أخرى فغدت تعرف بهنجام. ويرى هذا الرحالة أن هذه الجزيرة الأخيرة هي عينها التي ذكرها نيارخوس وقال إنها على مقربة من أوركاثا، الجزيرة الأكبر، وإنها كانت من الأماكن المقدسة لارتباطها بالإله الإغريقي نبتون، ويروي أن الوصول إليها كان غير ممكن فدونها العديد من العقبات. وقد عقّب – في ما يقول بكنجهام – محقق رحلة نيارخوس على ذلك بقوله إن القول باستحالة الوصول إلى هذه الجزيرة ربما نشأ عن أسطورة من الأساطير الوطنية في بلاد الإغريق شبيهة بتراجع نيريد عن المحيط الهندي، ولكنه لا يعرف سرّ ارتباط هذه الجزيرة بمقدسات نبتون. ومع ذلك فقد رجّح أن تُرد القداسة إلى أن الإغريق كانوا يوائمون بين معتقداتهم ومعتقدات الشعوب الأخرى، فيضفون عليها قداسة مماثلة. ويجادل سلك اعتماداً على وجود قبر بارز في تلك الجزيرة شيدت فوقه

قبّة، يعتقد أنه ربما كان قديماً، ويرى أن ذلك هو ما أعطى لأسطورة نبتون رواجها. ويضيف سلك أن المسافة الحقيقية التي تفصل هذه الجزيرة عن قشم تتجاوز المسافة المتعارف عليها قليلاً، ولكن أياً من البحارة المعاصرين له، إذا لم يعمد إلى استعمال وسائل القياس الحديثة، فإنه قد يعطي التقدير ذاته.

يعود سلك ليقول إن الشواهد كلها تدلّ على أن أنجار، كما يرد اسمها في الخرائط، أو هنجام كما عرفت في العهود اللاحقة، كانت مأهولة بكثافة. ويسوق من الشواهد على ذلك وجود خرائب مدينة كبيرة ووجود خزانات مياه كتلك القائمة في هرمز. ويؤكد سلك قول الكولونيل كرنر وتقرير وليام جرانت من أن الجزيرة كانت منجماً لأنواع من المعادن، ويدلل على ذلك ببقايا آثار المناجم التي يقول إنها لا تزال تشهد على ذلك. ويضيف أن السير جون مالكولم كان قد أوصى في عام ١٨٠٠م اللورد ويلسلي بأن يقيم مستوطنة إنجليزية على هذه الجزيرة، وهذا هو عين ما أوصى به الكابتن وينرايت حكومة بومباي في عام ١٨٠٩م. فقد كتب وينرايت أن الجزيرة مؤهلة بنحو ممتاز لإقامة مستوطنة إنجليزية. ويؤيد سلك بدوره ما ورد في التقريرين السابقين، ويعدد المميزات التي تؤهل هذه الجزيرة أكثر من أي جزيرة أخرى في الخليج الفارسي لاستقبال مستوطنة إنجليزية دائمة. فهي ذات مرفأ ممتاز وآمن، والطرق البحرية إليها سالكة في الأوقات كافة لا تعوقها أيّ عوائق، إضافة إلى توافر المياه العذبة والتربة الخصبة بما لا يتوافر لأي جزيرة أخرى في الخليج. أما الميزة الكبرى فهي موقعها الاستراتيجي الذي يجعل الدفاع عنها سهلاً، ويؤهلها في الوقت ذاته لتكون نقطة ارتكاز ممتازة لحراسة مدخل الخليج.

يعود بكنجهام ويُفصّل القول في قشم أو قشما أو كشمش كما ورد الاسم في الخرائط المختلفة وفي موقعها عند الحافة الجنوبية من أنجار. ويكرر القول إنها أكبر جزر الخليج وأوفرها مياهاً وأكثرها خصباً ونماءً. ويقول إنها الجزيرة التي ذكرها نيارخوس باسم أوراكها، وهي ذاتها الواردة عند بطليموس باسم أوانوكثا، وهي أيضاً أوراكا التي ذكرها بلني والتي سمّاها سترابو بدوره دوراكتا. ويعلّل هذا الرحالة الاضطراب الحادث في الأسماء بأن الجغرافيين القدامى ما كانوا يعبأون بالتحرّي عن أسماء الأماكن الأجنبية، خاصة إذا كانت مواقعها نائية عن بلادهم ومعرفتهم بها غير وثيقة. ويضيف سلك أن البرتغاليين سمّوها كويزمو، فيما أطلق الإنجليز عليها اسم كسمس. واللفظ الأخير يطلقة الفرس على صنف من العنب لا بذور فيه تنتجه هذه الجزيرة، وهو الصنف الذي يسميه الأتراك، خاصة في منطقة إزمير، السلطانة. وأفاد بكنجهام بأن هذا العنب قد بات يُصدّر إلى إنجلترا.

ينظر سلك في الأسماء التي يعتقد أنها أطلقت على جزيرة قشم أو جزيرة جسم التي عرفها العرب بالطويلة، فيما عرفها الأتراك باسم داووز، والتي يقال إنها كانت تضمّ حوالى ثلاثمئة

قرية، فيما لا تشتمل في حاضرها، رغم خصبها وجوّها الذي يراه سلك مقبولاً، سوى على حوالى عشرة نجوع. ويضيف أن كثافة عدد القرى في غابر الأيام ليس بالأمر المستغرب في هذه المنطقة التي توفر خصوبة أرضها لسكانها قوتهم. ويرى سلك في الممر البحري الفاصل بين الجزيرة والساحل الفارسي درباً مائياً صالحاً لإبحار السفن الكبيرة، ويفيد بأن هذا الدرب هو الذي سلكته حملة عام ١٨٠٩م لتدمير "القراصنة". ويضيف أن الحملة المذكورة تمكّنت من تدمير كافة تحصينات القواسم ومدنهم التي كانت تطلّ على هذه القناة. يسترسل فيقول إن المركب ميركيوري كان قد عبر هذا الممر خلال هذه السنة (١٨١٦م) وإن ضباطها أفادوا بأنه هادئ آمن، وإن المياه متوافرة على سواحله التي تزخر بالأشجار، وإن منظر القناة خلّاب جذاب.

ينقلنا سلك بكنجهام إلى سفسطة تاريخية يبدأها بالنظر في وجود عدد من الأضرحة في العديد من جزر الخليج، ويجادل في أن من المحتمل أنها تعود إلى أشخاص كان العرب يقدسونهم في جاهليتهم. ويرى أنه ربما كان هذا هو السبب الذي أدّى إلى القول بأن قبر الملك إيثراس (الأحمر) موجود في هذه الجزيرة. وينسب سلك إلى أحد مؤرّخي الإغريق أن أهالي أوراكثا يدّعون أن إيثراس مقبور فيها، ما جعلهم يطلقون اسمه على المحيط الإثيراسي (الأرتيري)، وقد تطور الاسم بعدئذ ليصبح الخليج الأحمر ثم البحر الأحمر.

قضى الأسطول ليله في أنجار وتحرك مع شروق شمس يوم ٢٩ نوفمبر مبحراً إلى رأس الخيمة التي تبدّت له واضحة في الساعة التاسعة والنصف من يوم الثلاثين. وأبصر الجنود أربع داوات كبيرة ترسو عند سواحل المدينة. وفي الساعة الثانية كان الأسطول البريطاني يرسو على بعد حوالى ثلاثة أميال من ساحل المدينة على عمق ثلاث قامات.

قصف رأس الخيمة

يفيد بكنجهام بأن القائد أرسل خطاباً إلى الشيخ يشرح فيه الدواعي التي أدّت به إلى مغادرة المنطقة بنحو غير متوقع في الليلة السابقة وأمهله يوماً إضافياً كاملاً، أي حتى ظهر اليوم التالي، ليتلقّى منه الرد النهائي على المطالب المقدّمة إليه. ولاحظ الأسطول الإنجليزي، في هذا الوقت، أسطولاً من المراكب القاسمية الصغيرة كان يرسو في تشكيل منتظم عند خليج مسندم، أخذ يتحرك من موقعه في اتجاه المدينة. وكانت تلك المراكب تأخذ المسار ذاته الذي دخل منه الأسطول إلى موقعه الراهن. وظلّت القوارب تبحر على مقربة من الساحل – ما أمكنها ذلك – لتبقى بعيدة عن مرمى الأسطول الإنجليزي. وتمكنت تلك القوارب من عبور الحاجز ودلفت عبر الخور إلى المنطقة الواقعة خلف المدينة.

راح القائد في صباح اليوم التالي، الأول من ديسمبر، يترقب في كل لحظة وصول وفد يأتيه من الساحل، ولكن الوفد المتوقع لم يصل إلا ظهراً، و لم يكن الرد الذي حمله مقبولاً. حمل الوفد اقتراحاً من الشيخ حسن بن رحمة بإرسال وفد من قبله إلى بومباي، بضمان الأمان في غدوهم ورواحهم، للعمل على تسوية كافة الأمور العالقة. أما إذا رفض القائد هذا العرض، فإن الأمور كلها "بيد الله تسير وفق مشيئته، وإن ما يقدره لا بُدّ واقع".

أعلن القائد فشل المفاوضات، وطلب إلى الوفد مغادرة مركبه بأقصى سرعة ممكنة، فالرد الذي حملوه عن شيخهم لا يعدو أن يكون في نظره تحدياً لقوّة هذا الأسطول الذي لم يوفد لإجراء مفاوضات أو النظر في بدائل، بل لتقديم مطالب واجبة النفاذ. وأعلن القائد بهذا نهاية المفاوضات تماماً، وأن ليس ثمة أمل في مداولات جديدة. وعلى أساس ذلك أصدر ذلك القائد أمره إلى الأسطول ليبحر إلى أقرب نقطة ممكنة إلى الساحل وبوضع السفن في حالة الاستعداد لبدء المعركة.

انتظمت السفن في صفّ واحد في مواجهة ساحل البلدة. يفيد بكنجهام بأن ميركيوري أخذت موقعها في بداية الصفّ وانتظمت إلى جانبها شالنجر ثم فستال فإيريال. وتحركت في هذه اللحظة الداو التي كانت راسية في أبعد نقطة إلى الشمال الشرقي لتلحق بالداوات الثلاث الأخرى وهي تحتمي بالحاجز الذي يجري في موازاة الساحل. وصدر الأمر لفستال بنسف الداو المتحركة، ولكنها لم تتمكن من الهدف، فقد كانت الرياح هادئة، ما لم يُمكّن فستال من التقدم إلى مسافة كافية لتتمكن من إصابتها.

ظلّ الأسطول منتظماً صفاً واحداً في مواجهة تلك الداوات، وأخذت سفنه ترسل القذائف تباعاً بالتناوب تجاه الساحل. أطلقت فستال القذيفة الأولى تجاه إحدى الداوات المحمّلة بحشد من الرجال الذين أربى عددهم على الستمئة كانوا يتراقصون ويلوّحون بأسلحتهم في الهواء فأخطأتها. ووصلت بعض قذائف المدفعية الطويلة المدى إلى الساحل فسقطت فوق رماله وطُمرت هناك. و لم تتمكن قذائف الأسطول من الوصول إلى الداوات المستهدفة، فقد كانت السفن تقف على بعد ميل كامل من الساحل، و لم تستطع أن تقترب أكثر من ذلك خشية من أن تجنح أو تعلق في رمال القاع. وقد أرسلت شالنجر أحد زوارقها للاستكشاف، ليقرر المدى الذي يمكن المراكب أن تصل إليه، وعاد الزورق ليقرر أن دون الاقتراب من الساحل عوائق كبيرة وعواقب قد تكون وخيمة.

يستطرد سلك بكنجهام فيقول إن الأسطول أطلق حوالى ثلاثمئة قذيفة تجاه الداوات التي كانت تبادلهم إطلاق النار، و لم تُصب أي من قذائف الأسطول هدفها، أما القذائف المضادة التي أرسلتها الداوات فقد كانت أقصر مدى و لم تلاقِ إلا نجاحاً ضئيلاً. وتدخلت بعد ذلك مدفعية قلاع المدينة، وكان تصويبها أدقّ وأبلغ، فقد تمكنت إحدى القذائف

من إصابة فستال إصابة طفيفة. ورُفعت الأعلام العربية على القلاع، وتنادى لها الرجال زرافات ووحداناً يحملون أعلاماً كبيرة رفعوها على ساريات وراحوا يتراقصون حولها كأنها أيقونة مقدسة، ويستعرضون بزهو أسلحتهم. وأدرك كل من في الأسطول، بمن فيهم القائد، أن هؤلاء الرجال لن يستسلموا. وحين اقتنع القائد بأن كل مجهوده ذهب سُدى و لم يؤدِّ إلى شيء، خاصة بعد أن تلاشى أمله بإلحاق الدمار بالداوات التي كانت هدفه الرئيس، قرر الانسحاب، وأعطى الإشارة لتنفيذه. وأخذت السفن تتراجع تغطيها نيران مدافع إيريال التي أطلقت أكثر من خمسين قذيفة لم تصب أي منها أي هدف. وهكذا أسدلت النار الستار على تلك المفاوضات التي كانت، رغم ما جرى فيها من قصف، بيضاء لم تُرق فيها دماء ولكنها لم تحقق هدفاً.

ينتقد بكنجهام قائد الأسطول لعدم تقيّده بتعليمات بومباي التي كلفته بتسليم الرسالة إلى الشيخ من دون القيام بأي عمليات قتالية إلا ما كان من العمل على إرهابه بظهور هذا الأسطول في مينائه لدفعه إلى الاستجابة، فقد قضى الأمر الصادر إلى القائد بأن ينسحب من دون قتال في حال تعنّت الشيخ ورفضه القبول بما يطلب إليه، وذلك بعد أن يهدده بما يمكن أن يجرّه عليه الرفض من عدم رضى الحكومة البريطانية. ويرى بكنجهام أن ذلك التهديد كان كفيلاً بأن يُبقي القواسم في حالة من الشدّ تثنيهم عن الاعتداء على السفن التجارية التي ترفع العلم البريطاني. أما وقد قام القائد بمفارقة هذه الأوامر ودخل في حرب مع تلك البلدة في محاولة منه لإنجاز مهمته على أكمل وجه في ما يعتقد، فإنه قد نسف بذلك كل جهود التسويات السلمية التي كانت مزمعة، كما أنه لم يتمكن من أن يحقق هدفاً من جرّاء ما قام به من إجراء. ولا تفيد المحصلة النهائية لما قام به ذلك القائد – في تقدير بكنجهام – سوى بأنه جعل جميع السفن البريطانية مُعرّضة لهجوم القواسم، خاصة أن الطريق البحري الذي تسلكه هذه المراكب يمرّ بمقربة من رأس الخيمة. ويرى بكنجهام أن تلك الرسالة – لو سُلّمت إلى القواسم من دون حرب – لأبقتهم متأرجحين بين الرجاء والخوف والموازنة بين البدائل. وكان من شأن التردد القاسمي أن يتيح لحكومة بومباي فسحة من الوقت لتجهيز قوّة كاسحة أكثر خطراً من هذه القوّة، لتقوم بعملية قتالية أبلغ أثراً من هذه العملية التي "سمحت للقواسم بالانتصار على ضعفنا وازدراء كفاءة قواتنا وعجزنا عن تحقيق ما نصبو إليه، ما يعني أن السلام مع القواسم قد بات أمراً غير وارد".

وأخذ بكنجهام على القائد عبث خطته التي نفّذها وحكم بعدم جدوى ما قام به. واتهم سلك القائد بأنه جعل تدمير الداوات الأربع التي كانت تستعد للقيام بتجاوزات ضدّ الملاحة في الخليج أكبر همّه. ويستطرد قائلاً: "لربما كان في تدميرها – إذا تمّ – خير، ولكنه ليس بالخير العميم. فالأمر لن يتعدى في هذه الحالة توهين قوّة القواسم وليس الذهاب بها كلياً".

فقد أكدت مصادر الرحالة أن للقواسم خمسة عشر شراعاً آخر تجوب المنطقة من رأس الحد في الساحل العربي إلى رأس الجاسك في الساحل الفارسي تغلق مداخل الخليج، ولهم إضافة إلى هذا خمسة مراكب أخرى تقفل مداخل خليج البصرة. وينتهي سلك إلى القول إن التروي كان أجدى حتى "نتدبر أمرنا ونعمل بداية على تذليل كافة العقبات التي تعترض سبل النجاح قبل أن نقدم على ما قمنا به من عمل، حتى لو كان قد قُيّض له النجاح، فإن نتائجه كانت محل شك".

أبحر الأسطول منسحباً من سواحل رأس الخيمة في الساعة الرابعة من ذلك اليوم إلى عرض البحر. ويصوّر بكنجهام حالة الذعر والخوف والخور التي تملّكت الجنود المنسحبين، وما عكسته وجوههم الواجفة وأجسادهم الراجفة. كان سكرتير المقيم - في ما يقول سلك - يبكي وينتحب كامرأة ثكلى. ولم ينسَ بكنجهام أن يذكّرنا بأنه والقائد ومن لفّ لفّهما من الإنجليز كانوا مثلاً في الثبات "حتى يقتدي بنا الآخرون". ومع مغيب شمس ذلك اليوم، قُرعت الأجراس في المركب شالنجر تنادي لحضور قّداس يُقام على روح أحد الأوروبيين كان قد مات من الخوف الذي سيطر عليه منذ أن صدرت الإشارة للاستعداد للحرب وإعلان حالة التأهب. فما إن أطلقت القذيفة الأولى حتى وثب ذلك الأوروبي إلى أعلى ليسقط إثر ذلك جثة هامدة. لقد كانت بساطة الخدمة الجنائزية وما شابها من مظاهر "الورع" التي اعترت هؤلاء البحارة الذين كانوا قبلها سادرين في غيّهم وكفرهم، في تقدير سلك، أمراً مؤثراً حقاً، ولكنها - كما يقول - كانت لحظة عابرة سرعان ما انقضت وكأنها الخط المائي الذي ترسمه السفينة خلفها في مياه المحيطات العميقة، فهو ما إن يظهر حتى يختفي.

في الثاني من ديسمبر كان هذا الأسطول المتراجع عن رأس الخيمة في طريقه إلى الشارقة التي تبعد حوالى أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من رأس الخيمة، ليقدم لشيخها طلبات شبيهة بتلك التي رفضها شيخ رأس الخيمة. وكان من اللازم أن يبحر الأسطول في هذا الاتجاه، ولكن نتيجة للخوف غير المبرر من الاقتراب من الساحل فقد أبحر قائد الأسطول بسفنه في اتجاه مغاير، ما أدى إلى ابتعادها تماماً عن اليابسة التي لم يجدوا لها أثراً حين بزغت شمس اليوم التالي، الثاني من ديسمبر. وهنا قرر الكمودور أن يرسل المركب فستال إلى بومباي لتحمل إلى الحكومة رسالة تفيد بما تمخّضت عنه المفاوضات في رأس الخيمة. ويرى بكنجهام أن القائد قد تأخر كثيراً، إذ كان يجب عليه اتخاذ هذا الإجراء منذ اليوم الأول من وصوله إلى رأس الخيمة وتيقّنه من رفض الشيخ للمطالب الإنجليزية. "فلو تمّ ذلك وقتها إذاً لأمكن المركب أن يبحر إلى بومباي مع هبوب الرياح الشمالية الغربية المواتية في فترة الرياح الموسمية، ويصل إلى هنالك في فترة لا تتجاوز ستة أو سبعة أيام".

وينتقد سلك التأخير الناجم عن خروج السفن من رأس الخيمة والعودة إليها مرّة أخرى

من دون ضرورة تبرر ذلك أو فائدة تُرتجى من ورائه، كما انتقد تأخر القائد بعد خروجه من تلك البلدة، لأنه لم يعمد إلى إرسال المركب إلى بومباي إلا بعد أن قطع حوالى خمسين ميلاً منها في الاتجاه المعاكس لبومباي، ما يضاعف بهذا المقدار مسافة الرحلة، كما أنه لم يفطن لذلك إلا بعد أن فقدت الرياح الشمالية الغربية قوّة دفعها، و لم يعد أمام المركب المرسل إلى بومباي إلا إن يناضل لشقّ طريقه إلى هناك في رحلة مزعجة، تضاعف فيها مدى الإبحار وزادت مدّته. ويستطرد سلك فيقول:

> إن هذه الأخطاء المتراكمة قد أحدثت شرّاً مستطيراً ونسفت بالتأخير خطة بومباي من أساسها. قضت تلك الخطة أن تدفع إلى الخليج في حال رفض الشيخ لمطالبها بقوات كبيرة لتنفيذها.
>
> ولكن فقد فات الأوان. فالمركب المرسل بالرسالة لن يصل إلى هناك إلا بعد حوالى أسبوعين من تاريخه، ما لا يُمكّن الحكومة من تنفيذ خطتها التي يجب أن تؤجل لستة أشهر أخرى على أحسن تقدير، فموسم هبوب الرياح التي يمكن أن تحمل أشرعة الأسطول إلى الخليج قد تقلّص أو كاد.

مسقط

اتجهت المراكب إلى مسقط التي يصفها بالميناء الرئيس في "البحر العربي"، وتفرقت سفن الأسطول ظهر ١٥ المحرم/الخامس من ديسمبر ١٨١٦، حيث عاد القائد إلى الخليج، فيما واصل بكنجهام رحلته مع فستال إلى الهند بعد أن حصل على إذن بذلك. ورصد بكنجهام في طريقه إلى مسقط عدداً آخر من جزر الخليج، وذكر الأسماء التي تعرف إليها عند كل من العرب والأتراك والفرس، وناقش التغيرات التي طرأت على تلك الأسماء، ووازن وطابق بينها وبين ما ورد عند نيارخوس وغيره من القدماء، وانتقد ما أورده بعض الأوروبيين في هذا الصدد. وكان أبرز ما ورد عنده حديثه عن بو موسى والطنبين وغير ذلك. وأبدى ملاحظات يمكنها بعد النقد أن تفيد دارسي التاريخ القديم، رغم ما قد يعتريها من خطل عدم التخصص، ورغم التحليلات التي قدّمها هذا الصحافي والتي قد تكون مغرضة أحياناً. ومن أبرز ما أورده سلك في هذا المجال نقده لما أورده هافرد جونز قبله من أن اسم مسندم على الساحل العربي المواجه لرأس مبارك على الساحل الفارسي مُحرّف من "مع السلامة". ويدين سلك هذا الرأي مُدللاً بأن ذلك لم يرِد في تراث العرب ولا في مرويّاتهم. ويعلن سلك اسماً ابتدعه لعُمان فقال إن أصل الاسم "أمان"، ويذهب إلى أن الاسم يعني بالعربية الأمن والسلامة. "وقد أُطلق عليها

هذا الاسم قديماً لأنها اختصت بالأمان في نطاقها غير المتحضر الذي لا يعرف السلام ولا يأبه لسيادته".

لعلنا نلاحظ أن هذا التفسير الغريب الذي لم يرد في أي مصدر موثوق يتوافق مع حذلقة هذا الرحالة الذي عرف قدراً من اللغة العربية لا يصل به إلى أن يميز بين حرفي الألف والعين، وهو أمر لا تميزه الأذن الغربية عموماً، وكذلك شعوره بقدر من الأمن ما كان يمكن أن يتوافر لبني جلدته الساعين للسيطرة على مياه الخليج إلا في عمان. لعل هذا الجهل الذي أورده الرجل وكأنه حقيقة لا تمارى، إذ لم يسبقه بلفظ يفيد الشك أو الظن أو الاعتقاد، يجعلنا نتردد كثيراً في قبول ما سبق له أن أورده من تفسيرات متتابعة عديدة لأسماء جزر الخليج المختلفة. وربما لا يمكننا أن نلومه في ذلك، فهو صحافي يكتب لبني جلدته يحرّضهم على استعمار هذه المنطقة التي يقول إنه كان لهم فيها وجود قديم وسيطرة يجب أن تُستعاد.

يقول سلك إن عمان تُحد شمالاً بالبحر وجنوباً بمضارب عرب المزاريع الذين عرفوا بأنهم غلاظ جفاة غير مضيافين. ويوصي سلك المسافرين بتجنّب سواحلهم لئلا يقعوا في أيديهم، خاصة أن تلك السواحل يكتنفها العديد من العوائق الملاحية التي تعترض المراكب وتجعل تصيدها من قبل أولئك القوم أمراً سهلاً. وتُحدّ عمان من الشرق بالبحر كذلك، أما غربها فيتصل بقبائل البدو المشاغبة الذين هم في نزاع أبدي في ما بينهم على مصادر المياه ومواطن الكلأ في تلك السباسب المترامية التي تتصل نهاياتها الجنوبية القصوى بأرض المزاريع. ويضيف أن تلك النزاعات المتواترة قد يمتد خطرها ليشمل المناطق الزراعية. ويصف البدو الذين يقطنون هذه المنطقة بغير المتقيدين بالدين إلا الشماليين منهم، الذين أصبحت لهم صلة ما بالوهابيين فأصيبوا منذ الوهلة الأولى بعدوى "التعصب" لتلك الطائفة. وأفاد بأن هذه الطائفة الأخيرة من البدو يقضّون مضجع إمام مسقط ويسببون له أرقاً مستداماً باعتداءاتهم على حدوده الشمالية.

اقتصاد عمان

يرى بكنجهام، من دون أن يورد دليلاً، أن مساحة عمان التي تضمّ مدناً متفرقة وقرى متناثرة ونجوعاً كثيرة باتت على أيامه أكثر اتساعاً ممّا كانت عليه في عهود أسلاف الإمام المعاصر له. ويصف مظاهر الأرض العمانية بأنها جبلية عموماً وجرداء ويضيف:

> على الرغم من ذلك، يتكوّن الندى على قمم هذه الجبال العالية، والسحب التي تعتمّ بها تسبب هطل الأمطار فتلطف درجة الحرارة في المنطقة وتجعلها أقل حدّة، إلى درجة أن الهواء في المنطقة المحيطة بالجبال يستحيل نسيماً ينساب

> عليلاً بليلاً. وتغسل الأمطار التي تهطل فوق تلك الجبال قممها فتتدفق إلى سفوحها بالخصب والنماء بما تحمله من رواسب إلى حيث الأودية، فتزيدها خصباً على خصبها. تنمو في هذه الأودية أشجار الفاكهة المتنوعة الثمار، ويزرع القمح فيها، وتسودها المراعي الممرعة. ويلاحظ سلك أن عدداً من الأثرياء وأعيان المواطنين "من ذوي الذوق الرفيع والعقل الراجح وممن يتصفون بحسن التقدير" قد اتخذوا لهم مساكن عند تلك الأودية ليستمتعوا بجمالها الخلاب، ويتفيّأوا ظلال أشجارها الوارفة ويظفروا بماء عذب سلسبيل وهواء صحي نقي. ويضيف سلك أن الساحل في عمان يمتد من سفوح تلك الجبال إلى البحر الذي تنحدر في اتجاهه بعض الأودية التي تُلقي بمياهها فيه. ويمتاز هذا الساحل بخصبه أيضاً وبما تنتجه أرضه من كميات وافرة من التمور، وبالمراعي التي يعيش عليها عدد لا يحصى من الماشية من أغنام وخراف وإبل. ويطرز أطراف هذه السواحل عدد من قرى السماكين الذين يوفرون للعمانيين مصدر قوتهم الرئيس.

تعتمد خزينة الإمام – في ما يقول بكنجهام – أساساً على تجارة الميناء، فهو لا يضع ضرائب مباشرة على الأراضي الزراعية ولا على المراعي، ولكنه يفرض على المزارعين زكاة تُؤدّى نوعاً على التمور والقمح. ويضع الإمام ضريبة قدرها خمسة في المئة على واردات الأجانب، مهما كانت جنسياتهم، واثنان ونصف في المئة على واردات سلع العرب، ومثلها أيضاً على سلع المسلمين مهما كانت جنسياتهم. أما الصادرات فهي معفاة من الضرائب، إذ ليس في عمان من إنتاجها الذاتي كثير مما هو قابل للتصدير. ولا تُوضع أي رسوم على إعادة التصدير أو تجارة العبور بحراً لأي أسواق أخرى ما دامت قد أُدّيت عنها الرسوم المفروضة عند دخولها مينائه. ويذكر بكنجهام، اعتماداً على مصادر محلية، أن دخل الإمام ممّا تنتجه الأرض لا يتجاوز لخ ربية في السنة، أما ريع الجمارك فيصل على أقل تقدير إلى عشرين لخ ربية، أي ما يعادل عشرة آلاف كرونة ألمانية في السنة. ويضيف أن التجارة الخارجية للمنطقة كانت في عهد والد ذلك الإمام، أي قبل حوالى عشرين سنة، تنقل على مراكب مسقطية. فقد كان العلم العماني في ذلك الوقت علماً محايداً مثلما كانت عليه حال العلم الهولندي سابقاً في أوروبا أو كما هي حال العلم الأمريكي "حالياً". فقد أورثت الحرب التي كانت دائرة الرحى بين أساطيل إنجلترا وفرنسا في ذلك الوقت السفن العمانية رواجاً. وكانت السلع في المناطق التي تسيطر عليها هاتان الدولتان كاسدة يشتريها العمانيون ويبحرون بها آمنين تحت علمهم المحايد في ما بين

مدن سواحل الهند الشرقية وموانئ الخليج الفارسي من دون أن يعترضهم معترض، فجنوا من وراء ذلك أرباحاً طائلة. وأصبح ميناء مسقط في تلك الفترة، مثل ميناء مالطة في البحر الأبيض، مخزناً تجتمع فيه السلع من كل حدب وصوب حتى ضاق الميناء بالسفن. وكانت تلك السلع ترسل من هناك مباشرة إلى العديد من المناطق المحيطة بعمان، إضافة إلى المناطق التي تسيطر عليها كل من إنجلترا وفرنسا. ويذكر هذا الرحالة أن هذه الحال قد تبدّلت في وقت زيارته لعمان، فلم يعد لمسقط أكثر من حوالى عشرين مركباً كبيراً تستظل بالعلم العربي، وعدد يتراوح بين أربعين وخمسين داواً وبغلة.

يستطرد بكنجهام ليحدثنا عن البغلة فيقول إنها المركب الذي يحمل من ثلاثمئة إلى ستمئة طن، وإنها تستخدم في القيام بالرحلات إلى سواحل البنغال وتعود من هناك بالحرير وسلع أخرى، كما تجلب من الجزر الشرقية الأدوية والتوابل، ومن سواحل ملبار الأرز والفلفل وأخشاب بناء المراكب، وتأتي من بومباي بالسلع الأوروبية التي من أهمها معادن القصدير والحديد والصفيح وبعض السلع الصينية. كذلك تبحر هذه البغلات أيضاً إلى موريشوس فتتاجر بالبن وكميات قليلة من القطن وتعود من هناك إلى الساحل الأفريقي حيث توجد "مستعمرة" عمانية فترجع منها بتراب التبر وريش النعام وسن الفيل والتمر الهندي والرقيق. أما الداو فهي - كما يقول سلك - مركب أصغر حجماً من البغلة، وتستخدم في نقل التجارة التي تجلبها البغلات إلى مسقط وتوزيعها على المناطق الجغرافية الأقرب مثل البصرة وبوشهر والبحرين. وتعود الداوات من تلك المناطق بالتمور واللالئ والريالات وبقدر كبير من معدن النحاس. وتربط هذه الداوات أيضاً بين مسقط وسواحل السند وبلوشستان والبحر الأحمر، وتعود من تلك المناطق مُحمّلة بسلع مختلفة من إنتاج بلاد بعيدة وعديدة تتوافر في سوق مكّة الكبير في مواسم الحجّ. كذلك تحمل هذه الداوات البن من اليمن والصموغ واللبان من سقطرة، وتعود من الساحل الصومالي برقيق الحبش من الجنسين. ويضيف سلك أن "قراصنة" رأس الخيمة قد سبّبوا كساد تجارة مسقط التي أصبحت سفنها الكبيرة في غير مأمن من عملياتهم، أما المراكب الصغيرة فقد أعيقت تجارتها إلى حدّ كبير.

يفيد بكنجهام بأن كساد تجارة السفن العمانية أدى إلى رواج تجارة السفن الأخرى التي تبحر تحت حماية العلم البريطاني، فقد تولّت هذه السفن التابعة أساساً لبومباي حمل التجارة الأجنبية عن السفن العمانية. وينعى سلك ما قامت به سفن الأسطول البريطاني بقيادة شالنجر على رأس الخيمة أخيراً وقد شهد ذلك بنفسه وشارك في المفاوضات، ورأى أن هذه العملية أخرجت العلم الإنجليزي عن حياده، ما سيدفع التجار المعتمدين عليه إلى البحث عن بديل. ويعرض سلك البدائل المتاحة ويرى أنها تكمن في أمرين: أن تُزوّد كل السفن التجارية بالسلاح لتتمكن من الدفاع ضدّ أي هجوم يقع عليها، ولكنه يستدرك فيقول إن هذا الأمر دونه تكاليف

باهظة ونفقات كبيرة. أما الأمر الثاني فهو أن تُضطر السفن التجارية إلى الانتظار في الموانئ حتى يجتمع فيها عدد كبير منها ثم تخرج مجتمعة في قافلة واحدة تحت حماية سفن الحرب التابعة لشركة الهند الشرقية، ويعود فيقول إن هذا الأمر يمكن أن يسبب كثيراً من التعطيل.

يفيد بكنجهام بأن التحويلات والتعاملات المالية بين هذه المنطقة وبين مناطق الهند المختلفة تجري بالمعادن الثمينة والنفائس الأخرى من ريالات وكرونات ألمانية ودوكات بندقية ولآلئ وما إلى ذلك. ويدفع التجار رسماً لنقل هذه النفائس قدره ٢ ٪. ويرى بكنجهام أن هذا الأمر يغري سفن الحرب التابعة لشركة الهند البريطانية بأن تفد إلى مسقط في طريقها إلى بومباي بصفة متواترة لتنقل هذه الأموال، فهي تجد من ثقة المتعاملين أكثر مما تجده السفن الأخرى "لأنها محايدة" وأبلغ قوّة من سوَاها. وأفاد بأن قادة هذه السفن يتلقون أجوراً ضخمة نظير القيام بهذه المهمة، ما يجعلهم يتحملون ما يلقونه من عنت جرّاء عملهم في الخليج وقبولهم بالتمركز فيه.

ينقلنا هذا الرحالة إلى الحديث عن العملات المتداولة في الخليج وأسعار صرفها، فيقول إن الكرونة الألمانية التي تسمى في الخليج الريال الفرنسي هي الأكثر تداولاً في المعاملات والأوسع انتشاراً من الريال الإسباني المسمّى أبو طوب، أي أبو مدفع. ويذكر أن الكرونة الألمانية تعادل واحداً وعشرين محمدياً، ويضيف أن المحمدي عملة مسقطية صغيرة القيمة. أما معدل صرف الكرونة الألمانية في بومباي فيساوي مئتين واثنتي عشرة ربية لكل مئة كرونة. وتبلغ قيمة صرف مئة ريال إسباني في بومباي مئتين وخمساً وعشرين ربية. وتقدر الدوكات البندقية بقيمتها من الذهب، فإذا سُكت ذهباً خالصاً تماماً فإنها تساوي اثنتين كرونة وربع الكرونة. وينتهي إلى القول إن النقود كلها تستمد قيمتها بصفة شاملة من المعدن الذي صيغت منه، وإن "الشريوف" (الصراف) هو الموكل عادة بتقدير قيمتها. ويضيف سلك أن في مسقط عدداً من "الشريوفين"، وهم بصفة رئيسة من البانيان، ويجنون أرباحاً ضخمة من المضاربات واستبدال العملة.

يرى سلك أن خزينة الإمام لا تتكفل بالكثير من النفقات التي يتطلبها العمل على تسيير دولاب الإدارة الحكومية، ما يجعله صاحب ثروة حقيقية. وكان يمكن أن تكون تلك الخزينة متخمة بالأموال لولا ما طرأ على تجارة مسقط من كساد انعكست مردوداته على مداخيل الإمام التي تردّت أخيراً بما طرأ عليها من زيادة نفقات تسيير حكومته. ويعتقد سلك أن الإمام كان يمكنه أن يزيد في تسليح سفنه التجارية لتدفع عنها هجمات القواسم، وأن يوكل لزوارقه الصغيرة وفرقاطاته تأمين الملاحة في الخليج من دون أن يحتاج إلى دعم أو مساندة من قادة "سفن جلالته" الذين يبحرون في هذه الأرجاء. ويضيف: ولكن بما أن قوّة القواسم في تزايد مستمر، وبما أنهم يمثلون الذراع البحرية للوهابيين الذين يمثلون بدورهم تهديداً لممتلكات

الإمام براً، فقد غدت الأمور صعبة تماماً بالنسبة إليه. فالإمام يحتاج إضافة إلى قوته البحرية قوّة برية متنقلة لصدّ الوهابيين عن حدوده البرية الصحراوية التي انحازت قبائلها إلى الوهابيين.

جيش الإمام

يستطرد بكنجهام فيقول إن العرب لا يعرفون الجيوش النظامية، وتجدهم ساعة الحاجة يستدعون كل قادر على حمل السلاح للانخراط في القتال. يحتشد جمع من الرجال كل منهم يحمل سلاحه الذي يفضّل حمله، ولا تتكفل مخازن الإمام الحربية إلا بصرف البارود. وعلى ذلك يمكن القول بعدم وجود جيش دائم تحت إمرة الإمام، وإن الفئة الوحيدة المسلحة التي تتلقى رواتب مقررة بصفة ثابتة هي حرس القلاع في مسقط ومطرح وبركا، وإن أعدادهم ليست بالكبيرة. يُضاف إلى هؤلاء نحو مئة مدفعي يشغّلون المدافع التي وُضعت تحت إمرتهم. وحين تتعرض بعض مناطق الإمام للتهديد، فإنه يرسل إلى شيوخ تلك المناطق ورؤساء عشائرها ووجهائها وكافة المتنفذين فيها يبلغهم أنه سيرسل إليهم بعض الرجال لدعم مقاومتهم، ويقع عليهم حينئذ أن يدعموا بدورهم الحشود الوافدة إليهم بما تحتاج إليه من المواد الغذائية. وهكذا نجد أن الإمام يستطيع أن يحشد الحشود العسكرية ساعة الحاجة - كما يفيد سلك - وينتقي منهم الأعداد المطلوبة للقيام بالمهمة، ويحدد لهم طبيعة الخدمة المطلوبة ووجهتها فيستجيب له هؤلاء الرجال بكل أريحية. ويضيف سلك أن العرب معتادون حمل السلاح يألفونه منذ نعومة أظفارهم. فمن عادات هذه الأمّة أن يرتفع شأن الرجل ويعلو حين يمتشق سلاحه، وأكثر ما يكون إعجابهم به حين يُحسن استعماله. ويعبّر عن رأيه فيفيد بأن الإمام لا يحتاج إلى أن ينفق شيئاً كثيراً في التجهيزات الحربية، فليس ثمّة زيّ موحد للجنود ولا شارات تميزهم ولا أي نوع من أنواع التنظيم، ولا يُطلب إلى الجندي سوى بذل الطاعة للشيخ فقط. وعادة ما يقدم الإمام لرؤساء تلك القبائل بعض الهبات التي تتمثل في مبالغ مالية صغيرة، أو قد يُنيط بهم بعض الامتيازات كأن يعفيهم من أداء بعض الرسوم أو الضرائب وما إلى ذلك، ويجري تقويم مثل هذه المكافأة بحسب ما يتكلفه أولئك الشيوخ من نفقات. أما الآخرون من الجند المشاركين في الحملة فلا يتلقون أي رواتب ثابتة، إنما يُقرر لكل من يحمل السلاح مبلغ مقطوع يومياً يقدّر بقدر منزلته. وتُوزع الغنائم والأسلاب وتُقسم بين كل المشاركين في الحملة بلا استثناء، وتُعدّ مقصورة عليهم فقط لا ينال غير المشاركين في القتال منها شيئاً. كذلك يتلقى كل رجل عند انتهاء الحملة جائزة تتناسب والخدمات التي قدّمها. ويقول سلك إن هذه الأعطيات تنال من خزانة الإمام التي نقصت مداخيلها كثيراً، ولكنها تزيد من الولاء له وتمكنه من تلقّي الهدايا من الأثرياء بما يدعمه لمقابلة هذه النفقات.

أهل مسقط

يرى بكنجهام أن أشكال أهل مسقط وأزياءهم وسلوكياتهم لا تختلف كثيراً عمّا هي عليه الحال في اليمن وحضرموت، إلا إن الأوائل هم في الغالب أقصر قامة وأنحف جسداً. ويعتقد أن قسمات وجوه المسقطيين لا تشابه وجوه أهل الصحراء، ويعلل ذلك بأن الأوائل قد اختلطوا بالأجانب نتيجة للتداخل التجاري الذي عرفته مسقط. تكشف وجوه العرب الصرحاء – في ما يقول بكنجهام – عن ملامح أكثر بياضاً من غيرهم من العرب الآخرين، مع الأخذ في الاعتبار أن مسقط وكذلك سهول ما بين النهرين من أشد مناطق العا لم حرارة، ما يورث البشرة اللون الأسمر. كذلك تكشف ملامح قطاع كبير من أهل مسقط عن ظل لطيف للعنصر الحبشي، وما ذلك إلا لأنك لن تجد من أثرياء مسقط إلا نادراً من يحرم نفسه من الاستمتاع بحسناوات الحبشة. ففي كل بيت يتطلع سيده للظفر بمباهج الحياة تجد حبشية، زوجة كانت أو خليلة أو جارية. وهناك أيضاً قطاع كبير من سكان البلدة من العبيد الزنوج الفارعي الطول الذين يمتازون فوق ذلك بالوسامة. ويفيد سلك بكنجهام بأن العبيد عادة ما توكل إليهم مراكز معتبرة في إدارة أعمال سادتهم، وعادة ما يظفر العديد منهم بحريته عند وفاة سيده أو يعتق لأسباب أخرى أحياناً. وقد يصيب بعض العتقاء ثروات كبيرة. ويحدثنا سلك عن أحد هؤلاء العتقاء كان قد وفد إلى مسقط من بومباي مع عائلته ومرافقيه وعبيده. ويقصّ علينا سلك جانباً من سيرة هذا العتيق فيقول إن هذ الرجل الوسيم المتناسق التقاطيع – حتى لتكاد تحسبه أوروبياً لولا سمرته وشعره الأجعد القصير، إذ لا تحدّث هيئته عن أي أثر آخر يدل على أنه أفريقي – كان أصلاً من مواطني غندار في الحبشة وابتيع في مصوع وسيق إلى مسقط عبداً رقيقاً. وشاء حظّه أن يخدم سيداً ممتازاً، أما هو فقد برهن لسيده على أنه عبد ثقة. وصار العبد من سيده بمنزلة الولد خاصة، و لم يكن لذلك السيد أبناء يمكن أن ينازعوا العبد مكانته. وبما أن من عادة العرب "الأتقياء" مكافأة العبد على إخلاصه، فقد أوصى السيد بعتق عبده بعد وفاته، كما أوصى له بتركته كلها. و لم يمضِ وقت طويل على ذلك، وتوفي السيد فورثه العبد الذي أصبح عتيقاً. وانتظر الرجل قضاء عدّة أرملة سيده فتزوجها ولقيت منه وأفراد عائلتها حسن الرعاية.

سكن هذا العتيق في بومباي واستقرّ فيها فأصبح من الرعايا البريطانيين، وبهذا استحقت سفنه التجارية حماية العلم البريطاني. وحدث أن وفدت إحدى سفنه، وكان يقودها بحار إنجليزي، إلى مسقط حيث كانت في طريقها إلى البصرة وعليها عدد من الرقيق. وكان قبطان المركب قد احتجّ على نقله الرقيق، ولكن احتجاجه لم يفده شيئاً أمام إصرار وكلاء هذا الرجل الذين كانوا يدركون أن كبيرهم، رغم أن مراكبه تستظل بحماية العلم البريطاني،

عربي بالقدر الذي يتيح له استغلال هذا الامتياز وتصريف أعماله كما يفعل العرب الآخرون. واعترضت، فيفرت، السفينة العسكرية "التابعة لجلالته" (الأسطول البريطاني) هذا المركب المسمّى السليماني واقتيد إلى بومباي، وهناك جرى تجريمه لوجود عبيد على متنه فصودر. وحين وجد هذا الحبشي أن مصالحه في بومباي قد أضيرت بهذه الضربة القاسية، عاد مع أسرته إلى مسقط التي يعدّها موطنه الأصلي وجلب معه من بومباي كافة منقولاته. وفي مسقط حيث تعيش جالية كبيرة من التجار الأحباش الصرحاء والمهجنين من ذوي اليسار، لقي هذا الحبشي استقبالاً حافلاً وترحيباً مشوباً بالتقدير والاحترام.

يعود سلك ليحدثنا عن أهل مسقط فيقول عنهم إنهم سنيّون تنمّ نظراتهم عن جدية وحزم. ويلاحظ أن لهم لحىً غير كثّة لا يهذبونها بل يتركونها لتنمو على طبيعتها، ولا يصبغونها بالحناء كما يفعل الأتراك. ويرى أن استعمال الحناء هنا يقتصر على صباغة الأرجل وكفوف اليدين للزينة. ويلاحظ أنهم يستخدمون الكحل، كما يعرف بالعربية، أو الثمد كما يعرف بالتركية، يكتحلون به لاعتقادهم أنه يزيد في بريق العينين ويساعد على جلاء حدّة البصر. ويتخذ المسقطيون أحياناً الخواتم التي تزدان بفصوص من فيروز أو تركواز. ويلاحظ سلك أن ملابس الرجال تمتاز بالبساطة، فهي لا تزيد على جلباب تحته سروال من الحرير الرقيق المطرّز بنحو خفيف يجعلونه حول الخصر. أما العمامة فهي قطنية صغيرة زرقاء اللون زينت أطرافها بنسيج من الحرير الأصفر والأحمر. وتُعدّ العمامة من الصناعات التي اشتهرت بها مدينة صحار في شمال غرب مسقط. ويلاحظ سلك أيضاً أن التجار يرمون على أكتافهم قطع قماش قرمزية اللون من صناعة سورات، فيما يعلق العسكريون على أكتافهم دروعاً خشبية أنيقة تتدلى من سير جلدي، وربما يعلقون السيوف فوق الدروع أو ربما حملوها باليد أحياناً. ويربط الجميع حول خصورهم خناجر معقوفة، وينتعلون صنادل من الجلد المشغول. ويشير سلك إلى عدم وجود تمايز يذكر بين أزياء الأغنياء والفقراء، فالكل في مسقط سواسية في البساطة، يشاركهم في ذلك أميرهم مع استثناء السلاح الذي يتمنطق به. ويضيف أن ثمن الزيّ الذي يرتديه عاهلهم لا يكاد يزيد بأكثر من جنيه واحد عن ثمن زيّ أي من العامة، كما أن ثمن الأسلحة التي تكمل زي هذا الأمير لن تصل إلى ما ينفقه في هذا الشأن أمثاله من الأتراك وعرب الشمال. ويمتدح بكنجهام هذه البساطة التي يقول إنها لا تنقص من قدرهم عنده بل ترفع من مكانتهم في نظره. فهم، في تقديره، أبلغ نظافة من سائر العرب الذين التقاهم، وأملحهم هنداماً، وأكثرهم أناقة، وأجملهم مظهراً، وأبلغهم شعوراً بالثقة، وأميزهم طيبة، وأوفرهم احتراماً. وهذه الصفات هي أبرز ما يمكن أن تستبينها في أهل مسقط منذ الوهلة الأولى.

ينظر سلك بكنجهام بعد ذلك في طائفة الهندوس من أهل جويجرات الذين يقول إنهم يقيمون في مسقط لفترات قد تطول أو تقصر ريثما ينجزون أعمالهم، ولكنهم لا يستقرون

فيها بصفة دائمة مثلهم في ذلك مثل البارثيين من أهل السند، الطائفة الأقل عدداً في مسقط من الأولى. كذلك يشير إلى طائفة أخرى من أهل السند ومجموعات من بلوش مكران وفرس بوشهر والعرب البحريين ويهود البصرة. ويلاحظ أن هذه الجماعات كلها لا تستقرّ بصفة دائمة في مسقط، فهم يأتون ويذهبون جرياً وراء أعمالهم. ويحدثنا سلك عن بدو الدواخل العمانية الذين يقول إن أهل مسقط يدرجونهم في عداد الأغراب، بل إنهم يعدون الأجانب المذكورين آنفاً الوافدين من خارج نطاق شبه الجزيرة العربية أكثر قرابة لهم من هؤلاء البدو! فهم يعدّونهم أجلافاً لا يمكن عاقلاً أن يطمئن إليهم. ويبادلهم البدو الذين ينظرون إلى كل ما يجدونه في مسقط أو يلاقونه فيها بكثير من الريبة والاستغراب، الشعور ذاته. ويصف بكنجهام البدو الذين صادفهم بأنهم في الغالب أقصر قامة من أهل مسقط وتكاد أجسادهم الجافة تخلو من اللحم، أما جلودهم فداكنة الأديم، ويرى أنهم أكثر بدائية من أهل سنجار. فهؤلاء وأولئك لم يعرف شعر رؤوسهم شكل الموسى ولا شواربهم لمسة المقص. تبدو شعورهم السوداء كأنها شجيرات ذات عقد زُرعت على أكتافهم وانتشرت منها لتغطي عيونهم. ولا تعرف رؤوسهم العمامة ولا الطاقية، إذ تكفيهم هذه الشجيرات التي غذّوها بالشحوم فتلبدت وثبّتت لتقوم بمهمات غطاء الرأس. ويصف جيمس سلك بكنجهام زي البدو فيقول إنهم يتمنطقون بقطع قماش زرقاء يأتزرون بها ويثبتونها عند الخصر بسير جلدي. ويضيف بكنجهام أنه رأى واحداً منهم أو أكثر يحمل جنبية، كما رأى اثنين أو ثلاثة منهم يحملون سيوفاً ودروعاً خشبية. ويعود هذا الرحالة مرّة أخرى فيصف هؤلاء البدو بالهمج المتبربرين الذين لا يدانيهم "في حضيض الإنسانية" بشر ولا ينافسهم في تلك الدرجة الدنيا منافس.

تكشف هذه الرحلة عن رواية شاهد عيان لفترة مهمة من تاريخ الخليج الذي بات يستشرف بداية تحول للسقوط في دائرة الهيمنة البريطانية. ويمكن المؤرخ الناقد أن يفيد من بعض ما ورد في هذه الرواية بعد إخضاعها للنقد وتنقيتها من شوائب المشاعر الشخصية نتيجة لما توهّمه الرحالة أو ما لاقاه في رحلته من عنت، ومن ادعائه – شأنه شأن سائر الرحالة الآخرين – معرفة واسعة بالشرق وعجائبه وكافة ما يتطلع عالمه الغربي إلى سماعه عن البدائي والغريب المستوطن في الشرق، وكذلك بعد تجريد هذه القصة من المشاعر القومية الطاغية التي تحرض مثل هذا الصحافي السياسي ضدّ المقاومة العربية التي عارضت هيمنة بلاده على مناطقهم.

الفصل الرابع عشر

من تقرير المسّاح بركس في المنطقة من رأس الخيمة إلى دبي

لم يُعرف عن المسّاحين، بركس وهواتلوك، اللذين سنتناول جهودهما في مجال الرحلة في هذه الدراسة، من اشتهر بأنه رحالة، فكلاهما موظف رسمي اضطلع بالقيام بمهمات رسمية أو شبه رسمية، فسجّل كل منها - كما اقتضت مهماته - ملاحظات عن المناطق التي عمل فيها. ويتصدر رينو الذي زار الدرعية في عام ١٢١٣هـ/١٧٩٩م قائمة الرسميين الإنجليز الذين دخلوا في عداد الرحالة من دون أن تكون الرحلة في حدّ ذاتها هدفهم، ومنهم الضابط سادلير أيضاً. وتزدحم هذه القائمة بالأسماء في الفترة التي أعقبت حملة جرانت كير في ١٨١٩-١٨٢٠م وما تلاها من توقيع شيوخ ساحل عمان من تعهدات نقلت اسم المنطقة في التعريف البريطاني من ساحل القرصنة إلى ساحل الصلح البحري، وفي قول آخر ساحل الهدنة البحرية أو الساحل المهادن.

وقع على حكومة الشركة الإنجليزية في الهند أن تؤكد استسلام المنطقة عملياً وتفرضه قانوناً تتقيد به ولا تحيد عنه أبداً. و لم يكن ذلك الأمر ممكناً إلا بمسح هذه السواحل واستكشاف الدروب البحرية في الخليج ورصد ضحضاحاته ورسم شرومه وخلجانه وتحديد اتجاهات الرياح السائدة في الخليج، حتى تبحر فيه سفن الحرب البريطانية الشراعية الضخمة وسفنهم التجارية كذلك بأمان يجنبها الهجوم المباغت من قبل المجاهدين الذين ربما يتطلعون إلى الثأر لما أصابهم من هزائم. كذلك يمكن بعد إجراء المسح أن تغدو سفنهم الحربية أكثر قدرة على الوصول إلى السواحل العربية لتدمير قلعة ميناء أو لحصار السفن العربية فيه حتى لا تخرج إلى البحر. ويمكن سفنهم التجارية بعد المسح البحري أيضاً أن تجد ممرّاً بحرياً آمناً ينقل بريد الشركة الإنجليزية إلى رئاستها في لندن من دون أن يعترضها معترض. وكان من أبرز المهمات الموكلة إلى المسّاحين، إضافة إلى مهماتهم العملية، التحري عن العلاقات الاجتماعية في تلك السواحل

العربية ورصد اتجاهات الشيوخ فيها، وعلاقاتهم بمن يجاورهم من الحكام الآخرين، ومحاولة التعرف إلى إيكولوجية المنطقة وأحوالها البيئية ومصادر الثروة الزراعية والحيوانية في ظهير تلك السواحل، واستجلاء كل الروابط العقدية والقبلية في المنطقة، وكافة ما يتصل بالهوية الثقافية والإقليمية لبناء سياسات تأخذ في اعتبارها هذه المعطيات جميعاً.

لم تكن فكرة قيام الشركة البريطانية بمسح السواحل العربية للخليج وليدة حملة ١٨١٩-١٨٢٠م، بل كانت سابقة لها، ولكن لم يتيسر للشركة القيام بذلك لأنها لم تكن تملك زمام المبادرة في ذلك البحر الذي كان في أيدي أبناء الخليج. وكانت للشركة في هذه الفترة هموم استعمارية أخرى في الهند وجوارها المباشر، استقطبت اهتمامها وجهودها، وما إن فرغت حكومة الشركة من عملياتها القتالية المباشرة ضدّ المارثا في شبه القارة الهندية حتى أرسلت حملتها المذكورة إلى الخليج واستعمرت مياهه، ثم عملت على الحفاظ على نتائج الحملات بفرض التعهدات التهادنية على الحكام والقيام بالمسح البحري لسواحل الخليج ومياهه. أفادت الشركة من فرصة الضعف المادي والبشري الناجم عن تلك الحملة وما تلاها من تعهدات قسرية للقيام بهذا المسح من دون اعتراض من القوى الوطنية في الخليج، وأصبحت الفرصة سانحة لذلك بعد عودة السفينتين مارجريت وفرانسيس اللتين كانتا تعملان في مسح بحار الصين إلى مراسي الشركة في الهند. وقد اكتسب المسّاحون في هاتين السفينتين خبرات كبيرة حين أنهوا مهماتهم هناك بنجاح مشهود. ولم يكن البريطانيون حتى بداية القرن التاسع عشر يعرفون الكثير عن طوبوغرافية الخليج، فوقع على مصلحة المساحة في البحرية الهندية ردم هذه الفجوة. ووقع عبء ذلك على رجال من أمثال هينس "قاهر عدن" وولستد "جوّاب عمان" ومورسبي الذي وضع خريطة للبحر الأحمر، والليوتنانت جُرب الذي أجرى مسحاً لجزيرة قن في أكتوبر ١٨٢٢م ثم هلك في العام التالي لوخامة جوّ الخليج - كما قيل - ثم آلت المهمات إلى الكابتن جاي الذي كان أول من "اخترق مدخل الفنستون أو المكان الأشدّ حرارة في العالم"، وحين انهارت صحّته بعد ذلك، آل العمل إلى جورج بارنز بركس الذي شارك في الحملة ضدّ رأس الخيمة وكان مسؤولاً كضابط مواصلات عن تفاصيل النزول إلى تلك البلدة، وعمل بعد ذلك في فريق المسح مع جاي. وأتمّ بركس مسح الساحل حتى قطر، وانتهى من مسح الساحل العربي كله في عام ١٨٢٥م، ثم انتقل إلى الساحل الفارسي وفرغ من مهمته في عام ١٨٢٨م. ويرى بعض النقاد أن بركس لم يكن ملاحظاً حصيفاً، ولم يكن يمتاز بالدقّة العلمية التي ميّزت العديد من المسّاحين الآخرين، ولكنه امتاز عنهم بما توافر له من فريق عمل جيد. وقد واصل بركس عمله في عام ١٨٢٩م، وأخذ في مسح خليج عمان، ولكن صحّته ما لبثت أن ساءت، وتسلم هينس المهمة بعده. وعاد بركس مرّة أخرى في عام ١٨٣٤م بعد إجازة

استمرّت عامين، ورسم خط سير البخاريات من بومباي حتى السويس، كما أجرى مسحاً لجزيرة سُقطرة لإقامة مخزن فحم هناك. وعُيّن بركس في عام ١٨٣٩ قائداً لأسطول الخليج، وكان آخر قائد مستقل عن سلطة المقيم، وتولّى في تلك الفترة مسؤولية توجيه قذائف ذلك الأسطول إلى الدوحة ودبي بذريعة إخماد بعض الاضطرابات البحرية.

قامت فرق المسح في الفترة بين عامي ١٨٢٠ و١٨٢٩م بإنجاز ما أوكل إليها بنجاح كبير، حيث اشتملت النتائج على العديد من التفصيلات الدقيقة. كان لفيليب موجان الذي عاد إلى بومباي مع الفريق الذي كان يعمل في مسح بحار الصين برئاسة دانيال روث – أول قائد لفريق المسح في الخليج – خبرة سابقة في هذا المجال، فقد عمل الرجل منذ عام ١٨٠٤م في مسح سواحل كتش ما أكسبه معرفة وافية أدت إلى انطلاقة ناجحة لهذا المسح البحري ذي الدوافع والأسباب المختلفة. وكان من التوجيهات الصادرة لموجان أن يفيد من كل التقارير والمذكرات السابقة التي أعدّها قادة السفن الذين عملوا في الخليج في الفترات الماضية، وأن يتقصّى نوع المخاطر التي واجهوها هناك، كما قضت التوجيهات أيضاً بالنظر في كل الملاحظات التي كتبها كل أوروبي كانت له خبرة سابقة في الإبحار في الخليج والرسو في أي موقع من سواحله. وقد أدت بنا هذه التوجيهات، وما تمخض عن رحلات مسح السواحل من اهتمام بالجوانب الحياتية والبشرية عموماً، إلى أن نعدّ هؤلاء المساحين في قائمة الرحالة الذين رمت بهم مهمات مختلفة إلى هذه السواحل. وتختلف هذه التقارير عن الروايات التي تُعدّ لمخاطبة الجمهور وتمتاز عنها بالتقيد التام بالحقائق العلمية في الجانب العملي منها، أما الجوانب الاجتماعية التي كتب فيها هؤلاء المساحون، فتمتاز أيضاً بمحاولة التحرّي عن حقائق الواقع ولا تتجاوزه إلا بمقدار ثقافة هذا المسّاح عن الآخر، وبالانطباعات السريعة جرّاء المعاملة الطيبة أو غيرها التي يلقاها المساح في منطقة أو أخرى. ويمكن أن نشير إلى أنّ ملاحظات المساحين لم تكن في العادة تتحرّى عن قصد البدائي والغريب الذي تتحرى عنه الروايات الموجهة للجمهور، ولا تعمل على رسم تلك الصور الكاريكاتورية، ولكنها – من جانب آخر – لا تخلو من لمسات هنا وهناك من هذا الجانب أو ذاك. ويمكن القول أيضاً إن المساح كان يعمل في السواحل ويتعامل بنحو دائم مع الشيوخ وأعوانهم المقرّبين منهم من دون التعامل مع عامة الجمهور الذين يسكنون البرية، والذين لا يجمعهم بهؤلاء المساحين رابط فلم يختلطوا بهم، وعلى ذلك يقع علينا حين يحدثنا هذا المساح أو ذاك عن الحرير في لباس القوم أوعن بذخ في مأكلهم لتوافر المؤن الغذائية في المنطقة المعنية، أو حتى عن الصداقة التي يقول المساحون إنهم وجدوها "من العرب"، أن نضع في اعتبارنا أن المساح يتحدث عن شريحة بذاتها من العرب لا تُمثل الكل الذين لا يعرف المساحون عنهم شيئاً إلا القليل. وكم كان بركس صادقاً حين اعتذر في مقدمة تقريره بأن لا يُتوقع من رجل مثله ركب البحر منذ أن كان

عمره إحدى عشرة سنة أن يكتب في الموضوعات ذات العلاقة بالسكان وديانتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتجاراتهم ومصادر أرضهم، كما يمكن أن يفعل من أفاد من التعليم وعرف مناهج التاريخ وأتقن قواعد اللغة. وأشار إلى أنه حاول في تقريره أن يصف أخلاق الناس الذين زارهم، والذين لم يكن يعرف عنهم إلا القليل، أو ربما كان لا يعرف عنهم شيئاً البتّة، وذلك "بقدر ما تهيّأ لي معرفته وما سمحت به قدراتي". وشرح بركس منهجه في الوصول إلى المعلومات التي أوردها فقال إنه وضع عدداً من الأسئلة للشيوخ الذين التقاهم في ما يخصّ القبائل ومناطق سكناها ومداخيلها... إلخ، وسجّل إجاباتهم، كما قابل أشخاصاً آخرين في أوقات مختلفة، وأخذ عنهم وسجّل ما ارتضاه من أحاديثهم. ويلتزم هذا المساح الصدق حين يقول "... ولكن من المستحيل أن نقنع بما يقوله المواطنون في هذه المنطقة من العالم، ومع ذلك فربما كان من المستحسن أن نُعدّ ذلك قريباً من الحقيقة".

ويمكننا أن نعتمد بعد النقد وجهات نظرهذا المساح في ما جاء عنده من ملاحظات عن الحياة والناس في مناطق السواحل التي عمل فيها.

تولى جون جاي، مساعد موجان، في عام ١٨٢١م رئاسة فريق المسح في الخليج وخلفه في الرئاسة ج. ب. بركس الذي أخذنا طرفاً من تقريره، وتسلّم س. ب. هينس بعد ذلك في عام ١٨٢٥م قيادة فريق المسح، وكان الضابط هوايتلوك الذي أخذنا منه أيضاً، من العاملين تحت إمرة هينس.

صدرت نتائج هذه المسوحات في أوقات متفرقة في الفترة ١٨٢١-١٨٣٢م في شكل خرائط غالباً، وكانت الشركة تدرجها تباعاً في النشرات التي يجري تعميمها على سفنها العسكرية والتجارية العاملة في الخليج. و لم تعمل حكومة الشركة – بداية – على نشر الجوانب البشرية التي استقصاها المساحون، غير أن بعضهم قام في فترات مختلفة بإلقاء محاضرات في الجمعيات الجغرافية في بومباي ولندن. ومن المؤكد أن هذه المسوحات قد اتسمت في شقّها الطوبوغرافي – الذي لا يعني هذه الدراسة – بالتحري عن الدقّة المتناهية، أما في شقّها البشري – الذي يعنينا هنا – فقد اعترت تقارير المساحين – على تحريها عن الدقّة ما أمكن – ربما من غير قصد، بعض ما يعتري أمثالها من تقارير غيرهم من الرحالة الغربيين. وعلى العموم، فإن هذه التقارير بشقيها غدت مهمة تماماً لكل من يحاول الكتابة في تاريخ الخليج. فقد أرست هذه المسوحات الأساس لبعض أهم المصادر البريطانية في تاريخ الخليج، وعليها ارتكز كتاب ربان الخليج الفارسي الذي أصدرته البحرية البريطانية لإرشاد سفنها المبحرة في الخليج، وقامت على نتائجها عدّة كتب مهمة، لعل أهمها ما كتبه سالدانها ثم كتاب لوريمر الشهير: **غازيتة الخليج الفارسي** الذي يُعدّ عمدة في مجاله.

رأس الخيمة

كتب بركس في حوالى عام ١٨٣٠م موضوعاً بعنوان: "وصف لقسم من الساحل الجنوبي للضفة العربية من الخليج الفارسي في المنطقة الممتدة بين رأس الخيمة ودبي"، أورد فيه العديد من الملاحظات عن الدمار العمراني والاقتصادي الذي أورثته حملة ١٨١٩-١٨٢٠م المناطق الحضرية التي كانت قائمة في هذه السواحل. وقد أخذنا بعض ما جاء في التقرير وأغفلنا الكثير مما جاء فيه عن الملاحة وشؤون الإبحار، وكافة ما يخصّ غواطس المراكب وأعماق المياه عند مداخل الخيران التي تطلّ عليها تلك المدن. ورغم أن ذلك كان الغرض الأساس لكاتب التقرير الذي وضعه خصوصاً لإرشاد سفن الحرب البريطانية إلى مداخل تلك المدن، فقد رأينا تجاهله لعدم جدواه في وقتنا الراهن.

يقول بركس وهو يكتب عن رأس الخيمة: تقع خرائب المدينة على بعد حوالى ستة أميال من الرمس على الجانب الغربي من مدخل الخور الذي يجري بموازاة الساحل تقريباً، والذي يبلغ طوله ثلاثة أميال ولا يزيد عرضه على ميل ونصف في منتصفه. أما عرض مدخله الذي يعترضه شريط رملي فلا يتجاوز سدس ميل. ولا يصل ارتفاع الماء عند الشريط الرملي في حالة الجزر لأكثر من قدمين، أما الخور فيكاد في هذه الحالة أن يكون جافاً تقريباً إلا في المنطقة القريبة من خرائب المدينة، حيث يوجد وشل من الماء لا يكفي إلا لإبحار قارب صغير. تقع في مواجهة المدينة داخل نطاق مياهها الخلفي جزيرتان صغيرتان، واحدة منها، هي مهرة، تضمّ حوالى خمسين أو ستين كوخاً يسكنها صيادو الأسماك. وتقف على الجانب الشرقي من مدخل الخور قرية أخرى هي مديثية يسكنها نحو مئتين أو ثلاثمئة رجل من القواسم في أكواخ من القش، وذلك رغم توافر الكثير من مواد البناء الي يمكن جلبها من خرائب المدينة التي دمرتها الحملة البريطانية. وتبعد حدائق النخيل التي شاخت أشجارها والتي يبدو أنها لم تعد تظفر بالعناية والاهتمام على بعد ميل ونصف الميل إلى الشرق من جنوب شرق المدينة، وهذه هي المنطقة الوحيدة التي تتوافرفيها المياه الحلوة. تمتد خرائب المدينة على رقعة ضيقة من الرمال التي تكوّن النهاية القصوى للخور في اتجاه البحر. ولن تجد في هذه الخرائب منزلاً قائماً على أساسه أو حتى أساساً يمكن أن يُحدث عن شكل المبنى الذي كان قائماً عليه في يوم ما. و لم يبق من البلدة ما يمكن العين أن ترمقه سوى خرائب لبقايا برجين دائريين كانا يقفان عند الأطراف الغربية للمدينة. أما سكان المدينة فقد نزحوا منها، وسكن القسم الأكبر منهم في بساتين التمور التي تقع على مسافة منها، فيما غادر القليل منهم إلى الشارقة وسكن بعضهم القرى المجاورة وأماكن أخرى من الساحل، وهم جميعاً خاضعون تماماً لسلطة شيخ الشارقة.

يقول بركس إنه وفريق المسح الذي يرأسه وجدوا من شيخ رأس الخيمة تعاوناً حين كانوا يقومون بعمليات المسح في هذه المنطقة وفي أماكن أخرى في جوارها، وكان أخوه يرافق الفريق لحمايته من أي إزعاج قد يواجهونه من الجمهور، ويفيد بأنه لم يطرأ خلال فترة وجودهم في تلك المنطقة من ذلك شيء سوى حادث واحد يستحق الشكوى. فقد سُرقت بعض قوائم أعلام نقاط المسح ليلاً، وحين طالب بركس الشيخ بضرورة ردّها، ضُبط اللص في الحال وعُوقب بالضرب المبرح. ويمكن القول عموماً - كما يقول بركس - إن استقبال السكان لهم كان طيباً، وتراهم يتطلعون إلى اليوم الذي يمكن رأس الخيمة أن ترفع فيه رأسها مرّة أخرى.

يفيد بركس أن حسن بن رحمة، شيخ البلدة قبل غزوها، كان لا يزال في موقعه من الشياخة، ولكنه دخل في تبعية ابن صقر الذي يسكن قرية كبيرة تقع على بعد حوالى ستة أميال من رأس الخيمة. ويضيف بركس: إن المؤن من خضر وزبد ودواجن متوافرة في البلدة وتباع في موقع قريب من الخور، ويلاحظ أن أثمانها مناسبة جداً. ويرى بركس أن منطقة ساحل القرصنة التي اكتسبت اسماً جديداً فغدت تُعرف بالساحل المهادن، لا تنقصها هذه المؤن، ما يشير إلى أن ظهير المنطقة خصب منتج رغم أن مظهر الساحل المجدب لا يُوحي بذلك. فالأثر الوحيد للزراعة الذي يمكن المرء أن يلحظه في الساحل لا يتعدى الأطراف الجنوبية للمدينة، حيث بساتين النخيل بأشجارها المتفرقة المتباعدة التي تناضل علّها تظفر بالحياة. ويضيف بركس أن أهل رأس الخيمة يكسبون رزقهم من صيد اللؤلؤ، فهم يملكون عدداً قليلاً من القوارب الصغيرة التي تُوظّف في هذا النشاط بصفة رئيسة. هذا إضافة إلى أنهم يجمعون زعانف الحيتان بكميات كبيرة ويرسلونها إلى مسقط حيث يشتريها البانيان الذين يتعاملون فيها مع سوق بومباي. ويشير إلى أن شيخ الشارقة يفرض رسماً قدره ريال واحد في السنة على كل شخص يعمل في مراكب الغوص، ما يدرّ عليه دخلاً يُقدر بحوالى ألف إلى ألف ومئتي ريال سنوياً.

الحمرا

جاء في مذكرات هذا المساح عن الحمرا أن سلسلة من التلال الصغيرة ذات اللون الأحمر تبدأ من الجانب الجنوبي من الخور، ويعتقد أنها مُكوّنة من الحجر الرملي. وتغطي هذه التلال الصغيرة أشجار متفرقة متناثرة في غير انتظام. وتمتد هذه التليلات المذكورة قوساً على بعد حوالى ميل إلى الداخل مع امتداد الساحل الرملي في اتجاه الحمرا التي تقع في جزيرة يعرفها العرب بالاسم ذاته نظراً إلى لون التلال التي تقع على مشارفها الشرقية. ويقع عند المدخل عدد

من الجزر والسواحل الرملية. ويضيف بركس أن محيط المدينة، "أو بالأحرى محيط بقاياها" يصل إلى حوالى ميل تقريباً. وكان يحمي المدينة برجان دائريان يواجهان الداخل، يعتمد الدفاع فيهما على بندقيات الفتيل، ويفيد بأن تلك الحماية قد تقلصت، فقد بات البرجان في حالة مزرية من الخراب وفي حاجة إلى قدر كبير من الترميم. أما الأبراج الأخرى التي كانت في السابق تقف في مواجهة البحر فقد دمّرتها الحملة تدميراً تاماً و لم يعد لها وجود. ويضيف بركس أن هناك العديد من الظواهر التي تقف شاهداً على أن المكان كان بلا شك ذا شأن قبل أن تنزل به الحملة وتدمّره تدميراً. وتشهد الخرائب المبعثرة في المنطقة على أن المكان كان عامراً، وأن الأبنية كانت كثيرة ومتعددة وشُيّدت بنحو غير مألوف في أي منطقة أخرى من الساحل العربي.

يقف على الجانب الغربي من المدينة، على مقربة من الساحل، جامع كبير الحجم نسبياً عبثت به يد الزمن. ويضيف بركس أنه لا يرى في عمارة هذا الجامع ما يمكنه أن يفاخر به في فن البناء، فهو لا يزيد على كونه محاولة تقليد غير موفقة للأقواس التي تميز العمارة المغربية. ويقوم سقف هذا الجامع الذي يتألف من أربع قباب على أعمدة متراصة، خمسة منها على امتداد طوله وأربعة أخرى على امتداد عرضه، متقاطعة في زوايا قائمة مع سابقتها. ويبدو مظهر هذه القباب للناظر إليه كأنه أفران خبز متلاصقة. وقد بُني هذا المسجد الذي تناولته يد الخراب وما عاد يصلح لشيء أبداً، من الحجر الرملي الهش. ولا يزيد عدد سكان هذه المدينة على مئتين أو ثلاثمئة نسمة، وهم من القواسم العاملين في صيد السمك، ويتبعون شيخاً تابعاً بدوره لشيخ رأس الخيمة. "وقد كان هذا الشيخ إبان الحملة على رأس الخيمة يعمل مترجماً للكابتن طومسون، ويبدو لي أنه شخصية ماكرة". ويلاحظ بركس أن عدد سكان المكان يتضاعف في فترة الخروج للغوص، حيث يفد إلى المدينة بعض مواطني الداخل. ويضيف أن هؤلاء الوافدين لا يفتقرون إلى المأوى، ففي خرائب المدينة متسع لجميعهم. ويؤدي كل من يركب البحر منهم للعمل في صيد اللؤلؤ ريالاً ضريبة للشيخ الذي لا تدرّ عليه تلك الرسوم دخلاً كبيراً، فعدد القوارب في هذا الموقع قليل، ما يجعل العائدات التي يجنيها الشيخ غير ذات شأن. ويضيف بركس حُكماً أن العدد القليل من السكان الذي يعمر البلدة لا يتوافق وحجم خرائب المكان، فيمكن القول إن السكان كانوا سابقاً يقومون بوظائف اقتصادية عديدة ما عادت قائمة في زمانه، فقد كان يُبنى هنا عدد من القوارب الصغيرة، ولكن يبدو أن هذا النشاط قد صار إلى كساد فهجره أهله.

يقول بركس إن العين الفاحصة لا تقع على أي بساتين نخيل على مشارف تلك المدينة ولا على مرأى منها. أما الماء الذي يصلح للشرب فيُجلب من مصادره التي تقع في المرتفعات على بعد نحو ميل ونصف الميل من المدينة، ويغدو هذا الماء ذاته في أشهر الحرّ غير مستساغ.

أم القيوين

يفيد هذا المسّاح بأن أم القيوين تقع على بعد ستة عشر ميلاً إلى الجنوب من الحمرا، وتقوم البلدة على النقطة الشمالية من مدخل أحد أكبر وأوسع الأخوار في هذا القسم من الساحل الذي يربط بين المنطقتين المذكورتين في شكل قوس غير منتظم. ويلاحظ بركس أن ساحل البلدة رملي منخفض، وترقد بقربه صخرة مرجانية تبرز في بعض المواقع على بعد ميل ونصف من الساحل. ويضيف أن أم القيوين مهجورة حالياً "ولكن يبدو أنها قد كانت ذات شأن كبير". ويرى أن إعادة إعمار تلك المدينة لن يكلف الكثير من الجهد ولا المال، فكل أسوار المنازل ما زالت قائمة لا ينقصها إلا استحداث عروش لها. ويعبر بركس عن رأيه في أنه يبدو أن نجم أم القيوين، شأنه شأن مصائر مناطق أخرى في هذا الساحل، قد أفل في الفترة التي أخذ نجم رأس الخيمة في السابق في العلوّ والارتفاع.

ويشير بركس إلى جزيرة تقع على مقربة من أم القيوين وترتبط بساحلها بشريط رملي ضيق يبدو واضحاً في فترات الجزر. تقف في منتصف هذه الجزيرة مدينة صغيرة تسمى لبنى، يسكنها مجموعة من العرب التابعين لشيخ الشارقة. ويضيف أن المدينة خالية من أي شكل من أشكال التحصينات، وأن الموقع الوحيد الذي يمكنه أن يكون مصدر مقاومة ضدّ أي هجوم هو بيت الشيخ. ويستطرد فيقول إن سكان البلدة يعتمدون على صيد الأسماك، ولهم عدد قليل من المراكب يوظفونها في أعمال الغوص. ويصف بركس المكان على الإجمال بأنه بائس فقير مجدب يخلو حتى من بساتين التمور، ولكنه يضيف أن هناك عدداً من فسلات النخيل المغروسة حديثاً في الجانب الجنوبي من المدينة، ويقول إن الماء في أم القيوين غير جيد.

ينصح بركس السفن بتجنّب الرسوّ في أي منطقة على طول الساحل من أم القيوين إلى دبي حيث القاع صخري بنحو غير معهود. ويقول إن هلب السفينة يمكن أن يعلق بأي من هذه الصخور، ويفيد بأنهم حين كانوا يعملون في فريق المسح كُسر عدد منها أو فُقد.

عجمان

يأخذ الساحل الرملي المسطح المنخفض إلى الجنوب من أم القيوين حتى عجمان اتجاهاً جنوبياً شرقياً. وتقع في منتصف المسافة بين هذين الموقعين قرية صغيرة عند مدخل خور صغير جداً لا تستحق الذكر. ويمكن أن تلمح في هذه المنطقة بعض بساتين أشجار النخيل.

عجمان مدينة صغيرة تقع على النقطة الجنوبية من خور يُعدّ مدخله من أميز المداخل في هذا الساحل. يبلغ عرض المدخل حوالى ربع ميل ولا يقل عمق الماء عند مدخل الخور عن خمس

أقدام في حالة الجزر، ويتراوح عمقه في القناة الضيقة في الجانب الشمالي من المدينة من ستة إلى أربع عشرة قدماً. المدينة صغيرة ولكنها تضمّ عدداً من السكان يتراوح بين ألف وألف ومئتين وكلهم من قبيلة النعيم تحت شياخة راشد بنِ أحمد. ويعدّ هذا الشيخ نفسه مستقلاً غير تابع لشيخ الشارقة، ولكن الجوار الجغرافي لا يمكنه من أن ينأى بنفسه تماماً عن سيطرة الأخير.

يرى بركس أن المبنى الوحيد في عجمان الذي يمكنه في حال الهجوم أن يقاوم هو ذلك "الغوري" الصغير الذي دمّرته تلك الحملة جزئياً، وتحول بعدئذ ليصبح بيتاً للشيخ، أما بيوت المواطنين فقد شُيّد بعضها من الطين وبعضها الآخر عبارة عن عرائش من سعف النخيل. ويلاحظ بركس أن الأرض عند عجمان مجدبة مقارنة بالمناطق الأخرى، ولا يمكن الحصول على الماء المستساغ إلا على بعد حوالى ثلاثة أرباع الميل في اتجاه الجنوب من البلدة، ولكن بما أن تلك الآبار تقع في صحراء مكشوفة خارج نطاق المدينة، فإنها غالباً ما تُطمر بالرمال التي تذروها العواصف الشمالية الشرقية عند هبوبها.

يعمل سكان عجمان بالغوص الذي يشتغل فيه حوالى مئة وأربعين قارباً، ويقول بركس إنه لا يستطيع تقدير عوائد هذا النشاط بدقّة، ولكنه ربما يتراوح بين اثني عشر ألفاً إلى خمسة عشر ألف ريال. وتقع قرية فشت بين عجمان والشارقة على مدخل خور صغير على بعد حوالى ميل واحد من خور الأخيرة، إلا أن تلك القرية قد غدت غير ذات أهمية تذكر، فسكانها قليل عددهم.

الشارقة

يشير بركس إلى أن الشارقة تقع على بعد حوالى خمسة أميال من عجمان، ويجري خط الساحل الذي يربط البلدتين في خط مستقيم. وتقف المدينة على الضفة الشرقية لخور ضيق غير متسع يجري في موازاة الساحل يقع مدخله على بعد ميل إلى الشمال من المدينة ويعترضه الحاجز الرملي، مثله في هذا مثل سائر الأخوار الأخرى في هذا الساحل. ولا يتجاوز ارتفاع المياه في خور الشارقة في حال الجزر قدمين أو ثلاث أقدام. ويتراوح عرض هذا الخور بين مئة وعشرين ومئتي ياردة، ويبلغ طوله حوالى ثلاثة أميال، ويتصل في نهايته الجنوبية بمدخل خور أبو حايل. وعلى هذا الشريط الضيق من الأرض وفي اتجاه الغرب مباشرة على بعد حوالى نصف ميل تقريباً، ينتصب برج مربع صغير محتضناً عدداً من الأكواخ التي يقطنها ما بين خمسمئة إلى سبعمئة نسمة من قبيلة السودان الذين نزحوا إليها من الخان الواقعة على الجانب الشمالي لمدخل خور أبو حايل. وقد وفد هؤلاء النفر إلى هذا المكان إبان الحملة الأخيرة طلباً للأمان. ويعتمد هؤلاء القوم في معاشهم على صيد الأسماك، كما أن لهم أيضاً بساتين تمور، لكن

نتاجها لا يكاد يفي بما يسدّ حاجة عُشر السكان.

يقول بركس إن الشارقة غدت مدينة مفتوحة مكشوفة لا تعرف أي نوع من أنواع الحماية، فأسوارها وأبراجها قد دمّرتها الحملة تماماً. أما بيوتها فقد بُنيت من الطين أساساً، وتعكس، بما فيها بيت الشيخ، منظراً كئيباً. بنى المواطنون هذه المنازل بما يساير أمزجتهم ويوافق هواهم من دون تخطيط، فاضطربت المباني وتداخلت، وغدت شوارع المدينة، مثلها مثل شوارع سائر المدن العربية الأخرى، متعرجة غير منتظمة. ويضيف بركس أن سكان المدينة الذين يتراوح عددهم بين ألف وسبعمئة إلى ألفين هم من عرب القواسم، إضافة إلى عدد آخر من الوافدين من كل لون وملّة لم يشملهم هذا التقدير. يأتي هؤلاء الوافدون لإنجاز مهمات تجارية في هذه المدينة التي هي مركز التجارة في هذه المنطقة، ثم لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا، ولن تجد إلا نادراً من يستقر منهم فيها. ويتضاعف عدد سكان البلدة في موسم الغوص مرتين، حيث يتدفق المواطنون إليها من الظهير للعمل في مصائد اللؤلؤ.

يتحدث بركس عن سلطان بن صقر، شيخ الشارقة، ويقول إنه جرى الاعتراف به "إماماً" أو شيخاً لعموم القواسم بنحو عام، ويصفه بالرجل السمح الوجه، النشط، ذي الأنفة، المتطلع الذي تنحو سلوكياته إلى التحضر، ولكنه ينفي عن الشيخ صفة المحارب البارع، فذلك أمر غير مشهود له به. ويضيف أن له من الملكات ما يؤهله كي يحترف أي عمل إلا أن يكون شيخاً "للقراصنة". ويرى بركس أن هذا الشيخ شغوف جداً باستثمار حسن نية الإنجليز، ولا يريد منهم في مقابل ذلك إلا الاعتراف به رئيساً عاماً لكافة القبائل المختلفة التي تعمر هذا الساحل. ويشهد بركس على أن الشيخ سلطان بن صقر كان في تلك الفترة الأقوى بين شيوخ ساحل الهدنة، وأن الشيوخ الآخرين في المنطقة "لا يستطيعون مقاومة سطوته"، وأفاد بأنهم "في الوقت الراهن يرضخون لسلطته وإن لم يعترف له بذلك شيخ أو اثنان منهم".

يقول بركس إن خزينة الشيخ تستمدّ دخلها أساساً من صيد اللؤلؤ. ترسل الشارقة إلى سواحل اللؤلؤ حوالى ثلاثمئة قارب يؤدّي كل عامل عليها ريالاً واحداً للشيخ ليحصل على تصريح بالعمل في موسم الصيد، ويدرّ ذلك على الخزينة مبلغاً يتراوح بين مئتي ألف ريال وثلاثمئة ألف (؟). وتضاف إلى ذلك رسوم أخرى تُفرض على صائدي الأسماك وأصحاب الحوانيت والتجار. وعلى الجملة، فإن عوائد هذه الأعمال – في تقديره – ضعيفة لا تكاد تُذكر. أما مصدر الثروة الرئيس لهذا الشيخ فيكمن في المغامرات التجارية التي يقوم بها، حتى غدا التاجر غير المنازع من أي من الآخرين في أي مكان آخر في هذا الساحل.

يذكر بركس أن عائدات تجارة اللؤلؤ ضخمة جداً حيث يتراوح ثمن المصدر منها بين ثمانين ألف ريال إلى تسعين ألفاً. كذلك تدرّ تجارة زعانف الحيتان التي يصدرونها بكميات كبيرة إلى مسقط أو يشتريها البانيان الذين يذرعون هذا الساحل جيئة وذهاباً للحصول على

هذه السلعة أو لشراء اللآلئ أيضاً. ويضيف بركس أن البحر غنيّ بأسماكه المختلفة الصنوف، أما بساتين التمور القليلة العدد في هذه المنطقة فهي لا تكاد تسدّ حاجة السكان من هذه المادة الأساس في قوتهم اليومي، فتراهم يستوردون كفايتهم منها من البحرين والبصرة.

تبدو الأرض في هذه المنطقة على امتداد البصر صحراوية جرداء لا تكشف عن وجود أي مناطق زراعية، أما أشجار نخيلها فتبدو في حالة فطرية، فهي لا تظفر برعاية أحد. ويمكن الحصول على المياه الصالحة للشرب من الآبار التي تقع على بعد حوالى نصف ميل شرقي منزل الشيخ.

يطلّ على المدينة تلّ صغير يمثل المعلم الأساس لها، ويبدو أنه غير محصن بدفاعات صناعية. هذا التلّ إضافة إلى برج صغير يقوم عند قرية السودان هما أول ما يمكن أن يُرى من البحر، ويُستدلّ بهما على المدينة رغم أن التلّ قد لا يبدو ظاهراً منذ الوهلة الأولى. ويرى بركس أن مرسى البلدة سيّئ جداً، فالقاع تكتنفه كومات من الصخور المرجانية، فيما يقذف البحر في حال هيجانه أو حتى في فترات هبوب رياح متوسطة السرعة بأمواجه، ما يجعل الرسوّ فيها أمراً خطيراً.

دبي

تقف دبي، المدينة التالية للشارقة، على الجانب الجنوبي من مدخل خور صغير يتراوح عمقه في المنطقة القريبة من المدينة بين عشر أقدام وسبع وعشرين قدماً، ولكن الماء عند فم الخور لا يتجاوز في فترة الجزر القدمين فقط. ويلاحظ بركس أن هناك عوائق ملاحية تعرقل الدخول إلى الميناء، منها صخرة مرجانية يتراوح طولها بين نصف ميل وثلاثة أرباع الميل ترقد قريباً من الساحل وتمتد تقريباً إلى مدخل أبو حايل، كما توجد حواجز أخرى عديدة تسدّ طرق الملاحة.

لا تزيد المدينة عن تجمع لأكواخ بائسة يحيطها سور منخفض تتخلّله العديد من الثلمات. وتقوم ثلاثة أبراج دائرية وقلعة عليها برج مهترئ جداً نصبت عليها ثلاثة أو أربعة مدافع قديمة صدئة بمهمة الدفاع عن المدينة. أما البرج الغربي الذي يقف على صخرة صغيرة تستشرف الخور فتقوم عليه حوالى ثلاثة أو أربعة مدافع لا بأس بها.

يحكم دبي الشيخ سعيد التابع لإمام مسقط. ويتراوح عدد سكان البلدة بين ألف وألف ومئتي نسمة من قبيلة بني ياس. ويحدثنا بركس أن لإمام مسقط حامية في المدينة من الجنود الزنوج يتراوح عددهم بين خمسين ومئة أوكل إليهم حراسة المدينة. ويضيف أن السكان يعملون في صيد الأسماك وجمع زعانف الحيتان، كما يعمل عدد كبير منهم في صيد اللؤلؤ. ويمثل هذا النشاط الأخير أبرز المظاهر الاقتصادية في البلدة، إذ ترسل دبي حوالى تسعين مركباً

إلى سواحل الغوص، وتتراوح عائدات منتجه بين عشرين ألف ريال وثلاثين ألفاً. ويلاحظ بركس أن المنطقة مجدبة تماماً، ولا يوجد فيها ما يحدث عن خضرة سوى بستانين أو ثلاثة من بساتين النخيل في ظهير المدينة، حيث توجد أيضاً الآبار ذات المياه المستساغة. ويمكن أن نلاحظ من فوق البرج أن الخور يتلوّى في مجراه في اتجاه جنوبي غربي لحوالى خمسة أو ستة أميال إلى أن ينتهي في مستنقع. وترصّع جانبي الخور قطع تنمو فيها بعض الشجيرات يستخدمون حطبها، إضافة إلى ما يحصلون عليه من المستنقع للوقود. ويعتمد السكان في غذائهم على التمور التي تأتيهم من البحرين، وعلى قدر قليل من الأرز الذي يأتيهم من مسقط.

أبو ظبي

يلاحظ بركس أن الساحل الذي يربط دبي بأبو ظبي منخفض وتسوده العديد من الضحضاحات، وهو غير آهل بالسكان إلا في موسم الغوص، حيث تغشاه أعداد من قبيلة المناصير، فتقيم عدّة قرى مؤقتة على أطراف ذلك الساحل. ويحدد بركس أبو ظبي بخطوط الطول والعرض، ويلاحظ أنها جزيرة رملية تُعدّ موقعاً لرئاسة قبيلة بني ياس، فشيخها طحنون يسكن هناك. ويضيف أن عدد نفوس قبيلة بني ياس التي هي من القبائل الرئيسة في شبه الجزيرة العربية حيث يُكوّنون فيها "عنصراً" مستقلاً، يصل إلى حوالى ألفين وأربعمئة رجل، وهناك أيضاً نحو خمسة آلاف من المناصير والقبائل الأخرى التي تعترف بسلطة هذا الشيخ. ويسكن أغلب هؤلاء وأولئك في مناطق متفرقة من الداخل تُدعى الظفرة. ويقدر بركس أعداد السكان في أبو ظبي بنحو ألف ومئتي رجل، ويتضاعف العدد في مواسم الصيد حيث تقصدها هذه القبائل التي تقيم في الداخل، كما يقصدها أيضاً عدد من البانيان الذين يعملون في التجارة والصياغة.

يصف بركس أبو ظبي فيقول إن فيها بيتاً حصيناً وبرجاً صغيراً، وتظهر في مناطق متفرقة منها أبراج صغيرة أخرى، إضافة إلى قريتين أو ثلاث. ويعمل سكان المدينة في صيد اللؤلؤ الذي يُعدّ المصدر الرئيس للدخل، فأرضهم مجدبة لا تكاد تفي إلا بالقليل، أو ربما أنها قد لا تفي بشيء أبداً، ويملك السكان عدداً من القوارب التجارية. ويمكن الحصول على لحم البقر ولحوم الدواجن في أبو ظبي أحياناً، ولكن الماء فيها ملح زعاق. ويشيد بركس بطحنون، ذلك الرجل الوسيم الكريم الذي هو حليف صادق لإمام مسقط المرتبط بالإنجليز ربما لخدمة "مصالحه الخاصة وهو – إلى حد بعيد – أفضل شيوخ هذا الساحل".

الفصل الخامس عشر

ملاحظات الملازم هوايتلوك
عن المنطقة بين رأس الخيمة وأبو ظبي

نشر هوايتلوك في العدد الأول من حولية مداولات جمعية بومباي الجغرافية (١٨٣٦-١٨٣٢م) موضوعاً بعنوان: "**معلومات عن العرب الذين يسكنون المنطقة بين رأس الخيمة وأبو ظبي المعروفة بساحل القراصنة**". ونجد أن الرجل قد حاول التزام الحقيقة، ولم يفسدها إلا تلك النغمة الاستعلائية التي تسود كافة كتب الرحلة الغربية عن شبه الجزيرة العربية. وتبدو هذه النغمة في تقارير العسكريين والمسؤولين البريطانيين المكلفين بالقيام بالرحلة تحقيقاً لمهمات رسمية عموماً أخفض جرساً مما عند سواهم من الموظفين الآخرين الذين قاموا بتلك الرحلات لدوافع لا تتصل بتحقيق أهداف رسمية بصفة مباشرة. فنغمة الاستعلاء عند هذه الفئة الأخيرة طاغية، حتى لتكاد في كثير من الأحيان تطمس الحقائق. كان هؤلاء يكتبون لجمهور القراء في أوطانهم يتملّقون فيهم الروح الوطنية، فلا غرو أن تكلفوا الإثارة وتعمدوا تجسيد صور درامية ساخرة أو ربما كوميدية لنقل مغامراتهم في أوساط مجتمعات العرب البدائية إلى شعوبهم يستحثونها على أداء دورها المنوط بها في نشر المعرفة في تلك الأصقاع النائية التي لا تزال تعيش طفولة التاريخ. اعتمد العديد من هؤلاء الموظفين في الغالب على انتقاء البدائي والغريب وتضخيمه كاريكاتورياً لصياغة رواياتهم، كما اعتمدوا نقل القصص الشعبي والخرافات التي كانت تسود تلك المجتمعات بعد أن يضيفوا إليها من خيالهم ما يبرهنون به على علوّ كعوبهم في عالم الأدب وتدبيج الرواية. ودائماً ما يضع أمثال هؤلاء الرحالة العرب – عنصراً – في هذه المرتبة أو تلك، وبدو العرب عند هذه الطائفة من الرحالة الغربيين هم في الغالب أميز من حضرهم الذين خالطوا الأتراك و"تلوثوا" بقدر من المعرفة، والعكس أيضاً عند بعضهم صحيح استناداً إلى الحجّة ذاتها. والعنصر العربي عند أغلب الرحالة أميز من العنصر التركي، بل هو أميز العناصر البشرية في الشرق كافة، وذلك لأنهم يعيشون

على السليقة التي لم تفسدها المدنية. وعلى العموم، لا يجوز لنا أن نرضى عن هؤلاء الرحالة ونقبل شهاداتهم العنصرية، فالتفاضل العنصري الذي يسود كتابات الرحالة الأجانب أمر تأباه العقول السليمة وتنبذه الأخلاق القويمة.

السكان والبيئة الاجتماعية

كتب هوايتلوك عن منطقة ساحل عمان مبدياً اعتقاده بأن تقدير أعداد نفوسها تقديراً دقيقاً أمر متعذّر، فسكانها في أعمهم من العاملين في البحر. يهجر الرجال في بعض المواسم، خاصة في فترة الغوص، المدن والقرى، ويركبون البحر تاركين زوجاتهم وعيالهم في رعاية المسنين من أقاربهم الذين أخنى الدهر بهم وأقعدتهم السنون، فما عادوا يستطيعون القيام بهذا العمل المضني. ولا يمكن إحصاء أعداد السكان وفقاً لأعداد المنازل وتقدير متوسط أعداد شاغليها، فالتقديرات في هذه الحال ستكون جزافاً، لأن المواطنين يعيشون أساساً في أكواخ من القصب تُشاد من دون كبير عناء أو تحمّل تكاليف، وكثيراً ما يهجر هذه الأكواخ سكانها لسبب أو لآخر وينزحون عنها إلى غيرها. ولا مناص، والحال هذه، من الاعتماد في هذا الصدد على التقديرات التي يوردها شيوخ المنطقة، ولكن على المرء أن يحترز لأن هؤلاء الشيوخ – في ما يقول هوايتلوك – تحركهم وجهات نظر متناقضة، فكل شيخ منهم يسعى إلى أن يكون الأوفر نفراً والأكثر أتباعاً، وذلك لاتصال أعداد النفوس بقوّة كل منهم. ويرى هوايتلوك أن الأخذ بمتوسط الاختلاف بين أقوال الشيوخ ربما يقود إلى تقدير أقرب إلى الحقيقة. وتمكن هذا المساح عن طريق هذه المقاربة من تقدير عدد سكان هذه المنطقة بما يتراوح بين أحد عشر ألفاً واثني عشر ألف نسمة قال إنهم ينتمون أساساً إلى عدّة قبائل أهمها القواسم والمناصير وبني ياس والمهامة (؟). وفي الحقيقة، فإننا لم نجد في هذه المنطقة اسماً لقبيلة يقارب الاسم الذي أورده هذا المساح هنا. وربما سيلاحظ القارئ خلال سردنا لما كتبه هذا المساح في ما لا يتصل بمهمته الأساسية أنه يضطر أحياناً إلى استحداث معلومات وأخبار يسدّ بها بعض ثقوب روايته عن الحياة والناس في المنطقة. ويضيف هوايتلوك أن سكان هذا الساحل استمدوا قسمات شخصياتهم من أسلوب حياتهم والوظائف التي يقومون بها، فعملهم الوحيد، حين تكون بلادهم في حال من السلم، يتصل بالبحر الذي يعيشون من عطائه من الأسماك واللؤلؤ. ويستطرد قائلاً: "لكن بما أن كل مدينة من مدن هذا الساحل تعيش مع جارتها في العادة حالة حرب دائمة، فقد ألف الرجال فيها الحرب وشدّ الإغارة بعضهم على بعض وتفوقوا في فنون السلب. ونتيجة لما يلاقيه هذا المجتمع من هذه المشكلات الملازمة، يصبح لازماً على المواطنين خوض الصعاب العديدة ليظفروا بلقمة عيش تسدّ الرمق".

لا يمارس هؤلاء القوم الغوص بصفة دائمة على امتداد السنة، فدرجة برودة ماء البحر تعطل هذا النشاط. يتوقف الرجال عن الغوص حين يعربد البحر شتاءً فوق هذا الساحل المفتوح، فيعوق السكان عن ممارسة صيد السمك إلا القليل منه في الأخوار أو في مجاورة السواحل، أما الغوص لصيد اللؤلؤ فلا يتيسر لهم القيام به إلا في الشهور الممتدة من يونيو إلى سبتمبر. ويتردّى هؤلاء الرجال في فترات الفراغ في حالة تامة من البطالة، فهم لا يعملون في الزراعة لافتقارهم إلى مقوّماتها، ولا يجدون في هذه الفترات عملاً يلهيهم. وتؤدي البطالة – من دون شك – إلى استشراء التعديات في ما بينهم، وخاصة أنهم في العادة يتمتعون ببنيات قوية، كما تدرّبوا منذ فجر صباهم على استعمال السلاح. وبما أنهم قد اعتادوا حياة السلب واستمرأوا النهب، فلا بد أن يكونوا شجعاناً غير وجلين ولا هيّابين، ويشهد هوايتلوك بأن "هذه هي حالهم فعلاً". ومع ذلك فلن تجد رجال أي مدينة من هذه المدن يتعاركون في ما بينهم إلا نادراً، بل تجدهم على العكس من ذلك يوقرون الكبير ويقومون بواجباتهم تجاه أبنائهم على خير وجه. كذلك فإن أخلاقهم سوية، وفي طباعهم التزام بالجدية التي تعدّ كل قول تافه أو نكتة أو مزاحاً أمراً مستهجناً ممقوتاً، أو على أحسن الأحوال، أمراً غير مفهوم لديهم. يحترم هؤلاء الرجال الذين يعدّ الكرم من أبرز سجاياهم صفة القوّة في الجسم والعقل ويعتبرونها المؤهل الضروري لاكتساب الرئاسة فيهم.

الشيخ طحنون

يستخدم شيوخ هذا الساحل الذين يحمكون بنحو فردي حرساً شخصياً قوياً، يوظفونه لحمايتهم الشخصية ولضبط النظام في أوساط أتباعهم وقسر الخارجين عليهم وردهم إلى الطاعة. وعلى الرغم من ذلك، فإن هؤلاء الشيوخ لا يضطرون عادة إلى قسر أتباعهم على الطاعة باللجوء إلى العقاب القاسي. ويخبر هوايتلوك أن هؤلاء الشيوخ لا يحصلون – في مدى علمه – من أتباعهم على عائد مادي ولا يلزمونهم بشيء في ما وراء الخدمة القتالية في أوقات الحروب. يوقر مجتمع هؤلاء القوم المسنين، يستأنسون بآرائهم في الأمور المهمة ويُستعان بهم في تسوية النزاعات وإنهاء الخلافات، ويلتزم الجميع – في ما يبدو – بما يشيرون به في هذه الجوانب.

يشيد هوايتلوك بالشيخ طحنون، شيخ أبو ظبي، ويرى فيه شخصية نشطة تهوى ركوب المخاطر ومغالبتها كما يبدو من مظهره ومخبره، حيث يبدو الرجل سعيداً بالممارسات التي تتخذ منحى حربياً. ويذكر أن طحنون خصّ الكابتن جاي بزيارة مجاملة فجاءه راكباً على ذلول، يحفّ به نحو عشرين أو ثلاثين من رجاله المجهّزين بعدّة الحرب تجهيزاً كاملاً. امتطى أولئك الرجال إبلاً فارهة الطول، اكتست وبراً ذا لون بني فاقع، وهي "بالتأكيد أميز إبل وقعت عليها عيناي". وحين

أصبحت هذه الجمهرة على مرأى من المساحين أرخوا للإبل الأزمّة، فانطلقت مندفعة بانتظام بأقصى سرعة لها لتتوقف فجأة على بعد حوالى ثلاثمئة ياردة من موقعهم، وبركت الإبل حين سمعت كلمة الأمر الصادرة لها: "إخخخ". وبرز طحنون في مقدمة رجاله الذين باتوا يشكلون نصف دائرة خلفه. وتقدّم جاي للترحيب به ومصافحته. واستضيف طحنون بالمرطبات والقهوة والحلويات في خيمة فُرشت بالسجاد. وفي المساء ردّ جاي وفريقه من المساحين، ومن ضمنهم هوايتلوك، لطحنون الزيارة، فأدركوه ورجاله يصوّبون بنادقهم الفتيل نحو هدف ما. يقول هوايتلوك إنه لا يستطيع أن يشيد بدقّة تصويب أولئك الرجال، فهم في هذا الصدد يماثلون الجنود الهنود العاملين مع البريطانيين. وكانت دهشة طحنون ورجاله بالغة حين تبيّنوا أن الطبيب المرافق للمساحين وبعض الضباط في فريق المسح كانوا أمهر منهم في التصويب بالبنادق والشوازن (بنادق الصيد) وأبلغ منهم في إصابة الهدف.

يصف هوايتلوك طحنون فيراه رجلاً ضئيل الجسم لكنه قوي البنية، ويشهد له بشهرته بالشجاعة والكرم، ويرى أن قومه يرهبون جانبه. ويخبر أن طحنون الذي هو شيخ قبيلة بني ياس يستطيع أن يعبّىء أربعمئة من خيرة الرجال ويجهزهم للحرب، ويضيف هوايتلوك أن هذه الميزة الكبرى جعلت طحنون يتفوق برّاً على شيوخ الساحل المهادن الآخرين، بمن فيهم شيخ الشارقة. وكانت مساندة هذا الشيخ لإمام مسقط حين هاجم البحرين في عام ١٨٢٨م حدثاً مهماً تماماً، فقد اشترى الإمام تلك المساندة بالمال، وجرت نتيجة لذلك الاستعدادات بين رجال طحنون، وجرى الهجوم على البحرين، وفجأة هجر أولئك الرجال، من دون شعور بحرج، معسكر الإمام. وسرت شائعة، يرى هوايتلوك أنها ربما كانت صحيحة، أنهم حصلوا على مال من الجانب الآخر ورجعوا إلى بلادهم بأموال الفريقين. ويقارن هوايتلوك بين طحنون وسلطان بن صقر شيخ الشارقة الذي يعود نسبه إلى القواسم، ويشير إلى أن الحروب الدائمة قد ربطت بين الاثنين. ويرى أن الأخير يمتاز عن الأول بوفرة أعداد قواربه وبقوته البحرية عموماً.

القواسم

لم يظفر سلطان - في ما يبدو - بإعجاب هوايتلوك، فهو رجل بارد مخاتل لا يمكن أياً كان أن يثق بتعهداته. يعترف له الجميع بقدراته الكبيرة في أساليب إدارة الحرب التي تسود هذه المنطقة، وكان يمكنه، من دون شك، أن يكبّدنا العديد من المصاعب لولا ما قامت به حملة ١٨١٩-١٨٢٠م التي أنزلت برأس الخيمة التي كانت المدينة الأخطر في المنطقة الدمار التام وخرّبت قلاع المدن الأخرى ما أوهن قوته تماماً.

يستطرد هوايتلوك فيخبر أنه من المعتقد أن رأس الخيمة قبل أن يصيبها التدمير جراء هذه الحملة، كان يمكنها أن تجهّز بمعاونة المناطق الأخرى التابعة لها في الخليج حوالى مئة قارب تتراوح حمولة كل منها بين ثلاثمئة إلى أربعمئة طن. وقد تمكنت هذه القوّة القاسمية في ما مضى من عرقلة خطوط الملاحة في الخليج تماماً، فقد كان الرجال العاملون على تلك السفن يرتكبون أجرأ حوادث القرصنة على السفن التجارية وأبلغها خطراً، بل إنهم كانوا يهاجمون أحياناً السفن العسكرية ذاتها. "فإذا وُضع في الاعتبار أن المنطقة بين لاراك والقيوين تبلغ ستة وثلاثين ميلاً فقط، لأدركنا كيف كان من الممكن لتلك القوارب أن تنال من السفن الصاعدة إلى أعالي الخليج أو المبحرة إلى أسافله".

يرى هوايتلوك أن الهجوم على السفن البريطانية كان في ما مضى سهلاً على القواسم، لأن البريطانيين كانوا في تلك الفترة يجهلون مسارات الشروم العميقة عند رأس مسندم، التي كانت تهيّئ لقواربهم مواقع ممتازة للمناورة وتتيح لها التقهقر إليها حين تجري مطاردتها. ويستطرد فيقول إن القواسم اضطروا بعد خراب رأس الخيمة وتدمير أميز مراكبهم إلى الخضوع للنظام قسراً، وظلّوا على مدى الستة عشر عاماً الأخيرة مقيدين به، لم يخرجوا عليه إلا نادراً بارتكاب حوادث بحرية طفيفة لا تكاد تُذكر. ويخبر هوايتلوك أن التجاوزات في المسارت البحرية في الفترة اللاحقة لتدمير رأس الخيمة غدت نادرة الوقوع، إلا في ما كان من أمر النزاعات التي تشبّ بين العرب أنفسهم. ويفيد بأن ارتباطات القواسم بموانئ الساحل الفارسي "التي كانوا قد غزوها سابقاً" قد انقطعت تقريباً، كما أن عدد السكان الذين كانوا يعمرون هذا الساحل قد تدنّى بنحو بارز. ويعبر هوايتلوك عن اعتقاده بأن هؤلاء القوم إذا ظلّوا على ما هم عليه من السلم و لم يسمح لهم – كما يتوقعون ويتمنون – أن يرفعوا رؤوسهم مرّة أخرى، فلن تطرأ في الخليج حالات اضطرابات عامة بعدئذ، "أما إذا تُركوا لتحقيق ما يصبون إليه فلا نلومنّ إلا أنفسنا". ويرى أنه لم يعد في ضوء ما هو ماثل في الخليج تهديد يمكن أن ينطلق من أي ميناء في المنطقة إلا من البحرين التي لها من مصادرها الذاتية ما يمكنها من أن تكون أكثر إزعاجاً للبريطانيين من كافة موانئ الخليج الأخرى مجتمعة. ويقترح هوايتلوك أن تتخذ بلاده من الإجراءات ما يحقق لها قيام قاعدة بحرية في باسعيدو "باسيدو" لردع أي محاولة يقوم بها القراصنة مستقبلاً. فباسعيدو تقع في مجاورة موانئ القرصنة مباشرة، وهي فوق ذلك تمثل الموقع الذي كانت ترتكب عنده التعديات، ويضاف إلى ذلك أن باسعيدو يمكن أن تهيّئ لسفن الأسطول مرسى آمناً، ولها أيضاً مآثر أخرى من وجهة نظر هوايتلوك تجعل منها قاعدة عسكرية تتفوق على أي موقع آخر في هذه السواحل. وربما يعترض البعض بأن المكان غير صحي، ولكني أراه في هذا المجال أيضاً أقل خطورة من غيره في هذه المنطقة. فحين جرى حشد القوات البريطانية في قشم وديرستان وصالح، وكلها مواقع تختلف مجالياً بعضها عن

بعض، ثبت أن كل تلك المواقع، من دون استثناء، كانت غير صحية، وأن واقعها في الشأن الصحي أردأ من باسعيدو. ويوصي هوايتلوك بضرورة تمركز قوّة أسطولية في المنطقة السفلى من الخليج، ويرى أن هذا الأمر الملحّ قد غدا لازماً. ويضيف أن المسافة التي تفصل بين هذه المنطقة وبوشهر بعيدة بعداً بيّناً، ما يؤخر وصول السفن العسكرية التي تنطلق من هناك لمعالجة الاضطرابات الأمنية، وأن بُعد المسافة الذي يؤخر وصول الإشارة بوقوع أحداث سيئة إلى السلطات السياسية إضافة إلى تأخر وصول السفن إلى هذه المناطق لمعالجتها، أمران حيويّان يدرك العرب أبعادهما ويحسبونهما بدقّة بالغة. ويذهب هوايتلوك إلى القول إن المنطقة الممتدة بين رأس الخيمة إلى الشارقة أو ربما المنطقة الممتدة حتى دبي هي منطقة يعمرها القواسم الذين يصفهم بالقراصنة المحترفين الذين لم يصدّهم عن متابعة القرصنة سوى خشية البريطانيين. ويذكر أنهم ما زالوا يرتكبون بعض التعديات البحرية الصغيرة بعضهم ضد بعض بنحو متواتر. ويدّعي هوايتلوك أن القواسم تعوزهم الرغبة في القيام بالعمل ما لم يضطروا إليه بإلحاح، ولكنهم حين يقومون به فإنهم يبدون همّة قوية ونشاطاً كبيراً، ولكن الصعوبة تكمن في دفعهم للقيام ببدء العمل.

يعدّ هوايتلوك القواسم أميز بحارة الباطنة طُرّاً، فلن تجد لهم في هذا المجال أنداداً أو أضراباً على الإطلاق، كما يلاحظ أنهم مغرمون بتعاطي القهوة وبتدخين التبغ، ويرى أن أرقّهم حالاً يحتسي القهوة ثلاث أو أربع مرّات يومياً. ويقول إنهم يجتمعون في المقاهي بعد صلاة العصر دائماً، يتجاذبون أطراف الحديث ويخوضون في مجريات الأمور ويظلون جلوساً حتى يحين موعد السوق، فيذهبون لشراء احتياجاتهم، وفي السوق أيضاً ملجأ لكل عاطل يفد إليه مستطلعاً أخبار ذلك اليوم، فهو مكان الترويح الذي يمكن العاطل أن يزجي وقت فراغه فيه. ويخلص هوايتلوك إلى الحديث عن الأسواق، فيقول إنها عامرة بالسلع بنحو مقبول، ويلاحظ وجود قصّابين يبيعون لحوم الأبقار في أسواق المدن الرئيسة، حيث يمكن استهلاك القدر المذبوح من الأبقار، أما في المدن الصغيرة فيذبحون صغار الأغنام والخراف فقط، ويُعيّن الزبائن للقصّاب سلفاً كمية اللحم التي يرغبون في شرائها منه، حتي لا يذبح من الحيوانات أعداداً تتعدى الاستهلاك الفعلي للبلدة.

تعاون بريطاني ظبياني في المسح البحري

يخلص هوايتلوك إلى القول إنه نسبة إلى عدم وجود معلومات دقيقة عن الإبحار بين منطقة بين أبو ظبي وجزيرة صير بني ياس، فقد أسند عمل ذلك إلى مجموعة من المساحين أبحروا في ٢٣ جمادى الآخرة ١٢٣٩/فبراير ١٨٢٤ في عدد من قوارب السفينة بشتي للقيام بتلك المهمة، وكان هو من ضمن الفريق العامل على تلك القوارب التي جُهزت بكل ما يلزم من

مؤن كافية لمدة ستة أسابيع. وأمدّ طحنون هذه المجموعة بمركبين تطوعاً من عنده، كما أمدّهم أيضاً بنواخذة (رؤساء بحارة القوارب المحلية) وحرس قوي من العرب بقيادة ابن أخيه الذي يقول عنه هوايتلوك إنه كان شاباً حدثاً في حوالى العشرين من عمره، بادي الغرور مزهوّاً بنفسه، واثقاً من قدرته على النزال ومن مقدرته في الرمي بالرمح، وكان ممقوتاً من جماعته المرافقة لفرط غروره. وساد المجموعتان، البريطانية والعربية، وئام جعل كل مجموعة منهما تشارك الأخرى في ألعابها، وغالباً ما كانت المجموعتان تقضيان فترة العصر في المصارعة والقفز واللعب بالعصي. وفي هذه المناسبات كان يشتدّ غيظ دليلهم العربي العجوز حين يسقط أرضاً في حلبة المصارعة تلاحقه القهقهات العالية التي يطلقها العرب المرافقون. أما في الفترة المسائية، فقد كان البريطانيون يشاركون العرب في ألعابهم باستمتاع، كما يقول هوايتلوك، وهي ألعاب حظّ بسيطة يمارسونها جلوساً، وهم يحتسون القهوة بالقرب من موقد كبير مستطيل الشكل. وكان اثنان من رواة القصص ضمن هذه المجموعة يمتّعان الرفاق بما يرويانه، وحكماً بدرجة الانتباه الذي يلقيانه من المستمعين والضحك الذي يثيرانه عندما يرغبان في ذلك. يمكن القول إنهما كانا يُسلّيان رفاقهم ويمتعانهم، وكم أسف هوايتلوك – في ما يقول – لأنه لا يعرف لغة أولئك القوم ليشاركهم في متعة الاستماع إلى تلك الروايات.

أقامت المجموعة معسكرها في جزيرة صير بني ياس، وكان معهم حمار وسبعة من الإبل أعانتهم على إنجاز مهماتهم، فقد كان السير فوق تلك الرمال الناعمة في ساعات الهجير يضرّ بأقدامهم التي حفيت وعانت أيّما معاناة. وكان هوايتلوك يخشى – كما يقول – من أن يتركوا تلك الحيوانات بعد الفراغ من مهمتهم في تلك الجزيرة وراءهم، وذلك لما يعرفه من تعذّر نقلها على القوارب التي في حوزتهم، فقد كانت أدنى مسافة يتحتم على قواربهم عبورها تحت ثقل هذه الحيوانات تصل إلى ميل ونصف طولاً وأربع قامات عمقاً. وأثار استفساره عن كيفية نقل هذه الحيوانات ضحكاً في أوساط العرب المرافقين، فانتظر ليرى كيف يتدبرون الأمر. اختار العرب بعيراً جعلوه في مقدمة الآخرين وربطوا به الآخرين تباعاً كل جمل وراء أخيه، ولم تكن المسافة التي تفصل بين الجمل والآخر تتجاوز ثلاثة ياردات. ودفع العرب بالبعير الأول إلى الماء وهم ينشرون أشرعة مراكبهم، وما زالوا يوسعونه بسيل من اللكمات حتى استقرّ في الماء سابحاً وسبح الآخرون في إثره صفّاً واحداً في انتظام. وراحت الإبل تعبر تلك الفرجة بمعدل سرعة تصل إلى ميلين في الساعة الواحدة، وكان يمكن العرب أن يحملوا الحمار على العبور بالطريقة نفسها، إلا أن المساحين تداركوه وأنزلوه في قارب من قواربهم.

يرى هوايتلوك أن العربي من أهل هذا الساحل عندما يبلغ أشدّه يغدو قوياً متماسكاً مفتول العضلات. وحين يحزم الرجل منهم جهده مع جهد رفاقه الآخرين ساعة العمل تتناغم جهودهم وتتحد إلى درجة بعيدة، ويشير هوايتلوك إلى أنه كثيراً ما رأى هؤلاء الرجال وهم

يدفعون قواربهم معاً إلى الماء، أو يجرّونها ليربطوها إلى مراسيها في أقسى الظروف بسهولة ويسر. ويرجّح هذا المساح أن هذا قد يكون نابعاً من رغبة مشتركة في إظهار تميّزهم، فكثيراً ما قدّموا خدماتهم للبريطانيين في مثل هذه الأعمال وساعدوهم تطوعاً.

الحياة الاجتماعية في مدن الساحل

يصف هوايتلوك شباب المنطقة فيقول إنهم يتميزون بالنشاط الجمّ رغم أنهم نحاف الأجسام، ولكن قاماتهم لا تقلّ عن قامات البريطانيين. وعندما يبلغ الرجل منهم ثلاثين أو أربعين سنة يصبح قوياً غليظ الرقبة قوي العصب مفتول العضلات بنحو يجعله يفوق غيره من الرجال، ولكنهم حين يشيخون فإنهم بصفة عامة يصابون بالهزال بنحو كبير. ومع ذلك، يمكن القول إنك لن تصادف، إلا نادراً، في أوساطهم شيخاً مترهلاً أو ضعيفاً.

يلبس هؤلاء الرجال الزي "الوهابي" الذي هو عبارة عن جلباب أبيض طويل ينفتح في منطقة الرقبة حيث يثبتون أزاره، ويبدون فخورين بارتدائه تماماً. وأخبر هوايتلوك أنه ارتدى هذا الزي مرّة أو اثنتين مجاملة لهم، فسُرّوا بذلك تماماً. يمكن وصف غطاء الرأس لديهم بأنه قطعة من قماش من نسيج متداخل من الحرير أو القطن، يصل طولها إلى أربع أقدام، فيما يصل عرضها إلى ثلاث أقدام، وتنتهي أطرافها بعدد من الخيوط المجدولة الطويلة، ويمتاز نسيجها بوجود خطوط خضراء أو صفراء. يتدلى هذا الغطاء على الجبهة ليغطي مقداراً كبيراً منها "ما يكسب تلك الملامح الغليظة الفظّة تجهّماً يتناسب مع شخصياتهم الجادة بطبعها". ويتدلى من على كتف الرجل منهم جراب للتبغ موصول إلى الجلباب بخيوط حريرية أو قد تتدلى منه "فشكات" الخراطيش المصنوعة من الجلد، أو ربما تتدلى من الكتف أيضاً البندقية الفتيل التي عادة ما يكون مقبضها مُحلّى بالفضة. أما العباءة فتُصنع من الصوف، وهي نوعان. ومن هذه العباءات ما هو خفيف شفاف فاتح اللون، ومنها العباءة السوداء التي يرتديها علية القوم، وعادة ما تكون مُزيّنة بفتلات الذهب. أما أواسط الناس فيلبسون العباءة المخططة التي يتبادل في نسيجها اللونان الأبيض والبني. وتتراوح أثمان العباءات بين عشرين وثلاثين ريالاً تبعاً لصنفها. ويربط الرجل منهم في منطقة الوسط بين أضلاعه وأسفل ظهره قطعة قماش بُنيّة اللون أو بيضاء نسجت من الحرير والقطن، أو قد تكون من الحرير الخالص أحياناً. وينتعل أهل هذا الساحل نعالاً من الجلد المدبوغ دباغة جيدة.

يَحلق الرجال شعر رؤوسهم ولا يُمكنون في العادة شعر اللحية والشارب من أن يطول. أما النساء فلباسهن جلابيب زرقاء اللون أو عباءات فضفاضة، ويعصبن رؤوسهن بالمناديل، وعادة ما يتنقبن بأقنعة سوداء، ويجعلن في القناع ثقبين في منطقة العينين ليتمكنّ من الرؤية. ويرى

هوايتلوك أن بعضهن مليحات، وهنّ في العادة أفتح لوناً من رجالهن الذين غالباً ما يميز بشرتهم اللون الأسمر الداكن الذي يفيض حيوية. أما الأطفال فلا يظفرون بالعناية اللازمة للنظافة الشخصية، وعادة ما يعانون في هذه السنّ الباكرة من التهابات العيون. ويعتقد هوايتلوك أن هذا المرض ينشأ جرّاء الذباب الذي يسكن جفونهم حتى لا يكاد الطفل يشعر بالإزعاج حين تحط تلك الحشرة في عينيه. وتظلّ تلك الحشرات تمرح في جماعات كما تشاء على تلك الوجوه القذرة من دون إزعاج. يمرح هؤلاء الأطفال ما شاء لهم أن يمرحوا، فهم غير مقيدين بتلقّي أي نوع من الدراسة. تراهم قد انطلقوا عراة على رمال الساحل يلهون بقواربهم التي تمثل نموذجاً متكاملاً للقوارب المستعملة في المنطقة، ما يمثل لهؤلاء الأطفال تدريباً جيداً للوظيفة التي تنتظرهم في المستقبل. وبما أن هؤلاء الأطفال قد خبروا الماء منذ نعومة أظفارهم وتمرّسوا في ألعابهم على نشاطاته، تجدهم سباحين مهرة وهم في تلك السن المبكرة.

يعد هوايتلوك الطعام الذي يتناوله أهل المنطقة بسيطاً لكنه صحي، فمواده الرئيسة تتكون من التمر والسمك والخبز واللبن. ويلاحظ أن الأرز باهظ الثمن ويمثل حلماً للفقراء الذين هم شغوفون به جداً. أما الشريحة العليا من المجتمع فعادة ما تستمتع بعشاء من "البلاو" ولحم الدواجن أو صغار الأغنام، ثم الفاكهة بعد ذلك. وتُدار القهوة على مدار اليوم في فناجين من الصيني توضع فوق طبق أو "صينية" من الفضّة أو النحاس تبعاً لمكانة الشخص في مجتمعه. ويلاحظ وفرة الأسماك في هذا الساحل خاصة نوع "البوري" منه الذي يمارسون صيده بالشباك في المياه الراكدة، ويظفرون في أحيان كثيرة بكميات وفيرة منه. أما السمكة الحمراء وسمك الصير والحيتان الصغيرة فيصطادونها في البحر المفتوح، ويوجد في هذه المياه نوع من سمك القرش الصغير يستطعمه الأهالي أكثر من سواه. من الطيور التي ترتاد هذا الساحل أنواع من الكروان القرلي والقلق والقرقر وطائر آخر صغير هو القبّرة. وليس في لحوم أي من هذه الأصناف من الطيور ما يُستساغ مذاق طعمه، فكلها على وجه العموم سمكية المذاق. أما الدواجن فمتوافرة غير أن أحجامها أقل من المألوف. ويرى هوايتلوك أن الأبقار تتوافر في هذا الساحل بنحو جيد مقارنة بمتوسط إنتاج هذه الحيوانات في الخليج برمّته. ويرى أنها أبقار قزمية لا يزيد متوسط وزن الثور منها عن مئتي رطل إلا نادراً، كما يمكن الحصول في هذه المنطقة على الخراف والماعز والحليب والزبد والجبن والبيض. ويعبّر هوايتلوك عن دهشته لوجود هذا الكمّ من المنتجات الغذائية في هذه الصحراء الرملية المفككة، ويرى أن ظهير المنطقة في امتدادها إلى الداخل غير البعيد خصب منتج. وأشار إلى أن طحنون، شيخ أبو ظبي، كان قد عرض في عام ١٨٢٢م أن يرافق جماعة من المساحين إلى موقع ما وصفه بالأرض المُربعة المُمرعة، وذكر أنه يضمّ مدينة قديمة ويقع على مسافة سبعة أيام من البحر في اتجاه الداخل، "ولا أدري السبب الذي عطل الاستجابة لهذا العرض الذي كان يجب القيام

به لتحقيق جملة من الأهداف". وأشار هوايتلوك إلى أن طرق الداخل سالكة، وأنه سمع عن خط للقوافل يبدأ من رأس الخيمة ويجتاز فرجة من الجبال عبر واد بهيج يمتد إلى خور فكان. ويضيف أنه يمكن الوصول إلى صحار من خلال طرق تتوغل من هناك في الداخل وتخترق سلسلة الجبال وتعبرها وتنفذ منها إلى الساحل في تلك المنطقة. ويقترح أن يقوم بعض الموظفين البريطانيين في فصل الشتاء بهذه الرحلة التي تستغرق ستة أسابيع، ويعتقد أنها ستكون مفيدة ومبهجة بلا شك، كما يعتقد أيضاً أن شيخ الشارقة سيقابل طلب المقيم في هذا الصدد بالقبول.

تُستخدم الآنية الفخارية لطهي الطعام. ويوضع الجمر الحي داخل تلك الآنية التي يُشوى فيها السمك، ويلاحظ هوايتلوك أن الأسماك المشوية شهيّة جداً، كما يجعلون على الجوانب الداخلية لتلك الآنية رقائق من عجين القمح تنضج فتصير خبزاً شهيّاً. أما التمور التي تكوّن الغذاء الرئيس لهؤلاء القوم فهي زهيدة الثمن ومتوافرة. ويستطرد فيقول إن هذا الساحل لا ينتج من الفاكهة إلا النزر اليسير، ولكنك تستطيع أن تحصل من السوق على بعض الحمضيات والشمام والعنب أيضاً، وهي فاكهة تفد إلى المنطقة – في ما يعتقد هوايتلوك – من لنجة أو ربما من ظهير سواحلهم. ويذكر هذا المساح أن لنجة الواقعة بين رأس بستانا وباسيدو ميناء يتمتع بتجارة واسعة، ويسكنه القواسم بصفة رئيسة، ويحكمه أحد أقارب سلطان بن صقر. ويُعدّ هذا الميناء في تحالف مع رأس الخيمة والشارقة.

يذكر هوايتلوك أنه لايعرف عن نوعية الأمراض المنتشرة في أوساط العرب، ولكنه يلاحظ أن الحمى والتهابات العيون تنتشر في المنطقة انتشاراً واسعاً، ويقول إن العرب ينسبون أكثر أمراضهم – خاصة أمراض العيون – إلى الغوص. ويدّعي أن العرب كثيراً ما يتسابقون للحصول على المساعدة الطبية من البريطانيين، ويأخذون في سرد قصص عن آلامهم وأوجاعهم قبل أن يخلص البريطانيون إلى حقيقة قصدهم، فعادة ما يطلبون شيئاً لتقوية الباءة ولكنهم ما يلبثون أن يصابوا بخيبة أمل عندما لا يجدون عندهم ما يبتغونه. ويلاحظ هوايتلوك أن العرب "قذرون جداً في ما يتصل بالنظافة الشخصية، ولا يغسلون ثيابهم إلا نادراً". ويعالج العرب بعض أمراضهم بمسح الجسد بخليط من السمن ومسحوق الكركم، ويبقى هذا المزيج عالقاً بالجسد ما شاء له البقاء. ويلاحظ أن تدخين التبغ أمر شائع في أوساط العرب كافة، ولكنه في هذا الساحل أقل شيوعاً مما في غيره من المناطق الأخرى، فبعض الوهابيين لا يدخنون إطلاقاً.

يخبر هوايتلوك أن علية القوم يتخذون بيوتاً من الحجر يجعلون سقوفها مستوية. وينام هؤلاء الأعيان فوق تلك السطوح التي لا يملكون فيها شيئاً من الأثاث الذي يجعلها مدعاة للراحة سوى بعض حصائر وسرر بدائية الصنع، أما الفقراء فيقطنون أكواخاً يتخذونها من سعف النخيل. ويلاحظ في هذا الصدد أن أبو ظبي مكان متواضع لا تبصر فيه بيتاً من حجر إلا بالكاد، ولكن موقع المدينة يهيّئ للقوارب مرسى قريباً من الساحل المنخفض الذي تشرف

تلاله الرملية على البحر، ويصف ساحل أبو ظبي بالمجدب الذي لا ترى فيه إلا كومات متناثرة من العشب القاسي تختلط بشجيرات قليلة العدد تنمو مبعثرة هنا وهناك، وتوجد على أطراف مثل هذه المدن عادة بعض مزارع التمور القائمة في مناطق متفرقة بالقرب من الآبار.

تقوم مدن هذا الساحل عند أطراف الخيران والضحضاحات، وتهيّئ مثل هذه المواقع للقوارب ملاجئ آمنة من تقلبات الطبيعة، ولولا هذه الميزة ما استطاع الإنسان سكنى هذه المدن، وتُعدّ رأس الخيمة - حكماً ببيئتها المحلية - أكثر مواقع هذا الساحل ملاءمة لقيام المدن. وكانت رأس الخيمة قد عانت من القصف البريطاني، ولكنها أخذت تستعيد عافيتها مرّة أخرى، فازدادت رقعتها وازداد عدد سكانها. ويذكر هوايتلوك في هذا المجال خصب التي هي قرية صغيرة تقع عند منعطف تجويف صخري عظيم تكتنفه تلال تحيط به ولا تنفرج عنه إلا في نهايات البلدة الشمالية الغربية. ويقدّر هوايتلوك عدد سكان خصب بنحو خمسين إلى ستين فرداً، ينتمون إلى بني شوا وبني هيبة، وكلاهما بطنان من القواسم. ويلاحظ هوايتلوك وجود حديقة نخيل صغيرة بالقرب من منازل تلك البلدة التي يتراوح عددها بين عشرة وخمسة عشر، كما توجد في هذه القرية قلعتان تقوم فوق إحداهما أربعة مدافع عتيقة، وعلى الأخرى مدفعان قديمان أيضاً. وتقع في المنطقة الممتدة من خصب حتى الرمس العديد من المباني القديمة التي يشير إليها العرب باسم الأصنام، والتي هي في حقيقتها مساكن للفرس الذين كانوا يعبدون الأصنام في تلك المنطقة حتى دمرّها الوهابيون قبل سنوات قلائل، فغدت تلك القرية أثراً بعد عين. وتبدو هذه المعلومة كاذبة تماماً ولا نجد لها ريحاً في أي من المصادر المعروفة، فليس في هذه المنطقة في هذه الفترة أصنام يعبدها الفرس الذين لم يعرف عنهم حتى قبل اعتناقهم الإسلام عبادة الأصنام، وليس فيها أيضاً أصنام للعرب الذين كانوا يمارسون ذلك في جاهليتهم، ولربما كانت هناك بعض الأضرحة والقباب التي هدمها الوهابيون، فبالغ هذا المساح في التصوير حتى أخرج أهل تلك المنطقة عن دينهم. ويخبر هوايتلوك أنه يمكن الحصول في هذا القسم من الساحل على الماء من الآبار الواقعة على سيف البحر، وتهيّئ الأخوار للقوارب حماية ممتازة ضدّ هبوب الرياح الشمالية الغربية.

يشير هوايتلوك إلى وجود خليجين صغيرين هما المزاحمة وليبيرة يقعان في المنطقة الممتدة من رأس الخيمة إلى أم القيوين، ويمثلان ملاذاً آمنا لسفن الغوص في الأوقات التي يسوء فيها الطقس، كما يلجأ إليهما الغواصون أحياناً لفتح المحار وتنظيف اللؤلؤ وتقسيم الحصص في ما بينهم. تقع المزاحمة على مسافة قريبة من الصيرة، أما ليبيرة فيفضي طريقها إلى أم القيوين، كما يمكن الوصول منها مباشرة إلى جزيرة العمرة التي تضمّ مدينة اسمها سيني. وتمتد من ليبيرة حتى البحرين سلسلة ينابيع مياه عذبة ترقد تحت سطح مياه الخليج المالحة تمدّ مدن الساحل بما تحتاج إليه من مياه الشرب. ويستخرج المواطنون هذه المياه عن طريق خشبة مُجوّفة مبطنة

بالقصدير. ويلاحظ هوايتلوك أن هذه المواقع المذكورة جميعها تكوّن ملاجئ آمنة ضدّ جميع أنواع الرياح السائدة في الخليج، كما يلاحظ أيضاً أن التيارات المائية في هذا الساحل عاتية تجري بسرعة عقدتين ونصف العقدة إلى ثلاث عقد.

يقول هوايتلوك إن سكان هذا الساحل وهابيون يواظبون مواظبة تامة على أداء فروضهم الدينية ولا يهملون - مهما كانت الظروف - الوضوء وأداء الصلاة في أوقاتها. ومع ذلك تراهم يشاركون غير المسلمين في الطعام غير ملومين، ويسمحون لهم باستعمال آنية الأكل والشرب التي تخصّهم من دون حرج. ويواصل هذا المساح حديثه في قسم آخر من تقريره عن تقيد أهل الساحل بأداء الصلوات المكتوبة، فيقول إنهم من أهل السنّة يؤدون الصلاة خمس مرّات في اليوم، لا يهملون ذلك أبداً، فراكب الجمل ينزل عن راحلته ليؤدي الصلاة لوقتها، والبحار يرخي شراعه أو يرسو بقاربه إن اضطره الجوّ المعتكر حتى لا يفوته الوقت المحدد للصلاة. ويقول إنهم يغسلون أيديهم وأرجلهم قبل الصلاة لإعداد أنفسهم للطهارة الواجبة قبل الدخول فيها. ويضيف أنه لا يعتقد أنهم يُركزون انتباههم في ما يؤدونه من عبادة، فخلال القيام بصلاتهم تراهم متنبهين لما يحدث حولهم، ويبدو انتباههم مُركّزاً على كل شيء إلا الصلاة التي يؤدونها، تراهم يتثاءبون ويتمخطون، كما يمكن أن تراهم في بعض الأحيان يلتفتون لمخاطبة شخص ما! ويخلص هوايتلوك إلى القول إنهم يبدون وهم يصلون كالببغاوات، فهم يرونها "عملاً مضجراً ولكنهم لا يهملون القيام بها أبداً". وأشار هواتلوك إلى أن قبيلة بني ياس التي هي قبيلة كبيرة لها عدّة منازل في ساحل عمان كانت في فترة سابقة تؤدي الزكاة لفيصل بن تركي، ولكنها ما لبثت أن استقلّت بنفسها وتوقفت عن أداء الزكاة للوهابيين.

يحدث هوايتلوك عن الرقيق حيث يوجد في كل بيت عربي عبد أو اثنان للقيام بأعباء الحياة اليومية، ويشيد بالعطف الذي يجده الرقيق من سادتهم، ويرى أنه يُمثل إضافة حقيقية لمصلحة سمعة العرب، ويُعدّ تعبيراً بالغاً منهم عن مشاعر رجولية إيجابية طيبة نحو الجنس البشري بنحو عام. يُربي السادة عبيدهم على قواعد الدين الإسلامي، وليس من النادر أن يظفر العبيد بثقة أسيادهم، وكثيراً ما يُرى العبيد طليقين يعملون في البحر. ويشير هوايتلوك إلى أنه ركب ذات مرّة سفينة اسمها ناصر في البحر الأحمر، كان يتولى رئاستها عبد يقوم مقام سيده الذي كان يعيش في الحديدة. ولم يكن ذلك العبد يتذكر من ملابسات اختطافه من بلاده شيئاً، إلا أنه كان يرعى الخراف في يوم ماطر اشتدّ فيه دويّ الرعد واختطفه رجل جاء على صهوة حصان. وقد ساعد عطف نساء الأسرة التي ابتاعت ذلك الطفل في تحمله وطأة قدره. ولم يكن ذلك العبد يعرف شيئاً عن وطنه، ولم يعلق بذهنه منه إلا مشاهد خافتة، فهو يتذكر أن الأشجار في بلاده كانت ضخمة وأكبر من أي أشجار أخرى رآها في حياته، كما يتذكر أيضاً أن الرجال في وطنه كانوا يجعلون على رؤوسهم الريش. ويخبر هوايتلوك أن هذا العبد الذي

بلغ وقتها سن الثامنة والعشرين يظفر بتمام ثقة سيده الذي يطمئن له ويعهد إليه بأغلى السلع قيمة ليحملها تجارة إلى بومباي وكلكتا.

ينتقل هوايتلوك ليحدث عن الأسرة العربية فيقول إن الزواج عند العرب يحدث في سن مبكرة، فما إن يأنس الفتى في نفسه المقدرة على القيام بأمر عائلة فإنه يرتبط بزوجة ويظلّ في أحضانها حتى تذبل فيها زهرة العمر وتتقدم بها السنون، فيرتبط بزوجة أخرى إذا كانت ظروفه تُمكنه من ذلك، بل إنه ربما يتخذ أحياناً زوجة ثالثة أيضاً إذا استطاع ذلك. ويذكر هوايتلوك، بناءً على ما قاله له بعض العرب، أن الزوجات يعشن بعضهن مع بعض حياة ضُرّ في نكد دائم وشجار لا يهدأ أواره. وعرف من بعض شباب العرب أنهم متزوجون من أكثر من واحدة تعيش كل منهن في منطقة ولا تدري أيّهن عن الأخرى شيئاً، وأنهم يحتفظون بهذا الأمر سرّاً عنهن حتى لا يثيروا حفيظة أي منهن. ويقول إن الفتيات يتزوجن عادة في سن الرابعة عشرة، وإذا حدث أن حملن في تلك السن الباكرة فإن الحمل يؤثر على مظهرهن فيذبلن قبل الأوان. ويذكر أن في العرب غيرة شديدة على نسائهم، يحجبونهن عن أنظار الغير ويكرهون أن يبدي الأجنبي أي اهتمام بهن. أما إذا أردت أن تستفسر عن صحّة زوجة لرجل منهم – يقول هوايتلوك – فعلى المرء أن يضع السؤال على النحو الآتي: كيف حال أهل بيتكم؟ أما أي إضافة فوق هذا السؤال فتُحمل على نحو غير طيب. ويعتقد هوايتلوك أن العرب قوم مجاملون ويحرصون حين يتقابلون على إلقاء التحية المعتادة بعضهم على بعض. ويرى هوايتلوك أن نساء الساحل مشغولات أبداً، يقمن بأعمالهن المنزلية وكذلك الأعمال خارج المنزل بهمّة ونشاط. فهن اللائي يجلبن الماء ويحلبن الأغنام ويذهبن إلى الأسواق لشراء المتطلبات ويحتطبن ويغزلن ويطهين الطعام، بينما يظلّ الزوج قابعاً مع رفاقه في المقهى ما لم يكن في فترة موسم الغوص أو لم يكن من المزارعين الذين تضطرهم طبيعة عملهم إلى ري المزرعة مرتين يومياً، مرّة قبل شروق الشمس وأخرىٰ في حوالى الثالثة مساءً.

ينتقل هوايتلوك إلى الحديث عن المقابر فيقول إنها تشغل عادة ربوات من الأرض الطية على مشارف القرية أو المدينة. يُحفر القبر إلى عمق أربع أقدام ثم يوضع الجثمان بحيث يكون رأس المتوفى في اتجاه القبلة. ويُهال التراب على الجثمان حتى تمتلئ الحفرة، ويضع المشيعون بعد ذلك شاهدين من الحجر فوق القبر عند موضعي الرأس والقدمين. ويمكن أن تُشاد على قبور الأثرياء والوجهاء منهم مساجد صغيرة ذات قباب. وتضيف أن المرء يمكن أن يسمع عن بعد عويل النساء من ذوي قربة المتوفى وهن ينحن ويبدين حزناً عظيماً.

ملاحظات هوايتلوك عن صيد اللؤلؤ

تمتد سواحل صيد اللؤلؤ في الخليج من الشارقة إلى أبو ضلوف على مسافة تقدر – حين تقاس بخط مستقيم – بحوالى ثلاثمئة وستين ميلاً يعمل فيها غواصون من البحرين وتوابعها بصفة رئيسة، وكذلك عدد من مواطني ساحل القراصنة ولنجة وعسيلو اللتين تقعان على الساحل الفارسي. وعلى الجملة فإن حقّ العمل في الغوص مكفول مشاع لكل من يسكن الخليج.

يبدأ موسم الغوص في يونيو من كل عام ويستمر حتى فترة "القفال" في سبتمبر. ويكون الجوّ في هذه الفترة قائظاً جداً، ويزداد قسوة بتأثير الرطوبة العالية. أما درجة حرارة المياه فتكون دافئة جداً، فيما يندر أن تهبّ رياح تدوم لفترة طويلة تثير البحر وتعكره.

يستخدم الغواصون في العادة قوارب صغيرة، يعمل على كل قارب منها سبعة أفراد، ويمكن أن نجد في مواطن الصيد قوارب كبيرة تصل حمولتها إلى خمسين طناً، يعمل عليها رجال تتراوح أعدادهم بين أربعة عشر إلى عشرين رجلاً. تبحر هذه القوارب في مجموعات، تتألف كل مجموعة في الغالب من سبعة إلى عشرين قارباً. ويتركز نشاط الغواصين عند مجموعة الجزر التي كانت تعرف سابقاً بمجموعة معاودة التي تُعدّ من أكثر مناطق الغوص اتساعاً، ولا يتجاوز الغواصون هذه المنطقة إلى أبعد من جزيرة حالول في أعالي الخليج إلا نادراً. وتعمل في المنطقة الممتدة من أعالي حالول إلى القطيف شمالاً قوارب صيد من جزر البحرين.

يشير هوايتلوك إلى أن البحرين وتوابعها تهيّئ في موسم الغوص حوالى ٢٤٣٠ قارباً، فيما توظف رأس الخيمة حوالى ٣٤٠ قارباً، وتستخدم أبو ظبي والمدن الأخرى على ساحل القراصنة ٣٥٠ قارباً آخر، بينما ترسل المدن الواقعة على الساحل الفارسي إلى مناطق الغوص حوالى مئة قارب، ليرتفع العدد الكلي للقوارب العاملة في الغوص في الموسم الواحد إلى ٣٢٣٠ قارباً. وأمكن لهوايتلوك تقدير القوّة البشرية العاملة على هذه القوارب بتسعة وعشرين ألف شخص. ويعترف بأن تقديره اعتباطي اعتمد على أن القوارب الصغيرة تُوظف في المتوسط خمسة رجال، بينما تُوظف القوارب الكبيرة في المتوسط ثمانية عشر رجلاً. ولما كانت القوارب الصغيرة أكثر عدداً من الكبيرة، وضع هوايتلوك متوسط تسعة رجال في كل قارب، وتوصل إلى عدد العاملين المذكور أعلاه نتيجة حاصل ضرب عدد القوارب العاملة في الغوص في التسعة التي توصل إليها كمتوسط لعدد الرجال العاملين في كل قارب.

اعتاد الغواصون أن يظلّوا عاكفين على عملهم لا يتوقفون عنه إلا حين تمتلئ قواربهم بالمحار فيقصدون به إحدى الجزر لفتحه. ويعبّر هوايتلوك عن اعتقاده بأنهم يظفرون بعدد وافر من المحار حكماً بما لاحظه من وجود أكوام كبيرة منه في جزر صير بني ياس وذركوه وسردي وصير بو نعير، وهي الجزر التي تُعدّ الأكثر ملاءمة للعمل في فتح المحار. أما القوارب التي تعمل عند أعالي

حالول فتفتقر إلى وجود هذا العدد الكبير من الجزر الصالحة لهذا الغرض، فيضطر العاملون فيها إلى الغدو والرواح إلى جزيرة البحرين ومنها، وتغدو تلك المنطقة في حركة دائبة خلال الموسم، ولا يسبّب ذلك رهقاً للعاملين هناك لأن أميز مغاصات اللؤلؤ تقع على مشارف البحرين.

تحمي هذه الجزر قوارب الغوص في هذه الفترة من الرياح الشمالية الغربية التي قد تهبّ في هذه الفترة من السنة أحياناً، ولكن - لسوء الحظ - فإن العديد من هذه الجزر يفتقر إلى وجود الماء العذب، ويلاحظ هوايتلوك وجود بحيرة صغيرة جميلة يبلغ عمق الماء فيها خمس قامات في الجهة الشرقية من جزيرة صير بني ياس، كما يلاحظ أن المدخل إليها ضحل، إذ لا يتجاوز عمقه ثلاث قامات ولكنه آمن. وكثيراً ما يأوي الغواصون إلى هذه المنطقة من الجزيرة لأن سطحها أملس مستوٍ عموماً. أما جزيرة سردي ففيها بعض آبار للمياه العذبة، ولكن الجزيرة - للأسف - تفتقرُ إلى المرسى الجيد. تمتد من ساحل هذه الجزيرة لمسافة ربع ميل سلسلة صخور مرجانية غاطسة يصل عمق الماء عندها إلى ثماني عشرة قامة، ولكنها في امتدادها تجاه الساحل سرعان ما تتحول إلى مجموعة ضحضاحات، ما يجعل الرسوّ في هذه المنطقة المغلقة غير آمن. ويشير هوايتلوك إلى وجود آثار مدينة دارسة في هذه الجزيرة، إضافة إلى مبنى أو مبنيين لا يزالان يقفان يتحديان الزمن. وينتهي إلى القول بأن السمّاكين يأتون إلى هذه الجزيرة لنشر أسماكهم الوفيرة الكميات تحت الشمس الحارقة لتجفيفها.

يستطرد هوايتلوك فيحدث عن التكوين الجيولوجي لهذه الجزر، فيقول إن هناك شكلاً مشتركاً لهذه الجزر، فهي تتكوّن من الصخر البركاني والجص والغرانيت والحجر الرملي والكحل وخام الحديد، إضافة إلى التراب. ولا ريب في أن تثير أشكال تلال هذه الجزر الغريبة المختلفة بما تعكسه ألوانها المزركشة في نفس من يتأملها من البعيد إحساساً بالسحر والجمال. ويوصي هوايتلوك بإجراء مسح علمي لجيولوجية هذه الجزر، ويعبر عن اعتقاده بأن هذه الدراسة ستكشف عن الكثير من المعلومات الجديدة.

ترسو قوارب الصيد حين تخرج إلى السواحل في مواقع مختلفة الأعماق تتراوح بين خمس وست عشرة قامة. وحين يبدأ العمل، يجعل الرجال أنفسهم في مجموعتين غير متمايزتين، فالغواصون العرب كلهم في أعمال الغوص سواء، رغم أنهم يعدون العمل في الغوص من أشقّ الأعمال. تبقى مجموعة من المجموعتين على ظهر القارب لجرّ الغواصين من المجموعة الأخرى إلى خارج الماء وتسلّم المحار منهم، أما المجموعة الأخرى التي هي مجموعة الغاصة فيخلعون عنهم ملابسهم ويربطون إلى أقدامهم أثقالاً من الحجارة، ويربطهم زملاؤهم بحبل إلى حافة القارب. ينزل الغواص إلى القاع ممسكاً ذلك الحبل بيده ليشدّه لإشعار زملائه في القارب لإخراجه من الماء بعد أن يجمع في السلة التي حملها معه في نزوله إلى القاع حوالى سبع أو ثماني محارات، وسرعان ما يستجيب له الرفاق بأقصى سرعة ممكنة. يستعمل الغواص قطعة

من قرن حيوان يغلق بها فتحتي منخريه وذلك لكي يمنع الماء من الدخول إلى خياشيمه إضافة إلى أنها تمكنه من أن يحتبس أكبر قدر من الهواء في صدره. وعادة ما تكون هذه العظمة في حجم سدادة الفلّين، ويجعلون في وسط أحد طرفيها حزّاً فتشبه في شكلها الرقم V ليمكنهم تثبيتها على الأنف بنحو جيد.

تستغرق المدّة التي يقضيها الغوّاص داخل الماء حوالى أربعين ثانية. ويذهب هوايتلوك إلى القول إنه خلال مراقبته لهذا العمل لم يعرف أن أياً من الغواصين ظلّ تحت الماء لأكثر من دقيقة واحدة. وعندما يجر الغواص إلى سطح البحر يمسك بحافة القارب ليستريح ويسترد أنفاسه قبل أن يندفع إلى الأعماق مرّة أخرى. ويبقى هذا هو دأب الغواصين يتبادلون نوبات الغطس حتى تمتلئ مراكبهم بالمحار، فتتجه المجموعة كلها إلى إحدى الجزر ويربطون قواربهم عند جانب الجزيرة المحجوب عن هبوب الرياح، ثم يفرغونها مما فيها من محار، وينزلون عنها المجاذيف والأشرعة يجعلونها خياماً تقيهم لفح الهجير القاسي وتوهج الرمال نهاراً. ويخبر هوايتلوك أن المساحين كانوا يقصدون هذه الجزر ويشترون من الغواصين محاراً لم يجر فتحه لاستكشاف حظوظهم. وكان الغواصون يبيعونهم، من دون تردد، مئة محارة بريالين، ويعبر عن اقتناع بأن هذا الثمن يُعدّ معقولاً جداً، لأن عائد البيع مشكوك فيه. فإذا حدث أن ظفر المساحون بعد فتحهم المحار بشيء من اللؤلؤ، فما كانوا يظفرون من مجموع مئة محارة بأكثر من لؤلؤتين أو ثلاث لآلئ صغيرة تساوي الواحدة منها ريالاً واحداً. ويخبر أن الغواصين يستخدمون المطواة لفتح المحار، ويؤدون هذا العمل بسرعة فائقة نتيجة للخبرة التي اكتسبوها بالممارسة. وعادة ما تكون اللؤلؤة ملتصقة بالجزء الغضروفي أو الجزء الصلب من الصدفة.

يعيش الغواصون في فترة الغوص على التمر والسمك، والأخير متوافر وشهي، وإذا حدث أن تلقوا منا حفنات من الأرز يضيفونها إلى وجباتهم، فإنهم يقابلون هذا الكرم بالشكر، ولن يبخلوا في المقابل علينا بأي معلومة نستفسر عنها في مجال الغوص. وقد سألت بعضهم ذات مرّة عن حدّة المخاطر التي يلاقونها من الحيتان أثناء الغوص.

يلاحظ هوايتلوك كثرة الحيتان في المنطقة، إلا أن العرب أخبروه بأنهم يرون الأخطار التي تتهددهم من "أبو منشار" أكبر من التي تصادفهم من الحيتان، وقد شهد العديد منهم هذا الوحش وهو يقطع بعض رفاقهم إلى جزءين. ويمضي هوايتلوك ليقول إن العرب يعترفون بأن الغوص متلف للصحة تماماً، ويلاحظ أنهم صادقون في ما ذهبوا إليه حكماً بالأثر الذي يتركه الغوص على أجسادهم، فغالباً ما يكون الغواص نحيفاً، ويعاني دائماً من التهاب العينين الذي يعالجونه بالاكتحال، كما يلاحظ أيضاً أن الكحل الذي يستعمله الرجال والنساء متوافر لديهم دائماً يحتفظون به في علب صفيح مذهّبة. أما المرود فهو عبارة عن قطعة صغيرة من الصدف يجعلون الكحل في طرف من أطرافها ويمرّرونها على الجزء الداخلي من الجفون.

يسترسل هوايتلوك فيحدث عن المبالغ التي يتحصل عليها الشيوخ من الغوص، فيقول إن حجم القارب وعدد العاملين عليه يحدد مقدار الرسوم التي يقع على القوارب أن تؤديها إلى شيخ المنطقة التي تتبعها، ويتراوح الرسم بين ريال وريالين. ويخبر أن البحارة لا يتلقون أجوراً محددة، بل يحصلون على قسمة معينة من الدخل تحسب بعد حسم التكاليف العينية التي يجب على البحار دفعها – على ضوء خطورة العمل الذي يقوم به ومقدار خبرته في عمليات الغوص. ويشتري التجار الهنود الحصّة الأكبر من اللؤلؤ، التي تصل إلى ثلاثة أرباع المحصول يصدرونه إلى الهند، ويذهب الربع الباقي إلى فارس وشبه الجزيرة العربية وإلى تركيا أيضاً.

ينتهي هوايتلوك إلى الحديث عن مشاعر العداء التي تسود قبائل الخليج نتيجة إحن وثارات تليدة وطارفة، ويرى أن اجتماعهم في موسم الغوص على صعيد واحد على أي جزيرة من تلك الجزر التي يقصدونها لفتح المحار قد يؤدي إلى شجار يقود إلى انفلات الأمن. ويُوصي هوايتلوك بضرورة توظيف سفينتين حربيتين في سواحل صيد اللؤلؤ لمنع الاحتكاك بين القبائل والقيام بفرض النظام واستتباب الأمن في تلك المناطق. وبهذه التوصية التي تطلب إلى البريطانيين توظيف قوّتهم لحماية العرب، فوق مياههم، بعضهم من بعض، ينتهي هذا التقرير.

فهرس الأعلام

ن

ه

و

ي

فهرس الأماكن

ت

ج

ح

خ

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

بعد طرد المسلمين من الأندلس أرسلت الدول الأوروبية تباعاً رحّالة إلى الشرق لاستكشاف دروبه التجارية وتقصّي أحواله السياسية والاجتماعية والتعرّف إلى الإسلام، وذلك تمهيداً لحركة الاستعمار.

عمل بعض هؤلاء الرحالة على بعث الفكر القومي في شبه الجزيرة العربية ليعارضوا به الرابطة الإسلامية، كما عمل بعضهم على بث التنصير السياسي والثقافة الغربية تسهيلاً للاستثمارات والامتيازات النفطية بعدئذ.

صنّف هؤلاء الرحالة الذين تخرّج معظمهم في مدارس كهنوتية أو عسكرية كتباً تناولوا فيها أخبار رحلاتهم بشكل يمازج بين الحقيقة والخيال، مصوّرين السكان شعباً متوحشاً فاسداً جنسياً، بدائيا لا يخلو من نبل همجي.

يخلص هذا الكتاب إلى أن أدب الرحلة الغربية قام على أسس صليبية استعمارية عنصرية عُنيت بتوجيه الرأي العام الغربي لتحقيق أهداف وغايات بعيدة عن مصالح المنطقة وشعوبها.

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم باحث وأستاذ جامعي سوداني، اهتمّ بدراسة تاريخ منطقة الخليج. له سلسلة من الدراسات الوثائقية في مجال تاريخ الخليج والجزيرة العربية. صدر له عن دار الساقي «أمراء وغزاة»، «صراع الأمراء»، «نجديون وراء الحدود»، كما صدرت ترجمته العربية لكتاب «تاريخ عمان» لمؤلفه جيمس ريموند ولستد.




ISBN 978-1-85516-851-0